

مركز دراسات الدكتوراه: "اللغات والتراث والتهيئة المجالية"
تكوين الدكتوراه: التاريخ والتراث
محور: التاريخ
مختبر: العلاقات الثقافية المغربية المتوسطة

أطروحة لنيل الدكتوراه في الآداب والعلوم الإنسانية في موضوع:

الجماعة اليهودية بمدينة مكناس على عهد الحماية الفرنسية

1912–1956

بين ديناميكي الترقى والتباعد

الأستاذ المشرف: د. محمد حاتمي

إعداد الطالب الباحث: رشيد دوناس

رقم التسجيل: 235CED/14

تاريخ المناقشة : 2021/06/09

لجنة المناقشة:

- الدكتور: محمد بوكبوط (كلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس فاس) / رئيسا.
- الدكتور: فاطمة نافع (كلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس فاس) / عضوا.
- الدكتور: جمال الحيمر (كلية الآداب والعلوم الإنسانية مكناس) / عضوا.
- الدكتور: محمد حاتمي (كلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس فاس) / مشرفا.

السنة الجامعية: 2020–2021

شكر وامتنان

يحثني واجب العرفان أن أتقدم بجزيل الشكر إلى جميع أساتذتي الأفاضل الذين علموني طيلة مسيرتي التعليمية، وما أزال أنهل من معين علمهم وتوجيهاتهم، وأخص بالذكر أستاذي الدكتور محمد حاتمي الذي أوحى إليّ بالاتجاه إلى مثل هذا الموضوع، وقبل الإشراف على هذه الأطروحة، وبذل في رعايتها، وتعهدها جهدا ووقتا، وأحسن معاملتي، وصبر على تقصيري، والتمس لي العذر فيه.

لا يفوتني أن أتوجه بخالص الشكر وصادق المشاعر وعميقها لكل من يسر لي مسلكا أو قدم لي عوناً في كل مرحلة من مراحلها، وأخص بالذكر: والدي الراحل الذي بذل تضحيات كثيرة في سبيل إتمامي لمساري الدراسي. وزوجتي التي أخذت من وقتها، وقصّرت في حقها، فلها مني كل الحب والتقدير والاحترام.

إني مدين أيضا لكل من ساعدني في إنجاز هذا العمل، وناقش معي ما تضمنه من مقترحات وأفكار واجتهادات، وأستسمح أن أستحضر من بينهم:

أصدقائي وزملائي الذين أعانوني في هذا البحث كل حسب وقته وطاقته: وأخص بالشكر صديقي الأستاذ جمال أبرنوص الذي قبل، بدمثة خلق ورحابة صدر، قراءة هذه الأطروحة، فاحصا لغتها ومدققا نظره في ما احتوته من الأساليب والعبارات، حريصا على تنبيهي إلى ما اعتورها من هنات الإملائية والتعبير. كما أخص بالشكر وعظيم الامتنان صديقي ورفيقي الأستاذ محمد اليوسفي الذي جمعني به رفقة البحث، وهموم التحصيل العلمي طيلة السنوات الست من عمر هذه الأطروحة، كعهدي به، سخيا بملاحظاته وتوجيهاته واقتراحاته. كما أخص بالشكر الجزيل السيد محمد العود الذي أمدني بالعديد من المراجع واضعا مكتبته رهن إشارتي. كما أتوجه بجزيل شكري إلى الأستاذة حسناء الخطابي التي لم تبخل عليّ هي الأخرى في تقديم المساعدة كلما احتجت إليها. وهي مناسبة أغتنمها لتقديم شكري الجزيل للصديقين رشيد الزاهيدي وعبد المجيد بنحمادي اللذين ساعداني كثيرا في الجانب التقني من هذه الأطروحة، إذ بفضلهما أخذت الأطروحة الصيغة النهائية في طريقها إلى الطبع.

ينبغي أن أستحضر بكثير من الامتنان أيضا كل النقاشات الثرية في موضوع هذه الدراسة مع الأصدقاء المنخرطين في أفق البحث الأكاديمي: عيسى بوسيف، عبد الرزاق العمري، عبد المجيد بنحمادي، عمر بلقاسم، محمد اليوسفي، رشيد الزاهيدي، جمال أبرنوص، عبد الإله لعرج... ولا يفوتني أن أعبر عن عظيم امتناني للأستاذ لحسن أوري الذي لم يخل علي بنصائحه القيمة طيلة مدة البحث.

كما أتقدم بجزيل شكري إلى موظفي الخزانات الوطنية وأخص منهم موظفي الخزانة العامة بالرباط، وموظفي خزانة مكتبة آل سعود بالدار البيضاء، وأطر وموظفي مؤسسة أرشيف المغرب. شكرا لكل من ذكرتهم، ولكل من سهوت عن ذكرهم مهما صغرت مساهماتهم. شكرا للذين حفزوني كلما أصابني الإجهاد، أوتسلل إلي التقصير. وللذين ألهموني طاقة العمل، ودلوني على معين الإرادة التي واجهت بفضلها مشاق البحث والدراسة. شكرا للجميع على ما أسدوه إلي، حتى وصلت بهذا العمل إلى نهايته. وقبل أن أسدل ستار هذه الكلمة أرجو أن تتحقق في هذا العمل بعض الفائدة، وأن يكون لبنة مناسبة في حقل الدراسات التاريخية، في حدود الأفق الأكاديمي الذي أتاحت الظروف والإمكانات التاريخية بالمعنى العام (المادية والمعرفية والمنهجية...). كما آمل أن يستدرج الباحثين إلى ساحة الجدل النقدي؛ لأن منتهى رهاناته أن يكون "بداية المجتهد ونهاية المقتصد".

اختصارات

ANR : Archives Nationales de Rabat.
AI : L'avenir Illustré.
BO : Bulletin Officiel.
CHEAM : Centre des Hautes Etudes en Administration Musulmane.
ORT : Organisation de la Réhabilitation par le Travail.
OSE : Œuvre de Secours aux Enfants.
AIU : Archives de l'Alliance Israélite Universelle.
BIM : Bulletin d'Information du Maroc.
VC : La Voix des Communautés.
DAF : Direction des Affaires Politiques.
SG : Secrétariat Général.
BC : Bureau de Commandement.
CM : Comité Municipal.
BEM : Bulletin Economique du Maroc.
BEPM : Bulletin de l'Enseignement Public au Maroc.
AIU : Alliance Israélite Universelle.
PV : Procès Verbal.
UM : Union Marocaine.

لائحة الأسماء العبرية المستعملة في الأطروحة

البيعة: محل تعبُّد اليهود.
الكاشير: الأكل الحلال عند اليهود.
الياشفات: التعليم الديني اليهودي العالي المخصص لتعميق المعرفة بالتلمود.
الحدريم: المدرسة اليهودية الأولية للتعليم الديني.
الديانيم: القضاة اليهود.
النكيد: المرادف العبري لشيخ اليهود.
العلياه: جمع عليوت، وتعني هذه الكلمة في اللسان العبري الحج إلى القدس، وتدل في الأدبيات الصهيونية على الهجرة إلى بلاد صهيون لتأسيس الدولة العبرية.
الهالاخاه: تعني الشريعة اليهودية، وهي مجموع القوانين والتقاليد والإرشادات الدينية الواجبة على من يتمسك بالديانة اليهودية.
تقنوت: هي الفتاوى الجماعية التي يصدرها ويُقرّها الحاخامات لمصلحة الفرد أو الجماعة.
القينوت: قصائد الرثاء اليهودية.
كادима: المؤسسات اليهودية التي تكلفت بتهجير اليهود إلى فلسطين.
الشليحيم: المبعوثون الإسرائيليون المكلفون بجمع التبرعات والمساعدات.

مقدمة عامة

يفرض الانتماء إلى بنيات البحث الجامعي حزمة قيود وضوابط توجه الطلبة الباحثين إلى اختراق آفاق بحثية دون أخرى، كما تلزمهم باستدعاء عتاد نظري ومنهجي دون غيره، سيرا على هدي ما تعلنه مشاريع الاعتماد البحثي في هذا المضمار من غايات وأطر وتحديات. غير أن هذا القول لا يفيدُ افتقاد الباحث إلى هامش مناورة يتيح له تعيين موضوع من ضمن قائمة مواضيع متاحة أو مفترضة، أو لنقل إن ضيق مساحة الاختيار لا تنزع حدا ملائما من الرغبة والقصدية في علاقة الباحث بموضوعه، وإن تعلقتا بخبرة شخصية مدركة أو غير مدركة.

يجدر أن أقول في هذا الصدد إن قراءتي، بالصدفة أيام كنت تلميذا بالمرحلة الثانوية، كتاب "إسرائيل الصهيونية السياسية" لمؤلفه روجي جارودي سنة 1995، قد زرعت في نفسي بذرة الدهشة التي تحولت بعد حين إلى قصدية في البحث والتقصي. لقد استفز الكتاب تفكيري الغصّ، ودفعني إلى مطالعة كل ما كان يقع تحت ناظري من المكتوب الذي تعرّض لموضوع اليهود؛ تاريخا وثقافة، لاسيما وقد تزامن ذلك مع الطفرة العربية المعلومة في مجال القنوات الإعلامية، والتي كانت تبث، آنذاك يوميا، غيضا من التغطيات والسجلات التي تتناول الصراع العربي الإسرائيلي.

لا بأس أن أقول إن جنوحي إلى التحري في هذا الموضوع قد زاد كثيرا، خلال المرحلة ذاتها، عندما اكتشفت أن المغرب قد عرف، منذ حوالي ألفي سنة، وجودا فاعلا ومؤثرا للعنصر اليهودي في تركيبته الاجتماعية والثقافية، وهو ما كان من الصعب الوقوف عليه في ظل ما أحيط بهذا الحضور من التغافل المؤسسي، بدليل ندرة الإشارات إلى المكون العبري- اليهودي في مضامين المقررات والبرامج التربوية ومحتويات العروض الإعلامية، وقلة مبادرات الاشتغال عليه ضمن الأعمال الإبداعية المختلفة؛ سينمائية أو مسرحية أو تشكيلية أو أدبية أو غيرها.

أما بعد ولوجي الجامعة، فقد شكلت شعبة التاريخ حاضنا معرفيا وأكاديميا ملائما للتفكير العلمي في الموضوع، وهكذا أتيح لي، بفضل ما اكتسبته من المدخرات المعرفية والمنهجية، أن أقارب الوجود اليهودي بالمغرب، وأن أنجز سنة 2003 بحثا لنيل دبلوم الدراسات العليا المعمقة في موضوع: **يهود مدينة مكناس على عهد الحماية 1912-1956***، انتهيت فيه إلى نتائج وخلاصات بدت، في تقديري، مدعاة لتمحيص أشدّ، ووقفتُ فيه على مستغلاقات بحثية تستدعي جهدا كبيرا، وتقتضي وعاء زمنيا مديدا، لذا قرّر قراري على تنمية مسيرة البحث الأكاديمي في المضمار

* رشيد دوناس، **يهود مكناس على عهد الحماية 1912-1956**، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا المعمقة، إشراف : حسن الشافعي العلوي، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ظهر المهرز-فاس، الموسم الجامعي: 2002-2003.

نفسه، وإن عمدت إلى فتح جبهات جديدة تليق بما صار متاحا أمامي من جودة الإشراف وكفاية المادة المصدرية والزاد الوثائقي. في هذا الخضم، إذا، وبموجب هذه الحيثيات الذاتية والموضوعية جاء اختياري موضوع هذه الأطروحة الجامعية: "الجماعة اليهودية بمدينة مكناس على عهد الحماية الفرنسية 1912-1956: بين ديناميتي الترقى والتباعد".

لقد أنجزت دراسات هامة في موضوع المغاربة اليهود، خاصة خلال العقود الثلاثة الأخيرة¹، بعدما كان هذا الموضوع "مهملا" من طرف الباحثين في الجامعة المغربية طيلة الثلاثين سنة التي تلت الاستقلال². وحتى ما أنجز منذ الاستقلال من دراسات وأطروحات فقد ظل محكوما بأفق الرد على التصورات والأحكام الأوروبية حول المغرب، وهي تصورات وأحكام تتضمن مواقف ورؤى مسبقة جاهزة اشتملت على عدد من الصور النمطية حول المجتمع المغربي والدولة المغربية، خصوصا ما تعلق بتاريخ الجماعات اليهودية وعلاقتهم بالأغلبية المسلمة³. وحتى المراجعات التي تمت لتقويم هذه التصورات والأحكام في إطار إعادة قراءة الإنتاج الكولونيالي، استثني منه ما يتصل بموضوع اليهود، بحيث انتعشت في أواخر الخمسينيات نفس الأحكام التي اختزلت حياة اليهود في أطروحة الاضطهاد، مع مع رافق هذا الأمر من تضخيم سلبيات أوضاع هذه الجماعة في الديار الإسلامية التي كان فيها اليهود محكومين بقانون الذمة⁴. ومن أهم هذه الدراسات التي لم تسلم من أحكام القيمة نذكر على سبيل المثال لا الحصر ما يلي:

J. Goulven : « Les Mellahs de Rabat-Salé » 1927.

L. Brunot, Malka : « Textes judéo arabes de Fès » 1939.

J. Benech : « Essai d'explication d'un Mellah », 1940.

¹ نذكر منها على الخصوص: محمد كنيبي، اليهود والمسلمون في المغرب 1859-1948، منشورات كلية والعلوم الإنسانية جامعة محمد الخامس الرباط، 1994؛ محمد كنيبي، يهود المغرب 1912-1948. ترجمة إدريس بنسعيد، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، سلسلة نصوص وأعمال مترجمة رقم 8، 1998؛ عبد الله لغمايد، يهود منطقة سوس 1860-1960: المجال والتمثيلات السياسية 1860-1960، أطروحة لنيل الدكتوراه في التاريخ (مرقونة)، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 2002؛ محمد بوراس، الأحزاب الوطنية واليهود المغاربة بين تطور الأوضاع الداخلية وأصداء القضية الفلسطينية 1934-1967، أطروحة لنيل الدكتوراه في التاريخ (مرقونة)، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 2004؛ جليلة عفيف، يهود صفرو على عهد الحماية الفرنسية 1912-1956، أطروحة لنيل الدكتوراه في التاريخ (مرقونة)، كلية الآداب ظهر المهرز، فاس، 2004؛ محمد حاتمي، الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية وهران المغرب المستقل، 1961-1948، أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في الآداب، تخصص التاريخ (مرقونة)، نوقشت بكلية الآداب والعلوم الإنسانية (فاس، سايس)، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس، 2007؛ الحاج محمد الناسك، الحياة الثقافية والاجتماعية للطائفة اليهودية بالدار البيضاء في عهد الحماية، أطروحة لنيل الدكتوراه في التاريخ (مرقونة) نوقشت بكلية الآداب و جدة، جامعة محمد الأول، 2013.

² محمد حاتمي، الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية وهران المغرب المستقل، 1961-1948، أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في الآداب، تخصص التاريخ، نوقشت بكلية الآداب والعلوم الإنسانية (فاس، سايس)، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس، 2007، ص. 24. ³ في هذا الصدد يقول محمد كنيبي موضحا: "هناك عوامل أثرت -ولاشك- في الملاحظات والاستنتاجات التي تركها الأوروبيون، ومن بينها السياق العام الذي أنجز فيه هؤلاء" استطلاعاتهم في المغرب" أو "مهماتهم في الوسط القبلي" على حد تعبير كل من شارل دو فوكو وإدموند دوتي في عنواني كتابيهما الشهيرين. كما أن إقامة هؤلاء الأوروبيين في البلاد تزامنت مع ظرفيات بالغة الصعوبة نظرا لما عرفته من جفاف ومجاعة وأوبئة وتمرد وانعدام للأمن. وانضافت إلى ذلك الأحكام المسبقة التي كان يحملها أولئك المؤلفون، والمصاعب الشخصية التي اعترضتهم خلال زيارتهم للمغرب. وكلها عوامل سهمت في تحوير الوقائع في تلك الشهادات."

محمد كنيبي، يهود المغرب 1912-1948، ترجمة إدريس بنسعيد، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، سلسلة نصوص وأعمال مترجمة رقم 8، 1998، ص. 18. ⁴ نفسه، ص. 18.

E. Malka : « Essai d'ethnographie traditionnelle des Mellahs », 1949.

P. Flamand : « Un Mellah en pays berbère : Demnat » 1952.

وبما أن المؤرخين المغاربة في هذه الفترة كانوا "واعين" بأن الوقت لا يزال مبكرا لطرق باب التاريخ الاجتماعي الذي نادى به مدرسة الحوليات، فإنهم رأوا أن إنجاز تاريخ شمولي للبلاد يعد أمرا مؤجلا ومتعذرا قبل الانتهاء من مهمة "تصفية الحساب مع التاريخ الكولونيالي". وقد تزامن هذا الاختيار مع حرص القوى السياسية بالمغرب، سواء كانت داخل الحكم أو خارجه، على دعم وإذكاء الحس الوطني وترسيخ الهوية الوطنية، لذلك فقد كان طبيعيا أن تكون الأقلام في ذلك الوقت موجهة نحو تخليد الأجداد والتركيز على المظاهر التي تدعم وحدة الأمة وتقوي الدولة الوطنية الفتية، وهو ما تشهد عليه بعض الكتابات التي أرست هذا التقليد مبكرا حتى قبل الاستقلال¹ وبعده، ومن بين الأسماء التي مثلت هذا الاتجاه نذكر مثلا: جرمان عياش، ومحمد المنوني، وعبد الوهاب بن منصور. وهذا النوع من الكتابة التاريخية لم يكن هو التاريخ الذي تتوق إليه هم المؤرخين الشباب لاحقا، والذين صار اهتمامهم يتعدى التغني بالوجه الزاهي والمشرق للماضي، بقدر ما أصبح شغلهم الشاغل هو الإنصات للحدث التاريخي بشكل موضوعي بعيدا عن أية حساسية دينية كانت أو قومية أو إيديولوجية.

إن "عدم الالتزام" بمبدأ "الموضوعية" في كتابة تاريخ المغرب عند كلا الطرفين: الطرف الأجنبي الذي كان مسكونا بهواجس ذاتية، والجيل الأول من المؤرخين المغاربة الذين كانوا بدورهم مسكونين بهاجس كتابة التاريخ المعكوس في إطار رد الفعل، أمر ساهم في عدم إيلاء وضع الجماعات اليهودية داخل المجتمع المغربي وعلاقتها مع محيطها الأهمية اللازمة. وهناك سبب آخر ينضاف لهذين العاملين، يعرضه عمر بوم بقوله "إن الاهتمام بمكانة الأقليات الدينية واليهود على وجه الخصوص ظل متجاهلا إلى حد كبير في الكتابات التاريخية، وخاصة بالنسبة لعلماء الأنثروبولوجيا المنحدرين من أصول مسلمة، ذلك أن البحوث المتعلقة بيهود الشرق الأوسط وبكل ما يتصل بحياة اليهود اعتبرت في نطاق الطابوهات، أي المحرمات الممنوعة. وأسباب اتخاذ مثل هذا الموقف واضحة، إذ يمكن وصف الباحث الذي ينكب على إجراء البحوث حول مواضيع اليهود في العالم العربي بالمؤيد للصهيونية والمنافح عنها، مما قد يشكل وصمة عار لا يمكن أن تخلو من عواقب مهنية وشخصية غير محمودة للمعني بأمورها"². وفي نفس السياق نورد شهادة لمحمد حاتمي بخصوص الحساسية المفرطة التي ما يزال يتعاطى بها بعض الباحثين مع موضوع

¹ انظر مثلا كتاب: حزب الاستقلال، المغرب الأقصى، مراکش قبل الحماية عهد الحماية إفلاس الحماية، مكتب المستندات والأنباء (الطبعة العربية)، مطبعة دار الطباعة الحديثة، 1951. بحيث يضم عناوين من قبيل: مساهمة العبقريّة المغربية في الحضارة الإنسانية، المقاومة الوطنية، وجهة الاستعمار في الظروف الراهنة... بحيث اتجه محتوى الكتاب نحو تمجيد الذات وشيطنة الآخر.

² عمر بوم، يهود المغرب وحديث الذاكرة، ترجمة خالد بن الصغير، منشورات طلبة الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، الطبعة الثانية، الرباط، 2017، ص. 21.

البحث في تاريخ المغاربة اليهود، حيث يقول: "تحضري هنا صورة تلك الطالبة التي أتتني يوما بصدد نيتها في تحضير بحث عن يهود منطقة تازة. ومنذ البداية صارحتني بما تعتبره تحديات شخصية حقيقية لا بد من رفعها، إذ قالت: "إنني من عائلة محافظة، ويتوجب علي إقناع عائلتي وأصدقائي بأن الموضوع لا يمس عقيدتي ولا أخلاقي. ثم إنني أخشى أن يتهمني البعض بالتجسس لصالح إسرائيل نظرا لانشغالي بهذا الموضوع"¹.

وإدراكا مني لضرورة المساهمة في تجاوز هذا القوس الطويل من التردد في أمر الخوض في تاريخ المغاربة اليهود، وبقينا مني بحاجة هذا الموضوع إلى مرصد بحثية أكاديمية، قررت إنجاز هذا البحث مستفيدا من جرأة الأعمال التأسيسية السابقة، وفي طليعتها الدراسة التي قام بها كل من محمد كنيب (1859-1948) والتي مثلت بحق قطيعة مع "عرف" قضى ألا يهتم بمواضيع تخص اليهود المغاربة سوى مهتمون أجنب ومثقفون يهود²، علاوة على العمل القيم الذي أنجزه محمد حاتمي والذي يُعد بحق استكمالا للدراسة التي قام بها محمد كنيب.

وإيمانا مني بحاجة هذا الموضوع إلى مزيد من الدراسة والبحث مونوغرافيا عبر حصر حيز اشتغالي زمنيا في فترة الحماية 1912-1956، ومجاليا في مدينة مكناس المغربية، اقتناعا مني بأهمية الاستمرار في إنجاز دراسات مجهرية دقيقة ومركزة لا غنى عنها كأرضية تشكل منطلقا نحو كتابة تاريخ شمولي-تركيب لتاريخ الجماعات اليهودية بالمغرب، خصوصا وأنه ما زالت هناك العديد من التساؤلات التي لم تتم الإجابة عنها نظرا لقلة الدراسات المونوغرافية حول يهود المغرب خلال فترة الحماية. وبناءً عليه يأتي بحثنا هذا للمساهمة في تسليط مزيد من الضوء على موضوع تاريخ المغاربة اليهود، والذي صار يحظى باهتمام أكثر³.

¹محمد حاتمي، "الجماعات اليهودية المغربية خلال مرحلة الحماية: حصيلة الأبحاث الأكاديمية"، المغرب والزمن الراهن معطيات ومقاربات، أعمال اللقاء المنعقد بالمعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب بتاريخ 14 يوليوز 2007، تقديم محمد القبلي، تنسيق عبد الرحمان المودن، منشورات المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب، الرباط، 2013، ص. 33.

²محمد حاتمي، الجماعات اليهودية المغربية...، مرجع سابق، ص. 25.

³في هذا الصدد يوضح محمد حاتمي في معرض حديثه عن العوامل المختلفة التي دفعت لتعريب كتاب روبير أصراف قائلا: "ورابع العوامل هو ما نلاحظه من استمرارية اهتمام الرأي العام المغربي بالشأن اليهودي المغربي. ودليلنا في ذلك دأب العديد من الأسبوعيات الصحافية على تخصيص صفحاتها الأولى لمواضيع تهم التاريخ والراهن اليهودي المغربي. واللافت هو حجم المبيعات حين تخصيص ملفات عن اليهود المغاربة لا يعرف تدنيا، بل أن بعض الأعداد حققت مبيعات قياسية. وأهم ما يمكن استخلاصه من هذا المعطى هو أن الشأن اليهودي المغربي ما يزال يثير اهتمام المغاربة، فتجاذبهم حين التطرق له مشاعر متناقضة تتأرجح بين الفخر بالماضي المجيد حين كان اليهود يعيشون بين ظهرائهم، واستنكار التطرف الذي بات يطبع هؤلاء اليهود وذريتهم حين انتقلوا إلى إسرائيل". روبير أصراف، يهود المغرب عبر العالم الهجرة والهوية المستعادة، تعريب محمد حاتمي، دار أبي رقرق للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، الرباط، 2009، ص. 7.

أهداف البحث وسؤال المنهج

يتعلق الأمر أساسا بإنجاز دراسة تاريخية تتمحور إشكالياتها المركزية حول تتبع ورصد العوامل السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية التي أدت منذ أواخر القرن التاسع عشر مرورا بمرحلة الحماية إلى إحداث تحولات بنيوية متلاحقة تدريجيا، مست عمق الجماعة اليهودية بمدينة مكناس على عهد الحماية ما بين 1912 و1956.

وقد سبق هذه الفترة تغلغل وتعدد أشكال التدخل الأوربي في شؤون المغرب عبر مسلسل من الاختراقات التي سعت إلى كسب أتباع داخل الملاحات عبر توزيع بطاقات الحماية القنصلية والتجنيس التي استفاد منها أيضا عدد من المغاربة المسلمين. كما أن شبكة مدارس الرابطة الإسرائيلية التي تم إحداثها بالمغرب منذ 1862 ساهمت، بدورها وبقوة، في تعزيز حالة الاستقطاب في صفوف المغاربة اليهود الذين تلقوا تعليما عصريا بتلك المدارس، بشكل أدى إلى تدشين مسلسل تفكك البنيات السوسيو-اقتصادية للبلاد. هذه التحولات التي اخترقت المجتمع اليهودي لم يكن أمامها إلا أن تؤدي إلى تشكل رهانات جديدة في صفوف أفراد الجماعة اليهودية.

إن الهدف الرئيس من عملنا هذا هو تتبع مسلسل التحولات التي دشت منذ أواخر القرن التاسع عشر عموما والتي تعززت بمسلسل التحديث بالخصوص منذ أن تم تأسيس أول مدرسة عصرية تابعة للرابطة الإسرائيلية بملاح مدينة مكناس سنة 1911. وهو تحديث تم في "هدوء" وعلى هامش الغالبية المسلمة التي لم تكن مستوعبة ولا مستفيدة من هذه الدينامية التي هزت وعي الشبيبة اليهودية التي ستكون قطب الرحي في قيادة هذه الروح الجديدة التي أصبحت تسري في عقول أجيال متعاقبة ربطت "خلاصها" بخيار الرهان على الفرنسيين في البداية، خصوصا وأن الأمل ظل يحدهم في الحصول على الجنسية الفرنسية بشكل جماعي على غرار إخوانهم في الدين بالجزائر الذين استفادوا من ذلك بمقتضى مرسوم كريميو الذي صدر لفائدتهم سنة 1870.

إن فهم العوامل المتحركة في هذا الرهان على الخلاص عبر الارتباط بالفرنسيين، يفرض على الباحث أن يظل في منأى عن السقوط في استخلاص النتائج السريعة والمتهافنة التي تتجاهل دور البنيات المتحركة في اختيارات الأفراد والجماعات سيما إذا كان الأمر يتعلق بالأقليات الدينية الموشومة في ذاكرتها التاريخية بـ "كوجيطو مجروح"¹

¹استعرنا هذا المفهوم من كتاب: فتحي المسكيني، الكوجيطو المجروح أسئلة الهوية في الفلسفة المعاصرة، مسائل فلسفية، منشورات الاختلاف. ورغم توظيف فتحي المسكيني لهذا المفهوم في مقام نظري-فلسفي قد يبدو مغابرا لمقام البحث التاريخي، إلا أننا نلتقي معه في ما يطرحه من أسئلة إنسانية كونية تتقاطع فيها الأبحاث والتخصصات مادام موضوعها الرئيس هو الإنسان، ويتعلق الأمر بقضايا الهوية والغير والذات والوعي والزمن والروح التاريخية... التي تشكل المحرك الأساسي للأفراد والجماعات في علاقاتهم مع بعضهم البعض من جهة، أو في علاقاتهم مع غيرهم من جهة أخرى.

ووعي موشوم بهاجس "متلازمة المطرود" كما هو الشأن بالنسبة للأقلية اليهودية في علاقتها بماضيها، وبناء عليه، سنسعى إلى بيان أن هذا الاختيار لم يكن فعلاً إرادياً بقدر ما كان نتيجة وتحصيل حاصل للسياق التاريخي الذي عاشه المغرب منذ القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، والذي تميز بالتخلف وتردي الأوضاع العامة وهي العوامل التي شكلت قوة الدفع الأولى في دينامية التباعد في العلاقة مع باقي مكونات المجتمع الأهلي المسلم وبين اليهود أنفسهم، خصوصاً إذا استحضرنّا أن الشروط السياسية للمغرب في أوائل القرن العشرين لم تستطع أن ترسخ مبادئ المواطنة خارج قانون الذمة المستوحى من فقه الشريعة الإسلامية. وهنا نتساءل: هل كان الرهان على الفرنسيين لتكرار السيناريو الجزائري وتحقيق وضع وجودي أفضل في مستوى انتظارات هذه الجماعة؟

إن استنطاق الوثائق والمصادر والمراجع المتاحة هو ما ساعدنا في فهم محدودية هذا الرهان، ذلك أن المخاض المركب للتجربة الوجودية لهذه الأقلية منذ أواخر القرن التاسع مروراً بما منحهم التعليم العصري من قيم حديثة، وما راكموه من "مكاسب" سوسيو-اقتصادية ولدت لديهم طموحات أكبر، فضلاً عن أفكار المشروع الخلاصي للحركة الصهيونية الذي تمكن، بالخصوص بعد الحرب العالمية الثانية، من خلق اضطراب لدى شريحة مهمة منهم أدى في النهاية إلى استقطاب غالبيتهم على مراحل إلى خيار الهجرة، كلها عوامل متداخلة خلقت لديهم في النهاية تطلعات لم تكن لتتحقق بالنسبة للغالبية اليهودية إلا خارج المغرب الذي ظلوا يعتقدون حتى السنوات الأخيرة من الحماية أنه ما يزال بلداً يحدد هويته بالانتماء للعروبة والإسلام، رغم تطمينات السلطان وقادة الحركة الوطنية إياهم في مستقبل أفضل تحكمه المساواة في الحقوق والواجبات. هذا ما سنسعى إلى بسطه وبيانه مع الحرص على مبدأ الإنصاف والموضوعية حتى لا نسقط في منزلق مسايرة أحكام تروم إبقاء الخلاصات في المنزلة بين المنزلتين بتعبير المعتزلة.

وهو ما سنقاربه في إطار إشكالية مركزية تتمثل في رصد ديناميتي الترقّي والتباعد، والتي تتجزأ إلى أسئلة فرعية نلخص أبرزها فيما يلي:

ما هي نتائج انفتاح الجماعة اليهودية على القوى الأوروبية منذ أواخر القرن التاسع عشر؟ كيف كان موقف أفراد هذه الجماعة من التدخل الفرنسي؟ وكيف كان موقف الفرنسيين منهم؟ ما هو حجم استفادتهم من التعليم العصري، وما هي التحولات التي أدى إليها؟ ما حجم استفادتهم في قطاع الخدمات الاجتماعية خاصة في مجال السكن والصحة؟ ما طبيعة التحولات التي مست حياتهم الاقتصادية والحرفية/المهنية؟ ما هي خصوصيات تطور الوضع القانوني والإداري لهذه الجماعة؟ وكيف تمكنت هذه الجماعة من تشكيل مجتمع مدني نشيط ومتضامن؟ وكيف كان وقع قوانين فيشي وحجمها ونتائجها على أفراد هذه الجماعة؟ وما طبيعة مواقفهم من قضية المقاومة

والحركة الوطنية ومطلب الاستقلال؟ وكيف تبلور النشاط الصهيوني في صفوف يهود مكناس، وما طبيعة تعاطيهم معه؟ وكيف ساهمت هذه العوامل المتداخلة في تعاطيهم مع خيار الهجرة وإكراه التهجير بعد فشل الخيار الاندماجي؟

يسعى بحثنا هذا إلى إنجاز دراسة مونوغرافية موضوعاتية انطلاقاً من الاعتماد على مصادر متنوعة تتسم بخصوبة في المعطيات وتتقاطع فيها مواقف متعددة ورؤى متباعدة تصل أحياناً حد التناقض فيما بينها انسجاماً مع خلفيات وتبديدات كل منها، وقد التزمنا بهذا الأمر إدراكاً منا لأهمية تعدد المصادر/ الرؤى قصد التمكن من إعداد بحث موضوعي حول الجماعة اليهودية بمكناس ينأى بنفسه عن أي منزلق نحو الذاتية وأحكام القيمة التي تسيء إلى أخلاقيات البحث العلمي وتجعله يتراوح بين خطاطتين تبسيطيتين: إحداهما تختزل اليهودي في ذلك "المرابي المحتال" وأخرى تقدمه في صورة "اليهودي المضطهد" أو "المعذب في الأرض" بتعبير فانون، والذي يوصم بالبرغماتية وغيرها من الأحكام المسبقة التي تستقي نتائجها من التركيز على الفرد لا على البنيات.

وحتى يتم تجاوز هذه المقاربة "المتهافة" في التأريخ لهذه الجماعة استوجب منا الأمر الانفتاح على روح مناهج العلوم الإنسانية (الأنثروبولوجيا، الإثنولوجيا، التاريخ المقارن، علم الاجتماع-التاريخي)... وعياً منا بأهمية التكامل المنهجي وصفاً واستنباطاً واستقراء وتحليلاً وتركيباً واستنتاجاً، استجابة لطبيعة الموضوع الذي نشتغل عليه، والذي يتميز واقعياً بالتعقيد والتركيب عبر موضوعات تتقاطع فيها القضايا والأسئلة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية. كما استفدنا مما توفره مدرسة الحوليات من إمكانيات منهجية تمكن الباحث من التأريخ من الأسفل عبر تجاوز "معبودات قبيلة المؤرخين" الثلاثة: "المعبود السياسي" الذي يحصر التاريخ في الأحداث السياسية والعسكرية، و"المعبود الفردي" الذي يتصور التاريخ تاريخاً للأفراد، و"المعبود الكرونولوجي" الذي يتيه في البحث عن الأصول وتسلسل الأحداث، واقترح مقابل ذلك، تاريخاً إشكالياً، تفسيرياً، اجتماعياً، يبحث في الجماعات والظواهر الاجتماعية والمؤسسات¹، بشكل يمكن من إسماع أصوات المهمشين في الماضي* كما يعبر عن ذلك المثل الإفريقي القائل: "طالما ليس للأسود مؤرخون، ستظل روايات الصيد تتحدث فقط عن مغامرات الصيادين"، وهي أصوات ظلت مغيبة لزمّن طويل قبل ظهور هذه المدرسة التي أرسّت تقاليد جديدة في الكتابة التاريخية بالجامعة

¹ محمد حبيدة، المدارس التاريخية برلين-السربون-استراسبورغ، من المنهج إلى التنازع، دار الأمان، الطبعة الأولى، الرباط، 2018، ص. 55.
* كان ميشلي قد عبر عن قصور الكتابة التاريخية بطريقة تنبأ بمنهج مؤرخي الحوليات. فقد وصف المنهج التاريخي بالضعف، مادياً وروحياً. مادياً لأنه يتكلم عن الاجناس ويهمل الأرض والعادات. وروحياً لأنه يهتم بالقوانين والسياسات ولا يعير اهتماماً للأفكار والطباع. أما البديل المنهجي الذي اقترحه، فقد جمع بين الاتجاهين اللذين سادا في عصره: الاتجاه السردى الحي والغنى بالصور الجمالية، والاتجاه الفلسفي وهاجسه المتمثل في فهم طبيعة الحكم وحالة المجتمع وأثر الدين. ولذلك، صوب ميشلي نظره باتجاه تاريخ الكادحين والمسحوقين اللذين عملوا بقوة وصنق من دون أن يهتم بهم أحد. إنه التاريخ من أسفل الذي ظهر قبل الأوان في كتابه "الشعب" الصادر عام 1846، والذي منح الكلمة للذين شيدوا بسوادهم فرنسا وهي تدخل عصر الآلة، وقد حرموا من القراءة والكتابة، فعاشوا نصف عيشة. ومع ذلك، كان من بين هؤلاء الكادحين أشخاص يضاهي تفكيرهم نباهة الأدباء، كهذه المرأة المسنة التي لم تقرأ في حياتها قط، ولكنها كانت تحفي قصصاً بطريقة تماثل حكي الكاتب السكتلندي والتير سكوت". نفسه، ص. 66.

المغربية، بشكل أتاح لنا الاستفادة منها في تجاوز المستوى الوصفي والإخباري نحو مستوى التفسير¹ عبر البحث في السياق الذي تحكم في "اختيارات" أفراد الجماعة اليهودية، وهي اختيارات ناتجة عن "حتميات" لم يكن من الممكن الانفلات من قبضتها، مما يجعل الباحث بعيدا عن كل البعد عن المحاكمات القيمية للأفراد ما داموا مجرد نتيجة لعلاقات القوة المسيطرة داخليا وخارجيا، وهو الدرس البليغ الذي قد نستفيده من الفيلسوفة اليهودية حنة أرندت في تناولها لقضية الضابط النازي أيجمان.

وبناء على الإشكالية المركزية وما يتفرع من أسئلة فرعية، وانسجاما مع هذه الرؤية المنهجية: يقع هذا البحث في بابين وستة فصول، تتبع مجتمعة التحولات العامة التي مست حياة الجماعة اليهودية بمدينة مكناس على عهد الحماية 1912-1956، باعتماد منطق زمني كرونولوجي تفسيري عبر الاختصار على ستة عشر محورا تفاديا لتكسير التصميم بالعديد من التفاصيل التي من شأنها أن تشوش على التسلسل الزمني لتطور الأحداث. يتناول كل واحد من هذه المحاور موضوعا محددا كما هو مبين في التصميم العام.

يتناول الباب الأول تطور الوضع الاجتماعي والاقتصادي للجماعة اليهودية، عبر الانطلاق من البحث وتبعية خلفيات تدخل القوى الأوربية بالمغرب خلال القرن التاسع عشر، والتي لم تتوانى عن استثمار واستغلال ورقة الجماعة اليهودية لتوسيع نفوذها بالبلاد كما حصل خلال نفس الفترة في العلاقة مع الإمبراطورية العثمانية²، وهو التدخل الذي لم تتردد بعض الفئات اليهودية على غرار بعض المسلمين، في الرهان عليه للحصول على بعض الامتيازات، فضلا عن الاحتماء بتلك القوى من تجاوزات رجالات المخزن خاصة وأن الوضع السياسي للمغرب أواخر القرن التاسع عشر قد شهد ضعفا على المستوى السيادي للمخزن والذي أضعف قدرته على التحكم في الإنسان والمجال

¹ "كان إميل دوركايم، في تصدير العدد الأول من المجلة السوسيولوجية عام 1896، التي واطب على قراءتها في بداية القرن العشرين جيل بأكمله من المؤرخين الشباب الذي حملوا على عاتقهم مهمة تجديد المعرفة التاريخية، قد كتب ما يلي: "لا يمكن للتاريخ أن يصير علما إلا إذا فسر، ولا يمكن للعلم أن يفسر إلا إذا قارن... والحال أن التاريخ إذا قارن لن يختلف عن علم الاجتماع. وإذا كان المؤرخ فوستيلوكلانج، صاحب أول كرسي للتاريخ الوسيط بجامعة السوربون، قد ردد مرارا كون أن السوسيولوجيا الحقيقية هي التاريخ، فإن جواب دوركايم أكد على أهمية التحليل السوسيولوجية، إذ قال: لا جدال في ذلك، شريطة أن يكتب التاريخ بطريقة سوسيولوجية. والتفسير هنا مركزي في فهم التاريخ وكتابته، لأن كل الجهود الإسطوغرافية التي شهدها القرن العشرين تمحورت حوله. فقد تبين أن التفسير التاريخ اكتشاف وإدراك وتحليل لتعدد الواقع البشري". نفسه، ص. 56.

² شكل استقطاب الأقليات الإثنية-الدينية والثقافية أحد روافد إستراتيجية الدول الأوربية تجاه الإمبراطورية العثمانية وأحد دعائم الجهود الرامية لاختزلها. ووفقا لما كانت تقتضيه هذه الإستراتيجية، عابت الدول الطامعة في اقتسام "جثة الرجل المريض" كل إمكاناتها لاجتذاب يهود ونصارى الإمبراطورية في المشرق وشبه جزيرة البلقان، ومن هذا المنطلق، استهدفت كل دولة على حدة فئات-دينية معينة وحاولت تحويل أعيانها ومجموعاتها إلى أتباع موالين لها، ومستعدين لخدمة مصالحها. [...] وبعد أن اتجهت أنظارها صوب المغرب، حاولت بعض هذه الدول استثمار تجربتها على حساب الإمبراطورية العثمانية وتوظيفها في هذا الجزء الغربي من العالم الإسلامي. وبما أن اليهود كانوا يمثلون أقلية البلاد الإثنية-الدينية غير المسلمة الوحيدة، فقد تنافست القوى الأوربية منافسة شديدة لاستقطاب أعيانها وتأمين تبعيتهم لها. ولتوطيد مواليتهم لكان لم تكف الدول المنافسة بمنح حمايتها لهم بل عملت أيضا على تجنيبهم، جاعلة منهم، بإجرائها هذا أهم مكون للفئة التي أسماها الفقهاء "فئة أهل البصير" [...] واعتمدت الحكومة الفرنسية من جهتها على الرابطة الإسرائيلية العالمية (Alliance Israélite Universelle) (باريس)، وهي الجمعية التي راهنت عليها فرنسا واعتبرت أنه في إمكانها القيام في المغرب بالدور الذي كانت الإرساليات الكاثوليكية تقوم به في الشرق لفائدة النفوذ الفرنسي". محمد كنيبي، المحميون، جامعة محمد الخامس أكادال، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة نصوص وبحوث ودراسات رقم: 47، الطبعة الأولى، منشورات باب أنفا، الرباط، 2000، ص. 258-259.

معا. وهو المسار الذي توج بفرض الحماية الفرنسية على المغرب، مما أدى إلى تطبيع النخب اليهودية مع هذا الوجود أملا في تحسن أوضاعهم، وكل أملهم أن يتكرر السيناريو الجزائري لسنة 1870م، خصوصا وأن المدارس الأولى للرابطة الإسرائيلية كانت قد هيأت النفوس والعقول لهذا الموقف، غير أن مكر التاريخ بلغة هيجل أتى بنتائج أقل من طموحات هذه الجماعة بسبب الحسابات السياسية لإدارة الحماية الفرنسية.

كما خصص هذا الباب لرصد واقع التعليم لدى هذه الجماعة، والذي عرف ثورة ثقافية مست وعي الشبيبة اليهودية التي استفادت مما قدمته لها مدرسة الرابطة بمكناس. وهو واقع أدى إلى إحداث هوة ما بين أفراد نفس الجماعة وبينها وبين عموم الغالبية المسلمة، مما نتج عنه تعميق منطلق التباعد بين من استفادوا من التعليم العصري ومن لم يسعفهم "الحظ" في ذلك. فضلا عن رصد واقع الصحة المتعلق بأفراد هذه الجماعة، وهو واقع تميز بالتردي خصوصا وأن ظروف العيش والسكن وطرق العلاج التقليدية كانت سيئة جدا، قبل أن يتحسن هذا الواقع نسبيا خلال فترة الحماية بفضل ما تم إحداثه من مرافق صحية بمدينة مكناس بالإضافة إلى الدور الذي قامت به المدرسة ومؤسسة قدماء التلاميذ في مجال التوعية والوقاية، فضلا عن استفادتهم من الأعمال الخيرية الصحية التي اشرف عليها المجتمع المدني اليهودي الذي تعزز تدخله بفضل ما تلقاه من مساعدات خارجية من طرف المنظمات اليهودية العالمية، وهو ما انعكس إيجابيا على مستوى الزيادة الديموغرافية.

كما أفرد المحور الثالث من الفصل الثاني لدراسة الظروف العامة لسكن اليهود بالملاح القديم، الذي تميز بظروف بيئية تنعدم فيه أبسط شروط السكن الصحي، وهو الأمر الذي تفاقم نحو الأسوأ مع التزايد الديموغرافي. الأمر الذي خلق حالة استنفار في صفوف نخب هذه الجماعة التي بذلت كل جهودها من إيجاد حل لهذه المعضلة التي توجت ببناء ملاح جديد، بعدما فشل خيار السكن بالمدينة الأوربية.

وفي ختام هذا الباب، تم تناول بالدراسة والتحليل الجانب الاقتصادي للجماعة اليهودية عبر التركيز على التحولات التي عرفها هذا القطاع، والتي خلخلت البنية الاقتصادية التقليدية نسبيا، بحيث ظهرت أنشطة اقتصادية جديدة انضافت للأنشطة الاقتصادية القديمة في مجالي التجارة والحرف/ المهن استجابة للحاجيات الاستهلاكية للجالية الأوروبية المهمة بهذه المدينة، بشكل مكن عددا من العناصر اليهودية من الاستفادة من هذا الوضع، خصوصا في المجال التجاري. وتجدر الإشارة إلى أن منحى الواقع الاقتصادي لهذه الفئة قد عرف طيلة فترة الحماية تذبذبا تراوح بين الصعود والهبوط، بسبب عدم استقرار الوضع الاقتصادي العام للبلاد نتيجة تداخل العوامل الداخلية والخارجية، فضلا عن المنافسة التي كانت قوية من طرف الأوربيين والمغاربة المسلمين على السواء.

أما الباب الثاني فخصص عموماً لدراسة وتحليل وتفسير منطق دينامية التباعد، الناتج عن عوامل محلية وأخرى خارجية، بين المكونين الأهليين: المسلمون واليهود، وهو ما أسس لمفترق طرق بينهما نتيجة عامل التحديث الذي عرفته الجماعة اليهودية باعتبارها نتيجة محايدة وملازمة للتحويلات العامة التي بدأت بوادرها الجينية تظهر منذ تأسيس أول مدرسة تابعة للرابطة الإسرائيلية بالمدينة، وهي الدينامية التي تعززت كذلك بحدث خضوع المغرب للحماية الفرنسية وما أعقب ذلك من ردات فعل المغاربة اليهود تجاه هذا الحدث "صدمة الحماية"، فضلاً عن أثر النشاط الصهيوني في صفوفهم. لقد أدت هذه العوامل مجتمعة إلى خلق وتشكل أزمة "الولاء المزدوج"¹.

تناول الفصل الأول من هذا الباب، مسألة تطور الجانب التنظيمي المؤسسي الذي أطر حياة اليهود قانونياً وقضائياً وتمثلياً، ذلك أنه رغم تطلع النخب اليهودية العصرية لإحداث تحولات ثورية في هذا المجال، إلا أن الإقامة العامة قد تعاطت بحذر شديد مع هذا المطلب انسجاماً مع توازناتها السياسية التي ظلت محكومة بفلسفة السياسية الأهلية، بحيث تأخرت في القيام بأول تعديل حتى سنة 1918. غير أن هذا الأمر لم يحل دون تمكن عناصر الشبيبة اليهودية بمكناس مبكراً نسبياً من إدارة شؤون الجماعة مستغلين بشكل جيد ما منح لهم من هامش في التدبير بمقتضى تلك التعديلات التي أقرتها سلطات الحماية خصوصاً تعديلات 1945.

وفي الفصل نفسه، تم تتبع كيف تشكل في صفوف هذه الجماعة مجتمع مدني نشيط ومتضامن كان عموده الفقري أعضاء جمعية قدماء تلاميذ مدرسة الرابطة، فضلاً عن فاعلين آخرين من يهود المدينة أنفسهم. ومن الوظائف التي كان يقوم بها هذا المجتمع المدني السهر على تتبع ورصد احتياجات ومشاكل وصعوبات إخوانهم في الدين في مختلف المجالات والميادين، كالتعليم والصحة والسكن والثقافة ومختلف مظاهر العوز... قصد إيجاد حلول لها، ويمكن القول إنهم قد نجحوا في هذا الرهان إلى حد كبير قياساً مع حجم الانتظارات مقارنة بالإمكانات المتاحة أمامهم. كما خصصنا في نفس السياق ذاته محوراً لبيان وتفسير ما طرأ من تحولات بنيوية "عميقة" خاصة في صفوف الشبيبة

¹ وهذا ما تعبر عنه الاستجابات التي أجراها ميركي Mergui، في صفوف اليهود المغاربة الذين استقروا في فرنسا: "أحب المغرب، ولكن لا يمكنني أن أعيش بدون دولة إسرائيل"، "المغرب، إنه أحمله في أعماق قلبي، وكذلك إسرائيل". "دولة إسرائيل تحرمني في حياتي لأنها تقتضي مني أن أساند سياستها دون قيد ولا شرط، وإلا اعتبرت يهودياً يخون إخوته". "يؤلمني في صميم القلب أن أتحدث عن إسرائيل، سأقول لكن رأيي فيها عندما تبرم السلام مع جيرانها ومع الفلسطينيين". "نحن اليهود المغاربة جد مؤهلين لخوض معركة السلام، نحن موجودون في إسرائيل، وفي المغرب وفي أوروبا وثقافتنا يهودية-عربية بالرغم من تأثير الثقافات الأخرى". محمد المدلاوي، "صورة المغرب في بعض المكتوبات العبرانية واليهودية"، ضمن الدراسات الشرقية واقع وأفاق، إنجاز الجمعية المغربية للدراسات الشرقية، تنسيق، أحمد شحلان-إدريس عبيزة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط سلسلة: ندوات ومناظرات رقم 111، ص. 87.

اليهودية التي استفادت من مضامين تعليمية كانت سببا رئيسيا في تبنيهم قيم حدثية أثرت في وعيهم وطبيعة قيمهم التي تجلت على أكثر من صعيد معيشيا، خصوصا في العلاقة مع المرأة والأسرة ونمط السلوك اليومي، وهو الأمر الذي تمدد كبقعة الزيت في صفوف نسبة معتبرة من أفراد الجماعة اليهودية بمكناس.

وفي الفصل الثاني من نفس الباب، تم التطرق لمختلف الأسباب والعوامل المتداخلة التي أدت بشكل متلاحق إلى تهيء المناخ المناسب لاعتناق نسبة معينة من يهود مكناس للمشروع السياسي للحركة الصهيونية، التي استفادت مما تراكم في وجدان/ ذاكرة اليهود من مخلفات ما لحقهم من أحداث عنف متفرقة منذ 1912م، فضلا عن استفادة هذه الحركة الصهيونية من فشل المشروع الاندماجي الذي كانت تراهن عليه الرابطة الإسرائيلية العالمية، خصوصا بعد صدمة قوانين فيشي وما أعقب ذلك من شروخ قوية عززتها أحداث كبرى تمثلت بالأساس في صدى الإعلان عن قيام دولة إسرائيل سنة 1948م، والقلق الذي رافق اليهود مع قرب استقلال المغرب. كما اعتنى هذا الفصل ببسط تداعيات فرض سلطات الحماية الفرنسية في عهد المقيم العام شارل نوجيس لقوانين فيشي العنصرية وأثرها على يهود مكناس، وهي محنة خلفت في صفوفهم حالة من الرعب والقلق والارتباك، على الرغم من قصر مدة تطبيقها وتعدد مستويات تنزيل مقتضياتها في حقهم، بسبب مراعاة سلطات الحماية للتوازنات السياسية والاقتصادية داخل المغرب، فضلا عن الأثر المعنوي لموقف السلطان محمد بن يوسف الذي لم يتوان في القيام بكل ما من شأنه أن يساهم في تجاوز رعاياه لهذه المحنة بأقل الخسائر الممكنة. هذه القوانين العنصرية سيتم إلغاؤها مباشرة بعد الإنزال الأمريكي بالمغرب وبالضبط خلال شهر مارس من سنة 1943.

كما تم السعي في المحور الثالث من هذا الفصل إلى بيان طبيعة الشروط والعوامل التي تحكممت في بلورة موقف عموم يهود مكناس بالخصوص من قضية مقاومة الاستعمار الفرنسي وسؤال الانضمام إلى الحركة الوطنية ودعم مطلب الاستقلال. وهو موقف اتسم عموما بالسلبية رغم العلاقة الوجدانية القوية التي كانت تربطهم برموز الدولة المغربية خاصة السلطان محمد بن يوسف¹.

أما بخصوص الفصل الأخير من الباب الثاني، فقد تطرقنا في المحور الأول منه إلى السياق التاريخي لظهور إيديولوجيا الصهيونية السياسية بأوروبا، وكيف انتقلت إلى المغرب بشكل عام، ومدينة مكناس بشكل خاص، وكيف

¹ هذا ما يؤكد تماما القول الذي أورده سيمون ليفي منسوباً إلى اليهودي المغربي المدعو "عبو" في حق محمد الخامس، والسلطات الفرنسية تتأهب لنفيه: "إنه معبود رعيته من مسلمين ويهود. وهؤلاء الأخيرون يكونون له حبا لا حدود له. وهم لا يتركون من جهة أخرى أي فرصة تفوت دون أن يعربوا له عن تعلقهم وعميق امتنانهم. فهم لن ينسوا أبدا ما فعله سيدي محمد في حقهم ولا النضال الذي خاضه في عهد فيشي لدرء تطبيق قوانين هذا الأخير في المغرب [...] فلما دقت ساعة -يقول سيمون ليفي- التزم الكثير من أعيان اليهود الصمت في حرج، أما العامة فقد بقوا مخلصين في قلوبهم لمحمد الخامس ولكن في سلبية تامة". محمد المدلاوي، "صورة المغرب في بعض المكتوبات العبرانية واليهودية"، مرجع سابق، ص. 82.

تعددت وتطورت مواقف عدد من الفاعلين منها، كما بينا طبيعة الفرق بينها وبين الصهيونية الدينية، مع تتبع مراحل تغلغل الصهيونية السياسية في صفوف يهود مكناس بشكل أدى بالتفاعل مع مجموعة من الأحداث الخارجية والداخلية إلى تطور أزمة الانتماء لديهم. بينما اعتنى المحور الأخير من هذا الفصل برصد كيف استطاعت الدعاية الصهيونية "إقناع" يهود مكناس، تدريجياً، بركوب موجات الهجرة خارج المغرب خصوصاً في اتجاه فلسطين بعدما تلاشى أفق الاندماج الذي كانت تروج له وتدعو إليه الرابطة الإسرائيلية العالمية قبل الحرب العالمية الثانية، مما أدى إلى تصفية التواجد اليهودي بالمدينة خصوصاً بعد سنة 1948 وقيل وبعد استقلال المغرب.

الشبكة المفاهيمية

تتأسس هذه الأطروحة على جملة من المفاهيم المركزية، التي تشكل فيما بينها مفاتيح منهجية ودلالية سعيها من خلالها إلى دراسة الجماعة اليهودية بمدينة مكناس على عهد الحماية، بالتركيز على الانطلاق من المفاهيم الجوهرية التي توطر الإشكالية المركزية، وبالموازاة مع ذلك تحديد المفاهيم التي تفرعت عنها. ويتعلق الأمر بشبكة المفاهيم التالية:

✓ دينامية الانفتاح: استعملنا هذا المفهوم للدلالة على التحول الذي طرأ على حياة الجماعة اليهودية بمكناس، نتيجة التفاعل الذي تم بين جملة من العوامل والأسباب الخارجية والداخلية التي مست جوهر وجود هذه الجماعة بمدينة مكناس. ويدل مفهوم الانفتاح على ما مس وعي هذه الجماعة خصوصاً في صفوف أولئك الذين استفادوا من التعليم العصري الذي وفرته لهم مدرسة الرابطة، بحيث أدى ذلك إلى إحداث ثورة ثقافية في نمطي التفكير والسلوك. وهو الأمر الذي نتج عنه تبلور طموحات وآمال جديدة لديهم تحقق بعضها وبعضها لم يتحقق، خاصة بعدما أصبح زمام أمور هذه الجماعة يد قداماء مدرسة الرابطة منذ منتصف الثلاثينات من القرن العشرين.

✓ دينامية التباعد: وظفنا هذا المفهوم للإشارة إلى الهوة التي حصلت بين المكونين الأهليين: اليهود المسلمون. نتجت عن التقويض الذي أصاب القاعدة المادية والأخلاقية التي كانت تقوم عليها العلاقات بين هذين الطرفين نتيجة استفادة الطرف الأول دون الثاني من قيم حدثية مستوحاة من التعليم العصري "المعلمن" الذي وفرته لهم مدارس الرابطة الإسرائيلية العالمية، وهو ما أدى إلى تشكل رهانات متناقضة لديهم على المستويين المادي والفكري، استحال معهما حصول تنسيق بين الطرفين، مما أسس مبكراً لمفترق طرق بينها منذ أواخر القرن التاسع عشر مروراً بمرحلة الحماية.

✓ التماثل الاجتماعي: وظفنا هذا المفهوم للإشارة إلى ذلك "الهاجس" الذي ظل يسكن وعي اليهود عامة بغض النظر عن خلفياتهم الفكرية سواء تعلق الأمر بالمتدينين منهم أو "العلمانيين". وهو هاجس ناتج عن هوية مجروحة ظلت هي القاسم المشترك بين جميع اليهود، غدتها الذاكرة الموشومة بالحذر تجاه "الغوييم"/الغير أوروبيين كانوا أو مسلمين. يجد هذا الهاجس تجلياته الواقعية في عدم قدرة أفراد هذه الجماعة على السكن داخل بيئة مختلطة مع الأوروبيين بشكل يعكس حنينهم الخفي لطمأنينة الملاح الفكرية والاجتماعية المسكون بـ "عقيدة التحصين" بشكل لا واع تعبيرا عن تلك الرغبة الدفينة بالرجوع إلى حياة الوحدة والانغلاق والتفوق العائلي والطائفي. لقد ظلت هذه الروح المسكونة بمنطق "النقاء"، يسري مفعولها الذي توج بملاحقة وجدانية بحلم الاستقرار في أرض الميعاد التوراتية¹.

✓ أزمة الانتماء: قصدنا بهذا المفهوم، التعبير عن ذلك القلق الوجودي* الذي لازم اليهود عموما، ويهود مكناس موضوع دراستنا بالخصوص كونهم شعب شتات، حيث وجدوا أنفسهم في واقع لا يناسب طموحاتهم الجديدة، ولم يعد يتوافق مع الاستقرار خارج أرض "أجدادهم" روحيا وماديا خاصة بعدما "تمكنت" من غالبيتهم الدعاية الصهيونية، بحيث ظلوا مطبوعين بإحساس التردد والخوف الدائمين من البقاء في وضع دوني من جهة، وعدم جدوى الانصهار والتماثل السوسيولوجي مع هويات الغير من جهة أخرى، وهو الأمر الذي ظل يعبر بشكل لا واع عن تلك الرغبة المكبوتة في الاحتماء الدائم بأفراد الجماعة، خاصة وأن اليهود ظلوا يشعرون لا واعيا أنهم شعب معزول داخل المجتمعات التي استقروا فيها مهما طالت مدة هذا الاستقرار، وهذا الأمر راجع إلى أن هذا المكون ظل يجر معه دوما ماضيه، المطبوع بما تتميز به عقلية الأقلية اليهودية "الناجمة عن الانطواء والانكماش والعزلة التاريخية التي عاشها اليهود خلال قرون طويلة"²، هذا الإحساس الدفين دفعهم لاحقا إلى البحث عن الخلاص بما يتلاءم مع تطلعاتهم الاقتصادية وخصوصياتهم الأنثروبولوجي التي لم يكن بالإمكان أن تتحقق إلا بالهجرة.

¹ لقد ظل "اليهود دائما يتطلعون وفي كل العصور إلى العودة وطنهم فلسطين. لقد كانوا يفكرون في فلسطين من الصباح حتى المساء، ويتحدثون عن العودة والحنين إليها، ويردون أشعار الخلاص وجملة "إلى العام القادم في القدس"، ويؤمنون بأن اليهودي إذا مات في الشتات فإن جثته تعود بالتناسخ إلى فلسطين وأن بعث الموتى سيكون فيها، ويدرسون الشرائع المرتبطة بها ويحتفلون بالأعياد وفقا لتقويمها السنوي، ويتحمسون للمساء الكاديين... ولكنهم في النهاية لا يصلون إليها للإقامة فيها". رشاد عبد الله الشامي، إشكالية الهوية في إسرائيل، عالم المعرفة، العدد 224، الكويت، غشت 1997، ص. 135-136.

* في معرض مناقشة مداخلة محمد حاتمي، المعنونة بـ "الجماعات اليهودية خلال مرحلة الحماية: حصيلة الأبحاث الأكاديمية"، تدخل شمعون ليفي باللهجة الدارجة قائلا: "[...] الاستعمار في سنوات 1912 شكل قطيعة. (les vieux) [المسنين] بقاوا قدام كيما هوما، ولكن اللي طالع قاري، كيسول. وأنا نعقل على هاد الفكرة، هاد السؤال كيتطرح لكل يهودي يهودي كيوصل إلى سن 10 أو 12 العام، كيتساءل من أنا؟ واش يهودي؟ أكيد كنمشي نصلي. واش مغربي؟ أكيد خلقت هنا. واش فرنسي؟ أكيد كنقرا بالفرنسوية وكنتكلم بالفرنسوية كيما كنتكلمو كلنا بالفرنسوية. فهاد الثلاثة ديال الأسئلة كانت كنطرح لكل واحد واحد من سنة 1930، إلى اليوم". محمد حاتمي، "الجماعات اليهودية خلال مرحلة الحماية: حصيلة الأبحاث الأكاديمية"، ضمن المغرب والزمن الراهن معطيات ومقاربات...، مرجع سابق، ص. 52.

² سلمان عفراني، أزمة الانتماء اليهودي فيينا 1900، دار المناهل للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2005، ص. 140.

بالموازاة مع هذه المفاهيم، وظفنا مفاهيم أخرى رأينا أن تحديدها أمر ضروري نظرا لكونها تتكرر طيلة مضامين هذه الأطروحة، ويتعلق الأمر أساسا ب: الجماعة، المغاربة اليهود، اليهود المغاربة، فلسطين، إسرائيل، أرض الميعاد، عبري، يهودي، إسرائيلي.

قصدنا بالجماعة مجموع الأفراد المشكلين لليهود بالمغرب باعتبارهم فئة متميزة، من أوجه عدة، عن باقي مكونات المجتمع المغربي، واستحسننا توظيف هذا المفهوم تمييزا عن مفهوم الطائفة أو الأقلية المستخدمين في التقليد المشرقي ذي السياقات المختلفة عن الوضع بالمغرب. كما أن مفهوم الجماعة أشمل تعبيرا عن هذين المفهومين اللذين غالبا ما يحملان شحنة دينية فقط، في حين أن مفهوم الجماعة يستغرق الخصوصيات العامة الدينية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية والأنثروبولوجي. في حين اقتصرنا في تحديدنا لمفهوم اليهود المغاربة أو المغاربة اليهود على ما أورده محمد حاتمي في تعريبه لكتاب روبر أصراف، يهود المغرب عبر العالم الهجرة والهوية المستعادة، حيث قال: "أما استعمالنا لمفهوم "المغاربة اليهود" و "اليهود المغاربة" فللتمييز بين وضعيتين: حين يكون اليهودي مستقرا في بلاد المغرب بصفته من رعايا السلطان فهو مغربي يهودي (لا نقول مسلم مغربي وإنما مغربي مسلم)، أما حين ينتقل إلى مجال آخر ويستقر به فإنه يصبح يهوديا مغربيا، ومعية نسله ومن ينتمون مثله للمغرب نطلق عليه "ذوي الأصول المغربية"¹.

وأحيانا لا نلتزم بهذا التحديد حينما يتعلق الأمر باقتباس أو إحالة دون تصرف حرصا منا على الأمانة العلمية.

أما في مقام استخدامنا لمفاهيم: فلسطين وإسرائيل وأرض الميعاد للإحالة على نفس المكان، فقد تحكم فيه السياق الذي ترد فيه هذه المفاهيم تحديدا واقتباسا بعيدا عن كل إسقاط ذاتي أو انحياز إيديولوجي. أما فيما يخص مفاهيم: عبري ويهودي وإسرائيلي، فإننا وظفناهم بنفس الدلالة، ثم إن وظيف مفهوم أو آخر إنما يعود فقط إلى الالتزام بالانسجام مع ما يرد بالوثائق والمصادر والمراجع.

إدراكا منا لأهمية البحث في التاريخ عموما والتاريخ المعاصر خصوصا، لا يمكن له أن يستوفي الحد الأدنى من شروط فهم الظاهرة المدروسة تاريخيا إلا من خلال الاطلاع على أكبر قدر متاح/ممكن من الوثائق التاريخية، فقد حرصنا على الاستفادة من كم معتبر من الوثائق التي لها صلة بموضوع بحثنا مجاليا وزمانيا. وهي وثائق تحوي

¹ روبر أصراف، يهود المغرب...، مرجع سابق، ص. 8.

شهادات الفاعلين المباشرين فيما يتعلق بيهود مكناس تحديدا ويهود المغرب عموما، الأمر الذي ساعدنا إلى أبعد الحدود في الإجابة عن الإشكالية الكبرى لأطروحتنا (ديناميتي التطور والتباعد). ويتعلق الأمر بالأرشفات التالية:

أ. وثائق الرابطة الإسرائيلية العالمية بباريس (AIU):

وفرت لنا هذه المؤسسة مادة تاريخية ثرية مكنتنا من الاطلاع على معطيات في غاية الأهمية استطعنا عبرها معرفة جوانب متعددة من حياة الجماعة اليهودية بمكناس على عهد الحماية. تضم هذه الوثائق، المكتوبة معظمها باللغة الفرنسية إضافة إلى كتابة قليل منها بالعربية بحروف عبرية، رسائل وتقارير متبادلة بين الأطر التربوية والإدارية التابعة لمدرسة الرابطة الإسرائيلية ومفوضية الرابطة الإسرائيلية بالمغرب وقدماء جمعية التلاميذ وبعض النخب المحلية اليهودية بمدينة مكناس، وبين اللجنة المركزية للرابطة بباريس. ويعود غنى هذه المراسلات والتقارير إلى أن مضامينها لم تقتصر على رصد واقع التعليم وفقط، بقدر ما ضمت معطيات مهمة تشمل جوانب أخرى من الحياة الاجتماعية والثقافية والدينية والسياسية لأفراد الجماعة اليهودية بمدينة مكناس، فضلا عن احتوائها معطيات تفيدنا في معرفة بعض الجوانب المتعلقة بطبيعة علاقة هذه الجماعة مع مسلمي المدينة.

ب. الأرشف الوطني بالرباط (ANR):

تحتوي هذه المؤسسة مخزونا مهما من الوثائق المهمة التي لها علاقة بفترة الحماية، وهو ما وقفنا عليه خلال المناسبات المتعددة التي زرنا فيها هذا الفضاء، قصد التنقيب عن أكبر قدر ممكن من الوثائق ذات الصلة بهذا البحث، وأشار أنه من حسن حظي أنني زرت هذه المؤسسة وهي تشهد ورشا مهما لإعادة تنظيم وترتيب وتصنيف كم كبير من الوثائق التي تخص هذه المرحلة من تاريخ المغرب المعاصر، الأمر مكننا من العثور على مادة وثائقية تتوزع بين التقارير السنوية والشهرية والمذكرات الوزارية والظواهر، وكذا المراسلات التي كانت تتم داخليا بين مختلف المصالح الإدارية المركزية والجهوية والمحلية للإدارتين الفرنسية والمخزنية من جهة، أو تلك التي كانت تتم بين إدارات الحماية والميتروبول من جهة أخرى. فضلا عن عدد من نسخ محاضر بلدية مكناس خلال الفترة الممتدة ما بين 1912 و1956. ناهيك عن الدوريات والمجلات التي صدرت خلال هذه الفترة وبعدها. هذا الكم المتنوع من الوثائق مكننا بشكل كبير من تسليط الضوء على جوانب مختلفة من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية... للجماعة اليهودية بالمغرب عموما وبمدينة مكناس خصوصا، لذا ليس من المبالغة القول أن إنجاز بحث فيه شيء من الأصالة في التاريخ المعاصر للمغرب من دون الاعتماد على أرشف هذه المؤسسة.

ت. أرشيف CHEAM:

يضم الأعمال التي أنجزها المستخدمون من مدنيين وعسكريين في أجهزة الإدارة الاستعمارية على شكل أبحاث ميدانية وتقارير. وهي أعمال ذات طابع مونوغرافي حول العديد من المواضيع التي تهم المغرب خلال فترة الحماية. ويمتاز هذا الأرشيف هو الآخر بغنى في معطياته التي ساعدتنا في مقارنة موضوعنا من نواحي عدة، سواء تعلق الأمر بما هو اجتماعي أو اقتصادي أو سياسي... ولعل أحد أهم هذه الأعمال مثالا لا حصرا الدراسة المعنونة ب: Les Juifs du Maroc et l'Occident.

ث. الصحافة:

تشكل الصحافة مصدرا أساسيا لا غنى عنه لأي باحث في التاريخ المعاصر، خاصة وأن الصحافة عادة ما تتضمن تفاصيل مهمة تخص القضايا السياسية والمواضيع الاقتصادية والاجتماعية والحياة الثقافية يصعب أن نجدها بالوثائق الرسمية. ووعيا منا بهذا الأمر استفدنا من النسخ الصحفية خاصة اليهودية منها والتي يوفرها المركز الذي يحتوي على أرشيف الصحف الكائن بجوار مؤسسة أرشيف المغرب، حيث يحتفظ بأعداد مهمة من الصحف والجرائد والمجلات التي صدرت خلال فترة الحماية باللغتين العربية والفرنسية، وقد قمنا بمجرد وتفحص كل الأعداد المتاحة لحد الآن، ونقصد الصحف والدوريات الإسرائيلية الصادرة آنذاك بالمغرب باللغة الفرنسية وهي:

- L'Avenir Illustré (1926- 1940) .
- Noar (1945-1952) : Bulletin mensuel de l'Association de la jeunesse juive « Charles Netter ».
- La Voix des Communautés (1950-1955); Organe Mensuel du Conseil des Communautés Israélites du Maroc.

وقد مكنتني دراسة بيير كوهن أدناه من تأطير السياق الذي صدرت فيه هذه الصحف، وكذا معرفة الخلفيات التي تحكمت في خلفيات خطها التحريري، بشكل ساعدني على استثمار مضامينها بشكل أفضل:

- Pierre Cohen, La Presse juive Edition au Maroc ,1870-1963.

ونحن نشتغل على هذه المصادر لم نكن نتحرك في سياق لغة واحدة، بقدر ما كنا نلتجئ على امتداد هذه الأطروحة، إلى عملية الترجمة وما يرافقها من صعوبات تداولية وزمنية، خاصة وأننا اعتمدنا بنسبة كبيرة على وثائق ومصادر صادرة باللغة الفرنسية، وحينما كان يتعلق الأمر ببعض المفاهيم والمصطلحات العبرية، اقتضى منا الأمر في غالب الأحيان الإبقاء عليها كما هي لما تحمله من دلالات دينية وثقافية من الصعب إيجاد ما يقابلها في اللغة

العربية، ومثال ذلك: الغوييم، الهالاخاه، العليا، اليشوف،... إلخ. فضلا عن هذه المادة المصدرية، اعتمدنا على كم كبير من الدراسات والمراجع الصادرة باللغة الفرنسية حينما تعذر الأمر بصعوبات الحصول على المعطيات في مصادرها الأصلية، فضلا عن كون البحث العلمي هو ثمرة جهود تراكمية يصعب على الباحث أن يستغني عنها، خصوصا وأنها تمكنه في نفس الوقت من الانفتاح على مناهج وأفكار وآفاق تأويلية أخرى، انسجاما مع فكرة أن أصالة بحث ما لا تتأتى فقط من الاعتماد على الأرشيفات وحدها، بقدر ما يتحقق الأمر أيضا من خلال إعادة التركيب داخل نسق إشكالية البحث بشكل قد يؤدي إلى نتائج جديدة قابلة للتجاوز لاحقا.

الباب الأول: الوضع الاجتماعي والاقتصادي للجماعة اليهودية: دينامية الانفتاح والترقي

نتتبع في هذا الباب الأول، عبر ثلاثة فصول، مسلسل تطوّر الأوضاع العامة للجماعة اليهودية بالمغرب، منذ أواخر القرن التاسع عشر، وهو مسلسل ارتبطت انطلاقته بسعي القوى الأوروبية إلى التدخل في شؤون المغرب، وكانت الورقة اليهودية إحدى الأدوات التي حاولت هذه القوى استغلالها لتبرير أطماعها الاستعمارية. وقد توجت هذه الضغوط الأوروبية بفرض الحماية الفرنسية على المغرب سنة 1912، كما نوضح موقف الجماعة اليهودية، خصوصاً بمدينة مكناس، من هذا التدخل الفرنسي بالمغرب، وكذا الرهانات التي تحكمت فيه، هذا من جهة، ثم تتبع طبيعة تعاوي الحماية الفرنسية مع تطلعات الجماعة اليهودية من جهة ثانية.

كما نتطرق في الفصل الثاني، من هذا الباب، إلى ما عرفته الجماعة اليهودية، بمكناس، من تحولات مسّت عمق بنيتها الاجتماعية، خصوصاً في قطاع التعليم، الذي استفاد كثيراً من تجربة الرابطة الإسرائيلية العالمية، إذ كان ما أُنجز في هذا القطاع، بمثابة المحرك الرئيسي والعامل الذي أطلق دينامية التطور في صفوف أفراد هذه الجماعة. كما سنتناول الوضعية العامة للقطاع الصحي لدى هذه الجماعة، مع إبراز الإنجازات التي تمّت في هذا المجال، والتي كان من نتائجها حدوث تطور ديموغرافي، سيفاقم من أزمة السكن لدى هذه الجماعة بالملاح القديم، وهي الأزمة التي ستكون موضوع دراسة وتتبع في المحور الثالث من الفصل الثاني من هذا الباب.

ونرصد في الفصل الأخير من هذا الباب، التحولات الاقتصادية ليهود مدينة مكناس، عبر تسليط الضوء على ما لحق هذا القطاع من تغيرات مسّت نمط الإنتاج التقليدي لصالح نمط إنتاج عصري-كولونيالي، حاول يهود هذه المدينة الانخراط فيه والاستفادة منه ما أمكن، وهو الأمر الذي لن يتحقق إلا لنسبة محدودة من أفراد هذه الجماعة، والتي ظل أغلب أفرادها تحت رحمة ما كان يشهده الوضع الاقتصادي، آنذاك، من عدم استقرار نتيجة تداخل مجموعة من العوامل وطنيا ودوليا.

الفصل الأول: المغاربة اليهود وتداعيات التغلغل الأجنبي بالمغرب

1. المغاربة اليهود وخلفيات التدخل الأوروبي

عاش المغاربة اليهود، قبل الفتح الإسلامي للمغرب حالة من الاندماج وسط النسيج الاجتماعي المحلي إذ أتيح لهم أن يتسكنوا مع القبائل الأمازيغية محققين نوعا من التقارب الاجتماعي والثقافي، واستطاعوا بذلك أن يتشاقفوا مع السكان المحليين حتى على مستوى اللغة¹، دون الخضوع لقانون خاص بهم يؤطرهم كأقلية دينية. لكن بعد الفتح الإسلامي للبلاد حوالي سنة 683²، صار اليهود محكومين بتشريع أهل الذمة³، بسبب الخلفية الدينية للدول التي تعاقبت على حكم المغرب منذ دولة الأدارسة. وانطلاقا من هذا المعطى التاريخي، نتساءل: هل كانت الدولة المغربية المستحدثة بمرجعيتها الدينية في صالح الأقلية اليهودية، أم أن وضع هذه الجماعة تميز بـ "الدونية" طبقا للتشريع الديني الذي صنّفهم في خانة أهل ذمة؟

إن الإجابة عن هذا السؤال، إن بالنفي أو بالإيجاب المطلقين، لترجيح هذه الأطروحة أو تلك، ستوقع بصاحبها في مقارنة اختزالية متهافئة، ما دام هذا الموضوع قابلا للمزايدة، ذلك أن النيش في ماضي هذه الجماعة بالمغرب يمكن الباحث من الوقوف على أمثلة كثيرة كفيلة بإثبات هذا الموقف أو ذاك، إما بالتركيز على اللحظات "المؤلمة" من حياتهم عبر تقديم تاريخهم منذ تلك المرحلة بشكل سوداوي، أو بالتركيز على الفترات التي نعموا فيها بالأمن والاستقرار.

وبخصوص الموقف الأول يوضح جيرمان عياش قائلا: "إنها صورة يصاب فيها أولا القانون الشرعي ببتير لا يبقى منه إلا الشروط المقيدة. وكنتيجة لهذا البتير، أضحت كلمة "الذمي" التي معناها الأصلي هو "الحمي" فارغة الدلالة، وفقدت تماما مدلول الوصاية هذا وتحولت إلى نقيضها لتدل على "المحتقر" و"المنبوذ" إن لم نقل "المهדר دمه". ووفقا لهذا المعنى المحرف والمغلوط للكلمة، يتم تصوير حياة اليهود المغاربة وكأنها لم تكن سوى محنة طويلة، يعيشون محاصرين في أسوار حيهم "الملاح" لا يخرجون منه بلباس الحداد المفروض عليهم إلا ويتعرضون للسخرية والشتائم والرحم بالحجارة. أما إذا غامروا بالخروج إلى البادية، فيتعرضون حتما للنهب أو القتل. أما الجزية، وهي

¹M. Goulven, «Israélites et Musulmans au Maroc», in A.I, Première Année N°2, Mardi 10 Aout 1926, p. 22- 23 ; André Chouraqui, Histoire des Juifs en Afrique du Nord, Tome 1, En exil au Maghreb, Ed du Rocher, p. 67.

²روبير أصراف، محمد الخامس واليهود المغاربة، ترجمة علي الصقلي ومحمد كليزم، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، ص. 30.

³وضع أهل الذمة داخل المجتمع الإسلامي، تحدده الشريعة الإسلامية بناء على الآية القرآنية: "وقاتلوا الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحقمن الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون." سورة التوبة، الآية 29.

الضريبة المرتفعة الخاصة بهم، فهي ظلم في حد ذاتها إذ تثقل كاهلهم دون غيرهم، وغلوا في الظلم كانوا يضربون بالعصي جزاء لأدائهم الجزية. وهذه العقوبات تبقى على كل حال هينة إذا ما قورنت بتلك التي يكونون ضحيتها في حالة حصول ثورات دامية تجعل حياتهم ونسائهم وأطفالهم من حين إلى آخر تحت رحمة الجند والمتمردين...¹. أما بخصوص الموقف الثاني، والذي ركز فيه أصحابه على تقديم ما يفيد كون هذه الجماعة قد عاشت في ظروف مستقرة وآمنة²، من دون الإشارة إلى العديد من الأحداث العنيفة التي كانوا ضحايا لها في سياقات معينة، يوضح محمد حاتمي قائلا: "[...] وفي المغرب على وجه الخصوص، حصل إجماع "وطني" في موضوع قدرات المجتمع المغربي على التعامل إيجابيا مع الأقلية اليهودية. فالخطاب السياسي (الرسمي والحزبي والنقابي والمدني) شدد دوما على ما جبل عليه المغاربة منذ "القديم" من شيم التسامح والتعامل السليم مع اليهود على اعتبار أنهم مواطنون ورعايا أمير المؤمنين وساهموا بقسط وافر في صنع الشخصية المغربية"³.

وهذه المقاربة تبدو اختزالية ما دامت تعتمد على أحداث تاريخية انتقائية تحكمها هواجس ذاتية بعيدا عن الموضوعية التاريخية. لكن الباحث الحريص على الدقة في دراسة تاريخ المغاربة اليهود سيكون مجبرا على توخي الحذر في استخلاص نتائج متسريعة في هذا الموضوع، لأن المغاربة اليهود مثلما عاشوا فترات صعبة، عاشوا أيضا لحظات استقرار من دون أن يرقوا إلى مستوى "رعايا" من الدرجة الأولى -على الأقل من الناحية الاعتبارية- بالمقارنة مع المسلمين، نظرا لتشريع أهل الذمة الذي كانوا مجبرين على الخضوع له⁴، والذي تضمن عددا من القواعد التي كان على اليهود والمسيحيين احترامها من أجل الحصول على حق الحماية.

¹جرمان عياش، "الأقلية اليهودية في مغرب ما قبل الاستعمار"، مجلة دار النيابة، السنة الثالثة، العدد 12، خريف 1986، ص. 8.
²[...] ما من شك أن إيجابية تعامل المغاربة المسلمين مع مساكينهم اليهود مسألة تفترض حدا أدنى من التدقيق في المفاهيم والنماذج الممكنة الإحالة عليها. فحتى إذا افترضنا إمكانية إعطاء مفهوم التسامح معنى معيناً وبحصول اتفاق- ولو جزائي- في مسألة المجتمع النموذج (المجتمع الأندلسي على سبيل المثال)، فإنه من الصعب القيام بإسقاطات تنميطية لقيم عصر متأخر على عصور متقدمة اختلفت هموم أصحابها وانشغالاتهم. ثم إن المقاربة القائلة بالإقرار بأن أغلبية المسلمين وأقلية اليهود عاشوا جنباً على جنب في انسجام تام، تعتبرها تناقضات متنوعة لأنها تفترض قبول الطرفين بالاختلافات بينهما قصد تحقيق الانسجام. والحقيقة أن المجتمع الإسلامي المغربي تأسس وفق هرمية في التشريف قضت بأن تحتل فئات معينة درجات عليا (شرفاء وعلماء وخدام المخزن) وفئات أخرى أقل قيمة، وكان معظم اليهود في أسفل الهرم أساساً لأنهم ذميون ولا ينتمون للأمة المسلمة[...]. محمد حاتمي، الجماعات اليهودية المغربية خلال مرحلة الحماية: حصيلة الأبحاث الأكاديمية...، مرجع سابق، ص. 36.

³محمد حاتمي، الجماعات اليهودية المغربية...، مرجع سابق، ص. 11.
⁴هذا التشريع الذي عانى منه اليهود في البلدان الإسلامية يعود إلى القانون الذي قام بتشريعه الخليفة الثاني عمر بن الخطاب.
M. Goulven, op. cit, p. 22- 23.

وما ينبغي التذكير به هو أن حدة تطبيق هذا التشريع قد اختلفت حدته حسب البلد والحقبة التاريخية وشخصية الحاكم¹. لكن رغم اختلاف درجة الصرامة في تنزيل قانون أهل الذمة ظلت الجماعة اليهودية خاضعة لنوع من "التهميش" بسبب ذلك التشريع الديني منذ أن تأسست الدولة الإسلامية بالمغرب، لذلك رتبوا اجتماعيا في مرتبة دونية². وفي هذا السياق نشدد على أنه ما إن استتب الأمر للدولتين اللتين أعقبتا الأدارسة، حتى بدأت أحوالهم تتدهور أكثر مع قيام النظام المرابطي، حينما أمر أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين سنة 1106، بعدم السماح لليهود بدخول مدينة مراكش لكونها عاصمة الدولة آنذاك، لأنها كانت مكان وضع الخطط العسكرية للقيام بحركة "الجهاد" ضد إسبانيا المسيحية. ومنعهم من دخول مراكش ثم بدعوى أنهم سيقومون بالتجسس لصالح العدو، ولم يسمح لهم بدخولها إلا نهارا لقضاء حاجاتهم لينصرفوا عنها عشية. وكان إذا عثر على أحدهم يستباح دمه وماله، وهو ما جعل اليهود يرفضون المبيت في مراكش، خوفا على أنفسهم وأموالهم³.

أما ظل نظام الدولة الموحدية فقد تزعزعت أوضاعهم أكثر⁴ (بعد عام 1147)، حيث تعرضوا للاضطهاد، بل أرغموا خلال مرحلة معينة على اعتناق الإسلام. ففي سنة 1165 وضعت السلطات الموحدية المحلية بمدينة فاس حاخام المدينة "ربي جوداه بن سوسان" أمام اختيار مؤلم، يتمثل إما في اعتناق الإسلام أو الموت... ولما رفض إعلان إسلامه تم إعدامه في الساحة العامة يوم 8 أبريل من سنة 1165⁵. وعلى إثر هذه الحادثة اضطر عدد مهم من اليهود إلى اعتناق الإسلام تفاديا للموت، مع الاستمرار في ممارسة فروضهم الدينية اليهودية سرا، مما أوجب موجات الشك في إسلامهم، الأمر الذي دفع السلطان يوسف يعقوب المنصور الموحدي إلى تمييزهم بالشارات وسط الأسواق، وداخل الأماكن العمومية. وعن هذا يحكي المؤرخ عبد الواحد المراكشي في "المعجب في تلخيص أخبار المغرب" قائلا: "وإنما حمل أبا يوسف على ما صنعه من إفراهم بهذا الزي وتمييزه إياهم به، شكه في إسلامهم؛ وكان يقول:

¹A. Chouraqui, *Histoire des juifs d'Afrique du Nord. Volume 1, En exil au Maghreb*, Ed du Rocher, 1998 p. 95.

²عبد الله أزيكي، مسألة اليهود المغاربة، منشورات مجلة اختلاف، المغرب، 2004، ص. 11.
³ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق، ج.س. كولان، وليفي بروفنسال، الدار العربية للكتاب، دار الثقافة بيروت، 1984، ص. 19.

⁴[...] ذهب بعض الباحثين إلى أن فترة حكم الموحدين كانت قاسية على اليهود، وأن عددا كبيرا منهم فر من المغرب، وأن يهود مزاب ووركلة هم الوحيدون الذين أفلتوا من مذابح الموحدين، واستندوا في أقوالهم أساسا إلى مرقية الشاعر اليهودي ابراهيم بن عزرا (ت 1167/562) الذي بكى مأساة يهود درعة وسجل مأساة وما جرى لهم خلال المحنة المشهورة بالتمييز. غير أن هذه المروية قد امتدت إليها الأيدي بالزيادة على مر الأزمنة وطالها التحريف، فتسرب الضعف إليها كمصدر إخباري، ناهيك عن أن ما تعرض له اليهود من مضايقات في العهد الموحدي يندرج فيما عرف بالاعتراق الذي شمل أهل المغرب كافة بقطع النظر عن أصولهم العرقية أو الدينية، ولم يكن المسلمون باستثناء الموحدين أقل عناء من اليهود في هذه المحنة". تاريخ المغرب تحيين وتركيب، إشراف وتقديم محمد القبلي، منشورات المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب، السحب الثاني نص مراجع معدل، منشورا عكاظ، الرباط، 2012، ص. 232.

⁵ A. Chouraqui, *histoire des Juifs en Afrique du nord*, op. cit, p.97.

لو صح عندي إسلامهم لتركتهم يختلطون بالمسلمين في أنكهتهم وسائر أمورهم، ولو صح عندي كفرهم لقتلت رجالهم وسييت ذرايهم وجعلت أموالهم فيئاً للمسلمين؛ ولكني متردد في أمرهم. ولم تنعقد عندنا ذمة ليهودي ولا نصراني منذ قام أمر المصامدة، ولا في جميع بلاد المسلمين بالمغرب بيعة ولا كنيسة؛ إنما اليهود عندنا يظهرون الإسلام ويصلون في المساجد ويقرئون أولادهم القرآن؛ جارين على ملتنا وسنتنا، والله أعلم بما تكنه صدورهم وتحويه بيوتهم¹. وبسبب ذلك فضل بعضهم خيار الهجرة إلى إسبانيا المسيحية، حيث كانت سلطة ملوكها ما تزال ضعيفة². إن نبذ الآخر المختلف لأسباب وبواعث سياسية وإيديولوجية خلال هذه الفترة على سبيل المثال لا الحصر، لم يكن مقتصرًا على أهل الملل والنحل غير الإسلامية، بل تعرض له حتى أصحاب المذاهب من داخل الملة الإسلامية. يقول المراكشي في "المعجب" محاولاً الربط بين محاربة الفقهاء لعلم الكلام وقضية إحراق كتاب إحياء علوم الدين للغزالي: "وقرر الفقهاء عند أمير المسلمين (علي ابن يوسف) تقبيح علم الكلام وكراهة السلف له وهجرهم من ظهر عليه شيء منه. وأنه بدعة في الدين وربما أدى أكثره إلى اختلال في العقائد في أشبه لهذه الأقوال حتى استحکم في نفسه بغض علم الكلام وأهله فكان يكتب عنه في كل وقت إلى البلاد بالتشديد في نبذ الخوض في شيء منه. وتوعد من وجد عنده شيء من كتبه. ولما دخلت كتب أبي حامد الغزالي المغرب أمر أمير المؤمنين بإحراقها. وتقدم بالوعيد الشديد، من سفك الدم واستئصال المال، إلى من وجد عنده شيء منها واشتد الأمر في ذلك³. مما يعني بشكل عام أن المصير الذي كان يلحق باليهود لم يكن مقتصرًا عليهم بل شمل في بعض الأحيان حتى المسلمين خاصة الطبقات الاجتماعية الدنيا بغض النظر على الخلفيات والأسباب⁴.

إن تشريع أهل الذمة الذي يكرس "دونية" اليهود والمسيحيين في البلاد الإسلامية كما سبق وأوضحنا ذلك، ينسب إلى عهد الخليفة عمر ابن الخطاب (634-644)، والذي سمي بـ"ميثاق عمر". لكن من المحتمل أن يكون هذا النص غير أصيل، وأن الشروط الواردة فيه حددت في مرحلة لاحقة، غير أنه بصرف النظر عن ذلك فقد استعمل هذا التشريع لتحديد الوضعية الشرعية لليهود والمسيحيين على حد سواء، بل تم تطبيقه في بعض الأحيان على المنتمين إلى الديانات الأخرى، ويفهم من محتواه أنه يسدل حماية الدولة الإسلامية على الرعايا غير المسلمين،

1 عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 1963، ص.6.

2 إسرائيل شاحاك، اليهود واليهودية وطأة 3000 سنة، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2003، ص. 98.

3 عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب...، مرجع سابق، ص. 255.

4 A. Choruaqui, *histoire des Juifs en Afrique du nord*, op. cit, p.99.

والذي تضمن عددا من القواعد التي كان على اليهود والمسيحيين احترامها من أجل الحصول على حق الحماية، وتمثل قواعده الاثنا عشر فيما يلي: القواعد الستة الأولى تعتبر جد مهمة، وتلزمهم التزاما قطعيا بعدم مس القرآن بالسخرية أو تشويه النص، وعدم ذكر الرسول بعبارات كاذبة أو حقودة، وعدم التكلم على الإسلام باستهتار، والامتناع عن لمس المسلمات ولو في إطار الزواج الذي يبقى ممنوعا بين الذميين والمسلمات، (لكنه جائز بين المسلمين واليهوديات أو المسيحيات)، وأن لا يسعوا لإخراج المسلم من دينه، مع ضرورة احترام حياته وأملاكه. وأخيرا ألا يفعلوا أي شيء لمساعدة أعداء الإسلام أو جواسيسهم. أما القواعد الستة الأخرى فتعد ثانوية لأن عدم الامتثال لها لا يؤدي إلى إسقاط الحماية التي يكفلها قانون الذمة، وتمثل فيما يلي: الالتزام بارتداء لباس يميزهم، يحمل حزاما (زونا) وقطعة من قماش (غيار) لونها أصفر بالنسبة لليهود، وزرقاء بالنسبة للمسيحي، كما لا يمكنهم بناء معابد أو منازل أكثر ارتفاعا من منازل المسلمين، ولا يمكنهم ممارسة عباداتهم علنا، أو سماع أجراس كنائسهم أو معابدهم أو ترانيم صلواتهم، أضف إلى ذلك الالتزام بعدم شرب النبيذ علنا، أو استعراض الصليبان أو الخنازير بالنسبة للمسيحيين، ثم الحرص على دفن أمواتهم بتكتم، بدون سماع أدعيتهم ونواحهم، وأخيرا يمنع عليهم امتلاك أحصنة، والاكتفاء بمقابل ذلك باستعمال الحمير أو على الأقل البغال¹.

يتضح مما سبق أن هذا القانون يتضمن شروطا دقيقة وملزمة من شأنها أن تعكس وضاعة أهل الذمة²، غير أن الشرط الأكثر أهمية هو فرض أداء ضريبة سنوية تعرف بـ "الجزية" على كل ذمي بالغ سن الرشد³، وتحصيل هذه الضريبة كان يقع على الذكور البالغين من الذميين، وقد شكلت الرمز الأكثر تعبيرا عن خضوع غير المسلمين وتبعيتهم للدولة الإسلامية، وكانت الدولة هي التي تقدر قيمة الضريبة الواجبة على كل مجموعة طائفية، في حين تتولى الطائفة المعنية تدبير كيفية تقسيم هذا العبء على أعضائها. وقد اختلف العلماء والفقهاء بخصوص درجة الفضاضة التي يجب أن تصطبح طرق تحصيل الجزية، وغالبا ما شددوا على أهمية توجيه محصل الجباية لصفحة رمزية يتلقاها على

¹Ibid, p. 94.

²في منتصف القرن، 19 بالضبط في 2 فبراير سنة 1842 أوضح السلطان محمد ابن عبد الرحمان في إحدى الرسائل ماذا يعنيه قانون أهل الذمة قائلا: "يهود مملكتي مرتبطون بمجموعة من الشروط التي توظف المستفيدين من الحماية (حماية السلطان لأهل الذمة). هذه الشروط مستوحاة من شريعتنا، وتطبق إلى اليوم كما كان الحال في الماضي على أهل الكتاب. ومادام هؤلاء المحميين ملتزمون باحترام هذه الشروط التي يجب أن يخضعوا لها، فإننا ملزمون من جهتنا وبناء على هذا العقد القانوني بحماية أرواحهم وممتلكاتهم، ولكن إذا لم يحترموا أحد تلك الشروط، فإن القانون لن يكون ملزما بحماية أرواحهم وممتلكاتهم، وجدير بالذكر بأنهم ملزمون بمقتضى شريعتنا بالخضوع والتواضع، إلى درجة لو قام أحد اليهود برفع صوته في وجه المسلم فإنه سيكون في وضعية من ارتكب جريمة".

Cité par Germain Ayache, «La minorité juive au Maroc», Hespéris Tamuda.vol. XXV.p.148.

³ دانييل شروتر، يهودي السلطان، المغرب وعالم اليهود السفرد، ترجمة خالد بن الصغير، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، الرباط، 2001، ص. 43-44.

رقيبته -تعبيرا بذلك عن خنوعهم-، كل ذمي يوفي بأداء نصيبه من تلك الضريبة. غير أن السلطات المخزنية، كثيرا ما تكتفي باستلام المبلغ الواجب تحصيله في دفعة واحدة، وإذا كان لابد من أخذ تلك الصفعة المهينة، فقد كان في وسع كبار التجار اليهود الإفلات منها بتسديد نصيبهم الإجمالي دفعة واحدة، وذلك تشريف لا يحظى به سواد الطائفة اليهودية. وتجدد الإشارة إلى أنه لا يوجد في المصادر أي صدى لكيفية تعبير اليهود عن ردود فعلهم، وعمّا إذا كان أعضاء الطائفة يتكفلون بدعم العاجزين منهم عن دفع الجزية. وبالرغم من الجانب المهين في العملية باعتبارها نموذجا "للمعاناة" في تجربة اليهود، إلا أنهم أدركوا منذ وقت مبكر أنها تمثل الثمن الواجب دفعه مقابل الحصول على الحماية في ظل "غياب مفهوم المواطنة"¹. وبناء عليه يمكن القول إن دفع الجزية كان هو التسوية القائمة بين اليهود والدولة الإسلامية، التي تسمح لهم مقابل ذلك بالعيش وفقا لشريعتهم الدينية، وقد أتاح لهم ذلك إخضاع أنفسهم إلى شيء من "الحكم الذاتي". ومن الأمثلة الدالة على الخضوع الذي كان يجب أن يخضع له اليهود كونهم من أهل الذمة، يروي التاجر جيمس ريتشاردسون من الصويرة في مطلع سنوات الأربعين من القرن 19، تجربته الخاصة مع مراسيم تقديم الهدية إلى السلطان، من طرف أعضاء الوفد الممثل للتجار: "[...] وكان الأشخاص المعروضون أولا على الجناح الشريف، هم المسؤولون بموكادور الذين قدمهم إليه عاملها، وتلاهم بعض الأكابر المغاربة، ثم عرض عليه المسيحيون، وجاء التجار اليهود في الأخير، وتولى عامل موكادور تقديم اليهود الذين خلعوا نعالهم أثناء المرور أمام الإمبراطور..."². وفي سياق آخر يعبر عن دونية اليهود، استغرب الوكيل القنصلي الهولندي أبراهام بن دلاك في مذكراته إهداء التاجر اليهودي المرموق مايير مقنين اثنين من الخيول من قبل عامل طنجة بناء على أوامر السلطان محمد ابن عبد الرحمان، وسبب استغراب الوكيل الهولندي الذي كان يهوديا يعود إلى علمه بحظر الشريعة ركوب الذميين للخيول³.

وتنبغي الإشارة إلى أن الخضوع إلى هذه الإجراءات لم يكن يقتصر على اليهود الرعايا العاديين، بل شمل أيضا حتى أعضاء النخبة اليهودية التي أدركت جيدا بأن الامتثال لتلك "الإهانات" أصبح من الأمور الضرورية للتبعية التي توفرها الحماية لوضعيتهم المتفوقة من حيث الثروة في الممتلكات على غالبية السكان المسلمين، ذلك أن طبيبا في الجيش البريطاني عند زيارته للمغرب سنة 1806 اندهش لرؤية النائب القنصلي البريطاني في تطوان، الذي كان

¹ نفسه، ص. 247-248.

² نفسه، ص. 237.

³ نفسه، ص. 285-286.

يهوديا مغربيا وهو يخلع نعليه ويمشي حافي القدمين كلما مر من أمام المساجد. لقد كان اليهود والمخزن على حد سواء على وعي تام بالمخاطر التي تنطوي عليها المجازفة بتجاوز بعض الحدود الموضحة لتبعية اليهود الرمزية للمسلمين¹. كما يشير روبر أصراف إلى أن الموريسكيين الذين أسسوا شبه دولة مستقلة بسلا بالرغم من تسامحهم مع اليهود إلا أنهم فرضوا عليهم ضرائب مبالغ فيها، حتى يتمكن اليهود من ممارسة طقوسهم الدينية، وهو ما كان يؤدي إلى التشدد أحيانا في تطبيق قانون أهل الذمة². وما ينبغي التذكير به هو أن نظام الخضوع للجزية في حق اليهود ظل مستمرا بالمغرب، ولم يتم التخلي عنه إلا مع دخول الحماية الفرنسية للمغرب، في حين أسقط نظام الذمة عن المسيحيين انطلاقا من القرن الثامن عشر حيث حصل اتصال بين المغرب والقوى الأوروبية، الأمر الذي اضطر بعض اليهود إلى الانخراط في نظام حمايات الشخصية الأوروبية للتنصل من هذا الإكراه³.

إن قانون أهل الذمة وما كان يترتب عنه شكل بالفعل وصمة اجتماعية بالنسبة لليهود، إلا أن السرديات الاستعمارية الأوروبية تجاهلت مظاهر "التعايش" والسلم الاجتماعي التي عاش في ظلها اليهود في علاقتهم بالدولة والمجتمع بشكل عام، لأنها كانت تجد في ذلك مبررا للتدخل في الشؤون الداخلية للمغرب، كما سنشير إلى ذلك لاحقا. لذلك تم التركيز على إبراز اللحظات الصعبة من تاريخ هذه الجماعة الدينية، والتي تم تصويرها بشكل دموي، فاختزلوا بذلك تاريخها في "أطروحة الاضطهاد"، بالرغم من أن تلك اللحظات الدامية كانت تشكل الاستثناء، - رغم وصمة الدونية التي كانت تلازمهم - وقد ارتبطت في الغالب بالمراحل الانتقالية للسلطة داخل الأسر التي تعاقبت على حكم البلاد، أو ببعض السلاطين والزعماء المحليين الذين لم يكونوا يكونون أي ود لليهود. وفي هذا السياق نقدم بعض الأمثلة التي تم التركيز عليها من قبل الاسطوغرافيا الاستعمارية مثلما حدث بعد وفاة السلطان محمد ابن عبد الله سنة 1790م، عندما تولى السلطان المولى يزيد الحكم والذي أبدى منذ شبابه حقدا غير عادي تجاه اليهود، حيث صار الاضطهاد تجاههم "سياسة عمومية" خلال فترة حكمه القصيرة.

وحسب رواية مصدرها الجماعة اليهودية بفاس، فقد أعطى أوامره بإبادة كل اليهود الموجودين تحت حكمه⁴، كما أنه عندما حل بمدينة تطوان تعرض ملاح هذه الأخيرة لأسوأ "مذبحة" في تاريخه، ونفس الأحداث الدامية

¹ نفسه، ص. 242.

² Robert Assaraf, *Eléments de l'histoire des juifs de Meknès*, Centre de Recherche sur les juifs du Maroc, Ed et Impression Bouregreg, Rabat. p. 33.

³ محمد حاتمي، *الجماعات اليهودية المغربية...* مرجع سابق، ص. 161.

⁴ George Vajda, *Un recueil de textes historiques judéo-marocains*, Larousse, Paris, 1951, p. 79-96.

وقعت بملاح مدينة مكناس عندما عثر أحد اللصوص بأحد منازل الملاح على كمية من الذهب مطمورة أسفله، فقام العوام بالهجوم على الملاح أملا في الحصول على الكنوز المخبأة، حيث قاموا بالحفر في جميع الاتجاهات، بمباركة من السلطة، وامتد السلب والنهب والتخريب لبيوت الجميع بما فيها منازل الوجهاء اليهود، ولم يتم توقيف حتى أماكن العبادة، وأُتلفت العديد من الكتب والمخطوطات تحت أنظار أصحابها، كما تعرض زعماء الجماعة للضرب وألقي بهم في السجن.

وتجدر الإشارة إلى أن الصعود الدموي للمولى يزيد لم تقتصر آثاره فقط على اليهود، بل كان المسلمون أيضا عرضة للتقتيل، حيث وقعت قبائل بأكملها ضحية لسخطه¹، لذلك تجمع العديد من المصادر التاريخية على أن فترة حكم هذا السلطان كانت بالفعل حمام دم رهيب، وشكلت بذلك خرقا لالتزامات الحكام المسلمين بحماية اليهود. ورغم ذلك فقد استمر في الاعتماد على خدماتهم في علاقاته التجارية مع أوروبا². ومن الأمثلة الأخرى التي تدخل في باب الاستثناء أنه في عهد السلطان محمد ابن عبد الرحمان وستين بعد توليه الحكم، سيحاول المتمرّد المدعو الجيلالي المكارز الاستيلاء على العرش، حيث أعلن نفسه سلطانا ونبيا بعدما تمكن من إقناع عدد من سكان قبيلته بصواب ادعائه، مصرحا لأنصاره بأن الله قد خاطبه، ومن بين ما كلفه به إبادة سلالة يعقوب، لذلك طلب منهم الهجوم على الطائفة الإسرائيلية وقتل الذكور والنساء والأطفال ونهب أموالهم، وكان مقررا أن يكون يهود مكناس هم أول المستهدفين، والحشود التي تلقت هذا الأمر كانت في عجلة من أمرها لتنفيذ أوامر "الملك- النبي"، وما إن وصل الخبر إلى المدينة حتى عم الملح والذعر في صفوف اليهود الذين تحصنوا بالبيع داخل الملاح، وأعلن الحاخامات ضرورة الصيام والابتهاال إلى الله من أجل رد هذا البلاء، وكان مقررا 13 آذار للبدء في تنفيذ هذه الإبادة، لكن جنود السلطان تمكنوا من دحر هذا المتمرّد وقتله رفقة أنصاره، فعمت البهجة في صفوف يهود مكناس الذين أرجعوا زوال هذا الخطر إلى الإرادة الإلهية، ومنذ ذلك الوقت اتخذوا من تاريخ 16 آذار (فبراير) عيدا لإقامة الأفراح³.

¹ دانييل شروتر، **يهودي السلطان...**، مرجع سابق، ص 93.
² بالرغم من المقت الشديد الذي كان يكنه المولى يزيد لليهود والمسيحيين- وربما كان ذلك جزء من التعبير عن ردة فعل شعبية مناهضة لسياسات والده سيدي محمد بن عبد الله. فقد استمر في الاعتماد على خدمات اليهود، فيما يلي رسالة إلى آل كدالة سنة 1791 تدل على ذلك: إلى خدامنا اولاد الحزان كدالة [...] فليكن في علمهم أنهم من بين أهل الذمة الأوفياء بإخلاصهم في خدمتنا كما كانوا على ذلك أيام والدنا المرحوم بكرم الله. وقد ابقينا عليهم في المرتبة التي كانت لهم مع بلاد الروم وفي بلادنا. " نفسه، ص. 99-100.

³ Albert Guigui, « Histoire de la communauté juive de Meknès », in Colloque international de l'Institut d'Histoire d'Outre-mer, actes du Abboye de Senaque, octobre, 1978, CNRS, Paris, 1980, p. 121-122.

وما ينبغي التنبيه إليه هو أن أعمال النهب والسلب خلال فترات ضعف السلطة الحامية لم تكن آثاره تقتصر على اليهود فقط، بل كانت تشمل أيضا حتى عموم المسلمين، وهذا ما تغفلت العديد من الكتابات الأوربية عن ذكره من أجل تصوير اليهود في حالة الضحايا الوحيدين. وانطلاقا من وجهة النظر هذه، تم التوصل إلى نتائج عامة بخصوص الوضعية غير المستقرة والخفوفة بالمخاطر لليهود في المغرب، حيث سلطت على وضعيتهم أضواء قاتمة، وتقتصر علينا هذه المقاربة صورة كئيبة جدا عن حياة هذه الجماعة. لكن جيلا جديدا من المؤرخين المغاربة اعترض على هذه الصورة السوداوية، وتتلخص الفكرة العامة لهذا الاتجاه في الاستدلال على أن اليهودي كان يتمتع بحماية المخزن وأن الوضع لم يكن على تلك الدرجة من القتامة. هذا النموذج يرى بأن العلاقة "الخيرة" بين اليهودي والدولة، وبين اليهودي وعموم المسلمين، لم يقوضها سوى التدخل الأجنبي، غير أن ما يمكن مؤاخذه على هذا الطرح هو سقوطه في نوع من الطهرانية التي تلقي دوما باللوم على الأجنبي دون الاعتراف بالعوامل الذاتية التي كانت سببا في الانتهاكات الحادة التي طالت اليهود من طرف نظرائهم المسلمين. لكن بالمقابل هناك دراسات تحرت الموضوعية في تناول هذا الموضوع وحاولت وضع الأحداث في سياقها التاريخي، وانتهت إلى أن المخزن، مثلا، في تعاطيه مع ظاهرة مصادرة الممتلكات لم يقتصر في ذلك على كبار التجار اليهود، بل فعل الشيء ذاته مع نظرائهم المسلمين، وهو وضع مماثل لما عانى منه يهود فرنسا خلال القرن 18م، ونخص بالذكر بعض البنكيين ورجال الأعمال اليهود الذين اغتنوا عبر توفير حاجات الحكومة الفرنسية، بفضل الاستفادة من الظروف المحلية لبعض المناطق، لكنهم سرعان ما فقدوا ثروتهم في نهاية حكم الملك لويس 16، شأنهم في ذلك شأن رجال المال والبنكيين المسيحيين¹، وهذا الأمر حصل في عهد السلطان المولى إسماعيل أيضا الذي لم يتردد في تبريك بعض كبار التجار اليهود والمسلمين. وبناء عليه يرى أحمد شحلان مثلا بأن ساكنة المغرب بالمدن والبادي، يهودا ومسلمين، كانوا يتعرضون خلال فترات معينة، خصوصا في فترات انتقال السلطة، أو الثورات الاجتماعية، أو أيام المجاعات والقحط، للتقتيل والقهر والتهجير. ويضيف بأنها أحداث عرفت كل الشعوب قبل الدولة الحديثة التي أقرت مفهوم المواطنة وسيادة القانون فوق الجميع، ويرى بأن بعض الرحالة والمؤرخين الغربيين بل وبعض المؤرخين اليهود، اختاروا أن "يكتبوا التاريخ المليء

¹ محمد جادور، مؤسسة المخزن في تاريخ المغرب، مؤسسة الملك عبد العزيز، الدار البيضاء، ص. 361.

بالدموع"، كما وصفهم بذلك حاييم الزعفراني، وتعمدوا إخراج الحوادث عن سياقها، فكونت تلك الكتابات تاريخاً مبتوراً استعمل من أجل تبرير التدخل الأجنبي بالمغرب¹.

ثمة ملاحظة لابد من التذكير بها وهي أن الاضطهاد في الغالب كان يأتي من قبل العوام المسلمين الذين كانوا يستفيدون من عمليات النهب التي تطال اليهود كلما سادت أجواء عدم الاستقرار، وهذا الأمر كان سائداً بأوروبا أيضاً خلال المرحلة الكلاسيكية، حيث يشير إسرائيل شاحاك إلى أنه وفي أسوأ حالات الاضطهاد العدائي لليهود والتي وصلت إلى درجة تقتيلهم، كانت النخبة الحاكمة جميعها، الملوك والبابا والأرستقراطية العليا وكبار الكهنة والبورجوازيون الأغنياء في المدن المتمتعة بالحكم الذاتي، تقف دائماً إلى جانب اليهود، بينما كان أعداؤهم ينتسبون إلى الطبقات المستغلة والمسحوقة، ورغم أنهم فعلوا ذلك لأنهم كانوا في حاجة إلى خدماتهم، إلا أن الحقيقة هي أنهم دافعوا عن اليهود، ولهذا السبب كانت كافة المجازر ضد اليهود خلال الفترة الكلاسيكية (800 حتى ق 17 وبولندا حتى سنة 1795) جزءاً من ثورة فلاحية أو حركات شعبية، في الأوقات التي تضعف فيها الحكومة لسبب أو لآخر، ويصبح ذلك استثناء في حالة روسيا القيصرية حيث كانت الحكومة تشجع المذابح عن طريق شرطتها السرية². ونفس المؤاخذات التي نسجلها فيما يتعلق بالدراسات التي اختزلت تاريخ يهود المغرب في المعاناة، نجد ما يماثلها بأوروبا إذ يتجاهل التاريخ اليهودي - لاسيما المدون بالإنجليزية - الامتيازات التي كان يحظى بها بعض اليهود، مركزاً، فقط، على فقرهم، وحالات التمييز ضدهم. والحال أن ذلك لم يصح إلا في بعض الفترات، ذلك أن أفقر اليهود من حرفيين وباعة متجولين وخدم ملاكي الأراضي، أو صغار الكتبة كانوا أفضل حالاً من العبيد، ينطبق هذا بصفة خاصة على البلدان الأوروبية التي استمر فيها نظام القنانة حتى القرن 19، في نمطه الجزئي أو المتطرف، أي في روسيا والنمسا³، بما في ذلك المجر⁴.

إن اللبس الحاصل بين النظرية الخاصة بعلاقة الجماعة المسلمة مع غير المسلمين، وبين الظروف التاريخية التي صاغت هذه العلاقة في هيئات وتشكيلات مختلفة، من شأنه أن يجعل التأويل غير واضح. لكن، ورغم ذلك، لا

¹ أحمد شحلان، اليهود المغاربة من منبت الأصول إلى رياح الفرقة، قراءة في الموروث والأحداث، دار أبي رقراق، الرباط، 2009، ص. 307-308.

² إسرائيل شحاك، اليهود واليهودية...، مرجع سابق، ص. 106-107.

³ نفسه، ص. 91.

⁴ الغالبية العظمى من يهود تلك المناطق، وحتى بداية الهجرة الكبرى الحديثة حوالي سنة 1880، كانت وظيفتهم الاجتماعية الأهم هي القيام بقمع الفلاحين نيابة عن النبلاء والتاج، كحلقة وسطى بينهما.

يمكن أن ننفي بأن الدونية كانت ملازمة لليهود حتى في لحظات الاستقرار والتعايش السلمي، لأنها كانت قد أصبحت جزءاً من الثقافة الشعبية لعامة المسلمين، ويمكن استخلاص ذلك بسهولة من الأمثال الشعبية التي تقدم اليهودي في صفة المرابي المحتال والدوني والمخادع، دون أن يرقى ذلك إلى ممارسة الاضطهاد المادي الممنهج في حقهم، كما حاولت بعض الكتابات والتقارير تصوير ذلك خصوصاً خلال القرن التاسع عشر عندما أصبحت ورقة الأقليات مبرراً لشرعنة التدخل في الشؤون الداخلية للمغرب وغيره من البلدان الإسلامية.

هذه الوضعية التي عاش فيها المغاربة اليهود إلى حدود القرن 19 استغلت من قبل عدد من القوى الأجنبية التي كانت تتطلع إلى اختراق المغرب باستثمار تجربتها السابقة في استقطاب الأقليات الدينية والإثنية بالإمبراطورية العثمانية¹، عبر ادعاء الإشفاق على اليهود بمبرر الحرص على احترام "حقوق الإنسان"، دون استنكار ما كان يتعرض له المسلمون من انتهاكات من طرف المخزن. ولأن المغرب لم يعرف غير اليهود كأقلية دينية فإن هذه القوى الاستعمارية تنافست بشدة من أجل استقطاب كبار التجار والأعيان اليهود عبر منحهم الحماية القنصلية وبطاقات التجنيس، ونفس الشيء سيحدث أيضاً مع عدد من التجار والأعيان المسلمين، وهي الفئة التي سيطلق عليها الفقهاء نعت "فئة أهل الباصبور". هذه الفئات بدورها تحمست كثيراً للحصول على هذا النوع من الحماية على قاعدة منطق الربح في العلاقة مع الدول الحامية²، الأمر الذي سيؤدي إلى تصدع العلاقة التي كانت تربطهم بالمخزن، وإلى حدوث تجاوزات في العلاقة مع المجتمع بسبب الامتيازات التي تتيحها الحماية القنصلية. هذا ويتوجب أن نشير إلى الدور الذي قامت به مدارس الرابطة الإسرائيلية العالمية في عملية الاستقطاب لصالح فرنسا قبل توقيع معاهدة الحماية سنة 1912. كل ذلك سيؤدي إلى ردود أفعال من قبل المخزن الذي حاول تطويق الأمر سعياً وراء عدم فقدان سيطرته على رعاياه، كما سيؤدي بالتتابع إلى ردود أفعال من قبل المجتمع تجاه الجماعة اليهودية.

¹ يوسف أخليص، **القضاء القنصلي ومسألة السيادة في مغرب ما قبل الحماية**، منشورات دار التوجيهي، الرباط، 2014، ص. 319.

² "اتساع الامتيازات القنصلية ساهم في ازدياد عدد المحميين، بل أنه لوحظ بعد توقيع معاهدة 1856م (اتفاقية بين المغرب وإبريطانيا تم بمقتضاها توسيع امتيازات المحميين المغاربة اليهود والمسلمين) ازدياد هجرة فقراء أوربا نحو المغرب قصد المتاجرة ببطاقات الحماية وتحقيق الثروة والترقي الاجتماعي بهذا الامتياز القنصلي، كما لوحظ أنه بعد معاهدة 1861 التي وقعها المغرب مع إسبانيا ازداد عدد المحميين في صفوف اليهود عامة والتجار المسلمين واليهود خاصة. بل إن القناصل العامون والوزراء الأجانب المفوضين استغلوا وضع اليهود بالمغرب لجعلهم ورقة ضغط وابتزاز واضحة ضد المخزن. بل إن المتتبع للأحداث خاصة بين 1856 و1880م، أي بين مرحلة الانفتاح التجاري الكبير للمغرب على التجارة العالمية ومؤتمر مدريد، اتجه القناصل العامون إلى محاولة تعميم الحماية على كل يهود المغرب، وإن بدون سند قانوني أو شرط دولي وارد في المعاهدات التي أبرمها المغرب مع الدولة الأجنبية". نفسه، ص. 318.

2. نتائج انفتاح الجماعة اليهودية على أوروبا: تصدع العلاقة مع المجتمع المحلي

تنامى دور الملاحة البحرية منذ مطلع القرن الخامس عشر بفضل الاكتشافات الجغرافية، وتعددت الطرق التجارية البحرية بشكل غير مسبوق، مما أدى إلى اتساع نطاق التجارة الدولية في إطار ما سمي بالمرحلة المركنتيلية، حيث أصبحت للدول والمدن الأوروبية شبكة من المصالح التجارية التي ساهمت في تطور مهمة القنصل الذي أصبح صمام الأمان لرعاية تلك المصالح خارج الحدود الوطنية¹. وهو ما دفع بتلك الدول الأوروبية والمدن التجارية إلى إحداث العديد من القنصليات في المدن والمراسي الأجنبية التي يتاجرون معها من أجل تحصين تجارتهم وتحقيق امتيازات للعاملين بالسفن والتجار المقيمين بها².

غير أن الحري بالتذكير، هنا، أن الامتيازات التي كانت للقناصل الأجانب بالمغرب قبل توقيع معاهدة 1767 بين المغرب وفرنسا قد ظلت في حدود الأمان والاحترام والتوقير، إذ لم يتم توسيعها إلى مستوى الحصانة الفردية أو القنصلية، لكن بعد توقيع تلك المعاهدة تم إقرار الحماية القنصلية³ بشكل أدى، تباعا منذ ذلك الوقت، إلى النيل من مظاهر السيادة المغربية، خصوصا بعد الاتفاقية التي وقعت بين إنجلترا والمغرب سنة 1791، في عهد السلطان المولى يزيد، وقد ضمت هذه المعاهدة 25 شرطا⁴. لقد سهرت هذه الاتفاقية الجديدة على تجديد التأكيد على توقيع القنصل البريطاني وكافة البريطانيين المقيمين والمتعاملين مع المغرب، وكذا توقيع محبيهم سواء أكانوا مسلمين أم يهودا أم نصارى، مع إعفائهم من كل الوظائف المخزنية، بل إن الشرط الثاني من المعاهدة أكد على معاقبة وزجر كل من قلل احترامه للبريطانيين لأن "القونصوات الانجليز الذين يستقرون بإيالة سيدنا يكونوا في عين الوقار على قدر مرتبتهم عند رايهم [ملكهم] في جميع دورهم. وإن تمادى عليهم أحد بسوء يؤدب على قدر تماديه عليهم. والقونصوات

¹ لقد كان القنصل يشغل وظيفة مندوب ومفوض من طرف بلده لدى البلدان الأجنبية لرعاية مصالح تجار بلده وحماية أموالهم وتجارهم وسلامتهم باسم الحكومة التي انتدبته.

Cité in, Borel F, **De l'origine et des fonctions des consuls**, Saint-Petersbourg, Chez A. Planchant, Imprimeur du département des affaires étrangères, Saint-Petersbourg, 1807, p. 7.

² يوسف أخليص، **القضاء القنصلي ومسألة السيادة في مغرب ما قبل الحماية...**، مرجع سابق، ص، 114-115.

³ "أقدم المعاهدات التي أبرمتها فرنسا مع المغرب تعود الأولى إلى سنة 1630م، وآخرها سنة 1682، وبعد غياب ناهز القرن قررت فرنسا على عهد الملك لويس الخامس عشر الاستفادة من جو الانفتاح البحري والتجاري الذي باشره السلطان سيدي محمد بن عبد الله (1757-1790) مع الدول الأوروبية واستثمار خبرتها التفاوضية التي راكمتها مع الدولة العثمانية منذ سنة 1535م لتوقع اتفاقية 28 ماي سنة 1767م. خصص الشرط الحادي عشر لحقوق القناصل والتجار الفرنسيين المقيمين في المغرب ومساعدتهم من سماسرة ومترجمين. لقد تحدثت مهام القناصل في كونهم " وكلاء له [ملك فرنسا] في مراسي سيدنا نصره الله، ليعينوا التجار ورؤساء البحر والبحرية في جميع ما احتاجوا إليه، ويسمعوا دعاويهم ويفصلوا بينهم فيما يقع من نزاع". لكن أخطر ما تضمنته هذه المعاهدة وهذا البنذ هو ذلك النص الذي وسع دائرة المحميين وخصهم بامتيازات رعايا فرنسا والقناصل في المغرب [...] يقول النص: " (...) ومن استخدمه القنصوات المذكورون من كاتب وترجمان وسماسر وغيرهم، فإنه لا يتعرض لمن استخدمه بوجه، ولا يكلفون بشيء من التكاليف أيا كانت في نفوسهم وبيوتهم، ولا يمنعون من قضاء حاجات القنصوات والتجار في أي مكان كانوا..." إن هذا النص بهذا الوضوح والتدقيق رسخ ظاهرة المحميين بكل المقاييس القانونية والتوقيرية والضريبية والقضائية". نفسه، ص. 230.

⁴ نفسه، ص. 257.

المذكورين هم من يختارون لأنفسهم من يليق بهم يجعلونه خليفة لهم سواء كان مسلما أو نصرانيا أو يهوديا.¹ كما نصت فصول هذه المعاهدة على سابقة خطيرة تمثلت في النيل من سيادة القضاء المغربي في حال حدثت خصومة بين المغاربة والإنجليز، حيث نص الفصل السابع على أنه لا حق للقضاء الشرعي في محاكمة المغاربة والبريطانيين المتخاصمين فيما بينهم فوق الأراضي المغربية. كما نص الفصل نفسه على إحداث المحاكم المختلطة للبث في المنازعات بين الطرفين، وتتكون هذه المحكمة من الباشا أو قائد المنطقة التي وقع فيها النزاع والقنصل أو من ينوب عنه، والتي تكون تلك المنطقة ضمن نفوذ سلطته، على ألا تخضع الأحكام للشرع أو لقانون محدد، بل لاجتهادات الحاكم والقنصل. كما نص الفصل الثامن على تفصيل آخر لا يقل خطورة على سيادة المغرب في المجال القضائي، وتمثل في أنه إذا كانت لمسلم دعوة ضد بريطاني فعليه أن يرفع الدعوة في بلاد الإنجليز، والعكس غير ممكن، بحيث ظل هذا الامتياز خاص بالإنجليز دون المغاربة.²

ومنذ مطلع القرن التاسع عشر توالى اتفاقيات مع مجموعة من القوى الأجنبية سعت كلها إلى تحصيل مجموعة من الامتيازات الجديدة في المجال القضائي والحماية القنصلية، إلى أن أصبح المغرب منذ منتصف هذا القرن محط أنظار وأطماع القوى الامبريالية الأوروبية الكبرى، التي سعت إلى تعزيز اختراق مظاهر السيادة المغربية وإذكاء تناقضات البلاد الداخلية، مثلما حدث مع الإمبراطورية العثمانية، ولذلك حاولت إعادة استثمار تجربتها ببلاد المغرب الأقصى، وقد كان ادعاء حماية الأقلية اليهودية من بين المبررات الرئيسية التي تم اعتمادها لتحقيق ذلك الهدف عبر منحهم الحماية القنصلية وبطاقات التجنس. وهو نفس السياق الذي سعت فيه فرنسا، مثلا، إلى الاستفادة من مدارس الرابطة الإسرائيلية العالمية منذ حلولها بالمغرب سنة 1862م، حيث اعتبرت أن هذه الأخيرة قادرة على القيام بنفس الدور الذي كانت تقوم به الإرساليات الكاثوليكية في بلدان المشرق لفائدة النفوذ الفرنسي³، خاصة وأنها كانت فرنسية اللغة والثقافة. كما راهنت هذه الأخيرة على محميها بعد المعاهدة التي أبرمتها مع المغرب سنة 1863م، حيث جاءت هذه الاتفاقية الثنائية كنوع من التتويج للاختراق الصامت للسيادة المغربية، لأنها أضفت

¹ عبد اللطيف الشاذلي، نصوص اتفاقيات دولية مبرمة بين المملكة المغربية ودول أجنبية، الجزء الثاني، المطبعة الملكية، 2006-2007، ص. 141.

² يوسف أخليص، مرجع سابق، ص. 258-259.

³ محمد كنييب، المحميون... مرجع سابق، ص. 258-259.

الشرعية الدولية والقانونية على الحمایات القنصلية¹، فأصبح بذلك هؤلاء المحميون المغاربة مسلمين كانوا أم يهودا غير خاضعين للقضاء المغربي، لأنهم صاروا تحت نفوذ القضاء الأجنبي.

وفي هذا السياق يشير محمد كنيب على سبيل المثال لا الحصر، إلى أن إنجلترا، وفي إطار سعيها لاستقطاب الأقلية اليهودية، قد استفادت بدورها من متانة علاقتها مع مجلس نواب اليهود البريطانيين (Board of Deputies Jews)، والجمعية اليهودية الإنجليزية (Anglo-Jewish Association)، وقد كان احتضانها لمبادرة الثري الانجليزي ذي الأصول المغربية موزيس مونتيفوري/Moses Montefiore دليلا على مساعيها في هذا الإطار²، ذلك أنه وفي سياق التنافس الذي كان قويا حول المغرب ستقوم بريطانيا -التي كانت تحشى منافسة القوى الأخرى خاصة فرنسا³- سنة 1864 بتأييد مشروع رئيس مجلس نواب اليهود البريطانيين موزيس مونتيفوري، الذي قرر رغم تقدمه في السن، تحمل مشقة السفر والقيام بزيارة للمغرب في أواخر سنة 1863 ومطلع سنة 1864م، وذلك على خلفية الضجة الهائلة التي أحدثتها المفوض الإسباني بمدينة طنجة، بعد أن فرض إعدام أربع يهود، متهمين بتسميم موظف إسباني كان يزاول مهامه بميناء أسفي⁴، ويشارك في الاقتطاعات من المداخل الجمركية المرصودة للغرامة الحربية

¹ "الحماية تكون للشخص المعين لها في وقت تعلقه بالخدمة. وهذه الحماية لا تشمل أقارب المحمي ونائبه، وإنما تقدر أن تشمل حريمه وأولاده الساكنين معه في منزل واحد. ويقدر أن تبقى لبعض الأشخاص مدة عمره كله. فإذا مات انقطعت، ولا تورث. ما عدا دار موسى بن شمول المكنى بربوا، التي هي موروثة عندهم أبا عن جد تولدت منها سمسرة وترجمة في نيابة طنجة. والحماية تنقسم إلى قسمين: القسم الأول: أولاد البلد الذين يخدمون في دار الباشدور وديار القونسوات نوابه مثل الكتاب والمخازنية والمتعلمين وشبههم. القسم الثاني: السمسرة المستخدمين عند التجار الفرنسيين في أمور تجارتهم. هؤلاء التجار المشار إليهم لا يسمى أحد منهم تاجرا إلا الذي يكون يتجر تجارة كبيرة أو تكون تجارته بالدخول الخارج في المرسى، سواء كانت تلك التجارة له أو كان نائباً فيها عن غيره. عدد السمسرة الذين يكونون في الحماية لا يزيد عن اثنين في كل دار متجر. نعم الدار التي تكون لها دار أخرى في مرسى أخرى، فيكون لها في كل دار سمساران محميان. حماية دولة فرنسة لا تشمل أولاد البلد المستخدمين في البادية في مثل أمور الحراثة والفلاحة ورعي الغنم وشبه ذلك. ولكم باعتبار ما هو جار الآن، وذلك بالاتفاق مع حكام مراكش، الحماية لهؤلاء المذكورين تكون جارية لهم مدة شهرين أولهما فاتح شتنبر الموالي لتاريخه. ومعروف أن هؤلاء المستخدمين في البادية مع الفرنسيين حين تجب مطالبتهم بالأحكام، فيعلم عاملهم نائب الفرنسيين ليأمر صاحب الغنم أو الحرث بتوجيه من يقف على متاعه لنلا يبقى للضياح. زمام من هو في حماية الفرنسيين يعطيه نائبهم لعامل البلد الذي هو فيها. وإذا حدث تبدل أو تغيير في بعض الأشخاص المحميين، فيعلمه بذلك". عبد اللطيف الشادلي، نصوص اتفاقيات دولية مبرمة بين المملكة المغربية ودول أجنبية...، مرجع سابق، ص.ص. 562-563-564.

2 محمد كنيب، المحميون... مرجع سابق، ص. 258. 259.

³ Doris Bensimon-Donath, *Evolution du judaïsme marocain sous le Protectorat français, 1912-1956*, Paris, 1968, p. 140.

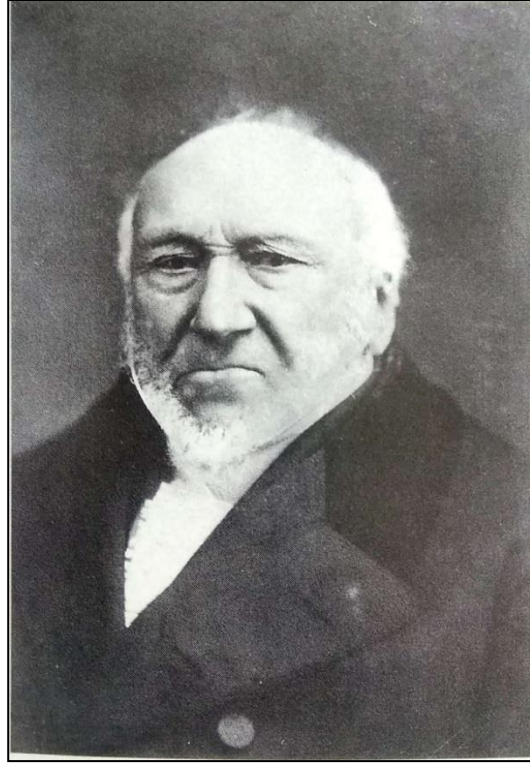
⁴ "حدث أن أقدم اليهودي يوسف بن يهودا، وبتواطؤ مع ثلاث يهود مغاربة آخرين على قتل مشغله الاسباني مانطيا Mantilla. فاستطاع المخزن اعتقال المتهمين الأربعة، وبعد التحقيق معهم اعترف ثلاثة منهم بالمساهمة في تسميم الهالك، بينما تثبتت الرابع ببراءته. وبعد الإقرار والانتهاز من التحقيق والمحاكمة، أمر السلطان بإعدام اثنين منهم لكونهما مغربيين، أما الثالث فقد أحيل على المفوضية البريطانية باعتباره تونسيا، وأن ابريطانيا كانت مسؤولة عن حماية المصالح العثمانية في طنجة. أما الرابع الذي لم تثبت مساهمته في تسميم الاسباني الهالك فقد اكتفى بسجنه. وبعد صدور قرار الإعدام السلطاني، روج أثرياء اليهود بالمغرب وسط القنصليات الأجنبية ولدى الجمعيات الصهيونية العالمية، خاصة الأوروبية، إشاعة مفادها أن المخزن أعدم اليهوديين بأسفي دون تحقيق أو محاكمة. بعدها تدخلت ابريطانيا للمطالبة بإعادة التحقيق والمحاكمة، وهو نفس الموقف الذي اتخذته فرنسا وإيطاليا. بل إن الجمعيات الصهيونية الأوروبية وأثرياء يهود أوربا أرسلوا موفدا يهوديا إلى المغرب لانتزاع ظهور توقيع لفائدة يهود المغرب، على غرار فرمان الذي حصل عليه يهود الدولة العثمانية سنة 1844م. هذا الموفد لم يكن سوى اليهودي الثري مونتيفوري الذي حصل من السلطان العثماني على فرمان توقيع اليهود الأتراك". يوسف أخليص، مرجع سابق، ص. 319.

المفروضة على المغرب بعد انخراطه في "حرب تطوان"¹. إن قدوم السيد مونتيفوري الذي كان مرفوقا بالقنصل البريطاني بطنجة، وعدد من الشخصيات المهمة، كان بدعوى السعي لتحسين وضعية إخوانه في الدين بالملكة، حيث اتجه إلى مراكش حيث يقيم السلطان محمد بن عبد الرحمان، في موكب مهيب، واستقبله هذا الأخير في مناسبتين². وحتى لا تثار حفيظة المخزن ويعتبر بأن هذه الخطوة تدخلا في شؤونه الداخلية عبأت المفوضية التي كان يشرف عليها جون دريموند هاي³ كل إمكاناتها لإقناع المخزن بالطابع "الخيرى الصرف" للزيارة التي صمم مونتيفوري على القيام بها، فألحت المفوضية على الانعكاسات الطيبة التي سيخلفها لدى "الأجناس" استقبال هذا الرجل العجوز المعروف في إنجلترا ومختلف أرجاء المعمور بأعماله الخيرية، وشفقته على إخوانه في الدين المعوزين. كما أكد ج.د. هاي للسلطان محمد بن عبد الرحمان على أن دعم الحكومة والمفوضية البريطانيتين لمونتيفوري يظل مجرد مساعدة تقنية، اعتبارا لسنة وشهرته ونواياه الخيرية، وأن هذا الدعم لا يكتسي أي صبغة رسمية. لكن دوافع الحكومة البريطانية من وراء خطوة استعمال الورقة اليهودية كان هو تحقيق أهدافها الإستراتيجية في الجزء الغربي من البحر الأبيض المتوسط، وضمان الوضع القائم جنوب مضيق جبل طارق.

¹ سبق لبريطانيا تقديم دعمها لمنطيفوري إبان قيامه بزيارة إلى إسطنبول سنة 1840، قابل خلالها السلطان عبد المجيد وطالب منه إصدار فرمان لصالح يهود الإمبراطورية العثمانية، وذلك غداة الأحداث الدامية التي شهدتها دمشق، إثر هجوم مسيحيين على يهود، واتهامهم باختطاف وقتل أطفال مسيحيين، واستعمال دمانهم فيطقوس دينية يهودية. وبوقوفها هذا إلى جانب اليهود العثمانيين ومحاولة استقطابهم، كانت الحكومة البريطانية تضع اللبنة الأولى لمشروع طالما راود وزيرها الأول، اللورد بلمرستون (Lord Palmerston)، وتمحور حول فكرة إحداث كيان يهودي بفلسطين، ووضعه تحت الحماية البريطانية في الشرق الأوسط، وتأمين المواصلات مع الهند، "جوهرة التاج البريطاني". محمد كنيبي، المحميون...، مرجع سابق، ص 259.

² A. Guigui, op. cit, p. 121.

³ جون دريموندهاي : وزير ابريطانيا المفوض في المغرب، مثل بلاده حوالي نصف قرن في المملكة المغربية، وأقنع حكومة بلاده بدعوة الدول الأجنبية لمؤتمر دولي (مؤتمر مدريد) للنظر في مشكلة الحماية القنصلية كما أقنع السلطان المولى عبد الرحمان بتوقيع اتفاقية 1856 التجارية مع ابريطانيا.



Source : Jacques Attali, *Les juifs, Le monde et l'argent*, op.cit.

فهل اقتنع السلطان بما ذكر له في هذا الشأن؟ الجواب المرجح أنه لم يثق ولو لحظة واحدة بما قيل وكتب له حول الطابع الشخصي والخاص لزيارة رئيس مجلس نواب اليهود البريطانيين للمغرب، وذلك لسببين اثنين على الأقل: أولاً، معرفته الدقيقة (بحكم التجربة) بأساليب وابتكارات ج.د.هاي، والطرق التي كان يسدي بها "نصائحه"، وثانياً، تعيين القنصل العام البريطاني بطنجة، طومس ريد (Thomas Reade)، لمرافقة مونتيفيوري في مختلف مراحل زيارته لمراكش. فكان منطقياً أن يؤول وقوف القنصل العام بجانب الزائر اليهودي طيلة سفره ومقامه بمراكش طبقاً لدلالاتها السياسية الحقيقية ولرمزيتها، وأن يتجاهل ما أكده هاي حول وجود هذا القنصل بجانب الزائر اليهودي، مدعياً أنه لا يسافر معه إلا من باب الصواب* ولمجرد "مرافقته واستئناسه" بصفته رجلاً عجوزاً متنقلاً في بلد غريب عنه¹. وبغض النظر عن خلفيات الزيارة، فقد تكللت هذه الأخيرة بالنجاح، حيث تمكن الرجل من استصدار ظهير ملكي

* عبارة (من باب الصواب) هكذا وردت في النص الأصلي بكتاب: المحميون، لمحمد كنيبيب.
¹ محمد كنيبيب، المحميون... مرجع سابق، ص. 260.

من السلطان بتاريخ 5 فبراير سنة 1864م يتعهد فيه بمعاملة اليهود وفقا لمبادئ العدالة والمساواة بينهم وبين المسلمين أمام القانون¹. وقد نص الظهير المذكور على ما يلي:

"بسم الله الرحمن الرحيم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، نأمر من يَقِفُ على كتابنا هذا أسماء الله وأَعَزَّ أَمْرَهُ، وَأَطْلَعَ في سماء المعالي شمسَه المنيرة وبدَرَه، من سائر حُدَامِنَا وَعُمَالِنَا والقائمين بوظائف أعمالِنَا، أن يعاملوا اليهود الذين بسائر إِيَالَتِنَا بما أوجبَه الله تعالى من نَصَبِ ميزان الحق والتسوية بينهم وبين غيرهم في الأحكام، حتى لا يَلْحَقَ أحدا منهم مثقالُ ذرة من الظلم ولا يُضَامَ، ولا يَنَالَهُم مَكْرُوه ولا اهْتِضَام، وأن لا يَتَعَدَّوْهُمْ ولا غَيْرُهُمْ على أحد منهم لا في أنفسهم ولا في أموالهم، وأن لا يستعملوا أهلَ الحر منهم إلا عن طيب أنفسهم وعلى شرط تَوْفِيتِهِمْ بما يَسْتَحِقُّونَهُ على عملهم، لأنَّ الظلم ظلماتٌ يوم القيامة، ونحن لا نوافق عليه لا في حقهم ولا في حق غيرهم، ولا نرضاه، لأنَّ الناس كلَّهُم عندنا في الحق سواء، ومن ظَلَمَ أحداً منهم أو تَعَدَّى عليه فَإِنَّا نَعاقِبُهُ بحول الله، وهذا الأمر الذي قررناه وأوضحناه وَبَيَّنَّاهُ كان مقررًا ومعروفًا مُحَرَّرًا، لكنْ زِدْنَا هذا المرسومَ تقريرًا وتأكيدًا ووَعِيدًا في حق من يريد ظلمَهُم، وتشديدًا لِيَزِيدَ اليهودُ أَمْنًا إلى أَمْنِهِم، ومن يريد التَّعَدِّيَ عليهم خوفاً إلى خوفهم، صَدَرَ به أمرنا المعترز بالله في السادس والعشرين من شعبان المبارك عام ثمانين ومائتين وألف"².

هذا الأمر لم يشر امتعاض السلطان³، على عكس القواد والباشوات الذين لم يرقهم أمر ذلك⁴. لكن المغاربة اليهود عبروا في مناسبات عديدة عن أن القوى الأنجلوساكسونية تعد طرفا في القضية المغربية، وجبلوا على تخصيصها بالاحترام والتقدير، لأنهم اعتبروا بأن ابريطانيا بالإضافة إلى الولايات المتحدة الأمريكية "تاريخ حافل" في الدفاع عنهم وعن مصالحهم، وأن الفضل يعود للدولتين في إرغام المخزن على تمكينهم من حقوق لا يستهان بها والاعتراف لهم

¹ A. Guigui, op. cit, p. 121.

² أبو العباس أحمد الناصري، الاستقصاء في اخبار المغرب الأقصى، الجزء التاسع، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1956. ص. 113-114.
³ دانييل شروتر، يهودي السلطان وعالم اليهود السفرد، مرجع سابق، ص. 387.
رغم أن منتيفيوري قد نجح في الحصول على من السلطان علة ظهير وعد فيه اليهود بالعدل، وبوضع حد للعقوبة الجسدية. لكنه، وبينما أفضت التنظيمات في الإمبراطورية العثمانية بفعالية إلى التخلص من وضع أهل الذمة. (ولو على المستوى النظري) وإلى إنشاء المحاكم المدنية الجديدة، فإن سلطان المغرب لم يفعل من وجهة نظره شيئا، أكثر من المصادقة على نظام العدل، القائم وقتئذ في ظل الشريعة الإسلامية. بعبارة أخرى، لم يتحقق وضع أي نظام للحقوق المدنية، يضمن المساواة للجميع، واستمر اليهود في دفع الجزية.

⁴ A. Guigui, op. cit, p.121.

بامتيازات شتى¹. لذلك ألح النشطاء اليهود في علاقتهم بمخاطبيهم بأوروبا على ضرورة اتخاذ مواقف متصلبة إزاء المخزن، لأن الحماية القنصلية تشكل، على حد قولهم، ضماناً فعالة ضد "تسلط وجور العمال"، فأطنبوا في هذا المنحى لإبراز مزايا حمايات، بشكل أعطى الانطباع كما لو أن الطوائف اليهودية كلها تستفيد منها². كما أن الصحف الصادرة حينها بطنجة وجبل طارق ولندن ونيويورك، بالغت في وصف المخاطر التي يتعرض لها اليهود بالمغرب بعبارات من قبيل: "لا أمن ولا أمان لليهود المغرب على أرواحهم وممتلكاتهم دون يقظة وحماية الدول الأوروبية والولايات المتحدة الأمريكية ولا" خلاص لهم إلا بفضل أو رعاية هذه الدول³. وفي هذا السياق عبر نائب كاتب الدولة في الخارجية البريطانية شارلز ديلك (Charles Dilke)، بشكل رسمي، عن رأي متوازن فيما يخص المزاعم المبالغ فيها من قبل الأطراف التي بالغت في تحويل المخاطر التي يتعرض لها اليهود من قبل المسلمين، وذلك في رده على الجمعية الإنجليزية اليهودية، حيث أشار إلى أن اليهود المحميين لا يشكلون سوى فئة قليلة من مجموع الساكنة اليهودية، كما أكد أن الأغلبية منهم لا ينشغلون سوى بضمان قوتهم اليومي، بل يشكون في بعض الأحيان من تصرفات المحميين المتعجرفين، ويحملونهم مسؤولية ردود أفعال المسلمين الساخطة بسبب ارتكابهم لمجموعة من التجاوزات المرتبطة بالممارسات الربوية والدعاوي الباطلة⁴. إن بريطانيا بالرغم من حرصها على اختراق المغرب عبر حمايات القنصلية، إلا أنها كانت ضد استمرار توزيعها بشكل فوضوي، لأن من شأن ذلك أن يؤدي إلى التسريع بانحيار المغرب، وسقوطه في يد غريماتها فرنسا التي كانت تتطلع إلى ذلك، من أجل احتلاله وتوحيد شمال إفريقيا تحت رايته، بعدما تمكنت من احتلال الجزائر سنة 1830.

وإذا كان هذا هو موقف بريطانيا، فكيف تعاطت فرنسا مع موضوع حمايات القنصلية بالمغرب؟ وما هي الأدوار التي قامت بها الرابطة الإسرائيلية العالمية من أجل تسهيل مهمتها في هذا الاتجاه قبيل وخلال مؤتمر مدريد؟ يجدر القول، بداية، أن كل المبادرات التي كانت تدعو إلى تقنين حمايات القنصلية والحد منها، قد قوبلت بالرفض من قبل فرنسا التي كانت مصممة على تسريع وتيرة تآكل بنيات المخزن، عبر توظيف الحماية القنصلية على

¹ محمد حاتمي، **الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية ورهان المغرب المستقل 1948-1961**، أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في الآداب، تخصص تاريخ، جامعة سيدي محمد ابن عبد الله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس- فاس، السنة الجامعية: 2006-2007، ص. 120.

² محمد كنيب، **المحميون...** مرجع سابق، ص، 261-262.

³ نفسه، ص. 266.

⁴ نفسه، ص. 271.

أوسع نطاق ممكن من أجل التسريع بانتهاء البلاد¹. وتجدر الإشارة إلى أنه قبل انعقاد مؤتمر مدريد كان عدد من المغاربة اليهود يتمتعون بالحماية الفرنسية، خاصة المستخدمين المكلفين بالأعمال التجارية للفرنسيين، وخلال مؤتمر مدريد سنة 1880 مثلت الرابطة الإسرائيلية العالمية من قبل شارل نظير وفينيزيان اللذين قدما عرضا عرضوا فيه "تظلمات" المغاربة اليهود من قبيل انعدام الأمن وغياب المساواة أمام القضاء، بهدف تحصين مطلب الحصول على الحماية القنصلية، واعتبر أندري شوراكي أن تلك الحماية كانت ضرورية لتأمين التوازن المطلوب لهذه الساكنة، كما اعتبرت فرنسا بأن هدفها من دعم هذا المطلب هو ضمان الحماية للأقلية اليهودية². وبهذا تكون الرابطة قد ضمت صوتها إلى صوت الجمعية الإنجليزية اليهودية، حيث ألحت هي الأخرى على التذكير بـ "جرائم" المسلمين المقترفة في حق اليهود، وناشدت بدورها العالم المتحضر لموازنة يهود المغرب³، ورفض أي تعديل لنظام الحماية. ورغم أن الإتحاد الإسرائيلي كان يبحث في برامج مشروع محاضراته على الابتعاد عن الخوض في الشؤون السياسية والعرقية، إلا أنه لم يلتزم، رغم ذلك، بهذه المحاذير، في ظل وضع سياسي مغربي كان يتسم بالغليان خلال هذه المرحلة بالنظر لحجم الضغوطات التي كانت تتعرض لها البلاد. وفي هذه المرحلة لم تكن مدارس الرابطة تجد أي حرج في استقبال مختلف القناصل الممثلين لدولهم بطنجة وتطوان، في إطار زيارات أو من أجل تلقي الهبات. كما كان مدراء هذه المدارس سيبعثون بتقارير مفصلة حول أحوال المغرب إلى اللجنة المركزية بباريس⁴، أو إلى المنظمات اليهودية الممثلة دبلوماسيا لدى المغرب. هذا الأمر أثار السلطات المغربية التي حاولت وضع حد له، وذلك عبر توفير الحماية لهذه المدارس، حتى يتم قطع الطريق على تدخلات الدول الراعية، وقد بعث الوزير المدني الكلاوي في هذا الإطار برسالة إلى السلطات المحلية (القواد والبشوات) يقول فيها: "إن هدف مدارس الإتحاد في مدن المغرب هو تعليم اليهود والتخفيف من معاناتهم، وأوصيكم، خصوصا بالمعلمين الذين سيأتون قريبا للقيام بهذه المهمة، وبالتلاميذ الذين يؤمنون هذه المدارس"⁵. وبما أن هذه المدارس كانت فرنسية اللغة والمضمون، فقد كان المديرون الذين يمثلون رأي اللجنة المركزية بباريس لا يترددون في التعبير عن الولاء للدولة الحامية.

¹ نفسه، ص. 267.

² A. Chouraqui, L' A.I.U et la renaissance Juive contemporaine, 1860-1960, Cent ans d'histoire, Presse Universitaire de France, 1860-1960, Paris, 1965, p. 111.

³ محمد كنيب، المحميون، مرجع سابق، ص. 272. 273.

⁴ أحمد شحلان، اليهود المغاربة...، مرجع سابق، ص. 84.

⁵ نفسه، ص. 83.

يتضح إذًا، أن استثمار القوى الأوروبية للورقة اليهودية في إطار نظام الحماية القنصلية قد تبلور بحدة أكبر منذ منتصف القرن 19، مع اشتداد التنافس الاستعماري على المغرب، بعدما كانت هذه القوى قد وسعت من نشاطها التجاري في الموانئ المفتوحة في وجه الحركة التجارية مثل طنجة والصويرة وتطوان¹. ومنذ هذه الفترة ازداد طلب المغاربة اليهود على الحماية الأوروبية حيث بدؤوا يتطلعون إلى التحرر من قانون أهل الذمة، مع ما رافق ذلك من تجاوزات - سهلت مأمورية الطرفين -، الأمر الذي ساعد ممثلي القوى الأجنبية على إيجاد المسوغات للتدخل في الأمور المتعلقة بالمغاربة اليهود. وهكذا كلما كان الخناق يشتد على المغرب، كان اليهود يحاولون تجاوز الحدود المرسومة لمنزلتهم كما عينتها لهم الدولة الإسلامية، وكان يتم التذكير بالوضع الشرعي للذمة الذي يكرس دونيتهم. لذلك، فبمجرد ما بدأ التدخل الأوربي في إشهار التحدي أمام سيادة المخزن، شرع كبار التجار والأعيان اليهود ممن متنوا أو أصرهم بالقوى الأجنبية في "الانفصال" للتخلص من سلطة المخزن². لقد كان هدف هذه القوى، كما أوضحنا، هو استقطاب اليهود المحميين من أجل تيسير التدخل في شؤون المغرب، ليكونوا أدوات في عملية الاختراق بما يخدم أجنداتهم السياسية ومصالحهم الاقتصادية، الأمر الذي أتاح للمحميين بالمقابل الحصول على مجموعة من الامتيازات، حررتهم من تجاوزات المخزن في بعض الحالات. ومن ثم أصبح نظام الحماية القنصلية من الوسائل الأساسية التي اعتمدتها القوى الأوروبية للتدخل في شؤون المغرب، الأمر الذي ساهم في تعقيد الوضع الداخلي للبلاد، خاصة وأن نظام الحماية القنصلية كان قد أصبح جد مطلوب من قبل الرعايا المغاربة خاصة اليهود³. كما تجب الإشارة إلى أن الأوربيين المدافعين عن حق المحميين في الحصول على الحماية القنصلية قد اجتهدوا في تسويق المبررات

¹ مجلة الوثائق المغربية التي تصدرها مديرية الوثائق الملكية، العدد 2، المطبعة الملكية، الرباط، 1976. ص. 202-203. -الإنفاقية التجارية المغربية البريطانية التي وقعت في شهر دجنبر سنة 1856 نصت في بعض بنودها على ما يلي : الشرط الأول : تكون التجارة جارية مساوية بين إيالة سلطان مراكش وبين إيالة اكروت برطن. (ابريطانيا العظمى). فرعية سلطنة اكروت برطن لهم الإتيان والسكن والبيع والشراء في جميع مراسي سلطان مراكش دون أمد محدود في كل ناحية من نواحي سلطان مراكش، وفي كل محل يستقر فيه غيرهم من الأجناس فإنهم يستقرون فيه كذلك ولهم الكراء... وأعمال الديار والمخازن لسلعهم... ولهم البيع والشراء مع من شاؤوا... / الشرط الثالث: لا يلزم مكس ولا غرمة ولا أعشار ولا ما يشبه ذلك من رعية سلطنة اكروت برطن في شراء أنواع السلع الخارجة بأي وجه في جميع نواحي سلطان مراكش(مولاي عبد الرحمان) اشتروا ذلك بأنفسهم أونوا بهم إلا ما يلزم من الصاكة حسبما هو مذكور في الشرط الرابع"

²دانييل شروتر، يهودي السلطان،...، مرجع سابق، ص. 45.

³François Giraud ,Charles de Foucauld, 1858 -1916, de Strasbourg à Marseille et Tamanrast, itinéraires d' un homme entre Occident et Orient, Ed. Anovi , 2013, p.80.

النظرية الفلسفية لذلك، بدعوى أنها ضرورية¹ بحكم الخلفية الدينية للدولة الإسلامية، على أساس أن المسلمين قد جعلوا من الانتماء للإسلام أساسا "للوطنية"²

لقد أضحت فئة المحميين المغاربة، بعد هذه التطورات، تتمتع بوضع متميز، لأن الحصول على الحماية أصبح يخول لهم عدة امتيازات كانت من قبل امتيازًا حصريًا للأجانب فقط كما سبق وأوضحنا ذلك، كالإعفاء من أداء بعض الضرائب وحق التقاضي أمام المحاكم التابعة للقنصليات الأجنبية³، وقد كان من بينهم عدد كبير من الأعيان اليهود، ذلك أنه ما بين سنتي 1878-1880 قد بلغ عدد المحميين بالمغرب ما بين 700 إلى 800 أوري، 25 بالمائة منهم يهود، ما يمثل 150 إلى 200 محمي من أرباب الأسر، أي ما يناهز من 3000 إلى 4000 فردا إذا احتسبنا بأن كل أسرة تتشكل في المعدل من 20 فردا، وكانوا يمثلون بالتالي 3 بالمائة من الساكنة اليهودية المغربية. وتنبغي الإشارة إلى أن عددا من رؤساء هذه العوائل كانوا يشرفون على تسيير مؤسسات الجماعات التابعة لهم في مختلف المراكز الحضرية الرئيسية التي يتمركز بها اليهود⁴.

استفحال حمايات القنصلية خلال هذه المرحلة، صار يقلق المخزن كثيرا، لأنه فقد أغنياء البلد⁵، وعليه بدأ السلطان المولى الحسن يبحث عن حلول للتخفيف من إفلاس السيادة الذي أصبحت تعاني منه البلاد، فطالب بالتنسيق مع بريطانيا بضرورة عقد مؤتمر دولي تحضره الدول الأجنبية التي تجمعها مع المغرب اتفاقيات تقرر الحماية،

¹ "حاول دو روزاس De Rausas أن يقدم تحليلا فلسفيا ونظر يابير في أن نظام الامتيازات الغربية في البلاد الإسلامية أمر ضروري ولا بد منه. لقد ركز مقاربتة بكاملها حول مفهوم الدولة. فكلما ارتبطت الدولة بالدين والعقائد أكثر من ارتباطها بالأفراد والأشخاص، يصبح الدين وغيره من العقائد هو مصدر تشريع تلك الدولة، مما يؤدي إلى إنتاج قوانين دينية وليس مدنية. هذا يعني أن تلك القوانين لا تعني ولا تطبق سوى على المؤمنين والمتدينين بذلك الدين. وتلك الدولة لا تخضع فقط لتشريعات دينها بل كذلك تحدد بمجالها الحدودي الذي يوطرها ويميزها ويعرفها. هذا الأمر يطرح مشكل للأجنبي. فتلك الدولة لم تنتج قوانين سوى لمتدنييها والمقيمين داخل حدودها، ولم تنتج قوانين خاصة بالأجانب. فالأجانب اعتبرتهم هذه الدولة أعداء، غير مرغوب فيهم وغير معنيين بتلك القوانين، لأنهم متدينين بدين الدولة وغير منتسبين لمجالها الحدودي. فهم غرباء عن كل فضاء تلك الدولة. فالأجنبي لا حقوق له داخل تلك الدولة، ومن لا حق له لا قانون له. هذا يعني أن الأجنبي يجب أن يبقى خاضعا ومحكوما بقانونه الخاص، وهذا القانون مرفوض وغير معلوم لدى الدولة الدينية الحدودية. لكن مع التفاعل الحضاري والتبادل الاقتصادي وتوسع المجال التجاري بدأ التعامل مع الأجنبي ليس كعدو غير معترف بحقه في التواجد داخل ذلك المجال الحدودي الإيماني، بل بدأ التعامل معه كغريب وجب التعامل معه وفق الشروط والسمات التي تميزه كغريب، هذا التعامل الجديد هو الذي دفع بالدولة الدينية إلى الاعتراف والاحترام للغريب بقوانينه الخاصة داخل المجال الحدودي للدولة الإيمانية." يوسف أخليص، **القضاء القنصلي ومسألة السيادة في مغرب ما قبل الحماية**، مرجع سابق، ص. 155.

² طه إبراهيم، **مساهمة في حل أزمة العقل العربي المسلم**، ميريت للنشر والمعلومات، الطبعة الأولى 2002، القاهرة، ص. 128.

³ Arlette Berdugo, **Juives et Juifs dans le Maroc contemporain, image d'un avenir**, Librairie Orientaliste Paul Gueunther, Paris, 2002, p 74.

⁴ Ibid, p. 48.

⁵ D. Bensimon- Donath, **Evolution...**, op. cit, p. 103.

وتتوفر على محميين مغاربة لديها، وقد سعى السلطان لأن تكون مدينة طنجة مقرا للمؤتمر، لكن تصلب ومناورات فرنسا وإسبانيا أجهض ذلك، فتقرر عقد المؤتمر بالعاصمة الإسبانية مدريد¹.

وعندما حاول المخزن تطويق الأمر خلال مؤتمر مدريد سنة 1880، تحركت كبريات الجمعيات اليهودية لدى ممثلي الدول المشاركة عشية انعقاده من أجل رفض الإصلاحات التي كان المخزن يلح على ضرورة إدخالها على نظام الحماية القنصلية باعتبارها "داءً خبيثاً" ينخر هياكل الدولة ويشل دواليبها. ومن أبرز الأطراف التي تحركت في هذا الاتجاه نجد الرابطة الإسرائيلية العالمية والجمعية اليهودية الإنجليزية، واتحاد الجمعيات العبرية الأمريكية، بإيعاز من أعيان المغاربة اليهود المحميين والمجنسين المتشبهين بامتيازاتهم، والمصممين العزم على إفشال المحاولات المخزنية والأمانى المعلقة على تقنين الحماية². وكانت مبررات اليهود المحميين وراء التشبث بالحماية الأجنبية هي انعدام الأمن، وغياب المساواة أمام القضاء³، ومعاناتهم من الاحتياج والتقتيل والاحتقار، وتعرضهم للظلم من طرف عمال المخزن، وقد قدموا ذلك كما لو أن المغاربة المسلمين كانوا في وضع أفضل منهم في علاقتهم بالمخزن. لكن ما تنبغي الإشارة إليه على سبيل المثال لا الحصر من أجل فهم سياق بعض الأحداث العنيفة التي كان اليهود أحد ضحاياها، هو أن المغرب عرف انطلاقاً من سنة 1876، سنوات متتالية من الجفاف والقحط بسبب تراجع المحاصيل الزراعية، مما كان يؤدي إلى انتشار المجاعات في الأرياف والحوضر، وكان طبيعياً أن يؤدي ذلك إلى تفاقم الاضطرابات، وتعدد النزاعات اليومية بين الأهالي، مما تسبب في أعمال عنف بين المسلمين وفي صفوف اليهود، وبين هؤلاء وأولئك⁴. لكن بعض الرحالة الأوربيين اختزلوا الصورة، وأوحوا بأن المغاربة اليهود وحدهم من كانوا دائماً ضحايا تلك الأوضاع، في حين أن المسلمين أيضاً كانوا يتعرضون للسلب والنهب والتقتيل لحظات غياب السلطة إما بموت السلطان، أو ثورة تائر⁵. كما أن مديري مدارس الرابطة كانوا يبعثون بتقارير إلى مسؤولي الإتحاد بفرنسا، ولم يكونوا يصفون من أوضاعهم إلا ما كان مظلماً، ولم يكونوا يتورعون عن تضخيم بعض الأحداث مثل قضية يهود آسفي، حيث أوردت مجلة الوثائق المغربية، في العدد 4 مجموعة مراسلات ووثائق تفصل في هذا الموضوع، ذلك أن يهوديا كان محميا لموظف إسباني

¹ يوسف أخليص، مرجع سابق، ص. 279.

² محمد كنييب، المحميون...، مرجع سابق، ص. 261.

³ A. Chouraqui, L' A.I.U et la renaissance..., op.cit. p. 118

⁴ محمد كنييب، المحميون...، مرجع سابق، ص. 276.

⁵ أحمد شحلان، اليهود المغاربة من منبت الأصول...، مرجع سابق، ص. 15.

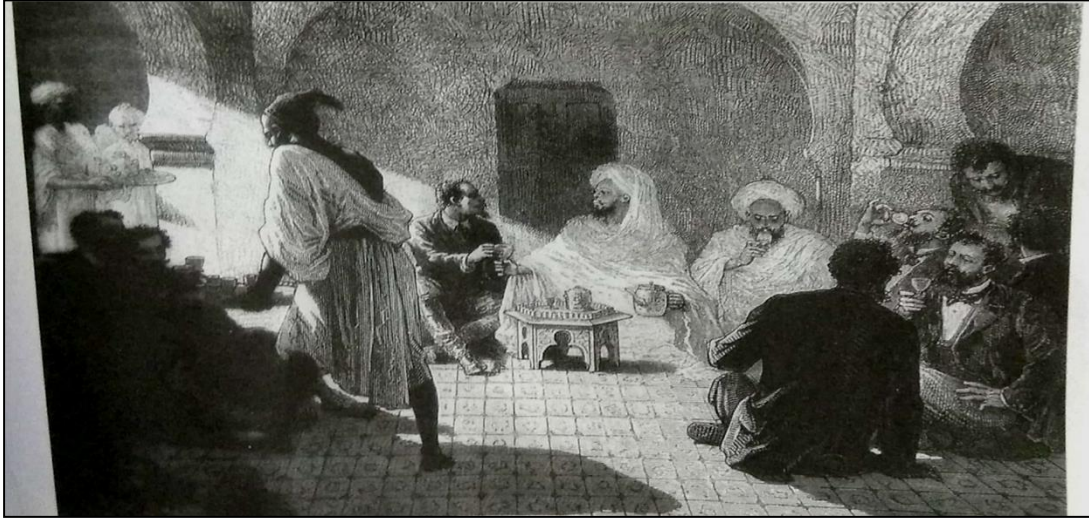
بمينا آسفي زعم بأن اليهودي قتل مواطنا اسبانيا، وتدخلت دولة هذا الأخير طالبة بمحاكمة الجناة، وقد نفذ الحكم بعد القيام بالتحريات، وبعد عدة مراسلات رسمية في الموضوع بين حاكم آسفي ووزير الشؤون الخارجية والسلطان آنذاك، وقد كان إصدار الحكم في هذه القضية طبيعيا بالنسبة لدولة ذات سيادة، لكن يهود أوروبا أثاروا ضجة كبرى، من دون الإشارة إلى الأسباب الحقيقية، وهذه الضجة كانت تتكرر كلما تعرض يهودي في المغرب للمحاكمة بسبب عمل من الأعمال المنافية للقانون¹. لكن هذا لا ينفي تعرض يهود المغرب أكثر من مرة، وفي أكثر من موقع، خلال مراحل تاريخية متعددة للعنف والشطط في استعمال السلطة بمدة أكثر مما تعرض له المسلمون باعتبار الهشاشة التي تميز وضع الأقليات في مثل هذه الظروف، ذلك أنه خلال المراحل الانتقالية للحكم التي يرافقها الانقسام السياسي، والاضطراب الشعبي، والانفلات الأمني، كان اليهود في بعض الأحيان أكثر عرضة للخطر من قبل كل من السلطة والعوام، وقد سبق وأشرنا إلى ما تعرضوا له على سبيل المثال لا الحصر خلال فترة حكم المولى يزيد²، حيث باركت السلطة ممارسة العنف ضدهم³، متنصلة بذلك من التزام الحكام المسلمين القاضي بضرورة حماية أهل الذمة.

¹ نفسه، ص. 84.

² دانييل شروتر، **يهودي السلطان...**، مرجع سابق، ص. 94. 95.

³ عرف عن السلطان المولى يزيد الذي حكم المغرب لفترة قصيرة ما بين 1790 و 1792 بعداءه الشديد جدا لليهود، حيث عاشوا خلاله فترة حكمه في حالة من الرعب الشديد ... وعلى الرغم من أن أسباب هذا العنف معقدة، فإن من الأهداف التي كان تدفع بعض السلاطين إلى القضاء على الأفراد والمجموعات التي كان يعتمد عليها أسلافهم هي التخلص من بقية الأدياء العلويين المتشوفين لبلوغ سدة الحكم. وفي هذا الإطار ثم اعدم المولى يزيد عددا من يهود البلاط، الذين كانوا في خدمة السلطان السابق. وكان لإعدام القاضي الذي نفذ في حق اليهودي يعقوب عطل Jacob Attal وقعه الخاص، حيث كتب أحد الملاحظين الأوروبيين عن الضحية ما يلي: " ويحظى الكاتب اليهودي المفضل لدى الإمبراطور (محمد الثالث ويعرف أيضا بالسلطان محمد ابن عبد الله، أب المولى يزيد) بمزيد من النفوذ في الحضرة السلطانية، وكان سببا في إلحاق الكثير من الأذى لبراعته في حبك الدسائس والمؤامرات، وذلك بدرجات تفوق ما يمكن أن يقوى على فعله بقية الوزراء " ... وقد اعرب القنصل البريطاني عن حزنه العميق على إعدامه، فكتب في حقه بأنه: " قطع إلى أربعة قطع ثم أحرق، وكان ذلك هو الحيز الألف في المعاملة التي لقيها... " وقد تمكن البعض الآخر من أعضاء النخبة اليهودية من تهيب سبل النجاة لأنفسهم بالفرار. "، نفسه، ص. 9.

صورة رقم 03: استقبال الديبلوماسيين الأجانب من طرف العائلات اليهودية المغربية



Source : Joseph Tolédano, *Portrait d'une communauté Juive marocaine, Histoire, Culture, Humour et Folklore*, Ed. Ramtoll, Israel, 2017, p. 193.

وفي إطار المقارنة مع وضعية مشابهة نشير إلى أن هذا الأمر قد حدث أيضا بأوروبا حيث كانت كافة المجازر ضد اليهود، خلال الفترة الكلاسيكية (تمتد من 800 م حتى القرن 17م وببولندا استمر الأمر حتى سنة 1795م)، جزءا من ثورة فلاحية أو حركات شعبية، في الأوقات التي تضعف فيها الدولة لسبب أو لآخر. وهذا الأمر كان استثناء في حالة روسيا القيصرية، حيث كانت الحكومة تشجع المذابح عن طريق شرطتها السرية، ولكنها كانت تلجأ إلى هذا الأسلوب فقط عندما تكون ضعيفة¹.

وفي إطار الحديث عن نتائج انفتاح أفراد الأقلية اليهودية على القوى الأوروبية عبر رعايا هذه الأخيرة وكيف أدى ذلك إلى تعزيز دينامية التباعد بين المسلمين واليهود، نشير إلى أن فرص التواصل الاجتماعي بين معظم الأوروبيين وكافة المغاربة لم تكن تتحقق على أرض الواقع إلا مع الساكنة اليهودية، ذلك أن المغاربة اليهود كانوا أكثر قابلية واستعدادا للسماح للمسيحيين بولوج منازلهم، وفي هذا السياق قام المستكشف شارل دوفوكو بزيارة للمغرب برفقة المرشد الحبر مردوشي أبي سرور، ودخل للمغرب بتاريخ 20 ماي سنة 1883، متخفيا في هوية يهودي روسي اسمه جوزيف ألمان Joseph Aleman مطرودا من قبل سلطات بلاده، مبررا زيارته للمغرب لرغبته في زيارة إخوانه في الدين الثَّقا، في حين أنه كان يقوم بمهمة استخباراتية لصالح فرنسا التي كانت تتطلع لاحتلال المغرب، وخلال رحلته تم

¹إسرائيل شحاك، اليهود واليهودية...، مرجع سابق، ص.107.

استقباله من طرف يهود عدة مدن مغربية كفاس ومكناس ، وعند حلوله بالبلاد التقى بالسفير الفرنسي أورديغا بمدينة طنجة والذي طلب منه أخذ كل الاحتياطات اللازمة خلال رحلته المحفوفة بالمخاطر¹. كما زار أوربي آخر مدينة دبدو واستضافه يهود الملاح فقتل المضيف والضيف، بسبب الريبة من التدخل الأجنبي. هذا الأمر دفع بالاتحاد الإسرائيلي إلى أن يطلب من اليهود أخذ الحيطة والحذر في تقديم المساعدة للأوروبيين تفاديا لمزيد من التوتر². وهذه الاحتياطات لم تكن تعني تراجع النخب اليهودية عن دعمها للاختراقات الأوربية، حيث جاء في محضر مراسلة يعود إلى سنة 1900 ما يلي : "إن الوقت ليس بعيدا حيث تصبح المملكة المغربية مضطرة على يد الدول العظمى، إلى فتح أبوابها لحركتهم وتأثيرهم المباشر، وفي ذلك الوقت يجب أن يكون اليهود المغاربة في المستوى، بحيث سيساهمون في الحياة الجديدة التي ستطعم بالعلم والصناعة والتجارة الأوربية." وهي نفس فكرة الرابطة الإسرائيلية التي كانت تتمنى من الحكومة الفرنسية أن تتولى تسيير المغرب، ووضع يهوده تحت حكم نظام عادل ومحترم تحميه قوانينها. وحتى في العرائض التي كان النشطاء اليهود بطنجة يبعثون بها إلى الحكومات الأجنبية من أجل أن يطالبوها بالتدخل لوضع حد للتجاوزات التي كانوا يتعرضون لها، كانوا يستعملون عبارات مستنبطة من الثقافة الغربية من قبيل عبارة "حقوق الإنسان"، ومن خلالها يبدو تأثير ما تعلموه في مدارس الرابطة الإسرائيلية العالمية واضحا³. وفي مرحلة لاحقة، ورغم أنه لم يتم ذكر المغاربة اليهود في عقد مؤتمر الجزيرة الخضراء سنة 1906 فقد تم الانتباه إليهم خلال المداولات، ذلك أن مندوب الولايات المتحدة الأمريكية التمس من السلطان أخذ الإجراءات اللازمة للاستمرار في تطوير وضعية اليهود، ليس فقط المقيمين بالموانئ، بل حتى الذين يعيشون بالمدن الداخلية. هذا المطلب ثم تنبيه أيضا من طرف بريطانيا وإيطاليا وفرنسا. وقد قامت الرابطة الإسرائيلية العالمية بتقديم الشكر لهذه الدول، وكل الحظوظ كانت تؤشر على الشروع في تطبيق هذا المطلب على أساس أن فرنسا كانت عازمة على احتلال المغرب⁴. وسيرا على نفس النهج، تكررت اللقاءات بين المغاربة اليهود والأوروبيين بشكل أدى مع مرور الوقت إلى تصدع العلاقات مع الغالبية المسلمة، وبدل أن تتراجع أو تخف حدتها اتخذت طابعا جديدا تجلّى على سبيل المثال في لقاء مدير مدرسة البيضاء بـ مونجان (Mongin) الذي دخل إلى الدار البيضاء على رأس الجيش الفرنسي سنة 1907، وظهر

¹F. Giraud, op.cit. p. 84.

²« Les relations entre Juifs et Musulmans en Afrique du nord », Actes du colloque international de l'institut d'histoire des pays d'outre-mer, Abbaye de Sémanque, octobre, 1978, p. 122.

³محمد كنييب، المحميون...، مرجع سابق، ص. 278-279.

⁴A. Chouraqui, L' A.I.U et la renaissance..., op. cit, p.118.

ذلك في الرسالة التي بعث بها إلى مدير مدرسة فاس يخبره فيها بدخول الجيش الفرنسي إلى المدينة، وإنهاء حالة الحصار عليها قائلا: "خلق ذلك جوا من البهجة والفرح في الملاح"¹. لقد فرح اليهود بقدوم الفرنسيين، وفك الحصار عن المدينة كان له يبرره، بحكم أنهم كانوا على علم بحجم الأضرار التي ستلحق بهم، بناء على حوادث سابقة سبق وتعرضت فيها بعض الملاحات للنهب وتعرض سكانها للتقتيل، حين كانت تتهاوى السلطة أو تضعف في لحظات معينة سبق وأشرنا إلى البعض منها.

إن اهتمام فرنسا بشؤون اليهود المغاربة سيتزايد مع مرور الوقت حيث أبدى البرلمان الفرنسي انشغاله بشؤونهم حين ناقش في جلسة بتاريخ 23 نونبر سنة 1909 حالة اليهود بالمغرب، بل إن القنصل الفرنسي لم يكن يتردد في التدخل في أبسط الأمور التي تخصهم، مثل تدخله لدى كوركوس من أجل تخفيض أئمة الكراء لليهود². هذا وقد جاء، أيضا، في محضر من محاضر مدارس الرابطة سنة 1911، بأن خريجي هذه المدارس مستعدون للمساهمة في اقتصاد البلاد، الذي ستطوره الحماية³.

وفي ظل اشتداد الضغوط الاستعمارية على المغرب وتنامي ظاهرة المحميين وتحللهم من سلطة المخزن، والذين كان ينظر إليهم على أنهم يستقوون بالأجنبي، كان من الطبيعي أن تتصدع العلاقات مع المسلمين، ويحدث الاصطدام مع المخزن. هذا الأمر عبر عنه عامل الجديدة، محمد بن إدريس الجيراري مشيرا بامتعاظ إلى انقسام رعايا البلاد إلى فئتين، قائلا: "أهل الحماية من مسلمين ويهود، وهؤلاء لا يحكم عليهم إلا قونصو الجنس الذي هم في حمايته، والثاني المسلمون الذين ليسوا في الحماية أيضا، وهؤلاء يحكم عليهم عامل البلد ولكن بالسجن، دون الضرب". وبناء عليه، طالب العامل المذكور إما بتطبيق القانون على الجميع من دون تمييز، أو رفع التأديب بالضرب حتى عن المسلمين لتحقيق المساواة⁴.

في خضم هذا الواقع الجديد، وجد موظفو المخزن أنفسهم مقيدون في تعاملهم مع الرعايا اليهود، ومن الأحداث الشاهدة على ذلك ما جرى بمدينة مكناس أواخر القرن 19م، حيث اضطربت العلاقة بين يهود الملاح

¹ أحمد شحلان، اليهود المغاربة... مرجع سابق، ص 88.

² « Les relations entre Juifs et Musulmans en Afrique du nord » op. cit, p.144.

³ أحمد شحلان، اليهود المغاربة... مرجع سابق، ص 85.

⁴ محمد كنيبي، المحميون... مرجع سابق، ص 279.

وسلطات المخزن بالمدينة في شخص المحتسب محمد العربي أجانا ما بين سنتي 1881 و 1887. فقد جرى العرف أن يتصل الحرفيون والباعة اليهود مباشرة بالمحتسب فيتفقون معه في عمليات تحديد الأسعار، وبعدها يبعث المحتسب من يراقب مدى احترام ما تم الاتفاق عليه، وقد تم اعتماد هذه الطريقة في المراحل الأولى من القرن 19م، وفي النصف الثاني منه. لكن مع اشتداد التدخل الأوربي خلال المرحلة الثانية، وضعف المحتسبين الحاج الطيب غبريط الذي عزل في نونبر 1874، والمختار بادو الذي تلاه، سمح للعناصر اليهودية المحمية بتجاوز سلطة المحتسب. لكن إسناد خطة الحسبة للمحتسب أجانا ما بين سنتي 1881 و 1887 في عهد السلطان الحسن الأول، أدى إلى حدوث اصطدام مع اليهود المحميين، خاصة مع التاجر يعقوب أوحنا ومن بعده ولده إبراهيم، مما أدى إلى حدوث خلافات بين الطرفين انتهت باضطرار السلطان إلى نقل حسبة يهود مكناس إلى مدينة فاس¹، بعدما استعصى على أجانا حل تلك النزاعات التي كان يتسبب فيها أوحنا، ويتحكم في أطوارها بفضل حمايته الفرنسية وعلاقاته المتميزة مع كبار الشخصيات المخزنية. لقد كان موضوع الخلاف بين الطرفين حول من سيتولى اختيار الواسطة بينهما، وحدود صلاحياته، ذلك أن اليهود كانوا يرفضون أن يفرض عليهم واسطة من دون موافقتهم عليه، بينما المحتسب كان كثير التشكي من الواسطة الذي يختاره اليهود، لأنه يكون طيعا في أيديهم وممثلا لرغباتهم في تجاوز تقاليد الحسبة وسلطة المحتسب².

كان المحتسب أجانا يؤكد، في رسائله، بأن خلافه لم يكن يحدث مع كافة اليهود، بل فقط مع فئة محدودة منهم من التجار وبعض الحرفيين المرتبطين بالأجانب، وعلى رأسهم يعقوب أوحنا المحمي الفرنسي كما سبق وأشرنا إلى ذلك، ومساعدته الرئيسي شمويل بن هيروش³. إن تفاصيل هذا الصراع توضح أن التجار والحرفيين اليهود الذين كانت لهم معاملات مع الأوربيين الذين ازداد تدخلهم، لم يقبلوا أن تقلص أرباحهم المتصاعدة بفضل هذا الانفتاح⁴، بينما كان المحتسب حريصا على فرض سلطته، وإرجاع اليهود إلى وضعيتهم السابقة. وفي نفس الوقت كان رهان

¹ محمد اللحية، "الواسطة بين ملاح اليهود والمدينة: الوظيفة والمشاكل المطروحة من خلال نموذج مدينة مكناس"، أعمال ندوة التجارة في علاقتها بالمجتمع والدولة عبر تاريخ المغرب، القسم الثاني، جامعة الحسن الثاني، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، عين الشق، الدار البيضاء، 1989. ص. 105. 106.

² نفسه، ص. 107.

³ محمد اللحية، الحياة الاقتصادية بمدينة مكناس خلال القرن 19، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، نوقشت بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1984. ص. 210.

⁴ ربطت بعض الدراسات بروز طبقة رأسمالية تجارية يهودية بمرحلة التسرب الأجنبي في المغرب (التي تلت عصر مايرير مقتين) وذلك باعتبار أن اليهود المغاربة استفادوا من ممارسة التجارة ومن الحماية الأجنبية للحصول على الوسائل التي مكنتهم من اقتناء الأرض في بلادهم، ومن الاستثمار في الخارج. غير أن هذا لا يعطي أي تفسير للكيفية التي تمكن بها التجار اليهود من بناء إمبراطوريتهم التجارية في الفترات السابقة". دانييل شروتر، يهودي السلطان...، مرجع سابق، ص. 92.

المحتسب كسب ود السلطان الذي كان حريصا على احترام اليهود لنظام عقد الذمة، والتصدي لكل ما من شأنه أن يؤدي إلى انفلات الأمور من يديه خصوصا مع اشتداد الضغوط الأوربية قبل وبعد مؤتمر مدريد. بحيث صار السفراء الأجانب، يتشددون مع المخزن في مطالبهم القاضية بعزل الولاة المتهمين بممارسة التعسف في حق اليهود، إلى درجة أن السلطان عبر عن ذلك بامتعاض شديد مخاطبا النائب بركاش قائلا: "وهل تبقى للمخزن بعد ذلك (أي بعد عزل العمال) حرمة أو قوة أو شهامة؟". مضيفا أن الإقدام على مثل هذه الإجراءات الزجرية من شأنه إضعاف السلطة وإشاعة الكثير من "القليل والقال" وفسح المجال أمام التمرد، "لأن الرعية إذا قالت فعلت، وإذا فعلت لم تفعل خيرا"، ونبه نائبه إلى ضرورة أن يوضح لممثلي الدول الأوربية، بأن تمادي بعض اليهود في تجاوزاتهم قد يؤدي إلى تأليب العامة عليهم¹.

يوضح موقف السلطان بأنه كان في وضع صعب، لأنه كان حريصا من جهة على استمرار هيبة المخزن، وساعيا من جهة أخرى إلى تفادي الاصطدام مع الدول الأوربية، في وقت كانت فيه الدعاية الأجنبية تعمل على استغلال بعض الأحداث من أجل تضيق الخناق على المغرب، لذلك كان السلطان يوجه دعوات متكررة للمحتسب أجانا من أجل أن يستعمل أسلوب المهادنة مع المحميين اليهود، والليونة والعدل مع غيرهم. وهذا الإكراه هو الذي دفع كما سبق وأشرنا إلى نقل أمر يهود مكناس إلى مدينة فاس، حتى يخفف من حدة التوتر الذي وصل إلى درجة خطيرة². ورغم تنحية أجانا وتعويضه بوسيط تابع لمحتسب فاس مختص بشؤون الملاح، استمر التوتر بين أوحنا وعامل مكناس القائد حمو بن الجيلالي الذي حاول الصمود في وجه تجاوزات المحميين، وبصفة خاصة المسمى ابرهام اوحنا الحامل لبطاقة الحماية الإيطالية. ومن أجل الحفاظ على الوضع كما هو استغلال يهود نفوذ أصحابهم داخل القصر، وتمكنوا بفضل ذلك من استصدار رسالة سلطانية ضمنها المولى حسن عبارات قاسية في حق عامله على مكناس، هذا نصها:

"وصيفنا الأرضي القائد حمو بن الجيلالي، وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله وبعد، فقد اشتكى على حضرتنا الشريفة ابراهيم اوحنا المكناسي أن حقوقهم ضاعت، وتجارتهم تعطلت بإعراضك عن فصل دعاويهم التي يرفعونها لك، وعدم التفاتك إليها، وقد استغرنا صدور هذا منك واستبعدناه،

¹ محمد كنيبي، المحميين...، مرجع سابق، ص. 285.

² محمد اللحية، "الواسطة بين ملاح اليهود والمدينة..."، مرجع سابق، ص. 113. 114.

لكونه من شأن من لا ينظر في عواقب الأمور، ولا يعرف أن ثمرة الولاة وفائدتهم هي إيصال ذوي الحقوق بحقوقهم، وإن المسلم والذمي في الحق سواء، وعليه فنأمر أن تكون على بال من دعاويهم وما كان منها مخزناً عجل بفصله على وجه الحق، وما كان منها شرعياً صرفه له في الحين لتريح وتستريح، والسلام"¹.

هذا التائب الذي تلقاه عامل مدينة مكناس، لم يُلغ سخطه على آل أوحنا، لذلك استغل العامل وفاة السلطان المولى الحسن، وانتقال الحكم إلى المولى عبد العزيز للمطالبة برأس يعقوب أوحنا فقام بعرض الأمر على الصدر الأعظم باحماد، وعبر عن امتعاضه الشديد من أوحنا الذي سماه بـ "اللعين" وهو يعبر عن اضطراب الأوضاع بملاح مكناس:

"لم يبق إجراء الأحكام يتابع عليهم من أجل مظالم الذمي يعقوب أوحنا، فإنه قد شاع فساد وكثر خصومه وكثر خوضه إفساده في جميع الأمور والأحكام، ومهما كانت قضية أو دعوى بين الذميين إلا وتراه يخوض فيها حتى... يوقع الحكام في الحيرة، وهذا دأبه سواء كانت الدعوة رفعت إلينا أو الشرع المطاع أو حزانهم فإنهم لا يستطيعون أن يحكموا فيما بينهم إلا برأيه... فإن أراد شيئاً يدخلهم داره ويشهد بهم الزور، ويحكم لنفسه بما شاء ولا يعطي حقاً لأحد أياً ما كان هو وأصحابه وأصهاره ومن تبعه...، إن جميع اليهود كبيراً وصغيراً تضرروا (بسبب تجاوزه) ولا زالوا لأنه ضيق عليهم غاية في معاشهم، وقد زاد اليوم في... طغيانه (بعد أن عزل) عن الحسبة إدريس بن زينة لأنه كان وليه، وكان جاعلاً له الحسبة الملاح بيده يفعل بما يشاء، ويستبد بمال له بال... والناس مع (هذا) الذمي في ضيق (حيث) صار يقيم (عليهم) الحجج الواهية (ويرميهم) بالباطيل... ومن أسباب ما صدر منه هو ما كان في سافلة من زيادة تجار ذميين في البلاصة عليه تسعمائة ريال في العالم ولا زالوا كذلك، وكان سرق لمولانا المقدس في الخزائن سبعمائة ريال وتداعوا معه الأمناء عليها"².

¹ مولاي عبد الرحمان بن زيدان، العز والصولة في معالم نظم الدولة، الجزء الثاني، المطبعة الملكية، الرباط، 1962، ص. 138.
² محمد كنيبي، المحميون...، مرجع سابق، ص. 296-297.

لكن أوحنا تجاهل ما قام به العامل، واستمر في تجاوزاته حتى في حق إخوانه في الدين، مستغلاً انشغال الصدر الأعظم بأولويات ترتيب أمور انتقال الملك من المولى حسن إلى المولى عبد العزيز حسب ما انتهى إليه محمد كنيب¹، فقرروا التظلم مرة أخرى للسلطان مباشرة، وجاء في الرسالة الجوابية الموجهة للعامل في هذا الأمر ما يلي :

"وصيفنا الأرضي القائد حمو بن الجيلالي، وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله، وبعد فعلى أعتابنا الشريفة اشتكى اليهودي الحزان شلوم بن الويري وفريقه بأن اليهودي يعقوب اوحنا لما أشهد عليه العجز عن الإتيان بالحجة المطالب بها في فرضه زيادة الريال في اللحم وسرح ما كنا أمرنا بتثقيفه من الزيادة المذكورة وصار الحزانون يقتسمون ذلك على الضعفاء منهم صار اوحنا يأخذ منهم الوفرة لنفسه اثنا عشر ريالاً في الجمعة، وادعى بأننا أنعمنا عليه بإبقاء حانوته على العادة القديمة مع حرمة استبداد أحد أغنيائهم بشيء من ذلك واختصاصاته بفقرائهم حسبما بظهرنا الشريف، وعليه، فنأمرك أمراً جزماً بكف اوحنا المذكور على ذلك، وإلزامه السلوك مع المسلك الذي وقع عليه الحكم بينهم بحيث لا يستبد بشيء من ذلك لاختصاصه بفقرائهم، وحتى ما ادعاه من أن ييده ظهرنا الشريف بإبقاء حانوته على عادته القديمة فمصرفه ومحملة فيما يرجع إلى الأمور المخزنية، وأما ما يرجع لحكم شرعهم فلا مدخل للمخزن فيه، فيلزمه أداء الزيادة المذكورة في جميع ما يبيع من اللحم بحانوته المذكورة كغيرها من سائر حوانيت جزاري اليهود لزوماً، فلتنفذ ذلك ولتعمل بمقتضاه وإذا أقرأت كتابنا هذا رده إليهم يتمسكون به، والسلام"².

لكن، وبما أن أوحنا كان من يهود البلاط الأكثر نجاحاً، فقد استطاع رغم شكاوي موظفي المخزن أن يفرض نفسه عنصراً يصعب الاستغناء عن خدماته في التموين لصالح القصر، لذلك كان المولى حسن حريصاً على الحفاظ على هذا النوع من الروابط، وبناء عليه أصدر السلطان روابط التوقيع والاحترام لفائدة الوجهاء اليهود المحميين. كما كان الحصول على ظهائر التوقيع والاحترام يتم في بعض الحالات بالوراثة داخل نفس أفراد العائلة، وفيما يلي مثال للظهائر المنعم بها على أحد أعيان مدينة مكناس: "يعلم من هذا الكتاب العالي ربا الله قدره، الطالع بسناء الفخار والعز بدره، أننا بقوة الله المنان، المسبغ آلاء الفضل والامتنان، أسدلنا علة ذمينا العاقل الحزان شمويل عمار بن الويري

¹ نفسه، ص. 297.

² مولاي عبد الرحمان بن زيدان، العز والصولة في معالم نظم الدولة...، مرجع سابق، ص. 141-142.

المكناسي جلباب الوقار والرعاية، والاعتبار والعناية، ... والسكينة والاطمئنان، فلا يسام بحيف أو عدوان ولا يضام حزيه، ولا يراع سريه، رعيًا لاشتغاله بأمور ديانته، وما يليق بحاله بين أهل ملته، فنأمر الواقف عليه من عمالنا وولاة أمرنا المعتز بالله أن يعمل بمقتضاه"¹.

وفي ظرفية كهذه مرت العلاقات بين المسلمين واليهود بتوترات شديدة أدت إلى توسيع الهوة بين الطرفين، خصوصا وأن استعمار المغرب بات مسألة وقت فقط، في ظل الاتفاقيات الثنائية التي كانت بين الدول الأوروبية بخصوص تقسيم المستعمرات خلال النصف الثاني من القرن 19م ومطلع القرن 20م (الاتفاق السري البريطاني الفرنسي سنة 1904)². وإلى هذا، تجدر الإشارة إلى أن الأعيان والوجهاء اليهود والمتنورين منهم قد تحمسوا للتدخل الأجنبي الذي لم يكن يحظى بتأييد كل فئات المجتمع اليهودي خوفا من تداعيات ذلك. وفي هذا الإطار بعث أخبار مكناس رسالة شديدة اللهجة إلى الإتحاد الإسرائيلي، وانتقدوه بشدة، وأوضحوا له أنه يكفي أن يعيشوا في المغرب حسب شريعة التوراة³، وهي نفس المواقف التي عبروا عنها خصوصا في البداية ضد التعليم العصري لمدارس الرابطة، وضد الدعاية الصهيونية لاحقا كما سنوضح في الفصول اللاحقة، وهذا الموقف يوضح بأن الجماعة اليهودية خلال هذه المرحلة لم تكن تشكل وحدة اجتماعية متجانسة لديها إستراتيجية موحدة، لأنها لم تملك، آنذاك، أي مشروع سياسي، بل إن جل اهتمام وجهاء اليهود كان محصورا في تحصين بعض الامتيازات من خلال مخالطة الأجانب، ورغم تجاوزات بعضهم، فقد صعب على الحكام الاستغناء عنهم، وعن خدماتهم.

بالمجمل، لقد سعى بعض اليهود، الذين حالفهم الحظ، إلى الحصول على الحماية القنصلية وظواهر التوقير والاحترام، وهو أمر كان محكوما بواقع النصف الثاني من القرن 19 بالمغرب، الذي لم تكن قد تحققت فيه دولة حديثة بعد، تضمن الحقوق المدنية والمساواة للجميع (يهودا ومسلمين)، بدليل استمرار اليهود في دفع الجزية. وبناء عليه سعى ذلك البعض إلى الحصول على ما يجعل منهم رعايا أو مواطنين أجنبيا تابعين للدول الأجنبية من خلال بطاقات التجنيس، أو إلى محميين من قبل إحدى تلك الدول المتوفرة على تمثيل دبلوماسي بالمغرب، (هذا الأمر لم

¹أورده، محمد كنييب، المحميون...، مرجع سابق، ص. 298

²"يبدو أن المغرب نجا من المؤتمر (مؤتمر الجزيرة الخضراء) دون أن يمس بأذى، لكن دون أن يربح شيئا ظاهرا. فقد تقرر أن تنشأ قوة بوليسية فرنسية-إسبانية، وبنك مغربي للدولة تحت إشراف دولي. وقد بحثت مشاكل الضرائب والجمارك، وأقر مبدأ التجارة بالمساواة لجميع الدول الممثلة في المؤتمر. والقرار الوحيد الذي كان يمكن أن تكون له أهمية هو التأكيد على سيادة السلطان واستقلاله، لكن اتفاقيات سنة 1904 السرية، جعلت لهذا التأكيد قيمة وهمية فقط". روم لاندو، تاريخ المغرب في القرن العشرين، ترجمة نقولا زيادة، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1980. ص. 91-92.

³ أحمد شحلان، اليهود المغاربة...، مرجع سابق، ص. 88.

يقتصر عليهم وحدهم لأن العديد من الرعايا المسلمين بدورهم كانوا محميين)، وإذا باليهود الذين استعملوا في السابق، من لدن الدولة الشريفة وسيلةً للحد من التغلغل الأجنبي عندما كان يتم توظيفهم سفراء للترافع حول "مصالح" البلاد، تحولوا إلى أدوات للتغلغل الأجنبي، في الوقت الذي اشتد فيه الضغط الأوربي على المغرب، حيث اضطر إلى القبول بتحرير التجارة الخارجية، هذا الواقع سيرخي بظلاله من جهة على علاقة المغاربة اليهود بالمسلمين، ذلك أن "التسرب الإمبريالي أدى إلى خلخلة الضوابط والآليات التي أطرت، لقرون، العلاقات الجماعية والفردية بين مسلمي المغرب ويهوده: حل محل التعايش الإيجابي القائم على التكامل المعيشي، واقع مغاير حكمه منطق "دينامية التباعد" الذي أفضى مسلسله إلى وضع غريب يجمع في خانة واحدة بين عنصرين يعيش كل واحد منهما في عوالمه مستمدا إحالاته من متن متميزة ومن دون أن يعتبر أن هموم ومشاكل الآخر تعنيه، وأن حلها يمثل توطئة لحل قضاياها الخاصة"¹. ومن جهة أخرى سيؤدي إلى تشكل علاقة "خاصة" بالحماية الفرنسية، وهو ما سيساعدنا في فهم ما حدث قبيل وبعد سنة 1912.

¹ محمد حاتمي، الجماعات اليهودية المغربية...، مرجع سابق، ص. 295.

3. موقف الجماعة اليهودية من التدخل الفرنسي، وموقف الحماية الفرنسية منها

إن التفكك التدريجي لسلطة المخزن منذ أواخر القرن التاسع عشر، وتحديدًا منذ وفاة السلطان المولى الحسن¹، مع تنامي الضغوطات الأوربية على المغرب، كانت له تداعيات سيئة على المغاربة اليهود بشكل عام، حيث سيتعرضون إلى سلسلة من الأحداث الدامية المتفرقة التي أدت إلى تصدع علاقتهم مع المخزن الذي لم يعد قادراً على "حمايتهم" من جهة، - في سياق ما رافق عادة لحظات الأزمات من اضطرابات أمنية-، لم تكن تداعياتها تستثني المسلمين، كما ستؤدي من جهة أخرى إلى مزيد من التباعد مع هذه الفئة الأخيرة. هذه الأحداث سيتم استغلالها من طرف الدول الأوربية لتبرير التدخل في شؤون البلاد بدعوى حماية الأقليات، كما ستجد فيها بعض النخب المتنورة التي كانت لها ارتباطات قوية بالرابطة الإسرائيلية العالمية بباريس²، فرصة لتسويق مطالبها لاحقاً عند توقيع معاهدة الحماية سنة 1912 من أجل المطالبة بتكرار السيناريو الجزائري بالمغرب³، عكس النخب التقليدية التي ظلت حذرة من هذا الأمر.

ورغم تنامي الضغوط الأجنبية على المغرب، فقد ظلت الجماعة اليهودية، بشكل عام، بمختلف المناطق مرتبطة بالسلطان ضامناً للحماية بموجب عقد الذمة، رغم التجاوزات والخروقات التي كانت تحدث في حقهم من حين لآخر، سواء من قبل بعض ممثلي المخزن أو من طرف الأهالي، دون أن يرقى ذلك إلى مستوى الاضطهاد المنهجي المأسس برعاية رسمية. وفي هذا السياق المشحون منذ أواسط القرن التاسع عشر، وخاصة بعد احتلال فرنسا للجزائر سنة 1830 أصبحت بعض النخب اليهودية تتم صلاتها شيئاً فشيئاً بفرنسا، وكانت بعض أشهر البيوتات اليهودية قد تحولت إلى محميين فرنسيين. وقد شكل هؤلاء في مدينة مكناس، على غرار باقي المدن، فئة محظوظة مارست أنشطتها الاقتصادية بكل حرية دون التعرض للمضايقات أو الخضوع للجهاز المخزني، وفي بعض الأحيان تصرفت خارج القوانين التي كان يخضع لها باقي التجار والحرفيين، وقد كان أهم سبب لطلب الحماية هو الهروب من ظلم المخزن، ومن هؤلاء المحميين عدد من اليهود الذين بالغوا في الاعتداء على المسلمين غير المحميين بما في ذلك المسؤولين

¹ من أكبر الأخطاء التي ارتكبها الحاجب با أحمد بالرغم من خبراته أن أهمل تعليم السلطان الشاب المولى عبد العزيز، الذي كان قابلاً بالقصر، ونشأ مدلاً، ولم يتلق المعارف ولا الانضباط الضروريين بالنسبة لملك المستقبل، وسيؤدي المغرب ثمن هذا الأمر خلال السنوات اللاحقة".

Bernard Lugan, *Histoire du Maroc des origines à nos jours*, Perrin/Critérion, 2000. p. 219.

² "خلال انعقاد مؤتمر مدريد سنة 1880 قامت الرابطة الإسرائيلية العالمية بإيفاد ممثل عنها يدعى "شارل نطير" من أجل عرض مشاكل وتظلمات المغاربة اليهود أمام ممثلي القوى الأوربية، مثل غياب الأمن وانعدام المساواة أمام قضاء القواد والبشوات، وهذا العرض كان الهدف منه السير باتجاه الحصول على الحماية".

M. Nouvel, *L' évolution du judaïsme marocain*, CHEAM, Paris N° 1096. p. 7.

³ محمد كنيبي، المحميون...، مرجع سابق، ص. 293.

منهم¹. لذلك فكل تطور كان يلحق بالبلاد خلال هذه المرحلة إلا وكان العنصر اليهودي من الأطراف الأساسية التي يلحقها أثره سلبا وإيجابا.

وفي وقت لاحق، ألح شارل نيطير Charles Netter أحد المؤسسين للرابطة الإسرائيلية العالمية مبكرا على الحكومة الفرنسية بضرورة الرهان على يهود حوض البحر الأبيض المتوسط، مثلما فعلت بالنسبة لمسيحيي لبنان²، ومثلما فعلت بالنسبة ليهود الجزائر سنة 1870، هذا ولم تدخر الرابطة جهدا في الدفع باتجاه تحقيق هذا الهدف من خلال المساعي التي بذلتها لدى الأوساط السياسية المؤثرة، مقابل ما ستجنيه من فوائد على المستويين التجاري والمعنوي. وكان شارل نيطير قد قرر أنه في حال رفضت فرنسا هذا العرض سيتجه إلى طرحه على إيطاليا³. وفي إطار الحملة التي انخرط فيها النشطاء اليهود قبل وبعد مؤتمر مدريد من أجل تعزيز التدخل الأجنبي لصالحهم، كانوا يوظفون، في العرائض التي رفعوها للحكومات الأجنبية ويوزعونها على الصحف، مصطلحات ومفاهيم جديدة في السياق المغربي، ولكنها كانت مطابقة تماما لما كانت المفوضيات والجرائد الأوروبية تود سماعه أو قراءته في مثل هذه الحالات، وقد ركزت تلك العرائض على تجاوزات بعض رجالات المخزن في حق المغاربة اليهود باعتبارها انتهاكات صريحة لـ "حقوق الإنسان"، وبناءً على ذلك ناشدوا تلك القوى من أجل التدخل لفرض احترامها⁴. ومن خلال تلك الصيغ والعبارات المستعملة بحذافيرها، يستنبط محمد كنيبي مدى تأثير مستعملها بالثقافة الغربية، والفرنسية على وجه الخصوص، وبما تعلموه في مدارس الرابطة الإسرائيلية العالمية، لاسيما ما ارتبط بـ فلسفة عهد الأنوار وثورة 1789، وكذا، بصفة أدق، بما سمعوه عن التصريح بحقوق الإنسان والمواطن، ومبدأ المساواة بين المواطنين بصرف النظر عن انتماءاتهم الدينية والعرقية الذي أعلنت عنه الجمعية الوطنية الفرنسية⁵. إلا أن تعبئة النشطاء الطنجاويين ومسانديهم الأجانب للدفاع عن حقوق الإنسان كانت انتقائية، حيث اقتصرت على المغاربة اليهود وتجاهلت المسلمين، أي الأغلبية الساحقة لسكان البلاد والمتضررة "أكثر" من غيرها، كما تدل على ذلك شهادات المفوضين الأجانب، من تعسف الولاة وعنف المخزن. فجلد المسلمين، رجالا ونساء، كان يجري به العمل في المدن والبوادي،

¹بوشتي بوعسرية، مكناس المدينة الجديدة: التأسيس، البنيات الإدارية، التناقضات، 1939/1911، منشورات عمادة جامعة مولاي إسماعيل مكناس، رقم 18، مطبعة فضالة، المحمدية، 1999. ص. 24.

²A. Chouraqui, *L'Alliance Israélite Universelle et la renaissance...*, op. cit, p. 152.

³Ibid, p. 152.

⁴محمد كنيبي، يهود المغرب...، مرجع سابق، ص. 278.

⁵Gérard Corac et autres, *La Déclaration des Droits de L'Homme et du Citoyen de L'Homme et du Citoyen de 1789*, Ed. Economica, 1993, p. 361-365.

في حين أنه سقط وبدأ يتقادم بالنسبة لليهود مباشرة بعد زيارة مونتفيوري لمراكش سنة 1864. وأما قطع الرؤوس وتعليقها في أبواب المدن، فقد كان حكرا على المتمردين المسلمين، وعبرة لمن يعتبر من أهل القبائل والحواسر¹.

إن اضطراب المخزن خلال هذه المرحلة لهذا الشكل من التعاطي يجد تفسيره في حرصه على تفادي كل ما من شأنه أن يُتخذ مبررا من قبل القوى الأوروبية من أجل تبرير تدخلها في شؤون البلاد. كما أن إصرار النخب اليهودية على استدعاء التدخل الأجنبي لصالح الأقلية اليهودية دون غيرها في ظل أجواء متوترة يمكن تعليقه بغياب نظام قيمى متماسك حينها يمكن أن تلجأ إليه الأقلية اليهودية المتنورة، في تنظيم علاقتها بالأغلبية، في ظل "عجز" نظام سياسي عن ضمان "حقوقهم". لم يكن بوسعهم التردد في استغلال ما يمكن أن يحصلوا عليه من مكاسب لصالح إخوانهم في الدين من وراء "الاستقواء" بالأجنبي، وهذه خاصية تميز سلوك الأقليات عندما تضطر في مثل هذه الظروف إلى تدبير أمورها بما يتوافق ومصالحها أولا.

لا شك أن الرابطة الإسرائيلية العالمية، من خلال نشاطها بالمغرب منذ سنة 1862، قد لعبت دورا غير مباشر في تشكل نخبة من المغاربة اليهود تماهت مع المشروع الاستعماري لفرنسا²، هذه النخبة ستتمدد كبقعة الزيت مع تكاثر عدد مدارس الرابطة بالمغرب وتضاعف خريجيهما، وهذا الموقف سيتعزز أكثر بعدما تابع هؤلاء المسار الذي أدى باليهود الجزائريين إلى الحصول بشكل جماعي على الجنسية الفرنسية بفضل قانون كريميو سنة 1870³.

ورغم المساعي التي قامت بها النخب اليهودية العصرية في هذا الاتجاه، فقد ظل المغرب إلى حدود سنة 1894 تاريخ وفاة السلطان المولى الحسن، محافظا على الكثير من مظاهر السيادة الداخلية، ولم يكن يستجيب للضغوط الخارجية إلا في حدود معينة مستفيدا من صراع القوى الأوروبية الكبرى فيما بينها حول المغرب، حيث استطاع إلى حد كبير تطويق تأثيرات الضغوط الخارجية فيما يتعلق برعاياه اليهود⁴، لكن بوفاة السلطان المذكور دخل المغرب مرحلة صعبة في عهد صدارة الحاجب با أحمد بن موسى البخاري الذي حجر على السلطان الشاب المولى عبد

¹ محمد كنيب، المحميون... مرجع سابق، ص. 279.

² Jonathan Bernos, **Migrations Juives du Maroc**, I.M.P.E.M.F, Paris, 1991. p. 41.

³ نسبة إلى السيد أدولف كريميو أول رئيس لجمعية الرابطة الإسرائيلية العالمية، والذي يعود له "الفضل" في اقتراح هذا القانون.
M. Kenbib, «Les Juifs du Maroc, le Makhzen et les Puissances européennes aux XIX^{ème}- XX^{ème} siècles», in La résistance Marocaine à travers l'histoire ou le Maroc des résistances, Actes du colloque international, publication, I.R.C.A.M, Rabat, 2005. p. 209.

⁴ علال الخديمي، المغرب في مواجهة التحديات الخارجية، 1851-1947، دراسة في تاريخ العلاقات الدولية، إفريقيا الشرق، ص. 57.

العزیز من سنة 1894 إلى سنة 1900. وخلال هذه المرحلة اشتد الضغط الفرنسي الدبلوماسي والعسكري على المغرب، ذلك أنه بمقتضى معاهدة للامغنية أصبح من حق القوات الفرنسية بالجزائر متابعة المتمردين الفارين إلى المغرب¹. ومن حينها بدأت تتدهور الأحوال الأمنية للبلاد أكثر، وإن ظلت رغم ذلك تحت السيطرة بسبب السياسة المتشددة للحاجب با حماد داخليا وخارجيا²، والتي أخفت كثيرا من التناقضات إلى حين. وخلال هذه المرحلة عاش المغاربة اليهود في مأمن من الأحداث الدامية التي تصاحب، عادة، لحظات الفتن والاضطرابات الكبرى.

وبعد وفاة الحاجب با أحمد، سيتولى المولى عبد العزيز الحكم فعليا وسنه لا يتجاوز 20 سنة، وكان لا يزال يخضع لسلطة ووصاية أمه ومن دون تجربة كبيرة في تدبير أمور الدولة بسبب الظروف التي نشأ فيها كما أشرنا إلى ذلك من قبل³.

فخلال هذه الفترة سيزداد الضغط الاستعماري على المغرب، وستتعدد الفتن والاضطرابات ضد نظام السلطان عبد العزيز⁴، مخلفة آثاراً وخيمة على بعض الجماعات اليهودية، التي أدى تراكمها اللاحق إلى تعزيز رهان النخب اليهودية العصرية على التدخل الفرنسي، بل وعدم التردد في التعبير الصريح عن ذلك في عدة مناسبات كما سنوضح لاحقا. وفي هذا السياق سيعاني يهود مكناس من نتائج التمرد الذي قاده الجيلالي الزرهوني الملقب ببوحمارة، والذي اتخذ من مدينة تازة عاصمة لحركته "الثورية" ضد السلطان المولى عبد العزيز، بعدما أعلن نفسه سلطانا على البلاد. ومن أجل نيل تعاطف العامة أمر القبائل الموالية له بالمنطقة بالسطو على ملاح اليهود بالمدينة⁵، فكان رد فعل اليهود هو التحصن بجيهم والدفاع عنه باستماتة، حيث استطاعوا قتل عدد من أتباع الجيلالي الزرهوني، بمساعدة الحراس السود التابعين للمخزن العزيري⁶. هذا العنف يعكس الطابع العفوي للتمرد الاجتماعي، ذلك أن "الوعي

¹B. Lugan, op. cit, p.221.

²Ibid, p.219.

³Ibid, p.225.

⁴Mohamed Kenbib, **juifs et Musulmans au Maroc, 1859-1948**, Contribution à l'histoire des relations inter-communautaire en terre d'Islam, publications de la faculté des Lettre et des Sciences Humaines-Rabat , Université Mohamed V, 1994,p.362

⁵"لقد تميز تعاطي الجيلالي الزرهوني مع يهود المنطقة الشرقية بالبرغماتية. فعلى عكس ما حدث بمدينة مكناس، حيث رفض أن يقوم بممارسات عدوانية ضدهم رغم إلحاح بعض أنصاره على ذلك، اكتفى بأخذ الجزية منهم فقط محترما بذلك مقتضيات عقد الذمة ، بل أكثر من ذلك قام بتعيين دافيد كوهن قائد أحد العشائر اليهودية، قائدا بمدينة دبدو الصغيرة التي كانت تضم حينها حوالي 1500 يهودي مقابل حوالي 2000 مسلم...وقد كانت غايته من ذلك تفادي هجرتهم إلى الجزائر حتى يستفيد منهم لخدمة قضيتهم، فيما يتعلق بالحصول على السيولة النقدية، وضمان الاستفادة من التجار اليهود الذين كانوا يزودونه بالأسلحة والأزياء العسكرية المهربة".

Ibid, p.329.

⁶A. Guigui, op. cit, p. 63.

الطبقي " الكفيل بتصدير "العنف" ضد "المستغلين" في إطار التمييز بين التناقض الرئيسي والثانوي لم يكن موجودا، وبالتالي كان يوجه في بعض الأحيان ضد الجماعة اليهودية لأنها الحلقة الأضعف في ظل تدهور الدولة الضامنة للسلم الاجتماعي. هذه التجاوزات¹ التي تعرض لها المغاربة اليهود خلال هذه الفترة كان لها صدى لدى الجمعيات اليهودية بالخارج، حيث نددت بذلك على صفحات الجرائد الكبرى، كما تقدم اليهود بشكايات لدى القوى الأوروبية التي استغلت بدورها ذلك للمطالبة بضرورة استعجال الدخول للمغرب من أجل وضع حد "للفوضى" التي كان يتخبط فيها وضمان حماية اليهود والإسراع لتحريرهم، والقيام بالإصلاحات الضرورية" ولو تطلب ذلك قطع بضعة آلاف من الرؤوس². ولا بد من الإشارة إلى أن المسلمين الحضريين قد أبدوا في الغالب "تسامحا" كبيرا تجاه اليهود، وذلك خلافاً للبدو الذين تراموا على الملاح خلال فترات الاضطرابات، وقد كان لهم نزوع مماثل لفعل ذات الأمر لأحياء المسلمين بالمدن.³

في خضم هذه الأحداث، حاول المخزن العزيمي التصدي للضغط الاستعماري الذي ازداد إلحاحا، فضلا عن تعدد التجاوزات التي كان يقوم بها اليهود المحميون حتى تجاه إخوانهم في الدين من غير المحميين، من قبيل المبالغة في تحديد قيمة التعويضات عن السلع المنهوبة منهم، ورفض الحضور أمام القضاء المخزني، وإرشاء المعوزين منهم من أجل تقديم شهادات الزور، واستعمال النقود المزيفة في المعاملات التجارية⁴. وتجدد الإشارة إلى أن الأوساط الاستعمارية الفرنسية، التي كان يتزعمها وزير الخارجية الفرنسي دلكاسي قد وضعت نصب عينها إتمام احتلال الشطر الغربي الأقصى من شمال إفريقيا⁵، بعدما سوت خلافاتها مع كل من إيطاليا وإنجلترا على التوالي سنتي 1902 و1904⁶. في هذا الاتجاه قامت فرنسا بتحضير مشروع حماية مبكرة على المغرب، تضمن منح الفرنسيين حق الإشراف على المالية والجيش والإدارة قدمه سان روني طابندي السفير الفرنسي للسلطان سنة 1905⁷، بعدما كانت قد قطعت شوطا بعيدا في سياستها الرامية للانفراد بالمغرب، وكسب اعتراف الدول الأخرى بخطوتها في هذا المسعى. والظاهر

¹ "اليهود التقليديون مثل القضاة والحاخامات اعتبروا أن الانتهاكات التي تعرضوا لها في سياق القلاقل التي رافقت التدخل الأجنبي عقاب من الله لهم لأنهم بدؤوا يتخلون عن التقاليد والأخلاق اليهودية بتأثير من مدارس الرابطة. على عكس اليهود المحميين الذي رحبوا بالتدخل الأجنبي الذي كان يزعم أنه سيقوم بالإصلاحات الضرورية لإخراج البلاد من الفوضى".

M. Kenbib, *Juifs et Musulmans au Maroc, 1859-1948...*, op. cit, p.331.

² Ibid, p.330.

³ سعيد عاهد، " طبائع المغاربة وعاداتهم"، جريدة الاتحاد الاشتراكي، 4 مارس، 200، ص.4.

⁴ M. Kenbib, *Juifs et Musulmans au Maroc, 1859-1948...*, op. cit, p.310.

⁵ علال الخديمي، المغرب في مواجهة التحديات الخارجية...مرجع سابق، ص. 58.

⁶ تتنازل الحكومة الإيطالية عن أطماعها في المغرب، مقابل تنازل فرنسا عن أطماعها في ليبيا، وتتنازل الحكومة الفرنسية عن أطباعها في مصر، مقابل تنازل الحكومة البريطانية عن المغرب.

⁷ B. Lugan, op.cit .p.234

أن المخزن لم يكن قادرا على فتح مواجهة مباشرة مع فرنسا، لذلك لجأ السلطان عبد العزيز إلى تكتيك سياسي من أجل توفير أسباب إفشال الضغوط الفرنسية. لقد قرر تأسيس مجلس للأعيان باستدعاء حوالي 40 من أعيان المدن والقبائل، والعلماء والقضاة الذين كونوا ما يشبه البرلمان¹، من أجل مناقشة الاقتراحات الفرنسية في أفق إفشالها كما كان مخططا لذلك، لأنه عندما يتخذ هذه القرارات بصفة جماعية، فإن المسؤولية تكون مشتركة. والجدير بالذكر أننا لم نعثر في المصادر والمراجع التي تحدثت عن هذا الموضوع على أي معطى يفيد استدعاء أحد الرعايا اليهود من فئة الأعيان ليكون ضمن المجلس المذكور، بالنظر لحوية نخب هذه الفئة وعلاقتها مع ممثلي القوى الخارجية. وهذا "التجاهل" لا يجد تفسيره فقط في التوجس من النخب اليهودية التي صارت تقترب أكثر من الدول الأوروبية بل أيضا لأن المخزن كان يختزل صفة ممثلي الرعية في الأعيان المسلمين فقط، عندما يكون بصدد اتخاذ القرارات السياسية الحاسمة التي تهم مصير البلاد، على العكس من ذلك عندما يتعلق الأمر بتدبير المجال الاقتصادي².

وحتى لا تسوء الأوضاع أكثر في العلاقة مع القوى المتصارعة حول المغرب خاصة فرنسا، طالب المخزن العزيمي من اليهود المحميين، أن يرتدوا اللباس الأوربي حتى تستطيع السلطات، وعامة الشعب تمييزهم عن غير المحميين³. ومهما يكن الأمر فإن هذه السياسة الحذرة تجاه اليهود في الأمور التي تمس السيادة، أو تلك التي لها علاقة بالخلفية الدينية للمملكة، في ظل مرحلة تميزت بتعدد الضغوطات الخارجية، التي لم تتردد في استعمال الورقة اليهودية للمس بسيادة الدولة- كما حصل مع الإمبراطورية العثمانية من قبل -، ستدفع بالنخب العصرية إلى إيجاد المبررات اللازمة من أجل المراهنة أكثر فأكثر على "التحرير" من الخارج، بدعوى غياب المساواة بين الرعايا اليهود والمسلمين في الوضع الاعتباري بمعناه الأكثر استغراقا.

¹ Ibid, p. 234-235.

² "اكتسب يهود البلاط نفوذا كبيرا في عهد الأسرة العلوية، حيث كان هناك عدد كبير من اليهود في خدمة السلاطين، بحجم لم يُسجل مثله ربما في أي مرحلة سابقة من تاريخ المغرب... كان هؤلاء الحكام يعتمدون على اليهود لتدبير أمور التجارة الخارجية". للاستزادة في هذا الموضوع يمكن الاطلاع على كتاب: دانييل شروتر، **يهودي السلطان...**، مرجع سابق، ص. 32.

³ M. Kenbib, **Juifs et Musulmans au Maroc, 1859-1948**, op. cit, p. 331.

وجدير بنا في هذا الإطار أن ننبه إلى أن عقد الجزيرة الخضراء¹ لم يذكر اليهود، قبل أن يتم الانتباه إليهم خلال المداولات، ذلك أن مندوب الولايات المتحدة الأمريكية² التمس من السلطان أخذ الإجراءات اللازمة للاستمرار في تطوير وضعية اليهود، ليس فقط أولئك المقيمين بالمدن الساحلية، بل حتى الذين يعيشون داخل البلاد، هذا المطلب تم تبنيه أيضا من قبل بريطانيا وإيطاليا وفرنسا، كما قامت الرابطة الإسرائيلية العالمية بتقديم الشكر لأصحاب هذا المبادرة. هذه الأخيرة لم تكن تعمل بعيدا عن استراتيجيات دوائر صنع القرار بباريس، كما كانت أيضا تقوم بتزويد مفوضيات الدول الأوربية بتقارير عن نماذج من الانتهاكات التي تعرض لها يهود المغرب³. وهو الالتماس الذي كانت النخب اليهودية تتطلع لأن يترجم على أرض الواقع، لأن فرنسا كانت قد ألحت عليه كثيرا، وهي بصدد الاستعداد للعب دور مهم جدا رفقة إسبانيا بالمغرب⁴. والظاهر أنه لم يكن هناك إجماع في صفوف الأعيان اليهودي خلال هذه المرحلة في استدعاء التدخل الأجنبي للتدخل في شؤون إخوانهم في الدين، ذلك أن الحاخام الأكبر لمدينة طنجة مردوشي بن جيو بعث برسالة رسمية إلى ممثل المفوضية الأمريكية بمؤتمر الجزيرة الخضراء لويس إنشتاين يوضح له فيها بأن اعتقاد حكومة الولايات المتحدة بأن يهود المغرب يتعرضون للاضطهاد وسوء المعاملة أمر لا أساس له من الصحة، وأكد له بأنه منذ اعتلاء عرش المملكة من قبل السلطان المولى الحسن تحسنت أحوال المغاربة اليهود، ولم يعد هناك داع للتشكي، كما ختمها بتوجيه الشكر للرئيس الأمريكي روزفلت على اهتمامه بشؤون يهود المغرب. موقف حاخام مدينة طنجة تحكمت فيه اعتبارات براغماتية، لأن عددا من اليهود الذين ينتمون للأسر الكبيرة كانت لهم مصالح مشتركة في عالم الأعمال مع الأجانب، وبالتالي كان من الضروري في نظره تفادي الحديث عن الذكريات الأليمة التي حدثت في الماضي، وتفادي استفزاز المخزن لأن من شأن ذلك أن يدفعه إلى إعادة النظر في حالات

¹ "مؤتمر دولي انعقد بطلب من المغرب وبضغوط من ألمانيا لينظر في مسألة التنظيمات التي يجب إدخالها للبلاد بحضور جميع القوى التي كانت معنية بالمسألة المغربية. وقد دعا ميثاق الجزيرة الذي صدر في أبريل سنة 1906 إلى احترام سيادة واستقلال المغرب، ومنح لجميع الدول الحاضرة حق المساواة الاقتصادية في إطار ما سمي بالباب المفتوح، غير أنه اعترف لفرنسا بالمصلحة الخاصة، بدعوى مجاورتها للمغرب في الجزائر. كما منحها حق تنظيم شرطة الموانئ، بالاشتراك مع إسبانيا، وأعطاهما أيضا الأولوية في إنشاء بنك للدولة المغربية".

B. Lugan, op. cit, p.236.

² "ألح الرئيس الأمريكي تيودور روزفلت على أن ضمان الحريات الدينية بالمغرب، ووضع حد للانتهاكات التي يتعرض لها اليهود أمور لا تقل أهمية عن مطلب المساواة في الحقوق الاقتصادية وسياسة الباب المفتوح... كما أن الأمريكيين عبروا عن حرصهم على التدخل لصالح المغاربة اليهود بالتنسيق مع المفوضية الفرنسية في حال تعرضوا لأية أعمال عدوانية. وهذا الموقف لقي استحسانا كبيرا من قبل مسؤولي الرابطة بباريس".
M. Kenbib, *juifs et Musulmans au Maroc, 1859-1948...*, op. cit, p. 332-337.

³ Ibid, p.333.

⁴ A. Chouraqui, *L'Alliance Israélite Universelle et la renaissance...*, op. cit, p.118.

المحميين اليهود غير القانونية بمقتضى معاهدة مؤتمر مدريد لسنة 1880، بشكل سيؤدي إلى إلحاق الضرر بمصالحهم الاقتصادية.¹

إن قبول السلطان المولى عبد العزيز بمقررات مؤتمر الجزيرة الخضراء، وعجزه عن صد العدوان العسكري الفرنسي على منطقتي وجدة والشاوية سنة 1907، ساعد عبد الحفيظ في الحصول على الدعم اللازم من قبل العلماء في الحصول على البيعة بمدينة مراكش بتاريخ 16 غشت من نفس السنة، واعتلاء العرش رسميا سنة 1908 بمدينة فاس بشروط من أهمها نقض ما ترتب عن مؤتمر الجزيرة الخضراء، وتحرير مدينتي وجدة والدار البيضاء.²

وفي سياق الأحداث الدامية بمنطقة الشاوية³ سيتعرض الملاح لأعمال العنف والنهب، مما أدى إلى وفاة 30 يهوديا⁴، ويمكن إجمال الأسباب التي تم بها تبرير العدوان عليهم في العوامل التالية: أولا: عدم تردد اليهود في التعبير عن الترحاب الشديد بمناسبة التدخل الفرنسي بالمنطقة⁵، حيث اعتبروه حدثا سعيدا، على أساس رغبة نخبهم العصرية في تحقيق مجموعة من التطلعات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية⁶. ثانيا: امتعاض المتمردين منهم بسبب المخالطات التي كانت لهم مع الأوربيين بالمنطقة. ثالثا: في ظل أجواء مشحونة بخطاب "الجهاد" ضد النصارى، لم يستغ "الثوار" تجار اليهود المحميين في العبيد المسلمين الذين كان يتم جلبهم من الجنوب، لأن ذلك الأمر مسيء في تقديرهم إلى رفعة الإسلام. هذه الأحداث سمحت للمتمردين المنحدرين من القبائل المجاورة باحتلال منازل ومحلات اليهود خاصة الأثرياء منهم الذين استعجلوا مغادرتها حفاظا على أرواحهم، كما اعتبروا ذلك عقابا لهم بسبب شرورهم⁷.

¹M. Kenbib, *juifs et Musulmans au Maroc...*, op. cit, p.336.

²B. Lugan, op. cit, p. 237-238.

³"عرفت بلاد الشاوية، التي تقع ضمنها مدينة الدار البيضاء، الاستيطان والاستغلال الأجنبي منذ أواسط القرن التاسع عشر. وقد نتجت عن ذلك الاستغلال خاصة لما اقترن ببروز الأطماع الاستعمارية الفرنسية بعد 1914. لقد انتفض سكان الشاوية منذ 1903. وبدأت انتفاضتهم تتحول تتم تحت يافطة "الجهاد" بعد الإعلان عن ميثاق الجزيرة الخضراء، خاصة بعدما شرعت مؤسسة فرنسية في إصلاح مرسى ميناء مدينة الدار البيضاء، ولما تمكن الفرنسيون من وضع مراقبين ماليين، بجانب الأمناء المغاربة بديوانة المدينة، في 24 يوليوز عام 1907. وفي 30 يوليوز من نفس السنة حاولت جماعة من أهل الشاوية توقيف أشغال "الكمبيانة المغربية" بمرسى المدينة، فحدث اشتباك مع عمال الأوراش أسفر عن مقتل 9 عمال أجنب، بينهم ثلاثة فرنسيين". علال الخديمي، *المغرب في مواجهة التحديات الخارجية...*، مرجع سابق، ص. 99.

⁴ B. Lugan, op. cit, p.237.

⁵ M. Nouvel, «l'évolution du Judaïsme Marocain», document, CHEAM, N° 1096, p.7.

⁶«Les origines du Judaïsme Marocaine», in AI, N°13, 28 Janvier.1927, p.5.

⁷M. Kenbib, *juifs et Musulmans au Maroc...*, op. cit, p. 343.

لقد جاء هذا الحادث في إبان، بالنسبة للأوساط الاستعمارية الفرنسية، التي كانت مستعدة تنتظر الفرصة المواثية للشروع في احتلال المغرب، من أجل تنزيل ما اعتبرته حقوقاً خاصة منحها إياها مقررات مؤتمر الجزيرة الخضراء. ومن أجل إقناع الرأي العام الفرنسي بالعملية التي قامت بها بمنطقة الشاوية، قدمت الصحف الموالية لسياسات الحكومة بباريس تلك العملية العسكرية على أنها تمت لاعتبارات إنسانية من أجل حماية الأوروبيين والمحامين من الإبادة، خاصة اليهود الذين تعرضوا في نظرها لأبشع الانتهاكات من قبيل "ذبح الرجال، واغتصاب الإناث، واسترقاق الأطفال، ونهب ممتلكات الملاح". هذا وقد أشارت جرائد اليسار الفرنسية من جهتها إلى أن المشاركة في أعمال النهب لم تقتصر على "البدويين" بل شاركت فيها أيضاً عناصر أوربية، خاصة الإسبان الذين اقترفوا أعمالاً شنيعة في حق كل من سقط بين أيديهم خلال تلك الأحداث.¹

بعد عودة الهدوء إلى المنطقة، وفي إطار "التنزيل المبكر" للسياسة الأهلية، قامت سلطات الاحتلال الفرنسية بتكليف فرقة من اليهود بكنس شوارع المدينة، وجمع الجثث²، حتى لا يبدو للأهالي المسلمين من جهة بأن فرنسا أتت من أجل حماية اليهود والرفع من شأنهم على حساب المسلمين، ومن جهة أخرى كي تذكر اليهود مبكراً بأن الأولوية هي تحقيق مصالح الفرنسيين، وذلك ما سيتأكد لاحقاً خصوصاً خلال مرحلة المقيم العام الجنرال ليوطي كما سنوضح بعد حين. كما أن بعض الفرنسيين المعادين للسامية وجهوا انتقادات لحكومتهم أثناء الفترة التي اندلعت خلالها أحداث الشاوية لأنهم لم يستسيغوا تعاطفها مع المطالب اليهودية.

ويظهر أن وصول السلطان عبد الحفيظ إلى الحكم والحفاظ عليه وعلى هيئته كان مرتبطاً إذماً بما بويع من أجله، وهو إعلان الجهاد من أجل إخراج المحتلين من البلاد، لأن القوات الفرنسية كانت لا تزال مرابطة بالحدود الشرقية وبمنطقة الشاوية. وبالنسبة لفرنسا، فقد كانت حريصة على ضرورة إيجاد صيغة للتفاهم مع السلطان الجديد لتحصل منه على تزكية الامتيازات التي سبق أن حصلت عليها من أخيه خريف سنة 1907، وتسوية نتائج التدخل العسكري الفرنسي في الشاوية والجهة الشرقية. وتجدر الإشارة إلى أنه في ظل هذه الأجواء المشحونة المصاحبة بدعوة أعيان أهل فاس المحافظين إلى تطبيق الإسلام السلفي، واعتبار كل الأجانب المقيمين بالبلاد كأهل ذمة، ومطالبة اليهود بتسليم الأسلحة غير القانونية التي كانت بحوزتهم، والمساهمة المادية في تحمل تكاليف الجهاد للتكفير عن

¹Ibid, p. 342-344.

²Ibid, p. 339.

الشروع التي تسببوا فيها بسبب علاقاتهم مع النصارى، كلها عوامل دفعت بمسؤولي الرابطة الإسرائيلية العالمية إلى القيام بكل ما من شأنه حماية اليهود من احتمال حصول تجاوزات خطيرة في حقهم باتت وشيكة. ولكن بالمقابل، كانت علاقة المخزن الحفيظي "جيدة" مع النخب اليهودية بالمغرب وباريس، ذلك أن الصدر الأعظم المدني الكلاوي بعث رسالة إلى نارسيس ليفن Narcisse Leve مدير الرابطة الإسرائيلية العالمية بباريس من أجل طمأنته على مصير المغاربة اليهود، كما عبر خلالها عن استحسانه للتعليم العصري الجيد الذي استفاد منه أبناء اليهود بفضل مدارس هذه الجمعية، اعتقاداً منه أن الرابطة يمكن أن تخدم مصالحه بالعاصمة الفرنسية¹.

في ظل هذه الظروف، التي كان يعوزها الاستقرار، كان اليهود المحميون من خريجي مدارس الرابطة يتمنون أن تقوم فرنسا بتعزيز حضورها أكثر بالمغرب بعد أحداث الشاوية، وكان يصعب عليهم - وهم من دعاة التحديث - التنويه بمشروع الدستور الذي اقترح على السلطان عبد الحفيظ من قبل جماعة من الوطنيين الذين طالبوه بإقراره، مستوحين إياه من الدستور التركي حينها، ونشرته جريدة لسان المغرب بطنجة في أربعة أعداد متتابعة من 11 أكتوبر 1908 إلى 1 نونبر من نفس السنة². السبب الآخر الذي كان يمنعهم من ذلك هو أن هذا الدستور كان أقل علمانية من نظيره التركي لسنة 1876، حيث حصر العضوية في مجلسي الأمة والأعيان في المسلمين فقط الذين كان عليهم أن يتقنوا اللغة العربية ويؤدوا القسم على القرآن، وبالتالي لم يكن في نظرهم هذا الدستور كافياً لضمان حقوق غير المسلمين³.

أما من جهة أخرى، فالعمل الذي كانت قد قامت به الرابطة الإسرائيلية العالمية بالمغرب منذ سنة 1862 وانفتاح أولئك الخريجين على الحداثة وثقافة حقوق الإنسان مبكراً⁴، جعلهم يتجاهلون هذا المشروع، ويكتفون بالتركيز على ما يهم مستقبلهم ومستقبل طوائفهم، في ظل استحالة التنسيق مع النخب المسلمة المحافظة التي كانت لا تحفي رغبتها كما أشرنا في تطبيق الشريعة - في ظل نظام ملكي محافظ لم يكن مستعداً لتبني العلمنة ولو في حدود بسيطة - بشكل لا ينظر لليهود إلا باعتبارهم أهل ذمة. لقد كان طموحهم هو أن تتوغل فرنسا أكثر في المغرب،

¹Ibid, p. 355-356.

²B. Lugan, op. cit, p.239.

³M. Kenbib, **juifs et Musulmans au Maroc, 1859-1948...**, op, cit, p. 385.

⁴Lucette Heller-Goldenberg, «**Les juifs marocains sous le protectorat et après l'Indépendance**», in L'héritage colonial du Maroc, Actes du 8° colloque Maroc-Allmand, Bayreuth 2011, Institut Royal de la Culture Amazighe, Rabat 2013, p. 52.

على أمل أن يتحقق لهم ما تحقق لإخوانهم في الدين بالجزائر، كما كان يصعب عليهم التخلي عن الحد من الحماية القنصلية التي حققت لهم مجموعة من الامتيازات بفضل تدخل القوى الخارجية منذ ما يزيد على نصف قرن، والتي مثلت لهم ضماناً موثقاً بها. علاوةً على أن إخضاع المغرب للحماية الفرنسية كان يلوح في الأفق، وهو امر لم يكن ممكناً التغاضي عنه وعن الثمار التي كانوا يتطلعون لجنيها من هذا الأمر.¹

والظاهر أن مخاوف النخب اليهودية المتطورة، ويأسها من إمكانية حصول تغيير من الداخل، قد تأكدت بعدما وصلت المفاوضات بين السلطان عبد الحفيظ والحكومة الفرنسية إلى الباب المسدود بخصوص الجلاء التام عن المناطق المحتلة، حيث لجأ وزير الخارجية الفرنسي إلى الضغط والتهديد عندما قدم يوم 14 غشت من سنة 1909 مذكرة لممثل السلطان ووزير ماليته المقري في مفاوضات باريس، يشترط فيها شروطاً مسبقة لاستئناف المفاوضات بين الطرفين حول المشاكل العالقة بين البلدين. ولما أبدى المولى عبد الحفيظ عدم قبوله بهذه الشروط المسبقة، شنت الصحافة الموالية لباريس حملة منسقة ضده أتت أكلها على المستوى الدبلوماسي، حيث رفضت الحكومة البريطانية استقبال سفير مغربي بلندن.

وسط هذا الفراغ الدبلوماسي وتدهور الوضع الداخلي على المستوى المالي والسياسي، الذي وجد فيه مولاي عبد الحفيظ نفسه فيه وجهاً لوجهاً أمام التهديد الفرنسي، اضطر إلى القبول بمقررات مؤتمر الجزيرة الخضراء التي تعترف لفرنسا بالحقوق الخاصة بالمغرب، والسماح للمراقبين الماليين الفرنسيين باقتطاع 40 بالمائة من عائدات الجمارك من أجل تغطية الدين الخارجي، والقبول بالخضوع لشروط الاقتراض من جديد من القوى الأوروبية²، والمصادقة على اتفاق 15 يناير سنة 1910. كما اضطر بعد أن أذنته الحكومة الفرنسية إلى التخلي عن المدربين العسكريين الأتراك³، ثم التخلي عن الجهاد الذي استقى منه شرعيته في مواجهة أخيه عبد العزيز⁴. في ظل هذه الأزمة الخانقة سيحاول المولى عبد الحفيظ فرض ضرائب جديدة على الأهالي بما في ذلك اليهود المجنسين والمحميين الذين توجسوا من أن تتطور الأوضاع نحو الأسوأ، لأنهم كانوا غير مستعدين للتخلي عن امتيازاتهم⁵. هذه العوامل مجتمعة ستؤدي

¹M. Kenbib, *Juifs et Musulmans au Maroc, 1859-1948...*, op. cit, p.359-361.

²Ibid, p.364-365.

³علال الخديمي، *المغرب في مواجهة التحديات الخارجية...*، مرجع سابق، ص.116.

⁴B. Lugan, op. cit, p. 240.

⁵M. Kenbib, *Juifs et Musulmans au Maroc, 1859-1948...*, op. cit, p. 365.

إلى تمرد قبائل الشمال والأطلس المتوسط على طاعة السلطان، حيث ستحاصر مدينة فاس سنة 1911¹، في إطار معارضة عامة لتزايد النفوذ الفرنسي داخل المخزن، وخاصة نفوذ ضباط البعثة العسكرية الفرنسية. كما أن التهديدات الفرنسية لقبائل زعير أدت إلى انتشار دعوات الجهاد بالمنطقة وفي قبائل الغرب. وفي 3 أبريل من نفس السنة، قررت الحكومة الفرنسية التدخل عسكريا لاحتلال فاس، كما تقرر الضغط على السلطان المولى عبد الحفيظ، ليطلب مساعدة القوات الفرنسية المربطة بالشاوية عبر بعث رسالة إلى الحكومة الفرنسية في 4 ماي 1911، وموقعة من طرفه بتاريخ 17 أبريل². وهكذا انطلقت العمليات، حيث اتخذ الجنرال مواني، الذي كلف بقيادة الحملة الفرنسية، قصبة القنيطرة مكانا لتجميع قواته. وقد شرعت تلك القوات في السير نحو فاس، بتاريخ 11 ماي وتمكنت من دخول المدينة في 21 منه، دون أي قتال يذكر³. وحول موقف يهود المدينة من لاحتلال الفرنسي يقول الدكتور ويسجيربير Weisgerber، الذي كان مرافقا للبعثة الفرنسية حين دخولها إلى فاس، حيث كان شاهدا على هذا الاستقبال: "استقبلنا كل سكان الملاح بحبور واستبشار، وعزفت لنا العديد من الفرق الإسرائيلية النشيد الوطني..."⁴. هذا الاستقبال الحماسي من قبل اليهود للفرنسيين باعتبارهم أبطالاً جاؤوا "لتحريرهم"⁵، لم يتسبب حينها في اجتياح الملاح من قبل المسلمين، ولكنه أفرز -بالتفاعل مع أسباب أخرى- تداعيات بالغة الخطورة على يهود المدينة خلال أحداث أبريل الدامية سنة 1912 بعد توقيع الحماية.

أما فيما يخص مدينة مكناس المجاورة، فقد عانى يهودها في شهر أبريل من سنة 1911 من أحداث عنيفة جدا، في سياق الاضطرابات التي عمت البلاد خلال هذه السنة، حيث تعرض الملاح للهجوم من طرف القبائل المجاورة التي حاولت اقتحامه⁶. ورغم عدم تمكن الإسرائيليين من وضع حد لبعض أعمال النهب في محيط الملاح، فقد تمكنوا من الصمود في مقاومة جحافل المتمردين. سيناريو هذه الأحداث ابتداء يوم الخميس 13 أبريل من نفس السنة، حيث توافدت على مدينة مكناس المجاورة لمدينة فاس أعداد كثيرة من المقاتلين، الذين طالبوا بتعيين سلطان

¹Daniel Rivet, **Histoire du Maroc**, Fayard, Paris, 2012, p. 300.

²«Conformément aux promesses de votre gouvernement ami de nous prêter son appui en cas de nécessité, nous vous avons demandé que le mehalla soit appuyée par une force française, destinée à la seconder et à lui prêter son concours pour atteindre le but poursuivi, c'est-à-dire rétablir la paix dans ces régions et de faire disparaître les causes de trouble et d'agitation, tout en préservant notre autorité chérifienne et l'importance de notre empire fortuné», B. Lugan, op. cit, p. 241.

³علال الخديمي، **المغرب في مواجهة التحديات الخارجية**...، مرجع سابق، ص. 122.

⁴Frédéric Weisgerber, **Au seuil du Maroc Moderne**, Ed. de la Port, 1947, Rabat, P. 237.

⁵روبير أصراف، **محمد الخامس واليهود المغربية**...، مرجع سابق، ص. 73.

⁶A. Guigui, op. cit, p. 63 ; Joseph Tolédano, **Le temps du Mellah, Histoire des Juifs au Maroc, raconté à travers les annales de la communauté de Meknès**, Ed Ramtol, Paris, 1982, p. 118- 119.

جديد على البلاد من الثوار، لكن طلبهم قبول بالرفض من قبل أهالي الحاضرة. وبعد مشاورات صعبة بين الطرفين لم يتم التوصل إلى أي اتفاق، فانسحب المتمردون إلى إحدى القرى المجاورة حيث كان ينتظرهم أنصارهم. وفي صباح اليوم الموالي كان الملاح محاصرا بحوالي 1500 متمرد. وفور الانتباه إلى الخطر، طالب مدير مدرسة الرابطة الإسرائيلية العالمية ساكنة الحي اليهودي بالتأهب للدفاع عن أنفسهم، سيما وأن الملاح كان يحوي 200 بندقية وما بين 7000 إلى 8000 رصاصة. وبفضل العناد الذي كان لديهم ثم تسليح 150 يهوديا من قاطني الملاح، حيث أخذوا مواقعهم فوق أسوار أسطح المنازل وأسوار حيهم، وإلى جانبهم حوالي 50 مقاتلا من قبيلة تولال قاتلوا إلى جانبهم مقابل المال. يحكي جوزيف طوليدانو نقلا عن الحاخام يوسف مساس الذي عاش تلك الأحداث، بأن دوافع ذلك الهجوم كان الحصول على الغنائم، لأن المهاجمين توافدوا بأعداد كثيرة وكانوا مسلحين أيضا بالفؤوس والمعاول رفقة دوابهم طمعا في الحصول على الغنائم. لكن استماتة اليهود في الدفاع عن أنفسهم ضد الهجومات المتوالية حالت دون اقتحام الملاح رغم الأضرار الجسيمة التي لحقت بهم، ذلك أن المتمردين استطاعوا نهب محتويات حوالي 300 محل تجاري كانت في ملكية اليهود تقع خارج أسوار الملاح¹. وبعد مبايعة أهل مكناس وبعض القبائل المجاورة بالإضافة إلى الزاوية الإدريسية وجميع الزراهرة لمولاي الزين سلطانا على البلاد بتاريخ 17 أبريل 1911²، أد الأمر إلى انسحاب الثوار إلى قبائلهم، وبفضل ذلك توقفت الاعتداءات على الحي اليهودي، بعدما اضطروا إلى التسليم بالأمر لمولاي الزين، حيث صاروا يؤدون له الضرائب.

في ظل هذه الأجواء ظل الملاح مغلقا إلى أن دخلت الفرق العسكرية الفرنسية إلى المدينة. وتجدد الإشارة إلى أن يهود المدينة قد استعانوا بوساطة أحد يهود فاس -لأنه يتقن اللغة الفرنسية- يدعى دافيد سلطان كان متواجدا بالملاح، قاموا بتكليفه بالتنقل إلى مدينة فاس من أجل طلب النجدة من الجنرال موانبي، الذي وعدهم بالمساعدة لكنه تأخر لأن الوضع الأمني بالعاصمة كان يتطلب بقاءه هناك. وفي يوم 8 يونيو من سنة 1911 تمكنت الفرق العسكرية من الدخول إلى مدينة مكناس، واستطاعت إبعاد الثوار عنها، وإجهاض مشروع مولاي الزين الذي لم تعترف به سلطانا، وتم فك الحصار عن الملاح. والجدير بالذكر أن قدوم القوات الفرنسية إلى المدينة قد استقبل

¹Ibid, p. 119.

²عبد الرحمان ابن زيدان، إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار مكناس، الجزء الأول، الطبعة الثانية، مطابع الدار البيضاء، 1990. ص. 482.

بترحاب كبير من قبل اليهود، الذين فتحو أبواب الملاح بعد 3 أشهر من الحصار، كما قام أعيانهم وحاخاماتهم باستضافة الضباط الفرنسيين الذين شاركوهم الاحتفال بعيد "الشباط"¹.

ولعل المثير للانتباه في هذا الشأن هو أن الفرنسيين قد تعاطوا مع يهود المدينة عكس تطلعاتهم، حيث طالبوهم أولاً بتحمل نفقة إطعام الجنود الفرنسيين، كما قاموا بإجبار اليهود على التصريح بعدد الأسلحة والذخائر التي يتوفرون عليها، متهمين إياهم بممارسة التجارة في الأسلحة المهربة، لكن اليهود استطاعوا إقناعهم بأن الأسلحة التي كانوا يتوفرون عليها مخصصة للدفاع عن النفس فقط، فاكثفوا بترقيمها كإجراء احتياطي حتى لا يتم الاتجار فيها مستقبلاً²، خوفاً من أن تصل إلى أيدي المقاومة. هذه الإجراءات التي أثارت امتعاض اليهود، تعكس بشكل عام مقدمات السياسة الأهلية التي سيقوم المقيم العام الأول الجنرال ليوطي لاحقاً برسم أهم ملامحها، والتي تلخص فلسفتها في أن مصلحة الفرنسيين فوق كل اعتبار، ولو كان ذلك ضد مصالح اليهود، عندما يقتضي الأمر ذلك.

ومهما يكن الأمر فإن العناصر اليهودية المتطورة التي استقبلت الدخول الفرنسي بذلك الحماس، كانت تهدف من وراء ذلك جذب انتباه المستعمر الذي كان يبدو لها في مركز القوة بعدما استطاع احتلال العديد من المستعمرات، ومن هنا تطلعت إلى الحصول على امتيازات ومكاسب تحول لها التحرر والانعقاد من القيود التي كانت تعاني منها. إن الأسئلة التي تطرح نفسها في هذا السياق هي: كيف كان موقف بعض النخب اليهودية التقليدية من هذا الوافد الجديد؟ وكيف تعاطت مؤسسة الحماية من جهتها مع تطلعات الاندماجين في إطار السياسة الأهلية التي رسمت حدود العلاقة مع هذه الأقلية؟ وهل تحقق لهم ما كانوا يطمحون إليه، بعد توقيع الحماية الفرنسية على المغرب سنة 1912؟

بعدما استطاعت فرنسا تسوية آخر خلافاتها مع ألمانيا حول المغرب بتاريخ 4 نونبر سنة 1911، بتنازها لهذه الأخيرة عن جزء من الكونغو، مقابل استئثارها بالمغرب، لم يبق أمامها إلا إتمام السيطرة عليه. وهكذا قامت الحكومة الفرنسية بتكليف المفوض الفرنسي بمدينة طنجة أوجين رينو بإتمام المهمة المتمثلة في توقيع الحماية على المغرب، وذلك ما تحقق بعد أسبوع واحد من المفاوضات مع السلطان عبد الحفيظ الذي وقع على عقد الحماية تحت ضغط

¹J. Tolédano, *Le temps du Mellah*, op. cit, p. 120-121.

²Ibid, p.121.

حوالي 5000 آلاف جندي كانوا مرابطين بجانب أسوار القصر الملكي بالعاصمة، بالإضافة إلى احتلال مناطق مهمة بمنطقتي الشرق والشاوية غربا، في إطار حالة من الفوضى كانت تعم البلاد¹. وما إن شاع الخبر في صفوف الساكنة حتى اندلعت موجة من الغضب في صفوف جميع الفئات الاجتماعية، التي اعتبرت التوقيع على عقد الحماية بمثابة عقد بيع البلاد للفرنسيين². وفي إطار رد الفعل ضد هذا الحدث قام الجنود المغاربة بالتمرد ضد مدبريهم الفرنسيين، ومن تداعيات الأحداث الدامية خلال أيام 17-18-19 أبريل من سنة 1912 تعرض ملاح مدينة فاس للعديد من الهجومات من طرف حوالي 2000 من الجنود المتمردين بالإضافة إلى القبائل المنتفضة، إذ لم يتركوا أي مكان بالملاح إلا وهاجموه، حيث تعرض اليهود خلال تلك الأيام إلى مذبحه حقيقية³. لقد تعددت أسباب ذلك الهجوم، ويمكن تحديدها فيما يلي: أولا: استغلال المتمردين حالة الفوضى التي اندلعت بالمدينة من أجل نهب الملاح، خاصة وأن هروب اليهود ومغادرتهم لمخلاتهم أغراهم أكثر، وحتى المسلمين الذين كانوا يعملون سابقا بالحلي اليهودي انضموا إلى المتمردين وشاركوهم أعمال النهب والتخريب. ثانيا: اقتحام الملاح بحثا عن الفرنسيين الذين اعتقدوا أنهم لجؤوا إليه للاختباء فيه من أجل قتلهم. ثالثا: معاقبة اليهود لأنهم عبروا عن سعادتهم بقدوم الفرنسيين، ثم البحث عن الأسلحة المخبأة بالملاح⁴.

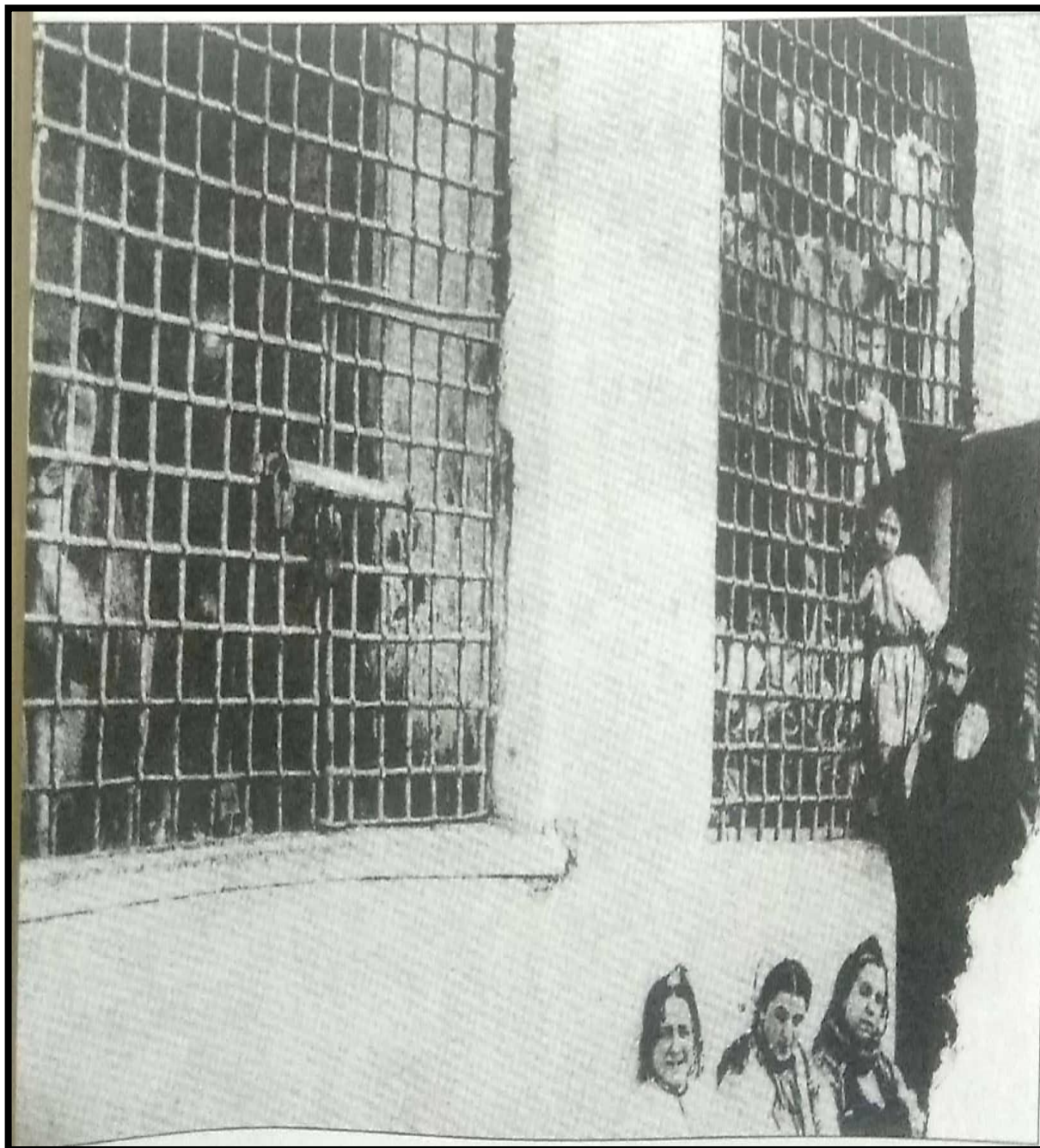
¹B. Lugan, op. cit, p. 244.

² F. Weisgerber, op. cit, p. 272-273.

³J. Tolédano, *Le temps du Mellah*, op. cit, p.122.

⁴M. Kenbib, *Juifs et Musulmans au Maroc*, 1859-1948, op. cit, p.382-385.

صورة رقم 04: اللاجئين اليهود داخل القصر الملكي بمدينة فاس



Source : Frank Bensemon, *juifs du Maroc*, op. cit, p. 134.

لقد كانت الخسائر البشرية التي تكبدها يهود المدينة ثقيلة جدا، حيث بلغ عدد القتلى حوالي 60 قتيلا، و50 جريحا، كما أن الخسائر في الممتلكات كانت كبيرة¹. ولعل ارتفاع حجم الخسائر المادية والبشرية يعود إلى عدة أسباب تمثلت فيما يلي: في بداية شهر أبريل حين دخل الفرنسيون إلى المدينة قاموا بتجريد يهود الملاح من أسلحتهم كإجراء احتياطي خوفا من بيعها للمتمردين، ولم يتركوا لليهود غير 5 بنادق قديمة لم تكن قادرة على صد الاعتداءات التي حدثت لاحقا خلال الأيام الدامية²، مما أجبرهم على الدفاع بالحجارة فقط³. ثم إن أولوية الفرق العسكرية الفرنسية التي كانت متواجدة بالمدينة كانت هي حماية السفارة الفرنسية، وهي عندما بادرت إلى تقديم المساعدة فعلت ذلك على نحو متأخر، لأن الحي اليهودي كان مطوقا بالكامل من قبل المتمردين الذين ارتأت تركهم منشغلين بأعمال النهب، حتى يتسنى لها مباغتتهم من جهة دار الديبغ. والظاهر أن العسكريين الفرنسيين حين اقتربوا من الملاح لم يستطيعوا اقتحامه، لأن المتمردين كانوا منتشرين في جميع المواقع فوق الأسوار بشكل جعل عملية الاختراق مستحيلة، وحتى يستطيع قائد العمليات الفرنسي وضع حد نهائي للمتمردين المسلح من داخل الملاح قام بإعطاء الأمر بقبلة الحي اليهودي دون أن يأخذ بالاعتبار الضحايا اليهود الذين يمكن أن يصابوا في هذه العملية⁴.

يستخلص مما سبق أن الفرنسيين على عكس ما كان يتوقعه اليهود، عندما استقبلوهم، لم يهتموا إلا بمصالحهم، حيث انشغلوا بالدفاع عن مواقعهم أولا، ولم يبذلوا جهودا كبيرة في الدفاع عن الإسرائيليين في خضم هذه المحنة التي تعرضوا لها، الأمر الذي أثار امتعاض مسؤولي الجماعة. وقد حاول المفوض الفرنسي رينو تقديم مجموعة من المبررات للتوصل من مسؤولية ما وقع، من قبيل تحميل المسؤولية لأعيان مدينة فاس الذين تقاعسوا عن التدخل من أجل ثني إخوانهم في الدين عن القيام بأعمال العنف، لكن رغم ذلك حصلت لدى اليهود قناعة بأن الفرنسيين ضحوا بهم في تلك الأحداث⁵. ومن أجل تطويق تداعيات هذه الأحداث ناشد مسؤولو الرابطة بباريس إخوانهم في الدين من أجل الاستمرار في وضع الثقة في فرنسا بالرغم مما حدث، كما حاولوا دفع الحكومة المغربية إلى إعلان تحملها لمسؤولية ما حدث، وكذا إنصاف الضحايا وتعويضهم عن الخسائر التي تكبدها. وبالرغم من العلاقات النافذة التي كانت لهم في فرنسا مع مديري كبريات الجرائد والنواب البرلمانيين، إلا أنهم امتنعوا عن استغلالها في التصعيد ضد المسؤولين

¹J. Tolédano, *Le temps du Mellah*, op. cit, p.122.

²Ibid, p.378.

³Brunot Luis et Eli Malka, *Textes Judéo-Arabs de Fès*, Publication de L'institut des hautes études Marocaines, Tome XVIII, Texte transcription traduction, Rabat, 1939, p. 208.

⁴M. Kenbib, *Juifs et Musulmans au Maroc, 1859-1948*, op. cit, p.383.

⁵Ibid, p.391.

عما حدث، واكتفوا مقابل ذلك بالترقب وعدم إبداء أي موقف مؤيد أو معارض لتعيين الجنرال ليوطي مقيما عاما بالمغرب.

وعند توقيع الحماية الفرنسية على المغرب سنة 1912 تأكد اليهود بأن السلطة الحقيقية قد غادرت القصر، واستقرت بيد الإقامة العامة، لذلك لم تتوان الأوساط اليهودية المتطورة كلما أتيحت لها الفرصة عن دعوة باقي إخوانهم في الدين للاصطفاف إلى جانب الوافد الجديد¹، والتعبير عن التعلق الشديد بفرنسا الحامية. والجدير بالتنبيه أن العناصر التي تدرست بمدارس الرابطة الإسرائيلية العالمية وتلقت تكوينا غريبا هي أكثر فئة استقبلت الفرنسيين بابتهاج كبير، عكس النخب التقليدية² التي ظلت مترددة في البداية، في وضع الترقب كما سنوضح ذلك فيما بعد. لقد اعتبر هؤلاء المتطورون أن الحماية لحظة تاريخية فارقة في التحول نحو التحديث، حيث نظروا إليها على أنها ثورة حقيقية³، لذلك لم يستقبلوا المستعمر الفرنسي غازيا بل محرراً يحمل تبشير الانعتاق⁴. وفي هذا الصدد يقول محمد حاتمي: "...اعتبر المسلمون الاجتياح العسكري الفرنسي عدوانا و"اغتصابا كاملا"، فامتلكهم شعور بالمذلة والهوان، وفي المقابل" ابتهجت الجماعات اليهودية للحدث واعتبرته خلاصا ومقدمة لعملية تحرر جماعية. وقد جعلت نظرة كل طرف للدخيل النصراني يعيش ويحس تديره للشأن العام المحلي وفق منطقين متناقضين: فالمسلم عاش الاستعمار" كمصيبة" وورطة تستهدفه في شخصه وهويته، فخلص إلى وجوب التصدي لها عبر مقاومة ميدانية واجتهاد روحي وثقافي للحد من آثارها الراهنة والمستقبلية. وعلى عكس ذلك، اعتبر اليهودي الوجود الفرنسي "فرصة تاريخية استثنائية" لا بد من استغلالها والاستفادة منها إلى أقصى درجة"⁵.

وكباقي يهود المغرب من دعاة الاندماج، مثلت الحماية بالنسبة للجماعة اليهودية بمدينة مكناس بزوغ فجر جديد، حيث شكل مجيء الفرنسيين إلى البلاد سنة 1912 بالنسبة لهم حدثا فاصلا بين مرحلتين، ما قبل الحماية وما بعد الحماية، ولم يعد في تقديرهم "من معنى للتعبير عن الحنين للمغرب القديم". كما أن مسؤولي الرابطة بباريس

¹« Une bouffée d'oxygène et une douce brise soufflèrent dans les rues Mellah, alors que le ressentiment gonflait l'âme de beaucoup de musulmans qui ne supportaient pas de voir les juifs s'ouvrir très rapidement à la culture française et la recherche comme voie de libération. » cité in, Abécassis Armand, **Rue des synagogues**, Laffont, Paris, 2008. P.22.

²D. Bensimon-Donath, **Evolution du Judaïsme Marocain...**, op. cit, p. 100.

³روبير أصراف، محمد الخامس واليهود المغربية...، مرجع سابق، ص.124.

⁴D. Bensimon-Donath, **Evolution du Judaïsme Marocain ...**, op. cit, p.120.

⁵محمد حاتمي، الجماعات اليهودية المغربية...، مرجع سابق، ص.259.

ومندوبيها بالمغرب لم يفوتوا أي فرصة من أجل مناشدة الحكومة الفرنسية من أجل الإسراع بإدماج المغاربة اليهود، وقد كانت الإشادة بتشبعهم بالثقافة الفرنسية وتقدمهم بالنسبة للأهالي العرب، و الخدمات المقدمة لفرنسا قبل 1912، من أهم الحجج المقدمة في هذا الصدد. لقد صاروا يذكرون بأن المغاربة اليهود لم يكونوا رعايا بالمعنى الدقيق للكلمة، بل مجرد محميين مرتبطين بالسلطين و خاصين بهم، يدفعون الجزية كمقابل من أجل ضمان أمنهم، ويعيشون في عزلة تامة داخل الملاح، وبالتالي فإن الأمر لم يكن يتعلق في نظرهم إلا بمحميين عديمي الجنسية¹. لقد رأوا في قدوم فرنسا فرصة للتحرر، حيث عقدوا آمالاً كبيرة في أن يتم ذلك على الطريقة الجزائرية، بفضل قانون كريمو الذي صدر سنة 1870².

هذه الآمال انتعشت أكثر خاصة لما سقطت الجزية عنهم بعدما ألغيت وضعية أهل الذمة، فاعتقدوا بذلك أن هناك خطوات أخرى في الطريق ستؤدي إلى المزيد من التحرر من الوضعية القديمة³. ولا شك أن للأحداث العنيفة التي تعرضوا لها مع مطلع القرن العشرين دور محفز في استقباهم الإيجابي للتدخل الفرنسي، وهم يستحضرون المكاسب التي تحققت لإخوانهم في الدين بالجزائر.

على عكس بعض الأعيان، وكل العناصر المتطورة التي لم تتردد في التعبير عن مواقف مرحبة بالتواجد الفرنسي بالمغرب، ظلت أغلب النخب التقليدية اليهودية في البداية حذرة وحريصة على عدم إثارة الانتباه، حيث ظلت خاضعة لسلطة المخزن ومتوجسة من آثار التدخل الأجنبي⁴، خوفاً من أن يؤدي التماهي مع الحضارة الغربية وتسرب ثقافتها داخل الطوائف اليهودية إلى تراجع القيم التقليدية والابتعاد عن الالتزام الديني، والدراسة الدينية⁵. وفي هذا السياق نورد موقف الحاخام يوسف مساس أحد أبرز وأشهر القادة الروحيين لليهودية بمدينة مكناس خلال هذه الحقبة حيث قال:

¹ محمد كنيبي، **يهود المغرب 1912-1948**...مرجع سابق.ص.140.

² Pierre Cohen, **la Presse Juive éditée au Maroc, 1870-1963**, Ed Bouregreg, 2016, p.92.

³ M. Kenbib, **Juifs et Musulmans au Maroc**, op. cit. p. 411.

⁴ الأحداث المؤلمة التي تعرض لها يهود مدينة فاس بعيد توقيع معاهدة الحماية أعطت الانطباع لهؤلاء بأن قدوم فرنسا لا يبشر بالخير، خاصة وأن تدخل الجنود الفرنسيين لإنقاذ اليهود من تلك الأعمال العدوانية لجيش السلطان المتمرد قد تأخر في محاولة من مؤسسة الحماية التعبير عن كونها لا تعتمد سياسية التمييز بين رعاياها.

⁵ P. Cohen, op. cit, p. 91 ; D. Bensimon-Donath, **Evolution du judaïsme marocain**, op. cit, p.102.

"منذ مجيء الفرنسيين إلى مدينتنا بدأ نمط الحياة بها يتغير، البعض اعتبر ذلك أمراً إيجابياً، والبعض الآخر عده سلبياً. صحيح أنه بفضل ذلك تحقق الأمن، وصرنا أكثر اطمئناناً على أبداننا، لكن تلك السكينة الروحية التي كانت تجعل كل واحد منا سعيداً بما لديه، سواء كان قدره سيئاً أو جيداً اختفت نهائياً. والحاجة إلى السلع الكمالية تضاعفت إلى ما لا نهاية، خاصة في صفوف النساء والأطفال من الذكور والإناث، الذين أسكرتهم الرياح الجديدة التي هبت مع الفرنسيين. والنتيجة كانت شيوع القلق وتحافت الجميع لمضاعفة الجهد، وانتشرت الغيرة والمنافسة من أجل بلوغ أقصى درجات الغنى قصد تحقيق المتعة. كما أن قلوب الناس استسلمت للمكر وأصبحوا يعتمدون أسلوب الخداع للحصول على المال بأي طريقة. وحتى أولئك الذين كانوا أكثر ارتباطاً بالتوراة، لم يسلموا من لوثة الثقافة الاستهلاكية وابتعدوا شيئاً فشيئاً عن "حضن أمهاتهم". إن أعمدة التوراة بدأت تنهار من دون أن ينتبه أحد إلى ضرورة حماية المؤمنين ورعايتهم"¹.

يتضح إذن أن النخب اليهودية التقليدية بمدينة مكناس كانت متوجسة من التحولات الاجتماعية التي رافقت توقيع معاهدة الحماية، من قبيل انفتاح الشباب على الثقافة الفرنسية وابتعادهم عن التقاليد والقيم المحافظة لليهودانية المغربية²، لدرجة اتخاذ بعض الإجراءات الجزرية الرقابية على سلوكياتهم من قبيل ما قام به الحاخام الأكبر للطائفة باروخ طوليدانو، حيث حاول، نهاية الثلاثينيات، منع الفتيات اليهوديات من التجوال في شوارع المدينة إلى وقت متأخر، لدرجة إشرافه على تنظيم دورية ليلية لضمان الالتزام بهذا الأمر، الأمر الذي تناولته جريدة المستقبل المصور في إحدى مقالاتها بالسخرية³. كما اشتكى حاخامات المدينة لقائد الحماية العسكرية الفرنسي من الممارسات التي كان يقوم بها الجنود الفرنسيون الذين يفرطون في شرب الخمر حينما كانوا يرتادون إحدى مقاهي الملاح العصرية، وقد تمكنوا من دفع القائد المذكور إلى إصدار قرار بمنع الجنود من الدخول إلى الملاح باستثناء الضباط⁴. وفي نفس الوقت قرر الحاخام زيف هالبرين Zeev Halperin، بمباركة ودعم من النخب التقليدية المحافظة، وضع خطة من أجل حماية الأمن الروحي لليهود وضمان ارتباطهم بالكتاب المقدس للحد من التغييرات التي كان يخشى أن تحدثها

¹ R. Assaraf, *Eléments...*, op. cit, p.167-177.

² Ibid, p.235.

³ David Cohen, *Passions marocaines: mémoires*, Ed Bibli Europe, 1969, p.40.

⁴ Ibid, p.32.

مدارس الرابطة في نفوس الناشئة اليهودية بالمدينة. وفي هذا الصدد قام من خلال جمعية Mahziki Torah التي كان يرأسها بالإشراف على خلق مدرسة ابتدائية دينية عصرية استطاعت إحداث ثورة في المناهج البيداغوجية للتعليم الديني*. لقد استطاعت هذه المدرسة تحقيق نجاحات مهمة في استقطاب الشبيبة اليهودية بالمقارنة مع الفشل الذي منيت به بمدينتي فاس وصفرو، ذلك أنه خلال الموسم الدراسي لسنة 1915-1916 تراجع عدد المسجلين بمدرسة الرابطة بشكل كبير بسبب المنافسة التي مثلتها تلك المدرسة التقليدية¹، خاصة وأن الآباء المحافظين وجدوا في التعليم الذي تقدمه هذه المؤسسة مضمونا يتسق مع "أرثودوكسيته" بالمقارنة مع تعليم الرابطة. هذا الأمر يعكس خصوصية اليهودانية المكناسية التي كانت جد محافظة بسبب سطوة الحاخامات وعددهم الكبير مقارنة مع باقي مدن المغرب التي كانت تؤطر الساكنة حتى أنها لقبت من قبل يهود المغرب بالقدس الصغيرة.

مع توالي سنوات الحماية وحيوية الأنشطة التي كانت تقوم بها مدارس الرابطة وعدد من الجمعيات، على رأسها جمعية قدماء مدارس الرابطة، وزيادة الاحتكاك بالمستوطنين الأوروبيين بالمدينة الجديدة، كلها عوامل كان من الصعب أن توقف سرعة التحولات الأخلاقية التي مست فئات عريضة من يهود مدينة مكناس²، وهو ما عزز الإصرار على التماثل الاجتماعي مع الفرنسيين دون الانسلاخ التام عن كل خصوصيات اليهودانية التقليدية التي ظلت راسخة بفضل التعليم التقليدي، الذي خضع بدوره للتطور مع مرور الوقت بفعل يقظة النخب التقليدية التي طبعت مع مرور سنوات الحماية مع الوجود والثقافة الفرنسيين.

لقد ظل مطلب الحصول على الجنسية الفرنسية أهم مظهر من مظاهر تماهي المغاربة اليهود مع الحماية، حيث سعت الفئة المتنورة منهم إلى الاندماج كلية في بنية المجتمع الكولونيالي، عبر التشبث بمطلب الحصول على " وضع سياسي ينسجم مع ميولاتهم وثقافتهم". لذلك اعتبروا بأن المخرج الوحيد للإفلات من البؤس والتعسفات والإهانات التي كانوا يعانون منها بوصفهم أهالي هو الاستمرار في المطالبة بـ"الارتقاء" إلى مرتبة كرامة المواطنين الفرنسيين. في هذا الصدد يشير محمد حاتمي إلى "تنوع أطروحات النخب اليهودية لتدعيم مطلبها. ففي مرافعاتهم الفلسفية، شدد المطالبون على الالتزامات الأخلاقية المترتبة عن إدارة الجمهورية لشؤون أقلية مستضعفة لا يمكنها التطور من دون

* ذلك ما سنتطرق له بتفصيل أكبر في العنصر المرتبط بالتعليم.

¹ R. Assaraf, *Eléments...*, op. cit, p.263-238.

² D. Cohen, op. cit, p. 39.

رعاية وحماية خاصة. وراهنوا كذلك على إلزامية "عتق" الإنسان اليهودي وتحريره من إكراهات وتبعات نظام ملكي ديني الجوهر لا يعترف -ولا يمكنه أن يعترف- بالأسانيد العصرية التي ينبغي أن تؤسس لعلاقات مواطنين "متحضرين ومتشبعين بأفكار الثورة الفرنسية" بحاكمهم وبالقائمين على أمورهم الدنيوية. وانطلاقا من هذا المعطى، طرحوا أسانيد متنوعة شكلت مجتمعة منظومة فلسفية رمت إلى تحقيق التجرد قانونيا من روابط التبعية تجاه سلطة السلطان المطلقة. ويأتي على رأس القرائن والأدلة عدم انتماء اليهودي عمليا للدولة المغربية لأنه "بكل بساطة" خارجها على اعتبار أن جوهر الاختلاف بين الرعايا اليهود والرعايا المسلمين يكمن في انتماء هؤلاء للأمة الإسلامية بدليل اشتراط الانتماء الإسلامي لتحصيل الانتماء الوطني والتمتع بفوائده والحصول على الجنسية المغربية. وفي المقابل، يوجد الرعايا اليهود أصلا خارج الأمة لأنهم يدينون بدين غير الإسلام لا سيما وأن المسلمين ينبذون الملة اليهودية ويحتقرونها. فاليهودي وفق هذا الطرح "إنسان من دون حقوق ولا واجبات..." و"خارج الدولة الوطنية". وذهب بعض المتشددين إلى القول بأن اليهودي لا يعتبر من الناحية القانونية "حتى من رعايا السلطان" لأنه "يعيش في إطار سياسة التسامح المطبقة، وهي لازمة للدولة الإسلامية"، تجعل منه من الناحية الفعلية إنسانا مرتبطا بالدولة المغربية بروابط أخلاقية فقط (وليست قانونية).¹

لقد تجاهل أغلب المغاربة اليهود نداءات الوطنيين لما دعوهم للمشاركة في "الكفاح المشترك" قصد إرغام فرنسا على التخلي عن "سياسة العرق صاحب الامتياز"². ومن دون شك فإن التعليم العصري الذي قدمته مدارس الرابطة بالمغرب منذ سنة 1862 عندما فتحت سلسلة من المدارس بمختلف الحواضر، أولها بمدينة تطوان، بالإضافة إلى تداعيات مرسوم كريميو بالجزائر، كان له دور في تشكل نخبة ديناميكية لم تدخر جهدا في السعي للتمائل الاجتماعي مع الفرنسيين، في هذا الصدد يشير محمد كنيب قائلا:

"[...] لقد كان طبيعيا أن يتأثر تلاميذ الرابطة بفحوى برامجها وطرق تلقينها، وهي برامج شبه

مستنسخة مما كان جاري به العمل في فرنسا والجزائر، إذ تصدرتها دروس اللغة والآداب الفرنسي،

وكذا تاريخ فرنسا وحضارتها. وكانت هذه البرامج والروح التبشيرية التي كان يتحلى بها المعلمون

والمعلمات تعني في نهاية المطاف تشيع التلاميذ، ولو بدرجات متفاوتة بما سمعوه حول تاريخ وثقافة

¹ محمد حاتمي، *الجماعات اليهودية المغربية*، ...مرجع سابق، ص. 171-172.

² محمد كنيب، *يهود المغرب*، ...مرجع سابق، ص. 309.

فرنسا، ولا سيما فلسفة عهد الأنوار، ومبادئ الحرية والمساواة وحقوق الإنسان التي قامت عليها ثورة 1789، وإعلان الجمعية العامة للمساواة بين المواطنين الفرنسيين بصرف النظر عن انتماءاتهم الدينية والعرقية. وبالإضافة إلى تشبعهم الفكري بالرصيد التاريخي والفلسفي الفرنسي، تأثر أيضا هؤلاء التلاميذ بما كان يصلهم من أخبار حول القفزة النوعية التي استفاد منها يهود الجزائر بشكل جماعي عقب إقدام الحكومة الفرنسية، وبمبادرة من وزيرها في العدل أدولف كريمو، وهو محامي ورئيس للرابطة الإسرائيلية، على إصدار مرسوم (مرسوم كريمو)، القاضي بمنح الجنسية الفرنسية بشكل جماعي ودفعة واحدة ليهود الجزائر سنة 1870. وبفعل تأثرهم بالثقافة الفرنسية وإعجابهم بـ "فرنسة" يهود الجزائر، وتمييزهم عن أهالي البلاد المسلمين، أي الاعتراف لهم بحقوق مماثلة لحقوق المعمرين... كان طبيعيا أن يحاول يهود مغاربة، وخصوصا منهم المتخرجين من مدارس الرابطة الانتفاع من هذا المرسوم والحصول على شهادات الجنسية الفرنسية. لذلك اتجه عدد كبير من يهود المغرب إلى وهران وغيرها من المدن الجزائرية للإقامة بها بعض الوقت مدعين أنهم ذو أصول وارتباطات عائلية جزائرية. وبناء عليه أبدى إخوانهم الدين الجزائريين استعدادهم للإدلاء بشهادات مجاملة وزور لإثبات تصريحات هؤلاء المغاربة أمكنهم الحصول على جوازات فرنسية. وإثر فرنستهم بهذه الكيفية أو بأساليب أخرى، كانوا يغادرون الجزائر للرجوع إلى وطنهم الأصلي، ويستقرون من جديد بين ذويهم وجيرانهم، ولكن باعتبارهم رعايا فرنسيين لا تنالهم قوانين البلاد ولا يخضعون لنظامها الضريبي. واللافت أن ارتفاع أعداد المتطلعين للحصول على الجنسية الفرنسية بهذه الكيفية، والمتوافدين على الجزائر لهذه الغاية أحدث نفورا قويا اتجاههم لدى المعمرين الفرنسيين وغذى الحركات الاحتجاجية المتأثرة بالإيديولوجية المعادية للسامية، في منطقة وهران بصفة خاصة¹.

إن تعيين الجنرال ليوطي كأول مقيم عام بالمغرب، كان له دور حاسم في عدم الاستجابة لتطلعات الاندماجين، بسبب فلسفة السياسية الأهلية² التي طبقها هذا الأخير بالمغرب، والتي اقتضت الحفاظ على نفس

¹ محمد كنيبي، المحميون...، مرجع سابق، ص. 239-249.

² لخص دانييل ريفي السياسة الأهلية في خمسة مبادئ، أولا: حرص الجنرال ليوطي الشديد على ترك مسافة بين الفرنسيين والأهالي، أي وقف مسار فرنسة السكان المحليين، حيث كان يرى بأن المغرب الأهلي المندمج هو طاقة مهدورة بالنسبة لبلده وبالنسبة للحماية. كما كان حريصا على احتواء الاختلاط بين الجنسين لدى الأهالي. ثانيا: إصدار قرارات من منذ مطلع الحماية ثم بموجبها إحداث المدن الأوربية لإيواء المعمرين، مقابل ترك المدن المغربية الإسلامية على حالها مع مراعاة هندستها العمرانية التقليدية في عمليات الترميم، لأن المدينة المغربية العتيقة كانت بالنسبة للأهالي أكثر من فضاء للسكن. ثالثا: الحفاظ على المقدسات الدينية للمغاربة واحترامها بما في ذلك ممارسات وطقوس الإسلام الشعبي، الذي كان

التراتبات الاجتماعية التي كانت قائمة بالبلاد، وفي هذا الصدد، وبمناسبة زيارة قام بها هذا الأخير لمدينة مكناس في أعقاب بعض الاضطرابات التي شهدتها المدينة، لم يتردد في التصريح بأن الحماية لم يتم تأسيسها من أجل اليهود، حرصا منه على عدم تكرار الأخطاء التي ارتكبت في الجزائر، وحتى لا يتكرر سيناريو أحداث فاس الدامية التي استخلص منها الكثير من الدروس في كيفية التعاطي مع الأهالي¹.

لقد سعى ليوطي في علاقته باليهود إلى احتوائهم ما أمكن والاستفادة من خدماتهم، دون السعي لتحريرهم أو إقصائهم في إطار مقارنة براغماتية، من دون أن تتحكم فيها خلفية معادية للسامية²، كما أكد على ذلك محمد كنيب، على عكس دانييل ريفي الذي أعاد ذلك إلى ميولات ليوطي الأرستقراطية، حيث أشار إلى وجود مؤثرات معادية للسامية طفيفة في شخصية المقيم العام. فليوطي أقر بأنه من "الطبيعي" والمشروع أن تطمح الفئة المتنورة إلى الحصول على الجنسية الفرنسية، أما أن تعم المسألة من نعتهم بـ"la tourbe" فهو ما لم يكن بوسعها القبول به³. وبالإضافة إلى الحرص على عدم تكرار السيناريو الجزائري كما سبق وأوضحنا ذلك، كان هناك مبرر آخر منع سلطات الحماية من الاستجابة لطلب الحصول على التجنس الجماعي الذي كان يحلم به الإندماجيون من اليهود، حتى لو كان في نية هذه السلطات القيام بذلك، تمثل في أن معاهدة الحماية ألزمت فرنسا بالحفاظ على الشخصية الدولية للمغرب⁴. كما أن إدارة الحماية ظلت تعتبر جميع الأهالي رعايا للسلطان، واعتمدت في تبرير ذلك على ما جاء في نص معاهدة مدريد (3 يوليوز 1880) الذي كرس مبدأ البيعة الدائمة للرعايا تجاه السلطان، بغض النظر عن الاختلافات الدينية فيما بينهم. لقد نصت تلك المعاهدة في بندها الخامس عشر على أن الحصول على الجنسية الأجنبية، لا يسقط البيعة تلقائيا (تستوجب تزكية السلطان) إلا في حالة الاستقرار لمدة طويلة في بلد آخر. وبناء عليه فإن الدولة الشريفة لا تعترف للمجنس بالجنسية المزدوجة ولا بادعاء الجنسية المحصل عليها حين مقامه فوق

يتم التعبير عنه عبر المواسم التي كانت تنظمها الزوايا والطرق. لقد كان ليوطي يقوم بذلك لأن تلك الطقوس والممارسات كانت تمثل بالنسبة للمغاربة نوعا من أنواع التنفيس عن الضغوط التي كانوا يتعرضون لها حتى في علاقتهم بالهزيمة أمام المحتل. رابعا: الإغلاء من الوضع الاعتباري للسلطان (il presse Moulay Youssef d'entrer dans la peau d'un Sultan) داخل المجتمع المغربي. إذ كان لا يتردد في التصريح بأنه مجرد خادم لجلالة السلطان وأمير المؤمنين. خامسا: إبراز الشخصية الوطنية للمغرب على الساحة الدولية، وتقديم سلطان المغرب على المستوى الخارجي باعتباره خليفة للمسلمين بعد سقوط الخلافة العثمانية سنة 1924 بتركيا بقرار من كمال أتاتورك. لقد لجأ إلى ذلك بحثاً عن سلطة ناعمة ضد الإنجليز بالبحر الأبيض المتوسط، وفي نفس الوقت من أجل دغدغة المشاعر الوطنية للمغاربة في محاولة منه لاستمالتهم.

D. Revet, *Histoire du Maroc*, op. cit, p. 307-309.

¹M. Kenbib, *Juifs et Musulmans au Maroc...*, op. cit, p. 405.

²Ibid, p. 406.

³ D. Revet, *Lyautey et l'institution du protectorat Française au Maroc TII*, Ed L'Harmattan, 1988, p. 264-69.

⁴M.Nouvel, op. cit, p. 7 ; M. Kenbib, *Juifs et Musulmans au Maroc*, op. cit, p. 408.

التراب السلطاني ولو لمدة قصيرة، ويخضع بالتالي قانونيا وفعليا لسلطة السلطان والإدارة المخزنية. وهذا ما كرسته معاهدة الحماية¹.

لقد كان الجنرال ليوطي حريصا بشكل شديد على عدم القيام بأي إجراء من شأنه استفزاز الأغلبية المسلمة، لذلك ظل دائما يعطيهم الانطباع بأن الحماية تحترم عاداتهم وأخلاقهم ومبادئ الإسلام الأساسية. وفي هذا الإطار عمل على استقطاب بعض العلماء المسلمين²، كإجراء كانت الغاية منه كسب ود الأهالي المسلمين، والإيحاء في الوقت نفسه بأن سلطة الحماية ليست لها سياسة تمييزية لصالح اليهود، وبالمقابل، ومن أجل الحفاظ على نوع من التوازن في علاقته مع الطرفين، كان هذا الأخير يقوم بعدة مجاملات لليهود، من قبيل تنظيم زيارات ميدانية للأحياء اليهودية، للاطلاع على أحوالهم هناك، والالتقاء بأعيانهم، كما كان ينتدب زوجته لتدشين بعض الأعمال الخيرية والاجتماعية التي تخصهم، حتى يترك لديهم الانطباع بأنه ذلك "الأرستقراطي المثقف". كما كان يسمح لرؤساء الجهات بحضور بعض الأنشطة التي كان اليهود ينظمونها، من قبيل تلك التي كان يتم فيها الحديث عن ذكرى مرور "الرحالة" شارل دوفوكو بعدد من الملاحظات، حيث يتم التذكير والإشادة بالخدمات التي قدمت له من قبل إخوانهم في الدين، من أجل خدمة القضية الفرنسية³. لكن حجم تلك المجاملات والمبادرات الرمزية لم تكن ترافق بإجراءات عملية بارزة على أرض الواقع، في الاتجاه الذي كان الإسرائيليون يسعون إليه، لدرجة أن سياسة الحماية في عهد ليوطي باتت تتعرض لانتقادات شديدة من قبل الجمعيات الأمريكية⁴ المهتمة بأحوال المغاربة اليهود. وفي نفس الاتجاه، ومن أجل انتزاع الحق في التجنيس أمام الموقف الصارم للإقامة العامة، اتجه النشطاء اليهود الاندماجيون بتأطير من الرابطة، إلى الاحتجاج لدى السلطات المركزية بباريس، ولدى رابطة حقوق الإنسان.

هذا الإصرار في طلب الحصول على الجنسية الفرنسية الذي استمر طيلة فترة الحماية، كان في تقديرهم أمرا يجب أن يتحقق كمكافأة على مجهوداتهم التي بذلوها في سبيل تبني القيم الغربية⁵، ذلك أن النخب اليهودية على اختلاف ميولاتها جندت طوال سنوات الحماية وسائلها في الضغط من أجل الحصول على ما اعتبرته حقا حضاريا،

¹ محمد حاتمي، الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية وهران المغرب المستقل، 1947-1961... مرجع سابق، ص. 174.

² M. Kenbib, *juifs et Musulmans au Maroc, 1859-1948*, op. cit, p. 408.

³ Ibid, p. 410.

⁴ Ibid, p. 415.

⁵ D. Bensimon-Donath, *évolution du Judaïsme Marocain...*, op. cit, p. 104.

وظلت - حتى آخر لحظة للوجود الفرنسي في المغرب - تأمل في أن تنعم به عليها الدولة الفرنسية¹. لكن الكلمة الأخيرة في هذا الأمر كانت رغم ذلك للإقامة العامة، التي رفضت الاستجابة لمطلب التجنيس الجماعي للأسباب التي قدمتها²، بالرغم من كل مظاهر الولاء التي حاول اليهود المتطورون إظهارها للفرنسيين، حيث لم يفوتوا أي فرصة للتذكير بالخدمات التي سبق وقدموها للوجود الفرنسي بالمغرب. لقد ظل المقيم العام ليوطي حريصا على ضرورة ترك اليهود في وضعية الأهالي، مما دفعه إلى أن "يتجاهل بشكل يدعو للاستغراب" عند إشاداته بمحاسن المغاربة و"ذكائهم"، وقدرتهم على استيعاب "العصرنة"، ودينامية بورجوازياتهم، كل إشارة لليهود، على عكس الأوروبيين الذين كانوا يرون فيهم قبل سنة 1912، العنصر المؤهل أكثر من غيره للتكفل بتحديث المغرب وازدهاره، وتناسى المقيم العام نفسه في معرض حديثه عن "التكوين العصري"، أن اليهود كانوا متقدمين على نظرائهم المسلمين في ميدان التعليم بثلاثة أجيال على الأقل، وأن نسبة تدرس شبابهم كانت تفوق بشكل كبير نسبة تدرس نظرائهم المسلمين³.

إن اليأس من عدم تحقق التجنيس الجماعي جعل الاندماجين يشعرون بالإحباط الشديد، حيث اعتبروا ذلك بمثابة إقصاء من المجال السياسي، وهو أمر ظل غير مستساغ بالمرّة، خاصة من قبل الأجيال التي تكونت بمدارس الرابطة⁴. فهل يرجع الأمر إلى أن سلطات الحماية لم تكن مدركة لأهمية وحيوية العناصر اليهودية المتطورة وما يمكن أن تقدمه للمشروع الكولونيالي؟ طبعاً لا، لقد كانت مدركة تماماً بأنها في حاجة ماسة لخدماتهم كوسطاء ضروريين. وفي هذا الإطار كان جورج هاردي يتبنى مقاربة يشدد على جدواها أمام المراقبين المدنيين، وضباط الشؤون الأهلية، حيث كان يدعوهم إلى أن يستحضروا في أذهانهم باستمرار "الإمكانيات الهائلة التي يمثلها الشعب اليهودي بالنسبة للمغرب، نظراً لذكائه وغناه ومبادلاته"⁵. لذلك كانت سلطات الحماية لا تقدم لليهود إلا على قدر ما

¹ محمد حاتمي، الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية وهران المغرب المستقل، 1947-1961...، مرجع سابق، ص. 170.

² "بعد توقيع الحماية الفرنسية سنة 1912 كل اليهود الذين سبق لهم التمتع بالحماية القنصلية الفرنسية فقدوها، وفقدوا بذلك معها كل الامتيازات التي كانت تخولها لهم، باستثناء أولئك الذين كانوا حاصلين على حماية الدول الأجنبية الأخرى... لقد تم التعامل مع يهود المغرب بعد الحماية بصفقتهم رعايا للسلطان، وبناء عليه يجب أن يظلوا خاضعين لسلطاته القضائية في جميع النزاعات القائمة بينهم بصفقتهم كمغاربة بغض النظر عن انتماءهم الديني... وعلى الرغم من أن زمن خضوعهم لمقتضيات وضع أهل الذمة قد ولى، فضلاً عن نهاية معاناتهم من الإكراهات المفروضة من قبل المحاكم الشرعية، المستندة في أحكامها إلى المذهب الفقهي المالكي، فإنهم ظلوا يعتبرون على المستوى الرسمي مجرد "أهالي"، وهو وضع ما فتى يثير استياء وامتناع نخبته اليهود، أصحاب التوجه الغربي. وظل الأساس الذي تتبنى عليه الجنسية المغربية غامضاً، عن قصد وبنية مبيتة. وبهذا نجحت سلطات الحماية بفعالية، في القضاء على وضع أهل الذمة، لكن من دون إرساء إطار قانوني جديد ومتناسك لفائدة المغاربة اليهود". دانييل شروتر، يهودي السلطان...، مرجع سابق، ص. 349.

³ محمد كبيب، يهود المغرب، 1912-1948...، مرجع سابق، ص. 41.

⁴ M. Nouvel, «l'évolution du Judaïsme marocain», op. cit, p. 7.

⁵ محمد كبيب، يهود المغرب، 1912-1948...، مرجع سابق، ص. 77.

ستستفيده من ذلك، أي أنها ارتأت أن يتم تحريرهم بجرعات محدودة متحكم فيها، كي لا تتم إثارة المسلمين، حتى لا يعتقد هؤلاء أن الحماية تخدم اليهود، مما كان سيتسبب للمشروع الاستعماري الفرنسي في مشاكل هو في غنى عنها، لذلك كان لهذه الرغبة صدى ضعيف في الأوساط الفرنسية المقيمة بالمغرب خاصة الرسمية منها. إذ لم تُشر غير جريدة البرقية المغربية سنة 1927 في إحدى مقالاتها، للصحفي فيكتور دوسطال، إلى أن "الوقت قد حان لتمكين اليهود من أن يصبحوا فرنسيين"¹.

ثم إن فلسفة السياسة الأهلية تجاه الأهالي اليهود كان يتردد صداها في الصحافة الفرنسية الصادرة بالمغرب، حيث كانت تتم الإشارة إلى أنه يجب على اليهود ألا ينسوا مكانتهم الحقيقية، وعليهم أن يحترموا الفرنسيين والمسلمين، لا سيما وأن النخبة المسلمة قد عبرت عن تضايقها من تحرير بعض الجماعات اليهودية، الأمر الذي دفع سلطات الحماية كما سبق وأشرنا، إلى محاولة احتواء اليهود. لذلك كانت الفلسفة العامة لإدارة الحماية تجاه هؤلاء ترمي إلى منحهم بعض الامتيازات، لكن ليس إلى درجة تجعلهم يشعرون بأنهم متساوين مع الفرنسيين. صحيح أنه لم يكن هناك إجماع عام حول هذا الموقف في صفوف كل الفرنسيين المقيمين بالمغرب، لكنه مع ذلك كان حاضرا لدى الرأي العام خصوصا خلال السنوات الأولى من الحماية². فمطلب الحصول على الجنسية لم تتم معارضته فقط من قبل سلطات الحماية فقط، بل حتى المتصهينين منهم فعلوا ذلك، إذ عبروا عن انتقادات حادة في مهاجمتهم للمنادين بالاندماج، لأن حصول إخوانهم في الدين على المواطنة الفرنسية، كان يهدد في منظورهم حرمان الجماعة من نخبها وأطرها القادرة على المساهمة في "رفعهم"، خاصة وأن تغيير الوضعية، والارتقاء الاجتماعي الذي كان سيؤدي إليه، لم يكن من شأنه إلا أن يكون مصاحبا بنوع من الإغلاء المبالغ فيه من شأن الثقافة الفرنسية على حساب الهوية اليهودية العبرية. هذا الأمر كان يعيق مشروعهم القاضي بإحياء العبرية والرجوع إلى القيم اليهودية، ومن شأنه أن يجعل مهمتهم محفوفة بالمخاطر، بل ومهددة من أساسها. ومن أجل ذلك لجؤوا إلى التشهير بخصومهم، معتبرين أن تطلعاتهم هذه تعتبر اختيارا لفائدة "انتفاء هويتهم اليهودية"³. لذلك ظل الصهاينة يعارضون مطلب الحصول على الجنسية الفرنسية بشكل جماعي خوفا من تحويل الأنظار نحو وجهة مغايرة لفلسطين. كما شدد الخطاب الصهيوني على أمور "أقل أناية" من أهمها ضرورة "الافتخار" بالانتماء لأرض المغرب، والحرص على الابتعاد عن كل ما من

¹J. Tolédano, *Le temps du Mellah*, op. cit, p. 133.

²Ibid, p. 130.

³محمد كنييب، *يهود المغرب، 1912-1948... مرجع سابق*، ص. 309.

شأنه إثارة المسلمين الذين من دون شك سيعتبرون الأمر "خيانة"¹. وبالمقابل فإن الاندماجين الذين كانوا عرضة لهذا الهجوم، لم يكونوا أقل حدة في ردهم على منتقديهم، إذ كانوا يعتبرون الصهيونية قبل مرحلة فيشي بمثابة مشروع طوباوي غير ملائم لوضعية يهود المغرب، بل وتشكل تحديا صارخا لقواعد الضيافة. هذا الصراع بين الطرفين انعكس على صفحات مجلتي المستقبل المصور والاتحاد المغربي، حيث رأت هذه الأخيرة أن خلاص المغاربة اليهود هو الاندماج في المشروع الفرنسي، وساندها في هذا التصور صوت الرابطة² Paix et Droit، على عكس الأولى التي كانت ترى أن الحل هو الحفاظ على خصوصية الهوية اليهودية في أفق الهجرة إلى فلسطين من أجل تأسيس وطن قومي لليهود، وأنه لا جدوى من الرهان على تحقيق الخلاص في بلد الإقامة³.

هذا الرفض الذي مُني به المغاربة اليهود بخصوص انتزاع مطلب التجنيس الجماعي، دفعهم إلى الرهان على التجنيس الفردي، ذلك أن المتطوِّرين منهم لم يستسلموا وظلوا منزعجين من البقاء في وضعية الأهالي، لأنهم كانوا يعتبرون أنفسهم لا يختلفون في شيء عن الفرنسيين لا في الثقافة ولا في الطموحات المشتركة. لكن رغم ذلك اكتفت إدارة الحماية بتخصيص نفسها بحيز ضيق يؤهلها للإنعام بالانتماء الوطني الفرنسي للمتتورين فقط، حين لا تكون لفرنسا حاجة بهم في وضعهم كممثلين أو ذوي نفوذ على الجماعة التي ينتمون إليها، وهو المبدأ الذي أطلق عليه التجنيس النخبوي⁴. رغم ذلك لم يترك الممثلون الرسميون لليهودية المغربية أي فرصة تمر من دون الإعراب عن مدى ارتباطهم وامتثالهم للسلطات الفرنسية، لأنها الوحيدة القادرة في تقديرهم على تحسين أوضاعهم، وليس في وسع أي جهة أخرى أن تقدم لهم ما لا تستطيع تقديمه. لذلك ظلوا يراهنون عليها دائما في تحقيق المزيد من المكاسب كلما أتاحت لهم الفرصة. فخلال الزيارة التي قام بها رئيس الجمهورية الفرنسية السيد ميليران لمدينة مكناس سنة 1923، أعرب اليهود عن مدى تعلقهم القوي بفرنسا بشكل علني واحتفالي، حيث احتشدوا أمام الملاح وعبروا بعفوية كبيرة عن ترحابهم بقدوم رئيس الجمهورية، كما عبر هذا الأخير بدوره عن امتنانه وإعجابه بموقفهم الميال لفرنسا، وقام بتوجيه الدعوى لعدد من أعيانهم لحضور الحفل المسائي الذي نظمتها السلطات المحلية، حيث قام الحاخام يوسف مساس بتحرير خطاب باللغتين العبرية والفرنسية، ضمنه أجمل التعابير المرحبة بالضيف الفرنسي الكبير. كما قام

¹ محمد حاتمي، الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية ورهان المغرب المستقل، 1947-1961...، مرجع سابق، ص. 137.

² J. Tolédano, *Le temps du Mellah*, op. cit, p. 133.

³ P. Cohen, *la Presse Juive éditée au Maroc*, op. cit, p. 205.

⁴ محمد حاتمي، الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية ورهان المغرب المستقل، 1947-1961...، مرجع سابق، ص. 175.

الحاخام ياشوا بيرديغو، بدوره، بتحرير خطاب آخر تمت تلاوته أيضا. أكثر من ذلك، تم تقديم هدية ذهبية ثمينة للرئيس، وضعت في صندوق نقش عليه اسمه بأحرف ذهبية. هذه التحفة الفنية كلفت الطائفة مبلغا ماليا مهما قدر بـ 5 آلاف فرنك¹.

جدير بالذكر أن قرار التساهل في منح الجنسية لأعداد قليلة من المتطوعين اليهود فقط، قد زكته مجلة الاتحاد المغربي مضطرة²، فقد وجدت فيه قرارا مناسباً للمشروع الذي كانت تدعمه مجلة المستقبل المصور³ طوال المرحلة ما بين الحربين، بخلفيات تهدف إلى تحرير اليهود في أفق عزلهم عن الانشغالات الوطنية من أجل خدمة مرامي المشروع الصهيوني، وفي هذا الاتجاه نورد نموذجا من مقال صدر على صفحات هذه المجلة سنة 1926 جاء فيه: "إن اليهود الجزائريين قد أصبحوا اليوم فرنسيين، ويجب على يهود المغرب وتونس أن يكفوا في نفس التوجه لكي يصبحوا بدورهم فرنسيين، ليس بالقلب فقط - لأنهم كذلك من قبل - ولكن بالعقل والثقافة، كما يتوجب عليهم أن يوظفوا طاقتهم ومرونتهم التي هي عوامل للتأقلم وخصوصيات سامية لعرقنا من أجل خدمة الأفكار الفرنسية"⁴. هذا النوع من

¹J. Tolédano, *Le temps du Mellah*, op. cit, p.134 .

²أسست جريدة الاتحاد المغربي بمدينة الدار البيضاء من طرف إيلي نطاف Elie Nataf، وهو يهودي فرنسي من أصل تونسي (قدم إلى المغرب سنة 1912، حيث تولى مهمة مدير مدرسة الرابطة الإسرائيلية) بتاريخ 4 فبراير من سنة 1932، وظلت تصدر باللغة الفرنسية في أربع صفحات حتى شهر نونبر من سنة 1940، وكانت خطها التحريري يعكس رغبة اليهود الاندماجين من أنصار برنامج الرابطة، الذين كانوا يرون بأن خلاص وتحرر المغاربة اليهود لا يمكن أن يتحقق إلا من خلال الاندماج في المجتمع الغربي، في ظل وتحت الرعاية فرنسا الحامية. وقد حظيت هذه الجريدة بدعم كبير من قبل الرابطة التي ساهمت في إيراداتها المادية بشكل سخي عبر الاشتراك في انخرائطها بما لا يعادل 100 منخرط لصالح عدد من مديري مدارس الرابطة، وبعض الشخصيات اليهودية القريبة من مؤسسة الحماية. وكانت لا تتردد في مهاجمة الخط التحريري لجريدة المستقبل المصور ذات التوجه الوطني الصهيوني.

P. Cohen, *la Presse Juive éditée au Maroc*, op. cit, p. 197-198.

³أسست مجلة المستقبل المصور L'Avenir Illustré بمدينة الدار البيضاء من طرف جوناثان تورز Jonathan Thursz، وهو يهودي من أصول بولونية ازداد سنة 1895 بمدينة فاسوفيا، قضى جزءا من حياته ببليكا حيث تمكن من اللغة الفرنسية، ثم انتقل بعد ذلك إلى إنجلترا حيث تمكن من الحصول على الجنسية البريطانية، وهناك تشبع بأدبيات الإيديولوجية الصهيونية، وفي إطار المهام الموكولة إليه من قبل المنظمات الصهيونية الأوروبية التي بدأت تهتم بيهود شمال إفريقيا، سيتم انتدابه بالمغرب من أجل القيام بمهمة الدعاية والتأطير، حيث أقام لوقت قصير بمدينة طنجة ثم انتقل إلى مدينة الصويرة، وبسبب نشاطه الصهيوني المكثف هناك تعرض للمضايقات من قبل السلطات الفرنسية المحلية، فأضطر للانتقال إلى مدينة الدار البيضاء للاستقرار فيها بشكل نهائي ابتداء من سنة 1924، وبالتنسيق مع الدوائر الصهيونية بلندن وجنيف والوكالة الصهيونية الفرنسية سكلف بخلق خلايا صهيونية بأهم المدن التي كانت في مجال منطقة الحماية الفرنسية، كما تكلف بجمع أموال التبرعات من البيع ودور التجارة اليهودية بالمغرب. لقد استطاع خلق روابط بين الخلايا الصهيونية بالمغرب والفدرالية الصهيونية بفرنسا، تحت اسم « F.S.F-Section Maroc » وأصبح الكاتب العام لهذه التنسيقية. وسنة 1926 أحاط نفسه بفريق جيد من الصحفيين المحترفين الذين كانوا على دراية جيدة بمشاكل اليهودية المغربية، كما استعان بعدد من المراسلين و الشركاء بالخارج وبالمغرب، فقرر بتأسيس مجلة المستقبل المصور التي كانت تطبع وتصدر باللغة الفرنسية بمدينة الدار البيضاء في 16 صفحة. وأول عدد صدر منها كان بتاريخ 1926/07/22 واستمرت في الصدور حتى سنة 1940، وقد تزامن صدورها مع رحيل المقيم العام الجنرال ليوطي الذي عرف بمعارضته الشديدة للنشاط الصهيوني بالمغرب وقدم المقيم العام الجديد تيودور ستينغ الذي كان أكثر ليبرالية من سابقه... المستقبل المصور كانت مجلة إخبارية ذات أهداف إصلاحية، ومتشعبة وناطقة باسم الأيديولوجية الوطنية الصهيونية. وبناء على تصريحات مدراء التحرير الذين تعاقبوا عليها كانت مصادر تمويلها تتمثل في عائدات الانخرائط ومداخل الإشهار التي كانت تركز على المنتجات الموجهة للغة العصرية والغنية. لقد كانت المستقبل المصور المجلة اليهودية الأكثر مقروئية خلال الفترة ما بين الحربين. لم تهتم طيلة مدة صدورها إلا في حالات نادرة بالمشاكل التي كانت تخص المغاربة المسلمين، من قبيل تطرقها مثلا لحرب الريف سنة 1926، ومتابعيتها للضجة التي رافقت صدور ما سمي بالظهير البربري سنة 1930، أو للحوار الذي كان عبر الصحافة مع الوطنيين المغاربة سنة 1933... وبسبب انهزام فرنسا في الحرب العالمية الثانية ستتوقف المجلة عن الصدور سنة 1940، وخوفا من أن تنال منه قوانين فيشي النازية بسبب جنسيته الإنجليزية، سيضطر جوناثان تورز إلى مغادرة المغرب رفقة عائلته نحو الولايات المتحدة الأمريكية، التي سيصل إليها في شهر غشت من سنة 1941 وسيستثمر هناك في تجربة صحفية أخرى في مجلة يهودية تدعى The Jewish Mirror إلى أن توفي سنة 1976 بمدينة نيويورك.

P. Cohen, *la Presse Juive éditée au Maroc*, op. cit, p. 179-194.

⁴In AI, N°2, 1926.

الخطاب إذن كان من أهدافه أيضا توفير أرضية مواتية تستطيع عبرها خلق التواصل مع عامة يهود المغرب من أجل الأهداف الصهيونية، في سياق كسب ود سلطات الحماية وبالتالي تفادي عرقلة نشاطها الصهيوني، وبذلك تتمكن من خدمة هدفين في نفس الوقت، اجتثاث اليهود من خصوصيات الوسط المغربي، ثم توفير مجال ثقافي- الثقافية والدين- للعزف عليه من أجل تسريب الأفكار الصهيونية والانفلات من الرقابة التي كانت تمارسها إدارة الحماية. لذلك دعت هذه المجلة سنة 1928 في إحدى مقالاتها بتاريخ 13 يوليوز، بأن تمنح الجنسية الفرنسية فقط للذين يستحقونها، أي بشكل انتقائي ورفضت بذلك التجنيس الجماعي لغير المؤهلين لذلك¹. ولابد من الإشارة إلى أن عدم تمكن اليهود من دفع إدارة الحماية إلى تحقيق كل ما كانوا يصبون إليه من مكاسب، لم يُثْنِهم عن الاستمرار في مغازلة هذه الأخيرة. وبمناسبة محاضرة ألقاها كولفان Goulven أمام قدماء مدرسة الرابطة بتاريخ 14 يناير 1927، حول موضوع أصول المغاربة اليهود، أكد على أن قدوم فرنسا للمغرب كان حدثا سعيدا، ويجب أن يكون لهذا القدوم تأثير على عقول وقلوب المغاربة، الذين دعاهم إلى الاستمرار في حب الفرنسيين كل يوم أكثر².

تلك العلاقة "الودية" التي كان اليهود حريصين في الحفاظ عليها مع إدارة الحماية، كانت تتعرض من حين لآخر لبعض التصدعات التي أرخت بظلالها على العلاقة الهشة بين الطرفين، ذلك أن تعيين مارسيل بيرتون على رأس الإقامة العامة مطلع سنة 1936³ (ما بين شهري مارس وشتنبر) تسبب في حالة من الهلع في صفوفهم، لأن هذا الأخير كان من مناهضي السامية المعروفين، (سيصبح فيما بعد وزيرا للداخلية في حكومة فيشي)، وتزامن ذلك مع وصول أخبار الاضطهاد النازي لإخوانهم في الدين بألمانيا، ثم فورة مناهضة السامية التي عمت الجزائر حينها، أضف إلى ذلك ارتفاع حدة كراهية المعمرين الفرنسيين بالمغرب لليهود خلال هذه المرحلة. وهذا ما صدم أمل المغاربة اليهود، وتحديداً الاندماجين منهم، الذين تنفسوا الصعداء بعد انتصار الجبهة الشعبية اليسارية بفرنسا (التي كان من بين أهدافها مقاومة الأفكار الفاشية التي انتشرت بفرنسا حينها)، وهو الانتصار الذي أتى في الوقت المناسب لتحريرهم من الهلع الشديد الذي رافق مناخ معاداة السامية، خاصة بعدما تم تعيين ليون بلوم على رأس الحكومة الفرنسية، وهو شخص كان يعلن عن تضامنه مع إخوانه في الدين، وعن "فخره بالانتماء إلى جنسه". وفي نفس السياق، وحتى تتفادى الحكومة الفرنسية حصول أي تصعيد محتمل، عوضت المقيم العام بيرتون بأحد "قدماء

¹J. Tolédano, *Le temps du Mellah*, op. cit, p. 132.

²«Les origines du Judaïsme marocain», in *Al*, N°13, vendredi 28 Janvier, 1927, p. 5.

³D. Rivet, *le Maroc de Lyautey à Med V*, Denoël, Paris, 1999, p. 463.

المغرب"، وهو الجنرال شارل نوجيس، وقد أثار تعيينه ترحيب الجماعات اليهودية، غير أن المتنورين منهم، لم يطمئنوا لقرار تعيين أحد تلامذة ليوطي بالرباط، هذا الأخير الذي كان وفيًا للسياسة الأهلية التي وضع أسسها أول مقيم عام بالمغرب، ظل حريصًا على الإبقاء عليهم في وضعية الأهالي، والتعاطي معهم على ذلك الأساس، خاصة وأن ليون بلوم اختار أن يترك للجنرال نوجيس مهمة تبني السياسة الأهلية الأكثر تطابقًا مع "المصالح العليا لفرنسا"¹. وظهر ذلك على سبيل المثال لا الحصر في عدة حوادث، مثلما حدث عقب أحداث بوفكران التي اندلعت بمدينة مكناس سنة 1937، والتي أدت إلى حدوث اضطرابات كثيرة بالمدينة كان أحد أعراضها الجانبية قيام جموع المحتجين بالهجوم على الملاح في طريق عودتهم من وقفة كانوا قد شاركوا فيها أمام محكمة الباشا. إثر ذلك قام المقيم العام نوجيس بزيارة للمدينة، وأعرب لهم أن أسفه لما وقع، لكن عندما طالبوه بالتعويضات عن الخسائر المادية التي لحقتهم رفض الاستجابة لهم، وخاطبهم معاتبا: "عوض تدمركم عليكم أن تكونوا ممتنين للقوات الفرنسية، التي حالت دون حصول خسائر بشرية كما كان يحصل بالماضي قبل مجيئنا". فرد عليه أبراهام طوليدانو بحزم قائلا: "قبل قدومكم لم نكن في حاجة لحمايتكم"².

واندلاع الحرب العالمية الثانية سنة 1939، كان في البداية "يخدم" مصالح المغاربة اليهود، ذلك أن التعبئة العامة التي انطلقت بفرنسا للدفاع عن الوطن ساهمت في عودة بعض الفرنسيين المقيمين بالمغرب إلى البلد الأم، وتركوا بذلك مناصبهم شاغرة في القطاعين العام والخاص، ولأن بعض اليهود كانوا مؤهلين أكثر من غيرهم بفضل التعليم العصري الذي سبق واستفادوا منه فقد شغلوا تلك المناصب. غير أن هزيمة فرنسا أمام ألمانيا النازية سنة 1940، وتشكل حكومة فيشي الموالية للنازيين، والشروع في تطبيق التشريعات العنصرية ضد اليهود بأوروبا وباقي المستعمرات الفرنسية بما فيها المغرب³، تسبب في إحداث صدمة في صفوف المغاربة اليهود الذين كانوا على اطلاع بما يجري خارج المغرب⁴، خصوصا الاندماجين منهم الذين أصيبوا بالإحباط، وانتابتهم مشاعر القلق والحيرة بسبب اندحار "الوطن بالتبني". هذه التخوفات ازدادت حدتها بعد رجوع عدد من إخوانهم في الدين من الجزائر هروبا من تداعيات

¹ محمد كنيبي، **يهود المغرب، 1912-1948...**، مرجع سابق، ص. 167-180.

² R. Assaraf, **Eléments...**, op. cit, p. 179.

³ Armand Lévy, **Il était une fois les juifs Marocain**, Ed l'Harmattan, Paris, 1959, p. 85.

⁴ "راجت الأخبار في أوساط الطوائف اليهودية عن قيام الألمان بإلقاء القبض على اليهود وإرسالهم إلى محتشدات الاعتقال تمهيدا لإحراقهم، بعدما تناهى إلى مسامعهم أن هتلر كان عازما على قتل جميع اليهود في أوروبا على أن يتولى في وقت لاحق أمر إبادة كل الطوائف اليهودية في العالم". عمر بوم، **يهود المغرب وحديث الذاكرة...**، مرجع سابق، ص. 158.

انفلات القوى الفرنسية المناهضة للسامية من عقابها¹. كما أن بعضاً من الساكنة الأوروبية التي كانت تقطن بالمغرب من أنصار نظام الماريشال بيتان، وجدت في هذا المناخ المعادي للسامية فرصة مناسبة من أجل التعبير عن عداؤها للعناصر اليهودية حتى تتمكن من وضع حد نهائي لمنافستها. وكان من بين ما قامت به أنها شنت حملة من أجل الدعوة إلى مقاطعة الاتجار مع اليهود، حيث ألصقوا على واجهات متاجرهم منشورات ذات حمولة نازية تتضمن شعارات من قبيل: "هنا توجد مؤسسة يهودية، أي مؤسسة استغلاليين"، "التبضع من متاجر اليهود تخريب للتجارة الفرنسية"، "أيها العامل، إن عدوك هو اليهودي الذي يستنزفك ويبي ثروته المغتصبة على رؤسك"².

غير أن الإقامة العامة التي كان على رأسها نوجيس رفضت مساهمة أهواء اليمين المتطرف، خوفاً من أن يؤدي تأجيج المشاعر ضد اليهود في صفوف الساكنة المسلمة إلى اندلاع حرب أهلية يمكن أن تتطور في اتجاه فرنسا³. كما اضطرت في ضوء موقف السلطان محمد بن يوسف الذي اعترض على تطبيق تلك القوانين العنصرية كما حدث بالنسبة لليهود فرنسا والجزائر من جهة⁴، وعدم استجابة المسلمين للدعاية النازية، ولا شعبية الإجراءات المناهضة لليهود لديهم من جهة ثانية، إلى دفع المقيم العام نوجيس إلى التخفيف من وتيرة تطبيق الإجراءات المستوحاة من قوانين فيشي⁵. ومع حدث نزول القوات الأمريكية بمدينة الدار البيضاء، بتاريخ 8 نونبر من سنة 1942، استبشر المغاربة اليهود خيراً، إذ اعتقدوا أن هذه القوات جاءت أساساً لتحريرهم، لذلك استقبلوها بتفاؤل كبير في جميع المدن المغربية⁶، ومن مظاهر هذا الاحتفاء يؤكد جوزيف طوليدانو أن جميع منازل يهود مدينة مكناس زينت بصور ملونة للرئيس الأمريكي روزفلت، حيث صار الإسرائيليون ينظرون إلى الأمريكيين كحماة جدد، وعلقوا عليهم آمالاً كبيرة، وأصبحوا يتوجهون بخطاباتهم للسلطات والمنظمات اليهودية الأمريكية⁷. وحتى لا تنهال هيبة الفرنسيين في أعين الأهالي قررت إدارة الحماية القيام بفرض حصار على ملاح مدينة مكناس⁸ ابتداء من 12 نونبر من نفس السنة

¹ محمد كنيبي، **يهود المغرب، 1948-1912...**، ص. 207.

² نفسه، ص. 212.

³ نفسه، ص. 212.

⁴ B. Lugan, *Histoire du Maroc*, op. cit, p. 273.

⁵ A. Lévy, *Il était une fois les juifs Marocain*, op. cit, p. 85-86.

⁶ "كان المسلمون يتقاسمون مع اليهود نفس المنظور بصدد دور الولايات المتحدة الأمريكية، إلا أن الأمر كان أكثر وضوحاً لدى اليهود حيث كانت ترد عليهم معلومات وأخبار من أمريكا تشير إلى الضغوط التي تمارسها على الحكومة الفدرالية وسائل الإعلام، ورئيس المؤتمر اليهودي الأمريكي ستيفان واير (Stephaen Wise) ومنظمات غوت اللاجنين، وكاتب الدولة في الخزينة هنري مورجينطو (Henri Morgentau)، وبدرجة أقل حدة، وزير الخارجية سومر وليس (Summer Welles) من أجل حمل الرئيس فرانكلين روزفلت على تبني سياسة أثر فاعلية من أجل إنقاذ يهود أوروبا، بل ومن أجل الدخول في الحرب إلى جانب الحلفاء". محمد كنيبي، **يهود المغرب، 1948-1912...**، مرجع سابق، ص. 227.

⁷ J. Tolédano, *Le temps du Mellah*, op. cit, p. 146 ; A. Lévy, , op. cit, p. 91-92.

⁸ نفس الإجراءات تم اتخاذها بالمدن الأخرى كفاس والرباط. انظر: محمد كنيبي، **يهود المغرب، 1948-1912...**، مرجع سابق، ص. 236.

لقطع "دابِر الشر". إذ أرغم اليهود على البقاء داخل حيهم وتعرضوا للتفتيش والعنف. هذه الإجراءات القمعية المتخذة في حق كل من يستقبل بالترحاب أنباء تقدم الجيش الأمريكي (السجن، الأشغال الشاقة) لم تترك لهم أي إمكانية أخرى سوى الخضوع مؤقتاً لأوامر الإدارة. وبعد إدراك المقيم العام نوجيس لنجاح الإنزال، اضطر إلى الخضوع للأمر الواقع، ودخل في مفاوضات مع الأمريكيين، وكان أحد انشغالاته الأساسية يتمثل في محاولة صرف نظرهم عن التدخل لفائدة اليهود، متهما إياهم بإثارة القلاقل، وشدد في أحد لقاءاته مع الجنرال باطون، على أن "البلاد هادئة تماماً باستثناء حالة الغليان التي خلقها اليهود، مشيراً إلى أن هؤلاء يشكلون في المغرب الفئة المنحطة... وهم يأملون في الاستيلاء على البلاد... (غير أنهم) يتمردون... على السلطات الفرنسية"¹. لقد استغل المغاربة اليهود في ظل هذه الظروف العصيبة التي تعرضوا إليها بكيفية منهجية كل الإمكانيات المتاحة لهم لاجتياز هذه المحنة بأقل الأضرار، محاولين العيش في الظل وعدم لفت الأنظار إليهم² مع شعورهم بالارتياح لتعدد العوامل التي خففت من وطأة تلك القوانين العنصرية الاستثنائية التي سنتها حكومة فيشي، والتي أمر القائمين على إدارة الحماية في المغرب بتنفيذها³. ومباشرة بعد نهاية الحرب، سعت السلطات الفرنسية إلى التعبير عن أسفها لما حصل، حيث أوضحت قنوات الاتصال بأن المسؤولية فيما وقع خلال هذه الفترة العصيبة تقع على نظام فيشي المتعاون، أما فرنسا "الأزلية" فما تزال على العهد الذي قطعه على نفسها تجاه نصرته حقوق الإنسان وحماية الأقليات. كما شددت الأدبيات الرسمية الفرنسية على مقاومة الشعب الفرنسي الذي عانى بدوره، وبقدر أكثر، من تجاوزات الخونة والمتطرفين. وميدانيا، تم التخلص من الأطر الإدارية - على مستوى المركز والجهات - التي أبانت خلال الحرب عن اجتهادات خاصة فيما يتعلق بتطبيق القوانين المعادية لليهود، والظاهر أن عدد هؤلاء كان مرتفعاً⁴.

ومن أجل العمل على تجاوز التداعيات السلبية لهذه المرحلة على العلاقة بين الطرفين، قامت السلطات الفرنسية في باريس بالعديد من الدراسات لمعرفة مكامن الخلل في العلاقات بين فرنسا والمغاربة اليهود، أكدت كلها

¹ نفسه، ص. 236-237.

² نفسه، ص. 223.

³ محمد حاتمي، الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية وهران المغرب المستقل، 1947-1961...، مرجع سابق، ص. 73.

⁴ نفسه، ص. 75.

على أن هؤلاء ما يزالون على ولائهم للدولة الحامية، وأن التعاطف البادي مع القوات الأمريكية مجرد سحابة صيف، وأنه يكفي اتخاذ بعض الإجراءات لتصحيح الوضع ورد الاعتبار للضحايا¹.

إذا كانت قوانين فيشي والإنزال الأمريكي قد تسببا من جهة في نوع من فقدان الثقة في الدولة الحامية، التي حاولت ترميم صورتها لديهم عبر عدد من الإجراءات في حدود ما تسمح به فلسفة السياسة الأهلية²، فإن ذلك أدى، من جهة ثانية، إلى جعلهم أكثر اهتماما بالنشاط السياسي من ذي قبل، حيث انخرط بعض المتنورين في الأحزاب الوطنية والنقابات، وأغلبية من فعلوا ذلك اختاروا الانخراط في صفوف الحزب الشيوعي المغربي الذي تأسس سنة 1934، الذي بات يطالب بالاستقلال، وجدير بالذكر أن عددا من يهود مدينة مكناس قد انخرطوا في هذا التنظيم. كما أن انطلاق المقاومة المسلحة سنة 1953 دفعت ببعض المغاربة اليهود أيضا، وبأعداد قليلة اقتصر على فئة من المثقفين، إلى الانخراط في الأحزاب الوطنية، وقد قاموا بذلك بعدما تأكدوا من أن نجم الاستعمار الفرنسي بالمغرب بدأ في الأفول. وتبغى الإشارة إلى أن أخطر سيناريو كانت تخشاه إدارة الحماية هو إمكانية تشكل جبهة وطنية موحدة تضم المسلمين واليهود، لكن هذا الأمر لم يتحقق، لأن أغلبية النشطاء اليهود كانوا حذرين جدا من الذهاب بعيدا في ركوب هذه "المغامرة" الخطيرة³. لذلك ظل المغاربة اليهود على ولائهم لفرنسا رغم ما حدث خلال حقبة فيشي، لأن الفرنسيين كانوا أصحاب القرار بالمغرب، لذلك حرصت النخب اليهودية النشيطة، والتي كانت تتولى تتبع ورعاية شؤون إخوانها في الدين، على التعبير عن ولاء شبه مطلق اعتقادا منها بأن الوجود الفرنسي وحده كفيل بضمان تحرر اليهود وتحقيق ارتقاءهم الاجتماعي، وأن فرنسا هي خير رسول للحدثاء وصاحبة الوصفة التي بفضلها سيتحقق النمو الروحي والثقافي الذي تحقق في أوروبا الغربية بفضل الثورة الفرنسية وفلسفة الأنوار، هذا وقد دأبت تلك النخب على التذكير بأن المغرب بلد مكبل بالأعراف والقوانين التيقراطية، ولا يمكنه الخروج من الظلامية من دون إدارة قوية تجسدها القوة الفرنسية سياسيا وثقافيا⁴.

¹نفسه، ص. 76.

²"طالب المندوبون عن المغاربة اليهود سنة 1944، خلال انعقاد المؤتمر العالمي لليهود بأطلانتك سيتي، بإلغاء السياسة الأهلية التي تسعى إلى عرقلة تطور وتحرر الأهالي اليهود، باستثناء ما يتعلق منها بالحفاظ على الدين والعادات المغربية".

Prosper Cohen, *congrès Juif Mondial, conférence extraordinaire de guerre 26-30, Nov*, Ed S.I.P.E.F, Casablanca 1946, p. 187-188.

³M. Nouvel, «l'évolution du Judaïsme marocain», op. cit, p. 16.

⁴محمد حاتمي، *الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية وهران المغرب المستقل، 1947-1961...*، مرجع سابق، ص. 157-158.

إن تتبع الخط البياني لمواقف المغاربة اليهود من الفرنسيين، منذ بداية تدخلهم بالمغرب أواخر القرن التاسع عشر مروراً بمرحلة الحماية، ورصد موقف الفرنسيين من هؤلاء طيلة هذه المرحلة، يوضح بأن العلاقة بين الطرفين تميزت برهانات مختلفة في علاقة كل طرف بالآخر. ففي الوقت الذي قررت فيه الجماعة اليهودية التقرب من الفرنسيين باعتبارهم أصحاب القرار الوحيد والفعلي بالمغرب، رغم ما اكتنف هذا الموقف من ملابسات، لم تبدر عن هذه الأخيرة ما يفيد استجابتها لكل ما كان يتطلع إليه اليهود بسبب الحسابات التي تحكمها فيها فلسفة السياسة الأهلية التي تباينت حدتها من مرحلة إلى أخرى، والتي يمكن التمييز فيها بين مرحلتين أساسيتين، ما قبل ليوطي وما بعد ليوطي. لكن ذلك لا ينفي أن الإسرائيليين المغاربة مدينون بالاعتراف للحماية التي مكنتهم من الحصول على مجموعة من المكتسبات المادية والمعنوية، من دون إدماجهم كلياً في مجتمع المعمرين لينصهروا فيه كلية كما كان الشأن بالنسبة لليهود الجزائريين بعد مرسوم كريميو لسنة 1870، حيث تلاشى خيار الاندماجيين الذين اضطروا إلى التكيف مع الممكن تحصيله، وهو ما سنحاول بسط القول فيه خلال تطرقنا في الفصول اللاحقة لمجموعة من القضايا ذات البعد الاجتماعي والسياسي.

الفصل الثاني: التعليم والصحة والنمو الديموغرافي والسكن

1. التعليم: مسار التحرر من النسق العتيق

• التجربة الأولى: فلسفة الأليانس وفشلها بمدينة مكناس

لقد ظل التعليم اليهودي بالمغرب تقليديا على مستوى المضامين والبيداغوجيا¹ حتى منتصف القرن التاسع عشر، لكن ابتداء من هذه المرحلة سيستفيد أبناء المغاربة اليهود من التعليم العصري بمختلف جهات البلاد على مراحل. هذا التجديد لم يتم من داخل المغرب بل يعود الفضل فيه إلى المجهودات التي بذلتها الرابطة الإسرائيلية العالمية، وهي منظمة يهودية فرنسية تأسست في مدينة باريس سنة 1860 من طرف مجموعة من اليهود الفرنسيين المتنورين، ومن أبرز هؤلاء Narcisse Leven، الذي لعب دورا كبيرا داخل اللجنة المركزية للرابطة من أجل تحسيس رفاقه بضرورة الانتباه إلى يهود العالم الإسلامي حيث يعاني هؤلاء من ظروف عيش "بئيسة"²، وقد تشكلت هذه القناعة لدى هذا الأخير بعدما عاد المستشرق Joseph Halévy سنة 1861 بتقرير مفصل عن زيارته للمغرب، حيث أوضح من خلاله الظروف المزرية التي يعاني منها اليهود داخل الملاحات، وأن هؤلاء يحتاجون إلى من يحررهم من البؤس الذي يعيشون فيه³.

لقد كانت خلفية الآباء المؤسسين للرابطة ذات بعد "أخلاقي" حيث اعتبروا أن الوقت قد حان كي يضطلع اليهود المثقفون بمسؤولياتهم تجاه إخوانهم في الدين. وفي نفس الاتجاه سعى شريكه Charles Netter في نفس المنظمة إلى أن تعمل الحكومة الفرنسية على دعم وحماية يهود حوض البحر الأبيض المتوسط، مثلما فعلت بالنسبة لمسيحيي لبنان، لأن ذلك هو السبيل الوحيد لتحقيق نهضتهم. من أجل ذلك بذلت الرابطة مجهودات مهمة لإقناع الأوساط المؤثرة بفكرة حماية فرنسا لليهود في ظل "الفراغ" السياسي للإسلام، خاصة وأن هذا المجال كان يهوده يعانون من دون شك من المضاعفات الجانبية للتقلبات السياسية، وآفات الجهل والامية، لكن ظروف عيشهم لم تكن في الغالب بنفس السوء الذي كان يعاني منه إخوانهم في الدين في روسيا وبولونيا وباقي بلدان أوروبا الشرقية⁴، والغربية خلال مراحل تاريخية طويلة إلى حدود القرن التاسع عشر⁵، حيث ستتحسن أحوالهم كما أكد بعض

¹ سننطرق لهذا النوع من التعليم بالتفاصيل في الجزء الخاص به من هذا النص.

² A. Chouraqui, *L'A.I.U et la renaissance...*, op. cit, p. 151.

³ Narcisse Leven, *Cinquante ans d'histoire, L'A.I.U, 1860-1910*, Vol 2, Ed Félix Alcan et Guillaumin réunies, 1911-1920, p.p. 48-52.

⁴ محمد حاتمي، *الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية وهران المغرب المستقل...*، مرجع سابق، ص. 93.
⁵ للتوسع أكثر في هذا الموضوع يمكن الاطلاع على المرجع التالي: برنار لازار، *مناهضة السامية، تاريخها وأسبابها*، ترجمة ماري شهرستان، الاوانل للنشر والتوزيع والخدمات الطباعة، سورية، دمشق، الطبعة الأولى، 2004.

الدارسين الذين نبهوا مثلاً إلى أن تصوير النمسا خلال هذا القرن على أنها كانت أرضاً خصبة لمعاداة اليهود أمر فيه الكثير من المبالغة، لأن يهود هذا البلد خلال هذه الفترة كانوا يعيشون في دولة ذات دستور " يضمن احترام الجميع"، وكانوا قادرين على المطالبة بحقوقهم أمام القانون في ظل حياد الإدارة البيروقراطية، والدليل على ذلك، إحالة الراهب الكاثوليكي ديكر Deckert على القضاء عدة مرات بسبب تحقيره لليهود¹.

لقد كان هدف شارل نظير هو فرض وصاية فرنسا على يهود شمال إفريقيا، كما كان يأمل هذا الأخير من وراء تحركاته أن تتولى فرنسا تحمل المسؤولية المادية لمدارس الرابطة بهذه الدول مقابل ما ستجنيه على المستويين الاقتصادي والمعنوي. وقد أشار أندري شوراقي في هذا السياق إلى أنه في حال رفضت فرنسا هذا العرض كان شارل نظير سيلتمس نفس الأمر من الحكومة الإيطالية². لقد "قامت الفلسفة العامة للأليانس على فكرة أن يهود العالم الإسلامي يعيشون في محيط يكن لهم عدااء فطرياً وتاريخياً، يجعلهم باستمرار تحت ضغط اجتماعي من الصعب التحكم فيه. وارتأت أن خلاصهم يكمن في اجتهداهم العلمي من أجل قلب الموازين داخل المحيط نفسه عبر تحصيل العلم العصري، الذي اعتبرته السبيل الوحيد لفرض احترام الأغلبية المسلمة وتقديرها. وعزز هذا التوجه اعتقاد أطر الأليانس في أن التحرر إما أن يكون على الطريقة الأوروبية الغربية أو لا يكون، لأن التفوق الأوربي قبل أن يكون عسكرياً واقتصادياً، هو أصلاً تفوق حضاري، يخلق الظروف التي تتيح دينامية الارتقاء الاجتماعي انطلاقاً من القدرات الفردية. ولذلك اعتقدوا أيضاً في إمكانية الارتقاء الاجتماعي انطلاقاً من القدرات الفردية. لذلك اعتقدوا في إمكانية انخراط الإنسان اليهودي في النسيج الحضاري الغربي لأنه مؤهل للتمكن من الأدوات التي قامت عليها تلك الحضارة. وتجدد الإشارة إلى أن الأليانس دعت منذ وقت مبكر إلى إعطاء المواليد أسماء أوروبية لتسهيل اندماجهم في المجتمعات الغربية"³.

بالنسبة لهؤلاء، لقد أصبح كل شيء قديم يبعث على الخجل: التقليد، والمذهب والخلود. أضحى المقدس باعثاً على "الخجل"، كما لم يعد الإلهي "موافقاً" للموضة. لقد أصبح التماثل مع أوروبا هو الحل، وكانت فرنسا بالنسبة لهم هي النافذة المتاحة ورمزاً لذلك الغرب في صورته القريبة⁴، ذلك أن الرهان عليها كان يمكنهم من التحرك

¹ سلمان قعفراني، أزمة الانتماء اليهودي...، مرجع سابق، ص. 194-195.

² A. Chouraqui, *L'A.I.U et la renaissance Juive contemporaine...*, op. cit, p. 152.

³ محمد حاتمي، الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية وهران المغرب المستقل...، مرجع سابق، ص. 93-94.
⁴ عبد العزيز شهير، في التراث اليهودي الأندلسي والمغربي، دراسات في تراث مهمل، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان، تاريخ الطبع، 2006-2007، ص. 133.

بسهولة في السياق العالمي، كما كان ذلك تدريباً على الإنفتاح على الأبعاد الإنسانية¹. لقد كانت خطوة هؤلاء اليهود التنويريون على قدر كبير من الجرأة التي جاءت رد فعل على ظروف عيش إخوانهم في الدين في مناطق لم تعرف نفس التحولات التي طرأت بأوروبا خاصة الغربية منها، بالتالي سعوا لمماثلة اليهود الشرقيين مع قيمهم وأفكارهم الجديدة التي خرجت من رحم الأنوار والثورة الفرنسية وإعلان حقوق الإنسان والمواطن²، وأيقنوا بأن انغلاقهم التاريخي قبل "تحريرهم" لم ينتج سوى تجارا وحاخامات وفكر ديني تصوفيا معاديا للعلوم الحديثة ورافضا للآخر، متعاليا عليه ومحققا له³. لذلك رأى المسؤولون في الرابطة أن التعليم العصري يشكل المفتاح الوحيد لتحرير اليهود من التخلف الذي تعيشه البلدان المتخلفة⁴، وكانت هذه الأخيرة تسعى إلى تحقيق الأهداف الكبرى التالية كما جاء في البند الأول من قانون الاتحاد: أولا: العمل في مكان من أجل التحرر والتقدم المعنوي لليهود. وثانيا: تقديم سند فعال إلى الذين لا يعانون مما يعانون منه إلا لأنهم يهود⁵، وذلك عبر الخطوات التالية: تمكين الأطفال اليهود من الانفتاح على حضارة الغرب، وتطوير ملكاتهم الفكرية، وتربيتهم على التفكير السليم، والفهم الجيد والدقيق للحياة، وإخراجهم من النفق المسدود وتعزيز روح الأمل لديهم، كما كانت البيداغوجيا المقررة تتوجه لشحذ ذكاء وتحفيز خيال الطفل وليس تقوية الذاكرة، كل ذلك في سياق القيم النبيلة للديانة اليهودية⁶، في أفق ترسيخ القيم الأخلاقية وقيم التسامح، وكذا عدم التعصب وتبني الأخوة العالمية وتعزيز التواصل مع أتباع الديانات الأخرى، ومحاربة العادات السيئة والأحكام المسبقة من أي نوع، ووضع حد لظاهرة الزواج المبكر وعدم نظافة الدور والطرق والميز الطبقي والاجتماعي، والتجزئة الداخلية للطوائف، وترسيخ عادات النظام والاستقامة في إدارة الأعمال المشتركة، والحث على خلق المؤسسات الاجتماعية الإحسانية كما هو الشأن بالنسبة للتعليم المهني والدروس الليلية وجمعية الإعانة الصحية⁷.

¹ نفسه، ص. 134.

² L. Heller-Goldenberg, «Les juifs marocains sous le Protectorat», op. cit, p. 247.

³ "باستثناء العلم الديني الصرف الذي كان فاسدا ومتدنيا، سجد أن يهود أوروبا (ويهود الدول العربية أيضا ولو على نحو أقل إلى حد ما) قبل عام 1780 كانوا يظهرون كراهية واحتقارا بالغا لكل صنوف العلم (باستثناء دراسة التلمود والصوفية اليهودية) فأقسام كبيرة من التوراة، وكافة الشعر العبراني غير الديني ومعظم كتب الفلسفة اليهودية لم تكن تقرأ وكانت أسماؤها في الغالب تستدر اللعنات، كانت ممنوعة منعاً باتاً وكذا دراسة الرياضيات والعلوم. أما الجغرافيا والتاريخ- بما في ذلك التاريخ اليهودي- فلم يكونا معروفين قط، والحس النقدي، الذي يفترض أنه من سمات اليهود فقد كان غائبا كلياً، ولم يكن هناك محظور مرهوب مثل النقد ولو كان معتدلاً وبريئاً. كان عالمهم غارقاً في الاعتقاد بالخرافات وفي التعصب والجهالة، وفي مقدمة أول كتاب عبري نشر بروسيا عام 1803 تجد شكوى من أن عددا من الحاخامات ينكرون وجود القارة الأمريكية ويعتبرونه مستحيلاً، لذلك لا توجد صلة بين هذا العالم اليهودي، وما يعتبرونه في الغرب بسمات مميزة لليهود سوى خطأ في التسمية". إسرائيل شاحك، اليهود واليهودية...، مرجع سابق، ص. 44.

⁴ A. Chouraqui, L'A.I.U et la renaissance..., op. cit, p. 151.

⁵ أحمد شحلان، اليهود المغاربة من منبئ الأصول إلى رياح الفرق...، مرجع سابق، ص. 80.

⁶ A. Chouraqui, L'A.I.U et la renaissance..., op. cit, p. 158.

⁷ A. AIU, Paris-Maroc, **IJ 162** (bobin N° 29 copie 1/1 Mai 1999- Microfilme), Lettre du président du Comité de L'Alliance Israélite Universelle au Général Lyautey, Paris Juillet, 1915.

هذه الأهداف هي ذروة ما كانت الرابطة تتمنى تحقيقه على يد مدرسيها. وانسجاما مع هذه الفلسفة كانت الرابطة لا تعارض قبول أطفال الثقافات الأخرى في مدارسها كالمسيحيين والمسلمين. كما كانت تحتّ المدرسين على تقديم الدعم اللازم لهؤلاء مع الحرص على تفادي أدنى إشارة أو كلمة أو إبداء أي شعور من شأنه أن يجرح الإحساس الديني أو السياسي لغير اليهود، وذلك عملا بتعاليم التوراة "أحب قريبك كما تحب نفسك"¹. كما أوصت توجيهات الرابطة بتفادي النقاش حول التقاليد والدين اليهوديين بكيفية مباشرة، وشعارها المعروف فيما يخص هذه النقطة كان هو: "كن يهوديا في بيتك، ومجرد إنسان خارجه"، مع التأكيد على الصبغة الكونية التي تتصف بها الثقافة اللائكية أكثر مما كانت تلح على التعمق في الرسالة الدينية اليهودية². وهو ما دفع الصهاينة، لاحقا، إلى توجيه انتقادات قوية للرابطة لأنها في تقديرهم تساهم بذلك في ابتعاد الشبيبة اليهودية عن الدين اليهودي بتأثير من القيم التي أخذ التعليم العصري في نشرها.

أما فيما يتعلق بالبرنامج الدراسي المعتمد بمدارس الأليانس، فقد ظل محليا حتى سنة 1882م، وبعدها فرضت اللجنة المركزية للاتحاد مقرا عاما ليطبق في كل مدارسها، ويتضمن ذلك المقرر المواد التالية: اللغة الفرنسية التي حظيت بنصيب مهم ضمن المواد المدرسة على أساس أن مركز الرابطة كان يتواجد بفرنسا، علاوة على الدعم الذي قدمته الحكومة الفرنسية في إطار ما ستجنيه من مكاسب³، أضف إلى ذلك الحساب والهندسة والفيزياء والكيمياء، بالإضافة إلى العبرية نحو وتوراتا، والتاريخ المقدس، والتاريخ العام⁴ وجغرافية بلد الإقامة⁵، ثم دروس الرسم والنسخ والغناء والمحاكاة، والجمباز بشكل اختياري، وبعض المواد التي كان يمكن أن يضيفها المدرسون المحليون، إضافة إلى لغة البلد الأم كما هو الشأن بالنسبة إلى اللغة العربية بالبلدان العربية والمغربية⁶ انسجاما مع فلسفة الأليانس في قضية الاندماج*، لكنها عانت في هذه المسألة الأخيرة من مشكلة قلة المدرسين الجيدين بخصوص هذه المادة⁷. غير

¹A. Chouraqui, *L'A.I.U et la renaissance...*, op. cit, p. 174-188.

²روبير أصراف، محمد الخامس واليهود المغربية...، مرجع سابق، ص.84.

³A. Chouraqui, *L'A.I.U et la renaissance...*, op. cit, p.192.

⁴التاريخ اليهودي كان يعتمد في تدريسه بكثرة على تاريخ يهود فرنسا.

A. Chouraqui, *L'A.I.U et la renaissance...*, op. cit, p.194.

⁵أحمد شحلان، اليهود المغربية من منبت الأصول إلى رياح الفرقة...، مرجع سابق، ص.76.

⁶A. Chouraqui, *L'A.I.U et la renaissance...*, op. cit, p.191.

⁷"[...]il ne faut pas perdre de vue qu'à leur sortie de l'école nos enfants ne vont pas vivre enfermé au sein de leur communauté, les nécessités de l'existence quotidienne les mettront continuellement en rapport avec les ouvriers musulmans, avec leur commerçants, avec les membres de leur gouvernement."

Pinhas Cohen, *Les juifs du Maroc et la langue arabe*, Préface : Hassan Aourid, Ed Bouregreg, Rabat, 2011, p.155.

⁷في هذا الإطار اقترح رئيس لجنة الاتحاد ببغداد ما يلي: إدراج اللغة العربية في مقررات الأليانس في كل مدارس الموجودة في البلدان "العربية"، وفي المدرسة الإعدادية التي كان مقرها بباريس، مع تنظيم دورات يرحل فيها المدرسون إلى بيروت لتقوية لغتهم العربية. ورغم موافقة اللجنة

أن الجدير بالذكر هو أن البرامج الدراسية بمدارس الرابطة قد تغيرت بعد الحرب العالمية الثانية، حيث تمت تقوية التربية الدينية كما وكيفا، وتراجعت اللغة الفرنسية، وأصبح التلاميذ ملزمين بتعلم لغة البلد الأم¹ والعبرية الحديثة ثم الفرنسية كلغة أجنبية أولى بشكل تسبب في إرهاق التلاميذ بشكل كبير².

أما فيما يتعلق بالتعليم الديني، فقد كان مضمونا من طرف مؤسسات "الحدر" و"الياشفات"³، وتحت مسؤولية الجماعات اليهودية⁴. وفي إطار مساعي الرابطة من أجل "إنقاذ" الأطفال الفقراء الذين لم تسعفهم ظروفهم في الالتحاق بالمدارس الابتدائية، تكلفت الرابطة بتأسيس بعض المدارس المهنية من أجل تمكين المستفيدين منها من تكوين مهني يتيح لهم إمكانية الاندماج في سوق الشغل، وأول تجربة كانت بمدينة طنجة سنة 1873، والثانية كانت بتطوان سنة 1874، وفي نفس المدينة أسست مدرسة مهنية خاصة بالإناث سنة 1892، وبعدها أحدثت أخرى مختلطة بالدار البيضاء سنة 1909، ثم توالى تأسيس هذه المدارس لاحقا في باقي المدن الأخرى. وقد كانت مدة التكوين المهني تستغرق 5 سنوات، يتلقى فيها المتعلم تكوينه على يد أصحاب المهن أنفسهم، ويتقاضى أجرا شهريا

المركزية للألبانيس بباريس على هذا المطلب، فإنه لم يطبق، وظلت اللغة العربية غائبة عن المقرر خصوصا في المغرب باستثناء فترات قصيرة. المواد التي قد يضيفها المدرسون المحليون". أحمد شحلان، *اليهود المغاربة من منبت الأصول إلى رياح الفرقة...*، مرجع سابق، ص. 76.
¹ رغم إقرار تعلم اللغة العربية بجميع أقسام الدروس المتوسطة بالسنة الثانية وأقسام السنة الأخيرة بمعدل ساعتين في الأسبوع، إلا أن غياب مدرسين يهود مؤهلين منع الرابطة من تعميم هذه المادة بجميع الأقسام.

«Les problèmes de L'enseignement», in VC, Sept 1955, N° 54, p. 2.

²A. Chouraqui, *L'A.I.U et la renaissance...*, op. cit, p. 194.

³"الحدر" كان يطابق "المسيد" عند المسلمين، بينما الياشفات يقصد به التعليم الديني العالي أي أنه مرحلة متقدمة تأتي بعد الحدر، وداخل هذه المؤسسات التقليدية كان التعليم يبالغ في الاعتماد على الذاكرة أي التعليم بالحفظ والنقل. ويبدأ هذا التعليم في سن الطفولة فاليقاعة، ويستمر إلى سن النضج، بل يبقى مدى الحياة لدى من خصوا أنفسهم بالعلم، قصدهم من ذلك استيعاب العلوم التقليدية الاستيعاب الطويل والشاق، والتمكن من الجدل والمناظرة في العلوم الربية. ويراد من وراء اكتساب هذه المعارف "الإنسانية" ترسيخ معرفة أكاديمية مدرسية لها قواها الخاصة بها، مما يجعل من المتعلم رجل شريعة، وخبيراً في الفقه، علامة في تفسير التوراة والتلموذ وواعظاً موهباً، و"قبلياً" ومتحدثاً بليغاً، ينظم الشعر ويعتمد السجع والجناس في مختلف النصوص التي ينشئها في خطبه وأقواله... وعلى "التلميذ/الحاخام" عندما يصير ربياً أن يستمر طيلة حياته في تعميق معرفته والنظر في مصادر الفكر اليهودي الكبرى الشاملة، خصوصاً مؤلفات القبلا، لتدريسها إذا كان قاضياً، أخذاً في الحسبان التقاليد والعادات المحلية، خصوصاً الفتاوى الجماعية التي سطرها من سبقه من "شيوخ اليهود" الأسلاف... وتجدر الإشارة أيضاً إلى أن المعارف كانت تأخذ بالمشافهة، بحيث يأخذ المريد عن شيخ يلازمه مشافهة، خاصة إذا تعلق الأمر بالمعارف الباطنية المرتبطة بالتصوف والقبالا، لأنهم كانوا يعتقدون بأن الكتابة تخلق نوعاً من الكسل في ذهن الطالب... وتشهد على هذا المنع مجموعة من النصوص التلمودية، مثل: "مثل الذي يستعمل الكتابة في نصوص الشريعة (الهلوخت) (مثل الذي يرمي التوراة في لهيب النار) (تموزة 14 ب وكتين 60 ب). ويقال نفس الأمر للذي يكتب "البرخوت" [افتتاحيات بعض أقسام التلموذ ونصوص تبريكات وأدعية في مناسبات مختلفة، كمباركة الأكل والشرب...]. (شبتوت 16 ب) ويقول نص آخر: ليس للذين يكتبون "الهكاذا" مكان في العلم الأخرى" (التلموذ البيروشليمي، شبتوت XVI، 1). ولم تكن عين الرضى تشمل حتى النساخ الذين ينقلون "السيفيريم" [الكتب] و"التيفيلين" [الصلوات]، الميزوزوت [الذقي التي توضع على أبواب المنازل]، (بصحيح 50 ب). حاييم الزعفراني، *يهود المغرب والأندلس*، الجزء الأول، ترجمة أحمد شحلان، مرسوم الرباط، مطبعة النجاح الجديدة، 2000، ص. 131-130-124-123.

⁴J. Tolédano, *Portrait d'une communauté Juive Marocaine, Histoire, Culture, Humour et Folklore*, Ed Ramtol, Imprimé en Israël 2017, p. 324.

يتراوح ما بين 4 و8 فرنكات مع اللباس ووجبة الغذاء، كما ألزم الإتحاد تلاميذ هذه المؤسسات بمتابعة الدروس الليلية التي تلقن فيها مبادئ الرسم والحساب والهندسة والمحاسبة¹.

وبما أن الرابطة كانت مدركة تماما بأن هذه الأهداف لا يمكن أن تتحقق من دون تحرير المرأة اليهودية، فقد حث المسؤولون بالأليانس على ضرورة تعليم المرأة للرفع من قيمتها، ومساعدتها في الاعتماد على نفسها، حتى تكون أكثر فاعلية داخل أسرتها، وحتى تعي حقوقها وتساهم من موقعها في تطور الأسرة بفعالية أكبر، ومن ثم القضاء أيضا على الأحكام المسبقة حولها، والحد من ظاهرة الزواج المبكر والطلاق وتعدد الزوجات كما لم يكن الهدف من تعليم المرأة النقص من حسها الأنثوي، بل جعلها أكثر رقيا للرفع من قيمتها حتى تستطيع تحقيق استقرار أكثر للعائلة²، وحتى تساعد في تحرير اليهود من الخرافات والمعتقدات الخاطئة³. لكن مع ذلك ظل موقف المغاربة اليهود من تعليم المرأة مترددا، فرغم إقدام الآباء على إرسال بناتهم إلى المدرسة فإنهم ظلوا ينظرون إلى تفوقها بنوع من الفتور مقارنة بالذكور، ونادرا ما كان يسمح للفتيات بمتابعة تعليمهن العالي بالرغم من أن إمكانية ذلك كانت محدودة حتى بالنسبة للذكور، لأن التعليم الذي كانت تقدمه مدارس الرابطة كان يتوقف عند المستوى الابتدائي فقط⁴.

وبما أن الرابطة كانت مدركة، بفضل تجاربها السابقة، أن عددا من التلاميذ يغادرون فصول الدراسة قبل انتهاء مدة التكوين بسبب الفقر والحاجة للعمل في سن مبكرة، فقد شجعت على تأسيس جمعيات قدماء التلاميذ*، لتطويق مشكلة الهدر المدرسي عبر التطوع لتقديم دروس الدعم ليلا، وكذا تذليل الصعاب، ما أمكن، أمام التلاميذ المعوزين، بالإضافة إلى تنشيط الأنشطة الموازية، من قبيل المحاضرات التي تتناول واقع الحال والجوانب الحضارية التي من شأنها الرفع من وعي التلاميذ ومحيطهم، وقد كانت التعليمات تحذرهم من تجنب الخوض في المواضيع التي تثير حساسيات عرقية أو دينية. كما زودت الأليانس المدارس وهذه الجمعيات بالمكتبات، وشجعت تلاميذها على تحرير مقالات وبحوث بمجلة الرابطة التي أسست سنة 1900⁵.

¹أحمد شحلان، "محاولة إصلاح التعليم اليهودي بالمغرب في القرن XIX، ودور مدارس الاتحاد الإسرائيلي في أوضاع ما قبل الحماية"، مجلة الإصلاح والمجتمع المغربي في القرن التاسع عشر، أيام دراسية من 20 إلى 23 أبريل، 1983، ندوات ومناظرات رقم 7، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، ص. 211.

²A. Chouraqui, *L'A.I.U et la renaissance...*, op. cit, p. 197.

³Ibid, p. 190.

⁴D. Bensimon-Donath, *Evolution du Judaïsme Marocain...*, op. cit, p. 83.

*سيأخر تأسيس جمعية قدماء تلاميذ الأليانس بمدينة مكناس إلى سنة 1927.

J. Tolédano, *Portrait ...*, op. cit, p. 233.

⁵أحمد شحلان، اليهود المغاربة من منبت الأصول إلى رياح الفرقة...مرجع سابق، ص. 77.

أما فيما يتعلق بالجهة التي تولت ممارسة الرقابة على هذه المدارس (قبل مرحلة الحماية) فقد أسندت هذه المهمة إلى لجنة خاصة تنتخبها جماعة كل مدينة، كما كانت اللجنة المركزية للرابطة بباريس تبعث مفتشين إلى مدارسها بالمغرب بشكل دوري. أما الامتحانات فقد كانت تجرى دوريا في كل المواد، ويحضرها بالإضافة إلى العاملين في المدرسة، ممثل الأليانس وممثلون عن الجماعة وهيئة الأحبار وممثلو الدول الأجنبية بالمدن الساحلية¹.

وفي إطار التنزيل الميداني لهذا المشروع بالمغرب، قررت الرابطة فتح أول مدرسة تابعة لها بمدينة تطوان سنة 1862 بفضل احتضان المبادرة من طرف مجموعة من الأشخاص اليهود والمسيحيين والمسلمين². لكن المشكل الذي واجه الأليانس في البداية هو معارضة بعض النخب التقليدية التي لم تر في المدرسة العصرية إلا وسيلة لنقل دناءة وخسة الغرب³، مما أجبر مسؤولي الرابطة على القيام بمجموعة من المساعي من أجل تبديد هذه القناعات، منبهين الآباء إلى مدى أهمية أن يتلقى أبنائهم تعليما عصريا في هذه المدرسة. هذه المساعي كللت بالنجاح، فتم تدشين المدرسة بتاريخ 23 دجنبر سنة 1862، بحضور الحاخامات وممثلي السلطة المغربية، ورجال الدين الكاثوليك الإسبان وهرمان كوهن أول مدير للمدرسة، وقد بدأت مدرسة تطوان نشاطها في 28 من نفس الشهر، وفي 30 منه تم رسميا فرض الحماية الفرنسية والإنجليزية عليها⁴. ثم توالى عمليات إحداث المدارس في العديد من المدن المغربية: طنجة (أولاد سنة 1865 وبنات 1877)، والقصر الكبير والصويرة (1880) واضطرت الأليانس إلى إغلاق مدرسة الصويرة بسبب معارضة المخزن، فاس (1883)، الصويرة مجددا (1888)، الدار البيضاء (1897)⁵. وكان اهتمام الأليانس قد انصب في بداية الأمر على المدن الساحلية بسبب كثافة الحضور الأجنبي والتواجد القوي للقناصل الذين كان بعضهم يهوديا، بالإضافة إلى أن الرابطة كانت تعتذر عن إحداث المدارس مبكرا بالمدن الداخلية بدعوى أن وضعيتها الاقتصادية لا تسمح بذلك⁶.

¹ نفسه، ص. 77-78.

² A. Chouraqui, *Histoire des juifs en Afrique du nord...*, op. cit, p. 113.

³ "واجه المدرسون الأوائل بالمغرب مجموعة من المشاكل منها بؤس الملاحظات، ومعارضة الحاخامات الذين كانوا يسيرون المدارس التقليدية، وسوء الفهم من قبل العائلات، لكن مع مرور الوقت وبدأ بعضهم يدرك بالتدريج أهمية التعليم الذي تقدمه الرابطة كوسيلة لربط علاقات مع العالم المتحضر، حيث كان مدرسو الرابطة بمثابة مبشرين بالحضارة الغربية، بعدما تلقوا تكوينهم بمدرسة تكوين المعلمين الشرقية بباريس. كما كان هؤلاء من خيرة قداماء تلاميذ الرابطة التي سبق وفتحها بحوض المتوسط والشرق الأوسط، كما كانوا ينحدرون من جنسيات مختلفة كاليونان وبلغاريا".

D. Bensimon-Donath, *Evolution du Judaïsme Marocain...*, op. cit, p. 23.

⁴ A. Chouraqui, *L'A.I.U et la renaissance...*, op. cit, p. 153.

⁵ محمد حاتمي، *الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية وهران المغرب المستقل...*، مرجع سابق، ص. 94.

⁶ أحمد شحلان، *اليهود المغاربة من منبت الأصول إلى رياح الفرقة...*، مرجع سابق، ص. 80.

صورة رقم 05: تلاميذ يهود بمدرسة الرابطة بمدينة تطوان



Source : Frank Bensimon, **Juifs du Maroc**...op. cit, p. 43.

في ظل هذه الظروف تأخر إحداث أول مدرسة بمدينة مكناس بفارق أربعين سنة عن مدينة تطوان، حيث ظلت مكناس آخر مدينة داخلية كبرى خارج حسابات الرابطة بعدما تم إحداث مدرسة للأليانس بمدينة مراكش سنة 1899. وابتداء من مطلع القرن العشرين انتبعت الرابطة إلى ضرورة الاهتمام بيهود هذه المدينة التي كانت تضم جماعة يهودية مهمة، وفي هذا الصدد نورد ما جاء في نشرة الرابطة الإسرائيلية بباريس: "يوجد بشرق وجنوب المغرب عدة طوائف يهودية كثيرة العدد تحتاج إلى مساعدة الرابطة من أجل تحقيق نهضتها. وقد عبر المجتمع اليهودي شيئاً فشيئاً عن رغبته في المساهمة في عملها التربوي. تعد مدينة مكناس من بين العواصم الشريفة والتي تبعد عن مدينة فاس بمسيرة يوم واحد، وقد عازمت الرابطة على إحداث مؤسسة تربوية تابعة لها بهذه المدينة. وفي هذا السياق قام مدير مدرسة الرابطة بفاس ربيبي Ribbi بزيارة ميدانية لمدينة مكناس من أجل دراسة أحوال ساكنتها اليهودية، وقد سبقه إلى ذلك مدير مدرسة الرابطة بالرباط الذي قام بزيارة لنفس المدينة سنة 1901 من أجل تدارس إمكانية إحداث مدرسة للرابطة بها. والحاصل أن التحريات التي قام بها هذا الأخير كانت سهلة بفضل الإعداد القبلي

والمساعدة التي قدمت السيد ل ربي Ribbi...¹. لقد اكتشف هذا المبعوث مجتمعا عتيقا وفقيرا ولكنه متعطش للمعرفة²: و"[...] كبار الحاخامات عبروا عن موافقتهم من إحداث المدرسة، واستحسنوا العمل الذي تقوم به الرابطة الإسرائيلية العالمية..."³. وفيما يلي شهادة أحد المدرسين المتشبعين بالقيم العلمانية للجمهورية الثالثة، الذي قام بزيارة خاطفة للجماعة اليهودية بمدينة مكناس، وقدم تقريراً عن وضعهم الأخلاقي، وانتهى إلى أن المدرسة وحدها القادرة على تحسين وتطوير أوضاعهم: "يعاني يهود مكناس أخلاقياً من الجهل والتعصب والغرور، وبعد اتصالنا بهم وقفنا على انتشار العديد من العيوب والرزائل في صفوفهم والتي لن يخفف من حدتها شيئاً فشيئاً إلا المدرسة..."⁴.

لقد تكللت مساعي مبعوث الرابطة بالنجاح، ذلك أنه بعد المشاورات التي تمت بين الأعيان والحاخامات، عبر هؤلاء عن استعدادهم لدعم مبادرة إحداث مدرسة للرابطة بالمدينة واستعدادهم للقيام بالتضحيات الممكنة، بعدما حصلوا على ضمانات من الرابطة تقضي بالتزامها باحترام العوائد اليهودية، كما ساهمت أصداء النجاحات التي تحققت بمدرسة الرابطة بفاس -والتي كانت دائماً مثار منافسة وغيره بالنسبة ليهود مكناس-، في تحفيز يهود مكناس على تقبل إحداث مدرسة بملاحظهم، أضف إلى ذلك الوقوف على النجاحات المماثلة بالمدن الأخرى كطنجة والعرائش والرباط حيث كان يقيم العديد من اليهود المنحدرين من مدينة مكناس، كل ذلك أعطى دفعة قوية أيضاً لهذا المشروع. أما بخصوص الصفقة التي تمت بين مسؤولي الرابطة والأعيان اليهود بالمدينة فقد كانت على الشكل التالي: لقد التزمت الجماعة اليهودية لمدينة مكناس بضمان توفير مصاريف كراء مقر المدرسة وضمان اشتغالها عبر التكفل بدفع أجور الأساتذة الذين سيتكفلون بتدريس المواد الدينية⁵، بينما التزمت الرابطة بدفع أجور أساتذتها الذين سيفقدون من الخارج. أما على المستوى البيداغوجي، فقد تكلفت الرابطة بمسؤولية برنامج المواد العصرية، بينما تكلف الحاخامات بإعداد ومراقبة المواد الدينية⁶. وعند بداية الموسم الدراسي الأول سنة 1901، كان كل شيء على ما يرام، بعدما تم الاتفاق على كراء المقر وتعيين أساتذة المواد العبرية/ الدينية، لكن الرابطة تأخرت في توفير أساتذتها

¹J. Tolédano, *Portrait ...*, op. cit, p. 165.

²ibid, p. 165.

³ibid, p. 166.

⁴ibid, p. 167.

⁵"حرص الحاخامات على ضرورة الالتزام بالتعليم الديني نابع من القيمة التي كان يحظى بها الفرد داخل الجماعة بفضل معارفه العلمية، لأن ما أن يكتسب طالب العلم العلوم والمعارف الدينية حتى تغدق عليه مجموعة من الامتيازات، التي قد يكون مبالغاً فيها أحياناً، ويتمتع بتلك الامتيازات مهما كان وضعه المادي ومن بينها الإعفاء الضريبي... كما كان يتمتع طالب العلم، بالإضافة إلى ما تقدم، بنفوذ أخلاقي لا يرقى إليه الشك، وأحياناً تتجاوز تلك المعارف المجال الفكري العادي، وذلك عندما يغوص العالم في المعارف التصوفية، وعندما تضاف إلى سلطته المعرفية سلطة العارف بعلم الباطن، وكان كل حبر يبلغ هذه المكانة يحاط بهالة من الهالات التي تخص الأتقياء "الصادق"، إلى أن يصبح في نهاية المطاف قديساً". حاييم الزعفراني، *يهود المغرب والأندلس، الجزء الأول...*، مرجع سابق، ص. 133.

⁶J. Tolédano, *Portrait ...*, op. cit, p. 167.

لأنها كانت تبحث عن مرشحين قادرين على التأقلم مع ظروف ومناخ المدينة، فوقع اختيارها على الزوجين الشابين جاك وإيستير فلادجي Jacques et Esther Vladji¹. وقد تسبب هذا التأخير في انطلاق متأخر للموسم الدراسي الأول بشهرين عن موعده المفترض، لكن مع ذلك فقد لقي الزوجان الشابان استقبالا فيه الكثير من الحفاوة من قبل أعيان وحاخامات الجماعة اليهودية بشكل أثار استغراب مسلمي المدينة، الذين لم يفهموا كيف يمكن أن يخصص هذا الاستقبال الحار لمجرد أستاذين بسيطين، بل أكثر من ذلك، أثار هذا الأمر فضول وحفيظة باشا المدينة الذي استدعى على الفور الرجل القوي في الطائفة السيد موردخاي لوباطون Mordekhay Loubaton وتوجه إليه قائلا: "ما هذا الذي سمعت؟ هل ستقومون بتمويل مدرسة جديدة؟ ما حاجتكم إلى إحداث مدرسة أوربية؟ علاقاتكم التجارية محصورة مع عرب المدينة وأمازيغ الأطلس، وفي عملية التواصل معهم لستم في حاجة لتعلم لغة أجنبية، وما تعلمونه يكفيكم لقضاء مآربكم. إني أحذرك من المساس بضريبتكم المفروضة على اللحم المخصصة لأغراضها كما جرت العادة... كيفما كان الحال أرى أنكم لن تستطيعوا تمويل هذه المدرسة"². هذا الموقف السلبي وغير المدرك تماما لمدى الأهمية والقيمة التي ينطوي عليها التعليم العصري، كان هو السائد في الغالب لدى النخب المسلمة. وفي هذا الصدد نورد مثالا آخر من الجنوب المغربي أورده عمر بوم نقلا عن أحد المزارعين يدعى الهادي، وكان في أواخر السبعينات من عمره لحظة استجوابه جاء فيه: "عندما أقدم الفرنسيون على تشييد المدرسة الابتدائية في واهتي، طلب منا الفقهاء البقاء في منأى عن شبهات هذه المؤسسة الشريكة (من الشرك)، وشجعونا على الالتحاق بالكتاتيب القرآنية دون غيرها. وعلى العكس من ذلك، فإن اليهود، على الرغم من تحفظهم في البداية، انتهى بهم الأمر إلى إرسال أطفالهم إلى المدارس الدينية والفرنسية على حد سواء. وبهذا تمكنوا في الوقت ذاته من تعلم اللغات الفرنسية والعبرية والعربية. ومن ثم استطاعوا الحضور في فصول المدارس الفرنسية، فأصبح منهم المعلمون والأطباء. وحسبك انه في السنة الماضية فقط، التقيت بواحد منهم في القرية خلال زيارته للحي اليهودي، فعلمت منه انه يعمل الآن طبيا في فرنسا"³.

¹ "ازداد السيد جاك فلادجي ببلغاريا في ظل الحكم العثماني، وقد كانت له تجارب سابقة في ميدان التدريس بكل من دمشق وبيروت والقدس، أما زوجته فقد كان تعيينها بمكناس هو أول تجربة لها في هذا المجال، وقد كانت تنحدر من أصول روسية، إذ هاجر والداها إلى مدينة أزمير بتركيا حيث تلقت دراستها عند أخوات الإحسان".

J. Tolédano, *Portrait ...*, op. cit, p. 167-168.

² Ibid, p. 168.

³ عمر بوم، *يهود المغرب وحديث الذاكرة...* مرجع سابق، ص. 125.

رغم هذه المثبطات، ورغم المصاعب التي واجهت الزوجين المدرسين فيما يتعلق بإيجاد مسكن مناسب من جهة، ومقر قار للمدرسة من جهة أخرى¹، ناهيك عن تراخي الأعيان اليهود بالمدينة في تذليل هذه الصعاب، إلا أنهما قررا فتح مدرسة للذكور وأخرى للإناث، وقاما بفتح باب التسجيلات، بحيث بلغ عدد التلاميذ بقسم الذكور 52 تلميذا، منهم 40 أدوا رسوم التسجيل، وبلغ عدد الإناث 47 تلميذة دفعن رسوم التسجيل أيضاً. وتصدر الإشارة إلى أن الطاقم المشرف على العملية كان قد قرر تخصيص نسبة من المسجلين من أبناء الفقراء حتى لا تبدو المدرسة كامتياز خاص بأبناء الأغنياء²، وانسجاما مع مضمون التوصية التي أوصى بها نارسييس لوفان أحد أبرز مؤسسي الأليانس، حيث قال: "إذا كانت المدينة مقسمة بنهر، ولا توجد قنطرة قوية لوصل طرفيها، يجب حينها إحداث مدرسة بكل من ضفتي النهر" حتى تتمكن كل الطوائف اليهودية من ضمان التمدن لأبنائها³.

كان افتتاح المدرسة بتاريخ 2 فبراير من سنة 1902 في جو احتفالي أعدته ساكنة الملاح، لدرجة أن التجار اليهود قرروا يومها إغلاق محلاتهم احتفاء بهذا الحدث. غير أن قدوم الزوجين المدرسين من بيئة أجنبية وثقافة مغايرة لم يسهل تأقلمهما وسط بيئة محلية تقليدية، الأمر الذي جعلهما ينظران للجماعة بنوع من التعالي والازدراء، ولم يترددا في التعبير عن ذلك خاصة فيما يتعلق بتثبيت أفراد الجماعة اليهودية بعدد من الممارسات الدينية التي بدت لهما غير مستساغة، الأمر الذي أثار امتعاض يهود الملاح واستياءهم، بشكل أدى إلى تعدد الاصطدامات بين الطرفين بشكل يكاد يكون يوميا، علما أن اللجنة المركزية للرابطة بباريس كانت توصي أطرها بضرورة احترام تقاليدهم، وتفهم أحكامهم المسبقة التي تبدو لهم باطلة وغير مبررة، كما كانت تطمئنهم من خلال الخبرات التي راكمتها من تجاربها السابقة بأن إخوانهم في الدين سينتهي بهم الأمر مع مرور الوقت إلى الثقة في العمل الذي يقدمونه لهم من خلال المدرسة العصرية⁴.

والظاهر أن هذه البداية غير الموفقة كان من نتائجها تماطل أعيان الجماعة اليهودية في الوفاء بالتزاماتهم السابقة القاضية بتوفير أساتذة تعليم اللغة العبرية، بدعوى عدم تمكنهم من العثور على المرشحين الأكفاء للقيام بتلك المهمة، كما برروا ذلك أيضا بأن عدد التلاميذ المسجلين كان ضعيفا بشكل لا يتطلب تحمل كراء مقر للمدرسة، أضف

¹A.AIU.II B12.98, Archives, Amar. Abraham.

²J. Tolédano, *Portrait ...*, op. cit, p. 168.

³A. Chouraqui, *L'A.I.U et la renaissance...*, op. cit, p. 151.

⁴ A.AIU, Paris-Maroc, IJ 162(bobin N° 29 copie 1/1 Mai 1999- Microfilme), op.cit.

إلى ذلك تعنت أساتذة المواد الدينية الذين رفضوا تدريس الإناث¹. كما رفضوا هؤلاء الأساتذة تسجيل الإناث المتزوجات، رغم أن زيجات الأطفال ما دون سن البلوغ كانت رمزية² ومنتشرة في صفوف الجماعات اليهودية بمختلف مناطق المغرب، وهذا الأمر يؤكد حاييم الزعفراني قائلا: "كان الآباء في جماعات وادي تودغة في جبال الأطلس الكبير، وعندما يبلغ الولد سن الخامسة، يهتمون بشيئين اثنين: تعليمه التوراة، واختيار زوجته، طبقا لأحد الأوامر التلمودية، حيث جرت العادة أن يحتفلوا ليلة "شابعوت" التي تصادف ذكرى نزول الوحي في جبل سيناء، بنوع من زواج الطفولة. كان الأبوان يختاران في هذا الحفل قرينة لولدهما من نفس سنه، فيرتبط الطفلان في حفلة زواج حقيقية تتخللها الاحتفالات [...]. لكن الأمر يتعلق أولا وقبل كل شيء بعرس رمزي تزوج فيه التوراة للطفل".³ هذه الممارسات والعادات كانت تبدو مثيرة للزوجين المدرسين، مما كان يحول دون انسجامهما مع "الأهالي" أكثر فأكثر، علماً أن الأليانس راعت في اختيار أطرها التربوية والإدارية توظيف شبان وشابات ذوي كفاءات شخصية وعلمية عالية وحس متميز للتطوع والخدمة، فضلا عن معرفة واسعة بتاريخ المغرب وطبيعة العلاقات بين العناصر المختلفة المكونة للمعادلة البشرية فيه⁴. حدة الخلاف والاختلاف بين مدرس الرابطة جاك فلادجي، الذي كان يعتبر نفسه رسولا للحضارة، والأعيان اليهود بالملاح تفاقمت، بحيث لم يقبل الأستاذ أن يقوم الآباء بإبداء ملاحظاتهم على مضامين المقرر الدراسي وحول حرصه على التوازن بين المواد العلمانية والدينية، وحول الزمن المدرسي الذي كان يحول دون التحاق الأطفال بالحلقات الدينية. كما رفض أن يقدم لهم أدنى التفاصيل حول كيفية تدبير الموارد المالية المعتمدة، فكان رد فعلهم التوقف فورا عن دفع مساهماتهم المالية التي سبق والتزموا بها من أجل ضمان اشتغال المدرسة، علماً أن الرابطة كانت حريصة على مساهمة الطوائف اليهودية في تمويل مدارسها التي تستفيد منها بهدف ترسيخ ارتباط تلك الجماعات بتلك المؤسسات وتعزيز العمل الجماعي يلديها⁵. في ظل هذا المناخ الذي كان يطبعه التوتر قدامى الزوجان في استفزاز العوائد والممارسات الدينية للجماعة بنمط حياتهما الغربي، الأمر الذي أفقدهما حتى دعم ومساندة الحاخامات الذين سبق وعبروا عن دعمهم في البداية لمشروع إحداث المدرسة العصرية، الأمر الذي أرغم المدرس فلادجي على البحث عن حلفاء جدد لإنقاذ مشروعه من الإفلاس، لذلك قام ببعث رسالة إلى أعضاء

¹J. Tolédano, *Portrait ...*, op. cit, p. 168.

²Ibid, p.170.

³حاييم الزعفراني، *يهود الأندلس والمغرب، الجزء الثاني*، ترجمة احمد شحلان، مطبعة النجاح الجديدة، 2000، ص.433.

⁴محمد حاتمي، *الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية وهران المغرب المستقل...*، مرجع سابق، ص.95.

⁵A. Chouraqui, *L'A.I.U et la renaissance...*, op. cit, p. 185.

الرابطة بباريس يطلب منهم فيها التوسط لدى السيد موردخاي لوباطون باعتباره أقوى رجل بالملاح آنذاك كي يستمر في دعم مشروع الرابطة لإفشال ما كان خصومه يخططون له¹. في ظل هذه الأجواء المشحونة تشكلت جبهة عريضة من الأعيان والحاخامات من أجل إجهاد تجربة المدرسين الشابين، بحيث قاموا بنشر الدعاية ضده على أوسع نطاق أوضحوا من خلالها أنهم ضد التصور الذي أتت به المدرسة الجديدة بما في ذلك تعليم الإناث، كما عبروا عن رفضهم تأدية رسوم التسجيل، بل وطالبوا باسترجاعها واسترجاع تبرعاتهم لأنهم فقراء وفي حاجة إليها، وحذروا الناس من أن المدرسة الجديدة تشكل خطراً على القيم التقليدية للجماعة²، بسبب مضامين مقرراتها الدراسية³. وقد جاء في اتهامه لخصومه ما يلي: "لقد انكشفت حقيقة إخواننا في الدين بمدينة مكناس. إنهم مجرد عصابة من الفقراء الشياطين، لقد قاموا بتحركاتهم المشبوهة بدعم من شلومو بيرديغو ومناحيم بنعبو، حيث جابوا الملاح وهم يصرخون: نريد استرجاع الثلاثين بسيطة التي ساهمنا بها، إننا نموت من الجوع، ولسنا في حاجة إلى مدرسة تأخذ منا خبزنا ولا تمنحنا أي شيء"⁴. هذه الدعاية أتت أكلها، ذلك أنه خلال نهاية الموسم الدراسي انخفض عدد التلاميذ بشكل كبير جداً بحيث لم تعد المدرسة تضم سوى 15 تلميذاً و13 تلميذة⁵. وأكثر من هذا، لقد وصل التصعيد ضد أطر مدرسة الأليانس إلى درجة استفزاز المدرسين بالشارع العام أمام المارة، مما دفع فلادجي إلى مراسلة الرابطة بباريس قائلاً: "إن مهمة خلق مدارس بمدينة مكناس صعبة جداً، ويبدو أنه قد أخطأنا التقدير عندما حاولنا الذهاب بسرعة في إحداث هذا المشروع، لقد واجهنا صعوبات كثيرة من أجل إقناع الساكنة الفقيرة الجاهلة بأهمية المدرسة"⁶. وتعليقاً على ذلك يؤكد جوزيف طوليدانو بأن مسؤولي الجماعة لم يذهبوا إلى حد اغتيال وتصفية التجربة الأولى لمدرسة الأليانس عبر مقاطعتها بشكل نهائي، لأن اعتراضهم لم يكن ضد فكرة المدرسة في حد ذاتها، بل كان موجهاً ضد الأستاذين لسبب من الأسباب التي سبق وتحدثنا عنها. ومن أجل تأكيد تشبهم بالمدرسة قاموا بمراسلة رئيس الرابطة بباريس فرانسيس لوفان Francis Leven يطالبونه عبرها بإقالة المدرسين فلادجي وتعويضهما بمدرسين جديدين في الموسم الدراسي الموالي يشترط فيهما أن يلتزما باحترام العوائد والتقاليد الدينية

¹J. Tolédano, *Portrait ...*, op. cit, p. 170.

²في هذا السياق يؤكد حايم الزعفراني بأن العديد من شيوخ الطوائف واجهوا من منظورهم تغلغل سلطة العالم الغربي وأبدوا الحيرة والحدس اتجاه الثقافة الغربية، حيث اعتبروا المدرسة الحديثة "أش كله"، وهي عبارة باللغة العبرية تعني: "نار كلها" أي أن هذه المدرسة تؤدي إلى النار... غير أن تلك التحفظات تلاشت مع مرور الوقت وتلائم معها الجميع في نهاية الأمر. حايم الزعفراني، *ألف سنة من حياة اليهود بالمغرب*، ترجمة أحمد شحلان وعبد الغني أبو العزم، المطبعة الجديدة، ص. 75-16.

³J. Tolédano, *le Temps du Mellah...*, op. cit, p. 183-184.

⁴J. Tolédano, *Portrait ...*, op. cit, p. 171.

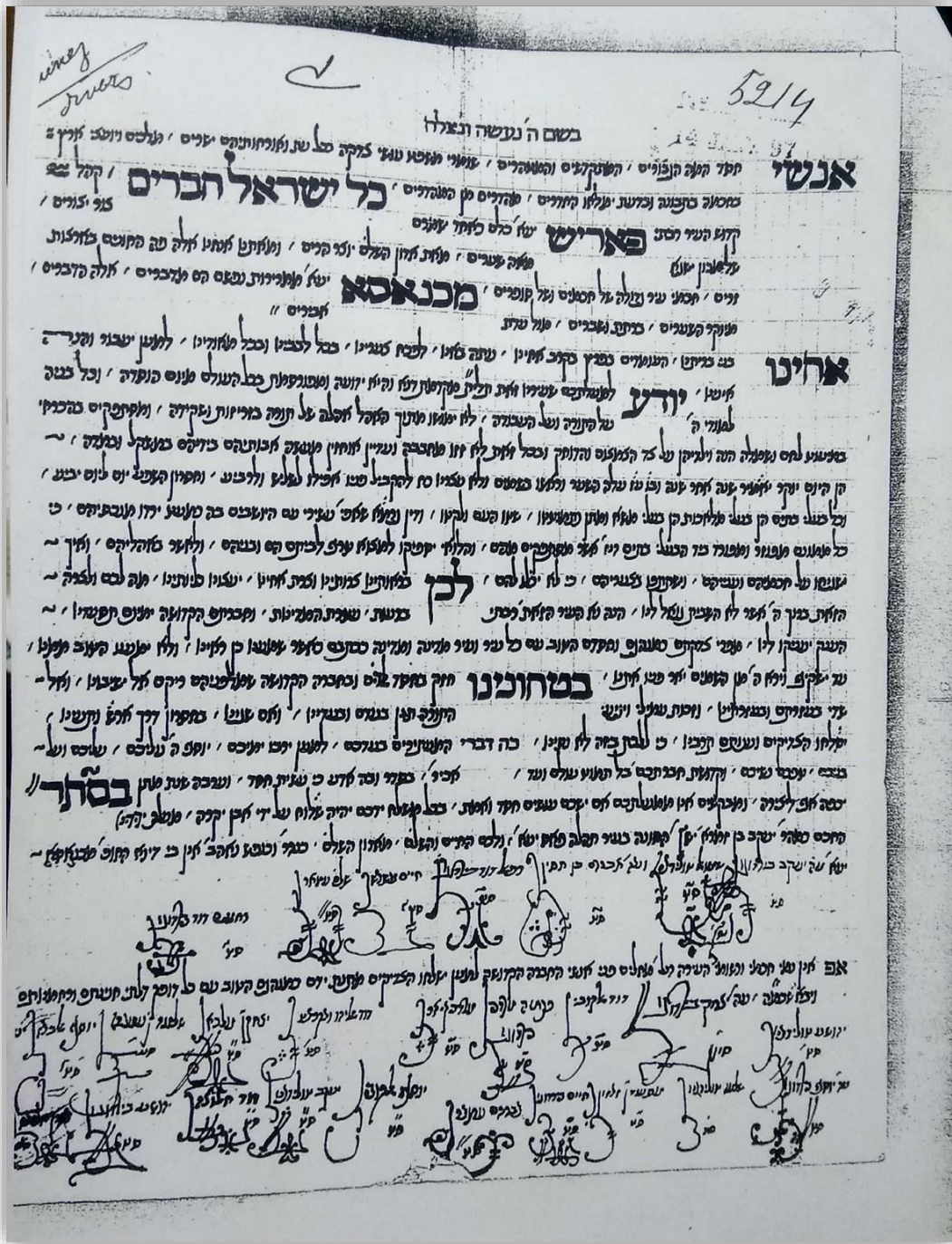
⁵Ibid, p. 171.

⁶Ibid, p. 172.

للجماعة اليهودية، بالإضافة إلى اعتماد برنامج دراسي يعطي مكانة أكبر للمواد الدينية بشكل يتوافق مع خصوصيات الذهنية التقليدية للجماعة اليهودية بمكناس. كما قاموا بكتابة عريضة مطولة باللغة العبرية موقعة من طرف مجموعة من الأعيان، وبعثوا بها إلى مسؤولي الرابطة بباريس يطالبون فيها بإعفائهم من تحمل مساهمتهم المادية في تمويل المدرسة بسبب قلة موارد الجماعة، جاء فيها:

"إخوتنا في الرابطة، ودائما في إطار الالتزام بالدفاع عن إخوتنا في الدين، نعرض أمامكم بكل جدية ومن القلب محتنتنا التي نأمل أن تزول... لا شك أنكم تعلمون بأن مدينتنا حفظها الله كانت دائما معروفة بحرصها، منذ تأسيسها، على تقديم تعليم ديني لأبنائها التلاميذ من مستوى عال بما يرضي الله، وحبنا للتوراة وتعاليمها. أبناء هذه المدينة لا يغادرون أبدا خيمة الدراسات الدينية التي يقبلون عليها بشغف وحب كبيرين، ويضحون في سبيل ذلك بكل شيء ويكتفون بالقليل من الخبز، حتى لا يتيهون عن الطريق الذي خطه أجدادهم ... لكن خلال هذه الأيام ارتفعت تكاليف المعيشة بشكل كبير لدرجة لم نعد قادرين على تحملها... وبسبب محتنتنا هذه قررنا التوجه إليكم كي تقدموا المساعدة اللازمة لهذه المدينة المعروفة بكثرة علمائها كما فعلتم مع باقي المدن، وكلنا أمل في ألا تردونا بأيدي فارغة. دمت في حماية ورعاية التوراة، ونرجو من الله أن يحفظكم ويمد في عمركم..."¹.

¹A.AIU. II B12.98, op.cit.



أما تفاعل مسؤولي الرابطة فقد كان على هذا النحو: فيما يتعلق بطاقم التدريس، قررت الرابطة إعفاء فلادجي وزوجته من مهامهما بمكناس ونقلهما إلى مدرسة الرابطة بمدينة فاس بدعوى عدم قدرتهما على التأقلم مع الواقع الاجتماعي للجماعة اليهودية بمدينة مكناس¹. هذا القرار لم يُرض الثنائي فلادجي الذي عبر عن امتعاضه، وأنه لا يستحق القرار الذي اتخذته الرابطة في حقه، وحمل كامل المسؤولية للجماعة اليهودية التي اعتبرها غير راغبة في وجود مدرسة للتعليم العصري بالملاح، وأنها لم تكن ترى في المدرسة سوى مكاتب للعمل الخيري، كما كانت لا تتوقف عن استجداء الصدقات². أما بالنسبة للمطبلين الآخرين المتعلقين بالبرنامج الدراسي وتخفيض مساهمة الطائفة في تمويل المدرسة فقد ظل موقف الرابطة غامضا. لكن عند حلول موعد الموسم الدراسي الموالي، وفي سنة 1902، لم تقم الأليانس ببعث الأساتذة المتوقعين، الأمر الذي أثار استياء مسؤولي الجماعة وقلقهم، وفي سنة 1903 ستقوم الرابطة ببعث رسالة قوية وغير متوقعة لرئيس الجماعة اليهودية بمدينة مكناس جاءت مضامينها على هذا النحو: "لقد تلقينا رسالتك في شهر فبراير، حيث تتعهد بالاستمرار في أداء واجب كراء مقر المدرسة. وبما أنك غير مكترث بقضية تدرس أبنائك نحيطك علما بأن الزوجين فلادجي قد غادرا مكناس. عندما تنتهي الأحداث الدامية سنرى إن كنا نستطيع بعث أستاذ إليكم. لكننا نخبركم، منذ الآن، بأننا لن نقدم على هذه الخطوة إلا بشرط التزامكم بدفع تسبيق لتغطية مصاريف المدرسة فيما يتعلق بكراء المقر وأجور أساتذة اللغتين العبرية واللغة العربية. وإذا ما التزمت بذلك سنتدارس من جديد هذه القضية³. وجدير بالذكر أن هذه الصعوبات التي تزامنت مع انتشار وباء التيفوس الخطير بالمدينة سنتي 1901 و1902 والذي خلف المئات من الضحايا بملاح مدينة مكناس ساهم في إجهاض أول تجربة لمدرسة الرابطة بالمدينة. غير أن ذلك لم يمنع بعض الأسر المتعطشة للتعليم العصري والحريضة على مستقبل أبنائها من إرسالهم لمتابعة تعليمهم بمدرسة الرابطة بمدينة فاس المجاورة كما هو الشأن بالنسبة لأسرتي النحماني، وأزوكي، ويهودا كوهن⁴.

¹ "حالة السيد فلادجي وزجته تعكس بجلاء الصعوبات التي واجهت مدرسي الرابطة الأوائل بالمغرب بسبب الفرق بين ثقافة البلدان التي عاشوا فيها مع بلدان التعيين بالصفة الجنوبية للمتوسط، ولأن الرابطة كانت مدركة لهذا المشكل فقد كانت توجه لأساتذتها قبل التحاقهم بأماكن العمل مجموعة من التعليمات أهمها: تفهم نمط العيش بالوسط الجديد. والحرص على التعامل بلباقة، وإسداء النصيحة، وعدم النفور من الممارسات الدينية، لكن الثنائي فلادجي لم يمتثل كما ينبغي لهذه التوجيهات لأن تطبيقها كان رهينا بشخصية المدرس نفسه وبالظروف المحيطة خاصة ما يتعلق منها ببؤس واتساع الملاح ومعارضة ومضايقة الوسط التقليدي. وفي التقارير التي كانوا يبعثونها بشكل دوري للإدارة المركزية كانوا يصفون هذا الوضع ويقيمونه أحيانا بشكل قاس".

D. Bensimon- Donath, *Evolution du Judaïsme Marocain...*, op. cit, p. 24.

² J. Tolédano, *Portrait ...*, op. cit, p. 173.

³ A.AIU.II B 12.98, Archives, Amar. Abraham, Lettre de l'AIU, au président de la Communauté Israélite de Méquinez.

⁴ J. Tolédano, *Portrait ...*, op. cit, p. 174.

• التجربة الثانية: النشأة والتطور

إن فشل التجربة الأولى سنة 1903 لم يثن بعض نخب الجماعة اليهودية بمكناس عن السعي إلى إعادة فتح مدرسة تابعة للرابطة الإسرائيلية العالمية بالمدينة، حيث تقدموا بطلب لهذه الأخيرة سنة 1906، لكن الرابطة اعتذرت بدعوى أن إمكانياتها الاقتصادية لا تسمح بذلك، إذ أن الأليانس لم تفتح خلال هذه السنة سوى مدرسة واحدة بمدينة الجديدة بسبب الظروف المناسبة بالمدن الساحلية¹. وهكذا سيتأخر فتح مدرسة جديدة للرابطة بمكناس إلى سنة 1911، بعدما قررت الأليانس إرسال الزوجين مويال من أجل إكمال المشروع الذي توقف سنة 1903².

وحتى لا تتكرر نفس المشاكل التي تسببت في إجهاض التجربة الأولى، اتخذت اللجنة المركزية للرابطة كل الاحتياطات اللازمة من أجل ضمان نجاح هذا المشروع واستمراريته، حيث اختارت بعناية المدرسين الزوجين اللذين أشرفا على هذه المهمة³. وقد استقبل الزوجان بحفاوة كبيرة من قبل الحاخامات والأعيان اليهود وباقي أفراد الجماعة اليهودية بالمدينة، ولم يفوت مويال الفرصة حيث استغل تلك الحفاوة بذكاء، وقام بصيحة الاحتفال بعيد البيساح/Pessah بدعوة الحاخامات والأعيان اليهود إلى عقد اجتماع ناشدهم من خلاله قراءة نداء قام بصياغته، بكل بيع الملاح من أجل تحسيس عموم اليهود بأهمية التعليم العصري بالنظر لفوائده المادية والأخلاقية. ومن أجل طمأنة الأوساط المحافظة أوصاهم بإعطاء جميع الضمانات للعناية بتعليم اللغة العبرية والدين⁴، بناء على الاتفاق المبدئي الذي تم بين الطرفين والذي كان يقضي بالسماح للحاخامات بتنظيم زيارة كل شهر للمدرسة من أجل الوقوف ميدانيا على مستوى العبرية عند التلاميذ⁵. ولا شك أن الإجراء الأخير الذي قام به المدير الجديد (مويال)، يوضح بأنه كان على بينة من الأخطاء التي ارتكبها سلفه (جاك فلادجي)، لذلك كان ديناميكية ولم يكن يفوت أية فرصة أو مناسبة للاندماج أكثر داخل الطائفة، وإظهار مدى تعلقه بالديانة اليهودية، لأنه كان مدركا بأن ذلك هو مفتاح النجاح وسط جماعة يهودية تميزت بأرثوذكسية وانغلاق كبيرين على عكس طوائف المدن الساحلية⁶.

¹ أحمد شحلان، اليهود المغاربة من منبت الأصول إلى رياح الفرقة...، مرجع سابق، ص 80.

² R. Assaraf, *Eléments...*, op. cit, p. 221.

³ "الزوج ألبير مويال الذي كان يحمل الجنسية الفرنسية قدم من الجزائر وتعود أصوله إلى عائلة يهودية قديمة بمدينة آسفي، بينما زوجته كانت تنحدر من أصول جزائرية من عائلة كانت معروفة بتقديمها لحاخامات كبار اشتهروا بقراراتهم ذات النفوذ الكبير بالمنطقة المغاربية".

R. Assaraf, *Eléments ...*, op. cit, p. 221.

⁴ Ibid, p. 222.

⁵ J. Tolédano, *Le temps du Mellah...*, op. cit, p. 186.

⁶ R. Assaraf, *Eléments...*, op. cit, p. 223.

وبالرغم من المناخ الإيجابي الذي تشكلت في إطاره هذه التجربة الثانية، إلا أنها لم تكن تخلو من العراقيل والصعوبات والتحديات، أولها تعذر العثور على مقر قار ومناسب للمدرسة كما كان الشأن بالنسبة للتجربة الأولى سنة 1902¹، حيث لم يكن المدير الجديد راضيا عن المقر المؤقت الذي كان بأحد أزقة الملاح الذي سرعان ما سمي بدرب السكوية، لذلك حاول عبر علاقاته الخاصة البحث عن مقر خارج الملاح بعدما انتهى إلى علمه مقر المدرسة الأوربية القائمة بحي الروامزيل والقريبة من الملاح، سيتم إخلاؤها من قبل سلطات الحماية سنة 1912 وبناء أخرى بالمدينة الأوربية، وبناء عليه حاول حيازة المقر القديم، لكن مسؤولي الجماعة رفضوا هذا الاقتراح، لأسباب أمنية مرتبطة بقربها من المدينة القديمة، ذلك أن ذكريات الهجوم على الملاح القديم سنة 1911 كانت لا تزال عالقة بأذهانهم²، لذلك لم يكن الآباء مستعدين نهائيا للمغامرة بإرسال أبنائهم خارج أسوار الملاح³، الأمر الذي يوضح أن يهود المدينة كانوا ما زالوا يعيشون تحت سطوة الخوف من الانفلاتات الأمنية التي تقع خارج أسوار حيهم بالرغم من حضور الفرنسيين بالمدينة بعد توقيع الحماية.

ومن أجل إيجاد حل بديل فكر مدير المدرسة ألبير مويال في الحصول على بقعة أرضية فارغة داخل الملاح، كانت ملكيتها مشتركة بين الأملاك المخزنية والحمي الإيطالي المدعو أبراهام أوحنا، لذلك سارع إلى إحاطة قائد الفرق العسكرية الفرنسية بالمدينة علما بالموضوع الذي شجعه للمضي قدما في حيازة هذه البقعة، لكنه نبهه قائلا: "لا تعول كثيرا على كرم المخزن في أمر حيازة نصيبه مجانا، وإذا كنت تنوي شراءها فإن الوقت مناسب للقيام بذلك، لأن السلطان (يقصد المولى عبد الحفيظ) فقد كل سلطاته تقريبا، وكل هم الآن هو بيع ممتلكاته من أجل جمع المال"⁴، بعد أن وقع على معاهدة الحماية، و"تفاوض" حول قيمة التعويضات مقابل التنحي عن العرش مهدوء⁵. إن تحركات مويال لم تأت بأي نتيجة بسبب التعقيدات البيروقراطية، وبسبب تجدد النزاع بين المخزن الذي كان يملك ثلاثة أرباع البقعة والحمي الإيطالي أبراهام أوحنا الذي كان يملك الربع، لأن المخزن ادعى أن نصيب هذا الأخير لا

¹J. Tolédano, *Le temps du Mellah...*, op. cit, p. 162-163.

²J. Tolédano, *Portrait ...*, op. cit, p. 185-186.

³Ibid, p. 228.

⁴Ibid, p. 228.

⁵"بعد أن وقع السلطان المولى عبد الحفيظ معاهدة الحماية، كان الخطوة الثانية التي قام بها الفرنسيون هي التباحث معه في شأن تفاصيل تنازله عن العرش، خاصة بعدما فقد دعم الشعب له، ولم يكن في موقع قوة يسمح له بالمناورة كثيرا حول شروط تنحيه عن الحكم، لكن رغم ذلك سعى ليوطي إلى أن تمر هذه العملية في هدوء...وبعدما تمت مناقشة قيمة التعويضات المادية التي سيحصل عليها بعد تنازله قررت السلطات الفرنسية أن تمنحه 375000 فرنك، وشيك بقيمة 40000 جنيه إسترليني، وبعد ذلك تنحى عن العرش " لأسباب صحية".

B. Lugan, op. cit, p. 245.

يعطيه حق الملكية، بل حق التصرف فقط. وعندما زار المقيم العام الجنرال ليوطي مدينة مكناس عبر لألبير مويال عن دعمه في مسعاه القاضي ببناء مقر رسمي لمدرسة الرابطة على أن يتكلف هذا الأخير بتسوية المشكلة مع أوحنا، في حين سيتكلف المقيم العام بالباقي¹، لأن أملاك المخزن صارت تحت تصرف إدارة الحماية². وبناء عليه استطاع مويال التوصل إلى تسوية نهائية مع أوحنا بسعر مرتفع، لكن تأخر البت في المشروع لمدة ستة أشهر بسبب دفع الأعيان اليهود إلى تشكيل لجنة كان في عضويتها ياشوا بيرديغو وأبراهام عمار وشلومو مريجن، كما ضمت أيضا مدير مدرسة الرابطة، حيث توجهوا إلى قائد الناحية الكابتان نانسي شهر نونبر من سنة 1913 أملا في إيجاد حل للمشكلة، لكن بيروقراطية إدارة الحماية الفرنسية عطلت إتمام هذا المشروع مرة أخرى، حيث أوقف قائد الناحية أي عمل من شأنه إحداث أي تغيير في الملاح وملحقاته إلى حين تشكيل أول لجنة بلدية بمدينة مكناس وهو ما تم خلال نفس السنة بمقتضى ظهير 14 شعبان الموافق لـ 19 يوليوز، والذي ضم في عضويته اللجنة اليهودية التي مثلت بعضوين هما يوسف بينحاس كوهن والخاصام ياشوا بيرديغو الذي عوض الحزان ابرهام الويري³. بعد ذلك اعتقد اليهود أن المشكلة قد وجدت طريقها إلى الحل، خاصة وأن قائد الناحية كان قد أبدى دعمه الكبير للمشروع، لكن الصراع بين الإدارات الفرنسية عطل الحل مرة أخرى، لأن المدير الجديد لمصلحة الدومين كان تقديره أنه قد تم تجاهله في هذا الموضوع وتم تجاوز صلاحياته، لذلك اعترض على المشروع بسبب عدم رغبة عائلة أوحنا في التنازل عن حقوقها⁴.

في ظل هذه الصعوبات، كانت نتائج الموسم الدراسي الأول مرضية جداً، حيث تم تسجيل 278 تلميذا منهم 213 من الذكور و65 من الإناث، لكن عدد الإناث ارتفع خلال الموسم الموالي بينما تراجع عدد الذكور إلى 184 بسبب المنافسة التي تسببت فيها مؤسسات التعليم الديني الحديثة التابعة لزييف وولف هالبرين/Zeev Wolf Halperin⁵. وبالرغم من هذا التراجع لم تتوان الجماعة في دعمها المادي، حيث ارتفعت نسبة مساهمتها المادية في ميزانية المدرسة إلى 4739 فرنك في حين كانت مساهمة الرابطة بقيمة 6400 فرنك⁶. هذا التعاون كان دليلا على

¹R. Assaraf, *Eléments* ..., op. cit, p. 225.

²حزب الاستقلال المغرب الأقصى، *مراكش قبل الحماية، عهد الحماية، إفلاس الحماية*، مكتب المستندات والأخبار (الطبعة العربية)، مطبعة دار الطباعة الحديثة، مصر، 1951، ص. 117.

³ ANR, Arrête Viziriel du 12 Décembre 1914 portant nomination des membres de la Commission Municipale de Meknès, Extrait de B.O , 28 Décembre 1914 N°114, p. 185, Dossier non classé non numéroté non daté.

⁴J. Tolédano, *Portrait* ..., op. cit, p. 228-229.

⁵R. Assaraf, *Eléments* ..., op. cit, p. 222.

⁶Ibid, p. 223.

أن التصدع الذي سبق وحصل في التجربة الأولى قد تم تجاوزه، كما أن مدير مدرسة الرابطة مويال الذي كان مقتنعاً جداً بالنتائج التي تحققت بالرغم من امتعاضه الشديد من الظروف التي كان يتلقى فيها التلاميذ دروسهم، قرر القيام بخطوة تصعيديه تمثلت في حيازة تلك البقعة الأرضية وتقويتها فوراً للرابطة ووضع عائلة أوحنا أمام الأمر الواقع، لكن اندلاع الحرب العالمية الأولى سنة 1914، وضعت حداً لهذا النزاع الإداري بسبب اضطرابه الالتحاق بفرنسا شهر أبريل من سنة 1915 لعدة شهور باعتباره مواطناً فرنسياً، وعند عودته وجد بأن المشكلة لم تجد بعد طريقها إلى الحل. وفي سنة 1915 استغل زيارة المقيم العام الجنرال ليوطي للمدينة وناشده إيجاد مخرج مناسب لمشكلة العقار موضوع النزاع، وذلك ما تحقق بالفعل حيث تم إبرام اتفاق جديد مع أوحنا الذي تنازل عن حصته، فشرع مويال في متابعة المشروع وفق المساطر القانونية، حيث تكلف المهندس المعماري للمدينة بتقديم تصميم للمدرسة الجديدة، لكن المشروع سيُرفض مرة أخرى من طرف مصلحة الفنون الجميلة بدعوى أن موقع المدرسة كان قريباً من المعالم التاريخية للمدينة القديمة¹.

في هذا السياق الذي كان يتعثر فيه مشروع الرابطة بمدينة مكناس قام رئيس الرابطة الإسرائيلية العالمية ببعث رسالة مطولة إلى المقيم العام ليوطي حيث كان في زيارة لفرنسا، ليذكره فيها بالوضعية الصعبة التي كانت تعاني منها الأليانس بمدينة مكناس، حيث أحاطه علماً بأنه وقف على تلك المشاكل من خلال رسالتين تلقاها من مويال، وبناء عليه ألح على الجنرال ليوطي بضرورة تدخل سلطات الحماية محلياً من أجل الاستجابة للاحتياجات المالية الضرورية من أجل المساهمة في تشييد مدرسة الرابطة هناك وضمان استمرار عملها، كما طلب منه تفويض تدبير شؤون مدارس الرابطة المالية والإدارية لمصلحة التعليم العمومية. ولم يفته أن "ينبه" المقيم العام إلى أن أي تراجع من قبل سلطات الحماية عن هذه الخطوات سيفهم من قبل السكان على أنه الخطوة الأولى في اتجاه التخلي عن دعم مدارس الأليانس، الأمر الذي من شأنه، إن حدث، أن يلحق ضرراً كبيراً بسمعة الرابطة الإسرائيلية العالمية في نظر الإسرائيليين، وقد يتسبب ذلك في غضون آجال قريبة في تشكل وضعية صعبة لا تطاق، وقد تضمن تنبيهه ما يلي: "نعلم أن نتيجة سيئة كهذه بعيدة عن تفكيرك، بل تتعارض تماماً مع رغباتك"². وفي نفس الإطار، وبالرغم من المساعي التي قام بها حاكم المدينة الجديد بومبيرو / Poeymireau بعد تعيينه في مهمته سنة 1916 من أجل تذليل

¹J. Tolédano, *Le temps du Mellah...*, op. cit, p. 136.

²A.AIU, Paris-Maroc, *IJ 162* (bobin N° 29 copie 1/1 Mai 1999- Microfilme), op, cit.

الصعاب،¹ سيتأخر تشييد وتدشين المركب الدراسي للرابطة بالمدينة إلى سنة 1930 بمحاذاة الملاح الجديد²، بفضل التسهيلات المادية التي قام بها الوكيل التجاري لـ ماص الذي باع للرابطة قطعتين أرضيتين للرابطة بثمان تفضيلي، مكنها من بناء مدرستين واحدة للذكور وأخرى للإناث، وقد تم تدشينها بحضور المقيم العام لوسيان سان والرئيس الجديد للطائفة دافيد بنعاروش. وفي إطار توفير الملحقات الضرورية للمركب الدراسي الحديث تكلفت مجموعة من الأعيان اليهود ببناء مؤسسة اجتماعية بجانب المدرسة كانت مهمتها توفير وجبات غذائية دافئة للأطفال المعوزين، بالإضافة إلى منحهم الكتب والأدوات المدرسية مرتين في السنة، وقد ترأس هذه المؤسسة الخيرية بينحاس مريجن³.

أما التحدي الثاني الذي كاد يعصف بتجربة مدرسة الرابطة منذ انطلاق الموسم الدراسي الأول فهو المبادرة التي أشرف عليها الحاخام زيف وولف هالبرين -ذي الأصول الروسية- بعدما حل بالمدينة بتاريخ 8 نونبر من سنة 1912. لقد سعى هذا الوافد الجديد إلى تحديث التعليم الديني العالي عبر مؤسسة الياشفات من أجل تحقيق التوازن مع التعليم العلماني الذي كانت تقدمه مدارس الأليانس⁴، وكذا تنزيل البرنامج الرسولي الذي كلف به⁵. وهكذا فبعدما رتب أموره بالمدينة، طلب من مردخاي بن عمار أن يسهل له الاجتماع بطلبة التعليم الديني التلمودي، لكي يخبرهم بعزمه خلق تعليم ديني عالي بالياشفات يهدف إلى دراسة التلموذ كل ليلة. وقد استقبل بحفاوة كبيرة من قبل الحاخام يوسف مساس الذي كان هواه أقرب إلى التعليم الديني منه إلى التعليم العصري⁶. هذا الوافد الجديد الذي كان يمتلك موهبة كبيرة في كيفية تدبير العلاقات العامة، إذ استطاع في وقت وجيز تحقيق اختراقات مهمة جدا في صفوف يهود المدينة*، حيث لاحظ مدير مدرسة الرابطة عند انطلاق الموسم الدراسي لسنة 1913 تراجع عدد طلبات التسجيل بمدرسته خاصة في صفوف الذكور، لأن الآباء المحافظين رأوا في التعليم الذي تقدمه مؤسسة زيف

¹J. Tolédano, *Portrait ...*, op. cit, p. 229.

²R. Assaraf, *Éléments...*, op. cit, p. 227.

³J. Tolédano, *Portrait ...*, op. cit, p. 232.

⁴Raphael Devico, *Juifs du Maroc des racines ou des ailes*, Ed Biblieurope, 2015, p.72.

⁵تميز الحاخام Zeev Halperin بكونه أحد أعضاء التيار الأورثوذكسي في اليهودية الأشكنازية المعادي للصهيونية، التي كانت لحدود تلك اللحظة تجهل عالم اليهود السفريدين. وقد جاءت مبادرته في إطار عزم يهود أوربا الأشكناز الاهتمام بأوضاع اليهود السفريدين / الشرقيين، لعدة أسباب منها: إعادة تجديد يهودية هؤلاء أو بالأحرى إعادة تهويد هؤلاء من جديد، لأنهم كانوا يعتقدون بأنهم صاروا جهلة ويعيشون في عالم الخرافة، ويسبؤون تأويل القبالة أي المعتقدات التي ظنوا أنها صارت تختزل من قبلهم في بعدها الطقوسي. كما ساد الاعتقاد لدى المبعوثين الأشكناز بأن اليهود الشرقيين مجرد قاعدة ديموغرافية يجب على الأرثوذكسية الأشكنازية أن تخترقها بعدد من المبعوثين/ الرسل، من أجل التخفيف من حدة التيه والضياع الذي يمكن أن يكونوا قد تعرضوا له بسبب الدعاية الصهيونية أو البوذية أو الإيديولوجيا الثورية أو التيارات الإصلاحية الاستيعابية. لقد كان هدفهم هو حماية اليهودية، وفي هذا الإطار قام هذا الحاخام بزيارة مدينة مكناس، حيث قدم إليها كرسول للطوائف التي كانوا يعتقدون بأنها تعاني من الفراغ الروحي".

R. Assaraf, *Éléments...*, op. cit, p. 213-232.

⁶J. Tolédano, *Portrait*, op. cit, p. 119.

*سنحدث عنها بالتفصيل في الجزء الخاص بالتعليم الديني.

هالبرين يتسق أكثر مع عوائدهم وثقافتهم الدينية مقارنة مع تعليم الرابطة، وفي هذا الصدد نورد شهادة لـ مويال يقول فيها: "عدد التلاميذ في انخفاض، ليس لأن عددهم قليل، ولكن لأن عدد الذين يغادرون لا يعوض، والسبب يعود إلى المنافسة التي تمارسها مؤسسة التلموذ تورا التي أسست خلال العتلة الماضية تحت اسم Gan hayéladim ، والتي يدرس بها تعليم يهودي بطريقة يزعم أنها جديدة، أدخلت الحماس لساكنة جاهلة يسهل إغراؤها، والمسؤول عن هذه الدعاية هو الحاخام زيف هالبرين البولوني الأصل، الذي تسبب بمؤامراته في تصعيد التعصب، لذلك أفكر في الطريقة التي ستمكنني من القضاء على هذا المنافس الجديد، ولا أشك في تحقيق ذلك"¹ وإدراكا من مدير مدرسة الرابطة للمنافسة الجديدة التي بات يشكلها مشروع زيف هالبرين، سارع إلى تشكيل لجنة لدعم مدرسته، وحرص على أن تضم في عضويتها بعض الحاخامات، وقد تمكن من إقناع رئيس المحكمة العبرية الحاخام ياشوا بيرديغو بترأسها خاصة وأنه كان يحظى بتقدير كبير من قبل أعضاء الجماعة اليهودية². هذا الدعم كان نابعا من إدراك النخب اليهودية المحلية للمنافع التي بدأت تتحقق للجماعات اليهودية بفضل أطر مدارس الرابطة³. أما مويال فلم يدّخر من جهته، باعتباره مواطنا فرنسيا، أي جهد في تأليب السلطات الفرنسية ضد هالبرين، خاصة وأن هذه الأخيرة كانت تتقاسم معه نفس العداء لليهود أوروبا الشرقية الذين لم يكونوا يؤمنون بفضائل الاندماج وقيم الثورة الفرنسية، ولا يدون أي اعتراض على الإيديولوجية الصهيونية والأفكار الثورية، وكان ينظر إليهم بعين الريبة ويشك في كونهم مجرد جواسيس للقوى الكبرى كألمانيا⁴. وبناء على هذه القناعة كان مدير مدرسة الرابطة ينظر لزيف هالبرين بوصفه مجرد عميل للخارج من شأن تحركاته المشبوهة أن تسيء لسمعة المغاربة اليهود وسط الفرنسيين⁵.

لقد كان مويال مدركا بعض النقائص التي كانت تشوب تدريس مادتي العبرية والدين بمدرسة الرابطة والتي تركت نوعا من الفراغ عرف منافسه كيف يستغله لصالحه، حيث عبر عن ذلك بشأن المعلمين المكلفين بهذه المواد قائلا: "يقومون بما يستطيعون من أجل نيل رضاي، لكنهم يطبقون بشكل سيء الإصلاحات التي حاولت إدخالها

¹J. Tolédano, *Portrait ...*, op. cit, p. 203.

²R. Assaraf, *Eléments...*, op. cit, p. 222.

³لم تكن الوظائف التعليمية لتمنع أطر الأليانس- انطلاقا من باريس وفي عين المكان- من ممارسة مأموريات متعددة وربط اتصالات مباشرة جعلتهم نافذين داخل أوساط اتخاذ القرار ومؤهلين للتعبير عن مواقف سياسية واجتماعية بغرض "انتزاع" أكبر عدد ممكن من الحقوق والضمانات والامتيازات، وهي أمور نصبتهم حماة دائمين للجماعات اليهودية ومحاورين ذوي مصداقية للإدارة الاستعمارية. لقد دأبوا على الدفاع عن بني ملتهم ضد كل إجراء اعتبروه مجحفاً، وقدموا لإصلاحات ارتأوها لازمة للرفع من مستوى عيش اليهود. ودفعت هذه الوظيفة بالذات بالنخب اليهودية المحلية إلى التعامل مع الأليانس بالرغم من الطابع العلماني للتعليم في مؤسساتها، وقلصت من مقاومة الربيين والعناصر التقليدية التي في بداية الأمر ولمدة طويلة أعربت عن استياءها من الحيز الضيق الذي أولته الأليانس لتعليم اللغة العبرية والتعاليم الدينية في برامجها". محمد حاتمي، الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية ورهان المغرب المستقل...، مرجع سابق، ص. 95.

⁴R. Assaraf, *Eléments...*, op. cit, p. 233.

⁵Ibid, p. 234.

على مستوى المناهج، مما أدى إلى تراجع المستوى لدى التلاميذ وامتعض الآباء الذين كانوا يشتكون من هذا الضعف، وأجدي مضطرا لإغماض عيني في سبيل استمرار الروتين¹. وتجدد الإشارة، في علاقة بالموضوع، إلى أن الأليانس لم تكن تولي كبير الأهمية والعناية لتعليم اللغة العربية والتعاليم الدينية اليهودية الأساسية، مع العلم أن أغلب التلاميذ كانوا ينحدرون من عائلات تقليدية كانت حريصة جدا على مقوماتها الدينية. هذا المعطى لم تأخذه مدارس الأليانس بالجدية اللازمة قبل الحرب العالمية الثانية، حيث اكتفت قبل هذه المرحلة بتخصيص ساعة ونصف أسبوعيا فقط لتدريس تلك المواد، وتم ذلك في إطار حصص هامشية غير إجبارية، كان يقوم بتدريسها في الغالب حاخامات يتلقون روايتهم من مجلس الجماعة. وقد اعتبرت الأليانس تلك الحصص على قلتها "تنازلا" من طرفها من أجل كسب دعم الفئات المتوسطة والفقيرة قصد "تعميم التعليم على جميع الفئات اليهودية"². يتضح مما سبق أن مسؤولي الرابطة قد وجدوا صعوبة في دفع يهود المغرب بشكل عام إلى التطبيع مع التعليم العلماني عبر إحداث القطيعة مع الموروث الديني الذي كانت له سطوة قوية في صفوف الجماعة اليهودية، وإلى حدود سنة 1915م كانت الرابطة مدركة للصعوبات التي كانت لا تزال تواجهها بالمغرب والتي لحصها حينها مدير مدرسة الرابطة في رسالة موجهة إلى المقيم العام الجنرال ليوطي فيما يلي:

- ✓ استمرار معارضة الحاخامات الذين كانوا يخشون أن تمس امتيازاتهم.
- ✓ ارتياب الآباء الذين كانوا يرون في أي تعليم غير تعليم العبرية تهديد لإيمان أبنائهم.
- ✓ سوء النية من قبل جزء من الجسم القنصلي الذي لم يكن ينظر بعين الرضى للفوائد المباشرة التي ستجنيها فرنسا من هذا التعليم.
- ✓ العداء وسوء النية المعلن من قبل الموظفين المغاربة.
- ✓ معارضة بعض الأصوات من داخل الرابطة، خاصة بعض الشركاء ببعض الدول المجاورة التي كانت تريد تعطيل عمل الرابطة بدعوى أن هذه الأخيرة تعطي لهذا التعليم نزعة فرنسية بشكل كبير³.

هذا المعطى سبق أن عانت منه أيضا النخب العلمانية بأوروبا الوسطى، عندما حاولت ترسيخ قيم الأنوار والحدثة داخل إخوانهم في الدين المسيحيين خلال القرن التاسع عشر⁴. وسعيا من مدير مدرسة الرابطة إلى تجاوز

¹J. Tolédano, *Portrait ...*, op. cit, p.204.

²محمد حاتمي، الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية وهران المغرب المستقل...، مرجع سابق، ص. 100.

³A.AIU, Paris-Maroc, *IJ 162* (bobin N° 29 copie 1/1 Mai 1999- Microfilme), op.cit.

⁴"الاهتمام بالتعليم العصري اصطدم بعقبات عديدة، كان أصعبها على الإطلاق موقف الكنيسة المهيمن والرافض للتعليم العلماني، فهل كان يمكن للكنيسة أن تقبل بتعليم لا يجد ضرورة في تذكر وجود الله وخوارقه؟ لكم المسألة كانت في واقع الأمر أكثر تعقيدا، فلقد شكلت المدرسة حلبة الصراع

هذا المشكل وفي نفس الوقت تطوير النجاحات التي كان يحققها زيف هالبرين، لم يتردد الرجل في استثمار علاقاته الشخصية الجيدة مع حاخامات المدينة من أجل التوصل إلى اتفاق معهم لخصه قوله، وهو يخاطبهم: "ستقرون على الأقل بأهمية التعليم العلماني الذي تقدمه مدرسة الرابطة، ومن جهتي سأترك مؤسساتكم الدينية/ الميذارشيم التي يقضي بها التلاميذ 12 ساعة يوميا. وستسمحون لي بأن أختار من بين هؤلاء الأطفال العناصر التي أرى أنها مؤهلة لمتابعة دراستها بمدرستي، وسنقوم بتقسيم الزمن المدرسي إلى شطرين، في الصباحة سيلتحقون بي من الساعة التاسعة إلى الساعة الثانية عشر، أما فيما تبقى من الوقت سيلتحقون بالحلقات التربوية للحاخامات، واعدكم بأن أكون ضمن لجنتم كي أراقب معها مؤسسات الميذارشيم"¹.

هذه المحاولة آلت بالفشل لأن أعيان المدينة وحاخاماتها لم يكن بمقدورهم مواجهة زيف هالبرين بالنظر للحظوة التي كان يحظى بها في صفوفهم. غير أن مويال لم يستسلم، حيث توجه إلى رئيس المصالح البلدية الكابتان نانسي من أجل محاصرة الوافد الجديد، وقد تكلفت مساعيه بإصدار المسؤول الفرنسي لقرار تم بموجبه حصر حق فتح ومراقبة مؤسسات التعليم العالي اليهودي/ الياشفات في مسؤولي الطائفة فقط، كما تمكن من حق الحصول على حق الفيتو/ الاعتراض فيما يخص القبول من عدمه داخل مؤسسة الياشفات، من خلال وضع الآباء أمام خيارين متلازمين، أي أن الآباء الذين يعارضون التعليم العلماني للرابطة لن يكون بإمكانهم تسجيل أبنائهم بالمؤسسات التقليدية، ولن يتبقى لهم خيار آخر غير الاحتفاظ بأبنائهم لديهم، وقد تم ذلك بالتنسيق مع اللجنة المشرفة على مؤسسات الميذارشيم². إن إصرار ممثل الرابطة محليا، مويال على مواجهة هذه الصعاب هو ما كانت تؤكد عليه اللجنة المركزية بباريس، بحيث كانت توصي أطرها بالاستماتة في أداء مهمتهم الرئسولية تجاه إخوانهم في الدين خطوة خطوة حتى يستفيدوا من "شعاع" الحضارة والفكر الفرنسيين³.

لقد أدى اندلاع الحرب العالمية الأولى سنة 1914 كبح المشروع الذي تعب من أجله كثيرا الحاخام زيف هالبرين، لأن هذا الأخير اعتبرته سلطات الحماية أحد رعايا الإمبراطورية العثمانية، وبناء عليه اعتبر في عداد الأعداء

الأساسية التي كان يدور حولها الصراع بين أنماط التفكير التقليدية وموروثات الماضي وبين الطبقات الحاكمة التي تتأرجح بي " فكرة التطور الضروري وغريزة النظام"، وهي جزء من صراع سبق لعصر الأنوار " العمود الفقري للحضارة الغربية" أن افتتحته ليصل إلى ذروته سنة 1785 حاملا شعار الجراءة في استعمال العقل". سلمان قعفراني، أزمة الانتماء اليهودي...، مرجع سابق، ص. 43-44.

¹J. Tolédano, *Portrait ...*, op. cit, p. 204.

²Ibid, p. 204-205.

³A.AIU, Paris-Maroc, *IJ 162* (bobin N° 29 copie 1/1 Mai 1999- Microfilme), op.cit.

ومبحوثا عنه من طرف الشرطة، ولكي يتجنب القبض عليه قرر الهرب لمنطقة الحماية الإسبانية حيث استقر بمدينة العرائش، في هذا الصدد قام مويال بمراسلة مسؤولي الرابطة بباريس يوضح لهم الصعوبات التي استمرت حتى بعد رحيله بسبب الأثر الذي تركه في صفوف الشبيبة اليهودية قائلا: "الموسم الدراسي الذي انتهى 1915/1914 كان صعبا جدا بالنسبة لموظفي المدرسة وللمدير بشكل خاص فيما يتعلق بمقاومة الأفكار الرجعية لدى يهود مكناس التي لم تتوقف، بسبب التعصب الذي بث في نفوسهم نتيجة للدعاية التي قام بها في صفوفهم المدعو زيف هالبرين، ذلك أن الموسم الدراسي المشار إليه عرف نزيفا حادا فيما يخص عدد التلاميذ المسجلين بمدرسة الرابطة بسبب المنافسة الشديدة للمدارس الدينية التي أحدثها هذا الأخير. لكنني لم أقف مكتوف الأيدي، إذ حاربت به بشراسة، وفي صفوف الفئة التي كان يستهدفها، وأقصد إخواننا في الدين، وقمت بالتبليغ عنه وفضح مخططاته للكاتبان نانسي، الذي كان سيطرده في الوقت الذي هرب فيه إلى مدينة العرائش"¹.

وبالرغم من هذه الصعوبات التي تسبب زيف هالبرين بالنسبة لمدرسة الرابطة، إلا أن العمل القصير الذي قام به أفرز أعراضاً جانبيةً إيجابيةً من ناحية أخرى، تمثلت في إحداث ثورة في المناهج البيداغوجية للتعليم الديني بالميدراشيم، وهذا التطور حظي بالثناء من قبل مدير مدرسة الرابطة مويال، -دون أن يتفق معه فيما يتعلق بباقي الأهداف التي كان يسعى إليها- حيث اعترف بأن منافسه كان رجل علم من مستوى راق جدا²، كما أن مبادرته القاضية بإدماج المرأة في رعاية التعليم الديني خلفت آثارا إيجابية جدا، ذلك أن عددا من النساء بكل من مدن مكناس وصفرو وفاس قد أسسن تحت رعايته وتوجيهاته جمعية سميت بـ "أم الأطفال" استطاعت تحقيق نتائج مميزة خاصة بمدينة مكناس³.

¹R. Assaraf, *Eléments...*, op. cit, p. 237-238.

²J. Tolédano, *Portrait ...*, op. cit, p. 236.

³R. Devico, *Juif du Maroc des racines ou des ailes...*, op. cit, p. 72-73.

صورة رقم 07: تلاميذ مدرسة الرابطة بمكناس، سنة 1919



L'école de l'Alliance définitivement adoptée. Une classe en 1919 : Au milieu du premier rang, Shalom Messas ; le futur Grand Rabbin du Maroc. Au second rang troisième à droite ; Abraham Tolédano. Au troisième rang ; troisième A gauche ; Prosper Cohen ; futur instituteur.

Source : J. Tolédano, *Portrait...*op, cit, p. 227.

يمكن القول إن استماتة كل الداعمين لتجربة مدرسة الرابطة بالمدينة في تذليل الصعاب ومواجهة التحديات المتعددة قد أعطت ثمارها الأولى سنة 1915، حيث تخرج أول فوج ضم خمسة عشر مرشحا منهم 6 يهود و6 أوريين و3 مسلمين¹، كما أن المرشحين اجتازوا امتحان التخرج بنجاح، وكان من بينهم المدعو ميمون مريجن الذي استطاع الحصول على ميزة حسن جدا، مما دفع مدير المدرسة إلى الاستعانة به كمدرس متدرب بمدرسة الرابطة²، ولم يخف مويال تفاؤله الكبير بهذا "النجاح" قياسا بالتحديات التي واجهته³، ذلك أن ما حققته الرابطة بمدينة مكناس إلى حدود هذه السنة لم يبلغ ما بلغته مدارسها بمدن الشمال. في هذا الصدد يقول رئيس الرابطة، في رسالة موجهة إلى المقيم العام الجنرال ليوطي يقيم فيها ما تحقق بمدينة مكناس: «لم يستطيعوا سوى تحقيق الشق السلبي من برنامجهم، حيث استطاعوا إسكات المعارضين وتبديد ارتياهم وتحفظهم، وفرض تأثيرهم وبث الثقة. لكن مع ذلك، فالعمل التربوي ما زال في بدايته، وبالكاد بدأ يتفهم من قبل العائلات. وفي ظل الأمن والهدوء الذي تحقق بفضل عملياتك العسكرية وسياستك بمختلف نواحي البلاد عملنا قد يحقق أفضل النتائج»⁴.

إن منافسة التعليم الديني بشكل عام، والصعوبات التي واجهتها الرابطة بمكناس من أجل دفع يهود المدينة إلى التطبيع مع التعليم العصري، لم تكن هي المشاكل الوحيدة التي كانت تعرق السير العادي للمدرسة الجديدة. نشير في هذا الصدد إلى أن المدرسين الذين كان يتم تعيينهم من خارج المغرب للتدريس بمدرسة الرابطة بمدينة مكناس كانوا يعانون من عدد من الصعوبات التي كانت تعيق قيامهم بعملهم في أفضل الظروف، وأولها المشاكل المادية التي كانت موضوع العديد من المراسلات بينهم وبين اللجنة المركزية للرابطة بباريس، حيث كان يتم تعيينهم من دون صرف أجورهم لعدة شهور، ومن دون الاستفادة من أي تسبيق مادي يمكنهم من مواجهة إكراهات الاستقرار على مستوى السكن⁵، والمصاريف المرافقة للحياة اليومية والتي كانت مرتفعة قياسا بالأجرة التي كانوا يحصلون عليها،

¹J. Tolédano, *Le temps du Mellah...*, op. cit, p. 190.

²R. Assaraf, *Eléments...*, op. cit, p. 223.

³«لقد عبر مدير مدرسة الرابطة عن ذلك قائلا : " اغتتم كل الفرص المتاحة لأذكر الإسرائيليين أن خلاصهم لن يتحقق إلا على أيديهم، عندما يرتقون بمستواهم الفكري والمعنوي الذي يعد الأدنى بالمغرب كله. فكلما اقترب تعليمهم وتربيتهم من درجة تحضر أسياهم الجدد، كلما تم تقديرهم واحترامهم، وهذا الأمر يعد بمثابة قانون اجتماعي تأكد على المستوى العالمي. هذه الأفكار أصبحت تبدو تافهة من كثرة ترديدها لأنها حقيقية، ولكن مع ذلك هناك صعوبة في استيعابها من قبل العقول الكناسية المغلقة بالتفكير الديني المتحمس والتطرف العنيد. قال لي الحاخام الكبير يعقوب طوليدانو، وهو رجل علم وذو عقلية متفتحة: "كلامك من ذهب، ولا يوجد أصم أكثر من الذي لا يريد سماع هذا الكلام". وأضاف: " سوف يردون عليك، وهم على خطأ، واتفق أن الحضور المدرسي لا يستقيم مع التعليم الديني، لكني أرى أن كلا التعليمين على صواب : المدرسة العصرية تقدم لنا المكاسب والمنافع المادية، بينما التعليم الديني يفتح لنا أبواب السماء. لكن مقابل ذلك الكل لا زال يرى بأنه ليس هناك توافق بين التعليمين، لكن الاعتقاد في هذا التناقض سيبتدد مع مرور الوقت. وإننا نشاهد كيف أن الأجيال التي تتلمذت على أيديكم جد متفوقة على الآخرين، ومتحررة من هذه المخاوف، دون أن تتخلى عن تقواها. علاوة على ذلك لا تخف لأن التحولات الجارية ستكون لصالحك، لأنها ستؤدي إلى تغيير هذه الأفكار الحالية، وعملية الاعتراض ستكون من دون جدوى، كما أن التلاميذ سيزهرون وفق رغباتك".

J. Tolédano, *Portrait ...*, op. cit, p. 206.

⁴A.AIU, Paris-Maroc, **IJ 162** (bobin N° 29 copie 1/1 Mai 1999- Microfilme), op.cit.

⁵A.AIU, **XXXI E 514**, Lettre de Almaleh Bentzion, au président de l'AIU, à Paris, Meknès, 16/11/1932.

والتي كانت تتراوح ما بين 300 و 350 فرنك فقط خلال مرحلة العشرينات، والحل الوحيد الذي كان متاحا أمامهم لتدبير أمورهم هو الاقتراض. وفيما يلي نموذج من مضامين الرسائل التي كان يتم بعثها إلى باريس:

"سيدي إنني بمكناس منذ 15 يوما، غير أنني ولم استقر بعد، السيد بيباس انتقل إلى مدينة الدار البيضاء للالتحاق بمنصبه الجديد، فبقيت بعد مغادرته وحيدا بهذه المدينة بدون رفيق... وبدون نقود، أما المدرسة فلا تتوفر على أي شيء باستثناء خزانة وطاولة صغيرة. لقد طلبت قرضا من مدير مدرسة الرابطة بفاس لكن السيد تاراجان أجنبي بأنه لا يستطيع أن يمنح لي سلفة دون موافقة باريس. في خضم هذه الأحداث تلقيت رسالة من السيد شماس* يقول فيها إنه كتب إلى الأنسة جرجير يطلب منها أن تغادر في أول باخرة قادمة، وقد مضى أسبوع لحد الآن والمدرسة لم تصل بعد. كنت أنتظر أن تطلع على ظروفي حتى أستطيع أن أطلب منها نقودا لشراء ما هو ضروري من الأثاث كتسبيق من شهريتي. هذا الانتظار الطويل دفعني لأكتب لك شخصا. لقد أخبرني السيد بيباس أنني لن أتقاضى سوى مبلغا شهريا يتراوح ما بين 300 أو 350 فرنكا أو أكثر، هذا المبلغ لا يكفي، نظرا لغلاء المعيشة بمكناس. لقد بحث جاهداً ولم أعثر على إيواء مناسب بثمن أقل من 400 أو 450 فرنكا للشهر. أخبرك بأوضاعي وأنتظر جوابا على رسالتي بسرعة وذلك لصعوبة أحوالي. وأنت تعلم، ولا شك، أنني الشخص الوحيد، من الرابطة، المتواجد بالمدرسة حاليا.¹

وفي رسالة أخرى إلى اللجنة المركزية استمر مدرسو الرابطة في وصف واقعهم وتفاصيل أسعار احتياجاتهم

الأساسية:

"الآنسة جيرجير، لقد وصلت إلى المدينة الباردة مساء، وبما أننا هنا أفكر في الاستقرار أنا كذلك. وكما سبق وأحطتكم علما في رسالتي السابقة فإن المدرسة لا تتوفر على أي شيء، لذلك احتاج من أجل تجهيز غرفتي إلى التجهيزات الأساسية، ولقد ذهبت إلى السوق وحصلت على معلومات من عند تاجر بخصوص أسعار بعض السلع، وهي كالآتي: سرير مصنوع من الحديد يساوي 150

*مندوب الرابطة بالمغرب خلال هذه المرحلة.

¹A. AIU, XXXI E 513, Lettre de Adjman au président de l'AIU, à Paris, Meknès, 15/11/1924.

فرنكا، والفرش والوسادة يساويان 200 فرنكا، اللحاف يساوي 100 فرنكا، غطاء للسرير يساوي 100 فرنك، وستائر الغرفة تساوي 50 فرنك، طاولة من أجل العمل تساوي 50 فرنكا، طاولة ليلية صغيرة للاستعمال الشخصي تساوي 30 فرنكا، وعاء للمرحاض والإبريق والدلو بثمن 75 فرنكا. وأحيطك علما أي قضيت عند وصولي إلى مكناس 4 أيام بالنزل بما قيمته 12 فرنكا للغرفة، 13 فرنكا للوجبة في اليوم. أديت أيضا ثمن التنقل من الدار البيضاء إلى مكناس ما مقداره 40 فرنكا و10 فرنكات من أجل أمتعتي. ومقابل كل هذه المصاريف لم أتلق من السيد سماش إلا مبلغ 100 فرنك، وحاليا أنا من دون نقود، وأنتظر¹.

وبناء عليه كان المدرسون يطلبون من المسؤولين بباريس أن تتم تغطية هذه المصاريف بالإضافة إلى الزيادة في رواتبهم لتغطية المصاريف العادية كتلك المتعلقة بشراء الملابس والأحذية التي كان سعرها مرتفعا بالمدن الداخلية لأنها مستوردة من الخارج، أضف إلى ذلك استحضار عدم قدرتهم على مواجهة المصاريف الاستثنائية كالأفراض، لأن ما كانوا يتقاضونه لم يكن يسمح لهم بالادخار. كما كانوا يشتكون من ارتفاع مصاريف السفر خلال العطلة الصيفية في رحلة العودة من مكناس إلى فرنسا بعد انتهاء الموسم الدراسي. وللتغلب ذاتيا على هذا الوضع كانوا يخبرون المسؤولين بباريس بأنه لم يكن من الممكن حتى إعطاء دروس خاصة بعد الانتهاء من الحصص الدراسية الرسمية، لأن عدد التلاميذ الذين يمكن أن يستفيدوا من ذلك غير موجودين بمدينة صغيرة كمكناس حينها². كما كان يحدث أحيانا أن يبعث المدرسون برسائل إلى الرابطة بباريس يطلبون منها أن تتدارك الأخطاء التي وقعت فيها فيما يتعلق بصرف التعويضات المادية بأقل من المبالغ التي كانوا يستحقونها³، وهو الأمر الذي كانت تستجيب له السلطات المركزية بباريس بعد مدة معينة⁴. من جهة أخرى كان بعض الأساتذة يعانون من صعوبات التأقلم مع مناخ المدينة القاري بسبب أمراضهم، أو بسبب عدم القدرة على الانسجام مع الواقع الاجتماعي لمكناس، كما هو الشأن بالنسبة للمدرس المدعو المالح بن زيون، والذي وجد صعوبة كبيرة في التأقلم رغم مرور ثلاث سنوات على تعيينه، وقد جاء في إحدى رسائله إلى اللجنة المركزية: "...لي الشرف أن أذكركم أنني أعمل منذ ثلاثة أعوام بمكناس، وهي مدينة

¹A.IU, XXXI E 513, Lettre de Adjman au président de l'AIU à Paris, Meknès, 18/11/1924; A.AIU, XXXI E 514, Lettre de Almaleh Bentzion, au président de l'AIU à Paris, Meknès, 25/10/1932.

²A.AIU, XXXI E 513, Lettre de Adjman au président de l'AIU à Paris, Meknès, 06/11/1924.

³A.AIU, XXXI E 513, Lettre de Adjman au président de l'AIU à Paris, Meknès, 24/10/1925.

⁴ A.AIU, XXXI E 513, Lettre du président de l'AIU à pris, au Adjman, Meknès, 05/04/1925. ; A.AIU, XXXI E 514, Lettre de Almaleh Bentzion, au président de l'AIU à Paris, Meknès, 28/11/1932.

صممت بطريقة سيئة، كما أنه يصعب الالتحاق بالمدينة الجديدة التي نجد فيها بعض الاهتمامات الثقافية، لأنها تبعد بثلاثة كيلومترات عن المدرسة، ذلك أن الذهاب إلى هناك صعب خاصة خلال فصل الخريف بسبب البرد وتساقط الأمطار. لذلك نحن مرغمون على العيش بالملاح أو بالحي المحلي وهو وسط لا يساعد على تنمية قدراتنا الفكرية. وبعد أن حرمت لثلاث سنوات من الإيجابيات التي يتيحها لي السكن بالمدن الكبرى، أرجو أن تفضلوا بمنحي وظيفة بمدينة الدار البيضاء...¹*. هذه الصعوبات وغيرها صعبت عليهم عملية الاندماج ودفعتهم إلى طلب الانتقال نحو الجهات التي كانت تبدو لهم مناسبة أكثر وتستجيب نسبياً لطموحاتهم².

يتضح من خلال هذه النماذج أن حرصَ الرابطة في عملية اختيار أطرها بناء على الكفاءة الشخصية وحس الخدمة والتطوع، لم يكن ليحول دون اصطدام هؤلاء بواقع منطقة شمال إفريقيا المختلف على مستوى العقلية والوسط الاجتماعي والجو العام، الأمر الذي كان يعيق تقديمهم منتجاً جيداً، لذلك ارتأت الرابطة إرسال أفضل التلاميذ بهذه البلدان لتلقي التكوين بفرنسا، ثم العودة لبلدانهم الأصلية لتولي مهنة التدريس من أجل تفادي المشاكل الناتجة عن عدم القدرة على الاندماج³.

إن الصعوبات والتحديات التي واجهتها الرابطة بمكناس خلال المرحلة السابقة فيما يتعلق بالموقف السلبي من التعليم العصري تراجعت بشكل كبير مع مطلع الثلاثينات، بفضل تضافر جهود أطر الأليانس وجهود جمعية قدماء التلاميذ والمجتمع الأهلي اليهودي محلياً، حيث أصبحت الأسر اليهودية تتهافت من أجل تسجيل أبنائها بالمدرسة العصرية، بالنظر لآفاق المهنية والاجتماعية التي أصبح هذا النوع من التعليم يتيحها⁴، دون أن يفتر حماسها في ضمان تعليم ديني جيد لهم بفضل التطورات التي حصلت في هذا الأخير. وبناء عليه صارت الرابطة ابتداء من هذه المرحلة "ضحية" النجاح الذي تحقق بمدينة مكناس، بسبب ضعف الطاقة الاستيعابية للمدرسة وعجزها عن الاستجابة لكل طلبات التسجيل في بداية كل موسم دراسي، وهو نفس الأمر الذي كان يتكرر بالمدن المغربية

¹A.AIU, XXXI E 514, Lettre de Almaleh Bentzion, au président de l'Aiu à Paris, Meknès, 25/10/1932.

*التحق مدرساً بمكناس للعمل بها سنة 1932م وطلب الانتقال منها إلى الدار البيضاء سنة 1935.

² A.AIU, XXXI E 513, Lettre de Adjman au président de l'Aiu à Paris, Meknès, 05/06/1925.

³A. Chouraqui, L'A.I.U et la renaissance..., op. cit, p. 175.

⁴إن التآكل السريع للقاعدة المادية لليهود من جهة وتوظيف العناصر المكونة من بينهم في مدارس الرابطة الإسرائيلية العالمية وفي مختلف المصالح التجارية والإدارية من جهة أخرى، جعل تـمدرس الأطفال يبدو في أعينهم بمثابة الوسيلة الوحيدة لمعالجة هشاشة أوضاعهم المعيشية، والتشوف إلى أن يصل أبنائهم إلى مرتبة اجتماعية أرقى". محمد كنيبي، يهود المغرب، 1912-1948...، مرجع سابق، ص. 58.

الأخرى¹. وبالرغم من بناء مقر عصري للمدرسة فإن مشكلة الاكتظاظ لم يتم التغلب عليها، حيث تضاعف العدد خلال ربع قرن بشكل كبير بنسبة 500%، إذ انتقل عدد التلاميذ من 278 تلميذا خلال أول موسم دراسي إلى 1500 تلميذا مطلع الثلاثينات². في هذا السياق نورد شهادة معبرة جداً نقلاً عن صحفي فرنسي يصف فيها بدقة ما كان يحدث بمدرسة الرابطة بمكناس عند بداية الموسم الدراسي:

"يجب أن نستمع إلى مدير مدارس الرابطة لشعر باليأس الذي ينتاب اليهود وهم يتابعون أبناءهم يكبرون دون أن يكون باستطاعتهم الالتحاق بالمدرسة: هناك توسلات يومية من أجل تسجيل أطفال جدد." أتذرع بكونهم ما زالوا في سن صغيرة، ولكنهم يحاولون خداعي فيما يتعلق بأعمارهم الحقيقية". "في أحد الأيام انخنت نحو قدمي امرأة تتوسلني، وهي تذرف الدموع، وتشد في شعرها لأنني لم أستطع تسجيل ابنها. قالت مخاطبة إياي: سنوات وأنت تخدعني! أنا أرملة، وأعمل كي أستطيع إدخال هذا الطفل إلى المدرسة، وإذا تقدم بي العمر، سيكون قد فات الأوان، وحينها سيكون ابني جاهلاً!". في مدرسة الإناث تتردد نفس التوسلات: سجل ابنتي! لكنك تعلمين أننا نفتقر إلى أماكن شاغرة! اقبلها! إننا صغيرة لدرجة لن تنتبه إليها، لن تأذيك، ستكتفي بالاستماع فقط!"³.

لقد تردد صدى هذا التحول في الموقف من المدرسة العصرية في الرسائل التي كان أساتذة مدرسة الرابطة يبعثونها إلى اللجنة المركزية بباريس خلال هذه المرحلة:

"لقد كان الشعب اليهودي دائماً يرغب في التعليم، وقد جعله من أولوياته حتى خلال الفترات الصعبة، وكان هم الأسر هو تعليم أكبر نسبة من أطفالها... الإقبال على التعليم العصري كان كبيراً بسبب الطلب المتزايد، لكن عدم قدرة المدارس على استقبال كل التلاميذ أصبح يطرح مشكلة كبيرة، إلى درجة أن الذين لا يسعفهم الحظ كانوا يضطرون إلى التسكع بالشوارع في انتظار أماكن جديدة بمدارس الرابطة. العديد منهم يلتحقون بالمدارس في سن متأخرة. هذا المشكل تطرقت إليه

¹R. Assaraf, *Eléments...*, op. cit, p. 228.

²J. Tolédano, *Portrait ...*, op. cit, p. 232.

³Ibid, p. 427.

الجرائد المغربية كالمستقبل المصور والاتحاد المغربي، وبما أن إدارة الحماية قد رفضت اقتراح هذه الأخيرة القاضي ببناء مدارس جديدة، فقد طرحت اعتماد جدول الحصص النصف اليومية بشكل يسمح للجميع بأخذ الدروس في اللغة الفرنسية. لكن مشكلة هذا الحل هو أن الأطفال سيعانون خلال النصف اليوم الفارغ، بشكل قد يضطرهم إلى الالتحاق بالمدارس الدينية العتيقة التي تعاني من الظلمة وسوء التهوية وتتطلب الجلوس على الأرض، وهذا الأمر من شأنه أن يزعج التلاميذ الذين غادروا لتوهم المقاعد المريحة، كما أن الحاخامات يفتقرون للبيداغوجيا الحديثة ولا سلطة لهم على الأطفال ولا قدرة لهم على إثارة انتباههم أو إغرائهم لحب التعلم... كما أن تسكع الأطفال بالشوارع يمكن أن يؤدي إلى تعلم عادات سيئة يمكن أن تؤثر على أخلاقهم ومستواهم الدراسي، مما سيجعل منهم تلاميذ مشاغبين وعنيدين يكرهون التعليم والعمل...¹

وفق ما جاء في هذه الرسالة، فإن العمل بهذا الحل، أي غياب التفويج من أجل التغلب على مشكلة الاكتظاظ، كانت له عدة سلبيات تمثلت فيما يلي: أولاً: التقليل من الزمن المدرسي بالنسبة للتلاميذ، حيث سيتقلص زمن الحصة إلى 25 دقيقة عوض 45 دقيقة، مما سيحجر الأستاذ على الإسراع في إنجاز واجبه، مع ما سيترتب عن ذلك من نتائج سلبية على عملية الاستيعاب. ثانياً: تدريس 6 مواد خلال ثلاث ساعات فقط، وهو ما يمكن أن يؤدي إلى رسوب التلاميذ الذين قد تمتد مرحلتهم الابتدائية إلى 8 أو 10 سنوات². هذه الحلقة المفرغة في ظل غياب حلول أخرى أدت إلى امتعاض شديد لدى المدرسين الذين أصيبوا بالإحباط، لأنهم كانوا يرون بأن حبيبهم للمهنة ومجهوداتهم تذهب سدى، وقد عبر عن ذلك مدرس مدرسة الرابطة المالح بن زيون قائلاً: "عزيمة أي معلم صبور ستضعف، وسيصيبه ذلك بالقلق لأنه يرى بأن التقدم الذي يطمح للمشاركة فيه غير مُجدٍ. هذا النظام سوف يزيد من صعوبات العمل في الأقسام الكبرى كما أن خطورته تكمن في تقديم تعليم أخلاقي خاطئ للأطفال، مما سيجعل التعليم الأولي من دون قيمة."³ أمام هذا الاكتظاظ كانت مدرسة الرابطة تجد نفسها مضطرة إلى رفض عدد كبير من التلاميذ، بل كانت في بداية كل موسم دراسي مضطرة إلى الاستعانة بالشرطة لفك الحصار المضروب

¹ A.AIU, XXXI E 514, Lettre de Almaleh Bentzion au président de l'AIU à Paris, Meknès, 18/12/1933.

² ibid.

³ Ibid.

حول إدارة المدير من طرف الآباء، في الوقت الذي كان فيه نظراؤهم المسلمون ما زالوا ينفرون من التعليم العصري¹ لأسباب متعددة²، حيث اندهش المفتشون الفرنسيون المكلفون بمراقبة التعليم الإسرائيلي بالمغرب للحماس الكبير الذي أولاه اليهود للعملية التعليمية، حيث كان الدخول إلى المدرسة العصرية بالنسبة لأغلبية المسلمين عملية مقيتة وغير مفهومة، أما بالنسبة لليهود فقد كان الأمر يعد خطأ غير منتظر³. أما النخب اليهودية من جهتها فلم تتردد في تسليط الضوء على هذا المشكل، عبر الصحافة في المستقبل المصور، من خلال عدد المقالات التي عبرت فيها عن مدى امتعاضها من عدم بذل سلطات الحماية المجهودات الكافية من أجل ضمان تدرس كل أبناء اليهود في ظروف جيدة، كما عبرت عن عدم استحسانها الصيغة التي اعتمدتها سلطات الحماية فيما يتعلق ببناء المدارس الفرنسية الإسرائيلية بعد مغادرة المقيم العام الجنرال ليوطي للمغرب، لأنها لم تكن تستجيب في تقديرها لطموحاتهم في ضمان التعليم الجيد لأبنائهم⁴.

وفي إطار الاهتمام البالغ الذي كانت توليه جمعيات قدماء التلاميذ لمشكلة الاكتظاظ، قامت جمعيات قدماء تلاميذ مدارس الرابطة بعقد اجتماع بتاريخ 30 مارس من سنة 1937 للتداول في ثلاث قضايا تهم هذا الموضوع: مشكلة قلة الأقسام، وكيفية تدبير الزمن المدرسي، وقضية تدريس اللغة العبرية. لقد نددوا في هذا اللقاء بالاكتظاظ الشديد الذي استمر بمدارس الرابطة التي كانت تضم خلال هذه المرحلة، عددا يفوق ثلاث مرات نظراءهم بالمدارس العمومية الفرنسية (المدارس الإسرائيلية-الفرنسية التي كانت تقدم تعليمًا مجانيًا)، الأمر الذي كان يرغم التلاميذ على قضاء ثلاثة أعوام في السنة الأولى، وإذا كان التلميذ نبيها يقضي سنتين في هذا المستوى بالنظر للظروف المحيطة بالعملية التربوية، مع ما يرافق ذلك من معاناة بسبب الاكتظاظ، وهو ما كان يفوت الفرصة على التلاميذ غير المحظوظين الذين كانوا يضطرون لانتظار تلك المدة كلها خارج المدرسة⁵.

¹J. Tolédano, *Portrait ...*, op. cit, p.232.

²"وإذا كان هذا يرجع، بالدرجة الأولى، إلى تخطيط رجال الحماية فهو يعود كذلك إلى مقاطعة الشعب المغربي للمدارس التي أنشأتها فرنسا بالمغرب. لقد كان جل التلاميذ لا يتمكنون من إنهاء السلك الذين ينتمون إليه بل يطردون أو ينقطعون دون مستوى الشهادة الابتدائية، مما جعل الآباء يدركون أنه لا فائدة في إرسال أبنائهم إلى المدارس ما داموا سيغادرونها بعد حين دون الحصول على أية مؤهلات تضمن لهم وضعية أفضل عندما يلجون الحياة العملية، أضف إلى ذلك أن مصيرهم بعد التعليم، إذا ما تعلموا، كان حتما العمل مع سلطات الحماية، إما في الإدارة أو في المؤسسات الاقتصادية الفرنسية، الشيء الذي كان يؤهلهم لأن يصبحوا متعاونين بشكل أو بآخر مع الحماية الفرنسية، مما يعد خيانة وطنية. من هنا إعراض جماهير الشعب المغربي عن إرسال أبنائهم إلى المدارس الفرنسية". محمد عابد الجابري، *التعليم في المغرب العربي دراسة تحليلية نقدية لسياسة التعليم في المغرب وتونس والجزائر*، توزيع المركز الثقافي العربي، طبع بدار النشر المغربية الدار البيضاء، 1989، ص25.

³D. Bensimon-Donath, *Evolution du Judaïsme Marocain...*, op. cit, p. 28.

⁴J. Ohayon, «L'école inaccessible», in AI, N° 249, 10 Spt, 1936, p.p. 4-12.

⁵J. Ohayon, «La Crise Scolaire», in AI, N° 259, 31 Mars, 1937, p. 4.

أمام استمرار رفض سلطات الحماية تقديم الدعم المالي الكافي لإيجاد حل نهائي لهذا المشكل، وعجز الجماعة اليهودية من جهتها عن إيجاد حلول مالية، انتهى اجتماع قدماء تلاميذ الرابطة إلى اقتراح الحلول الآتية: اعتماد التفويج بين فوج يدرس صباحاً وآخر زوالاً، الأمر الذي سيمكن التلاميذ من ربح نصف يوم فارغ يتيح لهم الالتحاق بمؤسسات التعليم الديني: "الحدر" و"الياشفات"، من أجل تعلم اللغة العبرية (عدد الحصص الأسبوعية كان 30 حصّة مقسمة على خمسة أيام، بمعدل 6 ساعات في اليوم، أي 3 حصص صباحاً و3 حصص زوالاً). هذا الاقتراح كان يتطلب الرفع من عدد العاملين، مما سمح للمدرسين، أيضاً، بالاستفادة من نصف يوم فارغ سيمكنهم من تحسين مستواهم الثقافي وتحضير دروسهم بشكل متقن. وقد تم التذكير بأنه قد سبق لمدارس الرابطة أن عملت بهذا النظام بألمانيا وأنه حقق نتائج جيدة، وسبق أيضاً اعتماده خلال السنوات الأولى بمدارس الرابطة بالمغرب وأبان عن فعاليته، ولينجز المطلوب منه يحتاج فقط مضاعفة الإداريين والمديرين، واعتماد نظام المدرستين داخل مؤسسة واحدة لكن باسمين مختلفين¹.

أما المشكلة التي واجهت هذا الاقتراح فهي نفسها التي تحدث عنها سابقاً المالح بن زيون، أي الخوف من الأعراض السلبية لنصف اليوم الفارغ على التلاميذ. لكن تقدير أنصار هذا الحل (التفويج) كان هو أن إيجابيات ذهاب الأطفال إلى المدرسة بدوام جزئي وتلقي المعارف والتربية الصحية والأخلاقية أفضل بكثير من عدم ذهابهم بشكل مطلق، خاصة وأن فوائد التربية الصحية جسمانياً ومعنويات كانت أولوية لدى مدارس الرابطة لا تقل قيمة عن تعلم المعارف. كما نبه أصحاب هذا الاقتراح إلى أن برمجة تدريس بعض المواد بالهواء الطلق سيمكن من اقتصاد المكان والزمن مثل الجمباز، أضف إلى ذلك أن مادة الرسم والموسيقى والغناء كان يمكن تلقيها بالقاعة الكبيرة التي كانت تستعمل أيضاً كمطعم، وقد كان هؤلاء متأكدين من موافقة سلطات الحماية بما أنها لن تتحمل كلفة هذا الحل². كل الحلول التي تم اقتراحها للتغلب على مشكلة الهدر المدرسي - إلى حدود نهاية الثلاثينات - والناتج عن الاكتظاظ لم تجد طريقها إلى التنزيل الميداني، بسبب غياب الإمكانيات المادية واللوجيستكية والبشرية اللازمة، لذلك ازداد المشكل استفحالاً مما كان يؤدي في كل دخول مدرسي إلى نشوب التوتر بين "الأهالي" اليهود وإدارة المدرسة، وعلى سبيل المثال نورد فيما يلي شهادة لأحد أولياء الأمور يدعى إيلي بيطن/Elie Bitton جاءت في رسالة

¹Ibid, p. 5.

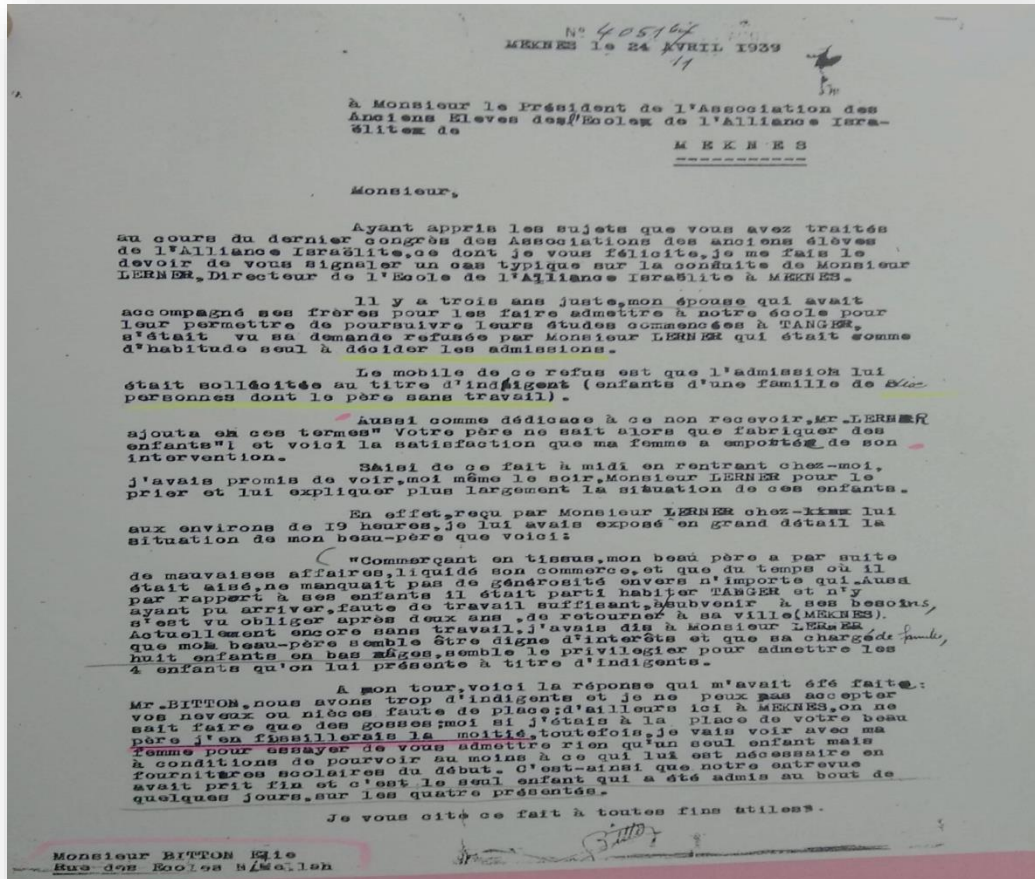
²Ibid, p. 5.

بعثها إلى رئيس جمعية قدماء تلاميذ الرابطة بمكناس يصف فيها هذا الوضع، حيث يستنكر التوبيخ الشديد الذي تعرض له من قبل مدير مدرسة الرابطة السيد لورنر/Lernre سنة 1939، لأنه كان يلح على تسجيل أطفال أحد أقربائه من دون دفع رسوم التسجيل بأنه كان عاطلا عن العمل. وفيما يلي نص الجواب الذي تلقاه من مدير المدرسة:

"السيد بيطون، لدينا الكثير من المعوزين، ولا يمكنني أن أقبل أبناء صهرك، لأنه ليس لدينا أماكن مقاعد شاغرة، ثم إن الأزواج هنا بمدينة مكناس لا يصنعون شيئا عدا إنجاب الأطفال. لو كنت مكان أب زوجتك لقممت على الفور بإطلاق الرصاص على نصف الأطفال. على كل حال سأتباحث مع زوجي في أمر قبول طفل واحد فقط بشرط أن نستطيع تمكينه من اللوازم المدرسية الضرورية في البداية. المساعي التي قمنا بها لا تثمر غير تسجيل طفل واحد أيما بعد ذلك من ضمن أربعة أطفال.¹

¹A.AIU, **XXXI E 511**, Lettre de Bitton Elie à au Président de L'Association des Anciens Élèves des écoles de l'AIU, Archives, Association des Anciens Élèves des écoles de l' AIU, Meknès, 1929 et 1939.

صورة رقم 08: نموذج رسالة



Lettre de Bitton Elie à au Président de L' Association des Anciens Élèves des écoles de l' AIU, Archives, Association des Anciens Élèves des écoles de l' AIU, Meknès, 1929 et 1939.

Source : A. AIU

وفي الوقت الذي كان يتطلع فيه اليهود إلى تحقيق مكاسب أكبر في القطاعات الاجتماعية، أهمها التعليم، اندلعت الحرب العالمية الثانية، وانهارت فرنسا تحت ضربات الجيوش الألمانية، حيث اختار المقيم العام الجنرال نوجيس الالتزام بما أسماه "المشروعية" مقررًا الاعتراف بالنظام الجديد بفرنسا تحت سلطة المارشال بيتان الموالي لسلطة الاحتلال الألمانية/النازية¹. إن انحياز المقيم العام نوجيس لنظام فيشي العنصري في إطار التزام المغرب كغيره من المستعمرات الفرنسية باتفاقية الهدنة الفرنسية-الألمانية فيما بين يونيو 1940 ونونبر 1942، أدى إلى تهديد مكتسبات المغاربة اليهود في مجال التعليم، ما دام المغرب قد أصبح امتدادا لما يحدث بفرنسا². وفي ظل هذا الوضع صدر ظهير شريف

¹ محمد كنيبي "نظام فيشي و« فرسا الحرة » والحركة الوطنية المغربية، 1940-1944"، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، العدد 20، الرباط، 1995، ص. 133.

² روبرت أصراف، محمد الخامس واليهود المغاربة...، مرجع سابق، ص. 166.

يتعلق بتحديد كيفية تنزيل قوانين فيشي العنصرية ضد اليهود في المنطقة الفرنسية من المغرب بناء على القانون الفرنسي المؤرخ في 3 أكتوبر 1940 المتعلق بوضعية اليهود¹. تسعة أشهر بعد ذلك ونتيجة للضغط الألماني تم تصعيد القوانين المعادية لليهود من طرف نظام فيشي، فتم تعويض قانون 3 أكتوبر بقانون 2 يونيو الذي بدأ سريانه بالمغرب بمقتضى ظهير 5 غشت 1941². وقد تمت تكملة هذه الظهائر بقرارات تنفيذية بتاريخ 19 غشت 1941 و 16 شتنبر من نفس السنة³.

تضمنت التشريعات العنصرية التي طبقت بالمغرب مجموعة من الإجراءات التي أثارت الهلع في صفوف المغاربة اليهود، وكان من بينها ما يتعلق بقطاع التعليم، وقبل أن تقرر الحماية الفرنسية تنزيل تلك القرارات كانت هناك مشاورات بين المسؤولين في الإدارة حول الطريقة الأمثل لفرضها، وكان من بين الاقتراحات خلق المزيد من المدارس الفرنسية الإسرائيلية وإخضاعها للمراقبة من طرف مديرية التعليم العمومي، حتى لا تتحول تلك المؤسسات إلى مراكز للمقاومة ضد الحكومة والوطن (فرنسا)، والعمل على الحد من عدد اليهود الذين يمكن أن يحصلوا على شهادة البكالوريا في التعليم الثانوي التأهيلي أو يلجئون لمؤسسات التعليم العالي. كما أن قرار إدارة الحماية ألا تتجاوز نسبة التلاميذ اليهود بالمؤسسات الابتدائية الأوربية نسبة 10 بالمائة، تفاديا لحصول اكتظاظ كبير جدا بمؤسسات الرابطة التي كانت ستعجز عن استقبال المطرودين، وهذا الأمر أثار مخاوف لدى المسؤولين الفرنسيين، لأن ترك عدد كبير من التلاميذ اليهود من دون تعليم كان سيؤدي في نظرهم إلى تشكل بروتيتاريا أمية يمكن أن تتسبب لاحقا في العديد من المشاكل، لذلك أوصى المسؤولون الفرنسيون الذين طرحوا اقتراحاتهم، في هذا الصدد، بضرورة فتح مدارس فرنسية إسرائيلية حسب الحاجة، مع إخضاعها للمراقبة من طرف مديرية التعليم العمومي، لأن الإمكانيات المادية المحدودة للرابطة لم تكن تسمح لها بخلق المزيد من المؤسسات التابعة لها، لاسيما وأنها كانت عاجزة حتى عن تحسين الوضع المادي لموظفيها الذين كانوا لا يزالون يتقاضون أجور بئيسة، وبناء عليه كان هناك اقتراح آخر يقضي أن تقوم سلطات الحماية بتقديم الدعم المالي للرابطة، كي تتمكن من خلق المزيد من المدارس، وتحسين أدوار أطرها، في الآن

¹ANR, Secrétariat Général du Protectorat, Service de Législation, Objet: «Dahir à l'application au Maroc de la Loi du 3 Octobre 1940 portant Statut des Juifs», BO, N° 1463, 08/11/1940, Carton N°: D 432.

²ANR, Secrétariat Général du Protectorat, Service de Législation, Objet: «Dahir à l'application au Maroc de la Loi du 2 Juin 1941 portant Statut des Juifs», BO, N°1502, 08/08/1941, Carton N°: D 432.

³D. Bensimon-Donath, *Evolution du Judaïsme Marocain...*, op. cit, p. 109.

نفسه، كما كان هناك اقتراح آخر أوصى بالسماح بالمزيد من خلق الدروس التكميلية ما بعد الابتدائية¹ من دون الدعاية لها على نطاق واسع، من أجل تمكينهم من الحصول على تأهيل دراسي يسمح لهم بالحصول على المهن الصغيرة التي كان اليهود المغاربة يبحثون عنها. أما فيما يتعلق بالتعليم الثانوي التأهيلي فقد تقرر أيضا ألا تتجاوز نسبة التلاميذ اليهود بمؤسسات التعليم الأوربية 10 بالمائة في كل مؤسسة، لكن مقابل ذلك تم طرح اقتراح بديلين: أولهما أن تتكفل سلطات الحماية بخلق دروس خاصة للمستوى الثانوي لصالح اليهود تحت مراقبة مديرية التعليم العمومي. وثانيهما السماح للرابطة أو لبعض الأشخاص المؤهلين المرخص لهم من طرف الإدارة بخلق مؤسسات جديدة للتعليم الابتدائي أو خلق مؤسسة أو مؤسستين ثانويتين لليهود، مما كان سيسمح لمديرية التعليم العمومية بتعزيز مراقبتها للمؤسسات الخاصة اليهودية². وبعدما نظرت السلطات الفرنسية المختصة في هذه الاقتراحات قامت بصياغة مذكرة سرية وجهتها إلى أصحاب القرار في شأن هذا الموضوع أوصت من خلالها بما يلي:

- الالتزام بالنسب التي تقررت -أي الكوطا- في ولوج أبناء اليهود إلى المؤسسات التعليمية الأوربية في كلا التعليمين الابتدائي والثانوي (نسبة 10 بالمائة) من أجل الحد من عدد اليهود الحاصلين على الشواهد الدراسية، حتى يكون هناك توازن بينهم وبين المسلمين والأوربيين في فرص الشغل القليلة بالمغرب، انسجاما مع رؤية المقيم العام نوجيس الذي كان معجبا بالسياسة الأهلية لمهندسها المقيم العام الأول بالمغرب الجنرال ليوطي³.

- رفض تقديم أي شكل من أشكال الدعم للتعليم الخاص اليهودي، شأنه في ذلك شأن التعليم الأوربي والإسلامي.

- منع الاختلاط داخل الأقسام بين الأطفال اليهود والفرنسيين.

- الحرص على إحداث التوازن بين العنصر اليهودي والإسلامي بالمغرب⁴.

¹تأخر إحداث هذه الدروس بمدرسة الرابطة بمدينة مكناس إلى سنة 1953 والتي كانت تسمح بتحصيل شهادة B.E.P.C / شهادة الدروس الابتدائية العليا (شهادة البروفي الابتدائية).

J. Tolédano, *Le Temps du Mellah...*, op. cit, p. 197. ; «la politique Scolaire», in AI, 6ème Année , N° 149, 18/04/1931, p. 2.

²ANR, Lettre du Secrétaire Générale du Protectorat, au Président du Comité Provincial de la Légion du Maroc, Objet: Organisation de l'enseignement Israélite au Maroc, Carton N°A 1046.

³في الوقت الذي كانت فيه النخب اليهودية المتنورة ترى في المدرسة وسيلة متميزة لتحقيق الرقي الاجتماعي/الاقتصادي، حصرت الإقامة العامة في عهد ليوطي دور التعليم في "إعادة التربية الأخلاقية" و "إدخال الأزرق والوردي في ملاحات تكن تعرف سوى لون الذهب". فمن منظور مديرية التعليم العمومي، ورئيسها جورج هاردي، الذي عهد إليه في وقت لاحق بتسيير جامعة الجزائر، وهو المؤيد المتحمس لقوانين فيشي العنصرية ما بين 1940 و1941، كان هدف الإدارة الفرنسية يتمثل في - حد تعبيره- في تجنب "التحول السريع للفراشة الخارجة من النعفة السوداء السوداء إلى حشرة مؤدية ومزعجة". محمد كنيبي، *يهود المغرب، 1912-1948*...، مرجع سابق، ص. 308.

⁴ ANR, Note sur de l'enseignement Israélite au Maroc, Carton N° A 1046.

إن أثر هذه الظواهر كان محدوداً جداً على يهود مدينة مكناس فيما يتعلق بالتعليم الابتدائي، لأن كل التلاميذ تقريباً كانوا يتابعون تعليمهم بمدرسة الرابطة¹ بالمقارنة مع المدن الأخرى²، خاصة وأن سلطات الحماية خلال مرحلة فيشي كانت قد قررت عدم إحداث أي تغيير في مدارس الأليانس³، ومن ثم استطاعوا تجاوز هذه المحنة في قطاع التعليم بأقل الخسائر⁴، بل أكثر من ذلك، استمرت إدارة الحماية في تزويدها، بالدعم المادي خلال سنوات الحرب العالمية الثانية بشكل تصاعدي⁵، بشكل حافظ على المكتسبات فقط، لأن اندلاع الحرب العالمية الثانية عطل الإقبال المتصاعد على التعليم العصري الذي تحقق ما بين 1912 و1939⁶، بعدما أدركت كل الأسر اليهودية أن هذا النوع من التعليم يعد الأمل الوحيد الذي كان بإمكانه أن يسمح بالتقدم الاجتماعي للفرد بشكل يمكنه من التخلص من واقع التهميش والفقر داخل محيطه، وفي نفس الوقت مساعدة عائلته⁷. وفي محاولة لتجاوز الأزمة التي تسببت فيها الحرب طالب ممثلو المغاربة اليهود خلال المؤتمر العالمي لليهود، الذي انعقد بأطلانتك سيتي سنة 1944، من سلطات الحماية أن تبذل جهودها لتجاوز هذا الوضع، لأن حوالي 18000 تلميذ يهودي كانوا محرومين من التعليم حينها بمجموع البلاد واضطروا إلى إتمام مساهمهم الدراسي بمؤسسات التعليم الديني⁸ مقابل تدرس حوالي 17000 تلميذ يهودي بمدارس الرابطة و3000 بالمدارس الفرنسية الإسرائيلية بمجموع بلغت نسبته حوالي 55%، وتم ضمان التعليم المجاني لجميع الأطفال اليهود في جميع المستويات¹⁰، مع قبول كل الأطفال اليهود بالمدارس الفرنسية من دون شروط، أو على الأقل بخلق المزيد من المؤسسات الفرنسية الإسرائيلية¹¹.

¹J. Tolédano, *Portrait ...*, op. cit, p. 260.

²J. Tolédano, *Le Temps du Mellah...*, op. cit, p. 197.

³ ANR, Lettre du Conseiller du Gouvernement Chérifien au Secrétaire Général du Protectorat, Objet : A/S Enseignement Israélite au Maroc. Carton N° D 432.

⁴"استغل اليهود بكيفية منهجية، كل الإمكانيات المتاحة لهم لاجتياز هذه المحنة بأقل الأضرار، محاولين العيش في الظل وعدم لفت الأنظار إليهم مع شعورهم بالارتياح بالنظر إلى الإجراءات التمييزية المتعلقة بالتعليم، التي لم تشمل إلا عدداً محدوداً من أطفالهم، ويرجع السبب في ذلك إلى أن السواد الأعظم منهم كانوا ممتدرسين في مؤسسات الرابطة الإسرائيلية العالمية، أما العناصر التي كانت تنتمي للأقلية الضئيلة من المتجنسين، المتضررين من جراء إلغاء مرسوم كريمو (7 أكتوبر 1944)، فقد حاولوا البحث عن وسيلة تمكنهم من الحفاظ على وضعيتهم كمواطنين فرنسيين، وعمل البعض منهم على إبراز "الخدمات المتقدمة" من طرف عائلاتهم لفرنسا قبل 1912 بينما طالب آخرون بالتمتع بالاستثناءات المنصوص عليها لفائدة "الفرنسيين الذين ولدوا فوق أرض فرنسية من أبوين أجنبيين". محمد كنيبي، *يهود المغرب، 1912-1948...*، مرجع سابق، ص. 223.

⁵محمد حاتمي، *الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية وهران المغرب المستقل...*، مرجع سابق، ص. 72.

⁶Maurice Eisembeth, *Les juifs au Maroc*, Ed I.M.P Charras, Alger, 1948, p. 95.

⁷روبير أصراف، *محمد الخامس واليهود المغاربة...*، مرجع سابق، ص. 95.

⁸P. Cohen, *Congrès Juif Mondial*, op. cit, p. 188-189.

⁹Etienne Goidan (Contrôleur Civil au Maroc), *Le Sionisme au Maroc, Contribution à l'étude du Judaïsme Marocain*, Rabat, Janvier 1946, p. 58.

¹⁰D. Bensimon-Donath, *Evolution du Judaïsme Marocain...*, op. cit, p. 112.

¹¹M. Nouvel, «L'évolution du judaïsme Marocain» ..., op. cit, p. 21.

بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية مباشرة، ظلت نسبة تدرس اليهود بالتعليم العصري بمدينة مكناس ضعيفة مقارنة مع عدد الذين كانوا خارج المدرسة، والذين قدر عدد هم بـ 900 تلميذ بسبب استمرار ظاهرة الاكتظاظ، حيث لم يتجاوز عدد التلاميذ بمدرسة الرابطة 900 تلميذا، منهم 420 من الذكور، و480 من الإناث¹. لكن سنوات قليلة بعد ذلك سيشهد عدد التلاميذ ارتفاعا ملحوظا، بحيث وصل إلى 1700 تلميذا عام 1948م، بنسبة 65 بالمائة². وخلال الموسم الدراسي 1951/1950 سيحقق التعليم الابتدائي بالمدينة قفزة كبرى بعدما تم تشييد فضاء مدرسي جديد في مدرسة الذكور، ضم 14 قسما، ومثله بالنسبة لمدرسة الإناث، وبذلك أصبح التعليم في متناول الجميع، وساهم في اختفاء مظاهر الإقصاء التي ميزت الفترة السابقة، مما شكل امتيازا بالمدينة لم يكن متاحا غيرها، الأمر الذي أدى إلى ارتفاع كبير في عدد الفتيات المتمدرسات، حيث انتقل الرقم إلى 1304 تلميذة، مقابل نسبة أقل في صفوف الذكور بلغت 1055 تلميذا، لأن عددا منهم كان ما زال يتابع تعليمه بمؤسسة التلموذ تورا³.

وبالمجمل، فخلال الدخول المدرسي لموسم 1951 استطاعت مدينة مكناس أن تتجاوز التأخر الذي كانت تعاني منه بالمقارنة مع المدن الأخرى، بل أكثر من ذلك أصبحت نسبة التعليم بمدارس الرابطة لدى الجماعة اليهودية بمكناس هي الأعلى بالمغرب قياسا لعدد السكان، حيث بلغ عدد المتمدرسين بما في ذلك التعليم المهني خلال هذا الموسم 2384 لسكان يهودية قدرت بحوالي 14000 نسمة، بمعدل متمدرس واحد بالنسبة لكل 6 نسمة، بينما بلغ المعدل بمدينة فاس متعلم واحد لكل 8 نسمة، ومتمدرس بالنسبة لـ 9.5 نسمة بالرباط، و متمدرس لكل 11 بمراكش، مع استحضار أن تلاميذ مدينتي فاس والرباط كان بإمكانهم الالتحاق بالمدارس الأوربية، لأن الطاقة الاستيعابية بالمستوى الابتدائي بماتين المدينتين كانت أكبر من مثيلاتها بمكناس⁴. هذه النجاحات تحققت أيضا بفضل الدعم المالي الكبير الذي أصبحت تقدمه سلطات الحماية للأليانس بعد الحرب، حيث تكفلت بتحمل 80 بالمائة من مصاريفها⁵.

إن الإمكانيات التي كانت متاحة أمام التلاميذ اليهود للالتحاق بمدارس التعليم الابتدائي الأوربية بالمدينة كانت محدودة وتحكمت فيها تقديرات السلطات الفرنسية في ظل غياب قانون يسمح للتلاميذ المغاربة بمتابعة

¹J. Tolédano, *Portrait ...*, op. cit, p. 320.

²J. Tolédano, *Le temps du Mellah...*, op. cit, p. 195.

³J. Tolédano, *Portrait ...*, op. cit, p. 320.

⁴Ibid, p. 320-321.

⁵J. Tolédano, *Le temps du Mellah*, op. cit, p. 195.

دراستهم بالمؤسسات الأوربية¹، في سياق حرص إدارة الحماية على ألا يتلقى التلاميذ اليهود تعليما مشابها للذي يتلقاه التلاميذ الأوروبيون². لكن مع ذلك كان يتم السماح استثناء بقبول بعض التلاميذ اليهود داخل المؤسسات الابتدائية الأوربية بمدينة مكناس لاعتبارات خاصة، حيث تم قبول طلب إيلي بيردوغو Elie Berdugo بتسجيل ابنه بالمدرسة الأوربية الواقعة بشارع الجمهورية باعتباره رئيسا للطائفة الإسرائيلية بالمدينة، ناهيك عن أنه كان يقطن بالمدينة الأوربية³. لكن سلطات الحماية في شخص ممثل الشؤون السياسية نبه في إحدى المذكرات إلى أن هذا الاستثناء المسنود إلى مبرر السكن بالمدينة الجديدة يجب أن يظل مجرد استثناء، لأن عددا من يهود المدينة قد يستندون إلى المبرر نفسه، وذلك ما حرصت السلطات الفرنسية على تفاديه بصرامة قبل نهاية الحرب العالمية الثانية⁴، حيث تم رفض العديد من الطلبات لاستنادها إلى مبررات شخصية كانت غير مقنعة للسلطات الفرنسية كما هو الشأن بالنسبة لليهوديين ماري يونت لولو⁵، وأوفاديا مايير⁶. وبعد إلغاء قوانين فيشي سمحت سلطات الحماية بالرفع من سقف قبول التلاميذ اليهود بالمدارس الأوربية كما هو الشأن بالنسبة لليهوديين عمران شراكا ليون الحامل للجنسية الإسبانية وكاباي موريس الحامل للجنسية الانجليزية⁷.

وانطلاقا مما سبق، يتضح أن حرص العائلات اليهودية، على استفادة أبنائها من التعليم العصري داخل مدارس الأليانس - بشكل خاص بحكم طاقتها الاستيعابية بالمقارنة مع المدارس الفرنسية - أصبح هاجسا لديها، لأن تفكك البنية الاقتصادية التقليدية أدى إلى تلاشي أشكال الوساطة القديمة والمهن المرتبطة بها، مقابل ظهور فرص مهنية جديدة داخل اقتصاد الحماية لم يكن من الممكن الحصول عليها إلا عبر نيل حظ من التعليم العصري. من جهة أخرى، لا بد وأن استثمار يهود مكناس في تدشين أقسام جديدة بمدارس الرابطة مطلع الخمسينات يؤكد بأن خيار الهجرة إلى الخارج خاصة فلسطين لم يكن بعد مطروحا بقوة لدى الغالبية، لأن تلك الاستثمارات المكلفة

¹M. Eisembeth, **Les juifs au Maroc**, op. cit, p. 92.

²محمد كنييب، **يهود المغرب 1912-1984**، ...، مرجع سابق، ص. 308.

³ ANR, Lettre N° 6806 M/5 , du Général de Brigade Chef de la région de Meknès, au D.G.I.P, Dossier: Juif du Maroc Carton, N° 633, 31/10/1938.

⁴ ANR, Not du Directeur des Affaires Politique au Résident Général, Dossier: Juif du Maroc, Carton N° 633, 16/03/1939.

⁵ ANR, Lettre N° 0696 CM/5 du Général chef de la Région de Meknès, au D.G.I., 02/12/1939.

⁶ ANR, Lettre N° 0700 CM/2 04/12/1939.

⁷ ANR, Bordereau d'envoi N° 98056 du Général chef de la Région de Meknès, au Directeur des Affaires politique, 14/08/1943.

تعكس بأن خيار "الاستقرار" و"الاندماج" مرحليا كان ما يزال غالبا لدى قطاع عريض من أفراد هذه الجماعة، قبل حدوث التطورات اللاحقة المتسارعة التي أدت إلى الهجرة الجماعية على مراحل*.

■ التعليم الثانوي

كان التعليم الذي كانت تقدمه الأليانس لأبناء اليهود يتوقف عند المستوى الابتدائي، أما التعليم التأهيلي المؤهل للحصول على شهادة البكالوريا، فلم يكن بالإمكان متابعته إلا بالثانويات الفرنسية، أو الهجرة إلى الخارج¹، خاصة وأن سلطات الحماية قبل نهاية الحرب العالمية الثانية لم تكن تنظر بعين الرضا إلى حرص اليهود على الحصول على قسط وافر من الثقافة الفرنسية لتخوفها من تزايد حدة الفروق بينهم وبين المسلمين²، مما قد يتسبب لها في مشاكل هي في غنى عنها³. من هذا المنطلق تشددت سلطات الحماية الفرنسية قبل الحرب العالمية الثانية في رفضها طلبات التلاميذ اليهود متابعة دراستهم بالثانوية الفرنسية بروميرو، رغم أن عددا كبيرا منهم كان يرغب في نيل حظه من هذا التعليم، بل أكثر من ذلك، أوصت بضرورة التشدد حتى فيما يخص السماح لهم بتحضير شهادة الدروس التكميلية، مع العلم أن هذه الأخيرة (الدروس التكميلية) لم يكن لها وجود بمدينة مكناس قبل 1941، لأن الأسر اليهودية استخفت بهذا التعليم الذي لم يكن يُتوج بأي شهادة ذات قيمة معترف بها، لكن بعد ذلك، وفي سياق تنزيل قوانين فيشي في قطاع التعليم عبرت سلطات الحماية عن استعدادها لفتح أقسام للدروس التكميلية لاستقبال المطرودين والمفوضين بالثانوية الفرنسية⁴، بعدما تم طرد العشرات منهم تطبيقا لتلك القوانين التي حصرت نسبة اليهود في التعليم الثانوي في 10 بالمائة بمعدل لا يجب أن يتجاوز تلميذين في كل قسم. غير أن بعض الأساتذة بالثانوية الفرنسية بوميرو من بينهم السيد Habchet Rousseau، تطوعوا خلال هذه الفترة العصيبة من أجل الاستمرار في تقديم دروس المستوى الثانوي للتلاميذ اليهود المطرودين في بيوتهم حتى يتمكنوا من اجتياز امتحانات

* وهو ما سنتطرق إليه، بالتفصيل، خلال الفصل الأخير من هذه الأطروحة.

¹D. Bensimon-Donath, *L'évolution du Judaïsme Marocain...*, op. cit, p. 28.

²ميكائيل أفيتبول، شالوم بر، يعقوب برناي، يوسف طوبي، *اليهود في البلدان الإسلامية، 1850-1950*، ترجمة جمال الرفاعي، تحرير صموئيل إيتنجر، عالم المعرفة، العدد 197، الكويت، 1995، ص. 393.

³"لقد حصرت الإقامة العامة خصوصا في عهد المقيم العام الجنرال ليوطي مهندس السياسة الأهلية دور التعليم (تعليم الأهالي) في إعادة التربية الأخلاقية" و "إدخال الأزرق والوردي في ملاحظات لم تكن تعرف سوى لون الذهب"... كان هدف الإدارة الفرنسية هو تجنب "التحول السريع للفراسة الخارجة من النغمة السوداء إلى حشرة مؤذية ومزعجة". ثم جاء لوسيان سان، مخطط السياسة البربرية، لينبه من جهته إلى أن "أحد أشد الأخطار جسامة والتي سوف تعترض فرنسا في طريقها عبر مجموع شمال إفريقيا الجميل، سوف يأتي من الأجيال اليهودية الجديدة... التي تنمو داخلها أفكار الفوضى والاضطراب، وهي أفكار تشكل جوهر الروح السامية". محمد كنيبي، *يهود المغرب، 1912-1948*،... مرجع سابق، ص. 308.

⁴ANR, Note au sujet de l'admission des élèves Israelites dans les établissements secondaires du Maroc, Carton N° 633, 15/02/1941.

الباكولوريا ضمن فئة المرشحين الأحرار. وفي إطار حرص المسؤولين عن التعليم الثانوي بالمدينة من أجل إقصاء أكبر عدد ممكن من المترشحين للحصول على الباكلوريا، أعطيت تعليمات للأساتذة الفرنسيين من أجل ترسيب أكبر عدد ممكن منهم¹. لكن رغم ذلك كانت تسجل بعض الحالات الاستثنائية قبل الحرب العالمية الثانية طبقا لتقديرات سلطات الحماية، حيث تم قبول تسجيل بعض أبناء الأعيان اليهود كما هو الشأن بالنسبة للابن الأكبر لـ إيلي بيرديغو بمبرر أن في ذلك مصلحة سياسية للسلطات الفرنسية². غير أن سلطات الحماية أصبحت تسمح، بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، بقبول عدد أكبر من التلاميذ اليهود بالثانويات الأوربية³. ومن أجل الرفع من عدد المستفيدين من هذا التعليم، وتدارك النقص الحاصل فيه بسبب الإجراءات المتشددة قبل هذه المرحلة، طالب مؤتمر الطوائف اليهودية الذي انعقد بالرباط سنة 1952 من سلطات الحماية بقبول جميع التلاميذ اليهود بالثانويات الفرنسية من دون شروط، مع تفادي برمجة الامتحانات يوم السبت بسبب التزام اليهود بعيد الشباط⁴، لأن بعض الآباء اليهود المحافظين كانوا يترددون في إرسال أبنائهم للدراسة بالثانويات الأوربية لأسباب دينية، لأن الدراسة بالمؤسسات الفرنسية كانت إجبارية يوم السبت⁵. أما التعليم العالي فلم يكن من الممكن متابعته إلا خارج المغرب خصوصا بفرنسا.

■ التعليم المهني

أمام انسداد الأفق في وجه أبناء اليهود من أجل متابعة تعليمهم الثانوي بالمؤسسات الأوربية، أدركت النخب اليهودية، مبكرا، أن الحل الأمثل، من أجل تحقيق فرص التزقي المهني ومحاربة بعض التصورات المعادية للسامية التي كانت تستهجن اكتفاء اليهود بالتعاطي أكثر للأعمال غير اليدوية بشكل أكبر⁶، نبّه أحد يهود طنجة، وهو حاييم طوليدانوا سنة 1913م بمناسبة انعقاد المؤتمر السنوي لقدماء تلاميذ الرابطة الذي كان يرأسه إخوانه في الدين، إلى ضرورة استغلال الفرص التي أتاحها الاستعمار الفرنسي للمغرب، قائلا: "[...] في سياق التطور الجديد الذي سيعرفه المغرب، سيدخل هذا الأخير مرحلة التصنيع بعد نجاح عمليات التهدة، مما سيؤدي إلى إحداث مجموعة من المؤسسات الصناعية التي ستساهم في ارتفاع الطلب على الأيدي العاملة الموهوبة تقنيا والتمكنة من عدد من

¹J. Tolédano, *Portrait ...*, op. cit, p. 268.

² ANR, Lettre du J. Elie Berdugo, au Général Commandant de la Région de Meknès, carton N° 633, 04/01/1939.

³M. Eisembeth, *Les juifs au Maroc*, op. cit, p. 95.

⁴«Le Congrès des Communauté Israelites», in BIM, Vol VI, 20 janvier 1952.

⁵D. Bensimon-Donath, *L'évolution du Judaïsme Marocain...*, op. cit, p. 32-33.

⁶P. Cohen, *Congres Juif Mondial...*, op. cit, p. 157-158.

الصناعات. وبما أن اليهود يفتقرون للتكوينات المهنية العصرية اللازمة، فإن الطبقة العاملة اليهودية ستتجاوزها فرصة الاستفادة من هذه التطورات [...] وبناء على ذلك أظن، حسب تقديري الشخصي، أنه يتوجب على جمعيتنا ألا تكفي بإحداث مدرسة للتكوين المهني بطنجة، بل يجب التفكير في استفادة جميع الطوائف اليهودية بالمغرب من هذا النوع من التكوين: يجب إحداث دروس مهنية، بالإضافة إلى الحرص على تعلم اللغة العربية، ودراسة الجغرافيا البشرية والسياسية للبلد، ومعرفة مؤهلاته الطبيعية والاقتصادية، وهذا الأمر يجب أن يكون إجباريا [...]»¹.

وقد أعربت الأليانس سنة 1918 في السياق نفسه عن انشغالها مجددا بضرورة تمكين التلاميذ اليهود من التكوين المهني، إذ تقدمت هذه المرة، اللجنة المركزية للرابطة بباريس بالاقتراحين الآتين: أولا، وضع الأطفال الذكور لدى أرباب الأوراش المهنية المؤهلين من اليهود وغير اليهود من أجل تعلم المهنة والاستفادة في الآن نفسه من المقابل المادي. ثانيا، العمل على إحداث ورشة للخياطة، وتصميم الملابس الداخلية، وكوي الثياب بالنسبة للإناث اللواتي أتمن تعليمهن الابتدائي، لتفادي إرسالهن إلى الورشات المهنية مثل الذكور لما ينطوي عليه ذلك من سلبيات من أهمها إمكانية تعرضهن للاستغلال كخادمات، كما تم اقتراح استفادة الإناث من أجرة شهرية².

وعلى هذا الأساس فإن السبيل الوحيد المتاح للانخراط في الحياة المهنية، في ظل التحولات البنوية التي شهدتها المغرب بعد خضوعه للحماية الفرنسية هو هذا النوع من التعليم³. لكن رغم ذلك لم تستطع المؤسسات اليهودية المعنية بهذا الموضوع أن تحقق إنجازات كبيرة في هذا الإطار، كما كان الشأن بالنسبة لمؤسسات التعليم الابتدائي التي كانت تحت إشراف الأليانس، بسبب قلة الإمكانيات المادية وبسبب غياب حماس اليهود تجاه هذا النوع من التعليم الذي قوبل في البدايات بأحكام متصلبة⁴. لذلك طالبت جريدة المستقبل المصور في إحدى مقالاتها سنة 1937 بضرورة برمجة دروس التعليم المهني لإجبار التلاميذ على تلقي هذا التكوين بعد الحصول على الشهادة الابتدائية، في أفق الحصول على دبلوم من شأنه أن يمكنهم من الحصول على مهنة مفيدة وذات مردودية مادية عوض الاكتفاء بالمهن/ الحرف الصغيرة التي كانت تجعلهم يعانون من العوز والاحتياج دائما داخل الملاح بسبب مردوديتها الهزيلة، كما طالبت أيضا ببرمجة دروس التكوين المهني للإناث على غرار ما كان يجري به العمل بمدارس الحماية الفرنسية.

¹P. Cohen, *La Presse Juive éditée au Maroc...*, op. cit, p. 93.

²D. Donath, *L'évolution de la Femme Israelite à Fès*, Faculté des Lettres -Aix-en-Provence, Travaux de Mémoires-XXV, Ed La Pensée Universitaire, 1962, p. 142.

³P. Cohen, *Congrès Juif Mondial...*, op. cit, p. 154-155.

⁴A. Chouraqui, *L'Alliance Israélite Universelle...*, op. cit, p. 143.

وفي سياق استحضار الصعوبات المالية، اقترح أصحاب هذا الاقتراح إحداث ورشات مستقلة ذات تمويل ذاتي، أو إحداث نظام للمنح المهنية¹.

أمام استمرار الصعوبات التي سبق أن أشرنا إليها، لم يتحقق الشيء الكثير في هذا المجال إلى حدود أواسط الأربعينيات من القرن العشرين، بحيث لم يتجاوز عدد المدارس المهنية إلى حدود هذه الفترة أربع مؤسسات بالمغرب، كانت من بينها مدرسة فلاحية بمدينة مراكش، وثانية في قطاع النجارة بمدينة الصويرة، وثالثة بمدينة فاس خاصة بالإناث، أما رابعها فكانت عبارة عن قسم مهني تابع لمدرسة الأليانس بالدار البيضاء، كان مخصصا لتدريب الإناث على الأعمال اليدوية. كل هذه المؤسسات تم إحداثها سنة 1935، وبعد تسع سنوات من إحداثها كانت تستقبل 500 تلميذ، 152 منهم تمكنوا من الحصول على دبلوماتهم بعد ثلاث سنوات من التكوين، و275 منهم استطاعوا الحصول على العمل مباشرة بعد مغادرتهم للمدرسة، وخلال مدة التكوين كانوا يتلقون منحة تمكنهم من الحصول على وجبة الغذاء داخل ورشات التكوين². وبفضل هذه التكوينات استطاعت الأليانس منذ البداية تزويد سوق العمل المغربية بمهنيين متخصصين في مجالات جديدة (التلحيم والمختبرات والميكانيك)³، إدراكا منها للتحويلات التي عرفها سوق الشغل في ظل التحويلات الاقتصادية التي شهدتها المغرب بعد خضوعه للحماية الفرنسية، وقد عد ذلك أمرا إيجابيا في نظر النخب اليهودية التي استوعبت التحويلات التي عرفها سوق الشغل حينها⁴، حيث كانوا حريصين على تمكين الذكور والإناث من الحصول على مهن تمكنهم من ضمان مورد للعيش بسبب البطالة التي كانت منتشرة في صفوف الشبيبة اليهودية بعد تخرجها من المدارس الابتدائية، والتي كانت تجبرها على البحث طويلا عن مناصب عمل كانت في الغالب بسيطة كالاكتفاء بالعمل كمستخدمين بالمحلات التجارية⁵.

وبالرغم من سعي سلطات الحماية والأليانس إلى تعميم هذه المؤسسات المهنية على أوسع نطاق بالمغرب، فقد تأخر إحداث شعبة للتكوين الفلاحي بمدينة مكناس بإحدى الضيعات إلى سنة 1947 كانت تحت إدارة السيد

¹J. ohayon, «La crise scolaire», in Al, op. cit, p. 5-6.

²P. Cohen, *Congrès Juif Mondial...*, op. cit, p. 152-153.

³محمد حاتمي، "التعليم اليهودي في مغرب النصف الأول من القرن العشرين، أدوار الرابطة اليهودية العالمية (الأليانس) والمدارس التلمودية الأمريكية"، وقائع الندوة الوطنية التي نظمها فريق البحث في التاريخ والمجتمع والتواصل، بتاريخ 16 ماي 2010، تنسيق علال ركوك، حفيظة الهاني، رشيد اليشوتي، جامعة محمد الخامس السويسي- الرباط، منشورات المعهد الجامعي للبحث العلمي، 2012، ص. 242.

⁴ابراهيم السرفاتي، "مذكرات ابراهيم السرفاتي"، جريدة الأحداث المغربية، 20 يوليوز، 2000، ص. 4.

⁵P. Cohen, *Congrès Juif Mondial...*, op. cit, p. 154.

Abergel، ضمت 21 تلميذا تراوحت أعمارهم ما بين 15 و 17 سنة¹. أما فيما يخص تشييد مدرسة مهنية بالمدينة فقد تأجل البت فيها حتى مطلع الخمسينات، حيث استغل المسؤولون عن الجماعة زيارة القائد الفرنسي بومبيرو بتاريخ 13 أبريل سنة 1950 ليطالبوه في إحدى جلسات مجلس الجماعة بإحداث مدرسة مهنية فلاحية متكاملة، وبناء عليه توقيع اتفاقية بينه وبين مديرية التعليم العمومي ومجلس الجماعة أدى إلى إحداث هذه المؤسسة خلال نفس السنة ضمت ورشة لتعليم الإناث مهن التدبير المنزلي². وقد تمكنت هذه المدرسة الفلاحية من إثارة اهتمام بعض التلاميذ اليهود، حيث بلغ عدد تلاميذها خلال الموسم الدراسي لسنة 1955م 26 مستفيدا، لكن أغلبيتهم كانوا ينحدرون من الجماعة اليهودية لمدينة صفرو³.

غير أن الجدير بالقول هنا إن مؤسسات التعليم المهني، كما هو الشأن بالنسبة لمدارس الرابطة، أصبحت مجالا للدعاية الصهيونية بقوة بعد الحرب العالمية الثانية بسبب المأساة التي تعرض لها يهود أوروبا، مما ساهم بشكل كبير في تطبيع المغاربة اليهود مع الدعاية الصهيونية⁴، بما في ذلك الاندماجيون بعدما قررت الأليانس بشكل رسمي سنة 1945م الانحياز إلى الصهيونية بتوجيه من رئيسها آنذاك السيد روني كاسان⁵ / René Cassin، وبناء عليه أصبحت الرابطة أكثر اهتماما من ذي قبل بالتعليم المهني الذي أصبح تحت تأثير المنظمات الصهيونية الدولية من قبيل منظمة إعادة الاعتبار بواسطة العمل/ORT (أسست سنة 1880 بروسيا، وتم نقل مقرها إلى برلين سنة 1920 ثم إلى جنيف)، التي أسست أول فرع لها بالمغرب سنة 1945، وجاء ذلك تتويجا لعدد من الاتصالات التي تمت مع تمثيلية المغرب على هامش المؤتمر اليهودي العالمي الذي انعقد بأطلانتيك سيتي سنة 1944 من أجل الإعداد لحضورها بالمغرب بشكل رسمي والتباحث حول تفاصيل أشكال الدعم التي ستقدمها للتعليم المهني⁶.

هذه المنظمة بالتنسيق مع الوكالة اليهودية التي كانت تحت على ضرورة بناء بنيات تعليمية مستقلة عن نظام الأليانس، لم يكن هدفها المساهمة فقط في تمكين الأطفال اليهود من تعلم الحرف العصرية الجديدة والتقنيات الفلاحية

¹J. Tolédano, *Portrait ...*, op. cit, p. 320.

²« Contact... », La Voix des Communauté, N°4 Mai 1950, p. 3.

³« Les Problème de l'enseignement », in VC, op. cit, p. 2.

⁴"ساهمت فداحة المأساة التي حلت بيهود أوروبا، وشهادات الناجين من معسكرات الموت- الذين لجأ بعضهم إلى المغرب مرورا بإسبانيا- والكشف عن وجود أفران حرق الجثث في المعتقلات، بالإضافة إلى أصداء محاكمات نورنبرغ، في الرفع من تقبل ساكنة الملاحات للدعاية الصهيونية، التي لم يعد منشطوها يكتفون بمطالبة ساكنة هذه الأحياء بالمساهمة في " ضريبة الشيكال" بل أصبحوا يحثونها على الالتحاق" بأرض إسرائيل". محمد كنييب، *يهود المغرب 1912-1948...*، مرجع سابق، ص. 256.

⁵E. Goidan, op. cit, p. 65.

⁶P. Cohen, *Congrès Juif Mondial...*, op. cit, p. 116-117.

لتفادي البطالة بالمغرب، بل تحضيرهم أيضا "للرحيل صوب إسرائيل" من أجل تسهيل اندماجهم لاحقا في المستوطنات، وذلك بوضع برامج محفزة تدفع المتعلم للتفكير في ذلك، كما خصصت هذه المنظمة قسما من ميزانيتها لتمويل هجرة التلاميذ المتفوقين¹.

■ التعليم الديني

لقد أولى المغاربة اليهود أهمية خاصة جدا للتعليم الديني، لأن جميع تفاصيل حياتهم اليومية كانت مؤطرة ومرتبطة ارتباطا وثيقا بالأوامر والنواهي الدينية داخل البيت وخارجه، لذلك حرصوا كل الحرص على أن يتلقى أبناؤهم تربية دينية وأخلاقية منذ الطفولة حتى يتعلموا العوائد والقوانين التي يجب عليهم احترامها، خصوصا وأن العادة اليهودية كانت ترى بأن التعليم لا يجب أن يقتصر فقط على النخبة بل واجب على الجميع².

لقد كان جوهر هذا التعليم هو البيعة وعن طريق البيعة ومن أجل البيعة³. وفيما يتعلق بمدينة مكناس التي كان يطلق عليها اليهود لقب القدس الصغيرة⁴، دأبت النخب اليهودية التقليدية بها على إيلاء عناية خاصة للتعليم الديني الذي لم يكن منظما في مجمله⁵، بالنظر للعدد الكبير من البيع التي كانت منتشرة بها والتي كانت تلقى إقبالا كبيرا من طرف جميع الشرائح الاجتماعية ومن مختلف الأعمار، وبالنظر لأنها كانت مستتبنا لإنتاج حاخامات من مستوى عالٍ، حيث كانت مكناس تمثل مركزا روحيا يهوديا نادرا في نظر يهود المغرب.

¹ محمد حاتمي، الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية وهران المغرب المستقل... مرجع سابق، ص. 147.

² J. Tolédano, Portrait d'une Communauté Juive Marocaine, op. cit, p.422.

³ حاخام الزعفراني، يهود الأندلس والمغرب، الجزء الثاني...، مرجع سابق، ص. 384.

⁴ J. Tolédano, Portrait ..., op. cit, p. 321.

⁵ «Le Talmud Torah de Meknès», in BEPM, N° 138, Mars, 1935, p. 102.

صورة رقم 09: تلاميذ يهود داخل يتابعون تعليمهم الديني داخل مؤسسة الحدر



Source : Frank Bensimon, *Juifs du Maroc*...op. cit, p.19.

لذلك انقسم هذا النوع من التعليم إلى نوعين رئيسيين، أحدهما التعليم الديني "الابتدائي" الذي كان يتم داخل مؤسسة "الحدر" (ما يشبه المسجد عند المسلمين¹) أو داخل مؤسسات التلموذ توراه، وكان يطلق عليها، أيضا، اسم "الميدراشيم". وثانيهما التعليم الديني "الثانوي/العالِي"، وكان يتم داخل مؤسسات الياشفات.

¹جون جيمس ديمس، حركة المدارس الحرة بالمغرب (1919-1970)، ترجمة السعيد المعتصم، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1991، ص. 16-17.

✓ التعليم الديني الابتدائي

استفاد هذا النوع من التعليم بمدينة مكناس، مبكرا، من بعض التحديث خلال مرحلة الحماية على عكس أغلب المدن الأخرى¹. وقد سبق وتحدثنا عن المبادرة التي قام بها الحاخام Zeev Halperin بالمدينة خلال الفترة الممتدة ما بين 1912 و1914 من أجل تحديث التعليم الديني شكلا ومضمونا، والتي كان من حسناتها إحداث ثورة في المناهج البيداغوجية بمؤسسات الحدريم/ الميديراشيم، بعدما كان قد اجتمع بجميع المدرسين المشرفين على هذه المؤسسات وقام بتلقيهم الطرق البيداغوجية الجديدة، وترك لهم حرية تصريفها أو رفضها، لكنهم قرروا بالإجماع تبنيها²، بشكل أثار لاحقا حتى استحسان خصمه السيد مويال مدير مدرسة الرابطة خلال هذه الفترة³. كما أن من إيجابيات المشروع الذي أشرف عليه قراره إدماج النساء في التعليم الديني، بحيث أصبح بإمكان أي امرأة أن تتلقى الدروس الدينية إن هي أرادت ذلك من دون أي تمييز⁴، وقد عد هذا التطور ثورة في مجال التعليم الديني بالمدينة بعدما كانت النساء قبل مجيء مدارس الرابطة للمغرب مقصيات من حقهن في التعليم الديني، وغالبا ما كن يتزوجن مبكرا في سن العاشرة ومن دون أن يستشرن في ذلك⁵. وتحت تأثيره أصبحت النساء تقمن بأدوار مهمة من أجل ضمان التعليم الديني لأطفالهن. وفي هذا الاتجاه تطوعت نساء كبار الحاخامات بتأسيس فرع لجمعية أم الأطفال/Em Habanim بمدينة مكناس من أجل التكفل بضمان التعليم الديني لأبناء الفقراء غير القادرين على تسجيل أبنائهم بمدرسة الرابطة مع ضمان الملابس لهم، وقد ترأست هذه الجمعية بمكناس السيدة ريكا طوليدانو/Ribka Tolédano زوجة الحاخام التقي شلومو طوليدانو بالتعاون مع زوجات أعيان آخرين⁶.

¹"وفق ما جاء في التقرير الذي عرضته البعثة المغربية حول المغاربة اليهود بالمؤتمر اليهودي العالمي، الذي انعقد بأتلانتيك سيتي سنة 1944 بالولايات المتحدة الأمريكية، فقد كان يتم خلق عدد كبير من مؤسسات التلموذ تورا خلال فترة الحماية (كما كان عليه الأمر قبل ذلك) بمختلف ملاحات المغرب بسهولة ومن بدون الاحتكاك بالمسايطر الإدارية أو طلب ترخيص من جهة ما. كان يكفي أن يقوم يهودي مؤمن وتقي يعرف قراءة العبرية، وغالبا ما يكون فقيرا وبدون مورد قار، بفتح "حيدر" بمقابل مبلغ مالي بسيط جدا يكفي لكراء غرفة فارغة ومتواضعة وضيقة بالملاح. وبعد ذلك يتصل بأصدقائه الذين يستأمنونه على أولادهم بمقابل أسبوعي أو شهري. كان يكفي أن تتوفر حجرة الدرس على أربعة جدران مصبوعة بطلاء بسيط وبسقف مهترئ ومن دون ستائر، لأنها في الغالب تكون من دون نوافذ، لأن الضوء يدخلها من سماء الفناء. أما التجهيزات فغالبا ما تقتصر على حصيرة من القش يجلس عليها جميع الأطفال متلاصقين حتى تنتسج للجميع، أما السبورة والكرسي ومكتب المعلم فهي أشياء لم تكن معروفة في هذا الوسط. كما أن الحيدر كان من دون حائط يفرق الأماكن المخصصة لدراسة الكتاب المقدس مع الأماكن المخصصة لقضاء الحاجات،... لدرجة أن الطفل المنحني لقضاء حاجته يستمر في شد الكتاب بيده كما لو أنه لا يريد أن يفوت "الحاجات المقدسة" التي يحاول الحاخام الجالس أمامه "غير مبالٍ بالعرض الواقع أمامه" تحفيظه الأطفال بالصراخ والحركات. بالقرب من الأطفال كانت توجد علبة لرمي القمامة، وكذلك دلو من الماء للأطفال لإنعاش حلقهم الذي جف من كثرة الصراخ، والروائح النتنة المشبعة بالأمونيك وغاز الكبريت التي كانوا يملؤون بها صدورهم".

P. Cohen, *Congrès Juif Mondial...*, op. cit, p. 161-162-163.

²J. Tolédano, *Portrait ...*, op. cit, p. 200.

³R. Assaraf, *Eléments...*, op. cit, p. 238.

⁴Ibid, p. 203.

⁵R. Devico, *Juifs du Maroc des racines ou des ailes...*, op. cit, p. 72.

⁶J. Tolédano, *Le temps du Mellah...*, op.cit. 206.

ومن أجل الشروع في تقديم الدروس للمستفيدين قامت المحكمة الدينية المحلية بمنح الجمعية منزلاً بحي العطارين بالملاح القديم، وقد تم تكليف الحاخام الشاب باروخ طوليدانو بمهمة التدريس بهذه المؤسسة¹. وقد استطاعت هذه الأخيرة أن تحقق نجاحاً كبيراً بسبب كثافة الإقبال عليها، فصار المقر ابتداءً من سنة 1925 ضيقاً وغير قادر على استيعاب كل التلاميذ²، الأمر الذي كان موضوع تقرير شديد الحدة من قبل أعضاء البعثة المغربية بالمؤتمر اليهودي العالمي، ومما جاء فيه : "[...] التلاميذ الفقراء ضحايا انعدام وعي أقاربهم ومعلميهم، يحاولون حفظ الأبجدية العبرية، في حين يفخر فيه المعلم الجالس فوق مقعده فخور بنشر قذاراته في ميدانه، وبين فترة وأخرى يصرخ عالياً حتى يتمزق سواد الغرفة ويستيقظ التلاميذ النصف نيام. أما الهواء لفم يكن من الممكن استنشاقه، لاختلاط جميع الروائح الكريهة المشبعة بالأمونياك والغازات الكبريتية التي تملأ صدور الأطفال..."³. وعملاً بنصيحة الحاخام باروخ بنعمار أحد المتعاطفين مع الجمعية، تمكنت هذه الأخيرة من حيازة قطعة أرضية شاسعة بالملاح الجديد، بعدما تمكن هذا الأخير من الاهتمام إلى فكرة ذكية تمثلت في قدرته على إقناع المنعشين العقاريين التابعين لمجموعة ماص ببيع تلك البقعة للجمعية بثمن تفضيلي، لأن من شأن نقل مقر تلك المؤسسة للملاح الجديد أن يغري اليهود المحافظين بالانتقال للاستقرار بهذا الأخير. لكن بسبب غياب الأموال اللازمة سيتأجل بناء مؤسسة التلمود توراها إلى سنة 1927⁴، حيث سيقدر مجلس الطائفة إطلاق حملة تبرع واسعة بدعم منه من أجل بناء مقر حديث لهذه المؤسسة الدينية الابتدائية حتى تستطيع استقبال أبناء الفقراء وأبناء الميسورين معا، وقد تم تأسيس جمعية لأجل ذلك أشرفت على عملية البناء، ترأسها رئيس مجلس الجماعة وأحد الأعيان اليهود الكبار بالمدينة المحمي الإنجليزي إليزييرديغو / Eliezer BERDUGO الذي أظهر مواهب كبيرة في جمع أموال التبرعات، حيث قام بمجهود استثنائي رفقة عدد من الحاخامات من أجل إقناع الجميع بالمساهمة كل حسب إمكانياته، كما اقترح على الذين لم يستطيعوا تقديم التبرعات تقديم قروض من دون فوائد للمؤسسة بضمانة الثلث من الضريبة المفروضة على الذبائح، وفي هذا السياق تبنى حاخامات وأعيان المدينة اليهود، بشكل استثنائي، آخر فتوى / Tqana في تاريخ يهود المغرب سمحت لهم بالرفع من الضريبة / La Gabéla على اللحم الكاشير من أجل ضمان الوفاء للقروض التي تم أخذها⁵. هذه الحملة المنظمة

¹J. Tolédano, *Portrait ...*, op. cit, p. 237.

²R. Assaraf, *Eléments...*, op. cit, p. 239.

³P. Cohen, p. 163.

⁴J. Tolédano, *Portrait ...*, op. cit, p. 238.

⁵R. Assaraf, *Eléments...*, op. cit, p. 240.

من أجل بناء مؤسسة تلموذ توراه نموذجية استطاعت جمع مبلغ 400000 فرنكا استطاع اليهود بفضلها بناء المقر الجديد الذي صار جاهزا ابتداء من سنة 1930 وقد ضم 24 قسما استطاع استقبال 1500 طفل¹.

لقد كانت هذه المؤسسة تستقبل الأطفال ابتداء من الرابع إلى الخامس من عمرهم، ويظلون بها حتى بلوغ ثماني إلى عشر سنوات، وبالرغم من حداثة الفضاء المدرسي بفضل توفر الأقسام الفسيحة، واستفادتها من التهوية وأشعة الشمس، وتمكن غالبية الأطفال من الجلوس على كرسي مثل مدرسة الرابطة، وتوفر السبورة السوداء وابتعاد المراحض عن الفضاء المدرسي²، فقد ظلت المضامين المقررة والبيداغوجيات تقليدية جدا بسبب افتقار الحاخامات الذين تولوا التدريس لأي تكوين في المهنة، إلى درجة استمر فيها العمل بنظام العقوبات البدنية القاسية في حق التلاميذ³، لذلك كانت هناك محاولة لتحديث المناهج البيداغوجية، حيث تم إسناد هذه المهمة إلى إليزير بيرديغو الذي كان علماني الهوى ليصبح المدير البيداغوجي بمؤسسة التلموذ توراه بموافقة مدير هذه المؤسسة يديديا طوليدانو/Yédidia Tolidano⁴. محاولة التحديث هذه كانت محدودة جدا وباءت بالفشل بسبب استقالة المدير بعد أربع سنوات من تعيينه بسبب الخلافات التي نشبت مع اللجنة البيداغوجية، خاصة وأن طاقم التدريس الذي تم انتقاؤه للتدريس بهذه المؤسسة كان من صفوف الحاخامات التقليديين الذين لم يستفيدوا من أي تكوين بيداغوجي⁵. غير أن المكسب المهم الذي تحقق خلال هذه المرحلة بالنسبة لمدرسي مدرسة الرابطة، والذي شكل مصدر سعادة لهم، هو التخلص من تدريس المواد الدينية التي لم يكونوا يستحسنونها بالمرّة، لذلك تركت مدرسة الرابطة لهذه المؤسسة الدينية مهمة تلقين التعليم الديني للأطفال المتراوحة أعمارهم ما بين 4 و 10 سنوات، وبعد ذلك يلتحقون بالمدرسة العلمانية ليتابعوا تعليمهم العصري⁶. هذه التحولات كانت تتابعها اللجنة المركزية للرابطة باهتمام بالغ، لذلك اقترحت أن يكون هناك تنسيق وتعاون بين الطرفين، وهو ما تم، بحيث صارت مدرسة الرابطة تقدم دروسا في اللغة الفرنسية لتلاميذ السنة النهائية بمؤسسة التلموذ توراه حتى يستأنسوا بلغة موليير، ويسهل عليهم خلال السنة الموالية الاندماج بسهولة أكبر بمدرسة الرابطة. هذا التنسيق تحقق أيضا بفضل مرونة وديناميكية المدير

¹«Le Talmud Torah de Meknès» op. cit, p. 102.

²P. Cohen, *Congrès Juif Mondial...*, op. cit, p. 165.

³بالرغم من تحديث بنائية مؤسسة التلموذ توراه، فقد ظل العمل جاريا بالعقوبات البدنية التي تعود للعصور الوسطى، وكان من الأساليب المشهورة في العقاب الضرب على الرجلين (التحميلة).

J. Tolédano, *Portrait ...*, op. cit, p. 421.

⁴Ibid, p. 240.

⁵P. Cohen, , p. 165.

⁶R. Assaraf, *Eléments...*, op. cit, p. 240.

الجديد لمدرسة الرابطة السيد لورنر على عكس سلفه ألبير مويال الذي كان متشددا اتجاه التعليم الديني¹، وأيضا بفضل موافقة الحاخامات الأكثر أرثوذكسية الذين ثمنوا هذا الاقتراح لأن هذه الخطوة كانت ضرورية في تقديرهم، ومنذ تلك اللحظة اختفى ذلك التناقض الذي كان يبدو ما بين الدين والحادثة²، بوادر هذا التوافق كانت قد بدأت قبل حدوث هذا التنسيق، حيث كان بعض الحاخامات المحافظين حريصين على أن يستفيد أبنائهم من التعليم المزدوج، كما كان الشأن بالنسبة إلى الحاخام باروخ طوليدانو الذي كان لا يتوانى عن حث إخوانه في الدين على طلب التعليم العصري، ولم يتردد في تسجيل أبنائه بمدرسة الرابطة، لكنه كان قلقا من تراجع الاهتمام بدراسة التلمود، لذلك بادر إلى خلق جمعية سماها بـ "ليعود الأطفال"، من أجل إعادة الاهتمام للتعليم الديني بالنسبة لتلاميذ الرابطة، وقد كان أعضاؤها ينتظرون التلاميذ بأبواب مدرسة الرابطة من أجل اصطحابهم لحضور حلقات الدروس الدينية³.

ظل التحديث الشكلي والمحدود الذي عرفه التعليم الابتدائي الديني بمؤسسة التلمود تورا بمكناس على مستوى المضامين والبيداغوجيا على حاله حتى مرحلة الحرب العالمية الثانية، وذلك من خلال ما جاء في التقرير المفصل الذي قدمته البعثة المغربية بالمؤتمر اليهودي العالمي سنة 1944 بالولايات المتحدة الأمريكية، والذي أكد أن نظام التلقين الذي كان يقدمه المدرسون الحاخامات ظل تقليديا، بحيث كان هؤلاء لا يخضعون لأي مراقبة أثناء مزاوله مهامهم، وظلوا حتى هذه المرحلة من دون تكوين بيداغوجي، وكانوا خلال مساهمهم المهني يتلمسون طريقهم مثل المعلمين المتدربين، كما كانوا يفتقرون لأي نوع من المعارف ولو كانت سطحية حول سيكولوجية الطفل. لقد كانوا يعتقدون أنهم يملكون أسرار التعليم، لكن الواقع أن مناهجهم في التدريس لم تكن تمثل سوى كومة من الروتين "الخبث" لتدريب أدمغة الصغار على الحفظ فقط، ذلك أن بعض هؤلاء المعلمين كانوا فرحين بنتائج تلاميذهم المحصلة بفضل "العلم"، وظلوا يعتقدون أن ذلك مدعاة للفخر أمام الأجانب بفضل استعراض قدرة التلاميذ على الاستظهار، بحيث كان الأطفال يتلون ما حفظوه من التوراة بدون أن ترف جفونهم وبدون أخطاء. ومن ثم انتهى معدو هذا التقرير إلى أن التلمود تورا الأحسن تنظيما بالمغرب آنذاك لم تستطع أن تحقق أي تقدم على المستوى البيداغوجي. أما فيما يتعلق بالمقرر فقد اقتصر الأمر على تعليم كتابة الحروف الأبجدية العبرية الحديثة بتوجيه من الحاخامات

¹J. Tolédano, *Portrait ...*, op. cit, p. 240.

²«Le Talmud Torah de Meknès» op. cit, p. 105.

³R. Assaraf, *Eléments...*, op. cit, p. 245.

المتصهينين كما حدث في عهد المدير الثاني لهذه المؤسسة المتصهين شالوم مساس¹، ثم قراءة الأدعية التي كان يجب حفظها عن ظهر قلب، بالإضافة إلى تلاوة البيراشا/Péracha والتوراة بشكل عام، ثم ضرورة حفظ بعض المزامير عن ظهر قلب. أما بالنسبة لتلاميذ المستويات الأعلى فقد كان يتم تلقينهم مقتطفات من التلمود. لقد كان هاجس المدرسين أن يتمكن التلاميذ في النهاية من القدرة على القراءة والكتابة وحفظ كل ما يقدم لهم دون الاكتراث بضرورة الفهم، وقد عد ذلك في نظر الحاخامات سر المعرفة الحقيقية وجوهرها².

إن اشتداد الطلب على التعليم الديني في ظل النمو الديموغرافي الذي عرفته الجماعة اليهودية بمكناس، سيدفع النخب اليهودية بالمدينة، مرة أخرى، وخاصة الحاخامات، إلى الاقتراض خلال فترة الحرب العالمية الثانية رغم الأزمة التي رافقت هذه الأخيرة، من أجل تشييد طابق ثان بمؤسسة التلمود توراه سمح بتوفير 10 أقسام جديدة استقبلت 600 تلميذ إضافي³.

أما بخصوص الصعوبات المالية التي كانت تعاني منها هذه المؤسسة فلم تمنعها من توسيع نشاطها ليشمل اليهود الأمازيغ المقيمين بالأطلس المتوسط، والذين كانوا ضحايا عديد من الأحكام المسبقة الخاطئة⁴، وقد تم ذلك بقرار من المدير شالوم مساس ضدا على الموقف المعارض لباقي الأعيان الذين لم يكونوا يعيرون إخوانهم في الدين بهذه المناطق أي اهتمام⁵. هذا النوع من التعليم سيستفيد، بعد الحرب العالمية الثانية، من الدينامية التي انخرطت فيها الهيئات الصهيونية العالمية التي اكتسبت القوة والقدرة على التأثير في كل ما له علاقة بالمقومات الروحية لليهود العالم، بما في ذلك يهود المغرب، وستقوم انطلاقا من سنة 1947، وفي إطار مقاومتها لعمليات التصفية الروحية والجسدية التي أرادها النازيون لليهود⁶، بتأسيس جمعية* أوزار هاتوراه الأمريكية بفتح فرع لها بمدينة الدار البيضاء جاء تنويعا لتهيئة دامت أكثر من ثلاث سنوات⁷، بمساهمة مجموعة من الميسورين المغاربة بحصة مهمة في رصيدها

¹J. Tolédano, *Portrait ...*, op. cit, p. 322.

²P. Cohen, *Congres Juif Mondial...*, op. cit, p. 166.

³J. Tolédano, *Portrait ...*, op. cit, p. 322.

⁴«Le Talmud Torah de Meknès » op. cit, p. 103.

⁵R. Assaraf, *Eléments...*, op. cit, p. 242.

⁶محمد حاتمي، *التعليم اليهودي في مغرب النصف الأول من القرن العشرين*، أدوار الرابطة اليهودية العالمية (الآليات) والمدارس التلمودية الأمريكية... مرجع سابق، ص. 249.

* هذه الجمعية تم تأسيسها بعد نهاية الحرب العالمية الثانية من قبل بعض اليهود من أصل سوري.
⁷ يوجد المقر المركزي لمؤسسة الأوزار هاتوراه بمدينة نيويورك. وقد حصل أول لقاء بين أطرها وممثلين عن الجماعات المغربية سنة 1944، خلال مشاركة اللجنة المغربية في أعمال مؤتمر أتلانتيك سيتي حيث عمل صامويل ليفي على إقناع محاوريه الأمريكيين بالاهتمام بالتعليم الديني في المغرب. وفي بداية سنة 1947، قام الرابي كالمانوفيتس Calmanovitz - وهو مدير إحدى أهم مدارس أوزار هاتوراه في نيويورك - بزيارة لمجموعة من المدن والقرى المغربية لدراسة حاجيات الجماعات من حيث التعليم الديني وإمكانية فتح مدارس تعنى بتعليم العبرية وتكوين الربيين. ومباشرة

المالي وممتلكاتها العقارية¹، وفي إطار الاهتمام الذي أولته خلال سنتها الأولى لليهود الملاحات الكبرى ستقوم هذه الجمعية بتقديم مساعدات مالية لمؤسسة التلمود توراه بمدينة مكناس من أجل تغطية رواتب المعلمين بهذه المؤسسة²، بعدما كانت مصاريف التعليم الديني تقع كلها على عاتق الجماعة اليهودية. لقد كان هدف هذه الجمعية هو الرفع من المستوى الثقافي لليهود السفريديين ودعم وتعزيز التعليم الديني الذي كانت تقدمه مؤسسة التلمود توراه، ولكن في اتجاه القيم الثقافية الأرثوذكسية اللتوانية (الأشكيناوية) تحت توجيه أول مبعوثها بالمغرب Abraham Kalmanowitz/ابراهيم كلمانويتز³.

إن النجاحات التي استطاعت تحقيقها هذه المؤسسة كانت تثير إعجاب كل الزوار الأجانب الذين كانوا يزورونها، كما عبر عن ذلك أحد الحاخامات الفرنسيين البارزين عندما زار المغرب سنة 1948 في التقرير الذي أعده لعضو جمعية شارل نظير بالدار البيضاء في شهر فبراير من نفس السنة قائلا:

"استطاعت مؤسسة التلمود توراه أن تبتلع جميع مؤسسات الحدريم القديمة، وقد ضمت 1800 تلميذ موزعين على 36 قسما، يدرسون بطريقة منظمة، لكن المعلمين المتخصصين والمتفانين في عملهم لا يتقاضون إلا مبلغ 4000 فرنك في الشهر. الأطفال يتكلمون العبرية بطلاقة، وقد استطاعت طفلة بعمر 8 سنوات أن تتلو علينا قصة الذئب والحمل أولا باللغة الفرنسية ثم باللغة العبرية، كما استطاعت أن تشرح لنا قصيدة الطائر للشاعر حاييم نحمان بياليك. إنهم يقرؤون لغة آبائنا والتوراة بقوة وحيوية لا يمكن وصفها بالعبارات. لقد قلت للمدير وأنا أبكي: "إنني أغبطك". الأطفال ما بين سن 10 و12 سنة يبدؤون بحفظ مقاطع مختارة وسهلة من التلمود.... اليهودية لن تموت ما دام هناك مدن مثل مكناس في العالم اليهودي، وكم تمنيت لو كانت الظروف السياسية مواتية حتى تسمح لليهودية المغربية بالتمدد في باقي المراكز اليهودية عبر العالم"⁴.

بعد عودته، تم فتح أول مدرسة في سلا، ثم ثانية في الدار البيضاء، وفي فاس تم التوصل إلى صيغة تعاقدية مع مؤسسة "أم البنين". وقامت إدارة هاتوراه بإرسال استثمارات لليهود فاس ومكناس وأرغود وتاوريرت وديبو لمعرفة حجم الخصائص في الميدان التعليمي، واعتبرت إدارة الحماية الأسلوب الجديد في التعامل مع السكان تهديدا لأنه يقلص من ثقة اليهود المغاربة في قدرات فرنسا على حمايتهم وتأمين احتياجاتهم". محمد حاتمي، *الجماعات اليهودية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية وهران المغرب المستقل...*، مرجع سابق، ص. 103.

¹ محمد حاتمي، *التعليم اليهودي في مغرب النصف الأول من القرن العشرين*، أدوار الرابطة اليهودية العالمية (الأليانس) والمدارس التلمودية الأمريكية...، مرجع سابق، ص. 250.

² J. Tolédano, *Le temps du Mellah*, op. cit, p. 210.

³ J. Tolédano, *Portrait ...*, op. cit, p. 325.

⁴ J. Tolédano, *Portrait ...*, op. cit, p. 323.

وجدير بالذكر أن مجلس الجماعات اليهودية قد أولى تعليم اللغة العبرية في المدارس اليهودية، على اختلافها، أهمية كبرى ونصب نفسه راعيا لها ووصيا على أن تتم في أحسن الظروف وتحقق نتائج إيجابية. وقد برر توجهه باعتبارها لغة التوراة واللحمة التي تؤمن الحفاظ على أواصر الانسجام والاستمرارية، وتمكن من فهم مباشر وعصري للتعاليم الدينية¹.

لقد تجاوزت شهرة مؤسسة التلموذ تورا خلال هذه المرحلة حدود المغرب، بعدما صدرت في حقها إشادة من قبل رئيس قسم اللجنة التنفيذية الصهيونية بعد زيارته للمغرب سنة 1949، والذي قام في شهادته بمقارنة التعليم الذي كانت تقدمه هذه المؤسسة مع مدارس الرابطة قائلا: "في هذه المدارس من الصعب جدا أن نعثر على أية إشارة تعبر عن الخصوصية اليهودية... كل شيء فيها يعبر عن الثقافة الفرنسية... وعلى العكس من ذلك فإن الروح اليهودية طاغية بمؤسسة التلموذ تورا لمدينة مكناس. اللغة العبرية حاضرة بقوة داخل جدران المؤسسة لأنها تدرس يوميا لمدة ساعة، والأساتذة يدرسونها بحماس كبير لدرجة أن حضورها بهذه المؤسسة يعد الأفضل بالمغرب"².

لم تتوقف الرغبة في تطوير هذه المؤسسة من قبل النخب اليهودية المحلية، إذ استطاعت الجماعة سنة 1953 حيازة بقعة أرضية بلغت مساحتها 4093 متر مربع بفضل إعانة مالية من قبل الحكومة، من أجل تشييد أقسام إضافية ملحقة لمؤسسة التلموذ تورا، بالإضافة إلى دار للحضانة وملجئ للأيتام، لكن هذا المشروع لم يخرج إلى حيز الوجود بسبب هجرة عدد كبير من يهود مكناس خلال هذه المرحلة³.

وفي إطار محاولات التحديث الحثيثة من أجل الرفع من جودة التعليم الديني بمؤسسة التلموذ تورا، قامت اللجنة البيداغوجية المشرفة عليها سنة 1953م بإحداث شهادة نهاية الدراسات العبرية تتوج خمس سنوات من الدراسة، كما قامت، في إطار تحفيز التلاميذ من أجل بذل أقصى الجهود، بمنح عدد من الجوائز للتلاميذ المتفوقين الناجحين، والذين بلغ عددهم خلال هذا الموسم الدراسي 14 تلميذا استطاعوا نيل دبلوم نهاية المرحلة الابتدائية من أصل 61 من المرشحين في مؤسسة كانت تضم خلال هذه السنة 1280 تلميذا في جميع المستويات. وفي إطار التفاف النخب اليهودية المحلية حول هذه المؤسسة التي كانت تحظى برعاية خاصة من قبلهم تم تنظيم حفل توزيع

¹ محمد حاتمي، الجماعات اليهودية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية وهران المغرب المستقل... مرجع سابق، ص. 114.

² J. Tolédano, *Portrait ...*, op. cit, p. 322.

³ Ibid, p. 322.

الجوائز بحضور كبار الأعيان والحاخامات وأولياء التلاميذ، كما قام ميمون مريجن بإلقاء خطاب قصير أثنى فيه على الجهود التي بُذلت للرفع من جودة التعليم الديني الذي خرج من "لباسه التقليدي ليتلاءم مع الواقع الحديث"¹. وفي سنة 1953م ستصبح مؤسسة التلموذ تورا تابعة كلياً لشبكة مدارس أوتزار هاتورا². وبما أن مدينة مكناس كانت مشهورة بكونها تمثل مركزاً روحياً كلاسيكياً بالنسبة لليهودانية المحلية والمغربية، فقد كانت مؤسسة التلموذ تورا عاجزة عن تأطير كل الفئات اليهودية بالمدينة، بسبب إقبال هذه الأخيرة على التعليم الديني، لذلك تواجدت بالمدينة إلى حدود الأربعينات حوالي 42 حلقة غير منظمة لتقديم الدروس الدينية للتجار والحرفيين تحت تأطير مجموعة من الحاخامات³، وقد كان مرتادوها يجتمعون عدة مرات في الأسبوع من أجل دراسة الشعر والتلموذ والتعليق على النصوص المقدسة⁴، أما الأكثر تدنياً ومعرفة منهم فقد كانوا يتفرغون لدراسة الكبالا والزهار تحت إشراف الحاخام يوسف الكوي/Yossef Elkouby لدرجة أن الحكاية الشعبية ظلت تقول إن المريدين كانوا يستمرون في الدراسة تحت ضوء النجوم⁵. هذه الحلقات الدينية كانت تتطلب من مريديها حداً معيناً من التقوى والمعارف لم تكن في متناول الجميع. كما أن دروس بعض الحاخامات ومواعظهم كانت تغطي بمتابعة كبيرة، كما كان الشأن مع الحاخام يوسف مساس الذي اشتهر بثقافته الدينية الواسعة وبفصاحته وبلاغته⁶. أسلوبه الجذاب هذا كان مثار تقدير وإعجاب من طرف بعض الحاخامات الآخرين بالمدينة خاصة باروخ طوليدانو الذي كان يشجع ابنته الصغيرة على القيام بالأمر نفسه عند تدريسها جمهور النساء⁷.

يمكننا أن نؤكد من خلال ما سبق أن التعليم الديني الابتدائي بمدينة مكناس قد استطاع أن يستمر ويحافظ على مكانته، رغم الحضور القوي لمدارس الرابطة، وذلك بفضل قدرة الجماعة اليهودية بهذه المدينة على التوفيق ما بين التعليم العصري والتعليم الديني الذي لم يكن من الممكن الاستغناء عنه. هذا النوع من التعليم سيعرف دفعة قوية بعد الحرب العالمية الثانية، بفضل الحضور القوي للمنظمات اليهودية الأمريكية التي أصبحت تهتم بدعم التعليم

¹«Meknès, au Talmud Thora, Epreuves du Certificat de fin d' études Hébraïques, Cycle Primaire», La VC, N° 33, 1953, p. 2.

²J. Tolédano, *Portrait ...*, op. cit, p. 325.

³R. Assaraf, *Eléments...*, op. cit, p. 241.

⁴J. Tolédano, *Portrait ...*, op. cit, p. 418.

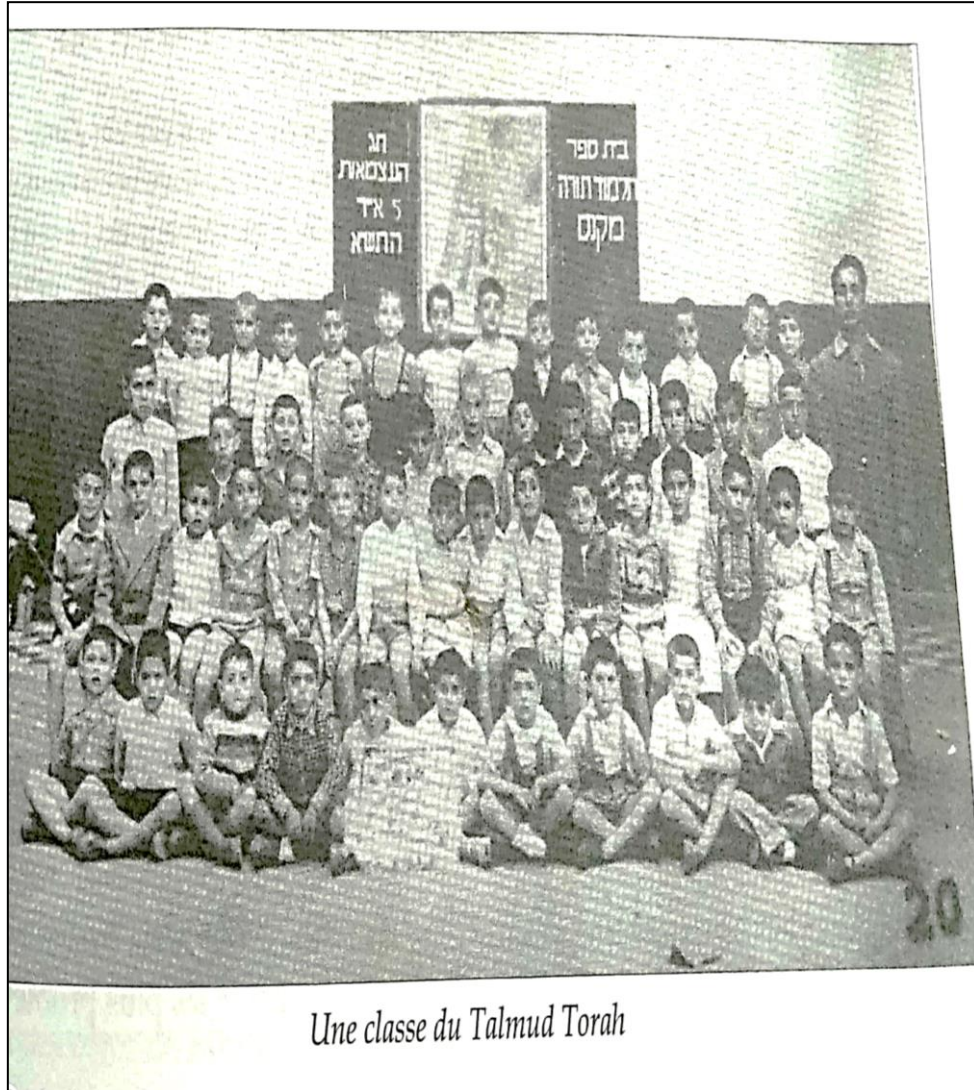
⁵R. Assaraf, *Eléments...*, op. cit, p.241.

⁶Haim Zafrani, *Pédagogie juive en Terre d'Islam, l'enseignement traditionnel de l'Hébreu et du Judaïsme au Maroc*, Ouvrage publié avec le concours du Centre National de la Recherche Scientifique, Paris, Librairie d'Amérique et d'Orient, Adrien Maisonneuve 1969, p. 118-119.

⁷R. Assaraf, *Eléments...*, op. cit, p. 243.

الديني، خاصة ما يتعلق منه بتدريس اللغة العبرية الحديثة، بعدما تبنت الرابطة أفكار الدعاية الصهيونية بعد أحداث الحرب العالمية الثانية¹، وذلك في إطار تهيئة يهود المدينة لاعتناق أفكار الدعاية الصهيونية التي بدأت تتسرب بقوة إلى الملاح.

صورة رقم 10: تلاميذ يهود يتابعون تعليمهم الديني بمؤسسة التلموذ تورا



Source : J. Tolédano, *Portrait...* op. cit, p. 235.

¹قامت الرابطة، في إطار توفير الأطر المؤهلة، بتأسيس المدرسة العليا العبرية بالدار البيضاء، لتوفير أساتذة مؤهلين لتدريس اللغة العبرية الحديثة والمواد الدينية بمناهج بيداغوجية عصرية، وقد استفادت مدينة مكناس في هذا الإطار من خريجي الفوج الأخير برسم سنة 1955. «Les problèmes de l'enseignement», in VC, N°54, Sept 1955.

✓ التعليم الديني التأهيلي:

كان يتم هذا النوع من التعليم داخل "مؤسسات الياشفات"، وداخل البيع بالنسبة للذين أكملوا تعليمهم في مؤسسات التعليم الأولي الديني ب"الحدر"، وكان الأمر يتطلب من طلبة هذا التعليم التأهيلي تكريس سنوات طوال لاكتساب المعارف اللازمة لممارسة مهام القضاة الربيين والحصول على لقب الحاخام¹. وبالنسبة لمدينة مكناس، نظرا لاعتبارها كانت مركزيا روحيا متميزا لليهودانية المغربية على الصعيد الوطني كما أسلفنا، فقد ضمت عدداً من مدارس التعليم الديني التأهيلي قبل مرحلة الحماية، كما هو الشأن بالنسبة لياشفات الحاخام شلومو بن عمارة الذي اتخذ من بيته مكانا لتدريس التلاميذ الذين اختاروا التلمذ على يديه، وقد كانوا يلتحقون بمدرسته في سن العاشرة بعد إتمام التعليم الديني الأولي². لقد كانت عملية التعليم تتم دون الانضباط لنظام داخلي منظم، بحيث كان طلبته الاثنا عشر يبيتون ببيته طيلة أيام الأسبوع باستثناء الجمعة والسبت حيث كان بإمكانهم المبيت عند أسرهم، وقد كانت الدراسة تتم صباحا ومساء بسبب كثرة المواد الدينية المقررة وكثافتها³، وفي هذا الصدد يحكي الحاخام ميمون بن عطار (1958/1867) قائلا: "لقد تضمن المقرر الدراسي، في الفترة الصباحية، تعلم مقاطع من الجيمارا/ Guémara مع تعليقات راشي وتوسافوت/ Tossafot، أما بعد الظهر فقد كان التلاميذ يكتفون بمراجعة ما تعلموه في الصباح برفقة الحاخام، وبعد أداء الصلاة وترتيل أدعية الليل تستمر الدراسة حتى وقت متأخر من الليل، ودائما ببيت الحاخام الذي كان ينام وسط الغرفة، متوسطا جزءاً من تلامذته. حيث كان التلاميذ يتناوبون على قراءة مقاطع من كتاب الأخلاق péléyo'etz إلى أن يغالبهم النوم على أقوال التوراة، وكان القارئ الأخير ملزماً بالألا يغمض عينيه حتى يتأكد بأن الآخرين كلهم قدناموا. وعند حلول الرابعة صباحا كان الحاخام يوقظنا لدراسة قواعد الهالاخا من كتاب الحاخام يوسف كارو، وشولهان أروخ/ Shoulhan arouk، حتى بزوغ ساعات الصباح الأولى، وعند الفجر كان كل واحد منا يذهب لأداء الصلاة وتلاوة أدعية shaharit/شاهاريت ببيعة والديه. أتوجه بالشكر لله الأبدي، لأني استفدت كثيرا من هذه الدراسات ومن صفاء وانفتاح فكر أستاذي الحاخام شالوم بن عمارة⁴". والحري بالذكر أن عدداً من خريجي هذه المؤسسة صاروا يرأسون لاحقا عدة ياشفات بمدينة مكناس نهاية القرن 19م ومطلع القرن 20م، ومن

¹حاييم الزعفراني، *يهود المغرب والأندلس*، الجزء 2، مرجع سابق، ص. 435.

²J. Tolédano, *Portrait ...*, op. cit, p. 420.

³R. Assaraf, *Eléments...*, op. cit, p. 230.

⁴J. Tolédano, *Portrait ...*, op.cit, p. 420-421.

بين أشهرهم على سبيل المثال لا الحصر: ابرهام الباز، وأهارون بن حمو، وابراهيم طوليدانو، وباروخ طوليدانو، وحاييم مساس، وحاييم مريجن، وحاييم بيرديغو¹.

أما بعد توقيع معاهدة الحماية الفرنسية على المغرب سنة 1912، فقد عرف هذا النوع من التعليم قدرا من التحديث، لذلك سنقتصر على بعض النماذج التي كانت موضوعا لذلك. لقد تزامن توقيع الحماية مع قدوم الحاخام Zeev Halperin المذكور آنفاً، وهو أول من قام بمحاولة غايتها تحديث هذا النوع من التعليم الديني بمدينة مكناس، وفي هذا الإطار، وبعدما قام بترتيب أمور استقراره بالمدينة سنة 1912، طلب من مردخاي عمار ابن الحاخام شالوم عمار أن يسهل له عقد اجتماع بالتلاميذ الحاخامات/Talmidé Hakhamim، الذين كانت لهم تجربة سابقة في الدراسات العليا ما بعد الحديم، كي يخبرهم بعزمه خلق تعليم ديني تأهيلي بـ"ياشفات" خاصة من أجل دراسة التوراة كل ليلة داخل بيعة أطلق عليها اسم بيت الله/Bét El، وخلال الاجتماع بهم قدم تصوره حول الكيفية التي ستم بها الدراسة في المؤسسة التي أشرف على إحداثها، والتي تضمنت التوجيهات والالتزامات الآتية²:

✓ تقسيم الدرس إلى قسمين، ساعة من أجل دراسة التلموذ مع تعليقات راشي، ونصف ساعة من أجل دراسة الأخلاق³.

✓ يتكلف أحد التلاميذ في كل حصة بتقديم موضوع الدرس باللغة العربية بشكل يفهمه الجميع، مقابل أن يتابع معه الآخرون في كتبهم في صمت، بعد أن تتم قبل ذلك عملية اختيار المرشح لتقديم العرض عن طريق القرعة حتى يستطيع تحضيره بشكل قبلي.

✓ يمنع منعاً كلياً مقاطعة الدرس أو التشويش عليه أو طرح الأسئلة التافهة/ الساذجة، ومقابل ذلك يمكن أخذ الكلمة والتدخل في حال كان في ذلك الإتيان بشيء جديد.

✓ كل من لم يلتزم بما اتفق عليه سيطرده، وكل من تغيب، ولو مرة واحدة، لأي سبب كان يلتزم بأداء غرامة قدرها فرنك واحد توضع في خزانة الياشفات⁴.

✓ تُقام الدروس دائماً بنفس البيعة لأنها الوحيدة المتاحة بسهولة⁵.

¹R. Assaraf, *Eléments...*, op. cit, p. 230.

²J. Tolédano, *Portrait ...*, op. cit, p. 200.

³R. Assaraf, *Eléments...*, op. cit, p. 233

⁴J. Tolédano, *Portrait ...*, op. cit, p. 201.

⁵R. Assaraf, *Eléments...*, op. cit, p. 233.

النجاح الأولي الذي استطاع الرجل تحقيقه من خلال هذه المبادرة التي لقيت استجابة كبيرة من قبل المستفيدين شجع الحاخام Zeev Halperin على التفكير في الإقدام على خطوة ثانية في نفس الاتجاه، حيث اجتمع أسابيع بعد ذلك بعدد من الحرفيين والتجار اليهود ببيعة باروخ طوليدانو وحاول إقناعهم ودفعهم للاستفادة من تعليم ديني عال داخل ياشفات خاصة بالكبار¹. ومن أجل ضمان الرعاية والمتابعة لمشروع التعليم الديني الذي أشرف على تأسيسه قام بتأسيس جمعية سماها شجرة الحياة². لقد كان الهدف المعلن لهذا الحاخام، الذي استطاع تعبئة جميع النخب التقليدية وراءه، هو ضمان الأمن الروحي لليهود عبر ضمان ارتباطهم الوثيق بالكتاب المقدس من أجل مواجهة التحولات التي كان يخشى أن تتسبب فيها شبكة مدارس الأليانس، والمتمثلة في غرس قيم العلمنة في نفوسهم، لذلك قام، أيضاً، بتأسيس جمعية سماها "حراس الدين" قامت انطلاقاً من مدينة مكناس بإذاعة بيان تمت تلاوته بجميع البيع بالمدينة، وكانت فكرته الأساسية تدور حول تحذير المغاربة اليهود من التحولات الجارية التي ستؤدي إلى انسلاخهم عن يهوديتهم³.

لكن اندلاع الحرب العالمية الثانية أدى إلى إجهاض ما سعى إلى تحقيقه هذا الحاخام، لأنه اضطر كما أشرنا آنفاً إلى مغادرة المغرب خوفاً من تعرضه للاعتقال من قبل السلطات الفرنسية⁴. لعل الجدير بالذكر، هنا، أن تجربة

¹J. Tolédano, *Portrait ...*, op. cit, p. 201.

²R. Assaraf, *Eléments...*, op. cit, p. 233.

³البيان الذي تمت تلاوته تحدث عن القرارات التي تم اتخاذها، وكذا شروط الانضمام للجمعية التي قام بتأسيسها، وفيما يلي النقاط التي سعى إلى تحقيقها: 1- تأسيس جمعية بمختلف المدن المغربية تحت اسم *Mahziki Torah*. 2- الالتزام بخلق شعبة مكلفة برعاية شؤون اليهود فيما يتعلق فقط بالتوراة التي يجب تعلمها جيلاً بعد جيل وذلك في كل مدينة مغربية. 3- خلق مؤسسات ياشفات كبرى تخصص لاستقبال تلاميذ الأقسام الأولية الموهوبين والمتفوقين من التلاميذ الحاخامات الذين يودون متابعة الدراسات المقدسة، والذين سيتم تحمل مصاريفهم من طرف جمعية ستعنى بهذا الغرض. 4- السعي لدفع كل يهود المغرب لاحتضان هذا الهدف. 5- دعم هؤلاء التلاميذ، وتنظيم دروس ليلية، وطبع ونشر كتب باللغتين العبرية والعربية تتضمن التعاليم والدروس الأخلاقية وقواعد حسن السيرة والسلوك.

أما فيما يتعلق بشروط الانخراط في الجمعية والاستفادة من خدماتها فتتمثل فيما يلي: كل طفل يهودي موافق على هذه الأهداف عليه أن ينضبط للشروط التالية: 1- المساهمة سنوياً بدفع مبلغ فرنكين. 2- حيازة النشرة الأسبوعية للجمعية ودفع مقابلها المادي. 3- سيتم تسجيل جميع أعضاء الجمعية المتبرعين بالكتب التي سيتم طباعتها من أجل تكريمهم تخليداً لأسمائهم. 5- أي رجل أو امرأة أراد(ت) تخليد أحد أبويه (ها) عليه(ها) أن يلتزم بشراء عشرة كتب سنوياً على الأقل، مع الالتزام بذكر تلك المبالغ المتبرع بها في الكتب الجديدة. 6- كل من أراد الصلاة من أجله سيتحقق له ذلك. 7- أي امرأة أرادت أن تتلقى دروساً في المواد الدينية سيتحقق لها ذلك دون تمييز.

R. Assaraf, *Eléments...*, op. cit, p. 236-237.

⁴"انتقل بعد ذلك لتنزيل الهدف الأساسي في مشروعه، والذي تمثل في تأسيس مدرسة للتعليم الديني الابتدائي الديني بدوام دائم من أجل منافسة مدرسة الأليانس، واستطاع أن يوفر لها طاقماً إدارياً كله من المتطوعين، وهم: أهارون سودري رئيساً، السكرتارية تكلف بها مردخاي عمار، بينما أسند منصب أمين المال إلى أهارون بن عمار، فيما تولى مهمة التفتيش كل من إسحاق الصباغ، وخلوف سودرين ويديا طوليدانو (هذا الأخير أول من تولى لاحقاً إدارة مؤسسة التلموذ تورا الحديثة)، والذي قال في حقه الحاخام يوسف مساس: "من دونه كان اليهود المغاربة سينسون التوراة".

J. Tolédano, *Portrait ...*, op. cit, p.202.

هذا الحاخام تميزت بفتحها المجال لاستفادة المرأة اليهودية من التعليم الديني المأسس، الأمر الذي كانت له تبعات إيجابية كما سبق وتحدثنا عن ذلك، بعدما كانت مقصورة من هذا الأمر¹.

وفي سنة 1934 وبعدم اضطراب الحاخام يبيديا طوليدانو إلى تقديم استقالته من إدارة مؤسسة التلمود تورا الابتدائية، بسبب خلافه مع أعضاء اللجنة البيداغوجية²، قام بتأسيس ياشفات خاصة به، كان لها الفضل في تكوين جيل من الحاخامات اللاحقين، كما استقطبت عددا من التلاميذ الحاخامات من المراكز القروية بالجنوب³. وفي إطار الاهتمام الذي أصبح يحظى به التعليم الديني بالمدينة، ورغبة من النخب التقليدية بهذه الأخيرة في استفادة أكبر عدد ممكن من أبناء اليهود من هذا النوع من التعليم، اقترح رئيس المحكمة العبرية بمكناس السيد باروخ طوليدانو أن يتم استقبال التلاميذ الفقراء من أبناء القرى المعزولة بالأطلس بمؤسسة التلمود تورا بمكناس، لكن هذا الطلب سيواجه بالرفض من قبل رئيس مجلس الطائفة حينها السيد جوزيف بيرديغو الذي برر موقفه بغياب الإمكانيات المادية للقيام بذلك، كما أضاف بأن فقراء المدينة أولى بذلك من أبناء يهود الأطلس، الأمر الذي أدى إلى نشوب صراع بين الطرفين خاصة وأن رئيس المحكمة العبرية المعروف بكاريزمته كان يعد نفسه وصيا على كل ما له علاقة بالأمن الروحي لإخوانه في الدين. هذا الأخير لم يتخلّ عن هدفه، لذلك قرر تأسيس ياشفات خاصة بأبناء الفقراء. وكان يقوم في هذا الإطار بجولات بعدد من المراكز القروية، ويجلب معه عددا من التلاميذ الحاخامات الذين كان يتدبر أمر إقامتهم ومأكلهم عند بعض العائلات التي كانت تتطوع لإيوائهم، وذلك بسبب غياب داخلية لاحتضانهم. ومن أجل توفير الموارد المادية اللازمة لمؤسسته كان يعتمد في ذلك على جزء من كرم أبناء طائفته كما قام بخلق ورشة لصناعة بعض المنتجات التقليدية الدينية. وقد كادت هذه التجربة أن تتوقف بسبب شيوخ مرض خطير في صفوف التلاميذ، وخوفا من انتقال العدوى تم التفكير في إعادتهم إلى عائلاتهم⁴، لكن تدخل أحد شركائه في الياشفات المدعو إسحاق أوحنا ساهم في إنقاذ هؤلاء التلاميذ، حيث تمكن من علاجهم رفقة زوجته، واستطاعوا بذلك متابعة دراستهم⁵.

¹D. Cohen, , op. cit. p. 12.

²R. Assaraf, *Eléments*, op. cit, p.241.

³J. Tolédano, *Portrait ...*, op. cit, p. 240-241.

⁴Ibid, p.327.

⁵Ibid, p.328.

وفي إطار الاهتمام الذي أصبحت توليه المنظمات الأجنبية للجماعات اليهودية بالمغرب بعد الحرب العالمية الثانية في إطار النشاط الصهيوني الذي كانت تقوم به تحت غطاء العمل الإحساني، قامت منظمة لوبافيتش/ Loubawitch البولونية الأصل وأحد التيارات الحسيدية المعروفة بديناميكيته وأنشطتها الرسولية سنة 1949 ببعث الحاخام ليبسكس/ Michel Lipsker إلى مدينة مكناس، حيث أكمل المشروع الذي بدأه باروخ طوليدانو الخاص بالاقتران على ضمان التعليم الديني للتلاميذ الفقراء المنحدرين من النواحي الهامشية، لأن بقية التلاميذ كانوا تحت رعاية مدارس الرابطة وجمعية أم الأطفال، وقد تمت هذه العملية في إطار نفس الياشفات، ولكي يمنح لهذه المؤسسة دفعة جديدة، قام هذا الحاخام بكراء فضاء واسع مكنه من الحصول على قاعات للدرس وداخلية لإيواء المئات من الأطفال، وقد تمكن من تمويل مشروعه بطريقة استثنائية، بفضل مساعدات الحرفيين المحليين الذي أعانوه على تهيئة ورشة صنع المنتجات التقليدية الدينية وبجودة عالية، كان يتم تصديرها للخارج على نطاق واسع¹. منظمة لوبافيتش كانت تمتلك خلال الموسم الدراسي 1953/1954 ثلاث مدارس ضمت في صفوفها 423 تلميذاً². هذا وتجدر الإشارة إلى أنه وإلى حدود منتصف الأربعينات، ووفق ما جاء في التقرير الذي قدمته البعثة المغربية بالمؤتمر اليهودي العالمي الذي انعقد بأطلانتيك سيتي سنة 1944 بالولايات المتحدة الأمريكية، فإن جميع مؤسسات الياشفات أو أقسام التعليم الثانوي الديني بالمغرب لم تكن تختلف كثيراً، حينها، عن مؤسسات التعليم الديني الابتدائي باستثناء بعض التفاصيل المتعلقة بأعمار التلاميذ والبرنامج الدراسي المتبع، أي دراسة التلمود، وقد بلغ عددها بمكناس حينها 30 مؤسسة كانت كلها داخل البيع³، ذلك أن جميع مراحل التعليم الديني كانت تتشابه، والأساتذة كانوا يملكون تكويناً أشبه بتكوين معلمي الأقسام الدنيا، بحيث كانوا يعتمدون نفس الطرق البيداغوجية التي تركز على الحفظ، أما وجه الاختلاف بين الاثنين فهو أن مكان عمل أساتذة الثانوي كان نظيفاً وواسعاً ومجهزاً تجهيزاً جيداً مقارنة بالحديث، أما عملية التعليم فقد كانت تتم في الغالب بالبيع فوق الكراسي العالية، حيث كان الشباب يتوفرون على مساحات واسعة للجلوس تمكنهم من التحرك⁴. أصحاب هذا التقرير نبهوا إلى أن هذه المؤسسات الدينية التأهيلية التي تحدثنا عنها كانت أقرب إلى الحلقات الدينية منها إلى الياشفات الكبرى الحقيقية التي كانت الدراسة بها تخول لصاحبها الحصول على ديبلوم حاخام بالمعنى الدقيق للكلمة، والتي لم تكن متوفرة بالمغرب إلى حدود هذه المرحلة، لذلك فضلوا أن يطلقوا عليها اسم "séminaires"، ذلك أن هذه الأخيرة كانت تجمع التلاميذ الذين كانوا يطمحون إلى حمل لقب الحاخام، والذي كان يكفي للحصول عليه ملازمة المكان المقدس والقيام بالصلوات الثلاث يومياً،

¹R. Assaraf, *Eléments...*, op. cit, p. 277.

²محمد حاتمي، *الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية وهران المغرب المستقل...*، مرجع سابق، ص. 113.

³J. Tolédano, *Le temps du Mellah*, op. cit, p. 208.

⁴P. Cohen, op.cit, p. 168-169.

والحرص دائما على معايشة زملاء الدراسة والحاخامات، والالتزام في الكلام بالأقوال والأحاديث العبرية، أي بالجميل، عيش حياة تقية في جميع صورها الخارجية إلى أن يأتي اليوم الذي ينادي فيه أحد زملاء الدراسة زميله باستحياء بلقب الحاخام، وكان من الأفضل للمعني بالأمر أن يتم ذلك من طرف أستاذه الحاخام، ومع مرور الوقت يشيع اللقب بين الناس إلى أن يصير فلان حاخاما¹. وجدير بالذكر أن الحاخام يوسف مساس الذي كان أحد أبرز النخب اليهودية النشيطة في هذا القطاع بمدينة مكناس قبل هجرته إلى فلسطين، قد أكد بدوره على جوانب القصور التي ميزت التعليم الديني في المغرب بشكل عام². يتضح من خلال هذا الوصف الدقيق بأن مؤسسات التعليم الديني التأهيلية بالمغرب إلى حدود هذه الفترة (أواسط الأربعينات) كان يطلق عليها لقب ياشفات تجاوزا، أي أنها كانت تفتقر للمعايير الأكاديمية الكفيلة بإنتاج حاخامات بالمعنى الفعلي للكلمة.

ووعيا منها بضعف التعليم الديني الذي كانت تقدمه مؤسسات التعليم الديني التأهيلية، عمدت النخب اليهودية إلى إثارة الأمر في غير ما مقام، وهكذا عبر الحاخام ياشوا بيرديغو سنة 1941 - قبل مغادرته مدينة مكناس، بعد أن عين رئيسا للمحكمة العبرية العليا بالرباط - أمام جمع ضم نخبة الطائفة اليهودية بمكناس، عن قلقه من غياب مؤسسة للتعليم العالي الديني اليهودي قادرة على تكوين القادة الروحيين المستقبليين الذين يفترض فيهم السهر على تسيير شؤون الجماعة اليهودية بتلك المدينة³. لذلك قررت الطائفة رفع هذا التحدي وكلفت مدير مؤسسة التلمود توراه بالتحضير لخلق هذه المؤسسة، لكن ظروف الحرب العالمية الثانية وما رافقها من أزمات اقتصادية، أجل خروج هذا المشروع إلى حيز الوجود إلى سنة 1944 وذلك بفضل الدعم المادي الذي وفرته الطائفة اليهودية تحت قيادة إليزير بيرديغو. وقد تولى إدارة ياشفات Keter Torah الحاخام إسحاق الصباغ⁴، كما كان من بين أشهر المدرسين بها رئيس المحكمة العبرية، آنذاك، الحاخام باروخ رفايل طوليدانو، ومساعدته الحاخام يوسف، أضف إلى ذلك الحاخام شالوم مساس الذي كان يدير في نفس الوقت مؤسسة التلمود توراه. أما ميزانية هذه المؤسسة فقد كانت

¹P. Cohen, *Congres Juif Mondial...*, op.cit, p. 169-170.

²يقول حاييم الزعفراني: "وأنا أتحدث مع احد كبار علماء المغرب اليهود- وهو الربى يوسف مساس، الذي وافته المنية في إسرائيل قبل سنوات، بعد أن شغل مهام القاضي الأعلى في مدينة حيفا- عن طرق التعليم والتلقين التي كان يتبعها زملاؤه المغاربة في " الحدر " و " الياشفا " أضاف بفكاهته المعهودة، مزجها بنوع من الحسرة والأسف وبيعض الاستهزاء، مقتبسا من سفر إشعياء : " ليس تعليمهم إلا درسا محفوظا علمهم آياه الناس ". وكيف ما كان الأمر، فغنى هذا التعليم كان هو الشائع وكان يضمن الزاد المعرفي لقادة الطائفة الروحيين، كما حافظ لليهودية على أجيال من اليهود المخلصين لإيمانهم المتشبهين بتقاليد أجدادهم. ووقى اليهودي المحروم من أن يسقط في الظلامية الدامسة، أو أن يصل إلى درجة الاسترقاقية التي هيمنت على بعض جيرانه المسلمين. وعرف اليهودي "المتعلم" أو المتأدب، حياة فكرية وروحية كان يجد فيها دوما متعة هي عزاء لمرارة وجود مليء بالمعاناة، متعة ملأت في غالب الأحيان، حياته بضياء وبهجة لا يلاحظهما ذو العين الكليية، ولا يتوصل إليهما أبدا الطارئ الأجنبي، وإنما فيهما ما يوحى إلى الغريب بما جاء في المزمور 128، آ 50: " هذه تعزيتي في يؤسي ". حاييم الزعفراني، *يهود الأندلس والمغرب*، الجزء الثاني...، مرجع سابق، ص. 440-439.

³R. Assaraf, *Eléments...*, op. cit, p. 276.

⁴J. Tolédano, *Portrait ...*, op. cit, p. 326.

تقع كلها على عاتق أبناء الجماعة، كما كان التعليم بها مجانياً¹، بل أكثر من ذلك، تم مَنَح مَنَح للطلبة المعوزين من بين 17 طالبا الذين كانوا يدرسون بهذه الياشفات.

وفي سنة 1947 ستضطر هذه المؤسسة إلى إغلاق أبوابها بسبب غياب مصادر التمويل²، الأمر الذي دفع أغلب طلبتها إلى لهجرة نحو الولايات المتحدة الأمريكية³. قبل أن تعود سنة 1951 إلى فتح أبوابها، لكن في صيغة مدرسة حديثة، هذه المرة، تقدم تعليماً مزدوجاً علمانياً ودينيّاً ببنية حديثة بأحد شوارع المدينة الأوربية، حيث استمر عملها إلى أن أغلقت أبوابها سنة 1958⁴. والجدير بالذكر، في هذا السياق، أن التطور الذي حصل في حياة المغاربة اليهود على عهد الحماية، لم يعد الحاخامات المتكونين بالياشفات التقليدية، والذين بلغ عددهم بمكناس سنة 1956 ما يقارب 200 طالب⁵، يستجيبون لحاجياتهم الجديدة⁶، وذلك انسجاماً مع مضامين التقرير الذي قدمته البعثة المغربية بالمؤتمر اليهودي العالمي الذي سبق وتحدثنا عنه من خلال تتبعنا تجربة الأليانس بمدينة مكناس، منذ بدايتها سنة 1901 حتى الخمسينات من القرن العشرين، اتضح لنا أن تردد الأسر المحافظة في الإقبال على التعليم العصري الذي رافق عدم قدرة الثنائي فلادجي في التأقلم مع خصوصيات الجماعة اليهودية المحافظة بهذه المدينة، قد تبدد تدريجياً خلال التجربة الثانية بعد التحاق الثنائي مويال للإشراف على مدرسة الرابطة سنة 1910، والذي استطاع التكيف تدريجياً مع واقع يهود مكناس ومتطلباتهم، بشكل ساهم في دفعهم، مع مرور السنوات، إلى الحرص على تسجيل أبنائهم بالمدرسة العصرية، إلى درجة أدت، منذ الثلاثينات، إلى جعل الطلب على هذا النوع من التعليم يفوق الطاقة الاستيعابية للمدرسة أملاً في الترقى الاجتماعي، كما تعززت الرغبة في نيل حظ من التعليم العصري بعدما حصل نوع من التوافق بين التعليم العلماني لمدرسة الرابطة والتعليم الديني الذي كانت تقدمه المؤسسات التقليدية في إطار نوع من تقاسم الأدوار، خصوصاً بعد بناء مؤسسة التلموذ تورا الحديثة سنة 1930، بحيث تولت هذه المؤسسة ومثيلاتها مهمة تلقين التعليم الديني للأطفال المتراوحة أعمارهم ما بين 8 و 10 سنوات، وبعد قبل أن

¹R. Assaraf, *Eléments...*, op. cit, p. 276.

²J. Tolédano, *Portrait* ..., op. cit, p. 326.

³"لحسن حظ هؤلاء الطلبة أن مؤسسة ياشفات Mir، التي كان مقرها بالولايات المتحدة الأمريكية، والتي كانت تعود ليهود من أصل ليتواني كانت تبحث عن طلبة جدد، فهاجر إليها 15 طالبا من أجل متابعة دراستهم بها، وقد تم ذلك بفضل حصول هؤلاء على إعانات مالية، لكن لا أحد منهم عاد إلى المغرب ليستقر على نحو دائم".

R. Assaraf, *Eléments...*, op. cit, p. 276

⁴J. Tolédano, *Portrait* ..., op. cit, p. 326.

⁵J. Tolédano, *Le temps du Mellah*, op.cit, p. 371.

⁶D. Bensimon-Donath, *Evolution du judaïsme marocain...*, op.cit, p. 126.

يلتحقوا بمدرسة الرابطة ليتابعوا تعليمهم العصري، وقد كان مدرسو هذه الأخيرة سعداء بالتخلص من تلقين المواد الدينية التي لم يستحسنوها يوما. كما أن الاهتمام باللغة العبرية والتعليم الديني بشكل أكبر بعد الحرب العالمية الثانية قد ساهم في تبيد مخاوف النخب المحافظة والمتصهينة التي كانت تخشى أن يؤدي التعليم العلماني إلى سلخ الأطفال عن ثقافتهم اليهودية وقيمها التقليدية. وبالرغم من المجهودات التي بذلتها مدرسة الرابطة، محليا، للتغلب على مشكلة الاكتظاظ التي كانت تؤرق أولياء الأمور فإن النجاح في التغلب على تلك المشكلة لم يتحصل إلا مع مطلع الخمسينات، عندما تم بناء أقسام جديدة بكل من مدرستي الذكور والإناث، إلى درجة جعلت يهود مكناس يحتلون المرتبة الأولى في عدد المتدربين قياسا بعدد السكان مقارنة مع جماعات المدن الأخرى.

لقد استطاعت مدرسة الرابطة قياسا بالإمكانات المحدودة المرصودة لها تحقيق عدد من المنجزات، تمثلت في انتشار عدد مهم من أفراد الجماعة اليهودية بمكناس من عزلتهم، ومكنتها من ربط صلات جديدة مع عدة أطراف، ونخص بالذكر المستوطنين الفرنسيين، والنخب اليهودية داخل المغرب وخارجه، بشكل مكن عددا من يهود المدينة من التمتع في مهام الوساطة الجديدة في سياق التحولات التي شهدتها المغرب خلال فترة الحماية، دون أن يؤدي ذلك إلى تحقيق منافسة فعلية مع المعمرين الذين ظلوا يحظون بالأولوية لدى المستعمر الفرنسي انسجاما مع الخطوط الكبرى لفلسفة السياسة الأهلية، ودون أن يؤدي ذلك أيضا إلى انفصال اليهود -العصريين بالخصوص- عن خصوصياتهم الهوياتية بوصفهم أقلية دينية وعرقية ولغوية استطاعت الحفاظ على علاقاتها مع تاريخها وعاداتها وتقاليد العريقة داخل مؤسسات التعليم بنوعيتها، وهي المؤسسات التي استطاعت الاستمرار في تدبير الاحتياجات الدينية والروحية للطائفة بدعم من عدد من المنظمات الصهيونية التي قدمت مساعدتها تحت غطاء العمل الإحساني، وقد أدى ذلك لاحقا، ودون أن تسعى إليه الرابطة منذ البداية، إلى توفير المناخ المناسب للاستقطاب الصهيوني، خصوصا بعد الحرب العالمية الثانية، بشكل أدى على مراحل إلى تفعيل دينامية الهجرة والتهجير خارج المغرب لأكثر نسبة من يهود مكناس.

2. الصحة والنمو الديموغرافي

كان الوضع الصحي للمغاربة قبل مرحلة الحماية سيئا للغاية بسبب تعاقب الأمراض والأوبئة والمجاعات التي كانت تتعاقب وتختلف عددا كبيرا من القتلى، لاسيما وأن الطرق التي كانت تُعتمد لمواجهة تلك الحالات الوبائية ظلت تقليدية وعاجزة عن الحد من عدد الضحايا. أما عن خصوصيات الحالة الصحية لليهود مدينة مكناس فقد ارتأينا أن نقارب الموضوع رصدًا وتتبعًا عبر الإجابة عن الأسئلة التالية: ما هي الظروف والعوامل التي ساهمت في توفير بيئة حاضنة للأوبئة بالمدينة، وما هي نوع الأمراض والأوبئة التي كانت منتشرة في صفوف ساكنتها بشكل عام، واليهود بشكل خاص؟ وما هي الخلفيات التي تحكممت في السياسة الصحية لإدارة الحماية تجاه الأهالي؟ وما هي الوسائل والأساليب الوقائية التي اعتمدتها الحماية في سياساتها الوقائية والعلاجية؟ وكيف كانت استجابة الأهالي لهذه الأساليب؟ وما هي النتائج التي أسفرت عنها فيما يتعلق بالصحة العامة لليهود؟ وكيف انعكس ذلك على الوضع الديموغرافي لهذه الجماعة بمدينة مكناس؟

لقد كانت المياه الراكدة والمتدفقة وتعدد المجاري المائية بالمدينة وبالمجال الفلاحي المحيط بها من أهم العوامل التي تسببت في توفير بيئة حاضنة لعدد من الأمراض والأوبئة التي عانى منها سكان مدينة مكناس¹. أضف إلى ذلك أن الساكنة لم تكن مدركة للاحتياجات الواجب اتخاذها فيما يتعلق بالماء الصالح للشرب، حيث كانوا يستهلكون مياه الآبار الموجودة قرب المنازل². علاوة على ما كان ينشأ عن البنية الصخرية لمدينة مكناس، والتي كانت سببا في تسرب المياه الملوثة إلى الفرشة المائية إثر تساقط الأمطار³.

إن تفاقم الحالة الوبائية كان ينتج أيضا عن استهلاك ساكنة المدينة للمنتجات الفلاحية التي كان يتم سقيها بمياه الصرف الصحي، كالتى كانت تخرج من الملاح⁴. وتبني أيضا الإشارة إلى أن تدني الوضع الاقتصادي والاجتماعي وتردي الوضع المعيشي لبعض الساكنة كان عاملا مساعدا على تفشي بعض الأمراض التي التصقت في الغالب بالبؤساء، حيث ارتبط انتشارها تاريخيا بالسنوات العجاف وبسوء التغذية⁵. وفيما يتعلق بالساكنة اليهودية نشير إلى أن وضعهم الصحي كان متدهورا على غرار باقي السكان المسلمين، خاصة وأن ظروف السكن بالملاح

¹Gaud (J), «Politique de santé publique au Maroc», 8 mars 1955, document du CHEAM, N°2456,p. 2.

² ANR. rapport mensuel du Bureau Municipal d'hygiène, Meknès, carton N° 1181,juillet 1936

³حسنة مازي، مجتمع مدينة مكناس: المدينة القديمة على عهد الحماية، 1912-1956، أطروحة لنيل الدكتوراه في التاريخ، نوقشت بجامعة المولى إسماعيل، كلية الآداب والعلوم الإنسانية مكناس، الموسم الدراسي، 2002-2003، ص. 75.

⁴ ANR. P-V.de C.M, Meknès, carton N° 1719, 4 juin 1929

⁵حسنة مازي، مجتمع مدينة مكناس...، مرجع سابق، ص. 79-80.

القديم كانت سيئة جدا، وقد أتى على وصف ذلك الواقع المزري الرحالة اليهود والمسيحيون الذين سبق أن زاروا الحي اليهودي خلال عبورهم مدينة مكناس، وقد جاء في هذا الصدد، في شهادة الرحالة شارل دوفوكو¹ الذي أقام بمدينة مكناس من 23 إلى 27 غشت من سنة 1838 ما يلي:

"[...] يعيش اليهودي بين ذويه في الملاح. يلبس نعليه، من جديد، عند تخطيه أبواب الملاح، تراه يهرول بين أزقة كثيرة مظلمة ووسخة. يجري وسط القاذورات ويصطدم بالخضر المتعفنة ويجد نفسه أمام حمار مريض يقطع عليه الممر، وتماثراً جميع أنواع الروائح القذرة خياشيمه وتهاجمه أصوات غير متناغمة من جميع الجهات"².

هذا، وثمة شهادة أخرى جاءت في ذكريات هنري دو لامارتنيز حول المغرب يصف من خلالها الملاحظات بالمغرب قائلاً إنها كانت متسخة جدا، حيث شكلت فضاء مثاليا لتكاثر الجراثيم المسببة للأمراض الخطيرة. كما أن بيير لوتي خلال زيارته لملاح المدينة سنة 1889، لم يخف استمرازه مما لاحظته وهو يتجول بين أزقته، حيث وصف الوضع كالآتي: "تقطن به ساكنة يهودية بكثافة مرتفعة تشعر داخل هذا الحي الضيق بالاختناق، لأن السلطان يمنعهم من الإقامة خارجه. أزقته ممتلئة بالسلع المفروشة على الأرض، وبجانبها جميع أنواع القشور والحطام والنفايات بسبب الازدحام الشديد. انتشار القاذورات والأوساخ يتسبب في انبعاث روائح ليس لها اسم، حادة تزكم الأنف، وتتسبب في اختناق بالحنجرة"³.

هذا الوضع الذي ميز أواخر القرن 19 لم يتغير بعيد توقيع معاهدة الحماية، وظل مستمرا بحدّة أقل نسبيا بفضل بعض الإجراءات التي خففت قليلا من البؤس الذي كان عليه الملاح القديم إلى حدود بناء الملاح الجديد. ومن ثم فقد ساهم الواقع المذكور في توفير بيئة مناسبة لتكاثر الأمراض والأوبئة والحشرات والجراثيم الناقلة لها، بسبب استمرار وجود القاذورات المنتشرة بالأزقة، بالإضافة إلى انتشار مجاري المياه المستعملة في ظل غياب نظام لتصريف المياه المستعملة، ناهيك عن كثرة الأزقة الملتوية التي كانت لا تصلها أشعة الشمس مما كان يوفر مجالا خصبا لتكاثر الميكروبات، ويتسبب في انبعاث الروائح الكريهة⁴، أضف إلى ذلك ارتفاع الكثافة السكانية التي أدت إلى الاكتظاظ لدرجة أرغمت عدة أسر يهودية على الاشتراك في نفس السكن كان يصل إلى 3 أو 4 عائلات بمعدل⁵ غرفة واحدة

¹دوّن تفاصيل رحلته للمغرب ضمن كتاب سماه: **اكتشاف المغرب**، نشر سنة 1883.

²شارل دوفوكو، **التعرف على المغرب-الاستخبارات**، ترجمة المختار بلعربي، أفريقيا الشرق-المغرب، 2015، ص. 272.

³ R. Assaraf, **Eléments ...**, op.cit,p.202-203.

⁴J. Tolédano, **Le temps du Mellah...**, op.cit, p.164.

⁵A.I.U ,IIB12.92, lettre de Almaleh Bensimon au président de l'AIU à Paris, Meknès, 28/11/1932.

لكل أسرة¹ - في الوقت الذي كانت فيه أزمة السكن أقل حدة بالنسبة للأهالي المسلمين² -، علما أن معدل الإنجاب لدى أغلب الأسر اليهودية كان مرتفعا حيث كان يصل إلى 8 أطفال³. كما أن اختصاص اليهود ببعض المهن اليدوية التي لم تكن تتطلب كثيرا من الحركة كان له دور في إضعافهم بدنيا⁴. ومن العوامل الأخرى التي ساهمت، بنسبة كبيرة، في تدهور الأوضاع الصحية لأفراد الجماعة اليهودية تمثل في استمرار التداوي بالطرق والأساليب التقليدية منها الاعتماد على الأعشاب⁵، وهو ما يفسر استمرار وجود عدد مهم من العشابين بمدينة مكناس، حيث بلغ عددهم سنة 1923، 34 عشابا، وقد كان الأهالي المسلمون واليهود يتوارثون العديد من الوصفات لعلاج العديد من الأمراض، أضف إلى ذلك الإيمان بقوة السحر والشعوذة المرتبطين بالفكر الديني والغيبي والقدرية في القضاء على بعض الأمراض المستعصية، حيث لم يخل أي بيت من بيوت الملاح - بما في ذلك العائلات المتطورة - من وجود تائم وتعاويد يستخدم فيها الحديد والملح لدرء الأذى، لأن الجميع كان يؤمن بأن الإصابة بالأمراض والشفاء منها أمر مرتبط في النهاية بالمشيئة الإلهية، مما كان يؤدي إلى استسلام المريض ل"المكتوب" من الأمراض القاتلة، وهي ذهنية في التعاطي مع الأمراض كانت تثير دهشة الأوروبيين⁶. حتى أن أحد الأطباء ربط استمرار اعتماد تلك الأساليب التقليدية بسطوة المعتقدات الشعبية على ذهنية المغاربة قائلا: "يمكن أن نتساءل إن كان الطب المحلي لا زال مستمرا، ويجب أن نجيب على هذا السؤال بالتأكيد، لأن تلك الممارسات التقليدية تستجيب للمعتقدات والخرافات الشعبية، ولأنها تزج في كل حالة بالله والأولياء الصالحين المعالجين. هذا الأسلوب يستعمل الممارسات السحرية لأن العقل الشرقي يستجيب أكثر للغيب"⁷. وجدير بالذكر أن الأطباء الفرنسيين الأوائل الذين قدموا للمغرب لم يحاولوا محاربة هذه الممارسات العلاجية كما حصل بالجزائر ما بين سنتي 1830 و 1860، بل على العكس من ذلك عملوا على التعايش مع هذه الممارسة التي كانت تتلخص فلسفتها في عبارة "أنا أداوي والله يشفي"⁸ استجابة لفلسفة السياسة الأهلية التي كان من بين أهدافها احترام مقدسات وممارسات الأهالي في هذا المجال⁹. هذه النظرة

¹«le nouveau Mellah de Meknès», in AI, N°45-46, Décembre, 1927, p. 6.

²D. Bensimon-Donath, *L'évolution du judaïsme marocain...*, op.cit, p. 48.

³Marcel Benabou, *Une enfance juive en Méditerranée musulmane*, textes inédits recueillis par Leila Sebbar, Ed la croisée des chemins, Casablanca, 2013, p. 52-53.

⁴A. Chouraoui, *Presse Universitaire...*, op.cit, p. 189.

⁵من بين الوصفات التي استعملت لإنزال الدود من الأمعاء، نذكر أنه كان يتم اللجوء إلى غلي البنفسج والبقدونس والكرفس في الماء ويشرب في الصباح. أو يتم جمع 7 ورقات من نباتات مختلفة يتم غليها ثم يشرب ماؤها في الصباح. وبالنسبة للأشخاص الذين كانوا يعانون من الاضطرابات القلبية إثر استيقاظهم، كانوا ينصحون بشرب الماء الساخن الذي يضاف إليه الملح. وبالنسبة لاضطرابات المعدة كانت الوصفة تتمثل في أكل سبع حبات من الفول اليابس وشرب عصير الحامض، الذي يضاف إليه قليل من السكر والزباد. (رقم 7 في الوصفة يحيل على دلالاته المقدسة في الوجدان الشعبي للمغاربة بيهودا ومسلمين). "حسنة مازي، مجتمع مدينة مكناس...، مرجع سابق، ص. 97.

⁶D. Rivet, *Le Maroc de Lyautey...*, op.cit, p. 289.

⁷Arnaud (Dr), «*Quelques aspects de la médecine marocaine*», Extrait du Maroc-Médical, N°231, p. 1.

⁸D. Rivet, *Le Maroc de Lyautey...*, op.cit, p. 290.

⁹"كانت عملية الولادة، مثلا، مجالا للعديد من الطرق التي كانت تمزج بين العلاج بالأعشاب وبعض الطرق التي يمتزج فيها ما هو ديني بما هو خرافي، من قبيل أخذ بعض الأشياء من المقبرة واستعمالها في العملية. وتتخلص طريقة العلاج في هذه المراحل: كان يتم جلب قفة سبق استعمالها

"الاستشرافية" للفرنسيين تجاه الأهالي في فهم علاقتهم مع الطب الشعبي كانت اختزالية، ذلك أن أغلب السكان، خاصة اليهود، كانوا خلال السنوات الأولى للحماية قد بدؤوا يدركون أهمية طرق العلاج العصرية في الحصول على الشفاء الفعال، خاصة بعد احتكاكهم بالأوروبيين وملاحظة فعالية الطرق العصرية، ذلك أنهم طالبوا مبكرا بالاستفادة منها مع بعض التحفظات ذات الخلفية الاجتماعية والدينية، كما سنوضح ذلك لاحقا. يمكن القول، إذاً، أن اضطراب البعض منهم إلى التداوي بالطرق التقليدية كان يعود إلى فقرهم وعجزهم عن شراء الأدوية التي كان الأطباء الفرنسيون يصفونها لهم، وهو ما كان يجبرهم على الاستمرار في التداوي بالأساليب العتيقة التي لم تكن تكلف أصحابها إلا قليلا من النقود¹.

هذا الوضع المعيشي المزري الذي كان يعاني منه اليهود خصوصا بالملاح القديم واستمرارهم في تعاطي بعض الأساليب التقليدية، وقلة التجهيزات والأطر الطبية العصرية المتاحة على مستوى المدينة، عوامل تسببت لهم في الإصابة بعدة أمراض كالتييفويد، والباراتييفويد، والجذري، والحمى القرمزية، والحنان الغشائي، والحمى الراجعة، وشلل الأطفال، والرمم الحبيبي، وأمراض القلب، والتهاب المعدة والأمعاء، أضف إلى ذلك داء القرع الذي كان متفشيا بكثرة في صفوف التلاميذ، والذي لم تتخذ بشأنه أي إجراءات خلال الفترة التي تناولها التقرير البلدي². وقد كان ذلك موضع انتقاد شديد اللهجة في التقرير المفصل حول المغاربة اليهود في الجزء المتعلق بالوضع الصحي الذي كان يسود بمؤسسات التعليم الدينية التقليدية / الحيدريم الذي أعدته وقدمته البعثة المغربية في المؤتمر اليهودي العالمي الذي انعقد بأتلانتيك سيتي سنة 1944 بالولايات المتحدة الأمريكية حيث جاء فيه: ... المعلم يجب أن يقبل أكبر عدد ممكن من التلاميذ، بغرفة من مترين و50 سنتيمترا على 3 أمتار، أي أن مساحتها لم تكن تتعدى 7 أمتار مربعة. وإذا خصمنا منها مساحة متر مربع واحد للمعلم ومكتبه ستصبح أضيق بالنسبة للتلاميذ. لقد عددنا 85 تلميذا بالعرة، وما يقلقنا أن هذا العدد يمكن أن يظل مرشحا للارتفاع، لأن الحاحامات لا يترددون في قبول جميع الأطفال من جميع الأعمار من سنتين إلى 14 سنة. حالتهم في توافق مع المكان، وحتى إذا كانوا نظيفين في الصباح ففي ظرف ساعة يصبحون مثل أصدقائهم الذين لم يهتم آباؤهم بنظافتهم أو تغيير ملابسهم، فهم غير مباليين بهذه الجهود،

في حفر قبر من المقبرة، وإذا كانت كبيرة الحجم توضع فيها المرأة الحامل، وإن كانت صغيرة يخلق فيها شعرا، وربما كان الخوف من الجلوس وسط قفة استعملت في حفر أحد القبور عاملا مساعدا على حدوث الانقباضات العضلية عند المرأة مما يساعدها على الوضع، وكانت تتابع العملية بأخذ الماء من سبعة أبار...، ويتم تسخين ذلك الماء بنار تحرق فيها بعد ذلك تلك القفة، ويطلب من المرأة أن تستحم به مع مراعاة أن توضع فيه سبعة مفاتيح لسبعة أبواب مختلفة... بعد ذلك يتم تبخير المرأة بمجموعة من العطور التي تتكون من قشور السلحفاة وجلد الثعالب... وبعد العديد من الطقوس يتم حمل الماء وإفراغه في باب المعبد".

De Lens (A.R), «La médecine des indigènes marocains, pratiques médicales et magiques des matrones à Meknès», in Maroc médical N°9, 15 Juillet, 1922, p. 242.

¹ حسنة مازي، مجتمع مدينة مكناس...، مرجع سابق، ص. 96.

² ANR, Rapport Mensuel, Meknès, Carton N° 852, Mars 1923.

أو يعتقدون بأن أبنائهم يوجدون في حالة عادية. هل يمكن التحدث على النظافة في هذه الأماكن؟ الأوبئة كحمى تيفويد والتهاب الرئة والأمراض الجلدية ... المنتشرة بالمغرب، موجودة بكثرة بالحيداريم، ولكن الأخطر هو مرض السل الذي يجد في الأجسام الضعيفة لهؤلاء الصغار الأبرياء الذين يعيشون في هذا الجو المليء بالميكروبات الفرصة والمكان المناسب للانتشار. الآباء لا يشتكون من ذهاب أبنائهم إلى هذه الغرف الموبوءة التي تمثل فضاء مناسباً "لقتلهم"، إنه جرم ولا يوجد تفسير آخر لذلك، إنه جرم جماعي يُقترف يوميا تحت أنظار العالم، والشرطة لا تدين القتل¹.

أضف إلى ذلك داء الملاريا، حيث كان يتصدر قائمة الأمراض المعدية بمدينة مكناس بسبب المياه الراكدة التي كانت تسمح بتفريخ بيض الناموس²، وجدير بالذكر أن عدم إجبارية التبليغ عن هذا المرض كان يزيد من تفاقمه، وهو ما كان يثير قلق المكتب الصحي للبلدية، الذي أكد على أن سكان المدينة الجديدة لم يكونوا يعانون من هذا المرض بسبب نوعية السكن الصحي الذي كانوا يقطنون به، على عكس الوضعية بالمدينة القديمة، وباقي الأحياء الهامشية³.

علاوة على مرض الإسهال الذي كان من أكثر الأمراض المتفشية في صفوف ساكنة المدينة القديمة، بما في ذلك يهود الملاح، وكان يرتبط أكثر بالبؤساء الذين يعانون من مشكلة الماء ومشاكل سوء التغذية، وهو مرض كان يستشري بحدة أكثر في صفوف ضحاياه كلما ساءت أحوالهم المعيشية مثلما حدث سنة 1945، حيث تم تسجيل 6543 حالة مرض بالمدينة القديمة، بسبب نوعية الغذاء الذي اضطرت الساكنة الفقيرة إلى تناوله، ذلك أن هذه السنة ارتبطت في الذاكرة الشعبية بـ "عام الجوع"، حيث كان الناس يأكلون عدداً من الوجبات غير الصحية⁴.

أما مرض التيفوس، فقد كان من أخطر الأمراض الوبائية التي كانت تصيب يهود المدينة، لأن الملاح القديم كان يشكل فضاءً مثاليا لهذا المرض نظراً لتراكم الأوساخ وسوء التغذية، وارتفاع الكثافة السكانية والازدحام الشديد، لقد ساهمت هذه العوامل في انتقال العدوى عن طريق القمل من شخص إلى آخر، وغالبا ما كان يؤدي هذا المرض إلى وفاة المصابين به، حيث أدت مجاعة 1944-1945 إلى ضعف بدني شديد مسّ عدداً كبيراً من اليهود، الأمر الذي تسبب في وفاة عدة ضحايا بشكل يومي تقريباً⁵. وعلى سبيل المثال لا الحصر بلغ عدد المصابين بهذا الداء

¹P. Cohen, *Congrès Juif Mondial, Conférence Extraordinaire de Guerre...*, op.cit, p. 167.

²Gaud (J), «politique de santé publique au Maroc», op.cit, p. 2.

³ANR, Rapport annuel du Bureau Municipal d'hygiène, Meknès, Carton N° 1181, 1935

⁴ANR, Rapport annuel, du Bureau Municipal d'hygiène, Meknès, Carton N° 1606, 1945.

⁵J. Tolédano, *le temps du Mellah*, op.cit, p. 148.

سنة 1945 بمدينة مكناس 72 شخصا، منهم 54 مسلما و 4 يهود، و 10 أوروبيين¹، إلا أن مرض الفئة الأخيرة كان ناتجا عن العدوى وليس بسبب سوء الأحوال المعيشية كما كان الشأن بالنسبة للأهالي.

كما أن مرض السل كان من بين الأمراض المعدية الأكثر انتشارا في صفوف اليهود بالملاح القديم، ويعود ذلك إلى تدهور الوضع السكني وقلة التهوية والتشميس بالبيوت التي كانت مكتظة وضيقة، وكان أكثر ضحاياها من فئة بالأطفال²، وإن ساهم جفاف مناخ المدينة في خفض عدد ضحايا هذا المرض، وذلك ما يفسر استقرار عدد كبير من المصابين به بهذه المدينة بناء على نصيحة، الأطباء بعدما تم تأسيس نواة مستوصف متخصصة في علاج هذا المرض³.

ومن بين الأمراض التي كانت مستشرية بالمدينة نذكر مرض حمى المستنقعات الذي كان أيضا من أخطر الأمراض وأكثرها تفشيا في صفوف الإسرائيليين، لأن مدينة مكناس عرفت انتشار كبيرا للمجاري المائية؛ كما سبق وأشرنا إلى ذلك عندما تحدثنا عن البيئة الحاضنة للأوبئة بالمدينة، وكان هذا المرض يودي بعدد كبير من الضحايا في الأرواح سنويا، خاصة في صفوف الساكنة الفقيرة⁴.

إن هذه الأمراض التي كانت تصيب يهود المدينة لم تكن مرتبطة دائما بالبيئة الحاضنة للأوبئة محليا، إذ انتقل بعضها إليهم بسبب العدوى من بعض إخوانهم في الدين الذين كانوا يحملونها معهم عند عودتهم من مناطق أخرى، كما حدث سنة 1943، حيث تسبب يهودي قادم من مدينة الدار البيضاء كان مصابا بالحمى الراجعة في انتقال العدوى إلى آخرين. وفي سنة 1944 سجل المكتب الصحي للمدينة سبع إصابات بمرض السل الرئوي، اثنتين منها كانت قادمة من خارج المدينة، مما أدى إلى تزايد في عدد الضحايا في ظل وسط معيشي مساعد، كان من نتائجه وفاة 13 يهودياً سنة 1944 بكتيريا التيفويد، وقد سجلت أعلى الإصابات في صفوف الفئة العمرية التي كان يتجاوز سنها 45 سنة⁵. وفيما جدول نورده تمثيلا، يحدد نسبة الوفيات مقارنة بعدد السكان اليهود ما بين 1939 و1944:

¹ ANR, Rapport annuel, du Bureau Municipal d'hygiène, Meknès, Carton N° 1606, 1945.

² ANR, Rapport Mensuel. Meknès, Carton N° 852, Mars 1923.

³ حسنة مازي، مجتمع مكناس: المدينة القديمة على عهد الحماية...، مرجع سابق، ص. 84.

⁴ ANR, Rapport annuel, du Bureau Municipal d'hygiène, Meknès, Carton N° 541, 1935-1936.

⁵ ANR, Rapport annuel, du Bureau Municipal d'hygiène, Meknès, Carton N° 1576, 1944.

السنة	1939	1940	1941	1942	1943	1944
عدد السكان	9.510	11.018	11.800	12.500	13.068	12.500
عدد الوفيات	137	132	88	166	136	118

Source : ANR, Rapport annuel, du bureau d'hygiène, ville de Meknès, Carton N° 1576, 1944.

يتضح إذًا، من خلال الجدول أعلاه، أن هذه الأمراض كانت تخلف معدل وفيات مرتفع خصوصا في صفوف الأطفال الذين كانوا يموتون فور ولادتهم، أو بعد بلوغهم سنة أو سنتين من عمرهم بسبب ضعف المناعة لديهم مقارنة بالبالغين، حيث مات سنة 1944، مثلا، 39 طفلا لم يكن عمرهم يتجاوز سنتين بسبب مرض التهاب المعدة والأمعاء¹. كما كانت تسجل وفيات مرتفعة في صفوف النساء بسبب الوضع، لأن عدداً منهن كن يقمن بعملية الولادة داخل المنازل بطريقة تقليدية بمساعدة القابلات اللواتي لم يكن يتوفرن على ديبلوم خاص في التوليد كما سيحصل في مرحلة لاحقة².

أمام هذا الوضع الصحي المتردي تعددت احتجاجات النخب اليهودية التي طالبت إدارة الحماية بالتدخل من أجل إيجاد حلول مناسبة كفيلة بتحسين الوضع الصحي لإخوانهم في الدين. في هذا الصدد، وبتاريخ 7 فبراير قام إليزير بيرديغو داخل إحدى اللجان البلدية بعرض احتجاجات اليهود التي استنكروا فيها استمرار عيشهم في أماكن قذرة. أشهراً بعد ذلك، تم رفع تلك الشكاوي إلى السلطان مولاي يوسف الذي زار المدينة سنة 1923، حيث استغلوا هذه المناسبة كي يعرضوا أمامه الحالة البئيسة التي كانوا يعيشون فيها مكدسين داخل ملاح ضيق، تنعدم فيه أبسط شروط الوقاية الصحية، كما أوضحوا له أن ارتفاع الكثافة السكانية في ظل أزمة سكن خانقة داخل الملاح القديم قد اضطررتهم إلى العيش في السكن المشترك بمعدل أربع عائلات داخل البيت الواحد، وأن بعض الأسر كانت تتكون من 8 إلى 10 أفراد، كما أكدوا له أن بعض الأبناء المتزوجين كانوا يجدون أنفسهم مرغمين على العيش مع آبائهم. وبناء عليه، فقد ناشدوه من أجل التدخل لإنهاء معاناتهم باسم الأخلاق والوقاية.

هذه الشكاوى زكتها المصالح البلدية للمدينة، حيث نبهت إلى أن الملاح القديم لم يعد صالحا للسكن نهائيا، وأنه أصبح يشكل خطرا حقيقيا ليس فقط على صحة اليهود، بل على باقي الصحة العمومية للمدينة³، وتنبغي

¹ ANR, Rapport annuel, du Bureau Municipal d'hygiène, Meknès, Carton N° 1576, 1944.

² D. Bensimon-Donath, *Evolution du Judaïsme Marocain...*, op.cit, p. 70-71.

³ «Le nouveau Mellah de Meknès», op.cit p. 6 ; J. Tolédano, *Le temps du Mellah*, op.cit, p.136-146.

الإشارة إلى أن جميع الملاحظين الأجانب وصفوا الوضعية الصحية للملاح بالمزرية، وباستمرار كانت الصحافة اليهودية المغربية تشير إلى هذا الوضع واصفة إياه بـ "فضيحة الملاح"¹. كما أدانت مصالح الوقاية بالمدينة بدورها هذا الوضع، حيث دعا أحد أطباء مكتب الوقاية الصحية بمكناس إلى ضرورة تطوير الوضع الصحي الذي كان يعيش فيه الإسرائيليون، حيث أكد أن تبني الإجراءات الوقائية على نحو استعجالي سيكون له دور كبير في التقليل من الظروف المساعدة على انتشار الأوبئة. هذا التصور كان يصب في نفس رؤية الجنرال قائد الناحية ومساعدته المدني بالإضافة إلى رئيس المصالح البلدية الذي وعد بأن يعرض هذا المشكل على المصالح المختصة، في انتظار بناء ملاح جديد تتوفر فيه شروط الوقاية الصحية كما وعد بتطوير الوضع الصحي للمدينة ككل².

لم يقتصر طرح المشاكل الصحية للمغاربة اليهود على المستوى المحلي والوطني، بل أصبحت تطرح أيضا على مستوى المحافل الدولية التي كانت متخصصة في تدارس شؤون يهود العالم وأحوال، حيث حظي ميدان الخدمات الصحية أكثر من غيره بالقسط الوافر من اهتمامات الجمعيات اليهودية الدولية بالنظر لهول الاحتياجات في الميدان، خاصة بعد حصول تكديس كبير في أحياء الملاحات في المدن الكبرى من جراء احتدام حركة الهجرة القروية³. في هذا الإطار وفي سياق انعقاد المؤتمر اليهودي العالمي⁴ الذي انعقد في أطلانتيك-سيتي بالولايات الأمريكية (26-30 نونبر 1944)، وهي أولى المناسبات التي سيحضر فيها وفد مغربي مكلف بتمثيل المغاربة اليهود من أجل طرح مشاكلهم أمام هيئة عالية المستوى، وعلى أكثر من صعيد. وفي كلمته أمام المؤتمرين، شدد رئيس الوفد المغربي (صامويل-دانييل ليفي) على الوضعية الدونية لإخوانه في الدين، مؤكدا أنها "وضعية طبعت التاريخ المغربي منذ قرون عديدة"، مشيرا في نفس الوقت إلى طبيعة موقف السلطات المغربية من قضايا الجماعة اليهودية. وعندما أثنى على الجهود التي تبذلها الهيئات اليهودية الدولية من أجل تقديم المساعدة لليهود المغرب، انتقل إلى عرض أهم المواضيع التي تستلزم الاهتمام، وكان من بينها الوضع الصحي المزري للأغلبية⁵.

¹ D. Bensimon Donath, *Evolution du judaïsme marocain...*, op.cit, p. 48.

² «Le nouveau Mellah de Meknès» op.cit, p. 6.

³ محمد حاتمي، *الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية وهران المغرب المستقل، 1948-1961...*، مرجع سابق، ص. 173.

⁴ "أسس المؤتمر اليهودي العالمي سنة 1943 لجنة خاصة بالشؤون المغربية مقرها بنيويورك، وضع على رأسها إطاران ساميان في الهيئة هما جاك بينتو وستيفن والكوفيتس. وقام المسؤولان بإجراء اتصالات مع ممثلين عن الجماعات المغربية في الدار البيضاء وطنجة، على إثرها تم الاتفاق على تهيئة الأجواء لخلق فرع مستقل في المغرب. وراعت أطر المؤتمر منذ البداية التعامل مع ممثلين للجماعات المغربية من خارج الحلقات الضيقة للنخب التقليدية اليهودية المحسوبة على السلطات الفرنسية". محمد حاتمي، *الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية وهران المغرب المستقل، 1948-1961...*، مرجع سابق، ص. 126-127.

⁵ P. Cohen, op.cit, p. 163.

ولابد من التذكير بأن اهتمام المؤتمر اليهودي العالمي بشؤون اليهود المغاربة خلال هذه المرحلة كان نابعا من إدراكه من أن الهيئات اليهودية الكبرى (المنظمة الصهيونية العالمية والوكالة اليهودية والحكومة الإسرائيلية) لا تولي أهمية تتوافق وحاجيات يهود المنطقة، لذلك جعل من الاهتمام بوضع المغاربة اليهود ثاني جبهة "للنضال" بعد يهود الاتحاد السوفياتي وأوروبا الشرقية. وكان المؤتمر اليهودي حريصا على معرفة حاجيات يهود المغرب مباشرة، لذلك أوفد مبعوثه الخاص للمغرب (ستيفن والكوفيتش)، الذي قام خلال ستة أشهر من سنة 1946 بالتجول في ربوع البلاد، حيث التقى بالمسؤولين الفرنسيين في الإدارة العامة وفي الأقاليم وبممثلين داخل مجالس الجماعات، وشرح لهم أهداف الهيئة التي كان ينوب عنها¹. وتنبغي الإشارة إلى أن المؤتمر اليهودي قد قام، بعد نهاية الحرب في أوروبا، بالتحركات اللازمة من أجل تأسيس فرع مغربي للمؤتمر بالمغرب، مع ضمان تمثيلية لكل الجماعات المغربية، وذلك ما تحقق بتاريخ 28 غشت من سنة 1945، حيث اجتمعت مجموعة من الأطر اليهودية الممثلة لجهات وحساسيات مختلفة، وأسست الفرع المغربي للمؤتمر اليهودي العالمي وانتخبت مكتبته التنفيذي الذي راعى تمثيلية كل المناطق اليهودية الكبرى، وكان ضمنه تمثيلية ليهود مكناس². ومن المعلوم، أن المنظمات اليهودية الأمريكية، وفي سياق الانفتاح الخارجي على مشاكل يهود شمال إفريقيا، قد ازداد اهتمامها باليهود السرفديين الذين كانوا يعيشون بهذا المنطقة، خاصة بعد الحرب العالمية الثانية، وبناء عليه أصبحت جمعية الجوانت³ American Joint Distribution Comité تولي أهمية خاصة لهؤلاء، حيث برر مجلس هذه الجمعية اهتمامه المتميز بيهود شمال إفريقيا بواجب الاستجابة لنداءات المنظمات المحلية، وتوسيع دائرة نشاطاته لتتضمن كل الأعمال التي تساهم في "الرفع من مستوى الخدمات الصحية وتأطير الشبيبة اليهودية ومساندة الأعمال المدرسية والخيرية"⁴. هذه الجمعية الأمريكية لم تتردد في توجيه احتجاجات شديدة اللهجة لإدارة الحماية متهمه إياها بأن أوضاع ساكنة الملاحات قد ساءت في ظل النظام الفرنسي، بل ذهبت إلى حد "الأسف على نظام سلاطين المخزن (القديم)"⁵.

¹ محمد حاتمي، الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية وهران المغرب المستقل، 1948-1961...، مرجع سابق، ص. 129.

² نفسه، ص. 128-129.

³ سنة 1914، أقدمت مجموعة من الأثرياء اليهود على تأسيس جمعية إنسانية تهدف إلى تجميع الدعم المالي قصد إعانة يهود فلسطين على مواجهة الظروف الصعبة التي ترتبت عن مجاعة كانت أرض الميعاد ضحية لها. وفي السنة الموالية، التحقت بهذا التنظيم هيتان يهوديتان كبيرتان، وشكل الجميع الجوانت. وسرعان ما أصبح أهم منظمة إنسانية تمثل اليهود الأمريكيين وتتوب عنهم في تقديم العون للجاليات اليهودية أينما كانت، خاصة تلك التي تعيش في أوروبا الشرقية... هذه الجمعية كانت تستمد مصادرها المالية والعينية وقوة الضغط التي مارستها على أصعدة متعددة من الحركية التي اعتمدتها المنظمات اليهودية المحلية. واعتمدت في عملها الإنساني على المبادئ الأمريكية في الموضوع في إطار ما سمي "welfare"، ويعني ذلك أنه لا يمكن جعل الطرف المستفيد من المعونة يعتمد كلياً على الجهة المقدمة، فالإعانة تكون جزئية ولوقت قصير، وتحصل فقط في الحالات المستعجلة أو خلال الكوارث. وانطلاقاً من سنة 1947، أي منذ الفترة التي أصبح فيها تأسيس الدولة العبرية أمراً وشيكاً، أصبحت المهمة الرئيسية للجوانت هي ترحيل أكبر عدد ممكن من اليهود القادرين على العمل وحمل السلاح، وفق مخططات وتعليمات تقدمها الحكومة الإسرائيلية بتنسيق مع الوكالة اليهودية". نفسه، ص. 139.

⁴ نفسه، ص. 140.

⁵ موقف هذه المنظمة الذي يمكن اعتباره مبالغاً فيه حتى لا نقول مجانباً للصواب، يرجعه محمد كنيبي إلى كون "رد فعل الجوانت كان متأثراً بتأخر اعتراف الولايات المتحدة الأمريكية بالحماية الفرنسية، ومن جهة أخرى رفضها التنازل بدون "ضمانات جدية" عن الامتيازات التي خولتها لها

وفي سنة 1948 قادت منظمة الجوانت حملة استهدفت الرأي العام الأمريكي، ومن خلاله الرأي العام في دول العالم الحر، بهدف جعل قضية يهود المغرب قضية عمومية. وقد انطلقت تلك الحملة بداية 1948، وساهمت فيها العديد من قنوات التأثير من أهمها جريدة نيويورك تايمز، حيث لخص أحد متبعي الحملة مضمونها على هذا النحو: "قيل للأمريكيين بأن اليهود في الجزائر والمغرب وتونس وليبيا- وهي "بلدان إسلامية" يعيشون في ظروف "غير إنسانية". ودأب الجوانت على تقديم تقارير تسهب في التعليق على " المعدل العالي " لوفيات الرضع والأطفال مؤكدة على أنها تصل في بعض المناطق إلى 50%، وتعرض لمظاهر البؤس والفاقة والأمية، وهي أمور شددت على أنها تزيد عيشة يهود " المغرب والجزائر " شقاء، فضلا عن كونهم أصلا " مكروهين ومضطهدين". ووصفت هذه التقارير السكن اليهودي بأقبح الأوصاف، فنعتته بأنه أشبه بالأكوخ المتجمعة في غيتوهات لا يمكن لليهود العيش إلا في داخلها. وأجملت الحملة الدعائية حياة اليهود في المنطقة بأنها تمثل ألفي سنة من المعاملة اللاإنسانية والحقد...¹. والسلطات الفرنسية من جهتها وعبر تمثيليتها الدبلوماسية في واشنطن قامت بنشر معطيات وأرقام رسمية من أجل دحض مزاعم المنظمة الأمريكية. وقد كان خير خاف عن الإدارة الفرنسية كون هذه الأخيرة تخدم المصالح الأمريكية بالدرجة الأولى، ومن جهة أخرى كانت تمارس ضغطها الناعم في أفق كسب مساحات جديدة من أجل خدمة الدعاية الصهيونية بالمغرب في أفق استقطاب المغاربة لليهود لخيار الهجرة نحو إسرائيل، وذلك بالتنسيق مع المنظمات الصهيونية².

في ظل هذا الوسط الموبوء، الذي كان يفتقر، قبل الحماية، للبنيات التحتية الصحية العصرية، ستحاول إدارة الحماية تفعيل إجراءات خاصة في التعاطي معه: فكيف تم ذلك؟ وبأية خلفيات؟ وبأية أولويات؟ وكيف حاولت الجماعة اليهودية بمدينة مكناس تغطية احتياجاتها الذاتية في الخدمات الصحية؟.

يؤكد دانييل ريفي أن الهاجس الأول الذي تحكم في رسم الإستراتيجية الصحية للإدارة الفرنسية منذ السنوات الأولى من الحماية كان هو حماية المستوطنين من الأمراض وعدوى الأوبئة التي كانت مستشرية بالبلاد، أي تأمين التغطية الصحية "للمغرب النافع". هذه الأولوية هي التي دفعت بالسلطات الفرنسية إلى تخطيط المدينة الأوربية الجديدة وبنائها من أجل ضمان شروط سكن لائقة للمستوطنين بعيدا عن المدينة "الإسلامية" التي كان يقطنها

معاهدة مكناس التي وقعت مع المغرب بتاريخ 16 شتنبر من سنة 1836. وكانت تسوية المطالب المعلقة للمحميين والمجنسين بالجنسية الأمريكية، وجلهم من يهود طنجة والدار البيضاء والصويرة ومكناس، ودفع ما يناهز 150.000 دولار أمريكي " في أجل معقول"، وهو مبلغ التعويضات التي كانوا يعتبرون أنفسهم على حق فيها في مقدمة " الشروط المسبقة" التي كانت حكومة الولايات المتحدة الأمريكية تضعها في مقابل " الاعتراف الصريح بتغيير الوضعية القانونية الناجم عن تأسيس نظام حكومي أجنبي في الإمبراطورية الشريفة". محمد كنيبي، **يهود المغرب، 1912-1948...**، مرجع سابق، ص. 259.

¹ محمد حاتمي، **الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب...**، مرجع سابق، ص. 141.

² نفسه، ص. 142.

الأهالي، والتي كانت تمثل في نظر الفرنسيين علامة على الخطاط "الأهالي"¹. وكي تنجح سلطات الحماية في تحقيق هذا الهدف، أي المحافظة على الوضع الصحي للمستوطنين، كانت مضطرة إلى تقديم العديد من الخدمات الصحية وتنزيل غيرها من الإجراءات الوقائية لصالح "الأهالي"، حتى لا تنتقل العدوى إليهم، لأنهما (الأوروبي والأهلي) مضطران للتعيش والاحتكاك يوميا في الحقل والمعمل والإدارة. وتبغى الإشارة إلى أن تلك الخدمات الصحية خلال سنوات الحماية الأولى كانت تعطى فيها الأولوية للسكان الأهاليين الذين كانت الحماية في حاجة ماسة إلى خدماتهم، ونقصد بذلك طبقة البروليتاريا²، دون الاهتمام بالمرضى عقليا والمسنين وكل الذين كان المعمرون يدخلونهم في فئة "نفايات المجتمع" بتعبير الطبيب كولومباني الذي كان مديرا لمصلحة الصحة العمومية والوقاية³، وذلك ما يفسر إضافة إلى خلفيات السياسة الأهلية، تغاضي سلطات الحماية عن مهاجمة أساليب التطبيب التقليدية، كما سبق وأوضحنا ذلك. هكذا يظهر أن السياسة الصحية خلال فترة الحماية كانت تهدف أولا وأخيرا إلى تحقيق مصلحة المستوطنين الأوروبيين، وأن تقديم العلاج "للأهالي" كانت ضرورة وليس عملا خيريا، ومن هذا المنطلق كان العلاج يهدف إلى القضاء على الحالة الوبائية، وليس وضع حد لمعاناة المريض. ولعل ما يؤكد هذه الأولوية هو أن سلطات الحماية كانت تقدم نصائح للمستوطنين الجدد عند حلولهم بالمغرب تقضي بضرورة أخذ كل الاحتياطات اللازمة عند التعامل مع "الأهالي" -الذين كان ينظر إليهم بازدراء⁴-، من قبيل التدقيق عند اختيار الخادمتين، ومنعهن من الاقتراب من أطفال مشغليهم، والمراقبة اليومية لملابسهن وأيديهن، والحرص على تفادي التردد على أي مطعم، ثم الانتباه إلى الحمالين، والاحتياط بشكل عام من كل ما من شأنه التسبب في انتقال عدوى الأمراض والأوبئة⁵.

ولكي تنجح سلطات الحماية في تحقيق ما كانت تصبو إليه في مجال الصحة العمومية قامت باعتماد الإستراتيجية التالية: أولا، بناء عدد من المؤسسات الصحية على مستوى المدينة من أجل علاج المرضى، ثم تنزيل

¹ D. Rivet, *Le Maroc de Lyautey...*, op.cit, p. 291-292.

² فرضت الحاجة إلى اليد العاملة ضرورة النهوض بالوضع الصحي للسكان من أجل ضمان تزايد ديموغرافي، وبالتالي كثرة العمال وانخفاض أجورهم، وهو ما سيؤدي إلى المساهمة في تخفيض تكلفة المشاريع التي كان المعمرون ينوون القيام بها في المغرب، من قبيل مد الطرق وبناء المدن واستصلاح الأراضي. من جهة أخرى كانت سلطات الحماية تحتاج إلى الجنود لسيطرتهم نفوذها على المغرب، حيث شكل "الكوم" أكبر جزء من جيش الاحتلال منذ أول العمليات الهجومية على البلاد... ويضاف إلى المساهمة التي بذلها المغاربة في دعم المحتلين، مساهمتهم في الحرب العالمية الأولى. وبذلك أصبح الاهتمام بصحتهم ضرورة، وغدا كل المهتمين بالسكان مدركين لأهمية الرأسمال البشري من "الأهالي"، خاصة وأنه لوحظ خلال عملية انتقاء المؤهلين للانخراط في سلك الخدمة العسكرية تدني المستوى الصحي للمرشحين ذلك أنه تم رفض 50 بالمائة من المتطوعين الذين كانوا يرغبون في الذهاب إلى ساحة الحرب سنة 1916. حسنة مازي، *مجتمع مكناش...*، مرجع سابق، ص. 62-63.

³ Colombani (Dr), *La protection sanitaire de l'indigène au Maroc*, Conférence faite aux journées médicales coloniales de Paris (Juillet 1931), G. Gauthier -Rabat 1932, p.8.

⁴ يشير دانييل ريفي لأنه من المفارقات أن السياح الإنجليز كانوا يتأفون من عدم التزام الفرنسيين بقواعد النظافة إلى حدود الستينات، في الوقت الذي كان فيه هؤلاء يقومون بنفس الأمر اتجاه "الأهالي" منذ السنوات الأولى للحماية بالمغرب.

D. Rivet, *Le Maroc de Lyautey...*, op.cit, p.292.

⁵ D. Rivet, *Le Maroc de Lyautey...*, op. cit, p. 292

رزمة من الإجراءات الوقائية ذات أهداف محددة بدقة انسجاما مع "إكراهات" الإدارة الفرنسية بناء على أولوياتها في هذا القطاع.

وفي إطار حرصها على توفير بيئة صحية ملائمة للمستوطنين بمدينة مكناس، قامت السلطات الفرنسية منذ السنوات الأولى للحماية باتخاذ بعض الإجراءات الاستعجالية، على رأسها إحداث المكتب البلدي للوقاية، ثم خلق مشروع الوحدات الصحية المتنقلة¹، وذلك بموجب قرار مقيمي بتاريخ 21 ماي من سنة 1913، أضف إلى ذلك إلزام الزعماء المحليين بالحرص على تطبيق مضامين ظهير 28 نونبر لسنة 1914، والذي يقتضي التبليغ عن الأمراض المعدية والأوبئة²، ثم إحداث مستوصفات صغيرة بضواحي المدينة على غرار دار القايد يطو. أما داخل المدينة فقد تم إحداث مستوصف آخر بالملاح القديم، من أجل فحص المومسات اليهوديات بهدف تطويق الأمراض الجنسية المعدية خصوصا داء السيفيليس³، ثم مستوصف القسطلالي الذي كان يقدم خدمات صحية متواضعة⁴.

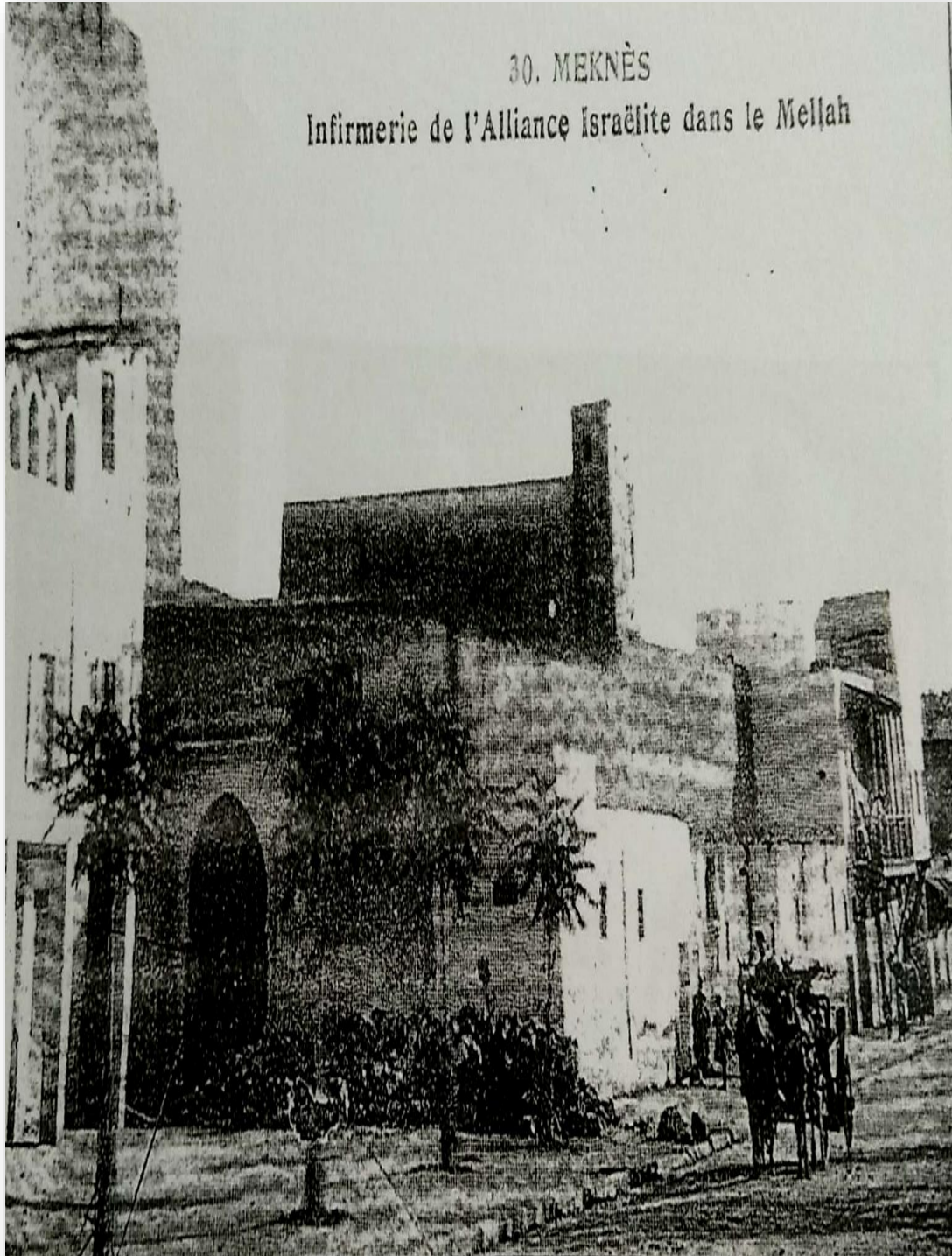
¹Ibid, p. 294.

²Ibid, p. 298.

³ H. De la Casinière, *Les Municipalités marocaines: leur développement, leur législation*, Imprimerie de la Vigie Marocaine, Casablanca, 1924, p. 174.

⁴بوشنتى بوعسريّة، أحداث بوفكران بمكناس فاتح وثنائي شتبر 1937، دار المناهل، الرباط، 1990، ص. 69.

صورة رقم 11: مؤسسة صحية تابعة للرابطة داخل ملاح مدينة مكناس



Source : Frank Bensimon, **Juifs du Maroc**...op. cit, p. 107.

وبما أن مرض السل كما أسلفنا، كان من بين الأمراض المعدية الأكثر انتشارا بمدينة مكناس في صفوف المسلمين واليهود بسبب تدهور الوضع السكني وقلة التهوية والتشميس بالمنازل، فقد أجبرت سلطات الحماية سنة 1929 على تشييد نواة لمستوصف خاص بعلاج هذا المرض، غير أن موقعه البعيد عن المدينة جعله لا يحقق الهدف منه، لذا تم إغلاقه، وعوضا عن ذلك تم تشييد مصحة لعلاج هذا الداء سنة 1931 بحي قاع وردة¹. مقاومة سلطات الحماية لهذا المرض ستتعزيز سنة 1943 بتشييد مستشفى فندقي خاص من أجل معالجته رفقة أمراض الرئة، يقع في ضواحي مدينة مكناس على ارتفاع 1000 متراً، وقد جمع هذا المصح بين الفندق والمستشفى، حيث كان يتكون من خمسة طوابق مجهزة بأحدث التجهيزات لمعالجة مرضى السل لدى "الأهالي" والأوربيين، وكان خاضعا لإشراف مديرية الصحة العمومية².

أما فيما يتعلق بالمؤسسات الصحية الكبرى فلم تحدث سلطات الحماية مستشفى خاصاً باليهود بمدينة مكناس³، بل اقتصر أمر تلقيهم للعلاجات داخل وحدة خاصة⁴ بالمستشفى المدني الأهلي "سيدي سعيد" الذي كان مخصصا بشكل عام لاستقبال "الأهالي" بالإضافة إلى الأجانب، وكان الوحيد من نوعه على مستوى المدينة. هذا المستشفى الذي تم بناؤه سنة 1916 لم تكن تتوفر فيه كل خصائص المستشفى بالمعايير المتعارف عليها في ميدان الطب، بل كان مجرد بناية عادية، بسبب قلة التجهيزات والأطر الطبية، بالإضافة إلى قلة الأدوية. وهو المرفق الذي كان يستفيد من خدماته اليهود بالإضافة إلى الأعيان والأجانب دون المسلمين⁵، وتنبغي الإشارة إلى أن طاقته الاستيعابية كانت محدودة بحيث لم تكن تتعدى بضع عشرات من المرضى، في زمن كان فيه الطلب على الاستشفاء مرتفعاً بالنظر للعدد المرتفع من المصابين بالأمراض المختلفة على مستوى المدينة، علاوة على ذلك لم يكن يتواجد به سوى طبيب واحد كان يلتحق في الغالب متأخرا بعمله، بل وكان يتغيب بالمرّة لعدة أيام، ناهيك عن المعاملة الفظة للمرضى المسلمين من قبل الممرضين والمستخدمين عكس المرضى اليهود الذين كانت تعطى لهم الأولوية⁶.

¹ أحسنه مازي، **مجتمع مكناس...**، مرجع سابق، ص. 83-84.

² Albert Jugnet, «Le Sanatorium», notre Maroc, N° Spécial, avril 1951, p. 59-60.

³ J. Tolédano, **Le temps du Mellah...**, op. cit, p. 367.

⁴ D. Bensimon-Donath, **Evolution du judaïsme...**, op. cit, p. 93.

⁵ "بعد الحرب العالمية الثانية عارض الوطنيون المغاربة سياسية الميز الصحي، وكان لذلك أصداء في الصحافة، حيث طالوا سلطات الحماية بضممان المساواة بين الجميع عبر تجاوز الوضع الذي كان قائما قبل 1945 (على سبيل المثال بمكناس خصص مستشفى لويس العسكري للأوربيين وسيدي سعيد "للأهالي")... لكن سلطات الحماية رفضت الاستجابة لهذا المطلب طيلة فترة الحماية، بل أكثر من ذلك عرقلت مشروع الدكتور سيكول رئيس مصلحة الصحة العمومية ما بين سنتي 1945 و1955 القاضي بإحداث مستشفيات مختلطة سنة 1950".

D. Rivet, **Le Maroc de Lyautey...**, op.cit, p. 302-303.

⁶ بوشتى بوعسرية، **أحداث بوفكران بمكناس...**، مرجع سابق، ص. 86-69.

وينبغي التذكير بأن الخدمات التي كانت تقدم بهذه المؤسسات الصحية كانت تتم بناء على تقديم بعض الرشاوى للأطباء الصحية العاملة بها¹، الأمر الذي كان يحرم عدد من المعوزين من الاستفادة من خدماتها على قلتها. وعلى خلاف ما أحاط بهذا المرفق الصحي من حيثيات، فقد تم إحداث مستشفى لويس العسكري المختلط بالمدينة الأوربية الذي كان مخصصا لعلاج الأوربيين فقط من المدنيين والعسكريين، والذي كان يتوفر على التجهيزات اللوجيستكية الضرورية بالإضافة إلى الأطباء المتخصصين والمرضين الأكفاء². وفي هذا الصدد يقول محمد بن عمر الحجوي: "رأينا وسمعنا الناس يتحدثون بكثير من التآلم والملامة، أن حكومة الحماية أحدثت مستشفيات خاصة بالمسلمين، أخرى خاصة بالأجانب، وليس هذا التخصيص هو محل النقد والملام، وإنما الناس ينتقدون ما بين هذه المستشفيات من التمييز والفرق. فمستشفيات الأوربيين كلها كسائر المستشفيات بأوروبا نظام وترتيب، بل فيها ما يفوق أخواتها في الأقطار الأخرى... وأما المستشفيات الأهلية فليس لها من ذلك إلا الاسم المتخذ للدعاية والإشهار"³.

بعد انصرام الحرب العالمية الثانية قامت سلطات الحماية، على مستوى المدينة، ببذل مجهودات أكبر من أجل تطبيق الأوبئة ومعالجة الأمراض المستشرية في صفوف ساكنة المدينة، حيث قامت بتوفير طاقة استشفائية بلغت 2100 سريراً، في محاولة لتجاوز الركود الذي حصل بسبب إكراهات الحرب العالمية الثانية. ففي هذه المرحلة أولت اهتماماً أكبر للأحياء الهامشية التي شكلت خطراً على المستوطنين الأوربيين، وبناء عليه قامت ببناء مستوصف جديد بـ"برج مولاي عمر" سنة 1948، وخلال السنة الموالية ربطته بمركز اجتماعي تم إحداثه بالمدينة⁴، كما قامت أيضاً بإحداث مستوصف جديد بالملاح الجديد، وكان يشرف عليه طوليدانو بينحاس⁵.

إلى جانب بناء الوحدات الصحية العلاجية اتخذت السلطات الفرنسية المحلية بمدينة مكناس، طيلة فترة الحماية مجموعة من الإجراءات والتدابير الوقائية المتعددة، من أجل تطويق الأمراض والأوبئة، خاصة المعدية منها، يمكن حصرها فيما يلي:

¹ J. Tolédano, *Le temps du Mellah...*, op.cit, p. 367.

² بوشتي بوعسرية، أحداث بوفكران بمكناس...، مرجع سابق، ص. 69.

³ محمد بن عمر الحجوي، "خطرات: الصحة العمومية"، مجلة المغرب، فبراير 1934، العدد 17، ص. 2.

⁴ Gautier (G), *Contribution à l'enquête sur le Prolétariat Marocain*, Meknès, CHEAM, N°2182, p. 16.

⁵ Annuaire Marocaine, *Industriel, Agricole, Economique, Financier*, Imprimeries, Reuis, Casablanca, 1955, p. 926-997.

- ✓ اتخاذ اللجنة البلدية قرار تقنين استعمال مياه الصرف الصحي، للحد من خطورة الأمراض الناتجة عن استهلاك المنتجات الفلاحية المسقية به، وقد منع الفلاحون بناء عليه من غرس الخضر التي تستهلك طازجة بسبب الخطورة التي شكلتها مياه الصرف الصحي الخارجة من حي الملاح¹.
- ✓ استعمال المبيدات بالمستنقعات التي كانت تساهم في توفير بيئة ملائمة لتفريخ الناموس، ومطالبة ساكنة المدينة بإغلاق كل النوافذ ليلاً، للحيلولة دون تلقي لسعات هذه الحشرة المسؤولة عن نقل داء الملاريا²، بالإضافة إلى تخفيف الأحواض الراكدة، مع توزيع الأدوية (الكينين) أسبوعياً ومراقبة الأطفال باستمرار³.
- ✓ إصلاح العديد من السواقي بالمدينة وترميمها لتفادي تسرب المياه وركودها⁴، ثم كشف مأوي بعوض الملاريا بالمجاري المائية للمدينة وإبادتها بواسطة "المازوت"، حيث بلغت الكمية التي استعملت منه لهذا الغرض في شهر يونيو من سنة 1938، 700 لتر⁵.
- ✓ تزويد المدينة القديمة بالماء الشروب من خلال توفير "السقايات" في مختلف أحيائها، وردم الآبار التي كانت مياهها الملوثة تتسبب في الإصابة بالأمراض⁶، ولاسيما تلك التي كانت تقع على مسافة قريبة من مراحيض المنازل.
- ✓ تنظيم المكتب البلدي للصحة حملات لقتل القمل الحامل لداء التيفوس من خلال معالجة السكان بإخضاعهم للاستحمام الإجباري بالمصلحة التي كانت مختصة في ذلك، وقد تمت هذه العملية بمستشفى خاص في "باب بوعماير" الذي انطلق العمل فيه سنة 1924⁷.
- ✓ وحرصاً منه على تطويق مرض الزهري المعدي الذي كان يهدد حياة الجنود الفرنسيين بالمدينة ومحيطها، قام المكتب البلدي للصحة بفرض مراقبة مشددة على المومسات، باعتبارهن أكثر فئة حاملة لهذا المرض، وبناء عليه، تم إحداث حي خاص بهن حيث كان يتم إجبارهن على الخضوع للمراقبة الصحية مرتين في الأسبوع⁸.
- ✓ قامت السلطات البلدية بتأسيس مصلحة "إبادة الجرذان"، من أجل تطويق وباء الطاعون، لاسيما وأن هذه الجرذان كانت بمثابة "السفير المتنقل" لهذا المرض⁹.
- ✓ من أجل ضمان مراقبة داء الكلب كانت المصالح الوقائية التابعة للمكتب البلدي للصحة تنظم حملات للقضاء على الكلاب الضالة¹⁰، كما ألزمت كل مالكيها بإجبارية تبليغ الإدارة فوراً إذا لاحظوا علامات المرض عليها، وامتدت إجبارية التبليغ إلى ملاك الحيوانات التي تعرضت للعض من طرف حيوانات لم تظهر عليها بعد

¹ ANR, P.V de C-M , du 4 juin 1921, N° de Carton 1719.

² David (E.H), «**Préservons-nous du paludisme**», Meknès-Fès, 9 juin 1929, N°613, 14ème année.

³ ANR, Rapport mensuel du Bureau Municipal d'hygiène, Meknès, Carton N° 1181, Juillt 1936.

⁴ ANR, Rapport mensuel du Bureau Municipal d'hygiène, Meknès, Carton N° 1542, février 1936.

⁵ ANR, Rapport mensuel du Bureau Municipal d'hygiène, Meknès, Carton N° 1542, Juin 1936.

⁶ ANR, Rapport annuel du Bureau Municipal d'hygiène, Meknès, Carton N° 1181, 1935.

⁷ ANR, Rapport annuel du Bureau Municipal d'hygiène, Meknès, Carton N° 837, 1923.

⁸ ANR, Lettre du chef des services Municipaux de la Ville de Meknès, N°6828, au Directeur des Affaires Politique Rabat, Carton N° A1578, 24 mai 1938.

⁹ حسنة مازي، **مجتمع مكناس**...، مرجع سابق، ص. 86.

¹⁰ ANR , Rapport annuel du Bureau Municipal d'hygiène, Meknès, Carton N° 1181, 1932.

أعراض المرض من أجل قطع الشك باليقين كإجراء احتياطي، كان يعاقب كل من لم يلتزم بهذه التعليمات طبقا لظهير 13 يوليوز بغرامة مالية من 16 إلى 1000 فرنك أو بالسجن من ستة أيام إلى شهرين¹.
✓ تنظيم سلطات الحماية حملات التلقيح الميدانية - ضد بعض الأمراض المعدية - التي كان يستفيد منها اليهود والمسلمون².

صورة رقم 12: تلقي اليهود والمسلمين للتلقيح ضد مرض الجدري



Source : Frank Bensimon, **Juifs du Maroc**...op. cit, p. 131.

إن الاهتمام الذي أولته سلطات الحماية للصحة العمومية على مستوى المدينة ظل غير كافٍ لتغطية الخصاص الكبير الذي كانت تعاني منه الساكنة "الأهلية"، بما في ذلك الساكنة اليهودية، رغم أن الجمعيات التي كانت تابعة لهذه الأخيرة³، كانت تتلقى قدرا أكبر من المعونة العمومية للدولة بالمقارنة مع الجمعيات التي كانت تابعة للمسلمين⁴، الأمر الذي استدعى "تدخل" بعض المنظمات الدولية اليهودية بالتنسيق مع المجتمع الأهلي

¹ANR, Arrêté Municipal N°111, prescrivant la déclaration obligatoire des animaux enragés, ainsi que ceux mordus, roulés ou léchés par des animaux enragés, Meknès, Carton N° 900, Juin 1921.

²ANR, Les rapports mensuels du Bureau Municipal d'hygiène, Meknès, des mois de Janvier, Février, Avril, Mai, Juin, Juillet, Aout, Septembre, Novembre et Décembre, N° Carton 673, 1944.

³احتلت مدينة مكناس المرتبة الثانية في عدد الجمعيات الأهلية اليهودية بعد مدينة الدار البيضاء. أنظر: محمد حاتمي، **الجماعات اليهودية**

المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية وهران المغرب المستقل...، مرجع سابق، ص. 143.

⁴نفسه، ص. 183.

اليهودي المحلي من أجل القيام بكل ما من شأنه "تغطية مظاهر العجز" في الميدان الصحي تجاه إخوانهم في الدين. وفي إطار هذا التوجه تم تأسيس الفرع المغربي لمنظمة إغاثة الطفولة O.S.E. سنة 1946 ، والذي أسس بدوره، ابتداء من سنتي 1947-1948، فروعاً بجميع الملاحات المغربية بما في ذلك مدينة مكناس، وقد اهتم أساساً بتوفير قواعد الوقاية الأولية، ولابد هنا من التذكير أن هذه المؤسسة كانت لها نشاطات صهيونية¹، هذا وستدخل خلال الفترة نفسها الجمعية الأمريكية لتوزيع المساعدات الجوانت JOINT على المستوى المحلي من أجل خدمة نفس الأهداف (الصحية والدعائية)، حيث حصل تنسيق بين المؤسستين من أجل تلقين الأطفال اليهود بمدارس الرابطة مبادئ الوقاية، بعدما كان المدرسون يتكلفون لوحدهم بالقيام بهذه المهمة قبل الحرب العالمية الثانية من قبيل علاج داء القرع والرمد الحبيبي²، خاصة وأن أحد أهداف التعليم العصري الموازية كان تلقين اليهود "مبادئ النظافة والصحة الأساسيتين والتربية البدنية"، وكان ذلك يمثل في منظور كل من الرابطة ومديرية التعليم العمومي أحد الشروط الأساسية لـ "إعادة الحس الأخلاقي للمغاربة اليهود"³. أعيان الجماعة اليهودية انخرطوا بدورهم في الرفع من مستوى التعبئة الصحية في صفوف إخوانهم في الدين، حيث قام الحاخامات الكبار وبعض الأعيان، وبرعاية الجنرال Dalbiez ، باتخاذ قرار يهدف إلى ضمان نظافة الملاح، وذلك بمنع رمي الأزبال بالأزقة، وعوضاً عن ذلك وضعها بالحوايات المخصصة لها في انتظار مرور الكناسة العموميين لأخذها عند مرورهم بالحميز من أمام منازلهم، كما تم نقل مكان المذيلة التي كانت تقرب من الملاح القديم ب 30 متراً فقط إلى مكان آخر يبعد ب 200 متر⁴. كما ترأس الحاخام يوسف مريجن جمعية كانت مهمتها تقديم المساعدة للمرضى اليهود بالمدينة⁵. ومن أجل ضمان أفضل خدمة صحية ممكنة تقدم مؤتمر الجماعات اليهودية، الذي انعقد بالرباط سنة 1952 إلى السلطات الصحية الفرنسية، بمطلب يقتضي بتخصيص أجنحة خاصة باليهود بالمستشفيات تكون معزولة عن المسلمين يقدم فيها طعام الكاشير، بدعوى أن الاختلاط لا يسهل احترام الطقوس الدينية اليهودية⁶.

هذه الأساليب العصرية في التطبيب، والتي أحدثتها السلطات الفرنسية، قوبلت بقليل من التحفظ من طرف بعض أفراد الجماعة اليهودية التي لم تتردد منذ السنوات الأولى للحماية في الاستفادة من خدماتها⁷، على عكس

¹ D. Bensimon-Donath, *évolution du Judaïsme...*, op. cit, p. 85-99.

² A. Chouraqui, *Presse Universitaire...*, op. cit, p. 179-189.

³ محمد كنيبي، *يهود المغرب، 1912-1948...*، مرجع سابق، ص. 48.

⁴ J. Tolédano, *Le temps du Mellah...*, op. cit, p. 188.

⁵ Ibid, p. 227; *Annuaire Marocain*, Casablanca, 1955..., op. cit.

⁶ «Le congrès des Communautés Israélites», op. cit, p. 91.

⁷ على سبيل المثال يشير دانييل ريفي إلى أنه انطلاقاً من الإحصائيات التي كانت تسجل عدد المترددين على مستشفى موشان بمراكش سنة 1944، تبين بأن اليهود استفادوا من 41 بالمائة من الاستشارات الطبية علماً أن نسبتهم من سكان المدينة لم تكن تتجاوز 10 بالمائة.

D. Rivet, *Le Maroc de Lyautey...*, op. cit, p. 300.

عامّة المسلمين الذين تردّدوا في الانخراط بقوة في المنظومة الصحيّة الحديثة، حيث كانوا يرفضون العلاج على يد الأجنبي، مما كان يجبر سلطات الحماية الصحيّة، عند إعلان حالة الاستنفار ضد وباء ما، على القيام بإغلاق الأزقة بشكل مباغت وتلقيح "الأهالي" المسلمين بالقوة، أما بالأحياء الهامشية فقد كانت السلطة تقوم بمحاصرة المكان ليلا ب"الكوم"، بحيث يستحيل الخروج أو الدخول للحي من دون الخضوع للتلقيح¹، كما استعانت بالأعيان من أجل إقناع العوام من المسلمين بأن الخضوع للتداوي بالطرق العصريّة لا يخالف العادات ولا التقاليد². لكن مع مرور الوقت، وبعد الحرب العالميّة الثانية، صار الناس بشكل عام متأقلمين مع مبادئ السياسة الصحيّة العصريّة³، وتنبغي الإشارة في هذا الصدد إلى أن النساء المسلمات الحضريات المنتميات للطبقة العليا، كن أكثر جرأة وأكثر قابلية في الإقبال على الاستفادة من أساليب التطبيب العصريّة، بل في بعض الأحيان كن يصطحبن معهن أزواجهن وأطفالهن للمؤسسات الصحيّة من أجل تلقي العلاجات، بل كن لا يترددن في الحديث مع الأطر الطبيّة من أجل معرفة طبيعة المرض، كما أن أعداد النساء اللواتي كن يلتجئن للمستشفى من أجل الولادة مرتفعاً باطراد خلال السنوات الأخيرة للحماية⁴.

وعلى خلاف ما جرى به الأمر مع المسلمين، فقد انخرط اليهود بقوة وتلقائية وبرغبة كبيرة، حيث لم يكن الأمر يحتاج تنظيم حملات تلقيح فجائية، من قبيل محاصرة الملاح بالفرق الصحيّة المتنقلة للقيام بذلك. وفي بعض الأحيان عندما كان يتم رصد حالة وبائية ما، كانت سلطات الوقاية الصحيّة المحليّة تقوم بتقديم اللقاحات وطاقم من الممرضين للطائفة اليهودية حيث يتم استدعاء رئيس الجماعة وتلقينه طريقة تقديم اللقاح، وبذلك كانت يتم تلقيح كل ساكنة الملاح⁵، كما أن النساء الحوامل، وحتى المنتميات منهن إلى الأوساط المتواضعة، بدأن، ابتداء من الثلاثينات، يترددن على دار التوليد العصريّة⁶. صحيح أن الأمور لم تجر بغير مقاومات تذكر، فخلال السنوات الأولى للحماية كان يحدث في صفوف المحافظين منهم بعض التردد، وتمثيلاً، عندما كان الفحص يتطلب من الطبيب كشف رأس بعض اليهوديات المكناسيات كن يصبن بالذعر، حيث كان الأمر يبدو لهن كما لو أن الطبيب قد ارتكب خطيئة كبيرة، الأمر الذي كان يدفع بعضهن إلى رفض تلقي العلاج⁷. هذا الإقبال على الخدمات الصحيّة العصريّة من طرف اليهود، كان يعود الفضل فيه أيضاً، إلى الأساليب التي كانت الأطر الصحيّة الفرنسيّة تنهجها،

¹ Ibid, p. 303.

² Colombani (Dr), **La protection Sanitaire de L'indigène**, op. cit, p. 9.

³ D. Rivet, **Le Maroc de Lyautey...**, op.cit.p.297.

⁴ Ibid, p. 301.

⁵ Ibid, p. 300.

⁶ D. Bensimon-Donath, **évolution du Judaïsme...**, op. cit, p. 94.

⁷ J. Tolédano, **Le temps du Mellah...**, op. cit, p. 349.

حيث عملوا أولاً على كسب ثقة المريض الذي كانوا يرغبون في علاجه، عبر الأسلوب الذي كانوا يقدمون من خلاله الخدمات الصحية، وحرصهم على عدم منع المرضى من التداوي التقليدي لدى الأولياء والعشابة، وهو نفس الأسلوب الذي استعمل حتى مع المسلمين في إطار فلسفة السياسة الأهلية، وبذلك بدأت الساكنة اليهودية تقبل مبكراً على مستوصفات الأحياء، وبمجرد أقل على المستشفيات التي كانت تضم وحدة خاصة لعلاج المرضى الإسرائيليين، حيث كان يوزع عليهم طعام الكاشير¹. كما تنبغي الإشارة إلى أن الظروف الصحية للجماعة اليهودية بمدينة مكناس تحسنت بشكل ملحوظ بعد بناء الملاح الجديد، حيث أصبح بإمكان الأطفال اكتساب صحة جيدة بفضل توفر إمكانية اللعب بمساحات شاسعة مقارنة بالوضع الذي كان بالملاح القديم، أضف إلى ذلك استنشاق الهواء النقي².

لقد ساهمت كل هذه الإجراءات في تراجع الأمراض وتقليص نسبة المصابين بالعدوى ومن عدد الضحايا، - كما أدت لاحقاً خصوصاً بعد سنة 1948م إلى الرفع من حظوظ المرشحين إلى الهجرة نحو إسرائيل³ - خاصة بعد أن أصبح "الأهالي" اليهود مقتنعين بضرورة الالتزام والامثال للإجراءات الصحية العصرية التي أدخلتها سلطات الحماية الفرنسية للبلاد، بغض النظر عن الخلفيات التي تحكممت في سياستها الصحية، مما ساهم في ارتفاع معدل النمو الديموغرافي شيئاً فشيئاً في صفوف الجماعة اليهودية.

وقبل استعراض نتائج الإحصاءات التي أشرفت على تنظيمها السلطات الفرنسية خلال فترة الحماية، نشير إلى أن رؤساء الدول، منذ العصور القديمة، كانوا يكتفون بالقيام بعمليات ذات طابع ديموغرافي تمثلت مثلاً في تعداد الرجال القادرين على التجنيد في الجيش في المناطق الخاضعة لهم، أو تعداد الأشخاص الذين بإمكانهم دفع الضرائب. إلا أن هذه العملية لم يكن لها طابع علمي، كما أن الصيغ التي أنجزت بها لم تكن موحدة، أضف إلى ذلك أن الأشخاص الذين كُلفوا للقيام بها لم تكن تتوفر فيهم أي خبرات في هذا المجال. لذا لم يؤدي الاكتفاء بإنجاز عمليات كهذه إلى تراكم الملاحظة العلمية، لأن هاجس الدول حينها كان إدارياً بالدرجة الأولى، وهذا الأمر استمر العمل

¹ D. Bensimon-Donath, *évolution du Judaïsme...*, op. cit, p. 94..

² «Le Talmud Torah de Meknès», op. cit, p. 102; « Le triste Sort des Juifs de Meknès » in AI, N° 44-45, 1927, p. 2.

³ "قررت الحكومة الإسرائيلية في اجتماع موسع عقده بتاريخ 27 نونبر من سنة 1951، سن سياسة براغماتية في موضوع الهجرة تعتمد أساساً على مبدأ الانتقاء والتفضيل بين المرشحين، ومن بين القرارات التي اتخذتها في هذا الإطار، ألا يحصل على الحق في الهجرة سوى المرشحين الذين تؤكد التقارير الصحية تمتعهم بصحة جيدة وقدرتهم على العمل وحمل السلاح... وكان الفحص الطبي يتم محلياً حيث يفتن المرشح أو في أقرب نقطة لمحل السكن، ويقوم به في كل الحالات أطباء أوربيون يعملون لحساب كاديسا التي تتكفل بمصاريف النقل نحو مراكز التطبيب وبمستحقات الزيارة والكشف بالأشعة. ويرسل التقرير الطبي إلى المركز بالدار البيضاء، حيث يتولى طبيب إسرائيلي (يمثل وزارة الصحة الإسرائيلية) المصادقة عليه أو رفضه، وإقامة لائحة وفق الاستحقاقات الطبية تكون الأساس في جدولة تواريخ الترحيل". محمد حاتمي، *الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية ورهان المغرب المستقل...*، مرجع سابق، ص. 279-284.

به حتى العصر الوسيط. أما المجهودات الأولى لجمع المعطيات فقد تمت ملاحظتها حوالي القرن السادس عشر والسابع عشر الميلاديين، مما ساهم في خلق النواة الأولى للديموغرافيا كعلم قائم بذاته¹.

وهكذا لم يتم تنظيم أول إحصاء عام للسكان في العالم حتى القرن الثامن عشر، وكان ذلك بالسويد، وقد اعتبر نقطة تحول مهمة في مجال الديموغرافيا، وبفضل ذلك المجهود تأسست عملية الإحصاء في جميع الدول على مراحل². أما بالنسبة للمغرب، فلا بد من التذكير أن المخزن لم يسبق له قبل مرحلة الحماية أن قام بإحصاء عام للسكان طبقا للمعايير "العلمية" الجاري بها العمل في هذا المجال، بل إن الفكرة لم تكن مطروحة من الأساس، لأن هذا التقليد كما أشرنا لم يكن معمولاً به من قبل لدى أي من دول العالم قبل القرن الثامن عشر، وهكذا فقد اكتفى في العمليات التي قام بها في هذا الموضوع بإحصاء ما هو اقتصادي فيما يتعلق بمداخل الجبايات والجمارك بالإضافة إلى المجندين في الجيش³. أما فيما يتعلق بالأرقام التي تحدد عدد المغاربة اليهود قبل الحماية فقد كانت كلها عبارة عن تقديرات، حيث قدر عددهم الإجمالي بمجموع البلاد في مطلع القرن العشرين ما بين 70 ألف و 100 ألف بنسبة 7% من الساكنة العامة للبلاد⁴. كما أن الأرقام التي تخص عدد سكان مدينة مكناس بشكل عام قبل مرحلة الحماية خضعت بدورها لمنطق التقديرات التي توصل إليها بعض الأجانب الذين زاروا المغرب في إطار مهمات مختلفة (دبلوماسية/ استكشافية إلخ...) وقد استعانوا بخبراتهم للخروج بتلك الأرقام، وفي هذا الصدد قدر عدد سكان المدينة خلال القرن التاسع ما بين 20 ألفا و 50 ألفا⁵. أما فيما يخص عدد السكان اليهود بالمدينة في بداية القرن فقد أشارت الأرقام التي عثرنا عليها إلى أنهم كانوا حوالي 5000 نسمة سنة 1902⁶، قبل أن يرتفع العدد إلى 6000 نسمة سنة 1912. وبعد توقيع معاهدة الحماية ستكتفي السلطات الفرنسية ببعض التقديرات في محاولة لاستجلاء الوضع الديموغرافي بالمدينة، وبناء عليه، توصلت سنة 1919 إلى الأرقام التالية: قدر عدد سكان المدينة ب 37347 نسمة، منهم 2202 أوريا، و 29740 مغربيا مسلما، و 5405 مغربيا يهوديا⁸.

¹ محمد بومعيز، مدخل لدراسة الديموغرافيا وجغرافية السكان، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1992، ص. 10.

² نفسه، نفس الصفحة.

³ حسنة مازي، مجتمع مكناس...، مرجع سابق، ص. 17.

⁴ J. Bernos, op. cit, p.35.

⁵ محمد اللحية، الحياة الاقتصادية بمدينة مكناس في القرن التاسع عشر (1850-1912)، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، نوقشت بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 1984، مرقونة، ص.ص. 71-72.

⁶ بوشنتي بوعسرية، أحداث بوفكران بمكناس...، مرجع سابق، ص. 48.

⁷ بوشنتي بوعسرية، مكناس المدينة الجديدة، أطروحة لنيل دكتوراه الدولة، نشر عمادة كلية الآداب، جامعة مولاي إسماعيل، مكناس، 1999، ص. 189.

⁸ ANR, Population des principales Villes du Maroc, Juillet 1919, Dossier Recensement de la population civile, Carton N° B21.

واضح أن الانطلاق من هذه الأرقام لا يسعف في تتبع منحى تطور الساكنة، لأن هامش الخطأ فيها كبير، إذ تظل مجرد تقديرات تفتقر للمنهجية العلمية¹، لكن نستطيع مع ذلك أن نجزم بأن تزايد الساكنة اليهودية قبل مرحلة الحماية كان بطيئا بسبب الارتفاع الكبير في عدد الوفيات الذي كانت تخلفه الأمراض والأوبئة والمجاعات.

بعد توقيع معاهدة الحماية وتمدد سيطرة الفرنسيين على المجال المغربي بفضل عمليات التهدة، ستقوم السلطات المختصة بتنظيم مجموعة من الإحصاءات العامة، لسنوات: 1921-1926-1931-1947-1951-1952، من أجل امتلاك قاعدة معطيات يُستعان بها في صياغة وتنزيل السياسات العمومية "المناسبة" لكل من الأوربيين المستوطنين بالبلاد من جهة، و"الأهالي" (المسلمين واليهود) من جهة أخرى. سنتطرق فيما يلي لنتائج كل إحصاء على حدة، من أجل معرفة عدد يهود مدينة مكناس مع الإشارة إلى الظروف التي تمت فيها هذه العملية والنقائص التي شابتها.

❖ إحصاء سنة 1921: كان هذا الإحصاء الرسمي الذي أشرفت عليه مصالح الإدارة الفرنسية هو الأول من نوعه بالمغرب خلال فترة الحماية وتم بتاريخ 8 مارس. وقد أسفر عن النتائج الآتية: بلغ عدد يهود المدينة حينها 5761 نسمة، مقابل 28207 مغاربة مسلمين و2622 أوريبا. في المحصلة العامة كان العدد الإجمالي لسكان المدينة هو 36592 نسمة². وبخصوص نفس الإحصاء نجد لدى بوشتي بوعسرية، اعتمادا على مصادره، رقما آخر فيما يتعلق بيهود المدينة إذ حدده في 6763 يهوديا³. ولعل ما ميز هذا الإحصاء هو عدم تقديمه أية معطيات ديموغرافية تفصيلية عن "الأهالي" اليهود فيما يرتبط بالفئات العمرية والجنس والفرق بين عدد الذكور والإناث وحجم الكثافة السكانية، على عكس الأوربيين الذين قدم بشأنهم نتائج مفصلة⁴. وقد مال عبد الرحمان بن زيدان إلى التشكيك في أرقام هذا الإحصاء فيما يتعلق بالمسلمين⁵. كما أن السلطات التي أشرفت على هذا الإحصاء أدركت من جهتها بأن الأرقام التي حصلت عليها بخصوص هذه الفئة الأخيرة غير دقيقة، لذلك قرر رئيس المصالح البلدية بالمدينة سنة 1924 الاستعانة

¹ "أولى الملاحظات العلمية الأولى في هذا المجال تمت في لندن من طرف J. Graunt، الذي يعود له الفضل في إنجاز وسيلة للملاحظة تعمل بانتظام منذ سنة 1603م، باستعماله لنشرة الوفيات الأسبوعية. وبناء عليها واستنتج ملاحظاته الطبيعية والسياسية، وافتتح بذلك عالما جديدا للمعرفة العلمية. أما العالم D. Deparcieux فقد قام في القرن السابع عشر بإنجاز عينة من بعض النساء لدراسة ظاهرة وفيات أبناهن". محمد بومعيز، **مدخل لدراسة الديموغرافيا وجغرافية السكان...**، مرجع سابق، ص. 10.

² ANR, Population d'après les recensements de 1921 et 1926, dossier: ordre général, Statistique démographique N° de carton, B21.

³ بوشتي بوعسرية، **أحداث بوفكران...**، مرجع سابق، ص. 50.

⁴ حسنة مازي، **مجتمع مكناس...**، مرجع سابق، ص. 24.

⁵ يقول عبد الرحمان ابن زيدان: "وعدد سكانها من الأهالي ثمانية وعشرون ألف نسمة ومائتان وسبع على ما أنتجه الإحصاء الأخير والذي يظهر من تساهل المكلفين بهذا الإحصاء وعدم ضبطهم أن عدد السكان يزيد على ذلك بما ينيف عن العشر... وقد أشرنا إلى أنه لا معول لمن رام التحقيق على هذا الإحصاء فقد أغفل أهله عائلات كثيرة من الأهالي والأجانب". عبد الرحمان ابن زيدان، **إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار مكناس، الجزء الأول...**، مرجع سابق، ص. 114.

بالمقدمين لإحصاء سكان المدينة القديمة في مرحلة لاحقة، لأنهم أكثر دراية بالسكان المحلية¹. لكن الذي تنبغي الإشارة إليه في هذا الصدد أن تعاون الأهالي المسلمين مع المشرفين على هذا الإحصاء الأول من نوعه قد طبعه بعض التوجس بالشكل الذي ساهم في الحصول على أرقام غير دقيقة، لأن المسلمين كانوا غير متعودين على هذه العملية، خاصة وأن عمليات التهدة كانت لا تزال مستمرة ضد المقاومة المسلحة²، ناهيك عن أن أغلبية الساكنة كانوا محافظين في الانفتاح على الأجنبي³، أما بالنسبة لليهود، فالراجح أنهم قد أبدوا تعاوناً أكبر، لأنهم كانوا متعودين على استقبال الأجانب والتعامل معهم بنوع من الأريحية، لذلك نرجح أن العدد الذي انتهى إليه هذا الإحصاء قريب جداً من الحقيقة.

❖ إحصاء 1926: قررت سلطات الحماية إجراء هذا الإحصاء بتاريخ 16 يناير سنة 1926، وتم الشروع فيه عملياً يوم 7 مارس من نفس السنة⁴. وقد أسفر عن النتائج الآتية: بلغ عدد يهود المدينة حينها 6852 نسمة، مقابل 25688 مغربياً مسلماً و4652 أورياً، وفي المحصلة العامة كان العدد الإجمالي لسكان المدينة هو 36659 نسمة⁵. غير أن مصادر أخرى نقلت إحصائيات مغايرة، حيث قدر عدد المغاربة اليهود بـ 7811 مغربياً يهودياً⁶، ولعل تضارب الأرقام هذا يرجح الشكوك التي شابت هذا الإحصاء، ذلك أن نص القرار الذي صدر بالجريدة الرسمية اقتصر فقط على ذكر الأوربيين دون المغاربة، وهو ما يفسر ضالة المعلومات المقدمة حولهم، كما أنه يفسح المجال للشك في إذا ما كان قد تم فعلاً إحصاء "الأهالي"، أم أن الحاصل هو الاكتفاء بالتقديرات⁷. بصرف النظر عن العدد الحقيقي لليهود بالمدينة سنة 1926 فإننا نلاحظ، مقارنة مع نتائج إحصاء سنة 1921 أن عددهم عرف زيادة بسيطة، فقط إذا ما أخذنا بعين الاعتبار بأن عادة الزواج المبكر وارتفاع نسبة الولادات كانت ظاهرة لا تزال منتشرة في صفوف أفراد هذه الجماعة⁸، ويمكن تفسير ذلك بتدهور الأوضاع المعيشية بالمدينة بسبب آثار المجاعة لسنة 1922⁹.

¹ حسنة مازي، **مجتمع مكناس...**، مرجع سابق، ص. 25.
² أنظر: سمير بوزويطة، **الاحتلال العسكري الفرنسي للمغرب، دراسة في الإستراتيجية العسكرية، 1912، 1934**، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، الطبعة الأولى، 2007.
³ تحتمل محاولة الاعتماد على المقدمين عدة دلالات، منها عدم قدرة المكلفين بالإحصاء في المدينة القديمة على الدخول إلى كل المنازل، أو عدم رغبة المغاربة في التعاون معهم بالإدلاء بأرقام.

⁴ الجريدة الرسمية، 16 يناير 1926، العدد 629، ص. 117.

⁵ ANR, Population d'après les recensements de 1921 et 1926, dossier: ordre général, Statistique démographique N° B21.

⁶ Annuaire Statistique général du Maroc, Rabat 5^{ème} Vol, 1929, p. 20.

⁷ حسنة مازي، **مجتمع مكناس...**، مرجع سابق، ص. 26.

⁸ M. Benabou, **Une enfance juive en Méditerranée musulmane**, op. cit, p. 52-53.

⁹ بوشتي بوعسرية، أحداث بوفكران بمكناس...، مرجع سابق، ص. 50.

❖ إحصاء 1931: ثالث إحصاء رسمي أجري للسكان المغربية من طرف سلطات الحماية، وقد تم بتاريخ 8 مارس من سنة 1931 بمقتضى الظهير الشريف الذي صدر في 4 دجنبر من نفس السنة، وحتى تتمكن السلطات المشرفة عليه من الحصول على الأرقام القريبة من الحقيقة بالنسبة "للأهالي" فقد قررت تغريم كل شخص أدلى بمعلومات خاطئة للمكلفين بالإحصاء بمبلغ مالي يتراوح ما بين 25 و100 فرنك¹. وقد أسفر عن النتائج الآتية: بلغ عدد يهود المدينة حينها 7745 نسمة، مقابل 36466 مغربيا مسلما و9545 أوريبيا، وفي المحصلة العامة كان العدد الإجمالي للسكان المدنيين بالمدينة هو 54156 نسمة². كما أن هذا الإحصاء هو الأول من نوعه الذي قدم فصلا عدديا بين الذكور والإناث، ويمكن اعتبار أرقامه الأكثر قربا من العدد الحقيقي للسكان "الأهلية" بالنظر للإجراءات الموازية التي رافقته. وفيما يخص يهود المدينة نلاحظ أن عددهم لم يتزايد بوتيرة كبيرة، علما أن معدل الولادات كان لا يزال مرتفعا، كما أن الهجرة خارج المغرب بسبب النشاط الصهيوني لم تكن قد انطلقت بعد، لأسباب سنتحدث عنها بتفصيل في الفصل الخاص بذلك. وبناء عليه يمكن إرجاع سبب هذه الزيادة الضعيفة إلى استمرار ارتفاع نسبة الوفيات في صفوف السكان اليهودية، خاصة في فئة المواليد، بسبب الأمراض التي سبق وتحدثنا عنها، لاسيما وأن انتقال اليهود للعيش في الملاح الجديد كان لم يحصل بعد بشكل كلي، لأن تجهيزه كان ما زال لم يكتمل بعد³. ورغم ذلك يؤكد بوشتي بوعسرية بأن مدينة مكناس قد احتلت في هذا الإحصاء المرتبة الأولى في عدد اليهود مقارنة مع المدن الأخرى⁴.

❖ إحصاء 1936: رابع إحصاء رسمي أجري للسكان المغربية من طرف سلطات الحماية، وقد تم سنة 1936، مسفراً عن النتائج الآتية: بلغ عدد يهود المدينة حينها 9521 نسمة، مقابل 52871 مغربيا مسلما و11310 أوروربيين، وفي المحصلة العامة كان العدد الإجمالي للسكان المدنيين بالمدينة هو 74702⁵. تميز هذا الإحصاء بكونه الأول الذي شمل كل مناطق البلاد التي كانت خاضعة للنفوذ الفرنسي، لأنه

¹B.O, N°947, 19 décembre, p. 1402.

²A.N.R, Résultats statistique du Recensement de la population de la zone Française de l'empire chérifien, effectué le 8 Mars 1931, p.8.

³ANR, Rapport Mensuel, services Municipaux, Meknès, carton N°829, Octobre 1930.

⁴بوشتي بوعسرية، أحداث بوفكران...، مرجع سابق، ص. 51.

⁵محمد كنييب، يهود المغرب...، مرجع سابق، ص. 169.

أجري بعد انتهاء عمليات التهدة¹، التي انتهت سنة 1935². ومن خلال مقارنة نتائج هذا الإحصاء مع ذاك الذي تم سنة 1931 يتضح أن عدد يهود المدينة قد عرف زيادة ملحوظة بلغت 1776 نسمة، في حين لم تتجاوز الزيادة المسجلة ما بين 1926 و 1931 سوى ب 920 نسمة. ويمكن أن نرجع هذه الزيادة الديموغرافية إلى انتقال يهود المدينة من الملاح القديم إلى العيش في الملاح الجديد، الأمر الذي ساهم في توفير بيئة صحية أفضل بالمقارنة مع الحي اليهودي القديم، الذي كان مرتعا خصبا للأمراض والأوبئة التي كانت تؤدي إلى ارتفاع في معدل الوفيات. إحصاء هذه السنة تعرض للنقد واعتبرت أرقامه غير دقيقة ومعطياته ناقصة فيما يتعلق "بالأهالي"، لأن المشرفين عليه اكتفوا بتقديم بيانات موجزة عن هؤلاء لم تتعد: عددهم حسب السن والجنس وعدد المساكن، الأمر الذي لا يساعد الباحثين على القيام بدراسة التاريخ الديموغرافي للمغاربة خلال هذه المرحلة بشكل دقيق. على العكس من ذلك قدم هذا الإحصاء معطيات دقيقة عن الأوروبيين، حيث تناول محل ازديادهم وتاريخه وحرفهم ومستواهم الدراسي وجنسياتهم وإحصائيات عن سكنهم وشكله. والراجح أن تزامن الإحصاءات التي أجرتها سلطات الحماية بالمغرب مع مثيلاتها بفرنسا ما بين 1921 و 1936، كان أيضا سببا في عدم إيلاء أهمية للتدقيق في المعطيات التي تخص "الأهالي"³.

❖ إحصاء 1947: أجري هذا الإحصاء بتاريخ 1 مارس من سنة 1947 بشكل مستقل عن إحصاء فرنسا، على عكس الإحصاءات السابقة، وقد أسفر عن النتائج الآتية: بلغ عدد يهود المدينة حينها 13670 نسمة، مقابل 122522 مغربيا مسلما، وفي المحصلة العامة كان العدد الإجمالي للسكان المغاربة هو 136192 نسمة⁴. ومن خلال مقارنة نتائج هذا الإحصاء مع ذاك الذي أجري سنة 1936 نلاحظ أن عدد اليهود بالمدينة قد عرف زيادة كبيرة قدرتها 4159 نسمة. وقياسا بوتيرة التزايد الديموغرافي، بناء على نتائج الإحصاءات السابقة، يتضح أن تزايد عدد اليهود بهذا الرقم خلال 11 سنة فقط أمر مجانب للحقيقة، خاصة وأن البلاد قد عرفت ظروفًا اقتصادية واجتماعية صعبة جدا بسبب جفاف سنة

¹ يعرف الجنرال غيوم "التهدة" كما يلي: "إن هدفنا من غزو المغرب هو تهدة الأوضاع وتحقيق الأمن والوحدة، متفادين استعمال القوة كل ما أمكن ذلك، ففي الأطلس المتوسط لم تواجهنا أية قبيلة بطريقة عشوائية، ولم تستسلم أية واحدة منها دون مقاومة. كما ان بعضها لم تخضع إلا بانتهاء آخر طاقاتها الدفاعية. إنه من الخطأ أن نعلن أن هذا الغزو تم تنفيذه باستعمال القوة فقط، وبذلك نكون قد أبعدنا أهمية العمل الدبلوماسي الذي كان فاعلا في عمليات "التهدة"، فسياسة الإخضاع التي مارستها مصلحة الشؤون الأهلية عملت إلى جانب العمليات العسكرية". سميير بوزويته، الاحتلال العسكري الفرنسي للمغرب...، مرجع سابق، ص. 50.

² سميير بوزويته، الاحتلال العسكري الفرنسي للمغرب...، مرجع سابق، ص. 68.

³ حسنة مازي، مجتمع مكناش...، مرجع سابق، ص. 33-34.

⁴ محمد كنيبي، يهود المغرب 1912-1948...، مرجع سابق، ص. 269.

1945 الذي أدى إلى انتشار المجاعة وعودة الأوبئة، التي أودت بحياة عدد كبير من الساكنة سنة 1945¹. هذه الزيادة الديموغرافية غير المتوقعة تجد تفسيرها في أن هذا الإحصاء قد تم اعتمادا على بطائق التموين، حيث كان السكان يصرحون بأعداد أكبر من العدد الحقيقي لأفراد الأسرة² بهدف الحصول على تموين غذائي أكثر، ومن هنا يصعب الوثوق بنتائج إحصاء سنة 1947.

❖ إحصاء 1951-1952: على عكس الإحصاءات السابقة قررت سلطات الحماية الفرنسية إجراء هذا الإحصاء على مرحلتين، حيث تم تعداد اليهود والأوربيين خلال المرحلة الأولى سنة 1951 بالتزامن مع إحصاء السكان بفرنسا، سيما تم إحصاء المغاربة المسلمين خلال المرحلة الثانية سنة 1952³. وقد أسفر هذا الإحصاء عن بلوغ عدد المغاربة اليهود 12445 نسمة⁴. وهو رقم يوضح أن عدد يهود المدينة قد تراجع مقارنة مع إحصاء سنة 1947، مما يؤكد أن هذا الأخير لم يكن دقيقا، بالنظر إلى استناده على بطائق التموين، كما سبق وأوضحنا ذلك. وبناء عليه يمكن اعتبار نتائج إحصاء 1951-1952 الأكثر دقة في ظل الظروف التي أجري فيها، ذلك أن إجراءاته على مرحلتين ساهم في تخفيف العبء المالي والتنظيمي على السلطات الفرنسية⁵. من مميزات هذا الإحصاء أنه قدم لنا معطيات عن الكثافة السكانية لسكان المدينة، حيث بلغت بالنسبة لليهود بالملاح معدل 609 نسمة في الهكتار الواحد⁶.

وعلى الرغم من الاختلالات وجوانب القصور التي شابت نتائج الإحصاءات الستة التي أجريت "للأهالي" بشكل عام خلال فترة الحماية، والتي لم ترق إلى مستوى الإحصاء الشمولي الذي يتطلب اعتمادات مالية كبيرة، وإمكانات بشرية هائلة، ومساعدة عدة إدارات، وفي ظل غياب إمكانات مصدرية أخرى من أجل المقارنة؛ تبقى الأرقام التي قدمتها تلك الإحصاءات هي الأقرب للحقيقة، ويمكن الانطلاق منها من أجل تتبع منحنى التطور الديموغرافي للجماعة اليهودية بمدينة مكناس خلال تلك الفترة. فباستثناء نتائج إحصاء سنة 1947 يتبين بأن عدد يهود مدينة مكناس قد تضاعف ما بين سنة 1921 و1951، حيث انتقل من 6763 إلى 12455، أي بنسبة 233%، ويعود ذلك بالأساس إلى تحسن الظروف الصحية، بفضل الخدمات الوقائية والعلاجية التي استفادت منها هذه الجماعة خلال فترة الحماية، والتي أدت إلى انخفاض نسبي في معدل الوفيات. كما أن الانتقال مطلع الثلاثينات

¹D. Rivet, «le recrudescence des épidémies au Maroc durant la 2^{eme} guerre mondiale, Essai de mesure et d'interprétation», Hesperis-Tamuda, vol XXX, Fax-1, 1992, p. 100.

²Olivier (f), «Mémoire sur l'évolution économique des tribus de la banlieue de Meknès depuis l'occupation française», CHEAM, N° 77, p. 11.

³حسنة مازي، مجتمع مكناس...، مرجع سابق، ص. 37.

⁴ANR, Annuaire statistique du Maroc, 1955-1956, p. 25.

⁵حسنة مازي، مجتمع مكناس...، مرجع سابق، ص. 38.

⁶G. Gautier, op. cit, p. 6.

للسكن بالملاح الجديد قد ساهم بدوره في تحسن ظروف العيش، وقلل من نسبة الوفيات، خاصة في فئة الأطفال بحكم هشاشتهم البيولوجية إبان الأزمات الغذائية والصحية الكبرى، وإذا علمنا بأن نسبة الخصوبة كانت مرتفعة عند المرأة اليهودية بسبب استمرار انتشار عادة الزواج المبكر لدى فئة عريضة منهن لأسباب اجتماعية ودينية، يمكن أن نفهم سبب هذه الزيادة الديموغرافية خلال 30 سنة. لقد أتاحت نتائج هذه الإحصاءات لأول مرة إمكانية مقارنة الوضعية الديموغرافية "الحقيقية" بالمغرب بهامش خطئ بعيد عن التقديرات السخية السابقة التي قدمتها بعض الأدبيات الكولونيالية¹.

يتضح مما سبق أن أفراد الجماعة اليهودية قد تزايدوا بشكل تصاعدي، بحيث لم تعد تتسبب الأوبئة ولا المجاعات في النزيف الديموغرافي الذي كان يحدث خلال مرحلة ما قبل الحماية بنفس الحدة، ويعود الفضل في ذلك إلى النمط الجديد من الحياة الذي رافق الوجود الفرنسي بالمغرب، على عكس المراحل السابقة حيث كانت الأمراض والمجاعات الساحقة تؤدي إلى حدوث تراجع كبير في عدد السكان²، حيث كان الأمر يتطلب وقتا طويلا حتى يسترجع المجتمع توازنه الديموغرافي، ذلك أن تعويض الأجيال كان عسيرا جدا³. ولابد من التذكير بأن عدم حدوث مثل ذلك النزيف الديموغرافي خلال فترة الحماية في صفوف الساكنة المغربية بشكل عام خلال المجاعات التي ضربت البلاد خلال تلك الفترة، يعود أيضا إلى الجهود التي بذلتها إدارة الحماية المتمثلة في توفير الغذاء الضروري للحياة، ذلك أنه خلال أزمة 1937 وفترة الجفاف الذي أصاب البلاد سنتي 1941 و 1945 قامت السلطات الفرنسية بتوفير ما يمكن من الطعام للجائعين بمدينة مكناس، حيث استوردت كمية كبيرة من الحبوب، التي شكلت أساس الوجبات الغذائية المقدمة للمحتاجين، وتم تنظيم مراكز لتقديم الغذاء للجائعين بكل مدن المغرب، والتي تشكلت أساسا من "الحريرة" و 300 غرام من الخبز يوميا. وقد مكنت تلك المساعدات من بقاء العديد من الجائعين على قيد الحياة⁴.

¹ "إذا رجعنا إلى الأدبيات ما قبل الكولونيالية، نجدها تقدم صورة عن المغرب كثير السكان. وبصفة عامة، يمكن تصنيف الأرقام التي تقترحها هذه الأدبيات إلى ثلاثة أنواع: أولا: أرقام خيالية، نذكر منها 14866600 نسمة حسب التاجر الإنجليزي جيمس غري جاكسون، و 12000000 نسمة حسب شارل تيسو، و 10800000 حسب القبطان بيرال.. ثانيا، أرقام مبالغ فيها، خاصة ذلك الرقم الذي يقدمه الطبيب غرايبييرغ دي هيمسو حيث حدده في 8500000 نسمة. ثالثا، أرقام قريبة من الواقع، ولا سيما رقم القبطان كارمان والذي قدره من 5 إلى 6 ملايين نسمة". محمد حبيدة، **بؤس التاريخ مراجعات ومقاربات**، دار الأمان، الطبعة الثانية، 2016، الرباط، ص. 75.

² "لم تكن الأوبئة دائما تؤدي إلى التسبب في عدد كبير من الوفيات في كل مناطق المغرب، فعلى سبيل المثال لعبت واحات تافيلالت والمناطق الجبلية دورا هاما في إعادة تعمير المناطق المهجورة بسبب الموت الجماعي الذي كانت تخلفه الأوبئة. لم يكن بمقدور الوباء أن ينتشر بالمناطق الجافة والباردة، إذ "تمتعت هذه المناطق بنوع من المناعة"، كما لاحظ ذلك بيرنار روزبير بينرجي وحميد التريكي، فتمكنت بالتالي من الحفاظ على كثافة سكانية هامة، وشكلت خزانا بشريا بإمكانه تعويض الخصائص الموجودة بالمناطق الأخرى الفارغة". وتؤكد الكثير من النصوص هذا الطرح. يقول صاحب الإحياء والانتعاش بخصوص مجاعة 1661-1663، "كان الخراب أكثر مما وقع منه في بلاد تادلة وازغار، وأما بلاد الصحراء فلم تسمع فيها ولو بقرية من قراها خربت من الجوع". محمد حبيدة، **بؤس التاريخ مراجعات ومقاربات**، مرجع سابق، ص. 82.

³ "أكد الطبيب الإنجليزي وليام لومبرير بأن وباء عام 1799 قد أدى إلى كارثة ديموغرافية كبرى عصفت بما يقارب بنصف ساكنة البلاد". محمد حبيدة، **بؤس التاريخ مراجعات ومقاربات**، مرجع سابق، ص. 80.

⁴ حسنة مازي، **مجتمع مكناس**، مرجع سابق، ص. 39.

يمكن القول أن التطور الديموغرافي الذي عرفته الجماعة اليهودية بمدينة مكناس يندرج ضمن ما انتهت إليه نظرية الانتقال الديموغرافي في مرحلتها الثانية¹، ذلك أنه في ظل عدد من أعراض المعاصرة المتعددة الأوجه، وبفضل تطبيقات التقنيات الطبية الجديدة، انخفضت الوفيات واستمرت الولادات في الارتفاع، مما أدى إلى نمو ديموغرافي مرتفع نسبيا في صفوف هذه الساكنة، قياسا مع ما كان عليه الأمر في السابق، وهي ساكنة كانت تعرف معدل خصوبة مرتفع في بلد ينتمي إلى العالم الثالث، استفاد نسبيا من الوسائل العصرية الغربية التي مكنته من حرق المراحل في الانتقال من المرحلة الأولى إلى الثانية.

غير أن هذا التطور الديموغرافي للجماعة اليهودية بمدينة مكناس ساهم في تفاقم مشكلة السكن بالملاح القديم بشكل كبير، حيث وصل الاكتظاظ إلى مستوى غير مسبوق، الأمر الذي دفع بالمسؤولين عن الجماعة إلى القيام بمجموعة من المساعي لدى سلطات الحماية من أجل إيجاد حل لهذه المعضلة التي كانت على رأس الأولويات المطروحة على الجماعة اليهودية بالمدينة، لأن السكن الغير اللائق بالملاح كان يتسبب في تفاقم عدد من المعضلات الاجتماعية الأخرى. وبناء عليه أدركت النخب اليهودية أن إيجاد حل لمشكلة السكن سيساهم في التقليل من حدة المشاكل المرتبطة به.

¹ "نظرية الانتقال الديموغرافي تعالج تطور الظواهر الديموغرافية، وتشدد على التأثير الممارس من طرف مجموعة من العوامل الاجتماعية والاقتصادية في الانتقال بين المراحل الثلاث التالية: المرحلة الأولى: ما قبل التصنيع كانت الخصوبة مرتفعة، وهذا الارتفاع نجح في تعويض الفراغ الذي كانت تخلفه الوفيات المرتفعة وغير المستقرة. وهاته الوضعية المتميزة بخصوبة ووفاة مرتفعتين أدت إلى وثيرة نمو ضعيفة وبطيئة، لكنها تحافظ على استقرار السكان. المرحلة الثانية: تحت تأثير المعاصرة المتعددة الأوجه، وبفضل تطبيقات التقنيات الطبية الجديدة على الخصوص، بدأ استقرار السكان يتعرض للخطر بسبب انخفاض الوفيات وإبقاء الخصوبة على مستواها المرتفع، مما أدى إلى نمو ديموغرافي سريع. المرحلة الثالثة: تتميز بالانخفاض المستمر للخصوبة، هذا الانخفاض ينهي عملية الانتقالية، ويمكن الخصوبة من إدراك التأخير التي كانت تعاني منه بالنسبة إلى حالة الوفاة. وهكذا يمكن التمهيد للمرحلة النهائية المتميزة بوفاة وخصوبة منخفضتين، ثم الحصول أخيرا على المستوى الأول الذي يحافظ على استقرار السكان بوتيرة نمو ضعيفة". محمد بومعيز، مدخل لدراسة الديمغرافيا وجغرافية السكان...، مرجع سابق، ص. 93.

3. السكن: فشل التماثل الاجتماعي بالمدينة الأوروبية والانتقال إلى الملاح الجديد

قبل الحديث عن مشكلة السكن التي ظلت تؤرق الجماعة اليهودية بالملاح القديم خلال فترة الحماية إلى حدود الانتقال إلى الملاح الجديد، وقبل تتبع المساعي التي قامت بها نخب الجماعة من أجل التحرر من بؤس الحي القديم، والمشاكل التي اعترضتها قبل الاستقرار بالحي الجديد، لابد من العودة إلى الحديث عن السياق التاريخي الذي بنيت فيه الملاحات بالحوضر الكبرى، ومنها ملاح مدينة مكناس موضوع دراستنا.

بنيت الملاحات بالمغرب ابتداء من القرن الخامس عشر. ولم تكن وظيفتها منذ البداية تقتصر على الحاجة للسكن فقط، بقدر ما وُظفت أيضا لـ "احتواء" الجماعة اليهودية في حيز مجالي لم يمكن من السهل العيش خارج أسواره، لأسباب ذاتية وأخرى موضوعية سنوضحها لاحقا. ثم إن التمدد الأفقي للملاحات أمر لم يكن من مسموحا به إلا بقرار من السلطة، مما أدى مع مرور الزمن إلى تفاقم ظاهرة الاكتظاظ بسبب تزايد الكثافة السكانية خصوصا خلال فترة الحماية. الأمر الذي سبب معاناة حقيقية لأفراد الجماعة نتيجة مضاعفات السكن غير اللائق.

من خلال ما اطلعنا عليه في العديد من المصادر والمراجع التاريخية المختلفة، لم نعثر على ما يفيد ارتباط استقرار الطوائف المغربية اليهودية بأحياء خاصة بهم منذ تواجدهم بالمغرب. نفس المصادر والمراجع تؤكد أن أول حي اقتصر السكن فيه على اليهود، وسمي بالملاح¹، كان بمدينة فاس سنة 1458، تلاه ملاح مراكش سنة 1567، ثم ملاح مكناس سنة 1682². و إلى حدود مطلع القرن التاسع عشر لم تبنى ملاحات جديدة خاصة باليهود، حيث تم الاقتصار إلى حدود هذه الفترة على مدن فاس ومراكش ومكناس، وهي المدن الوحيدة التي طُلب فيها اليهود بالعيش داخل الأسوار في كنف الملاح، إلا أنه ابتداء من سنة 1807 قرر السلطان المولى سليمان بناء عدد من الملاحات بعدة مدن بدافع حماية رعاياه اليهود³.

¹ حول ارتباط اسم الملاح بالحي السكني لليهود، يوضح هشام الركيك نقلا عن دراسة لشمعون ليفي حملت عنوان: " الحارة والملاح: الكلمات، التاريخ والمؤسسة" ما يلي: " لقد أوضح الباحث كيف أزاح الملاح وأبعد عن التداول طوبونيمات قديمة، لطالما زخرت بها المصادر التاريخية الوسيطة، من قبيل حارة اليهود ودرج اليهود وشاره اليهود وسوق اليهود، وكيف أن لا صلة للفظ باليهود، وأن لا مصداقية للتفسيرات الغرائبية، والطريقة أحيانا، التي تحيط بأصله. فقبل أن يعني الحي الذي جرى فيه إسكان يهود فاس على عهد بني مرين، وقبل أن يعمم منذ ذلك الحين ليشمل كل حي يهودي مسور ومعزول ومحدث بمقتضى قرار سلطاني، كان على الأرجح اسم موضع بفاس الجديد يجمع فيه الملح ويخزن تمهيدا لتوزيعه على أسواق المدينة". هشام الركيك، "من حومة فندق اليهودي إلى ملاح فاس الجديد، وتجليات الحضور اليهودي في المشهد العمراني لمدينة فاس"، هسبيريس- تامودا، العدد 11 المجلد 2، (عدد خاص- القسم الأول)، جامعة محمد الخامس بالرباط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2016، ص. 267.

² أحمد شحلان، اليهود المغاربة من منبت الأصول إلى رياح الفرقة...، مرجع سابق، ص. 140.

³ دانييل شروتر، يهودي السلطان، المغرب وعالم اليهود السفرد...، مرجع سابق، ص. 249.

لقد انفردت كل جماعة يهودية برواية محلية حول سبب حصرها، من طرف المخزن، على العيش داخل الملاح. ففيما يتعلق بيهود فاس، هناك رواية تُرجع سبب إقدام المخزن على تخصيص حي خاص باليهود خلال القرن الخامس عشر إلى إقدام هؤلاء على فعل شنيع أثار حفيظة المسلمين، تمثلت تفاصيله فيما رُوي في كتاب التواريخ، من تأليف أحبار من عائلة ابن دنان الغرناطية الفاسية، حيث جاء فيه: "[...] كانت هناك بفاس، أيضا، مقتلة عظيمة يسمونها بمذبحة "الخصّة" [النافورة]. ومفادها أن اليهود اجتمعوا وصاروا حتى دخلوا الجامع الكبير، وسدوا نبع الماء بالجامع. وملأوا مجاري الرخام الذي تجري فيها المياه بالخمّر، و [أمضوا] الليل [يشربون الخمر حتى ثملوا]. وعند الفجر، انسحبوا من ذلك المكان، وبقي هناك أحد اليهود ثملا هاجعا. وجاء المسلمون، وأخرجوه من هناك، وقتلوا كل اليهود الذكور الذين وجدوا. ولم ينج حتى [الذين بدلوا عقيدتهم]. وقتل [المسلمون] الصبية والنساء، ومنذ هذه المذبحة الثانية قرر اليهود أن يلبسوا جميعا رداء من ألياف.¹ سكب هؤلاء الخمر في خزانات فانوس الإنارة بمسجد القرويين، أدى إلى اندلاع اضطرابات دفعت المخزن إلى تطويق اليهود في حي خاص بهم، على بعد مسافة قريبة من القصر السلطاني².

بينما ذهب آخرون إلى أن تأسيس أول ملاح بالمغرب، تحكمت فيه عدة عوامل توزعت بين ماهو ديني وبين ما هو اقتصادي وعمراني³. وبالنسبة لبناء ملاح مدينة مراكش، فإن السبب لا يعود فقط إلى ارتفاع عدد اليهود وانتشارهم بفضاء المدينة، بل تقرر بناء حي خاص بهم ما بين 1553 و1573 في إطار جهود السعديين الرامية إلى تأكيد سيطرتهم على العاصمة الجنوبية؛ أي أن بناء حي يهودي محاط بالصور بمراكش شبيه بما هو موجود بفاس، كان من شأنه المساعدة على إضفاء الشرعية على مطالبة الأسرة الجديدة بحقها في الحكم، إذ تعتبر حماية الذميين من بين أهم الالتزامات الواجب على الحاكم المسلم الحرص على الوفاء بها⁴.

أما فيما يتعلق بالسياق الذي بني فيه ملاح مدينة سلا، فإن الرواية التاريخية تحكي أن الذي دفع بالسلطان المولى سليمان إلى بناء حي خاص باليهود هو تصديقه لاثام كاذب، مفاده أن اليهود تعمدوا كسر قنينة من الخمر

¹ أفراد من عائلة ابن دنان الغرناطية الفاسية، كتاب التواريخ أو تاريخ فاس، ترجمه عن اللغة العبرانية: د. عبد العزيز شهبر، جمعية تطاون أسمير، مطابع الشويخ-تطوان، 2002، ص. 8.

² دانييل شروتر، يهودي السلطان، المغرب وعالم اليهود السفرد...، مرجع سابق، ص. 251.

³ أنظر: هشام الركيك، "من حومة فندق اليهودي إلى ملاح فاس الجديد..."، مرجع سابق، ص. 311-267.

⁴ دانييل شروتر، يهودي السلطان، المغرب وعالم اليهود السفرد...، مرجع سابق، ص. 66-67.

أمام مسجد كان يقع بالقرب من مساكنهم¹. وبخصوص ملاح مدينة الرباط تروي الأدبيات اليهودية المحلية قصة امرأة مسلمة وقعت في غرام شاب يهودي وسيم، غير أنها وجهت له اتهامات كاذبة بعد رفضه حبها، فتسبب ذلك في إثارة الاضطرابات ضد إخوانه في الدين، ونتيجة لذلك أمر السلطان ببناء الملاح لحماية يهود المدينة من المسلمين². أما بخصوص ملاح مدينة تطوان، فقد أفادت الرواية المحلية بأن المسلمين، اشتكوا من مجاورة الحي الخاص بسكن اليهود للجامع الكبير، فكان اليهود هم من يسمعون نداء المؤذن للصلاة، فتقرر بناء ملاح جديد لسكنهم. وفيما يتعلق بملاح مدينة الصويرة حسب ما تؤكد الرواية اليهودية، فإن تشييده جاء بناء على طلب تلقاه السلطان من اليهود الذين كانوا يعيشون بين أحضان المسلمين حتى يستطيعوا العيش في مأمن من الاضطرابات التي كانت سائدة خلال تلك الفترة.

هذا، وهناك روايات مختلفة، بشأن قرار المولى سليمان المتعلق ببناء عدد من الملاحات الجديدة ابتداء من سنة 1807³، ومن المتاحل أن يكون ذلك راجعاً إلى حرص هذا السلطان على تطبيقه الصارم للشرعية التي تقتضي من بين ما تقتضيه من الحاكم في البلاد الإسلامية الوفاء بواجب حماية أهل الذمة، باعتبارهم الأكثر عرضة للمهاجمة خلال فترات العصيان بالبلاد⁴.

أما فيما يتعلق بالسياق التاريخي الذي تم فيه تشييد ملاح مدينة مكناس، فقد ارتبط بالازدهار الذي عرفته هذه الأخيرة بعدما اتخذها السلطان المولى إسماعيل عاصمة للبلاد، مما ساهم في استقرار عدد من اليهود المحليين بها⁵ بالإضافة إلى اليهود المطرودين من الأندلس⁶، لذلك قرر السلطان تخصيص مكان معين داخل المدينة يقام فيه ثالث ملاح بالمغرب بعد فاس ومراكش. لقد تعددت الروايات حول ظروف بناء ملاح مدينة مكناس، إحداها تحكي أن قرار السلطان القاضي ببناء حي خاص باليهود فوق أرض قرر منحهم إياها قد تم بفضل تمكن طبيب

¹دانييل شروتر، **يهودي السلطان، المغرب وعالم اليهود السفرد...**، مرجع سابق، ص. 251.
²قرار ترحيل يهود مدينة الرباط إلى حي جديد خاص بهم أحدث صدمة في نفوس سواد اليهود، الذين أجبروا على الرحيل. ويخبرنا دانييل شروتر نقلا عن الضعيف بأن اليهود غادروا حي الملاح القديم في الرباط إلى الملاح الجديد، بعد أن اكتمل بناؤه بتاريخ 16 أكتوبر من سنة 1808 بالبكاء والصياح والعيول، وإثر ترواني حزانهم في المغادرة، ضربه أحد موظفي المخزن ورمى به في السجن، بل وفضل بعض اليهود من الرباط وسلا، اعتناق الإسلام بدلا عن الرحيل. دانييل شروتر، **يهودي السلطان، المغرب وعالم اليهود السفرد...**، مرجع سابق، ص. 252.
³لمزيد من التفاصيل انظر: هشام الركيك، **من حومة فندق اليهودي إلى ملاح فاس الجديد...**، ص. 283-284.
⁴دانييل شروتر، **يهودي السلطان، المغرب وعالم اليهود السفرد...**، مرجع سابق، ص. 251.
⁵روبير أصراف، **محمد الخامس واليهود المغاربة...**، مرجع سابق، ص. 48.

⁶«Le Talmud-Torah de Meknès», op. cit, p. 101.

يهودي من علاج إحدى الأميرات¹، وهناك رواية ثالثة تحكي بأن هذا الحي قد بني بطلب من اليهود للاحتفاء من هجمات المسلمين².

يبدو أن تضارب الروايات هذا يعود إلى شح المعطيات داخل المصادر التاريخية، إذا استثنينا بعض الإشارات المقتضبة والمعزولة عن سياقها السياسي والاقتصادي والاجتماعي، الأمر الذي فسح المجال أمام بعض الباحثين لترجيح أطروحات سلبية بشأن ظروف بناء الملاحات، ومن بينها الميل إلى اعتبارها بمثابة "غيتوهات" أعدت للعزل والحجز³. غير أن هناك رواية أخرى تتوفر فيها بعض شروط الموضوعية، أوردها عبد الرحمان بن زيدان الذي رأى بأن تشييد ملاح مدينة مكناس قد تحكمت فيه عوامل سياسية، ذلك أن السلطان المولى إسماعيل أمر بإخراج اليهود من دورهم التي كانت وسط المسلمين بالمدينة حيث أسكنها أهل تافيلالت قصد مراقبتهم عن كثب وصرف اهتمامهم عن الأمور السياسية، وفي هذا الصدد يقول: "وأحدث بها الآن - يقصد الملاح - محلا لسكن اليهود لضيق حارتهم... أسسها عام ثلاثة وتسعين وألف... وأمر بإخراج أهل الذمة من المدينة وإسكانهم بالمحل المؤسس لأجلهم، فسكنوه وأخلت دورهم التي كانت وسط دور المسلمين"⁴. هذا الاحتمال الأخير رجحه أيضا عبد العزيز الخليلي، انطلاقا من فهمه بأن المقصود بـ "أهل تافيلالت" في النص السالف الذكر، هم الشرفاء العلويون، وقد علل إسكانهم من قبل السلطان في محلات اليهود بالخلفية السياسية للمولى إسماعيل الذي سعى من وراء ذلك التقرب من هذه الفئة عبر منحها امتيازات عقارية وغيرها، من أجل صرف أنظارهم عن أمور السياسة ووضعهم تحت مراقبته القريبة⁵.

غير أن محمد اللحية لا يرجح صحة هذه الروايات كلها، حيث انتهى إلى أن بناء ملاح المدينة جاء في سياق سياسة عمرانية شمولية أمر بها السلطان الجديد المولى إسماعيل، اقتضت منه تغيير المشهد العمراني للعاصمة الجديدة بما يليق بالحكم والحاكم، وتطلب الأمر هدم كل الأحياء الواقعة بين البلاط الجديد والمدينة الوسيطية، ويتعلق الأمر بأحياء القورجة وشرط من حيي عقبة الزيادي وصدراته في الشمال الشرقي للمدينة، وأحياء درب الغولة ودرب الكزارين وزواغة ودرب ليهود، الواقعة بجنوبها وجنوبها الشرقي، وفي نفس الوقت بناء أحياء جديدة من أجل إعادة

¹Mohamed Métalsi, Cécile Tréal, Jean Ruiz, **Les Villes impériales du Maroc**, Ed Terrail, 2001.

²AIU, **BII12-92**, lettre de Almaleh Bension Instituteur à l'école de l'AIU de Meknès, au président de l'AIU à Paris, Meknès, 28/11/1932.

³محمد اللحية، "حول ظروف تشييد ملاح مدينة مكناس في عهد المولى إسماعيل (1672-1727)"، هسبيريس- تامودا، جامعة محمد الخامس بالرباط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، العدد 1 - L - المجلد 2 (عدد خاص - القسم الأول)، 2016، ص. 342.

⁴مولاي عبد الرحمان ابن زيدان، إتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة أخبار مكناس، الجزء الأول...، مرجع سابق، ص. 157.

⁵عبد العزيز الخليلي، "حول مسألة بناء الملاحات بالمدن المغربية"، دار النبابة 4، (1987): 21-28، 5 (1988)، ص. 23-43.

إسكان سكان الأحياء المهدامة المذكورة، والعناصر الوافدة أو التي وقع ترحيلها إلى العاصمة من مناطق أخرى خلال مدة حكمه، وهي أحياء جناح لآمان وقاع وردة وتيزمي وبريمة والملاح¹. ولعل ما يرجح هذه الرواية هو أن إسكان أهل تافيلالت المشار إليهم فيما سبق - إن صحت هذه الرواية- يَدُور اليهود بعد إخلائها كان مؤقتا بالنظر إلى أن كلا الحيين اليهوديين بباب عيسى وبمقابر الذميين، كانا ضمن الأحياء التي هدمت ما بين سنتي 1682 و1684².

ومهما يكن من أمر، فقد شرع يهود المدينة في تشييد هذا الحي ابتداء من سنة 1679 بمساعدة السلطان إياهم بمبلغ مالي مهم³، كما تم اعتماد الأسرى المسيحيين في عمليات البناء⁴، ونخص بالذكر الأسرى الإنجليز والبرتغاليين مقابل دفع ثمن فديتهم للسلطان، من قبل شيخ اليهود معمران الذي تمت عملية التشييد تحت إشرافه⁵. عملية البناء هذه انتهت سنة 1682، وبعد ذلك تم دمج بالمدينة العاصمة من خلال السور المحيط بها، فتموقع بين حي بريمة الخاص بسكن موظفي المخزن والقصر السلطاني. وتنبغي الإشارة إلى أن تعيين موضعه في محل لا يجاور القصر السلطاني تم بناء على تعليمات من السلطان، لأن هذا الأخير كان يعرف بأن لا شيء يخشى منه على اليهود خلال فترة حكمه⁶ مادام بإمكانهم التحرك في مختلف مناطق البلاد بكل حرية ومن دون خوف من تعرضهم للاعتداءات⁷. ولعل ما ميز هذا الملاح عن غيره من ملاحات المغرب هو أن ملكيته كانت تعود لليهود وليس للمخزن أو الأحباس⁸.

الحاصل أن احتواء اليهود داخل حي سكاني مغلق⁹ غير قابل للتوسع أفقيا إلا بترخيص من المخزن، وارتفاع حجم الكثافة السكانية داخله مع مرور الوقت بسبب الزيادة الطبيعية والهجرة اليهودية من مناطق مختلفة، أدى مع

¹ محمد اللحية، "حول ظروف تشييد ملاح مدينة مكناس..."، مرجع سابق، ص. 352.353.

² نفسه، ص. 356.

³ J. Tolédano, *Le temps du Mellah...*, op. cit, p. 66.

⁴ J. Bernos, *Migrations Juives du Maroc...*, op. cit.p. 27.

⁵ محمد اللحية، "حول ظروف تشييد ملاح مدينة مكناس في عهد المولى إسماعيل..."، مرجع سابق، ص. 356.

⁶ روبرت أصراف، محمد الخامس واليهود المغاربة...، مرجع سابق، ص. 48.

⁷ لقد عم الأمن والسلام عهود بعض الملوك المعروفين بقدرتهم، مثل عهد مولاي إسماعيل (1727/1672) الذي يتحدث المؤرخون المسلمون عن عهده قائلين: "تستطيع المرأة واليهودي أن يذهبا من وجدة إلى واد نون دون أن يسألها أي كان عن وجهتهما... ولا يوجد أي أثر في المغرب كلهن لسارق أو قاطع طريق..." ولدينا في هذا الصدد شهادات من مصادر رربية/ حبرانية/ مغربية، مثل الشهادة التي تقول: "كان الأمن يعم طيلة حياة عاهلنا، كل أطراف المغرب، كنا نساfer ونتجه من فاس إلى مناطق تبعد بحوالي أكثر من عشرين يوما وكنا نساfer في قوافل تحمل كثيرا من المال وكنا نلتقي بعصابات من الأجانب، ولم يكن أي واحد منهم قادرا على التلطف ببنت شفة، ولا حتى بمجرد تنهيدة، لأن رهبة كانت تعم كل الناس (كوييم)، كان الخوف منه لهم بالمرصاد، لقد كان في حقيقة الأمر ملكا عظيما وحليما وذكيا. كان يسهر باستمرار على مشاغل الناس..." حاييم الزعفراني، ألف سنة من حياة اليهود بالمغرب، ترجمة عبد الغني أبو العزم وأحمد شحلان، 1982، ص. 22.

⁸ J. Tolédano, *Le temps du Mellah...*, op. cit, p. 66.

⁹ يوضح محمد اللحية في هذا الإطار قائلا: "وفي حقيقة الأمر ليس لدينا أي تفسير محتمل يمكن تقديمه للبت في مسألة إقدام السلطان على الفصل بين أحياء المدينة السكنية بواسطة الأسوار، ولا سيما الموجودة منها داخل محيط سورها الخارجي، مثل قصبة قاع وردة وتيزمي وجناح لآمان، اللهم إذا استثنينا حرصه الشديد على ترتيبها مجاليا ورغبته الأكيدة في السيطرة عن كئيب على القاطنين بها وضبط أحوالهم إداريا. ومع ذلك، لا نستبعد

مرور الزمن إلى تردي ظروف السكن داخله. شهادات بعض الرحالة الأجانب من اليهود والمسيحيين الذين زاروا الملاح القديم أواخر القرن التاسع عشر تحدثوا عن تلك الأوضاع المعيشية السيئة، وقد جاء في شهادة شارل دوفوكو في كتابه "التعرف على المغرب" المنشور سنة 1838 ما يلي: "[...] يعيش اليهودي بين ذويه في الملاح. يلبس نعليه، من جديد، عند تخطيه أبواب الملاح، فتراه يهرول بين أزقة كثيرة ظلمة ووسخة. يجري وسط القاذورات ويصطدم بالخضر المتعفنة ويجد نفسه أمام حمار مريض يقطع عليه الممر، وتملأ جميع أنواع الروائح القذرة خياشيمه وتهاجمه أصوات غير متناغمة من جميع الجهات"¹.

وحول نفس المرحلة يحكي هنري دولامارتينيز من خلال ذكرياته حول المغرب، بأن الملاح كان متسخاً جداً، وشكل فضاء مثاليا لتكاثر الجراثيم المسببة للأمراض الخطيرة. وخلال زيارة بيير لوي لملاح المدينة القديم سنة 1889 لم يخف اشمئزازه مما لاحظته وهو يتجول بين أزقته قائلا: "تقطن به ساكنة بكثافة مرتفعة، وتشعر بالاختناق وسط هذا الحي الضيق، لأن السلطان يمنع اليهود من الإقامة خارجه. أزقته ممتلئة بالسلع المفروشة على الأرض، وبجانبها جميع أنواع القشور والحطام والنفايات. بسبب الازدحام الشديد تنتشر القاذورات والأوساخ التي تنبعث منها روائح ليس لها اسم، حادة وتزكم الأنف وتسبب اختناقاً بالحنجرة"².

وقد ازدادت الوضعية السكنية بالملاح القديم سوءاً في نهاية القرن التاسع عشر، بسبب هجرة يهود تافيلالت نحو مدينة مكناس، حيث أدى ذلك إلى ارتفاع نسبة الكثافة السكانية في مساحة لا تتعدى 46.000 متر مربع، جزء كبير منها كان مخصصاً للمقبرة³.

هذا، وقد تفاقمت أزمة السكن بسبب الفقر الذي كان مستشرياً في صفوف العديد من الأسر اليهودية، مما أرغمها على التكسب بالمساكن المختلطة المهددة بالانهيار، لأن أصحابها لم تكن لديهم الإمكانيات اللازمة

أن تكون مسألة فصل الملاح قد اقترنت أيضا برغبة اليهود في أن يجدوا لأنفسهم دلالة جغرافية ضمن خريطة المدينة، بالانفصال داخل مجال خاص بهم، قد يتيح لهم التمكن من لم شمل طائفتهم بعد أن ظلت مجموعاتهما حتى هذا التاريخ مشتتة وضمن لهم بالتالي إمكانية الإقبال على حياتهم اليومية والدينية في استقلالية كاملة". محمد اللحية، "حول ظروف تشييد ملاح مدينة مكناس في عهد المولى إسماعيل (1672-1727) ..."، مرجع سابق، ص. 358.

¹ شارل دوفوكو، التعرف على المغرب...، مرجع سابق، ص. 272.

² R. Assaraf, *Eléments...*, op. cit. p. 202.203.

³ ANR, Service Municipale, Section Française, Meknès, Carton N° 650, 25 Juillet 1921.

لإصلاحها عندما تتساقط الأمطار التي كانت تؤدي إلى انهيار بعض السقوف، مما كان يرغم المتضررين على السكن لدى عائلاتهم وأصدقائهم. وكان هذا الاختلاط يتسبب في انتشار القاذورات في المساكن بشكل كبير.

وعلى العكس من ذلك، استطاع الأغنياء منهم بناء منازل تتوفر فيها شروط السكن اللائق. وفي عهد السلطان المولى الحسن تقرر بوعده منه بناء مساكن جديدة بالحي اليهودي، من أجل التخفيف من أزمة الاكتظاظ الخانقة¹ بمقتضى ظهير 26 نونبر من سنة 1887، بل أكثر من ذلك، خصص مبلغا ماليا من أجل تدشين الخطوة الأولى في عملية ترميم الملاح وتوسيعته، عبر التخطيط لبناء فندق ومركز تجاري متاخم للملاح، وتم ذلك بسرعة، فصار الفندق يؤدي المهام التي بني من أجلها². عملية توسعة الملاح كما كان مقررا ستفشل بسبب الخلافات التي حصلت حول الموضوع بين أعيان الجماعة، كما أن المخزن لم يقيم بمتابعة المشروع بسبب انشغالات أخرى صرفته عن الموضوع³، فظل مشكل السكن على حاله، وازداد الأمر تعقيدا بعد وفاة يعقوب أوحنا سنة 1897 الذي كان يحتكر حق الإشراف على الفندق⁴، مما أدى إلى إغلاقه سنة 1911 بعد الهجمة التي تعرض لها الملاح من طرف بعض القبائل المجاورة للمدينة⁵.

بعد توقيع معاهدة الحماية الفرنسية على المغرب سنة 1912، استبشر يهود البلاد خيرا بهذا الحدث، وانتعشت آمالهم في تحسن أوضاعهم الاجتماعية بمجيء الفرنسيين، لأنهم راهنوا عليهم منذ البداية، وكانوا يأملون ألا تعترض سلطات الحماية على مشروع توسيع الملاح وترميمه أو إيجاد صيغة أخرى لتجاوز هذا المشكل، خصوصا وأنهم لم يكونوا يطلبون غير الترخيص ببناء مساكن جديدة على نفقتهم⁶. تلك الآمال بدت لهم ممكنة التحقق، خاصة مع سقوط قانون الذمة تلقائيا مع إلغاء ضريبة الجزية، بعدما كانت الأوساط المحافظة تميل إلى تطبيق القواعد الأكثر صرامة فيما يتعلق بذلك القانون⁷، وقد تلاشت الإجراءات التمييزية التي كانت تطالهم في مجال السكن وفي قضايا

¹J. Tolédano, *Le temps du Mellah...*, op. cit, p. 159.

²R. Assaraf, *Eléments...*, op. cit, p. 203.

³J. Tolédano, *Le temps du Mellah...*, op. cit, p. 159.

⁴R. Assaraf, *Eléments...*, op. cit, p. 205.

⁵A. Guigui, «*Historique de la Communauté Juive de Meknès*», op. cit, p. 123.

⁶J. Tolédano, *Le temps du Mellah...*, op. cit, p. 159..

⁷هناك رأي لمحمد عابد الجابري في الجزية ولكنه لم يستحضر الطقوس المهينة التي كانت ترافق أداء هذه الضريبة. يقول موضحا رأيه في هذه المسألة ما يلي: "لا بد من أن نسجل بأن الجزية التي يقرها الإسلام على غير المسلمين في المجتمع الإسلامي إنما هي "الضريبة" التي تقوم مقام الزكاة، والتي تربط المواطن بالدولة ربط ولاء وربط مصلحة: بمعنى أنها رمز للولاء السياسي ومساهمة في نفقات الدولة على المصلحة العامة، مثل النفقة في مجالات الأمن والتعمير والتنمية وهي مجالات يستفيد منها المواطنون كافة مهما كانت ديانتهم". محمد عابد الجابري، *مواقف*، العدد 66، دار النشر المغربية، الطبعة الأولى، غشت 2007، ص. 87.

أخرى- سبق وتحديثا عنها في الفصل الأول-، بحيث أصبحت تدرج في خانة الأعمال غير القانونية من قبيل إجبارهم على السكن في حي خاص بهم¹.

في هذا الإطار، وخلال الزيارة التي قام بها ناحوم سلوش، المؤرخ والمستشرق اليهودي ذو الأصل البولوني، للمغرب سنة 1914، من أجل تحضير مشروع لإعادة هيكلة المؤسسات اليهودية بتكليف من المقيم العام الجنرال ليوطي²، التقى بأعضاء الجماعة اليهودية بمكناس، في سياق الجولات التي قام بها في عدد من المدن والقرى المغربية، فنصحهم بضرورة الانتباه للوفاد الجديد، أي الحماية الفرنسية؛ التي رأى بأنها ستحقق لهم العديد من الأشياء الإيجابية³. فلم تفوت نخب الجماعة اليهودية بالمدينة الإسماعيلية فرصة اللقاء به، حيث قدمت له تقريرا حول الوضع السكاني الصعب الذي كانت تعيشه بالملاح، وذلك قبل مغادرته المغرب، فقاموا بصياغة مذكرة حول الموضوع مطالبين إياه بتقديمها للحكومة الفرنسية كي تسمح لهم بتوسعة الملاح بالأراضي الفارغة المجاورة لحيهم القديم، وقد جاء فيها ما يلي:

"في نفس الفناء، يتجاور الطيبون والسيئون من الأغنياء والفقراء، العلماء والأميون، اللبقون والوقحون، المتحضرون والحيوانات المتوحشة، المحترمون والمتسخون. إنه تعايش ضد الطبيعة، وهذا الأمر يؤدي بشكل مستمر إلى نشوب الصراعات والشجارات، كما أن ذلك يحفز كثيرا على تكاثر الأمراض الكثيرة بسبب الهواء الفاسد المنتشر بهذه الفضاءات المغلقة...العديد من الزوار الأجانب الذين قدموا من فرنسا وغيرها من الدول اطلعوا على واقع الحال البئيس بالملاح وذهلوا من هول ما رأوه، وحكوا عن ذلك بجرائدهم كما لا يخفى عليكم. إن القلب ينفطر أمام هذا الوضع، وبناء عليه نناشدك بأن تكون الناطق باسمنا، والمدافع عنا لدى السلطات من أجل أن تسمح لنا بتوسعته إلى حدود حيننا بالأراضي الواسعة الفارغة المجاورة للسور، لبناء منازل تستجيب لحاجة وإمكانيات كل شخص، حتى نتمكن من استنشاق هواء نقي، ونتمكن من إنقاذ أرواحنا وشرفنا، ونتجنب هذا التعايش السيئ والمسبب للأمراض"⁴.

¹R. Assaraf, *Eléments...*, op.cit, p. 178.

²R. Assaraf, *Une certaine Histoire des Juifs du Maroc...*, op. cit, p. 296.

³J. Tolédano, *Le temps du Mellah...*, op.cit, p.159.

⁴R. Assaraf, *Eléments...*, op.cit, p. 206.

هذه المبادرة لم تعرها سلطات الحماية المحلية أي اهتمام، بعدما قررت وقف مهمة الوسيط ناحوم سلوش، ومنعته من العودة إلى المغرب بسبب الاشتباه في كونه يعمل لصالح الدعاية الصهيونية، بالإضافة إلى عدم استحسان العلاقات التي كانت تجمعها مع قادة الحركة اليهودية الأمريكية¹. ومن جهة أخرى، لأن السلطات الفرنسية كانت منشغلة جداً بتطورات الحرب العالمية الأولى التي اندلعت حينذاك، وبالتالي لم يكن من أولوياتها الاهتمام بأمر تحديد الملاح القديم².

خلال الفترة الممتدة ما بين سنة 1914 تاريخ هذه المبادرة وسنة 1924 تاريخ بدء الأشغال بالملاح الجديد، ظل الوضع على حاله بالملاح القديم، بكثافة سكانية جد مرتفعة، حيث كانت العديد من المنازل تحوي ما بين 3 و 4 عائلات، كل واحدة منها تضم عدة أفراد بشكل أدى إلى استمرار ظاهرة السكن المختلط³. كما أدى استمرار انتشار مجاري المياه المستعملة بين حارات الملاح الضيقة والمظلمة والنتنة، إلى التسبب في توفير بيئة حاضنة للأمراض والأوبئة التي ظلت مسؤولة عن تكاثر الحشرات والأمراض المعدية⁴.

بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، وتحديداً سنة 1919، تجدد الحديث عن ضرورة إيجاد حل لمشكلة السكن بالنسبة لليهود مكناس، ومن الاقتراحات التي انبثقت، في هذا الصدد، ذاك الذي تم التداول فيه ما بين الإقامة العامة وقائد ناحية مدينة مكناس، والذي يقضي بتوسعة الملاح القديم باتجاه حي باب برعة. هذا الاقتراح لم يكن من الممكن تحقيقه بسهولة، بالنظر لتعقد الملكية العقارية للمنطقة التي كانت مقترحة لهذا المشروع، ذلك أن ملكية جميع الأحياء بالمدينة كانت تعود في الأصل للمخزن، باستثناء الملاح القديم، بينما لم يكن للمستغلين سوى حق الاستغلال، لذلك استغل المقيم العام هذه الحالة واقترح على قائد الناحية اتباع مسطرة معينة في تفويت الملكية كي تكون سابقة يتم العمل بها لاحقاً في عمليات انتزاع الملكية من المخزن، من دون أن يُؤول ذلك من طرف الملاك الجدد بما يفيد هشاشة حقوق المخزن في الأملاك المخزنية.

¹R. Assaraf, *Une certaine Histoire des Juifs du Maroc...*, op. cit, p. 297.

²R. Assaraf, *Eléments...*, op.cit, p. 206.

³A.I.U, **Bil12-92**, lettre de Almaleh Bension, Instituteur à l'école de l'AIU de Meknès, au président de l'AIU à Paris, Meknès, 28/11/1932.

⁴«Le nouveau Mellah de Meknès» op. cit, p. 7.

وبناء عليه، اقترح المقيم العام أن يتخلى المخزن عن حقوقه في حي باب بريمة في شكل تنازل من أجل خدمة المصلحة العامة، مما سيجعله يقبل بالثمن المبدئي المقترح عبر اتباع المسطرة الآتية: أي يهودي تقدم بطلب الحصول على ملكية الأراضي الفارغة أو المباني المتواجدة بحي بريمة يجب أن يعرض طلبه على رئيس المصالح البلدية بمكناس، والذي سينقله بدوره لرئيس الأملاك مرفقا بملاحظاته، ثم تقوم المصالح المحلية الخاصة بمراقبة الأملاك عبر معاينة العقار ميدانيا، وبمجرد الانتهاء من هذه العملية ستقوم السلطات المركزية فوراً بتحضير ظهير يسمح ببيع العقار، على أساس أن يكون ثمن المتر المربع هو فرنك واحد. وقد برر المقيم العام هذه المسطرة بكونها ستحقق امتيازاً مزدوجاً؛ أولاً حماية حقوق الدولة، وثانياً إعطاء قيمة اعتبارية للثمن البخس المقترح، كونه يدخل في باب تحقيق المصلحة العامة¹. هذا الاقتراح القاضي بالبحث عن صيغة مناسبة لتوسيع الملاح ظل معلقاً، قبل أن يُثار مرة أخرى في إحدى جلسات المجلس البلدي بتاريخ 25 يوليوز من سنة 1921، حيث تقدم رئيس المجلس البلدي باقتراحين، يقضي الأول بتوسيع الملاح في اتجاه أراضي الخواص الواقعة بضواحي الملاح القديم، لكن مساومات الجماعة الإسرائيلية لم ترضِ شروط الملاكين. والثاني يقضي بخلق حي يهودي بالمدينة الجديدة، ومن أجل إغرائهم أكثر للقبول بهذا العرض، وعدت المصالح البلدية بإعفاء كل من قرر شراء بقعة أرضية بـ "حمرية" من مصاريف الربط بشبكة الماء الصالح للشرب والكهرباء وقنوات الصرف الصحي. ولتدعيم هذا العرض وعد رئيس المصالح البلدية بأن يضع تحت تصرف مجلس الجماعة الإسرائيلية قطعة أرضية واسعة مجانا، قريبة من قلب المدينة والسوق البلدي، من أجل تمكينهم من تشييد البيعة والمدرسة اليهودية وباقي البنايات العمومية².

هذا العرض المغربي وغير المتوقع، كان من المفروض أن يستجاب له على الفور، لكن ممثلي الجماعة اليهودية طلبوا مهلة زمنية للنظر في هذا الاقتراح، مما أثار استغراب رئيس المصالح البلدية، وبعد دراسته بعناية من زوايا متعددة قرروا رفضه بالإجماع³، لعدة أسباب تمثلت فيما يلي:

✓ الهاجس الأمني: ذلك أن المكان الذي اقترح عليهم بالمدينة الجديدة كان يبعد عن الملاح القديم بثلاثة كيلومترات، بالإضافة إلى أن حي الروامين الذي كان يقع بينهما كانت تستقر فيه جالية إسبانية

¹ANR, lettre N°7639 du Résident Général, au Général Commandant de la région de Meknès, carton N° 598, 27/12/1919.

²J. Tolédano, *Le temps du Mellah...*, op. cit, p. 164 ; R. Assaraf, *Eléments ...*, op. cit, p. 208.

³ANR, P.V , Séance du 25 Juillet, 1921, Section Française, Service Municipal, Meknès, carton N°1719.

عرفت بمعاداتها للسامية، كما أن الموقع المقترح كان يتواجد أيضا بين المدينة الجديدة والمدينة القديمة التي يتواجد فيها الملاح، وفي حالة حدوث أي اضطرابات سيكون اليهود مضطرين أثناء عودتهم لحيمهم القديم إلى عبور مناطق خطرة¹، لذلك لم يستحسن الأعيان اليهود هذا العرض. كما أنهم توجسوا في هذا "الكرم" المشبوه، لأنهم اعتقدوا أن الفرنسيين لم يكونوا يبحثون إلا عن مصالحهم التي جعلتهم "يخططون" في استعمال اليهود كحاجز أمني في مواجهة السكان المسلمين بالمدينة القديمة، مما سيجعلهم يتلقون الضربة الأولى في حال نشوب أي مواجهة بينهما. كما أنهم كانوا لا يراهنون على الفرنسيين في توفير الحماية لليهود، خاصة وأن المدينة الجديدة لم تكن محاطة بسور يمكن أن يؤدي وظيفته الأمنية، على عكس الملاح القديم الذي كان يسمح لهم بالتمترس والتكتل خلف أسواره من أجل الدفاع عن أنفسهم حال تعرضهم لأي هجوم كما حدث سنتي 1903 و1911².

✓ الهاجس الاجتماعي: رأت النخب اليهودية بأن التسهيلات المادية التي حاولت من خلالها السلطات المحلية الفرنسية إغراء إخوانهم في الدين من أجل الانتقال للاستقرار بالمدينة الجديدة، ستؤدي فقط إلى انتقال الميسورين والمتطورين منهم على عكس الفقراء الذين ستشدد عزلتهم بالملاح القديم، ولن يكون باستطاعتهم بعد ذلك تحمل أعباء صيانة الحي لوحدهم³. وبناء عليه، من شأن تحقق هذا السيناريو أن يعمق الشرخ في صفوف الطائفة اليهودية، ناهيك عن أن المدينة الجديدة كانت تبعد بثلاثة كيلومترات عن المدينة القديمة، وفي ظل غياب وسائل مواصلات سريعة سيؤدي ذلك إلى تعطيل التواصل بين الطرفين⁴.

✓ الهاجس الثقافي/الديني: رفض عرض السكن بالمدينة الجديدة من طرف العديد من ممثلي الجماعة اليهودية، تحكمت فيه أيضا اعتبارات ثقافية-دينية، ذلك أن ميمون بن عبو الذي كان رئيسا للطائفة خلال هذه المرحلة، كان ضد هذا الاقتراح، لأنه رأى بأن التحرر المحتشم لأعضاء طائفته لا يسمح بمثل هذه المغامرة التي يمكن أن تكون لها عواقب وخيمة، خاصة وأنه لم يكن قد مر على تواجد مدرسة الرابطة بالملاح إلا بضع سنوات عُدت في نظره غير كافية لتهيئ أفراد جماعته للاندماج الاجتماعي

¹R. Assaraf, *Eléments...*, op. cit, p. 209.

²J. Tolédano, *Le temps du Mellah...*, op. cit, p. 165.

³R. Assaraf, *Eléments ...*, op. cit, p. 208.

⁴J. Tolédano, *Le temps du Mellah...*, op. cit, p. 165.

داخل المجتمع الكولونيالي، حيث كان يرى هؤلاء اليهود "الخجولين" لا يمكنهم مواجهة المستوطنين الفرنسيين¹، لأن هذا العالم الجديد يُعد مجهولا ومختلفا عن عالمهم.

صورة رقم 13: ميمون بنعبو، الأب الروحي للملاح الجديد بمكناس

Source : J. Tolédano, *Le Temps du Mellah...* op. cit, p. 165.



Mimoun Benabou

نفس الموقف عبر عنه السيد طوليدانو، الذي كان بدوره أحد أبرز أعيان الطائفة اليهودية بمدينة مكناس، على الرغم من أنه كان متفتحا وغير رجعي²، لكنه عارض ذلك الاقتراح بقوة، ورأى أن انتقال اليهود الميسورين للمدينة الجديدة سيكون له تأثير سلبي على الحاخامات المنتسبين لعائلته، والتي كانت تضم العديد من الفقراء الذين سيظلون محاصرين في رؤسهم بالحى القديم³. مخاوف الحاخامات من انتقال إخوانهم في الدين للعيش بالمدينة الجديدة كانت تتجسد أيضا في الخوف من خفوت وتراجع دينهم بسبب التأثير الذي يمكن أن يلحق بهم بسبب احتكاكهم بقيم المجتمع الأوربي بالمدينة الجديدة. من جهة أخرى كانت النخب المتدينة تعتقد بأن العيش داخل المدينة الأوربية سيعيق عملية الاحتفال بالأعياد والشعائر كالشباط/Shabbat يوم السبت⁴، بسبب الإغراءات المصاحبة لفتح التجار الأوربيين لفتح محلاتهم التجارية في ذلك اليوم⁵، والصخب المرافق لنمط العيش اليومي بتلك المدينة التي كانت في نظرهم تقدم نموذجا سيئا للحرية⁶. كما أن العديد من البيع بالملاح القديم كانت في ملكية العديد من العائلات،

¹R. Assaraf, *Eléments...*, op.cit, p. 164.

²"لقد عارض تـمدرس بناته بمدارس الرابطة الإسرائيـلية العالمية، ومنحهم بالمقابل تعليما دينيا صلبا ضدا على ما جرت به العادة خلال هذه المرحلة". R. Assaraf, *Eléments...*, op. cit, p. 208.

³Ibid, p. 208.

⁴أساس الفكرة الدينية اليهودية بالنسبة ليوم السبت تذكرها التوراة: "وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل، فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل" (سفر التكوين 2/2). جودت السعد، *أوهام التاريخ اليهودي*، الأهلية للنشر والتوزيع، المملكة الأردنية الهاشمية- عمان 1998، الطبعة الأولى، ص. 186.

⁵R. Assaraf, *Eléments...*, op.cit, p.209.

⁶J. Tolédano, *Le temps du Mellah...*, op.cit, p.165.

والذهاب إليها للعيش بعيدا بالمدينة الجديدة في ظل غياب وسائل نقل عمومية بين هذه الأخيرة والملاح القديم من شأنه أن يجرمها من روادها وتبرعاتهم التي كانت بفضلها تضمن استمراريتها¹. هذا وكان ثمة سبب اقتصادي مرتبط بالجانب الديني وراء تحفظ الحاخامات اليهود على مشروع انتقال إخوانهم في الدين إلى العيش بالمدينة الجديدة، ذلك أن العديد من البيع بالملاح القديم كانت تعود ملكيتها للخواص، وكانوا يقومون بكرائها لمدة سنة للحصول على مقابل مالي لا بأس به يمكنهم من ضمان دخل قار زيادة على الهبات التي كانوا يحصلون عليها، بحيث يمكن أن يصل المبلغ السنوي المحصل إلى حوالي 3000 فرنك، وبالتالي كانت هذه "الصفقات" تضمن لأصحاب البيع دخلا مهما في ظل قلة المعابد، ذلك أن الجماعة اليهودية لم تكن تهتم ببناء دور العبادة العمومية. يتضح إذًا مما سبق أن الاعتراض على الانتقال للعيش بالمدينة الجديدة لم يكن مرتبطا بالهاجس الديني فقط، بقدر ما كان مرتبطا أيضا بالحرص على تحقيق المصلحة الاقتصادية من وراء ممارسة الشعائر الدينية، وهكذا لم يكن هناك فرق بين مالك المعبد والتاجر إلا في طبيعة السلعة، لأن كليهما يبحث عن الربح. أما من الناحية الأخلاقية فهذا النوع من "التجارة" لم يكن يحظى باستحسان أفراد الجماعة اليهودية كما جاء في تقارير مدرسي الرابطة المبعوثة إلى المسؤولين المركزيين بباريس².

وفي إطار استعمال كل أوراق الضغط الممكنة من أجل إفشال العرض الذي تقدم به رئيس المصالح البلدية، لم يتردد الحاخامات في التلويح بتكفير كل من قرر الانتقال للاستقرار بالمدينة الجديدة. هذه الحملة القوية ضد المشروع أتت أكلها، ولم يعد الفرنسيون إلى تقديم هذا العرض.

نستخلص مما سبق مدى حرص المسؤولين عن الجماعة اليهودية على عدم السماح "بذوبان" جماعتهم في المجتمع الجديد، لارتباطهم القوي بالخصوصية اليهودية. هذه الرغبة كانت تثير الزائر الأجنبي عند دخوله الملاح، أي ذلك الاختمار الثقافي الذي ميز يهود مكناس بسبب حرصهم الشديد على العيش في ظل القيم التقليدية³ خلال السنوات الأولى للحماية، خاصة وأن التواجد الأوربي بالمدينة كان محدودا خلال هذه الفترة، ذلك أن عددا محدودا من الأوربيين فقط من قرر الاستقرار بالمدينة الجديدة، ونسبة مهمة منهم كانوا مجرد عابرين لم يغامروا بشراء بيت بها،

¹R. Assaraf, *Eléments...*, op.cit, p.209.

²AIU, **BII12-92**, lettre de Almaleh Bension Instituteur à l'école de l'AIU de Meknès, au président de l'AIU à Paris, Meknès, 15/07/1933.

³ANR, Capitaine, Nolle, «*Les Juifs du Maroc et L'occident*», CHEAM, N°3121, p. 6.

واقصر الأمر في الغالب على ضباط الثكنة العسكرية، في حين قرر أغلب المستوطنين الذين كانوا ينتمون إلى فئة الفلاحين الاستقرار بضيعاتهم خارج المدينة¹، لذا لم يؤدي ذلك إلى إحداث تحولات سريعة جدا وواسعة في صفوف يهود المدينة، ناهيك عن الحضور والتأثير القويين للمؤسسات الدينية داخل الطائفة بهذه المدينة التي ضمت أكبر عدد من البيع بالمغرب.

وفي سنة 1922 عاد رئيس المصالح البلدية خلال الجلسة التي انعقدت يوم 13 مارس إلى موضوع توسيع الملاح لتجاوز الاكتظاظ الذي بات مؤرقاً لأفراد الجماعة اليهودية بالملاح القديم فتقدم باقتراحين: أولهما كان يهتم تجديداً لاقتراح سبقت مناقشته، يقضي بتوسيع الملاح في اتجاه حي برمة، وثانيهما توسيعه في اتجاه الأراضي الفارغة المحاذية للحي القديم. تم رفض الاقتراح الأول من طرف ممثلي المسلمين واليهود، لأن التوسع في اتجاه حي برمة سيجعل الطرفين متجاورين، مما قد يتسبب في نشوب صراع من جانب المسلمين الذين سيثير سخطهم قرار نزع "ملكيتهم" لصالح اليهود. أما الاقتراح الثاني فقد تمت المصادقة عليه بالإجماع، وقد استغل الحاخام بيرديغو هذه الفرصة من أجل مناشدة السلطات الفرنسية بالإسراع في إخراج هذا المشروع للوجود ببنيتة التحتية، لتحرير إخوانه في الدين من البيئة القذرة للملاح القديم². هذا الموقف دعمته أيضاً مصالح الوقاية الصحية بالمدينة، حيث طالبوا بضرورة الإسراع بإيجاد حل لمشكلة السكن اليهودي، منبهين إلى خطورة استمرار البيئة الحاضنة للأمراض المعدية والأوبئة بالملاح القديم، كونها لا تهدد فقط صحة اليهود، بل تهدد الصحة العمومية لسكان المدينة ككل. وهو نفس الموقف الذي زكاه الجنرال قائد الناحية بالتوافق مع رئيس المصالح البلدية³.

وعندما أدرك مسؤولو الجماعة اليهودية بأن مختلف الفاعلين بالإدارة الفرنسية صاروا عازمين على إيجاد حل لهذا المشكل كثفوا من مساعيهم لدى مختلف الأطراف، حيث استغلوا زيارة السلطان مولاي يوسف للمدينة سنة 1923، وتوجهوا إلى القصر السلطاني من أجل اللقاء به بـ "المزاوكة" عبر ذبح ثلاثة ثيران كما جرت العادة، طالبين منه أن يشملهم بعطفه وأن يتدخل باسم الوقاية والأخلاق من أجل إخراج مشروع الملاح الجديد إلى حيز الوجود⁴، لأن ظروف العيش بالحي القديم أصبحت بئيسة ولا تطاق بسبب الاكتظاظ الشديد الذي أرغم العديد من الأسر

¹R. Assaraf, *Eléments ...*, op. cit, p. 207-208.

²ANR, P.V, Séance du 13 Mars 1922, Commission Municipal Indigène, Service Municipaux de la Médina, Carton N°164.

³«Le nouveau Mellah de Meknès», in AI, N° 45-46, 16 Décembre 1927, p. 6-7.

⁴Ibid, p. 6-7.

على السكن المشترك داخل البيت الواحد، لدرجة أنه حتى الأبناء المتزوجون أصبحوا مضطرين للعيش مع آبائهم في نفس الغرفة¹.

يجدر القول إن مساعي اليهود من أجل بناء حي سكني جديد خاص بهم ستعرف انفراجا مهما ابتداء من مطلع العشرينات، بفضل أحد كبار رجال الأعمال الفرنسيين الأكثر ثراء حينها بالمغرب، ويتعلق الأمر بالسيد بيير ماص الذي كان يملك أكبر مجموعة صحفية ناطقة بالفرنسية بالمغرب، آنذاك، والتي كانت تصدر صحيفتي la vigie marocaine و le petit marocain، كما كان مقاولا كبيرا في مجال البناء ويمتلك العديد من العقارات بمختلف جهات المغرب، من بينها الهضبة التي كانت تجاور الملاح القديم². وقد حاول الرجل سنة 1922 الظفر بهذه الصفقة، فدخل في حوار مع رئيس المصالح البلدية بالمدينة بهدف الحصول على الترخيص والتسهيلات الممكنة، من أجل تشييد حي جديد بمواصفات عصرية لإيواء يهود الملاح القديم. هذا المعطى أنعش آمال يهود مدينة مكناس، الذين التفوا حول فكرة المشروع، وسعوا بكل السبل الممكنة إلى تحقيقها. غير أن رغبة المستثمر الفرنسي واجهتها بعض الصعوبات في البداية أدت إلى تعثر المشروع، وتمثلت تلك العراقيل في رفض السلطات الفرنسية تقديم المساعدات اللازمة، حيث امتنعت عن الالتزام بتجهيز الحي الجديد بالبنية التحتية الضرورية المتمثلة في مد شبكات الصرف الصحي والماء الصالح للشرب والإنارة وتعبيد الطرق. معللة ذلك بارتفاع تكلفة تلك الأشغال، من قبيل تأكيدها أن تعبيد متر مربع واحد سيكلفها 8 فرنكات³.

غير أن هذه العراقيل لم تكن لتثني بيير ماص عن مشروعه القاضي ببناء الحي السكني الجديد، ذلك أنه كان متأكدا من قدرته على إنجاز ما كان يطمح إليه، بفضل قوة التأثير التي كان يمتلكها بفضل مجموعته الصحفية، لذلك جدد طلبه للمقيم العام الجديد تيودور ستيف سنة 1926⁴ بضرورة تسهيل مأموريته، بل إن الحماسة بلغت به إلى حد إرسال تقرير إلى المقيم العام المذكور يوجه فيه انتقادات حادة جدا إلى إدارة الحماية الفرنسية متهما إياها بالتمييز ضد اليهود الذين يؤدون الضرائب دون أن يستفيدوا من ثمار ذلك، بخلاف حالها إزاء المستوطنين الأوروبيين بالمدينة الجديدة التي حظيت من قبلها بعناية خاصة في كل ما له علاقة بالبنية التحتية. كما اتهم إدارة الحماية أيضا بالتناقض

¹J. Tolédano, *Le temps du Mellah...*, op. cit, p. 164.

²R. Assaraf, *Eléments...*, op. cit, p.207.

³«Le nouveau mellah de Meknès», in Al, op. cit, p. 7.

⁴R. Assaraf, *Eléments...*, op. cit, p.210.

بين الخطاب والممارسة، إذ تروج في مدارسها لقيم العدالة والحرية والمساواة، وتلقن التلاميذ مبادئ الوقاية، بينما على أرض الواقع تتلصق في العناية بشؤون "الأهالي" الذين يساهمون بنسبة 90 في المئة من الضرائب، دون أن يحظوا بما يليق بهم من معاملة بمختلف مدن المغرب، لأن حصة الأسد من الميزانية العمومية الخاصة بالتجهيز خصصت للمدن الجديدة وما تبقى خصص للمدن القديمة¹، مدُن ظلت ساكنتها تعاني من الإهمال وتراكم القاذورات التي شكلت مرتعا خصبا لتشكيل الأمراض والأوبئة². وبعد هذه "المرافعة" الجريئة التي قام بها ماص، لم يكن بوسع المقيم العام تيودور ستينغ تجاهل أحد أكبر الاستعماريين الأوروبيين بالبلاد. وإن كان عليه أن يأخذ بالحسبان التطور الذي تحقق في صفوف المغاربة اليهود، وأن مناخ معاداة السامية الذي كان منتشرا في صفوف الأوروبيين بالمدينة الجديدة لم يكن يسمح بالتفاعل الإيجابي مع الاقتراح الذي سبق وقدمه رئيس المصالح البلدية الذي كان يساري الانتماء، والقاضي بإسكان اليهود بالمدينة الأوربية. وبناء عليه لم يكن مرحبا بإقامة "الأهالي" سواء المسلمين أو اليهود بتلك المدينة، لدرجة أن أحد المستوطنين الفرنسيين بمدينة مكناس صرح من دون موارد موجهة كلامه إلى الإدارة الفرنسية قائلا: "إذا لم تتحركوا من أجل حل مشكلة سكن اليهود بالملاح القديم، سينتهي الأمر بغزوهم للمدينة الجديدة. ويمكنكم الوثوق بخصوبتهم، وديناميكيته، ومعرفتهم الجيدة بالبلد، وتمكنهم من احتلال أحسن المواقع. يجب التعديل باحتوائهم قبل أن يفيض الملاح"³. في ظل هذا السياق خرج الملاح الجديد إلى حيز الوجود، وقد وصف الراهب يوسف مساس ذلك قائلا: "لم يكن للرسالة أي أثر (يقصد المبادرة التي سبق وقام بها ناحوم سلوش)، رغم أنها تناولت أمرا يهم مصلحتنا حيث قوبلت بالتجاهل. لكن الرب بعث إلينا بإشارة عبر طريق آخر. ثماني سنوات بعد ذلك قام أحد الأثرياء المسيحيين بشراء قطعة أرض واسعة بشمال الملاح، وأحاطها بسور، وحفر شبكة للواد الحار، وخطط الطرق وجزأها إلى بقع. بعد ذلك قام اليهود بشرائها، ونجحوا في تشييد المنازل، وعرضوها للبيع، داعين من الله أن يتم تعميرها"⁴.

¹«Le nouveau Mellah de Meknès», in Al, op. cit, p. 7.

²Ibid, p. 7.

³R. Assaraf, *Eléments...*, op. cit, p. 213-214.

⁴Ibid, p.207.

6 (722) N° 45-4 Samedi 16 Dec 1932 L'AVENIR ILLUSTRE

Le Nouveau Mellah de Meknès

Depuis le 5 février 1923, une personnalité très honorablement connue dans le monde des affaires est entrée en pourparlers avec l'autorité municipale de Meknès pour doter d'un Mellah moderne les 6 à 8.000 Israélites que compte la population de cette ville. Depuis cette époque l'idée a pris corps et une société s'est constituée à cet effet, mais les réalisateurs se heurtent à des difficultés qui sont exposées au cours de ce rapport et qui entravent l'accomplissement de l'œuvre humanitaire entreprise.

Sans insister sur le vieux Mellah, mal aéré, surpeuplé, malodorant et pestilentiel, où chaque chambre loge une famille, où les cloaques des rues, formées d'égouts crevés, sont des nids à moustiques et à maladies infectieuses, on doit cependant rappeler que sa condamnation a été prononcée par les hygiénistes de Meknès qui l'ont réclamé son extension, non seulement comme une mesure exigée par l'hygiène des Israélites, mais également comme une mesure de protection à l'égard de la santé publique. Et c'est justement préoccupé par cette situation peut-être unique au Maroc, où cependant les Mellahs constituent les quartiers misérables, malsains, surpeuplés et redoutables pour l'hygiène, qu'un médecin directeur du bureau d'hygiène de Meknès a réclamé, il y a trois ou quatre ans, le démantèlement de ce quartier malpropre et malsain, en proclamant comme une urgente nécessité l'amélioration des conditions d'hygiène dans lesquelles vivent les Israélites. Et il ajoutait que ce démantèlement serait la condition préalable de la diminution de la morbidité et qu'il ne vous laissera pas à la merci d'une

« extension à désirer tant au point de vue des intérêts généraux de la ville que de l'hygiène publique ». (13 octobre 1922).

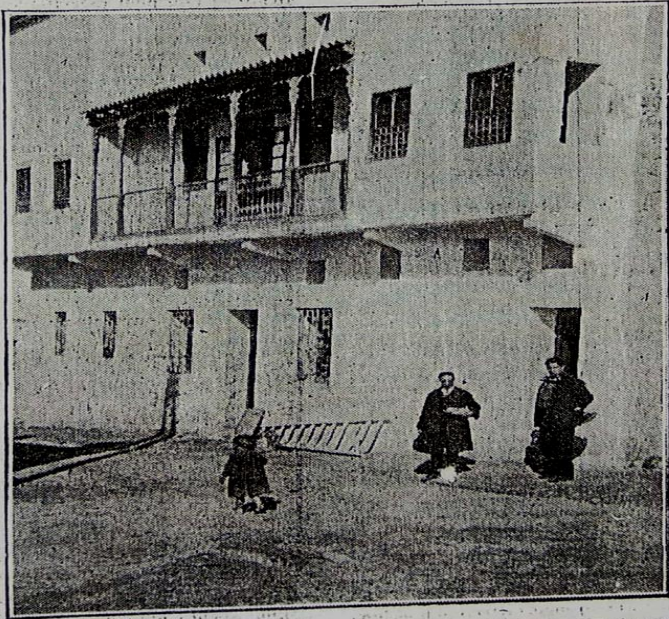
Le 7 février 1923, un Israélite, M. Eliezer Berdugo, se fit, en pleine Commission Municipale, l'écho des doléances de ses coreligionnaires obligés à grouper dans un foyer permanent et redoutable d'infection, jusqu'à Sa Majesté le Sultan, alors en voyage à Meknès. Les Israélites lui exposaient la situation lamentable dans laquelle la population se trouvait, « inhabitable... on voit dans une seule chambre trois ou quatre familles représentant huit ou même dix personnes ; le père doit co-habiter avec ses enfants... ».

C'est un cri de pitié qui est adressé au souverain pour mettre fin aux misères physiques et aux vices qu'engendrent la promiscuité et l'absence totale d'hygiène.

Enfin la presse de Meknès et celle de Rabat font chorus à ces lamentations et demandent au nom de l'hygiène et de la morale, que l'on s'intéresse au sort de ces malheureux.

Voici en bref la situation du Mellah de Meknès : mais elle comportait un mal auquel il était facile de remédier, grâce à un concours de circonstances tout à fait exceptionnelles.

À la porte même de ce Mellah situé dans un bas-fond et juxtaposé à un cimetière, se trouvait un vaste terrain de 220.000 mètres composé d'une colline et d'un plateau admirablement situé et aéré. Ici pas de caves ni d'entassements malsains, mais une vue largement étendue, de l'air. Un plan tracé par l'architecte Prost, avec jardins, abandon total à la ville



Meknès. La Synagogue du Nouveau Mellah. (Photo « L'AVENIR »)

Source : «Le nouveau Mellah» in AI, op. cit, p. 6.

كان الحي اليهودي الجديد مختلفا تماما عن الملاح القديم، إذ أقيم بموقع استراتيجي يصعب إيجاد نظير له فوق مساحة فسيحة قدرت ب 220000 متر مربع بجوار الملاح القديم، وكان يمكن قطع المسافة بين الحيين في ظرف عشر دقائق فقط¹، كما جاور المقبرة اليهودية التي كانت تذكرهم بموتاهم، بالإضافة إلى أنه لم يكن هناك سور يفصل بين الحيين، حيث كان التواصل بينهما ممكنا عبر باب مفتوحة في الاتجاهين، بشكل جعلهم لا يشعرون بالاغتراب².

¹ A. AIU, BII12-92, lettre de Almaleh Bension Instituteur à l'école de l' AIU de Meknès, au président de l' AIU à Paris, Meknès, 28/11/1932.

² «Le nouveau Mellah de Meknès», in AI, op. cit, p. 7.

وقد تكلف المهندس المعماري بروس رفته جاردين بتصميم الحي بشكل يسمح بتوفر التهوية ويضمن تسلل أشعة الشمس إلى جميع مرافقه التي ضمت الحدائق والشوارع الواسعة والساحات مقارنة بالملاح القديم، أضف إلى ذلك الملاعب الرياضية¹.

تميزت أغلب المنازل بمساحتها الصغيرة وعدم حيازتها حدائق ولا أشجار تقيها من أشعة الشمس²، على عكس منازل اليسورين منهم، حيث كان بإمكانهم التوفر على بيت بحديقة صغيرة، بعدما كان ذلك مستحيلاً بالملاح القديم، ذلك أن امتلاك حديقة بحجم قطعة ثوب صغيرة كان يعد ترفاً عظيماً³. ورغم المساعي التي قام بها صاحب الأرض لدى السلطات الفرنسية المحلية فيما يتعلق بضرورة مساهمتها في إنجاز الأعمال الخاصة بالبنية التحتية، فإنها لم تستجب له خلال مرحلة البناء الأولى، لذلك أجبر بنفسه، في البداية، على بناء شبكة طرق كلفته كثيراً بسبب ميلان الهضبة التي أقيم فوقها الحي اليهودي الجديد، كما تحمل لوحده إنجاز الأضرحة الأولى من شبكة الصرف الصحي، وقد عللت السلطات الفرنسية موقفها بارتفاع تكاليف تلك الأورش، بدعوى أن متراً مربعاً من الطريق المعبدة كان سيكلفها مبلغ 8 فرنكات⁴. كما تم حفر مجموعة من الآبار، واتخذت جميع الاحتياطات لحمايتها من الأتربة وأسباب التلوث. وبعد انتهاء المرحلة الأولى من أعمال التهيئة والتجهيز، اقترح رئيس الطائفة اليهودية إطلاق مجموعة من الأسماء على شوارع الملاح الجديد وساحاته، وقد اختار لذلك أسماء يهودية أو ذات دلالة دينية حتى لا يشعر إخوانه في الدين بالاغتراب داخل هذا الفضاء الجديد، وهي كما يلي:

- ✓ شارع طوليدانو المتجه نحو البيعة؛
- ✓ شارع التلمود توره، يعبر المجموعتين السكنيتين O وL؛
- ✓ شارع شالوم مساس، يعبر المجموعتين السكنيتين O وN؛
- ✓ شارع رفائيل بيرديغو، يعبر المجموعات السكنية O وX وZ وW؛
- ✓ شارع بن ديوان، يعبر المجموعتين السكنيتين Y وZ؛
- ✓ شارع ميمون يديمونيد، ينطلق من شارع مكناس ويعبر المجموعات السكنية X وY وV وW وينتهي عند طريق المستوصف؛

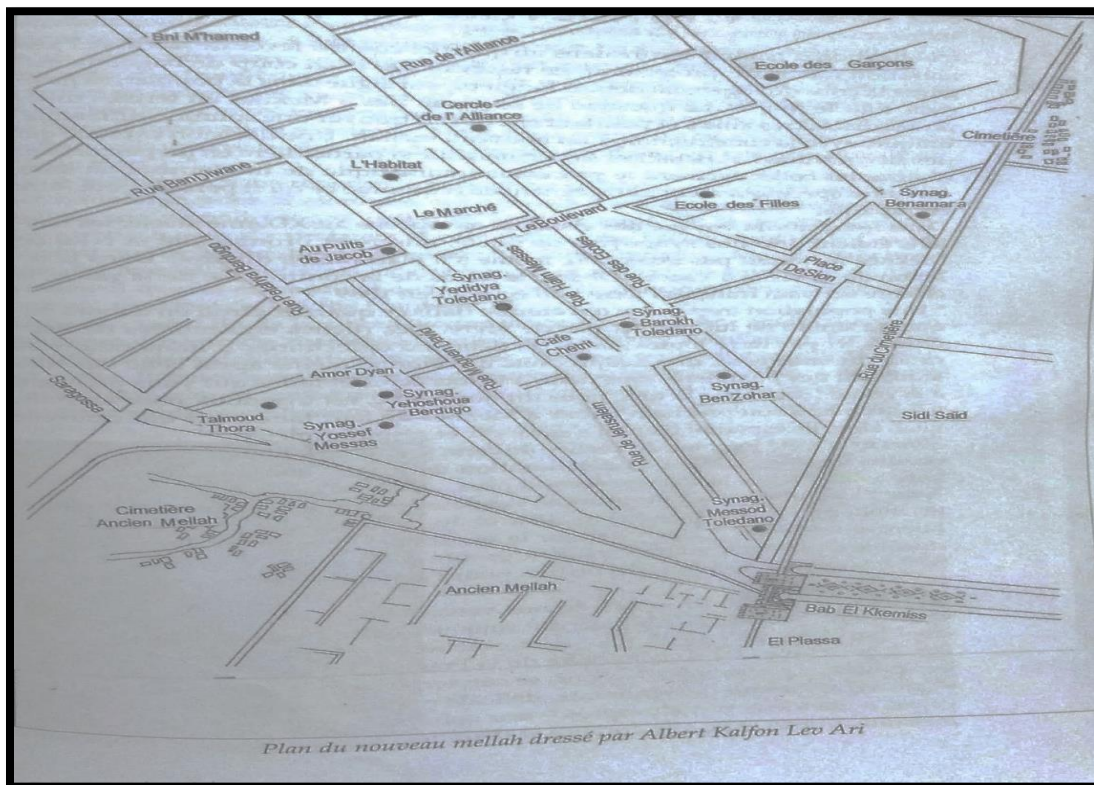
¹J. Tolédano, *Le temps du Mellah...*, op. cit, p. 167.

²A.AIU, **BII12-92**, Lettre de Almaleh Bension, Instituteur à l'école de l' AIU de Meknès, au président de l'AIU à Paris, Meknès, 28/11/1932.

³R. Assaraf, *Eléments...*, op. cit, p. 216.

⁴«Le nouveau mellah de Meknès», in Al, op. cit, p. 7.

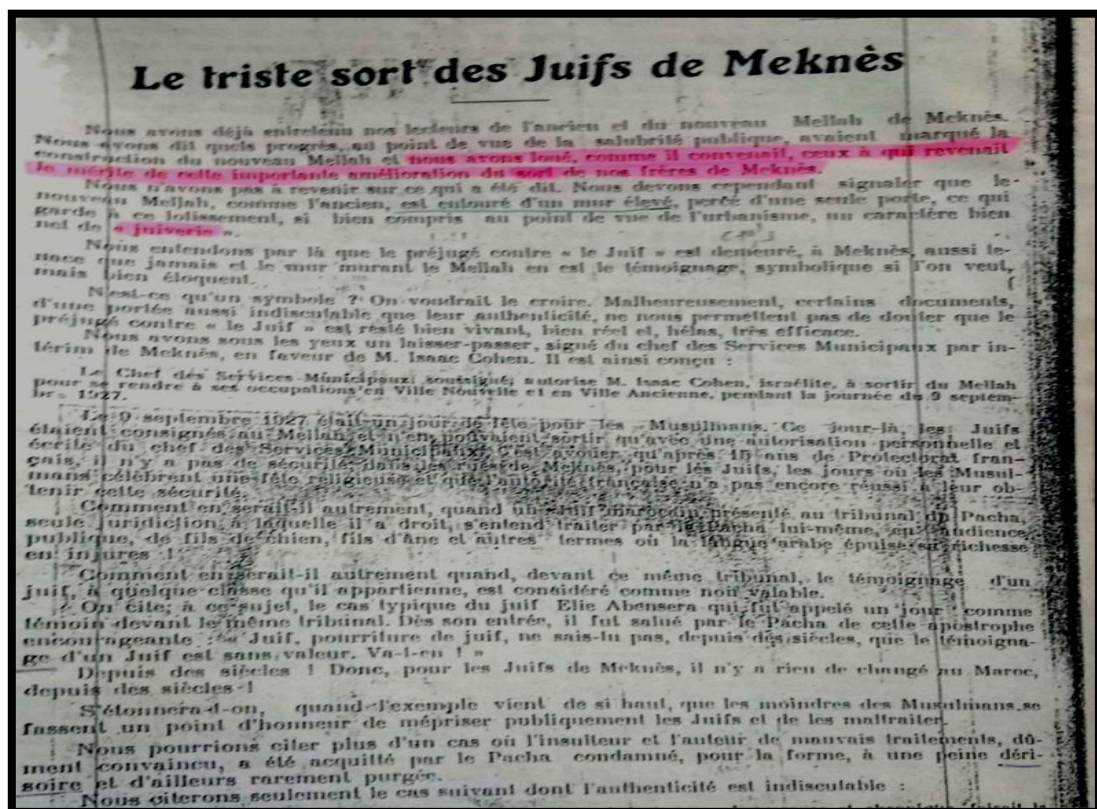
- ✓ شارع ماحن دافيد، ويتواجد بين البيعة وحي القدس، وينتهي عند طريق فلسطين؛
✓ شارع القدس؛
✓ شارع المدارس، ويعبر المجموعة السكنية F، وينتهي عند حي المدارس؛
✓ ساحة صهيون، يعبر حي حايم مساس وحي المحكمة وحي المدارس؛
✓ شارع الكوهن، يعبر المجموعة السكنية F، وينتهي عند حي المدارس؛
✓ شارع الحاخام حايم مساس، يعبر المجموعتين C وD، وينتهي عند ساحة صهيون؛
✓ شارع الحاخام داود، يقطع المجموعة السكنية G؛
✓ شارع المحكمة العبرية، ينتهي عند ساحة صهيون؛
✓ شارع بنعويشن، يعبر المجموعتين السكنيتين U وV؛
وقد تم اعتماد هذه الأسماء بعدما حظيت بموافقة رئيس المصالح البلدية¹.



¹ANR, Lettre du président de la communauté Israélite au Chef des Services Municipaux, Meknès, Carton N°650, 19 Avril.

ورغم الارتياح الذي خلفه بناء هذا الحي في صفوف أفراد الجماعة اليهودية، بحكم توفره على معايير السكن اللائق الذي يضمن ظروف عيش صحية، إلا أن أغلبية اليهود ترددوا في بداية الانتقال للاستقرار به، لأسباب أمنية تمثلت في خوفهم من التعرض لهجوم الساكنة المسلمة، لأن ذكرى هجوم سنة 1911 كانت ما تزال ماثلة في أذهانهم، لذلك ظلوا يطالبون بضرورة بناء سور يحيط بالملاح الجديد. ولعل استمرار بعض الأحداث التي كان يرافقها نوع من "الحصار" على اليهود داخل الملاح، كان مبررا للإصرار على ذلك الطلب. وفي هذا السياق، وبناء على ما جاء في جريدة المستقبل المصور سنة 1927، كان يصعب على يهود المدينة التحرك خارج الملاح عندما كان المسلمون يحتفلون بموسم عيساوة، حيث اضطر المدعو إسحاق كوهن على سبيل المثال إلى الحصول على ترخيص أمضاه بالنيابة رئيس المصالح البلدية حتى يستطيع مغادرة الملاح من أجل معاينة أملاكه بالمدينة الجديدة والقديمة بتاريخ 9 شتنبر من نفس السنة¹.

صورة رقم 16: نموذج مقال يتناول حيثيات منع اليهود من مغادرة الملاح خلال موسم عيساوة



Source : «Le triste sort des Juifs de Meknès », in AI, op. cit, p. 2.

¹«Le triste sort des Juifs de Meknès», in AI, op. cit, p. 2.

هذا، وتروى في نفس السياق حكاية سائدة بين يهود المدينة مفادها أن رجلا هدد زوجته بالطلاق إن لم ترافقه للعيش بالملاح الجديد، لأنها كانت مسكونة بهاجس الخوف من عملية الانتقال من عالم كانت تعرفه، إلى فضاء جديد كان مجهولا بالنسبة لها¹. هذه الحكاية تعكس إلى أي حد كان المهاجس الأمني يشكل أولوية الأولويات بالنسبة للأقلية اليهودية، بالرغم من التطورات التي تحققت في هذا الجانب "بفضل" الفرنسيين بوصفهم قوة "رادعة". وأمام إصرار اليهود على مطلبهم اضطر بيير ماص إلى بناء سور يحيط بالملاح بباب واحد مفتوح على الملاح القديم، الأمر الذي أدى إلى رفع كلفة البناء إلى 250000 فرنك².

كان السور هو البناية الأعلى بالملاح، وعُد ميزة من مميزات الثقافة اليهودية بمدينة مكناس³، التي أصرت على عدم التفريط في "العزلة" والقطيعة مع مغرب ما قبل الحماية. في نفس الإطار، ومن أجل الرفع من جاذبية الملاح الجديد لدى أفراد الجماعة المترددين، اهتدى سالمون أزوكي سنة 1926-الذي تولى مهمة الوكيل التجاري لشركة الملاح الجديد خلفا لباروخ طوليدانو- إلى فكرة ذكية تمثلت في بيعه بقعة أرضية لمن سيصبح الحاخام الأكبر لمدينة مكناس ياشوا بيرديغو Yeoshua Berdugo الذي بنى أعلى منزله أول بيعة بالملاح الجديد تحت اسم "صلات ربي ياشوا"⁴. وبفضل تلك التدابير صار الملاح الجديد أكثر جاذبية ومردودية، لأن اليهود ضمنوا بذلك الأمن المادي والروحي، وتعزز لديهم الإحساس بيهوديتهم، كما تحرروا من الاغتراب داخل الفضاء السكني الجديد، مما شجعهم على بناء مساكن جديدة والالتحاق للعيش فيها. وقد كان باروخ طوليدانو أول من حاز قطعة أرضية شاسعة بالملاح الجديد بالاشتراك مع الناشط الصهيوني أبراهام كوهن، حيث كلفا معا مقاولا إيطاليا ببناء "فيلتين" فسيحتين محاطتين بحدائق واسعة، وهو ما كان مستحيلا تصوره بالملاح القديم⁵. لكن سنوات قليلة بعد تشييد الملاح الجديد، وبناء على ما جاء في رسالة بعث بها أحد مدرسي مدرسة الرابطة إلى الرابطة الإسرائيلية العالمية بباريس فإن الكثافة السكانية ارتفعت بالملاح الجديد بشكل كبير وفي ظرف وجيز مهددة إياه بالتحويل إلى نسخة شبيهة بالملاح القديم في قدارته⁶.

¹R. Assaraf, *Eléments...*, op. cit, p.216.

²«Le nouveau Mellah de Meknès», in AI, op. cit, p. 6.

³«Le triste sort des juifs de Meknès » in AI, op. cit, p. 2.

⁴R. Assaraf, *Eléments...*, op. cit, p. 217.

⁵Ibid, p. 215.

⁶A.AIU, **BII12-92**, lettre de Almaleh Bension Instituteur à l'école de l' AIU de Meknès, au président de l'AIU à Paris, Meknès, 28/11/1932.

وتجدر الإشارة إلى أن جوزيف اويون/Josph Ohayon قد أبدى اعتراضه في مقال نشره بجريدة المستقبل المصور بتاريخ 4 يونيو من سنة 1931 على إطلاق اسم الملاح على الحي السكني الجديد، لارتباطه، في ذاكرة الساكنة اليهودية، بالاحتفاظ والأوساخ المسببة للأمراض والمعاناة. لذا ليس من اللائق في تقديره أن يحمل الحي الجديد هذا الاسم، لأنه يتميز بمواصفات بعيدة كل البعد عن الملاح القديم، وبناء عليه يستحسن في نظره أن يطلق عليه اسم آخر حتى يظل للاسم القديم طعمه ورائحته التاريخية. وقد عبر ذلك قائلاً¹:

«Donnons lui un autre nom pour conserver à l'ancien sa saveur, j'allais dire son odeur historique».

ومع مطلع الثلاثينات من القرن العشرين، سعى يهود الملاح الجديد إلى الرفع من جودة الحياة بملاحهم، فقاموا بتشكيل لجنة للدفاع عن حقوقهم، وتم ذلك بدعم من جريدة المستقبل المصور²، مما أدى إلى تحرك مصالح التهيئة الحضرية التي قامت بتجهيز الملاح الجديد ببعض الخدمات، حيث تم ربط هذا الأخير بشبكة الماء الصالح للشرب عبر القنوات الرئيسية بطول بلغ 150 متراً. كما تم مد طريق بين باب حي زين العابدين والملاح الجديد بطول بلغ 640 متراً³. كما تم تزويد مدرسة الرابطة الكائنة بنفس الحي بالماء الصالح للشرب⁴، أضف إلى ذلك ربط نفس الحي بقنوات خاصة لتصريف المياه المستعملة⁵.

وبعد نجاح يهود مكناس في تحقيق حلمهم، سعت بعض النخب اليهودية إلى جعله نموذجاً يحتذى به في مختلف المدن المغربية من أجل وضع حد للوضعية البئيسة التي كانوا يعانون منها في الملاحات القديمة، لكن الأماني ظلت بعيدة، ولم تثمر تلك المساعي التي كانت تهدف إلى تحسين ظروف السكن عند المغاربة اليهود، وظلت مكناس حالة استثنائية⁶، وكان الحل المتاح بالمدن الأخرى هو التحاق اليهود الميسورين للعيش بالمدن الجديدة كما كان الشأن بالرباط والدار البيضاء ومراكش وفاس⁷... الخ.

¹R. Assaraf, *Eléments...*, op. cit, p. 218.

²J. Tolédano, *Le temps du Melleh...* op. cit, p. 173.

³ANR, Rapport Mensuel, services Municipaux, Meknès, Carton N°829, Octobre 1930.

⁴ANR, Rapport Mensuel, services Municipaux, Meknès, Carton N°829, Novembre 1930

⁵ANR, Rapport Mensuel, services Municipaux, Meknès, Carton N°829, Février 1930,

⁶D. Bensimon-Donath, *Evolution du judaïsme marocain*, op. cit, p. 51.

⁷J. Tolédano, *Le temps du Melleh...*, op. cit, p. 155.

اقتصرت استجابة الانتقال للعيش بالمدينة الأوربية، بناء على الطلب الذي سبق وتقدم به رئيس المصالح البلدية، على يهوديين فقط من يهود مكناس، ويتعلق الأمر بكل من باروخ طوليدانو وعمه ليون طوليدانو. لقد كان باروخ طوليدانو من المتحمسين لذلك العرض، حيث اقتنع بضرورة الاندماج بالمجتمع الاستعماري والقطيعة مع الحذر الذي ميز باقي إخوانه في الدين - بالرغم من أنه كان يمتلك بيتا فسيحا بالحى اليهودي الجديد-، حيث حثهم على أهمية الانصهار في الوضع الذي انطلق مع الحماية، وحثهم على الاحتكاك بالأوروبيين داعيا إياهم إلى الاندماج والتماثل الاجتماعي، لأن ذلك في تقديره هو السبيل الوحيد نحو التأقلم مع المناخ الجديد، للاستفادة من مزاياه الكثيرة. كما طمأنهم بأن ذلك لن يؤثر في شيء على تدينهم وخصوصيتهم الثقافية، على أساس أن تواجههم الكثيف بالمدينة الأوربية سيسمح لهم بالتوفر على بيعهم ومدارسهم الخاصة، خاصة وأن أسعار العقارات هناك كانت مناسبة جداً، أضف إلى ذلك امتياز تكفل سلطات الحماية بتحمل نفقات تجهيز الأحياء السكنية بالبنية التحتية. كما ظل يذكر إخوانه في الدين أن زمن الاحتماء بالأسوار قد ولى، إذ يمكن الوثوق بها، ثم إن من شأن الإقامة بالمدينة الجديدة أن تضمن لهم الاستفادة من نفس الحماية الأمنية التي كانت تخصص للأوروبيين، أما الإقامة بالملاح فيمكن أن تجعل منهم هدفا سهلا في حال حدوث أي هجوم¹. غير أن الرجل لم ينجح في إقناع أي أحد باقتراحه باستثناء عمه، بل إن زوجته بدورها اعترضت على ذلك عندما وصل أبنائها السن الضرورية لتلقي التعليم الديني، الأمر الذي اضطره إلى ترك "فيلته" بالمدينة الجديدة، والعودة للاستقرار بالملاح². هذا الموقف يوضح بأن غالبية اليهود فضلوا الانعزال داخل حيهم والانغلاق على ذواتهم في علاقتهم بالآخر، بشكل أدى إلى فشل كل المحاولات الساعية إلى إنجاح التماثل الاجتماعي بالمدينة الأوربية، على عكس العناصر القليلة التي سعت لذلك، حيث حاولت الخروج من "العزلة"، لكنها اضطرت في نهاية المطاف إلى الرجوع إلى الملاح. حري بالذكر أن الموقف الراض للانتقال إلى العيش بالمدينة الأوربية كان أيضا منتشرا في بعض صفوف النخبة المسلمة، لاعتبارات أخرى تمثلت في الاعتزاز بالذات، حيث تجاهلت بعض الأسر البورجوازية الأجنبية بكل زهو، وتصرفت وكأنه غير موجود، وفي هذا السياق يشير دانييل ريفي إلى أن إدوارد ميشو بيلير قد لاحظ في منتصف العشرينات أن بعض الأسر التي أشرنا إليها قد منعت أبنائها

¹R. Assaraf, *Eléments...*, op. cit, p. 214.

²Ibid, p. 215.

من الاندماج في المدن الأوربية، حيث وضعت بينهم وبين المدينة الأوربية حدودا كانت حاضرة في أذهانهم، ولم يكن ذلك في حاجة إلى تشريعات¹.

ومن المفارقات في العلاقة مع هذا الموضوع، نشير إلى أنه خلال مرحلة فيشي، وتحديدًا عندما قدم المفوض الفرنسي كزافيي فالاط / Xavier Vallat المكلف بشؤون اليهود إلى المغرب للتأكد من مدى الالتزام بتطبيق قوانين فيشي العنصرية على المغاربة اليهود، طالبت السلطات الفرنسية المحلية بمدينة مكناس من اليهود الذين كانوا يقطنون بالمدينة الأوربية بالمغادرة بناء على مضامين ظهير 19 غشت من سنة 1941 الصادر بالجريدة الرسمية بتاريخ 22 غشت من نفس السنة². وفيما يلي تفاصيل هذا الظهير الذي حدد بدقة من خلال فصوله الستة، الحالات بالمعنية بالمنع من جهة، والحالات الاستثنائية من جهة أخرى:

✓ **الفصل الأول:** يتوجب على اليهود (الرعايا مغاربة) إخلاء المحلات السكنية التي يملكونها بالأحياء الأوروبية التابعة للبلديات في ظرف ثلاثة أشهر من تاريخ إشهار الظهير المنظم في الجريدة الرسمية، في حالة لم يتمكنوا من إثبات استقرارهم بها في التاريخ السابق لـ 1 سبتمبر 1939.

✓ **الفصل الثاني:** الملاك، والمستأجرون الرئيسيون الذين أبرموا عقود إيجار كتابية أو شفوية حسب الشروط المذكورة في الفصل 1 وجب عليهم التصريح بها لمكتب السكن الذي أسس بظهير 23 أبريل من سنة 1941 في ظرف ثمانية أيام من تاريخ إشهار هذا الظهير بالجريدة الرسمية.

✓ **الفصل الثالث:** أي عقد كراء يتضمن شروطا مختلفة عن تلك المنصوص عليها، يفسخ بنهاية مدة 3 أشهر طبقا للمنصوص عليه بالفصل الأول.

✓ **الفصل الرابع:** اليهود (الرعايا المغاربة) القاطنون بالمقاطعات الأوربية التابعة للبلديات قبل تاريخ 1 سبتمبر 1939 وجب عليهم إخلاء مساكنهم في مدة تحدّد بمرسوم الوزير الأعظم .

✓ **الفصل الخامس:** أحكام الفصل الأول لا تطبق على اليهود الذين تتوفر فيهم بعض هذه الشروط: أن يكون المعني بالأمر متوفرا على بطاقة مقاوم طبقا للفصل 101 من قانون 19 ديسمير من سنة 1926. أن يكون المعني بالأمر حاملا لصليب الحرب الذي صدر بمقتضى مرسوم 28 مارس من سنة 1941. أن يكون المعني بالأمر موشحا بوسام فيلق الشرف أو الميدالية العسكرية للحرب. أن يكون

¹D. Rivet, *Le Maroc de Lyautey à Mohamed V...*, op. cit, p. 238.

²B.O, N°1504, 22 août 1941, p. 857.

أب أو أرملة اليتيم العسكري قد لقي حتفه في سبيل فرنسا، أن يكون المعني بالأمر حاصلًا على وسام الاستحقاق المدني أو عسكري من الدولة الشريفة.

✓ **الفصل السادس:** جميع المخالفات لأحكام هذا الظهير، وكل المحاولات لإسقاطها يعاقب عليها بغرامة مالية من 500 إلى 10000 فرنك مع مصادرة الإيجار¹.

مضمون الظهير أفضى إلى استثناء يهوديين فقط بمدينة مكناس من قرار وجوب المغادرة، هما باروخ طوليدانو وليون طوليدانو، وهو ما أكد المقاربة التشاؤمية للأب الروحي للملاح الجديد ميمون بن عبو، الذي سبق ونبه اليهود إلى عدم الوثوق في الفرنسيين².

مقابل ذلك ظل أغلبية يهود المغرب، خاصة الفقراء منهم، يعيشون في منازل قذرة وسط ملاحاتهم القديمة المكتظة التي كانت مرتعا للأمراض المعدية³، الأمر الذي انتقدته جريدة المستقبل المصور بحدة في إحدى مقالاتها، حيث أشارت إلى التناقض الصارخ بين ما بشرت به الحماية الفرنسية وبين واقع الحال، لدرجة أن صاحب المقال وصف البيوت التي ظل يقيم فيها اليهود بالملاجئ، التي لم تكن ترقى حتى إلى "جودة" الحياة، بيوت القصدير إذا ما قورنت بها⁴. وفي نفس الصدد يشير محمد كنيب إلى أن انتقال يهود مكناس للعيش بالملاح الجديد في إطار ما عرف بمشاريع السكن الاقتصادي، وتعويضهم على الفور بمسلمين في مساكنهم القديمة في الملاح القديم، وهي منازل كانت آيلة للسقوط، يدفع بسهولة إلى الاعتقاد بأن الإقامة العامة كانت تهتم قبل كل شيء بتوفير شروط عيش رغيدة لهم، بينما كان اهتمامها بالمدن العتيقة، ينصب بالأساس على المحافظة على جمالياتها كمواقع "أثرية" أكثر من الاهتمام بظروف عيش ساكنتها⁵. وهو نفس الموقف الذي ذهب إليه دانييل ريفي عندما رأى أن احترام المعمار الأصيل للمدن المغربية، مجرد تبرير حاول من خلاله المقيم العام ليوطي أن يكرس ميزا معماريا عنصريا، كما كان الحال بجنوب إفريقيا والجنوب الأمريكي⁶.

¹ANR, Secrétariat Général du Protectorat, Service de Législation, Objet : Dahir interdisant l'habitat des Juifs, sujet Marocain dans les secteurs européens des Municipalités, in B.O, N° 1504, p. 857, Carton N° D 432.

²R. Assaraf, **Eléments...**, op. cit, p. 256.

³M. kenbib, «**Les relations enter les Musulmans et Juifs au Maroc, 1859-1945**», Hesperis Tamuda, Vol XXIII, 1985, p. 99.

⁴«**Le problème des Mellahs**», in AI, N° 158-18, Juin 1931, p. 2.

⁵محمد كنيب، **يهود المغرب، 1912-1956...**، مرجع سابق، ص. 139.

⁶D. Rivet, **Le Maroc de Lyautey à Mohamed V**, op. cit, p. 238.

يتّضح إذا، من خلال تتبع الكيفية التي حاولت من خلالها الجماعة اليهودية بمدينة مكناس تجاوز مشكلة السكن في أبعادها العمرانية والثقافية والاجتماعية، أنه رغم جهود نخبها الكبيرة في السعي للاستفادة من الفرص التي أتاحتها الحماية، إلا أنها حافظت على عقلية الجماعة وعاداتها وتقاليدها الناتجة عن "الانطواء" و"الانكماش" و"العزلة" التاريخية التي عاشها اليهود خلال قرون طويلة، رغم التمايز الجاري بين الفئات الناتج عن التعليم العصري. ورغم المحاولات الحثيثة التي أقدمت عليها بعض نخب اليهود للخروج من دائرة العزلة التي عاشها آباؤها طويلا داخل الملاح، إلا أنها لم تكلل بالنجاح، لأن اليهود لم يستطيعوا التخلص من سطوة الجماعة شأنهم في ذلك شأن جميع الأقليات، بل احتّموا داخل نسقهم الاجتماعي، ووجدوا فيه ما يسوغ ترددهم وحيرتهم وازدواجية وثنائية مشاعرهم في محاولاتهم للتماثل الاجتماعي داخل المجتمع الأوربي الكولونيالي. هذا الحرص على الانغلاق داخل الجماعة تلخصه هذه الحادثة الطريفة: في أحد الأيام عبرت طائرة فوق ملاح المدينة، وصارت الحادثة موضوعا لعدد من التعليقات، وخلال إحدى الحصص الدراسية بمدرسة الرابطة بمكناس كان يؤطرها أستاذ أجنبي، طلب هذا الأخير من تلاميذه تحرير موضوع مقالي يتحدث عن الحادثة، فكانت إجابة أحد التلاميذ اليهود كالتالي: « Tout La Ville l'a vu et Nous aussi » ، وعندما أعاد له الأستاذ الورقة ضمنها ملاحظة تفيد أن إجابته كانت خاطئة؛ وقد علق روبير أصراف على هذه الواقعة قائلا: "لقد كان صعبا على أستاذ أجنبي عن الملاح أن يفهم ذلك الشعور الجمعي، والترابط الشديد الذي يميز الجماعة اليهودية التي كان أفرادها متعودين على الإشارة إلى الذات بـ"نحن" وليس "الأنا"¹.

يتضح مما سبق أن "تحرر" يهود مدينة مكناس خلال مرحلة الحماية، ونجاح العديد منهم في مجالات عدة في العلاقة مع الوافد الفرنسي لم يكن كافيا لإنجاح التماثل الاجتماعي، بحيث تنازعتهم رغبتان متناقضتان: رغبتهم في تبني الحداثة ومتاعبها من ناحية، وحنينهم الدائم من ناحية أخرى إلى طمأنينة الملاح النفسية والاجتماعية حيث عاشوا في حالة من "الاغتراب" المزدوج.

¹R. Assaraf, *Eléments...*, op. cit, p. 201.

الفصل الثالث: النشاط الاقتصادي

1. النشاط الحرفي

"في المنفى لا يمكن أن نعيش من المن أو الصدقة كما في الصحراء، ولا من العشر ككهنة المعبد. وحتى الحاخامات والقضاة ليس لهم الحق في العيش بدون أن يعملوا، العيش من الصدقات يجب أن يكون هو الحل الأخير." جاك أتالي

قبل الحديث عن خصوصيات النشاط الحرفي ليهود مدينة مكناس خلال فترة الحماية، ورصد الثابت والمتحول في هذا القطاع خلال هذه المرحلة، ارتأينا بدايةً، أن نفسر أولاً ظاهرة ميزت الحياة الاقتصادية للجماعات اليهودية في مجملها بما فيها يهود المجال الذي تمثله الدراسة. يتعلق الأمر بإقدام أغلب الساكنة اليهودية النشيطة على ممارسة الأنشطة التجارية والمالية والحرفية، سواء تعلق الأمر بيهود الأرياف والتخوم أو بيهود الحواضر الصغرى والكبرى، مع النفور من الاشتغال بالقطاع الفلاحي عكس المسلمين، وهو الأمر الذي ينطبق أيضاً على يهود مكناس مع استثناءات قليلة.

وتنبغي الإشارة إلى أن تركيز أفراد الجماعة اليهودية على هذين النشاطين، لا يجد تفسيره - فقط - في تعذر مزاولة النشاط الفلاحي بالمدن، مادام هذا القطاع يُعد نشاطاً قروياً بالأساس، ذلك أن السكن بالمدن لم يحل عموماً دون استثمار وتعاطي بعض سكانها للفلاحة خارج أسوارها، بل يجد تفسيره في عوامل أخرى متداخلة استغناها من خلال ما اطلعنا عليه من مصادر ومراجع.

يوجد داخل الموروث الديني والثقافي لليهود ما يحث على تفادي الاستثمار في امتلاك الأرض لأغراض فلاحية دون أن يصل ذلك إلى درجة التحريم، وذلك انسجاماً مع حضور التعاليم الدينية بقوة في تأطير مختلف تفاصيل الحياة بالنسبة لليهود. فإذا كانت التعاليم اليهودية المستوحاة من الميشنا أو ما سيطلق عليه لاحقاً بالتلمود

البابلي¹ تحض اليهود على تحصيل المال باعتبار ذلك شكلاً من أشكال العبادة²، فإنها تؤكد أن الثروة لا تتمثل بالضرورة في العقار، لأن امتلاك هذا الأخير بوصفه مظهراً من مظاهر الغنى سيجعله ظاهراً للعيان ومصدراً للغيرة، ويصعب بيعه عندما يكون صاحبه مجبراً على الرحيل فجأة أو بسرعة، لذلك يجب أن تتشكل الثروة من السيولة ويستحسن أن يتجلى ذلك في أشكال مميزة كالمعدن الثمين، أما الأرض أو العقار فيمثلان الشكل السيئ للثروة³. أما الحالات التي كانت فيها التعاليم الدينية توصي بامتلاك العقار/الأرض فتتمثل فيما يلي: إذا كانت تلك الأرض من دون وريثة، كما يمكن للجماعة أن تسترجع ملكاً عقارياً تكون في حيازته خدمة للمصلحة العامة، كتخصيص ذلك، مثلاً، لخلق فضاء أخضر، أو فتح مكان للعبادة أو مدرسة، أو لإزالة التلوث، أو لضمان أمن الجماعة في الأحياء الخطيرة، كما كانت توصي بمنع بيع أو كراء العقار لغير اليهودي فوق أرض تقع داخل الحي اليهودي. ولتطبيق المنع يمكن للجماعة نفسها، كما يقول تعليق بالميشنا (Baba Qamma 114a) أن تشتري الأرض موضوع الصراع، أو منح تلك الأرض لليهود المجاورين بحق الشفعة عملاً بالآية التي تقول: "لقد رخصت لأسد أن يسكن على مشارف ملكي"⁴. إضافة إلى ذلك نذكر أن سطوة الديانة اليهودية على أتباعها كبلتهم بالطقوس الدينية الكثيرة، التي حثمت على اليهودي البقاء على مقربة من بقية أعضاء جماعته الدينية، حتى يتسنى له القيام بتلك الطقوس، والتزدد على المعبد والحصول على الطعام الكاشير، لذلك فلاشتغال بالفلاحة يعيق تلك الالتزامات ويؤدي إلى تباعد الوحدات السكنية على عكس الاشتغال بالحرف والتجارة والذي يسمح غالباً بالبقاء قريباً من المعبد وداخل الحي اليهودي⁵. كما أن البقاء داخل الملاح وسط الجماعة اليهودية كان يضمن لهم الاستفادة من خدمات الحاخام والقاضي، وكذا من صندوق دعم المعوزين⁶. كما أن النشاط الفلاحي بالحقول لا يسمح في غالب الأحيان للمزارع اليهودي بأن يتفرغ للدراسة، ولو بمقدار ساعة واحدة في اليوم، والمعلوم أن الساعة هي الحد الأدنى الذي

¹ التلمود البابلي على وجه التحديد هو مصدر التعاليم والقواعد الشرعية لدى اليهودية التقليدية القديمة والأصولية المعاصرة، أما باقي الأدب التلمودي (بما فيه ما يسمى تلمود القدس أو تلمود فلسطين)، فهو مرجع إضافي أو مكمل. ... يتألف التلمود من قسمين، الأول: المشناه، وهو مجموعة قانونية شاملة تضم ستة مجلدات، ينقسم كل منها إلى أبحاث عدة، ومكتوبة بالعبرية، وقد نقحت في فلسطين عام 200م، واستخلصت من مواد قانونية (غالباً شفوية) واسعة جداً، ثم وضعها خلال القرنين السابقين، أما القسم الثاني، فهو أكبر منه، وهو "الجيماراه" وهو عبارة عن سجل ضخّم لأبحاث المشناه، وهناك مجموعتان متميزتان من الجيماراه، ألفت إحداها في بلاد ما بين النهرين (بابل) ما بين 200 و 500م والآخرى في فلسطين في تاريخ غير معروف قبل عام 500 ميلادية بكثير". إسرائيل شاحاك، **اليهود واليهودية وطأة 3000 عام...**، مرجع سابق، ص. 72-73.

² Jacques Attali, **Les Juifs, Le Monde, et L'argent, Histoire économique du peuple Juif**, Librairie Arthème Fayard, 2002, p. 124.

³ Ibid, p. 125.

⁴ Ibid, p. 128.

⁵ عطا علي محمد ربه، **اليهود في المغرب الأقصى**، مكتبة الرشد-ناشرون، الرياض، الطبعة الأولى، 2006، ص. 153.

⁶ J. Attali, **Les Juifs, Le Monde, et L'argent...**, op. cit, p. 151.

يفرضه الربيون للدراسة والنظر في التوراة، لذلك كان اليهود يفضلون الحرف والتجارة وباقي المهن الأخرى التي تسمح لهم بمتابعة تعليمهم الديني تبعاً لما تفرضه الديانة اليهودية¹.

هناك سبب آخر له علاقة بالجانب الأمني الصرف، ذلك أن اليهود بوصفهم أقلية احتفظوا في ذاكرتهم بصور العنف التي تعرض لها أجدادهم خلال بعض المراحل التي كان ينتشر فيها العنف بين القبائل، أو بين القبائل والمخزن المركزي، والذي كان يؤدي إلى بوار الأراضي الزراعية²، لذلك فضلوا شراء المحاصيل الزراعية من الفلاحين المنتمين للمجموعات السكانية الأخرى للتجار فيها عوض تحمل مشقة العمل، وتحمل نفقة الأجراء وانتظار محصول لا يمكن التنبؤ بمردوديته المادية، لذلك كان هناك نوع من الاشتمزاز من الأعمال الجسمانية الشاقة ذات المردود القليل³، والتي كانت تتطلب وقتاً كثيراً مقارنة بالعمليات التجارية والأنشطة الحرفية التي يمكن حمل بضائعها والترحال بها إلى أي مكان آخر يأمن فيه اليهودي على نفسه وماله، بخلاف الأرض فإنها تربط صاحبها بها وتجعله مضطراً للبقاء مع ما لذلك من أخطار، أقلها اضطراره للمغادرة وفقدان الأرض⁴.

والراجع أن الأسباب التي عرضناها هي التي تفسر أيضاً نفس الفتور من النشاط الفلاحي لدى عدد من الطوائف اليهودية بأوروبا، بالتفاعل مع خصوصياتهم المحلية، وهو نفس الأمر الذي أشار إليه فرناند بروديل في سياق آخر*. وفي هذا الصدد، أيضاً، يقول إسرائيل شاحاك: "كانت اليهودية الكلاسيكية (ابتداءً من سنة 800) تنمي الكراهية والازدراء للزراعة كمهنة، وللـفلاحين كطبقة، أكثر مما تنميها من كراهية وازدراء ضد الأغيار، وهي كراهية لا أجد لها مثيلاً في المجتمعات الأخرى، وتظهر هذه الحقيقة على الفور لمن اطلع على أدب القرنين 19 و 20 بالعبرية واليديش، (مثال لهذا الأدب مؤلفات "يشكل عجنون" و "باشيفس سينفر"، الحائزان على جائزة نوبل، وشعر "بياليك" العبري). ويحمل معظم الاشتراكيين في شرق أوروبا وزر عدم الإشارة في أي وقت إلى هذه الحقيقة، بل إن كثير منهم عرفت عنهم مواقف معادية للفلاحين على نحو شرس، ورثوها عن اليهودية الكلاسيكية، وكان الاشتراكيون الصهيونيون الأسوأ- بالطبع- على هذا الصعيد، إلا أن غيرهم من يهود البوند كانوا على غرارهم، ومن الأدلة المثلى

¹حاييم الزعفراني، **يهود الأندلس والمغرب، الجزء الثاني...**، مرجع سابق، ص. 405.

²عطا علي محمد ربه، **اليهود في المغرب الأقصى...**، مرجع سابق، ص. 149-150.

³حاييم الزعفراني، **يهود الأندلس والمغرب، الجزء الثاني...**، مرجع سابق، ص. 405.

⁴نفسه، نفس الصفحة.

* "لقد حكم على اليهود أن يكونوا كبار حرفيي التبادل. فما هم، حتى ما بعد القرن الثالث عشر، محترفو نقل الفكر والعلوم العربية إلى الغرب. وفي القرن السادس عشر كانوا نقلة تقنيات وصناعات كثيرة من الغرب إلى الدولة العثمانية التي حملوا إليها فن الطباعة بعد أن كانوا ناقلين هذا الفن من ألمانيا إلى كل من البرتغال وإسبانيا. فما كانت مدينة تطرد اليهود منها حتى كانوا يبحثون عن مدينة أخرى يحطون فيها رجالهم. وبحثهم الدائم عن موطن قدم لهم نشرهم بالضرورة في كل مكان. لذا أدار اليهود ظهورهم للأرض وزراعتها منذ قرون ليصبحوا تجاراً ومرابين وأطباء وحرفيين وحائكين". فرناند بروديل، **المتوسط والعالم المتوسطي**، تعريب وإيجاز مروان أبي سمرا، دراسات تاريخية، دار المنتخب العربي، بيروت، الطبعة الأولى 1993، ص. 143.

على ذلك، معارضتهم تشكيل تعاونيات فلاحية يدعمها الكهنة الكاثوليك، بدعوى أن هذه التعاونيات "معادية للسامية"¹.

الراجع أن العوامل المذكورة هي ما يفسر عدم تطرق الباحثين الأوربيين الذين اهتموا بوضعية اليهود بالمغرب، في رحلاتهم وكتاباتهم، لموضوع الفلاحة وتربية المواشي على الإطلاق. حتى أنهم لم يعدوها من الأنشطة الاقتصادية لهذه الجماعة. وإذا ما أزاحوا ستار الصمت عن هذا الموضوع، فإنهم يؤكدون: "أن اليهود ما كانوا يملكون لا أرضا ولا بساتين"². غير أن مصادر أخرى تؤكد بأن هذه القاعدة كانت لها استثناءات، حيث كان لبعض اليهود الأثرياء في بعض القرى وبضواحي بعض المدن أراضٍ يمتلكونها ويزرعون فيها فاكهة الكروم من أجل صناعة الخمر، خصوصا وأنه كان يحرم على المسلمين في بعض السنين بيع هذه الفاكهة لليهود³. هذا المعطى أكدّه أيضا حاييم الزعفراني نقلا عن سلوش Nahum Slouschz أثناء رحلته بالأطلس المغربي سنة 1914، إذ أكد وجود 25 عائلة يهودية من الفلاحين بقرية منصور. كما أكد نفس المصدر، نقلا عن أندري شوراي، قوله: "يوجد في الجنوب المغربي عديد من الطوائف المحدودة العدد التي كانت تتعاطى الفلاحة منذ أزمنة ضاربة في القدم"⁴. ونقلا عن نفس المصدر يؤكد المؤرخ الإسرائيلي هيرشبيرغ H.Hirschberg على المعطى نفسهم ستشهدا في أغلب الأحيان بفتاوي الكاؤونيم أو وثائق "كنيزة" القاهرة قائلا: "يهود المغرب كانوا يكسبون بعرق جبينهم من ملكيات زراعية صغيرة، وكانوا يحصلون على قوتهم بالعمل في الزراعة وتربية المواشي"، لكن رغم ذلك ظلت هذه المهن من الأنشطة الدونية في نظرهم⁵. وفي أحيان أخرى كان بعض اليهود يكتفون في مزاولتهم للأنشطة الفلاحية بالشراكة مع المسلمين، كما كان الشأن في منطقة تاهلة حيث كان سكانها اليهود يؤدون في أواخر القرن 19 مقدار نصف دورو عن كل أسرة مقابل كراء الأرض وستين دورو لإعفائهم من التوزيع، وكان يتم ذلك في المناطق التي لم تكن تسمح فيها القوانين العرفية بامتلاك الأرض واستغلالها إلا لمدة محدودة، قد تصل إلى عشرين أو ثلاثين سنة على أكثر تقدير⁶. هذه العملية كانت تتم في حالة أخرى في إطار صيغة المخالطة التي كانت تسمح لبعض عناصر الطائفة اليهودية بفضل أرباحها التجارية بالمشاركة في أنشطة القطاع الفلاحي مع المسلمين⁷.

¹ إسرائيل شاحاك، اليهود واليهودية وطأة 3000 عام...، مرجع سابق، ص. 91-92.

² حاييم الزعفراني، يهود الأندلس والمغرب، الجزء الثاني...، مرجع سابق، ص. 404.

³ عطا علي محمد ريه، اليهود في المغرب الأقصى...، مرجع سابق، ص. 150-151.

⁴ حاييم الزعفراني، يهود الأندلس والمغرب، الجزء الثاني...، مرجع سابق، ص. 404.

⁵ نفسه، نفس الصفحة.

⁶ عبد الله لغماند، يهود منطقة سوس، درا أبي رقراق للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، الرباط، 2016، ص. 113.

⁷ حفصة الحاييل، "نخبة التجار اليهود والتحويلات في مغرب ما قبل الحماية"، هسبريس تامودا، المجلد 2، (عدد خاص-القسم الأول)، 2016، ص. 400.

هذه المخالطات مع ما كان يتخللها من نزاعات مع الشركاء المسلمين كانت تساهم في ازدياد نفور اليهود من الإقدام عليها، حيث جاء في شهادة تعود لبداية القرن 19، وهي عبارة عن قرار صدر عن أحبار مكناس اشترط: "أن الحقل الذي يملكه الأغيار... لا يصح أن يطبق عليه حق الجلسة أو المؤسسة، تجنباً للمزايدات والمضاربات...". غير أن محرر القرار أضاف: "أن أشغال الحقول الشاقة، وأفساط إيجار الأرض التي ينبغي تسديدها نقداً، والمصاريف المختلفة التي تجعل الاستغلال أقل مردودية، كلها تبعد أكثر فأكثر عن مزاولة الفلاحة".¹

بناء على ما سبق يتأكد أن غالبية الساكنة النشيطة للجماعة اليهودية بمكناس قد توزعت أساساً بين النشاطين الحرفي والتجاري، وذلك انطلاقاً من الإحصاء الذي قامت به الرابطة مطلع القرن 20، وبالضبط سنة 1901 لتحديد نوع الحرف، وعدد مزاوليها وسط ساكنة يهودية كان عددها يقدر بحوالي ألف نسمة، والتي لم يتجاوز عدد المشتغلين فيها بالفلاحة 20 شخصاً. وفيما يلي تفاصيل هذا الإحصاء: 140 صانع أحذية وإسكافيا، 60 صانع مجوهرات، 15 صانع شمع، 212 ممتنها الخياطة وصناعة الأربطة الخاصة بالزي التقليدي، 20 نساجاً وبائع خيوط الحرير، 24 مشتغلاً بحرف البناء، 150 دباغاً، 25 سمكرياً، 22 ممتنها حرف تقطير الماحيا والصبغة والحلاقة، 136 خياطاً، 14 نجاراً².

بعد توقيع الحماية سنة 1912 ودخول الفرنسيين إلى المدينة، أصبحت هذه الأخيرة موقعا عسكرياً مهماً، استوجب استقرار عدد من العسكريين، بالإضافة إلى المستوطنين المدنيين، الأمر الذي "أجبر" يهود المدينة على الرهان أكثر على القطاع الحرفي كنشاط أساسي إلى جانب التجارة³ من أجل الاستفادة من الزبناء جدد⁴، خاصة وأن أبواب التوظيف بالإدارة الفرنسية ظلت مغلقة في وجوههم بشكل عام⁵، لأن سلطات الحماية كانت حريصة على أولوية الفرنسيين في شغل المناصب المهمة على حساب "الأهالي"، الذين شغلوا في الغالب وظائف ثانوية⁶، ذلك أن خريجي مدرسة الرابطة لم يكن بمقدورهم كلهم الحصول على مناصب العمل الجديدة داخل الإدارات والمؤسسات الفرنسية⁷، وقد ظل هذا الوضع مستمراً بحدة إلى حدود نهاية الحرب العالمية الثانية، لأن مدينة مكناس صارت قبلة لعدد كبير من الأوروبيين الذين اشتغلوا بكل المهن بما في ذلك المهن البسيطة كالشرطة وإدارة البريد،

¹حاييم الزعفراني، يهود الأندلس والمغرب، الجزء الثاني...، مرجع سابق، ص. 406.

²R. Assaraf, *Éléments...*, op. cit, p. 194.

³Capitane Nollet, «Les Juifs du Maroc et L'occident», CHEAM, N° 3121, p.4.

⁴R. Assaraf, *Éléments...*, op. cit, p. 178.

⁵Ibid, p. 194.

⁶D. Bensimon-Donath, *Evolution du Judaïsme Marocain...*, op. cit, p. 41

⁷Ibid, p. 42.

لذلك لم تتطور البنية المهنية لليهود كثيرا -كمّا وكيفاً- خلال مرحلة الحماية، فظلت أعداد مهمة منهم تراهن من أجل كسب قوت عيشها على مزاوله الحرف تقليدية¹، بل لم تتغير في طرق عملها، حيث ظل تطور البنيات الحرفية لليهود مرتبطا بشكل عميق بالظروف الاقتصادية من جهة، وبأحوال وانتظارات الفاعلين الآخرين من جهة أخرى². وذلك ما يفسر إجمالاً استمرار نسبة مهمة من الساكنة النشيطة اليهودية بمدينة مكناس في مزاوله الحرف التقليدية بالملاحين القديم والجديد، مستفيدين في ذلك من مهام الوساطة التي برعوا فيها من أجل الاستجابة للحاجيات المتعددة للمسلمين والأوروبيين³، كما استفادوا أيضا من استقرار الوضع الأمني بالمدينة وناحياتها، رغم استمرار عمليات التهدة خلال السنوات الأولى للحماية بالأطلس المتوسط ومنطقة تافيلالت⁴.

أما بخصوص أنواع الحرف التي ظل العديد من يهود مكناس يزاولونها طيلة فترة الحماية إلى غاية السنوات الأخيرة منها⁵، فعديدة تلامس احتياجات اجتماعية متنوعة، ومن أهم وأشهر الحرف التي كانت تقريبا تشكل اختصاصا يهوديا نذكر حرفة معالجة الذهب، والفضة، والأحجار الكريمة، وصناعة الحلبي، والجواهر، لدرجة اشتهاار اليهود بمدينة مكناس بعقدتهم لحلقات دورية خاصة بهم لدراسة التلموذ⁶. وقد اغتنم الحرفيون اليهود تاريخيا نفور المسلمين من هذه المهنة، لما كانوا يعتبرونه نوعا من الربا المحرم، لأن فيها من يبيع المعدنين بالفائدة⁷. لذا تخصص اليهود منذ زمن طويل في هذه الحرفة وغيرها مقابل تخصص المسلمين بحرف أخرى، في إطار شكل من أشكال تقسيم العمل⁸. وفي هذا الصدد يؤكد روجي لوطورنو قائلا: "يبدو أن بعض الحرف الصناعية كانت مخصصة لهم تقليديا، منذ عهد طويل جدا، ولا سيما تلك التي تتطلب معالجة المعادن الثمينة، ولم تحدث في غالب الأحيان منافسة بين الإسرائيليين والمسلمين... ومن الغلو التحدث عن وجود منافسة"⁹ وقد كان صانعو الحلبي ينقسمون إلى صناع الجواهر من الفضة وأصحاب الجواهر الذهبية، وهكذا عمل الأولون لسكان البوادي ولصالح "العامة" من سكان القرى والمدن، وقد كان يتم وضع نماذج من هذه المصنوعات بواجهات المحلات، كالسوار الخاص بالنساء والأطفال، ودبابيس الحايك، والصنارات، وإبريم الأحزمة، والقلادات. وقد كانت النساء تطلق على الإسورة الفضية

¹J. Tolédano, *Le temps du Mellah...*, op. cit. p. 139.

²D. Bensimon-Donath, *Evolution du Judaïsme Marocain...*, op. cit, p. 41.

³J. Tolédano, *Le temps du Mellah...*, op. cit, p. 238.

⁴R. Assaraf, *Eléments...*, op. cit, p. 195.

⁵قمنا بعرض مختلف الحرف التي زاولها يهود مدينة مكناس طيلة فترة الحماية من خلال الاعتماد على مجموعة من المصادر والمراجع التي تطرقت لهذا الموضوع، دون الدخول في التفاصيل الخاصة بكل حرفة على حدة، وتتبع تطورها كرونولوجيا خلال الفترة المدروسة، بالنظر لغياب المعطيات الكفيلة بالإحاطة على نحو دقيق بالبنية الحرفية لليهود المدينة. لكن ذلك لم يمنعنا من القيام بجرد الحرف المزاوله بشكل كاف، لرصد الموضوع وأخذ فكرة كافية حول هذا النشاط الاقتصادي.

⁶J. Tolédano, *Le temps du Mellah...*, op. cit, p. 230.

⁷محمد الغريسي الأسفي، "العادات العتيقة لليهود بفاس من المهد إلى اللحد"، مجلة الجواهر، العدد 27، 1992، ص. 16.

⁸حاييم الزعفراني، ألف سنة من حياة اليهود بالمغرب... مرجع سابق، ص. 151.

⁹روجي لوطورنو، فاس قبل الحماية، الجزء الأول، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، 1992، ص. 505.

اسم الشمس أو القمر - الكمرة - بالنظر لجودتها¹. أما الآخرون كالطورافيم (صناع الذهب) فكانوا يلبون طلبات الأغنياء من اليهود والمسلمين.

حرفة الصباغة هذه كانت في الغالب تتوارث ابنا عن أب، وكانت الورشات في الغالب متواضعة، ولا تضم عددا كبيرا من الحرفيين². وقد سميت الوثائق العبرية صاغة الذهب بـ "طورافيم"، ويقابلها في العربية "الذهابين"، كما سميت صاغة الفضة بـ "سكاكين" أو "صياغين". تراكم الخبرات لدى الحرفيين اليهود في هذه الصنعة مكنهم من إنجازها بدقة وبإتقان، حيث كان "المعلم" اليهودي ينجز ما يطلب منه بكثير من الخفة والدق الرفيع، إذا ما قورن بزميله المسلم³. وجدير بالذكر أنه لا زال بمكناس شارع يحمل اسم "السكاكين"، وهو المكان الذي كانوا يمارسون فيه عملهم بحى باب برمة، وكان لهم متخصصين بهذه الحرفة مرخص لهم من طرف السلطات، ومن أشهرهم شامويل عطية⁴. هذا وقد بلغ عددهم 52 حرفيا سنة 1921، لكنه انخفض إلى 35 حرفيا سنة 1954⁵.

من الحرف الأخرى التي كانت تخصصا يهوديا بامتياز نذكر الإقراض بالربا/ الفائدة⁶، وهو نشاط كان يهود مكناس يمارسونه مع مسلمي المدينة ومحيطها القبلي، إن المخزن بدوره كان يقترض منهم عندما يضطر لذلك، ومع فرض الحماية الفرنسية توسع ضرر القرض الربوي، خاصة خلال فترات الازدهار المتوالية في ظل ظهور حاجات جديدة، وكان يتراجع التعامل به خلال فترات الأزمة. وجدير بالذكر أن الاقتراض بالربا من اليهود لم يكن مطلوبا بالخاص، والسبب في ذلك يعود لكون الإسرائيليين كانوا يخشون عدم وفاء الفلاحين لالتزاماتهم بالأداء، كما أن هذا النوع من القروض تقلص بشكل كبير بسبب العقوبات التي كان يتعرض لها المتعاملون به، كما اختفت تدريجيا ظاهرة بيع الغلات قبل نضجها - بعدما كانوا قبل ذلك يقرضون الفلاحين بفوائد مرتفعة يتم استخلاصها بعد جني محصول السنة⁷ -، الأمر الذي أدى إلى تراجع دور اليهود في هذه الحرفة وسط القبائل المحيطة بالمدينة بشكل كبير لصالح الأنشطة الاقتصادية الجديدة التي ظهرت بالمدينة⁸.

¹Alain Levaud, *Meknès Années 20*, Ed La Croisées des Chemins, 2002, p. 34.

²D. Bensimon-Donath, *Evolution du Judaïsme Marocain...*, op. cit, p. 74.

³حاييم الزعفراني، *يهود الأندلس والمغرب، الجزء الثاني...*، مرجع سابق، ص. 395.

⁴Luis Massignon, «Enquête sur les Corporation Musulmanes et des Commerçants au Maroc, d'après les réponses à la circulaire résidentielle du 15 Nov, 1923 envoyé sous le I timbre de la Direction des Affaires indigènes du service des renseignements», *Revue du Monde Musulman*, Tome 85, Ed Ernest Eroux, Paris, p. 238.

⁵حسنه مازي، *مجتمع مكناس، المدينة القديمة على عهد الحماية...*، مرجع سابق، ص. 320.

⁶R. Assaraf, *Eléments...*, op. cit, p. 268.

⁷J. Tolédano, *Le temps du Mellah...*, op. cit, p. 283.

⁸F. Olivier, «Mémoire sur L'évolution économique des Tribus de la banlieue de Meknès depuis l'occupation française», document, CHEAM, N° 77, p. 31-37.

ومن أجل تأصيل هذه الحرفة وتفسير خلفياتها ومبرراتها في الموروث الديني والثقافي اليهودي، نشير إلى أن التعاليم الدينية اليهودية التلمودية، أباحت التعامل بالقروض بين اليهود، لكن من دون فائدة لأنها تحرم ذلك، كما أوصت بضرورة تساهل المقرض في استرجاع ماله من المدين عبر أقساط، بشرط ألا يتجاوز مجموعها قيمة الدين حرصاً منها على تحقيق التضامن والعدالة بين اليهود¹، وقد أباحت تلك التعاليم الإقراض بالفائدة لليهودي في حالة واحدة فقط، إذا كان الدائن من دون مصدر للعيش، على أن لا يعتمد ذلك من أجل الحصول على الأرباح، وبشرط أن يكون في وضعية الشريك. وقد تم تبرير ذلك بأن اليهود يخضعون لعدة واجبات مالية من طرف المحيط الغير اليهودي الذي يعيشون فيه. كما برر آخرون ذلك بأن غير اليهود يتعرضون بحدة أقل للإكراهات المالية التي يمكن أن تسبب لهم في الفقر. لذا كان تحريم القرض بالفائدة بين اليهود بدعوى تحقيق التضامن والتآزر فيما بينهم. أما عندما يتعلق الأمر بإقراض غير اليهود بالفائدة، فقد اعتبر ذلك في نظر التلموذ أمراً ضرورياً بل واجباً أخلاقياً²، وذلك ما يفسر تراكم خبراتهم في هذه الحرفة منذ حوالي ألفي سنة، حيث استمروا في تقديم تلك القروض للدول والأفراد أينما وُجدوا³. وهنا يؤكد إسرائيل شاحاك أن التمييز ضد الأغيار في القروض الربوية أصبح نظرياً إلى حد كبير [...] حيث صدرت فتوى تحلل تقاضي الفائدة حتى من المقرض اليهودي، إلا أنه يظل إعفاء هذا الأخير عملاً مندوباً من قبيل عمل الخير، بينما تقاضي الفائدة من الأغيار واجب ملزم، وأغلب المراجع الحاخامية ومنها ابن ميمون تعتبر تقاضي أقصى فائدة ممكنة من الأغيار واجباً⁴.

هذا وجاء في المصادر والمراجع التي اعتمدناها ذكر لأنواع أخرى من الحرف التي اختص بها يهود مكناس، حيث امتنهنوا صناعة القناديل من علب التصبير المستعملة، وصنع الأسطل والنعال من عجلات السيارات المنتهية صلاحيتها. هذه العملية عكست إبداع الحرفي اليهودي وحرصه القوي على الاستفادة من أي شيء يساعد على جني المال⁵.

¹J. Attali, *Les Juifs, Le Monde, et L'argent, Histoire...*, op. cit, p.183.

²Ibid, p. 139.

³Ibid, p. 376.

⁴إسرائيل شاحاك، اليهود واليهودية، وطأة 3000 عام...، مرجع سابق، ص. 137.

⁵A. Levaud, *Meknès Années 20...*, op. cit, p. 34.



Source :Alain Levaud, **Meknès Années 20...**op. cit, p. 35.

لم يكتف يهود المدينة بما زاولوه من حرف، إذ زاولوا أيضاً حرفة القزادرية بحى برمة¹، حيث كانوا يصنعون الأواني النحاسية بالقزدير والنشادر²، وقد كان أغلب ممارسي هذه الحرفة يهوداً، طبقاً لتقرير أنجز سنة 1923، أكد أن عددهم سنتها بلغ 42³ حرفياً، كما تعاطوا لحرفة القراشلية بحى شريشرة، وقد كان للقرشال كما لغيره من الأدوات

¹Luis Massignon, «Enquête sur les Corporation Musulmanes et des Commerçants...», op. cit. p. 34.

²Prospre Ricard, «L'industrie indigènes au Maroc», BEM, Voll, N°6, octobre 1934.

³من أهم تخصصات القزادرية صنع الفوانيس، التي كانت تستعمل في إنارة الشوارع والأزقة ليلاً. وقد تحكمت في هذه الحنطة نظارة الأحباس، لأنها كانت المسؤولة عن إنارة الشوارع في المدينة القديمة. وقد وصل عدد صناع الفوانيس سنة 1934 إلى 58 حرفياً، وكانوا يصنعون 100 ألف فانوس سنوياً. بدأ التراجع عن استعمال الفوانيس تدريجياً وتعويضها بالإنارة الكهربائية، ومع ذلك استمر أصحاب هذه الحرفة في العمل، رغم انخفاض عددهم سنة 1954، إذ لم يبق منهم إلا 13 حرفياً، لأن الإنارة الكهربائية كانت لم تعمم بعد على كل الساكنة". حسنة مازي، **مجتمع مكناس، المدينة القديمة على عهد الحماية...**، مرجع سابق، ص. 320.

أهمية قصوى عند النساء في المدينة والبادية على السواء، لارتباطه بغزل الصوف¹. كما امتنهن الحرفيون اليهود حرفة الخراطين بحج السقاين²، وحرفة الروابزية (صناعة الربوز أو الفرجون)، وكانوا يسمون بالكيارين. وجدير بالذكر أن هذه الحرفة لم تتدهور كليا، حيث وصل عدد ممتنهيها إلى حدود 195،36 حرفيا، ويرجع ذلك إلى الاستمرار في الاعتماد على النار في الطبخ³. هذا علاوة على حرفة النجادة (صانعي الأفرشة)، والحلاجة (حليج القطن)⁴، والخياطة التي كانوا يزاولونها بفندق حانا بالملاح، وحرفة اللحافية بحج باب بريمة، كما زاولوا حرفة المرامية (صناع القياطين)⁵.

واحترف يهود آخرون حرف النسيج والخياطة العصرية، وكان اليهودي ليون إلى حدود سنة 1920 الخياط العصري الوحيد الذي كان يليب طلب المصالح البلدية، واستطاع بفضل الثروة التي كوّنّها بناء منزل بالمدينة الجديدة⁶. واحترفوا أيضا مهن العشابة، الصباغة، وصنع المرايا، والحلاقة، وإصلاح الساعات، والقصابة، والسمسرة، والدباغة، والرصاص، وصناعة الخزف والبلور، ومعالجة المصارين وإعدادها للتصنيع، واستغلال الغابة.

كما امتنهن البعض منهم حرفة الكواي⁷، وكان منهم أيضا الكنافون (التنظيف) والعطارة، والمجادلية، والحرارون، والبرزازون⁸، أضف إلى تعاطيهم حرفة الحدادة، حيث كانوا متخصصين في صنع سكك الحارث وصفائح البهائم وشبابيك المنازل والدكاكين، والمداري الحديدية والفؤوس والقوادم واللوازم المعدنية التي تخص الأبواب كالأقفال والمفاتيح والزكازم⁹، فضلا عن ترصيع الحديد لصنع الأدوات المتعلقة بسروج الخيل¹⁰، وكل المستلزمات الأخرى المرتبطة بالخيول، سواء للعمل أو للفروسية، وقد كان يهود مكناس متخصصين في هذه الحرفة¹¹. ومن يهود المدينة من تعاطى حرفة الطرافة، حيث كان المكناسيون يصلحون الحذاء مرات متتالية كلما تمزق، مما جعل عدد الطرافين يعرف تطورا ملحوظا، وقد بلغ عددهم سنة 1921، 34 طرفا كلهم يهود¹².

¹بوشنتى بوعسرية، مكناس المدينة الجديدة: التأسيس، البنيات الإدارية... مرجع سابق، ص. 33.

²Luis Massignon, «Enquête sur les Corporation Musulmanes et des Commerçants...», op. cit, p. 238.

³حسنه مازي، مجتمع مكناس، المدينة القديمة على عهد الحماية...، مرجع سابق، ص. 313.

⁴R. Assaraf, *Eléments...*, op. cit, p. 268.

⁵Luis Massignon, «Enquête sur les corporation musulmanes et des commerçants...», op. cit, p. 36.

⁶J. Tolédano, *Le temps du Mellah...*, op.cit, p. 170.

⁷Annuaire Marocaine, «Industriel, Agricole, Economique, Financier», Chapitre IX, Région de Meknès, Imprimeries Reuis, Casablanca, 1955, p.989-990-992-993-995-996-998-1000-1001-1003-

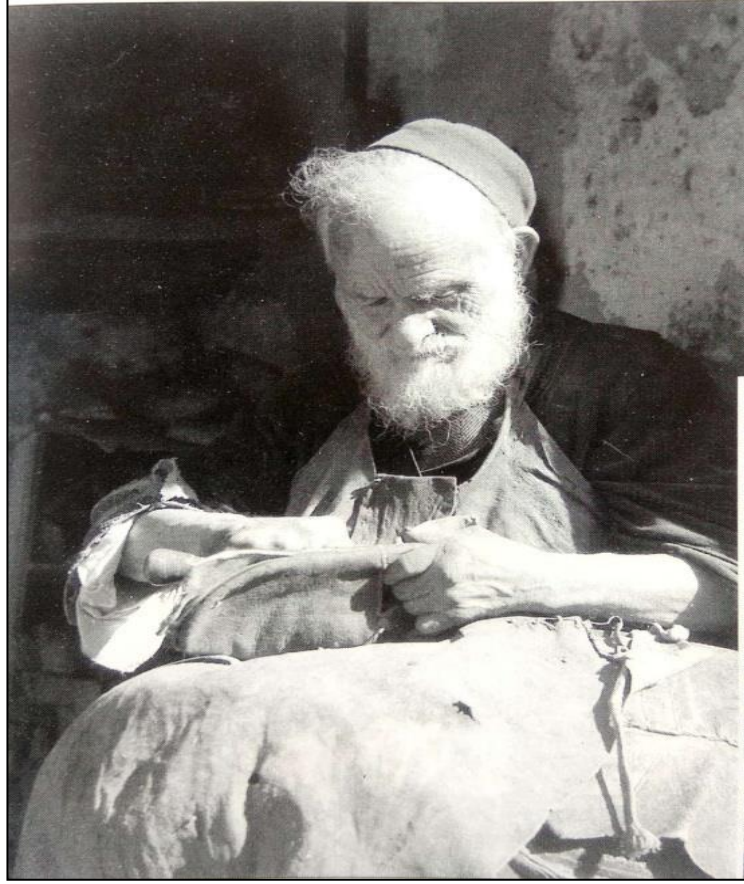
⁸حسنه مازي، مجتمع مكناس، المدينة القديمة على عهد الحماية...، مرجع سابق، ص. 290-291.

⁹بوعسرية، مكناس المدينة الجديدة: التأسيس، البنيات الإدارية، التناقضات (1911-1939)...، مرجع سابق، ص. 36.

¹⁰André Goldenberge, «Divers Aspects de la contribution des Artisans Juifs aux Arts Traditionnels du Maroc», Juifs du Maroc, Identité et Dialogue, Actes du Colloque international sur la Communauté Juive Marocaine : vie Culturelle, Historique Social et évolution, Paris, 18-21 décembre 1978, Ed La Pensée Sauvage, , p. 71

¹¹Ibid, p. 73.

¹²حسنه مازي، مجتمع مكناس، المدينة القديمة على عهد الحماية...، مرجع سابق، ص. 338.



Source : Jacques Attali, *Les juifs, le monde et l'argent...* op. cit.

يهود آخرون امتهنوا حرفة صناعة الصابون البلدي، ذلك أن عائلة موشي أزوكي على سبيل المثال كانت متخصصة أساساً في صناعة هذا النوع من الصابون المحلي، وقد استطاعت خلال فترة الحرب العالمية الثانية تحقيق أرباح كبيرة بعدما لم يعد صابون مرسيليا المستورد يصل المدينة¹. كما كان منهم أيضاً الجزار، والقهوجي، والفحام، والقناني، والغرابلي، والسفانجي، والحمال، والحجار².

ومهما يكن الأمر فيما يتصل بالحرص على تعلم الحرف وامتهانها داخل الجماعة اليهودية باعتباره ضرورةً وواجباً شرعياً، فإن القادة الروحيين كانوا حريصين على محاربة التعليم المهني السابق لأوانه لما له من انعكاسات مضرة بسلامة السير الدراسي للأطفال، لأن الأولوية خلال مرحلة الطفولة كانت تعطى للتعليم الديني. ولم يكن من

¹J. Tolédano, *Le temps du Mellah* ..., op. cit. p. 228.

²ANR, Etat indiquant le nombre de Maître ouvriers, et apprentis Musulmans et Israélites Ola fin de Septembre, ville de Meknès, Boit N°16, 1921.

الضروري أن تمنح مهنة من المهن من متابعة الدراسة، لأن الفتى والراشد يمكنه الاستمرار في التعلم أثناء الليالي والسبت والأعياد، وفي أوقات الفراغ التي تسمح بها انشغالاته¹. وفيما يخص الجانب التنظيمي للحرفيين اليهود، فقد كان هؤلاء كالحرفيين المسلمين، منتظمون في إطار حنطات يمثلها لدى السلطات الأمين، الذي كان يتم اختياره من طرف أحد المُعلِّمين البارزين مع ضرورة تركيته من طرف الباشا والمحتسب، وتتمثل مهامه في تسوية الخلافات بين المعلم والصانع والزبناء².

أما فيما يتعلق بمزاولة المهن الجديدة والحرّة، وكما أشرنا من قبل، فإن مدينة مكناس، كما أسلفنا، كانت قبلة مهمة لعدد كبير من المستوطنين الأوروبيين الذين نافسوا اليهود حتى على المهن الأكثر تدنيا، وقد سبق للمقيم العام الجنرال ليوطي أن تنبأ بذلك من قبل، لذلك لم يسمح في البداية إلا بهجرة الأطر العليا إلى المغرب، لكن عدداً كبيراً من الأوروبيين من جنسيات مختلفة هاجر فيما بعد نحو البلاد أملاً في تحقيق طموحاتهم³، الأمر الذي لم يترك للعناصر اليهودية المتطورة، خاصة خريجي مدرسة الرابطة، فرصاً كبيرة للعمل بالمهن الحرّة المهمة سواء داخل القطاع الخاص أم العام، لذلك اتجهوا في الغالب للحرف والتجارة، غير أن هذا الإكراه لم يمنع بعضهم من محاولة التأقلم مع الواقع الجديد، حيث تعاطت فئة قليلة منهم لم تتعدّ في بعض النشاطات أفراداً محدودين، لمهن الميكانيك، والسمسرة، وإصلاح آلات الراديو، والطباعة، وصناعة الزجاج⁴، والتمريض. أضف إلى ذلك اشتغال بعض اليهود في بعض النشاطات المهنية بمعدل فرد واحد، كالمهندسة والصيدلة، وتسيير شركة الأشغال العمومية. بينما استثمر آخرون في مشروع المقاهي والحانات⁵، ذلك أن أول مقهى عصري تم إحداثها بالملاح الجديد كانت تعود لشالوم أوحنا بشراكة مع شخص آخر، وقد كانت فضاء يتم فيه استقبال الجنود الفرنسيين، غير أن السلطات الفرنسية أصدرت لاحقاً قراراً يمنع ارتيادها من قبل المجندين السنغاليين، مع استثناء الضباط الفرنسيين، لأن الحاخامات والأعيان اليهود اشتكوا من العريضة التي كان السنغاليون يحدّثونها عندما يفرطون في الشرب، مما أرغم أصحابها على إغلاقها بسبب تراجع مداخيلها⁶. هذا وقد تمكن بعض اليهود من خريجي مدرسة الرابطة من العمل كمحاسبين بالشركات الأوربية، أو مستخدمين بالأبنك⁷، حيث استطاع أحد اليهود شغل منصب مدير للبنك، ويتعلق الأمر ب يوسف أراما الذي

¹حاييم الزعفراني، *يهود الأندلس والمغرب، الجزء الثاني...*، مرجع سابق، ص. 438-439.

²D. Bensimon-Donath, *Evolution du Judaïsme Marocain...*, op. cit, p. 18.

³روبير أصراف، *محمد الخامس واليهود المغربية...*، مرجع سابق، 207.

⁴R. Assaraf, *Eléments...*, op. cit, p. 268.

⁵Annuaire Marocaine, «*Industriel, Agricole, Economique, Financier*», op. cit, p. 984-986-990-993-997-1001.

⁶D. Cohen, op. cit, p. 32.

⁷R. Assaraf, *Eléments...*, op.cit, p. 268.

يُعتبر أول من شغل تلك الوظيفة¹، بالإضافة إلى الأخ الأصغر لجوزيف بيرديغو²، ونفس الوظيفة تولاهما يهودي آخر يدعى جو أوحنا³. كما تولى ماكس بنعاروش وظيفة وكيل عام للشركات الفرنسية (شركة الحياة الفرنسية وفرنسا الإفريقية) المختصة في مجال التأمينات البحرية والبرية، وقد كان مقر مكتبه بحي لافاييط⁴. وعموماً فإن نسبة حضور اليهود بالمهن الحرة والوظائف الجديدة كانت أعلى من نظرائهم المسلمين لأن تلك المهن كانت تتطلب قدراً معيناً من الثقافة والتعليم والتمكن من اللغة الفرنسية، وهذه المؤهلات توفرت في الإسرائيليين بفضل التعليم الذي وفرته مدارس الرابطة للأجيال التي استفادت من ذلك⁵.

وبخصوص إقبال أفراد الجماعة اليهودية على الأنشطة الحرفية، على تواضعها وبساطتها، فضلاً عن حرفة التجارة، مقابل النفور من ممارسة الأنشطة الفلاحية، حتى ولو لم تُحرم دينياً، يوضح جاك أتالي قائلاً:

"[...] في المنفى لا يمكن أن نعيش من المن أو الصدقة كما في الصحراء، ولا من العشر ككهنة المعبد، وحتى الحاخامات والقضاة ليس لهم الحق في العيش بدون أن يعملوا، العيش من الصدقات يجب أن يكون هو الحل الأخير. "من الأحسن نسيان الشباط على الاعتماد على الصدقة". العمل هو الواجب الأول الذي يقوم به كل يهودي، مهما كان الوقت الذي يقضيه في الدراسة أو الصلاة أو القضاء أو التدريس، وقد جاء في التلمود ذكر لعدد كبير من الأمثلة لمعلمين يهود أو بابل كانوا يكسبون قوت يومهم بالعمل اليدوي: العظيم يوحنا بن زاكاي كان صانع أحذية. والحاخام يهودا حا-ناسي كان خبازاً، والحاخام حونا كان مزارعاً، والحاخام إسحاق كان حداداً. أيضاً المعلم الكبير ومؤسس مدرسة سورا راف، الحاخام أريخا رفض أن يرد على تحية بعض تلامذته، لأنه كان مشغولاً بعمل يدوي، وخشي أن يترتب على مقاطعته ضرر بصاحبه، وحتى قراءة الكتاب المقدس تأتي بعد العمل باستثناء طقس الصلاة"⁶.

تفاني اليهود في العمل - كشكل من أشكال العبادة - أثار انتباه مدرسي مدارس الرابطة، الذين اندهشوا من العمل الدؤوب الذي كانت تقوم به المرأة أيضاً إلى جانب الرجل منذ الصباح لأجل الحصول على لقمة العيش لتجنب الاضطرار إلى تلقي الصدقات⁷. غير أن التنظيم الاقتصادي للعائلات الممتدة كان يعمل ما أمكن على

¹J. Tolédano, *Le temps du Mellah...*, op. cit, p. 193.

²R. Assaraf, *Eléments...*, op. cit, p. 227.

³D. Cohen, op. cit, p. 34.

⁴Annuaire Marocaine, «Industriel, Agricole, Economique, Financier », op. cit, p. 987.

⁵D. Bensimon-Donath, *Evolution du Judaïsme Marocain...*, op. cit, p. 44.

⁶J. Attali, op. cit, p. 131-132.

⁷D. Bensimon-Donath, *Evolution du judaïsme marocain*, op. cit, p. 72.

تطويق حالات البؤس، بفضل التضامن الذي ظل قائما بين اليهود، وكثيرا ما كان يقوم أحد يهود البادية بإرسال ابنه إلى أحد أفراد عائلته بالمدينة لمتابعة الدراسة الدينية، أما عند الدخول في الحياة المهنية، فإن العلاقات العائلية كانت تلعب دورها في إدماج الطفل بورشة أحد الأقرباء لتعلم الحرفة، خاصة وأن كل عائلة ميسورة كان لها أقرباء فقراء نادرا ما يتركونهم في بؤسهم. كما أن ترك أرملة أو مسن يعيش في البؤس بالملاح كان يثير استنكار الجميع¹.

نستنتج ما سبق، أن تعاطي نسبة مهمة من الإسرائيليين للحرف مهما كانت متواضعة، لم يكن فقط نابعا من النفور من النشاط الفلاحي كما سبق وأوضحنا، أو فقط من أجل كسب مصدر للعيش، في ظل "ندرة" فرص الترقى الاجتماعي على نطاق واسع من داخل المهن الجديدة، في ظل وجود عدد كبير من الأوربيين بالمدينة، بشكل أدى إلى تعثر ذلك الطموح حتى بالنسبة لخريجي مدرسة الرابطة، بل تعدى الأمر ذلك -في وجدانهم العام- إلى امتهان تلك الحرف بوصفه شكلا من أشكال التماهي مع معلميه الكبار (الخابخات) الذين سبق واحترفوا عددا من تلك الحرف وفقا لما جاء في التلمود، مما حال دون شعورهم بالدونية وهم يمارسونها. لكن رغم ذلك لم يفوت بعضهم فرصة تحسين وضعهم الاجتماعي، من خلال محاولة التأقلم مع إكراهات الواقع الجديد، الذي فرضته التحولات التي رافقت دخول الفرنسيين إلى المغرب، مما ساهم نسبيا في تشكل نواة لطبقة متوسطة صاعدة، استطاعت نسبيا استغلال الفرص المتاحة في المهن الجديدة.

الحاصل أن الوضع الاقتصادي للحرفيين اليهود بدأ يتأثر سلبيا، كما هو الشأن بالنسبة لنظرائهم المسلمين منذ منتصف القرن التاسع عشر، ثم تطور الأمر تدريجيا مع سياسة "الباب المفتوح" الذي أقرته بنود معاهدة الجزيرة الخضراء سنة 1906، واستمر الأمر بنفس الوتيرة بعد توقيع معاهدة الحماية. لكن حدة التأثير السلبي ما بين سنة 1912 وتاريخ اندلاع الحرب العالمية الأولى كانت نوعا ما محدودة بالمقارنة مع التطورات التي ستحدث لاحقا، حيث استطاع الحرفيون اليهود خلال هذه المرحلة الاستفادة من ضعف الاستثمارات الفرنسية بالمغرب، ومن ضعف قنوات التبادل التجاري، لأن البنية التحتية كانت ما تزال في طور البناء، بالإضافة إلى دور المقاومة العسكرية في إرباك إحكام سيطرة الاقتصاد الكولونيالي على المغرب، الأمر الذي سمح للإسرائيليين بالاستمرار في الاستفادة من دور الوسيط في عملية تموين زبائنهم المسلمين بالمنتجات الحرفية، بالإضافة إلى الزبناء الفرنسيين الجدد من المدنيين والعسكريين الذين استقروا بمدينة مكناس، خصوصا وأن هذه الأخيرة كانت هي العاصمة العسكرية للدولة الحامية

¹Ibid, p. 74-75.

التي تواجدت بها عدة ثكنات تضم مختلف التخصصات العسكرية، كالمشاة بمختلف سرياتهم والطيران والخيالة والدرك والشرطة¹.

كما أن اندلاع الحرب العالمية الأولى كان في صالحهم، لأنها ساهمت في تعطيل الاستثمارات التي كانت تنوي فرنسا إقامتها بالمغرب²، كما كان لها دور في تعطيل غزو السلع المستوردة للسوق المغربية، الأمر الذي كان له دور في تحقيق استقرار نسبي في معاملات الحرفيين، وفي نفس الوقت تمكين عدد من التجار اليهود من عقد صفقات مربحة في فترة الحرب ومرحلة التهدة³، من قبيل تموين جنود الثكنات بالمواد التي كانوا في حاجة إليها مستفيدين في ذلك من معرفة بعضهم للغة الفرنسية⁴. لكن بعد ذلك سرعان ما شعر سكان الملاحات، بشكل عام، بأن "وظائفهم" التقليدية قد بدأت تتفكك وتراجع بسبب تقدم الاستيطان الفلاحي، وتحديث قنوات التبادل التجاري، وغزو قطاع البنك والسلف، وتعوّد المسلمين على التعامل المباشر مع الأوروبيين، والاستغناء عن وساطة اليهود في عدد من المعاملات⁵، وتحديث وعصرنة البنية التحتية للبلاد ولاقتصادها، ونجاعة "الآلة البيروقراطية" الجديدة⁶ والتحصيل المنتظم للضرائب من الحرفيين، حيث اعتمدت إدارة بلدية مكناس سياسة متشددة في هذا المجال، لم تكن تراعي دائما التناسب بين الدخل الذي كان في الغالب ضعيفا، وبين قيمة الضريبة المفروضة، ويعود السبب في ذلك إلى اعتماد "جباة" غير محترفين، ناهيك عن تحكم الأهواء الشخصية فيما كانوا يقومون به، كأن يقف الواحد منهم على باب دكان أحد خصومه المعسرين، فتحمله العداوات والأحقاد، على أن يحشره في خانة الميسورين، بشكل يوحي للمراقب أن المعني بالأمر ثري، فتفرض عليه الضريبة على ذلك الأساس. بينما يكون تعاطيه مع أصدقائه ومعارفه عكس ذلك، حيث يوحي لهم بإقفال دكاكينهم والتغيب عنها ريثما يجتازها، حتى إذا وقف على أبوابها المقفلة استطاع أن يصورهم للمراقب بصورة من تخطاهم النعيم⁷.

كما عانى الحرفيون أيضا من إضافة رسوم مختلفة إلى حقوق الأسواق القديمة (المكوس)، وإحداث بعض الصناعات الخفيفة التي ألحقت ضررا بالغا ببعض الحرف، كصناعة الماحيا التي عانت من منافسة المشروبات الكحولية المملوكة للفرنسيين، خصوصا بعدما قررت سلطات الحماية إصدار قرار بمنع صناعة الماحيا، مما أدى إلى حرمان

¹بوشتي بوعسرية، أحداث بوفكران بكناس...، مرجع سابق، ص. 73.

²D. Bensimon-Donath, *Evolution du Judaïsme Marocain...*, op. cit, p. 34.

³محمد كنيبي، *يهود المغرب، 1912-1948...*، مرجع سابق، ص. 307.

⁴M. Kenbib, «Les relation entre Musulmans et Juifs au Maroc, 1859-1945», op. cit, p. 96.

⁵محمد كنيبي، *يهود المغرب، 1912-1948...*، مرجع سابق، ص. 307.

⁶نفسه، ص. 55.

⁷حسنه مازي، *مجتمع مكناس، المدينة القديمة على عهد الحماية...*، ص. 287.

العديد من العائلات من مداخيل مهمة¹، فكان رد فعل حرفيي هذه الصناعة هو التقدم بعريضة احتجاجية عبر ناحوم سلوش إلى سلطات الحماية من أجل إنقاذ مورد رزقهم الوحيد².

كما أن إدخال الآلات في بعض الصناعات التقليدية كما حدث بالنسبة لخياطة الذهب (الصقلي) قد حكم بالبطالة على عدد لا يستهان به من الصناع والعمال و" المتعلمين". من جهة أخرى كان لاتجاه الحرفيين المسلمين الذين واجهوا نفس الصعوبات إلى تعاطي بعض الحرف، التي كانت في السابق حكرا على اليهود بصفة شبه تامة، كما هو الشأن بالنسبة لسبك وصياغة المعادن النفيسة، وخياطة الأزياء أو ترقيعها، دور في الاستحواذ على نسبة من زبائنهم اليهود مما أدى إلى تأزيم وضعيتهم أكثر³.

لقد أدّت هذه التحولات إلى زعزعة آمال اليهود، الذين راهنوا كثيرا في البداية على الفرنسيين من أجل تحسين أوضاعهم نحو الأفضل بالمقارنة مع الوضع الذي كانت تعاني منه الأغلبية التي كانت تحترف مهنا متواضعة داخل الملاحات، إذ تبين لهم أن نظام الحماية قد جعلهم ينتقلون من وضعية التسيير الذاتي والإعفاءات إلى "نظام الأهالي"⁴. غير أن المشكل الكبير الذي ساهم في تضيق الخناق على الحرفيين "الأهالي"، بشكل عام، هو منافسة المنتوجات المستوردة التي غزت الأسواق المحلية، وساهمت في تضرر مجموعة من القطاعات، كالنجارة والحرف المرتبطة بالنسيج وخياطة الأغذية والملابس⁵.

وفي الوقت الذي كان فيه الحرفيون يتطلعون إلى البحث عن مخارج لمشاكلهم، أتت الأزمة الاقتصادية لسنة 1929، التي عصفت حتى بالمكاسب التي كانت قد تحققت للبعض بسبب الكساد الذي امتد إلى جميع القطاعات الإنتاجية، في ظل اقتصاد محلي صار مرتبطا أكثر بالدورة الاقتصادية للاقتصاد الكولونيالي الرأسمالي⁶. وجدير بالذكر أن الهزات الارتدادية لهذه الأزمة التي ألحقت ضررا بالحرفيين اليهود لم تصل تأثيراتها إليهم إلا ابتداء من سنة 1932⁷، بحكم ارتباط القطاعات الاقتصادية فيما بينها على شكل بنية، إذ يكفي أن تصل الأزمة إلى قطاع واحد لتنتقل العدوى إلى باقي المجالات الأخرى، وبالتالي فقد كان وقع الأزمة شديداً عليهم مساهماً في إفقار العديد منهم⁸، ومما زاد الأمر سوءاً، في ظل هذا المناخ الاقتصادي المأزوم، اشتداد منافسة السلع الخارجية المستوردة، حيث أدخلت

¹M. Kenbib, «Les relation entre Musulmans et Juifs au Maroc, 1859-1945» op. cit, p. 98.

²J. Tolédano, *Portrait ...*, op. cit, p. 198-199.

³محمد كنييب، *يهود المغرب، 1912-1948...*، مرجع سابق، ص. 55-57.

⁴محمد كنييب، *يهود المغرب، 1912-1948...*، مرجع سابق، ص. 307.

⁵حسنه مازي، *مجتمع مكناس، المدينة القديمة على عهد الحماية...*، ص. 268-269.

⁶J. Tolédano, *Le temps du Mellah...*, op. cit, p. 143.

⁷M. Nouvel, «l'évolution du judaïsme Marocain» CHEAM, op. cit, p. 8.

⁸D. Bensimon-Donath, *Evolution du judaïsme marocain...*, op.cit, p. 42.

اليابان حوالي 300 ألف زوج من الأحذية المطاطية الرخيصة إلى السوق المغربية سنة 1933¹، بل ولقيت المنتوجات المستوردة بشكل عام إقبالا كبيرا عليها، حيث أصبح سكان مدينة مكناس على غرار باقي المستهلكين المغاربة، أكثر ميلا إلى استهلاك المنتجات المستوردة عوض المنتجة محليا بشكل أدى إلى إلحاق الضرر بكل الحرف المرتبطة بهذا القطاع². كما أن تعاقب مواسم الجفاف ابتداء من سنة 1935، وامتداد آثاره حتى سنة 1937 بشكل تسبب فيما عُرف بأحداث بوفكران³، والتي تحولت إلى انتفاضة شعبية خلال نفس السنة، أدى إلى تدهور الوضع الأمني بالمدينة، مما انعكس سلباً على يهود مكناس⁴، وأدى بالتفاعل مع العوامل السابقة إلى تعدد مظاهر الإفلاس بالقطاع الحرفي وانتشار البؤس بالملاح، كما كان الشأن بالنسبة لباقي الحرفيين المسلمين⁵.

أمام هذا الوضع رفع الوطنيون بمكناس شعار مقاطعة البضائع المستوردة، والإقبال على استهلاك الإنتاج المحلي: "[...] ارحموا المحترفين بالإقبال على مصنوعاتهم [...] ارحموا أرباب الحرف فقد أصبحوا في شوارع المدن بسلاسل الفاقة يسبحون [...]". لكن هذه الدعوة لم تؤد إلى نتائج إيجابية، بسبب استمرار المكناسيين في الإقبال على البضائع المستوردة⁶.

اشتداد الأزمة خلال هذه المرحلة على المغاربة اليهود، دفع برؤساء الجماعات بما في ذلك مكناس، نظراً للغضب الذي كان منتشرا في صفوف إخوانهم في الدين، إلى مناشدة المقيم العام شارل نوجيس (1936-1943) بضرورة تقديم المساعدات لهم للحد من البطالة والبؤس اليومي العميق⁷.

نفس المناشدة توجه بها مرة أخرى يهود مكناس عبر مجلس جماعتهم لنوجيس بعد زيارته للمدينة، بهدف الحصول على التعويضات عن الخسائر التي تعرضوا لها بسبب أحداث بوفكران، أملا في التخفيف من الأزمة التي تعمقت نتيجة هذه الأحداث، لكن هذا الأخير، وعكس ما كانوا يتوقعون، عاتبهم بشدة قائلاً لمثلثهم: "عوض

¹ محمد البكراوي، "وضعية حرفة الدباغة بمكناس على عهد الحماية: 1934-1950"، ندوة الجمعية المغربية للبحث التاريخي التي نظمت بكلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، أيام 26-27-28 أكتوبر 1995، تحت عنوان: التشكيلة الاجتماعية في تاريخ المغرب، مجلة أمل، العدد 18، 1999، ص. 130.

² بوشتي بوعسرية، "الحرف والحرفيون بمكناس من الازدهار إلى الانحطاط، 1900-1936"، مجلة أمل، العدد 7، 1969، ص. 57.

³ "عرفت مدينة مكناس سنة 1937 انتفاضة شعبية كان السبب الرئيسي وراء اندلاعها، هو تحويل السلطات الفرنسية لجزء من مياه وادي بوفكران إلى أراضي المعمرين بأرض تانوت، وللمرافق المدنية والعسكرية بالمدينة الجديدة -حمريّة- وذلك بعد قيام المسؤولين الفرنسيين بعد دراسات خاصة بمياه وادي بوفكران، وإصدار عدة ظواهر وقرارات لتنظيم واستغلال هذه المياه. وقد تزامن هذا الحدث مع الوضعية الصعبة التي كان يعيش فيها المجتمع المكناسي، والمتمثلة في تعدد مظاهر الأزمة الاقتصادية والاجتماعية، التي مست بالخصوص الفئات الشعبية داخل هذا المجتمع، ومع بداية تبلور الوعي الوطني عند ثلثة من المكناسيين الذين كانوا على اتصال بنظرائهم بأهم المدن المغربية الأخرى وخاصة مدينة فاس. وقد كانت الأسباب السالفة الذكر كافية لإثارة ساكنة المدينة للقيام بانتفاضة ضد سياسة الإدارة الفرنسية في شهر شتنبر من سنة 1937". للاستزادة يمكن الاطلاع بتفاصيل أكثر على المرجع التالي: بوشتي بوعسرية، أحداث بوفكران بمكناس...، مرجع سابق، من الصفحة 237 إلى الصفحة 297.

⁴ J. Tolédano, *Le temps du Mellah...*, op. cit, p. 196.

⁵ M. Nouvel, «L'évolution du judaïsme marocain», op.cit, p. 8.

⁶ بوشتي بوعسرية، أحداث بوفكران بمكناس...، مرجع سابق، ص. 64.

⁷ محمد كنيبي، يهود المغرب، 1912-1948...، مرجع سابق، ص. 170.

تدمركم، عليكم أن تكونوا ممتنين للقوات الفرنسية، التي حالت دون حصول خسائر بشرية كما كان يحصل بالماضي قبل مجيئنا."، فكان رد أبرهام طوليدانوا على نوجيس حازما: "قبل قدومكم لم نكن بحاجة لحمايتكم".¹

متاعب اليهود خلال هذه المرحلة تعددت بسبب تصاعد موجة معاداة السامية ضدهم من طرف بعض الأوروبيين الذين ساءت أحوالهم الاقتصادية، والذين تحمسوا لصعود الأنظمة التوتاليتارية بأوروبا بكل من إيطاليا وألمانيا²، لكن لحسن حظهم لم تصل هذه الدعاية إلى المستوى الذي بلغته بالجزائر، حيث فشلت العناصر في تنشيط معاداة السامية في صفوف المسلمين الذين ظلوا حذرين تجاه هذه الدعوة³. غير أن تطبيق قوانين فيشي ولو بشكل جزئي، ساهم في التراجع الاقتصادي للمغاربة اليهود⁴، خصوصا بعدما انتشرت دعوات من قبل بعض الفرنسيين تدعو إلى مقاطعة اليهود من قبيل: "الشراء من اليهود، يعني التسبب في إفلاس تجارة الفرنسيين"، أضف إلى ذلك ترديد شعار: "العامل اليهودي هو عدوك، لأنه يعمل لحسابه الخاص ويكون ثروته على حساب رؤسك"⁵. ورغم التطبيق المحدود لقوانين فيشي العنصرية، ومحدودية المدة التي طبقت فيها، فإن متاعب اليهود لم تنته مع الإنزال الأمريكي وإلغاء تلك القوانين العنصرية، ذلك أن ظروف الحرب العالمية الثانية دفعت فرنسا إلى التحكم في بعض المواد الأولية مما أضر ببعض الحرف، كتلك المرتبطة بصناعة الصوف والجلد... إلخ، نتيجة جمع معظم الإنتاج وتصديره إلى فرنسا لتزويد جنود الحلفاء بالملابس والأغطية، مما أدى إلى ارتفاع ثمنها محليا وازدياد كلفة الإنتاج، أضف إلى ذلك تعطل الواردات، الشيء الذي أدى إلى إضعاف الحرف التي كانت تعتمد في صناعتها على المواد المستوردة (النحاس، القطن، الحرير، الذهب... إلخ)، وهو ما خلق أزمة للصناع المكناسيين⁶.

ومقابل ذلك، تمكنت بعض الحرف من الانتعاش خلال فترة الحرب، حيث ارتفع الطلب مثلا على منتجات الخياطين، لأن الدول التي كانت تُغرق أسواق المغرب ببعض المنتجات كانت قد تعطلت⁷. هذه العوامل كلها ساهمت في تنشيط السوق السوداء بمدينة مكناس لدرجة ساد معها الاعتقاد أن من لم يتعاط لها سيظل يعيش في البؤس، وفي هذا الإطار تمكنت أقلية محظوظة من يهود المدينة من الاغتناء من تجارة السوق السوداء، لدرجة أن الحي الجديد الذي بني بالقرب من مدرسة الرابطة سُمي بـ "حي السوق السوداء"⁸.

¹R. Assaraf, *Eléments...*, op. cit, p.179.

²Ibid, p.179.

³J. Tolédano, *Le temps du Mellah...*, op. cit, p. 144.

⁴Ibid, p. 145.

⁵M. Kenbib, *Juifs et Musulmans au Maroc, des origines à nos jours*, Ed Tallandier, Paris, 2016, p. 147.

⁶حسنة مازي، مجتمع مكناس، المدينة القديمة على عهد الحماية...، ص. 281-282-284.

⁷نفسه، ص. 330.

⁸J. Tolédano, *Le temps du Mellah...*, op. cit, p. 147-148.

ومن بين العوامل الأخرى التي ساهمت في تضرر القطاع الحرفي تراجع الدور الذي كان يقوم به المحتسب، حيث أزلت القوانين الإدارية التي سنتها الإقامة العامة أهم اختصاصاته، من قبيل السهر على ضمان أخلاقيات العمل، حيث كان يراقب الموازين والمكاييل، والغش والاحتكار، ويراقب المصنوعات، ويفصل في الخصومات، لكن ظهر 8 أبريل 1917 الصادر في تنظيم البلديات، جرده من العديد من اختصاصاته لصالح رئيس المصالح البلدية والباشا والقايد، الذين مُنحت لهم كل السلطات المهمة بالمدينة، بشكل جعل من المحتسب مجرد موظف شرقي لم تعد قراراته تُحترم حتى من قبل الحرفيين أنفسهم¹. كما أن خلق إدارة الحماية للعديد من المصالح، كمصلحة الحرف والفنون الأهلية، والمكتب الشريف للمراقبة والتصدير، والوكالة الحرفية المغربية، والورشة النموذجية، والتعاونيات، قد ساهم في تفكك نظام الحنطات².

حاصل القول، إن التطورات التي حصلت في هذا القطاع بعد توقيع معاهدة الحماية، لم تكن بالمجمل في صالح الحرفيين اليهود على غرار نظرائهم المسلمين، ذلك أنه بالرغم من ازدهار بعض الحرف بعينها، خاصة تلك التي كانت تلبي حاجات الزبون الأوروبي، ولا تتعارض تقنياتها مع ما كانت تنتجه المعامل العصرية سواء الخارجية منها أو الداخلية، فإن معظم الحنطات قد عانت من التحولات السريعة التي تشكلت في ظل الاقتصاد الكولونيالي، والتي لم تسمح للنظام الحرفي ككل بامتلاك لقدرة على المنافسة. كما أن تغير أذواق المستهلكين تجاه المنتجات العصرية، وتوفر شبكة من الطرق الآمنة خصوصا بعد انتهاء عمليات التهدة، وتعدد الأسواق الأسبوعية، حرم الحرفيين اليهود من الاستمرار في تموين محيط المدن بالمنتجات الحرفية كما كانوا يفعلون في السابق في إطار مهام الوساطة التي كانوا معروفين بها.

هذه التحولات هي التي تفسر رغبة العديد من اليهود، خاصة المتطورين منهم، في التكيف مع الوضع الجديد عبر اقتحام عالم المهن الحرة³ أملاً في الترقى الاجتماعي، وتفسر كيف ساهم الإحباط في تحقيق ذلك عبر تسهيل المهمة على النشاط الصهيوني خصوصا بعد الحرب العالمية الثانية في إقناع العديد من إخوانهم في الدين بخيار الهجرة إلى فلسطين⁴ "أرض اللبن والعسل"، خصوصا وأن غالبية الجماهير اليهودية ظلت تعيش في البؤس على عكس أقلية محدودة استطاعت تحسين مستوى عيشها. لذلك استطاع الصهيوني "إقناع" تلك الفئة المتضررة بأن الهجرة ستمكنهم

¹ أحسنه مازي، "تأثير الغزو الإمبريالي على تنظيم الحرف بالمغرب في عهد الحماية، 1912-1956"، مجلة آفاق الثقافة والتراث، السنة السادسة عشرة: العدد الحادي والستون، إصدار قسم الدراسات والنشر والعلاقات الثقافية بمركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، الإمارات العربية المتحدة، مارس 2008، ص. 78-79.

² نفسه، ص. 79-80-81.

³ Capitane Nollet, «Les juifs du Maroc et L'Occident», op. cit, p. 7.

⁴ Mohamed Kenbib, « Juifs et Musulmans au Maroc a l'époque du Front Populaire, 1936-1938 », in Hespéris-Tamuda Vol :25, 1987, p. 169.

من "تحقيق أحلامهم وطموحاتهم" التي انتظروها منذ زمن طويل، وهو ما سنفصل القول فيه لاحقا في الفصل المتعلق بالنشاط الصهيوني. واللافت أن فئات مهمة من المجتمع المغربي ببعض المناطق استفادت من هجرة اليهود، حيث تخلصت من منافسة فئة الحرفيين¹، على عكس ما حصل في مناطق أخرى حيث تسببت هذه الهجرة في ترك خصاص مزمن على مستوى خدمات الحرفيين اليهود. وفي هذا الصدد، يقول عمر بوم نقلا عن المدعو لحسن أحد المزارعين المحليين البالغ من العمر قرابة الثمانين سنة: "عندما بدأ اليهود في مغادرة الجنوب، منت تسير لمدة أسبوع دون أن تجد في طريقك حداد قادرا على شحذ منجلك، أو إصلاح أدواتك الزراعية. وعندما غادروا البلاد، كنت تجد قرى كثيرة لا تتوفر ولو على حربي واحد، مما يضطر معه أهل تلك القرى إلى الانتظار لمدة أسابيع حتى يصل إليهم بعض الحرفيين الغرباء، وهذا إن لم تطل مدة انتظارهم عدة أشهر، للتمكن من إصلاح أدواتهم. وقد تطلب الأمر سنوات عديدة من المسلمين لسد الفراغ الذي تركه اليهود إثر التحاقهم بإخوانهم في فلسطين".²

¹ محمد حاتمي، الجماعات اليهودية المغربية، والخيار الصعب بين نداء الصهيونية ورهان المغرب المستقل...، مرجع سابق، ص. 334.

² عمر بوم، يهود المغرب وحديث الذاكرة...، مرجع سابق، ص. 179.

2. النشاط التجاري ومهام الوساطة

تحدثنا آنفاً عن العوامل التي تحكم في تعاظم أفراد الجماعة اليهودية لقطاع الحرف دون الاهتمام كثيراً بالفلاحة، وهي نفس العوامل التي تفسر تعاظمهم للنشاط التجاري بكل أنواعه، خصوصاً وأن الموروث الديني والثقافي اليهودي يحث الإسرائيليين على تحصيل الثروة مهما كان حجمها، عوض انتظار الحصول على الصدقات للتغلب على إكراهات العيش.

علاوةً على هذا، يعتبر تحصيل الثروة في نظر التراث اليهودي شكلاً من أشكال العبادة، كما أنه يُستحسن في عرف الجماعة أن يموت اليهودي غنيا عوض الموت فقيراً، بل وإن تحقق ذلك يعد علامة من علامات تحصيل البركة، خصوصاً وأن تحقيق الربح بفضل المعاملات مع الأغيار بالربا لا يعد عملاً لا أخلاقياً¹، خلافاً لما يجري به الأمر مع المسلمين الذين كانوا يبتعدون عن مزاوله المعاملات التجارية، لما تتضمنه من أساليب ربوية كانوا ينفرون منها، الأمر الذي مكن اليهود من الاستفادة منها².

كما أن العهد القديم، يعتبر الجري وراء الثروة آية من آيات الرضى الرباني³. هذه الذهنية، وهذه القيم المستبطنة والمؤطرة بالمقدس، وإكراهات الواقع، هي التي حثت اليهود على العمل الدؤوب والمستمر والمنظم بشكل ساعدهم على مراكمة الخبرات في هذا القطاع منذ أزمنة طويلة. كما أن تعدد علاقاتهم بإخوانهم في الدين بالمناطق الأخرى، وبالبلدان الأجنبية، هي التي أهلت عناصر من نخبهم للوصول إلى مراتب عليا في هذا النشاط، ونخص بذلك يهود البلاط أو تجار السلطان الذين برعوا في لعب دور الوساطة التجارية بين المغرب وباقي البلدان الأجنبية، خصوصاً وأن معظم هؤلاء كانوا من أصول إيبيرية من فئة المرانس، الذين هاجروا إلى المغرب في نهاية القرن 16 وكانوا يتقنون اللغتين الإسبانية والبرتغالية، وهو ما مكنهم من التعامل بسهولة مع التجار الأوربيين⁴.

وتجدر الإشارة إلى أن هذه الفئة من التجار اليهود قد بلغت ذروتها في عهد الأسرة العلوية، لدرجة أن عدد اليهود الذين كانوا في خدمة سلاطين هذه الأسرة كان يفوق ما حصل في أي مرحلة سابقة من التاريخ المغربي⁵. هذه العلاقة المتميزة بين سلاطين الدولة العلوية ورعاياهم اليهود في تدبير التجارة الخارجية، لا يجد تفسيره فقط في

¹J. Attali, *les Juifs, le Monde et l'argent...* op. cit, p. 120-103.

²سعاد الكتبية، "البنية الاقتصادية لطوائف يهود المغرب الأقصى في القرون الوسطى"، الدراسات الشرقية، واقع وآفاق، سلسلة ندوات ومناظرات، رقم 111، إنجاز الجمعية المغربية للدراسات الشرقية، تنسيق أحمد شحلان- إدريس اعبيزة، منشورات كلية الآداب بالرباط، الطبعة الأولى 2004، ص117.

³ماكس فيبر، الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية، نصوص مختارة، إعداد وترجمة محمد سيلا وعبد السلام بنعيد العالي، سلسلة دفاتر فلسفية، الصحراء للطباعة والنشر، الطبعة الأولى 1996، ص. 23.

⁴محمد جادور، مؤسسة المخزن في تاريخ المغرب، مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية: منشورات عكاظ، 2011، ص. 326.

⁵دانييل شروتر، يهودي السلطان، المغرب وعالم اليهود السفرد ...، مرجع سابق، ص. 32.

المبررات السياسية والإيديولوجية¹، بل أيضا في طبيعة العلاقة التي كانت بين الطرفين بمنطقة تافيلالت التي تنحدر منها سلالة العلويين، والتي تميزت بالتعايش بين المسلمين واليهود، وكان من مظاهره اتخاذ العلويين من اليهود مستشارين وخبراء ماليين وأحيانا ممولين²، خصوصا وأن خبراتهم العالية، واعتمادهم على النظام الربوي قد مكنتهم من بلوغ الأهداف المرسومة بكل عناية³. لذلك كان المخزن حريصا على حماية كبرائهم من أجل استثمار علاقاتهم المتعددة⁴ لتنمية تجارته، وتمكينه من ضمان احتياجاته من المواد المحظورة بواسطة التهريب⁵. لكن الجدير بالذكر أنه رغم اعتماد المخزن على خدمات هذه الفئة طيلة زمن مديد، فقد بقيت أنشطتهم ذات طابع فردي مرتبطة أساسا بشخص السلطان، ولم يرقوا إلى درجة تكوين طبقة تجارية متميزة، عكس نظرائهم في هولندا مثلا، حيث استطاعوا تكوين بورجوازية قوية استفادت من حفاوة الاستقبال، ونقص اليهود المطرودين من الأندلس، ومن حرية إقامة المعابد، وهو ما ينم عن تباين في الوسط الاقتصادي والسياسي الذي عملوا فيه⁶، في فضاء ساهمت فيه الأخلاق البروتستانتية التي أعطت دفعة قوية لتطور النظام الرأسمالي⁷.

الخبرات التي ميزت التجار اليهود على المستويين الدولي والوطني خلال مراحل تاريخية طويلة، كان لها حضور على المستوى المحلي بمكناس في العلاقة مع الزبناء المسلمين والأوربيين خلال فترة الحماية، حيث استمروا في تأدية مهام الوساطة التي اشتهروا بها من قبل، مستفيدين من الموقع الإستراتيجي للمدينة المتحكم في ممر تازة نحو الجزائر، والمراقب للقنابل الأمازيغية بالأطلس المتوسط، ناهيك عن سهل سايس الغني بالموارد الطبيعية، وهي عوامل دفعت بسلطات الحماية إلى جعل مكناس موقعا استيطانيا من الدرجة الأولى، حيث تواجدت جالية أوربية عسكرية ومدنية كبيرة وذات حاجات متعددة، مما خلق لليهود فضاءً تجارياً مهماً، مكنهم من الاستمرار في لعب أدوار الوساطة

¹ "كان لأهمية حضور يهود البلاط في حضرة السلاطين الشرفاء، ارتباط وثيق بعلاقة الدولة الإسلامية بالقوى المسيحية... فرغم أن الآخر كان يمثل دار الكفر وواجب "الجهاد" ضده من مهام السلطان، فقد أقر فقهاء المسلمين بضرورة المحافظة على العلاقات التجارية مع الدول المسيحية... هذا التناقض القائم من جهة أولى على ضرورة القيام ب"الجهاد"، ومن جهة ثانية على ضرورة الحفاظ على العلاقات السلمية والتجارية، كثيرا ما كان في الحاجة إلى التوفيق وإلى إيجاد تبريرات شرعية. وقد شكلت معضلة القتال ضد القوى المسيحية، والمتاجرة معها في وقت واحد، العامل الذي ضمن مركزية يهود البلاط في الدولة الشريفة... وباستخدام اليهود تجارا للسلاطين تفادى حكام المسلمين الاتصال المباشر مع المسيحيين، الذي كان من شأنه أن يهدد الدعائم الإيديولوجية للدولة ويعرضها للشبهات... وبما أن اليهود يعتبرون مسبقا في عداد الكافرين، فإن الدولة لم تكن لتتهم بفساد عقيدتهم وبضلالة أرواحهم. فضلا عن ذلك كان السلاطين أقل رغبة في الاعتماد على المسلمين، لوجود احتمالات بإمكانية استعمالهم للأرباح المستمدة من التجارة، أو للأسلحة التي يحصلون عليها من الأوربيين لإنشاء قاعدة مستقلة للسلطة، قد تؤدي إلى تقويض سلطة الأسرة الحاكمة، في حين وضعية اليهود لم تكن لتسمح لهم بأن يشكلوا تهديدا من هذا القبيل، بسبب افتقارهم إلى القاعدة السياسية للسلطة. ونتيجة لهذا كان لدى كل جيل جديد من الحكام يهود بارزون مرتبطون بالقصر". دانييل شروتر، **يهودي السلطان، المغرب وعالم اليهود السفرد** مرجع سابق، ص. 50-52.

² R. Assaraf, **Eléments...**, op. cit, p. 33.

³ محمد جادور، **مؤسسة المخزن في تاريخ المغرب...**، مرجع سابق، ص. 364.

⁴ J. Attali, op. cit. p. 269.

⁵ محمد جادور، **مؤسسة المخزن في تاريخ المغرب...**، مرجع سابق، ص. 362.

⁶ نفسه، ص. 364.

⁷ ماكس فيبر، **الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية...**، مرجع سابق، ص. 23.

بامتياز، بعدما توافرت لهم فرص جديدة عبروا من خلالها عن حنكتهم وحسهم التجاري العالي في تموين الوافدين الجدد¹.

صورة رقم 19: تاجر يهودي يبيع المواد الغذائية بالتقسيط



Source : J. Tolédano, *Portrait...* op. cit, p. 115.

وفي هذا الإطار، يحكي دافيد كوهن في مذكراته التي تناول فيها جزءا من حياته بمكناس خلال فترة الحماية قائلا: "لقد كان أبي تاجرا نشيطا، وقد أدرك مبكرا منذ دخول الفرنسيين إلى مكناس سنة 1911 بأن المستقبل إلى جانبهم، لذلك يجب المتاجرة معهم، وذلك ما كان يعبر عنه المثل الشعبي الذي كان متداولاً بالمدينة: "ليما خدم مع النصارى مشات أيامو خسارة"².

Celui qui n'a pas travaillé avec les européens, sa vie a été gaspillée

بالإضافة إلى ذلك استمروا في العلاقات التبادلية مع الأرياف المحيطة بمكناس، باعتبارها سوقا لتصريف المنتجات الحرفية والفلاحية، حيث دأب التجار اليهود على نسج علاقات اقتصادية مهمة مع المسلمين، لدرجة كان هناك مثل يتردد "السوق بلا يهود بحال القاضي بلا شهود"³، لذلك كان حوالي 60 بالمائة من أرباب الأسر

¹J. Tolédano, *Le temps du Mellah...*, op. cit. p. 139.

²D. Cohen, op. cit, p. 32.

³M. Kenbib, «Les Relation entre Musulmans et Juifs au Maroc 1859-1945» op. cit, p. 86.

اليهودية يعملون في قطاع التجارة بالجملة والتفصيل¹، مما جعلهم في قمة الهرم الاجتماعي قبل فئة الحرفيين²، بالنظر للفرص التي يتيحها قطاع التجارة بشكل عام خارج فترات انتشار الكساد والجفاف. حنكة التجار اليهود هي التي مكنتهم من الاتجار في مجموعة من المواد على مستوى مدينة مكناس ومحيطها، بل واستطاعوا التحكم أحياناً في تداول بعض السلع بعينها، كما هو الشأن بالنسبة لتجارة الحبوب، ذلك أنه من بين 20 تاجراً الذين كانوا متخصصين في تجارة هذه المادة بالمدينة سنة 1948، كان ثمة 19 تاجراً يهودياً، بينهم العائلتان الأكثر ثراءً، وهما آل بيرغو وآل مريجن³.

وقد بلغ عددهم سنة 1955 عشرين تاجراً من بين 36 في المجموع، وهم: عطار راحامين وشريكه موريسن، وأزولوس مردوشي وبنعاروش ماكس، وبيرديغو أبرهام وشريكه جاكوب، وبيرديغو جوزيف، وكوهن أهرون، وديان أمور، والمالح جاك، وإيلي مريجن، ومريجن جوزيف، وموسى الصباغ، والصباغ نسيم، وبنسوسان نسيم، ومريجن دافيد، وطوليدانو حاييم، وجوزيف طوليدانو، وفالديراما رافيل⁴.

يعود ازدهار هذه التجارة وتخصص اليهود فيها إلى أن مدينة مكناس كانت تقع بمنطقة غنية بالحبوب، الأمر الذي مكّنهم عبر عملية السلف بالفائدة من الحصول على ضمان المنتوجات الفلاحية عندما كانوا يتعاقدون مع سكان البادية، فيحصلون بذلك في الغالب على الحبوب لبيعها، وقد بدؤوا يحصلون تدريجياً على مكانة مهمة في تجارة هذه المادة الحيوية التي تخصصوا فيها منذ زمن طويل، أيضاً، لأسباب سياسية ودينية⁵. من المظاهر التي توضح الحضور القوي لليهود في تجارة هذه السلعة، نورد الأزمة الفلاحية التي شهدتها إقليم مكناس سنة 1937، والتي تراجعت بموجبها المحاصيل الزراعية، مما أدى إلى ندرة المواد الغذائية التي ارتفع ثمنها لدرجة أن "رحبة الزرع" ظلت فارغة لمدة أسابيع، لأن التجار اليهود الذين كانوا يسيطرون على هذه المادة، اغتنموا الفرصة لحزنها حتى يرتفع ثمنها ويحققوا بذلك أرباحاً أكثر⁶. وما زاد في حدة الأزمة سنتها أن التجار اليهود كانوا يسيطرون على المكتب الذي كان يسهر على تنظيم هذه التجارة، في الوقت الذي كان من المفروض أن تتحكم فيه إدارة الحماية منعا لأي احتكار، ومن دون وساطة السماسرة. لكن السلطات الإقليمية بالمدينة، كانت تنهج سياسة ليبرالية في تنظيم سوق الحبوب،

¹R. Assaraf, *Eléments...*, op.cit, p. 268.

²D. Bensimon-Donath, *Evolution du Judaïsme Marocain...*, op. cit, p. 19.

³R. Assaraf, *Eléments...*, op. cit, p. 268.

⁴Annuaire Marocain..., op. cit, p. 990-991.

⁵يرى دانييل شروتر أن "ضرورات السياسة الخارجية للدولة المغربية، كانت تفرض عليها أحيانا السماح بتصدير مادة الحبوب" التي عادة ما كان يمنع تصديرها، خاصة وأنها تمثل أحد المنتوجات الخاضعة لضريبة العشر أو "لعشور"، المنصوص عليها في الإسلام. ومن ثم كثيراً ما كان يستدعي تصديرها استفتاء العلماء، للحصول منهم على الموافقة، وعادة ما تكون هناك حاجة للتبرير، بأن الأمر يتعلق بتجارة مسخرة لغرض أساسي، ألا وهو الدفاع عن الأراضي الإسلامية. وربما كانت الشرعية المشكوك فيها لتصدير الحبوب سبباً في كثير من الأحيان، في تخصيص التجار اليهود بتعهد تلك التجارة". دانييل شروتر، *يهودي السلطان...*، مرجع سابق، ص. 269.

⁶بوشتي بوعسرية، *أحداث بوفكران...*، مرجع سابق، ص. 60.

الأمر الذي خدم مصالح التجار اليهود وباقي المستثمرين الفرنسيين والمسلمين في هذا القطاع¹. هذا، وتجدر الإشارة إلى أن الأزمة التي كانت تضرب تجارة الحبوب من حين لآخر، لم يكن التجار اليهود هم وحدهم المتسببون فيها بسبب الاحتكار، بل إن الأمر يرجع أيضا إلى أن إدارة الحماية اعتمدت سياسة التخطيط والتوجيه والتحكم في هذه المادة الأساسية، حسب إكراهات كل مرحلة (ظروف الحربين العالميتين وموجات الجفاف)، وحسب حاجيات الأسواق، الأمر الذي جعل من التجار اليهود مجرد مشاركين في إحداث الأزمة، وليسوا السبب الوحيد فيها².

ازدهار تجارة الحبوب بمدينة مكناس وناحيتها، واستفادة التجار اليهود من ذلك في تكوين ثروات مهمة، يعود فضلا عن الاحتكار، إلى استمرار اعتماد النظام الغذائي للمكناسيين أساسا على الخبز والعجائن كموايد أساسية في نظامهم الغذائي، ذلك أن العادات الغذائية المرتبطة باستهلاك الخضر لم تكن قد ترسخت بعد لدى الساكنة، خصوصا وأن نسبة عريضة منها كانت تتشكل من الفقراء الذين كانوا يعتمدون في غذائهم أساسا على الشاي والخبز وباقي المأكولات المشتقة من الدقيق³، كما استفادوا أيضا من تموين الحاميات العسكرية الفرنسية بهذه المادة الأساسية⁴.

لا بد من التذكير أيضا أنغنى محيط مكناس بالمنتجات الفلاحية قد سمح للتجار اليهود بممارسة التجارة في الخضر والزيتون والعنب والفواكه، وباقي المنتجات الزراعية التي كان يتم إنتاجها بالمحيط الزراعي للمدينة⁵، ويتم بيعها داخل دكاكين صغيرة بالملاح القديم⁶. تعاطي هؤلاء للتجارة في هذه المواد بكثافة، كان في جزء منه ناتجا عن عجز الفلاحين المسلمين عن دفع ديونهم لدائنيهم اليهود، مما كان يجبرهم على التنازل عن منتجاتهم وحتى أراضيهم وحقوقهم في الماء لفائدة اليهود مقابل تلك القروض، خصوصا وأن الأبنك اقتصرت في تقديم القروض الفلاحية للمعمرين فقط، أضف إلى ذلك عجز الجمعيات الأهلية للتعاون، التي أسستها الإقامة العامة عن التخفيف من آثار الاستيطان الفلاحي، لذا لم يكن أمام الفلاحين من مخرج سوى الاقتراض من التجار اليهود⁷.

دينامية النشاط التجاري ليهود مكناس كانت من الكثافة، أن امتدت لتغطي عددا كبيرا من السلع المتنوعة، ذلك أن تجارة الشاي والصابون والزيت والسكر كانت أيضا شبه محتكرة من طرفهم على مستوى المدينة⁸. وفيما يتعلق بالمادة الأخيرة، نشير إلى أن التجار اليهود كانوا يتحكمون في تجارتها بالجملة على مستوى المدينة بعد تسلمها

¹بوشنتي بوعسرية، أحداث بوفكران...، مرجع سابق، ص. 65-66.

²حسنه مازي، مجتمع مكناس...، مرجع سابق، ص. 368.

³نفسه، ص. 367.

⁴ D. Cohen, op. cit, p. 33.

⁵ J. Tolédano, *Le temps du Mellah...*, op. cit, p. 371.

⁶ Ibid, p. 370.

⁷ محمد كنيبي، يهود المغرب، 1912-1948...، مرجع سابق، ص. 127.

⁸ J. Tolédano, *Le temps du Mellah...*, op. cit, p. 238.

من الدور التجارية الأجنبية، وقد بلغ عدد هم سنة 1921، 69 تاجرا، بينما غاب عنها المسلمون، إلا ما كان يرتبط منها بالتقسيط¹. وقد أدى احتكار التجار اليهود التجارة في هذه المادة بالجملة، إلى إكسابهم أرباحاً كبيرة، خصوصا وأن المستهلكين لم يكن بوسعهم الاستغناء عنها رغم ارتفاع ثمنها وندرتها خلال فترة الحرب العالمية الأولى². يمكن القول، أيضاً، إن تمكن اليهود من تحقيق أرباح مهمة يعود في جانب منه، إلى تمدد نشاطهم التجاري إلى مدن أخرى كانوا يتوفرون فيها على عدة فروع، كما هو الشأن بالنسبة لعائلة الكوهن بمدينة وجدة³.

صورة رقم 20: نموذج إحصاء للمهن المزاولة بمدينة مكناس

Professions de Meknès			
ACCOUCHEMENTS (Sages-Femmes) Carra, (Mme. épouse Arrey), rue Lafayette, immeuble Mazilli. Tél. 223-25. (Clinique d'accouchements). Chabailier, (Mme. née Boscq Philippine), 21, rue Lafayette, tél. 203-81. Lalla Chérifa, (Mme), 1, rue Driba, tél. 302-71. (Sage-femme musulmane). Lopez José, épouse Cohen, 39, rue de la Marne, tél. 204-77. Odde Andrée Germaine, (Mme. née Lamoureux), 1, rue de Menton, tél. 204-85. Peuch, (épouse Fischer Marie-Madeleine), Meknès-Palaisance. Slima bent Larbi, (Mme), derb Dekaki, 8, tél. 300-75. (Médecine). AFFICHAGE Publi-Marc, 4, rue de Bordeaux. Tél. 201-82. AGENCE DE PUBLICITE Agence Marocaine de Publicité et d'information, 4, rue de Bordeaux, tél. 201-82. AGENCES DE VOYAGES Afemac, 45, avenue Mézergues, tél. 223-88. Agence Cook-Wagons-Lits, 1, rue de Bordeaux, imm. Sifiché, tél. 315-96. Maroc-Voyages, av. Lyautey, Tél. 203-60. Voyages Alla, 5, rue de Nice, Tél. 207-25. AGENTS D'AFFAIRES (Agences Immobilières) Agence Franco-Marocaine, (A. Coulon et de Saint-Pas), avenue Lyautey, 200, tél. 215-18. Agence Immobilière Afemac, avenue Mézergues, 45, tél. 223-88.	Agence Immobilière, (Raguenet et Saulle), 24, avenue Mézergues, tél. 202-54. Agence Meknassie Immobilière, (A. Arthur), 24, boulevard de Paris, tél. 208-61. Andrieu Christian, place Henrys, tél. 217-62 et 217-63. Baddou Mekki, rue Dar Snen, 5, tél. 304-83. Cabinet Immobilier Boyer Joseph, rue de Gascogne, 6, tél. 228-58. Cabinet Immobilier France-Afrique, (Sarfati Elie), rue de Lyon, 7, tél. 219-64. Cabinet Immobilier, R. Denille, avenue Lyautey, 67, tél. 219-17. Cabinet Immobilier Feig Henri, avenue Lyautey, 93, tél. 207-37. Cabinet Immobilier (Mme veuve Masson), 6, avenue Mézergues, Tél. 229-54. Centrale Immobilière, 1, rue Mézergues, Tél. 215-87. Claudel Paul, square des Oliviers et rue Pasteur, (Immobilier) (Transactions Immobilières). Melch Gabriel, rue de Metz, 18, tél. 204-97, 13 P. 32. Immobilia, (Pollard E.), rue Pasteur, 1, tél. 204-82. La Cité Immobilière, (Thiais Henri), rue de Marseille, 18, tél. 206-38. L'air, 39, rue de la Marne, Tél. 210-15. L'Immobilier Chérifienne, (J. Gastang, directeur), avenue Lyautey, 51, tél. 223-25. Inter Foncier, (Benabou Maurice et Albert), avenue de la République, 35, imm. Moulis, tél. 208-01. La Rurale Chérifienne, (Thy Marie-François), 19, rue Descartes, tél. 223-06. Medioni, avenue de la République, 39, tél. 208-23. Mellani Marcel, rue de Rennes, 2, tél. 212-01. Meknès Foncier, (Louis Moreau), rue de Lyon, 11, tél. 203-64. Meknès-Immobilier, rue Rouamzine, tél. 304-66. Mergui, 4, rue de Sète, Tél. 209-34. Nicol Marcel, avenue Mézergues, imm. Sifiché, tél. 212-34. Office Marocain de Courtage (Mazari S. et J.), 4, rue de Sète, tél. 209-58. Transactions immobilières et agricoles. Saget Henri, avenue de la République, 13, tél. 223-72. Branche agricole.	Soudry, rue de Rouen, tél. 209-43. Transactions Immobilières (cabinet Flamant), 49, avenue de la République, tél. 222-25. Zerhoun Foncier, (S.A.R.L.), rue de Marseille, 16, tél. 227-36. AGENTS DE FABRIQUES Ronda Jean, représentations Industrielles, villa « Roger », Meknès Palaisance, tél. 1-52. Talédane Meyer, rue des Ecoles, Nouveau Mellah, tél. 304-07. Talédane Léon, 15, rue Mangin, tél. 215-55. AGRICULTURE Boix Michel, 29, rue Pierre Curie, tél. 228-18 et 228-19. Céréal, grains sélectionnés, légumineuses, R. C. Fsa, 79-76, C.P. Rabat 15-215. Cabinet Immobilier Saget Henri, 13, avenue de la République, Tél. 223-72. Branche agricole. Compagnie Continentale du Maroc, avenue de la Gare et rue Pierre Semard, tél. 200-53. Coopérative Agricole de la Région de Meknès pour la Vente de Fruits et Légumes, rue Lavoisier, tél. 222-24. Coopérative Indigène de blé, rue Lavoisier, tél. 222-24. Comptoir Agricole du Maroc Central, (Coopérative de vente et d'achat), route de Fes, tél. 224-89. Jacquet Georges, 20, rue Alexandre 1er, tél. 219-40. Société des Cereales Coopératives de la Région de Meknès, tél. 221-94, C.C.P. Rabat 54-81. Siège Social : route de Fes. Société de Travaux Agricoles et de Restauration des Sois (S. T. A. R. S.), Toulal panorama, Tél. 301-14. Société Industrielle Agricole du Maroc, (anc. Elia Goble Frères, S.A.M. Société Anonyme), Ain-Silou, Tél. 210-81. Société Industrielle et Commerciale du Nord-Africain d'Engrais et Produits Agricoles, rue de Gascogne, 5, tél. 210-81. Société Marocaine d'Industries Agricoles, route de Fes, 11, tél. 222-93.	AGRUMES (Producteurs) Beghin Ferdinand, Ain-Taoudate, Pl. Meknès, domaine Merzouka. Tél. 1-31. A.I. Fourchon Jean, Oued Jedida, tél. 07. France Victor, domaine Vignoble Adolphe, tél. 304-53. (Viticulture Meknès). Gommelet Joseph, «Le Mas», Meknès Palaisance, route de Fes, tél. 1-07. Henry Antoine, rue Voltaire, par Meknès. Jardin René, avenue de la République, 21, tél. 202-47. Labat Paul, rue du Mail, 12. Schmitt Marcel, propriété « Toute Petite », (Sebaa Aloun par Meknès). Société d'Ain Telo, (S. A. R. L.), (M. Réveillac Guy), plantations à Sidi Slimane. Société Marocaine de Produits Sélectionnés, 60, rue Branly, tél. 216-67. Marque Proselect. AIR LIQUIDE ET COMPRIME Société de l'Air Liquide, rue Branly, 56, tél. 215-51. ALIMENTATION DU BETAIL Ettimar (S.A.), 30, rue Denis Papin, tél. 205-96. ALIMENTATION EN GROS Etablissements Chapelain et Cie, 17, place du Marché, Tél. 202-02 et rue de la Corne, Tél. 202-25. Garcia Fernand, 21, rue de Verdun, tél. 206-95. Garnier Louis, rue de l'Exil, 6, tél. 224-32. Hausen Ed., Etablissements Royal, 30, rue Jules Ferry, tél. 214-85. Hussen Albert, avenue Lyautey, 10, rue de Fes, tél. 210-34. Renas Henri, 15, rue de Sète, (Import-Export), tél. 223-44. Société Nouvelle d'Alimentation, 14 bis, rue du Commerce, Imbureau, tél. 214-01. Suif Salomon, rue Sekkake, tél. 308-00. Toulal Anoum, 6, rue de Toulon, tél. 215-80.

Source : ANR, Annuaire Marocain...op. cit, p. 984.

1حسنة مازي, مجتمع مكناس, المدينة القديمة على عهد الحماية..., مرجع سابق, ص. 364.

2"شكل تزويد مدينة مكناس بالسكر نقطة اصطدام في علاقة إدارة الحماية بالمكناسيين, لما لهذه المادة من أهمية في تغذية السكان, حيث شكل الشاي المحلى بالسكر مع الخبز الغذاء الأساسي لجل الفقراء بالمدينة ومحيطها. وقد عرف تموين المدينة بهذه المادة بعض الأزمات وخاصة خلال فترة الحرب العالمية الأولى. وقد كان على سلطات الحماية توفير هذه المادة... لإيهام المغاربة بقدرتها على التمويل وعدم تأثرها بالحرب الدائرة رحاها بأوروبا... وقد بلغت الحاجيات الشهرية للمدينة من هذه المادة 840 قنطارا, وحاجيات الأحواز 560 قنطارا, وبما أن المغاربة تحملوا ارتفاع ثمن السكر, فإن إدارة الحماية عملت على عقلنة استهلاكه. فابتداء من 15 أبريل 1918 تحدت بعض المواد التي لا يمكن للمستهلك أن يشتري منها أكثر من الكمية المحددة إلا بترخيص من رئيس المصالح البلدية, ويأتي السكر على رأس القائمة وحدد في قالب واحد... كما حددت إدارة الحماية استهلاك بعض المواد التي تعتمد في تهيئتها على السكر, حيث منعت الحلويات والسكريت بالمقاهي والمنشآت المشابهة لها, كما حظرت إعداد أو بيع هذه المنتجات كل يوم ثلاثاء وأربعاء كم الأسبوع. ". حسنة مازي, مجتمع مكناس, المدينة القديمة على عهد الحماية..., مرجع سابق, ص. ص. 362-363-363.

³D. Cohen, Passion Marocaine..., op. cit, p. 37.

واضح أن أوجه النشاط التجاري التي زاوها يهود مكناس كانت متعددة، ولم تقتصر على المواد التي سبق وأشرنا إليها، طبقا لما جاء في الإحصاء المهني الذي هم مدينة مكناس وناحياتها سنة 1955، والذي أنجزته الإدارة الفرنسية، مضمنة إياه بعض أسماء من تعاطوا لها، ونقط البيع الخاصة بها، بالمدينتين القديمة والأوروبية:

الحرفة	صاحبها	نقط البيع
الأجواخ والصوف	رافاييل طوليدانو	باب الملاح
تجارة العقاقير	حاييم بنسيمون وابنه سالومون	شارع اليوطي
الأحذية	عمار صامويل	حي السكاكين
	بوسيدان جوزيف	شارع جان دارك
	الكوهن موسى والصباغ حاييم	حي الروامزين
الأقمصة والصوف	إلي بنعاروش	حي الحاخام
	رافاييل بيرديغو	الملاح الجديد
الخمر واللحوم	بنشطريط ميرسيديس	حي مارسيليا
	دان اسحاق	شارع جون جويس
الجلود بالجملة	أبيكاسورا ومامان اسحاق	حي الروامزين
	ابنير بيرديغور	الملاح القديم
	دراي اسحاق	حي ديريبيا
الخرداوات	—	حي فيردون
قطاع غيار السيارات	البير طوليدانو	حي مرموز
	موسى طوليدانو	حي سان لويس
البازار	حليوة وبيرديغو ومحفوظة البير	حي مرموز
	بيرديغوبنزارا الغرابلي	حي السكاكين
المواشي والخيول	بوازيس جوزيف	حي ديكارت
	بوازيس سيمون	حي بيير سيمارد
الخشب والفحم	بينافيد جوزيف	حي الكوماندارشاليرو
المنسوجات	العطار بنحاس	حي الملاح
المواد الغذائية بالجملة	طوليدانو عمران	حي تولون
المواد الغذائية بالتفصيل	—	نقط البيع الكثيرة المنتشرة في المدينتين: القديمة والأوروبية
الأدوية	الكوهن جودا	صيدلية لكونكور، شارع الملاح، المدينة القديمة
	بويغ جوزيف	حي كاسكون

العقار	إيلي السرفاتي	حي ليون
	بنعبود موريس	شارع الجمهورية
الشاي بالجملة	طوليدانو مخلوف	حي السكاكين

Source : Annuaire Marocain...op. cit, p.984-939--1003-.

ينبغي القول أن تعدد الأنشطة التجارية ليهود مكناس بهذه الكثافة خلال فترة الحماية، لم يكن دليلاً على تحسن أحوال جميع من تعاطوا لهذا المجال، ذلك أن قدوم الفرنسيين إلى البلاد، وإن حقق لهم بعض المكاسب المرتبطة بوضعيتهم القانونية، من قبيل سقوط قانون الذمة، وحرية الحركة في المجال بشكل أفضل من السابق، فضلاً عن تمكينهم من بعض الخدمات الاجتماعية في مجالات الصحة والتعليم والسكن، فإنه ألحق، بالمقابل، أثراً على صغار التجار الذين تضرروا من المنافسة الشديدة للمستثمرين الفرنسيين في قطاع التجارة، حيث صاروا مثلهم يمارسون المقايضة وضمان المنتوجات الفلاحية بالديون¹، أضف إلى ذلك إحداث هؤلاء لأسواق عصرية كانوا يبيعون فيها نفس ما كان يبيعه المكناسيون، ومن أهمها "Monoprix" الذي افتتح بتاريخ 17 يونيو سنة 1954، وقد شكلت المواد الغذائية ثلث سلعه، والثلثين الآخرين للملابس الداخلية والأواني المنزلية والكهربائية وغيرها. وقد كان هذا المحل يبيع مواده بثمان أقل من 10 إلى 20 بالمائة عن سعر التجار "الأهالي"، كما كانت هناك دار تجارية أخرى منافسة تدعى "Chapelain". وقد أدى اشتداد المنافسة إلى انخفاض هامش الربح، بعدما بدأ الزبناء يفضلون الشراء من تلك المحلات وغيرها، التي كانت تقدم لهم أسعاراً أرخص، الأمر الذي أدى إلى إغلاق بعض المحلات².

تغير أذواق المغاربة، وإقبالهم على المنتوجات العصرية أدى إلى نفس النتيجة، ذلك "أن حنطات بأكملها أصبحت تعاني من هذا التطور السريع في الذوق المرتبط باللباس: لقد بدأ درازو ومزخرفو الحايك من الصوف الرقيق، وغزالو الحرير، وصناع الأحزمة من الخيط الذهبي والبلايغية، يرون زينائهم يتحولون عنهم³". لم تقتصر مشاكل التجار المكناسيين على ما سبق، بل ساهمت أيضاً ظروف الحربين والتقلبات المناخية المتطرفة كالجفاف وتساقط الأمطار والثلوج بكثافة، في حدوث الأزمة وانتشار الكساد بسبب غلاء المعيشة الذي كان يدفع بالمستهلكين إلى تقليص مشترياتهم إلى الحد الأقصى⁴. أمام هذه الظروف سعت إدارة الحماية إلى القيام ببعض التدخلات لتنشيط

¹P. Cohen, *La Presse Juive éditée au Maroc, 1870-1963*, op. cit. p. 91.

²حسنة مازي، مجتمع مكناس، المدينة القديمة على عهد الحماية...، مرجع سابق...ص. 347-348.

³Louis Villème, «L'évolution de la vie citadine au Maroc», Cahier de L'Afrique et L'Asie, Tome I, Paris, 1950, p.p. 65-66.

⁴حسنة مازي، حسنة مازي، مجتمع مكناس، المدينة القديمة على عهد الحماية...، مرجع سابق، ص. 351.

التجارة عبر محاولة الحد من ارتفاع الأسعار¹، حفاظا على السلم الاجتماعي، في وقت تنامي فيه النشاط السياسي للحركة الوطنية بعد الحرب العالمية الثانية.

والواقع أن تضرر التجارة اليهودية بالمدينة قد اقتصر آثارها الحادة على فئة صغار التجار بشكل عام، لأنهم لم يكونوا يملكون رؤوس الأموال الكافية للتغلب على إكراهات المنافسة، وتنشيط تجارتهم في قطاعات ومجالات أخرى. وهي نفس الصعوبات التي عانى منها صغار التجار المسلمين، الذين أدى عجزهم عن "كسر الاحتكار اليهودي"، إلى إضفاء نوع من الصبغة العرقية- الدينية على المنافسة التجارية، وعلى المنازعات بين الطرفين². وفي إطار محاولات الحد من ولاء اليهود للإيديولوجية الصهيونية، انتشرت نداءات أطلقها بعض الوطنيين المغاربة من قبيل ما قام به المدعو أبو خليل، تدعو إلى مقاطعة تجارتهم³. كما تعرضت تجارة اليهود للخطر مجدداً بعد تصدع العلاقة بين المسلمين واليهود عقب الحرب العربية الإسرائيلية الأولى سنة 1948، ذلك أن العديد من الوطنيين جددوا شعار مقاطعة التجار اليهود، وكذا الامتناع عن اقتناء البضائع الأجنبية رغم إدراكهم لصعوبة الاستجابة⁴.

وعلى العكس من ذلك، استطاع تجار الجملة اليهود الحفاظ نسبيا على مواقعهم الهامة في العديد من المواد كالشاي والسكر والشمع والصابون، لدرجة أنه كان بمقدورهم تحويل مستحققاتهم تجاه تجار نصف الجملة والتقسيم المسلمين إلى قروض ربوية لتحقيق المزيد من الأرباح، نظرا لعجزهم المتكرر عن الأداء تجاه مزوديهم. كما تمكنت عناصر من هذه الفئة أيضا، وفي ظروف الحرب العالمية الأولى، من تحقيق أرباح مهمة بفعل المضاربات العقارية، وندرة المواد الأساسية، وتمثيل الشركات الأجنبية، بالإضافة إلى نشاطهم في اقتصاد التهريب نحو المنطقة الإسبانية

¹ "تم خلق لجنة التنسيق من أجل مقاومة غلاء المعيشة سنة 1948. وكانت هذه مركزية ووضعت على رأسها مراقب مدني إلى المدن التي كان النظام البلدي... وقد سهرت الشرطة الاقتصادية على تطبيق قوانين تلك اللجنة. ومنذ غشت 1950 أصبح واجبا على الإدارات البلدية ضرورة الحصول على موافقة اللجنة المركزية للسماح بارتفاع الأسعار بالأسواق. لقد بدأت هذه اللجنة عملها بمدينة مكناس سنة 1948. وللد من تحكم التجار في الأثمان، وخاصة بالمدينة الجديدة، حاولت خلق منافسة فيما بينهم. ففي قطاع الجزارة مثلا كان الجزارون المكناسيون يبيعون اللحم بثمن أقل ب 100 إلى 150 فرنك من الأوروبيين بنفس المدينة، فجلبت اللجنة تاجرا منهم للمدينة الجديدة ليشغل بمحل على أن يستمر في البيع بنفس الثمن لتحديث المنافسة، فيضطر الأوروبيون لتخفيض أثمانهم، وقد حققت هذه التجربة أرباحا مهمة نتيجة كثرة البيع. وقد طبق نفس الشيء = فيما يخص لحم الخنزير والسلم، وامتدت محاولات الحد من الغلاء إلى الخضار والفواكه. كما أقر البيع المتجول في هذا التخصص، وفرض على التجار إظهار المصق الذي يضمن ثمن البيع والشراء. كما استعملت الصحافة لتعريف المستهلكين بأحسن السبل للتبضع. كما استغل مكبر الصوت في السوق للفت الانتباه إلى أقل المحلات التجارية ثمنا، وبذلك نجحت تجربة مكناس في الحد من غلاء المعيشة بفضل تأجيج المنافسة بين التجار. وإذا كانت الإدارة البلدية قد أشادت بنجاح التجربة في الحد من ارتفاع الأسعار، فمن المؤكد أنها كانت لها عواقب على التجار الذين لم يستطيعوا تكييف نمط بيعهم مع مستجدات المرحلة فأفلسوا." نفسه، ص. 353.

² محمد كنيب، **يهود المغرب، 1912-1948...**، مرجع سابق، ص. 136-137.

³ "أورد سببين اعتبرهما كفيين بإقناع القراء بضرورة اعتماد سلاح المقاطعة، الأول هو تخصيص التجار اليهود من دخلهم لنصرة القضايا الصهيونية، والثاني تكتيكي يكمن في محاربة الأعداء بنفس سلاحهم لأن الدعاية الصهيونية في فلسطين دعت إلى وجود مقاطعة اليهود للبضائع العربية." ابو خليل، "سموم الصهيونية بالمغرب"، الشباب المغربي، السنة الأولى، العدد الأول، 20 يونيو 1947، ص. 1 و2. نقلا عن: محمد حاتمي، الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية ورهان المغرب المستقل، مرجع سابق ص. 220.

⁴ "العديد من الشخصيات الوطنية نادى بمقاطعة التجار اليهود والامتناع عن اقتناء البضائع الأجنبية بالرغم من إدراكها لصعوبة تنفيذ التعليمات. وما من شك أنها سعت من خلال هذا النداء إلى تحقيق هدفين، الأول موضوعه السلطات الفرنسية لتنبيهها إلى أن ملف فلسطين حساس وأن المغاربة يجعلون منه مسألة مبدئية، والثاني موضوعه اليهود المغاربة لتحذيرهم من مغبة الانسياق وراء الصهيونية والتعبير عن ابتهاجهم عما تحقق للصهاينة في فلسطين." حاتمي، **الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية ورهان المغرب المستقل...**، مرجع سابق، ص. 240.

وطنجة¹. وقد تمكنوا خلال الحرب العالمية الثانية من استغلال الوجود العسكري الأمريكي بالمغرب، وعقد صفقات مهمة مكنتها من الاغتناء والهيمنة على قطاعات اقتصادية وإستراتيجية مهمة، بشكل أدى إلى تراجع الاهتمام بشؤون إخوانهم في الدين المعوزين الذين ساءت أحوالهم باستمرار، بسبب انخراط الميسورين في عالم الأعمال وعقد الصفقات والمضاربات².

مهام الوساطة في المعاملات التجارية الكبرى لم يقتصر على اليهود، إذ استطاع بعض التجار المسلمين أن يصبحوا بدورهم منافسين للتجار اليهود في المجال التجاري، ليس فقط في بعض السلع التي كانت حكرًا عليهم كالحرير والمنتجات القطنية، بل صاروا يزاوموهم أيضا في عقد الصفقات في الشاي والسكر، لذا لم يعودوا يحتكرون لوحدهم دور الوساطة بين السوق المحلية والميتروبول، أو بين مختلف مناطق المغرب³. أكثر من ذلك، عندما ارتفعت الأسعار خلال فترة الحرب العالمية الثانية، واستشرت ظاهرة الاحتكار وانتشرت المضاربات، استطاع بعض التجار المسلمين الاستفادة من بعض الفرص المتاحة، ومع ذلك انتشرت الدعاية بأن التجار اليهود هم وحدهم المستفيدون من ظروف الحرب، وذلك في صفوف اليهود المتطورين⁴. غير أن دينامية التجار المسلمين في بعض القطاعات التجارية، لم ترق إلى درجة إزاحة اليهود عن الريادة في هذا المجال، بفضل الخبرات التي ميزتهم في هذا القطاع، ذلك أن بعضهم استطاع الاغتناء حتى في ظل ظروف تطبيق قوانين فيشي العنصرية بين سنتي 1941 و1942، بفضل نشاطهم في السوق السوداء، نتيجة الخبرات التي كانت تميزهم في تجارة التهريب، لدرجة إطلاق اسم "حي السوق السوداء" على الحي الجديد الذي قرب مدرسة الرابطة⁵.

لم يقتصر النشاط التجاري لليهود على المدينة، ذلك أن بعض اليهود المكناسين كانوا يزاولون نفس الأنشطة التجارية بمدينة سيدي قاسم المجاورة، والتي كانت نقطة تجارية مهمة باعتبارها نقطة التقاء خطوط السكك الحديدية⁶. كما لم يقتصر النشاط التجاري لليهود على المجال الحضري، إذ استمروا في استغلال كل الفرص المتاحة بالناحية حيث استغلوا تجاراً متجولين وسط القبائل المحيطة بمكناس كما كانوا يفعلون قبل الحماية، مزودين ساكنتها بمنتجات المدينة مثل المنسوجات، والسكر، والشاي، والشمع، والمالحيا، مقابل الحصول على الزبدة، والدواجن، والمواشي، والبيض، والزيت، وشمع العسل، كما كانوا يقومون بتموين الحاميات العسكرية الفرنسية بالناحية بمختلف السلع التي

¹ محمد كنيبي، **يهود المغرب، 1912-1948**، ...، مرجع سابق، ص. 55.

² محمد حاتمي، **الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية وهران المغرب المستقل**، ...، مرجع سابق ص. 126.

³ P. Cohen, *La Presse Juive éditée au Maroc*...1870-1963, op. cit. p. 91.

⁴ محمد كنيبي، **يهود المغرب، 1912-1948**، ...، مرجع سابق، ص. 219.

⁵ J. Tolédano, *Le temps du Mellah*..., op.cit, p. 147-148.

⁶ A. Guigui, op. cit, p. 123.

كانوا في حاجة إليها، وساعدهم على النجاح في مهام الوساطة هذه معرفتهم باللغة الفرنسية وبحاجيات الجنود¹. يمكن الخلوص مما سبق إلى أن الحضور الفرنسي كان له دور مهم في توفير سوق مهمة لبعض التجار اليهود، بحكم أن المدينة كانت مركزا استيطانيا مهما للفرنسيين²، عوضتهم عن بعض الضرر الذي لحق ببعض الأنشطة التجارية بسبب تداخل مجموعة من العوامل يلخصها محمد كنيب فيما يلي: "آثار إملاق الفلاحين، وبناء شبكة طرقية غطت مجموع البلاد، ومد خطوط هاتفية وصلت إلى أقصى المراكز النائية، وتوحيد نظام الأوزان والمقاييس والعملية، وتكاثر تجار المواد الغذائية في صفوف المسلمين³، والانتظام المضطرب في دورية انعقاد الأسواق [...]"، أضف إلى ذلك فك العزلة عن الدواوير، وسهولة تنقل الفلاح نحو المدينة بأمان، وأيضا بفضل توفرهم على معلومات أفضل حول الأسعار، واختفاء مخاطر الصرف بين القطع النقدية النحاسية والفضية، وبين العملات الأجنبية. واقترب اختلال التكامل الاقتصادي بين المسلمين واليهود نتيجة الأسباب المشار إليها أعلاه، بتفكك شامل لشبكات "الزطاطة" و"الصحبة" التي كانت قد نسجت بين المزودين والممولين والباعة المتجولين اليهود من جهة، والمسلمين الذي كانوا يضمنون أمنهم ويفرون لهم المبيت، من جهة أخرى فقد اليهود تبعا لذلك المكانة المتميزة التي كانوا يحتلوها، فيما يتعلق بنشر "الأخبار" السياسية ومختلف الإشاعات بين القبائل⁴.

كما أن خلق إدارة الحماية مجموعة من الأسواق في تراب معظم قبائل مكناس قلص من اعتماد سكان القبائل على التسوق من المدينة، حيث أصبح سكان قبائل كروان وبني مطير يتزودون من الأسواق الحضرية المحلية⁵. مصاعب التجار المتجولين لم تقتصر على ما سبق وأشرنا إليه، بل عانوا أيضا من مجموعة من الإكراهات الجديدة التي كانت نتيجة للتحويلات التي رافقت دخول الفرنسيين إلى المغرب، ومحاولتهم تنظيم هذا القطاع، بالشكل الذي يتوافق مع رؤية إدارة الحماية ومصالحها، وقد أصدرت بلدية المدينة، في هذا الإطار، قرارا أعلنت فيه أن الهدف منه هو تنظيم هذه التجارة، لكن غرضها الأساسي كان هو جمع الضرائب، ويتضح ذلك من خلال مضمون القرار الذي فرض على كل من أراد ممارسة النشاط المذكور الحصول على إذن خاص من طرف رئيس المصالح البلدية، مع الالتزام بدفع مبلغ مالي عن كل نوع تجاري⁶.

¹J. Tolédano, *Le temps du Mellah...*, op. cit, p. 190.

²A. Chouraqui, *L'AIU et la Renaissance ...*, op. cit, p. 237.

³يشير روبرت أصراف إلى أن التجار المسلمين الذين تعاطوا بدورهم لنفس النشاط التجاري، كانوا في بعض الأحيان يوظفون الحس الوطني والتضامن الديني من أجل إقصاء منافسيهم.

⁴-R. Assaraf, *Eléments...*, op. cit, p. 268.

⁵محمد كنيب، *يهود المغرب، 1912-1948...*، مرجع سابق، ص. 57-58.

⁶حسنه مازي، *مجتمع مكناس، المدينة القديمة على عهد الحماية...*، مرجع سابق، ص 358.

⁶ANR, Arrêté Municipal N° 93, Objet: règlement la taxe de stationnement, le colportage et la vente des denrées sur la voie publique, Meknès, Boit N° B 16, 19 Juin 1917.

لم تقتصر نشاطات اليهود على التجارة الداخلية بنوعيتها، بل امتدت أيضا إلى مجال التجارة الخارجية عبر وكالات التصدير والاستيراد، في المواد الأساسية. وهكذا تولى بعضهم مبكرا خلال فترة الثلاثينات حيازة رخص تخول لهم حق تمثيل بعض الدور التجارية الأجنبية بالسوق المغربية، كما كان الشأن بالنسبة لعائلة الكوهن، التي تولى فيها الأب ابراهام الكوهن تمثيل الدار التجارية الإنجليزية المشهورة AETCE ، حيث تكلف على مستوى مكناس والناحية بتوزيع الأثواب والسكر والشاي والزيت والتوابل¹، ثم سار الابن على أثر والده حيث استطاع بفضل خبراته في هذا المجال عقد صفقات مربحة في قطاع استيراد الثوب ابتداء من سنة 1945، بل وتمكن من ربح ثروة كبيرة بفضل احتكاره نصف السوق المغربية سنتها في هذا القطاع، مستغلا فراغ السوق من تلك المادة بسبب ظروف الحرب العالمية الثانية، واشتداد الطلب عليها².

يهود آخرون أيضا من مدينة مكناس استطاعوا اقتحام قطاع التصدير والاستيراد في العديد من السلع الأخرى، بالرغم من منافسة الفرنسيين الشديدة، ونخص بالذكر على سبيل المثال لا الحصر، بنعاروش دافيد، وجوزيف بيرديغو، ومريجن رحامين، وطوليدانو مايير، وطوليدانو ألبير³، وبنعاروش دافيد روني، وبنمارا ابرهام، وابرهام بيرديغو، ومريجن جوزيف، ومريجن بينحاس، وديان عمور، وطوليدانو موسى جاكوب⁴.

بالمجمل، يتضح أن أفراد الجماعة اليهودية بمكناس، قد سعوا في قطاع التجارة بكل أنواعها إلى التكيف مع التطورات والمستجدات التي حدثت بعد قدوم الفرنسيين، محاولين الاستفادة قدر الإمكان من الفرص الجديدة التي تشكلت في إطار الاقتصاد الكولونيالي مستفيدين من تمكن بعضهم من اللغة الفرنسية، سعيا منهم إلى الحفاظ على المكتسبات التي كانوا يتمتعون بها في إطار نظام الوساطة القديم، وتحقيق ما كانوا يصبون إليه، اعتقادا منهم بأن مصيرهم سيكون مشابها لليهود الجزائري الذين صاروا مواطنين فرنسيين بعد حصولهم على الجنسية بشكل جماعي بفضل قانون كريميو. لكن التحولات العامة التي رافقت الوجود الفرنسي بالمغرب بشكل عام، وبمدينة مكناس بشكل خاص، باعتبارها مركزا مهما للمستوطنين الفرنسيين آنذاك، جاءت بغير ما كانوا يتطلعون إليه، إذ "منحت" الأولوية للوافدين الجدد بشكل لم يسمح للغالية منهم باحتلال مواقع مهمة في هذا القطاع، ونقصد بذلك صغار التجار الذين عانوا كغيرهم من المسلمين من ظروف عيش صعبة بسبب المنافسة الشديدة للأوروبيين، الذين تعاطوا بدورهم لنفس الأنشطة التجارية. ولعل حرص أفراد هذه الطبقة الأخيرة، التي ظلت على الهامش، على التحاق أبنائها بالتعليم العصري مهما كانت التحديات - كما سبق وأوضحنا في المحور الخاص بذلك-، يفسر بأن أغلبية جماهير

¹D. Cohen, op.cit, p. 33.

²Ibid, p. 49

³Annuaire Marocain, op. cit. p. 997.

⁴Ibid, p. 1001.

الملاح ظلت تعاني من البؤس، ولم تستطع تحقيق الآمال التي كانت تتطلع إليها بعد توقيع الحماية على المغرب، خصوصا بعدما رفضت سلطات الحماية حصولهم على التجنيس الجماعي كما حدث مع يهود الجزائر، بالرغم من سقوط قانون الذمة¹. ومن ثم لم يكن من سبيل أمامهم من أجل تحقيق الترقى الاجتماعي، وضمان مستقبل عيش لائق لأبنائهم غير الرهان على التعليم العصري، على أمل تمكنهم من شغل بعض الوظائف الجديدة التي ظهرت في ظل الوجود الفرنسي خلال فترة الحماية، داخل الأبنك والشركات الفرنسية التي تضاعف عددها بمكناس، مما سمح بتشكيل نواة طبقة متوسطة يهودية متواضعة².

غير أن قلة منهم هي من استطاعت تطوير مشاريعها وتحقيق ثروات مهمة، في قطاع تجارة الجملة ونصف الجملة والتصدير والاستيراد، لأنها تمكنت بفضل رساميلها وخبراتها وعلاقاتها وطموحها من الصمود أمام منافسة الفرنسيين والمسلمين، بشكل أتاح لها التأقلم بسرعة مع المجتمع الكولونيالي، والاستمرار في تلبية حاجيات السوق المحلية والوطنية، كما كان بإمكانها التعامل مع أكبر الأبنك، وصارت أكثر حرصاً على المبادرة، فشكّلت بذلك طبقة ميسورة متميزة، بالرغم من مرورها ببعض الفترات الصعبة خلال الأزمات الكبرى، التي لم تستثن نظراءهم الفرنسيين والمسلمين.

¹ "إكراهات الذمة سقطت من تلقاء نفسها تدريجيا، وذلك لأن المجتمع لم يعد في حاجة إليها لتقنين وضبط علاقاته بأقلية اليهود. فمنذ بداية الحماية لم تصدر عن أي جهة أو عن أي عالم فتوى أو حكم يشير إلى وضع " الصغار " اليهودي. ويدل عدم تلقي العلماء لنازلة في الموضوع على استئناس العامة بالوضع الجديد لليهود داخل الحاضرة الإسلامية. والحقيقة أنه حل محل الاعتبار الدولي القائم على أسانيد فقهية، اعتبار لا يقل تصغيراً من شأن اليهود مدعم بأسانيد حضارية وأخلاقية تتفق في نعت اليهودي بالمتنرد والرافض للامتثال للضوابط المؤطرة لعلاقات طبيعية وعادية بين أغلبية المسلمين وأقلية اليهود. و نقف في الخطاب السلفي المغربي على إشارات وإحالات توحى باستمرار وجود اعتبارات موروثية عن زمن الذمة، وهي إشارات تجعله خطاباً متذبذباً". محمد حاتمي، **الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية ورهان المغرب المستقل...**، مرجع سابق، ص. 303-304.

² J. Tolédano, *Le temps du Mellah...*, op. cit, p. 194.

الباب الثاني: الجماعة اليهودية بين السياق الوطني وتداعيات الوضع الدولي محليا: دينامية التباعد

سنخصص هذا الباب الثاني، لتتبع وتفسير دينامية التباعد التي مسّت حياة أفراد الجماعة اليهودية بمكناس، وذلك بانتقالهم من نمط عيش تقليدي إلى نمط عيش عصري، نسبياً، وكذلك تتبع وتفسير التباعد الذي حصل، في سياق مرحلة الحماية، بين المكون اليهودي والغالبية المسلمة، خاصة على مستوى الرهانات المختلفة التي صارت لكل منهما. وهي دينامية نتجت عن تراكم وتفاعل جملة من العوامل المحلية والخارجية، الأمر الذي أسس لواقع جديد أفرزته شروط التحديث مع دخول مدرسة الرابطة الإسرائيلية إلى مدينة مكناس، فضلاً عن آثار الحضور الفرنسي منذ 1912.

وتفاعل المجتمع اليهودي مع هذه التحولات، شكّل لديهم نمط تفكير وعيش جديدين، وهي تحولات تحكمت، فيما بعد، في خلق طموحات وآمال جديدة لدى أفراد هذه الجماعة، كما سنتتبع خلال هذا الباب، أثر كل من النشاط الصهيوني وقوانين فيشي على أفراد يهود مكناس، وما أعقب ذلك من انتقال من الإيمان بأطروحة الاندماج إلى بداية الرهان على خيار الهجرة والخضوع لإكراه التهجير. هذه العوامل مجتمعة، أدت، في النهاية، بالمغاربة اليهود بمكناس، إلى وضع وجودي طُبع بالولاء المزدوج: تحدي البقاء وما يفرضه من شروط، أو خيار المغادرة وما يفرضه من تحدّيات.

الفصل الأول: دينامية الجماعة اليهودية

1. تطور المؤسسات التنظيمية: السياق والحصيلة

قبل خضوع المغرب للحماية الفرنسية سنة 1912، وقيام الإدارة الفرنسية بإحداث بعض التعديلات في وظائف واختصاصات المؤسسات التنظيمية للجماعة اليهودية، كانت هذه الأخيرة تتمتع باستقلال ذاتي داخلي في تدبير شؤونها سواء على مستوى القضاء أم على مستوى باقي المؤسسات التي كانت تنظم شؤونها الاجتماعية والدينية الخاصة.

وفيما يخص أمور القضاء، فقد كان يسهر على تدبيرها مجموعة من القضاة "الديانيم" الذين كانوا يشكلون ما سمي بـ"بيت الدين" (دار العدالة أو المحكمة الربية)، الذي كان نادرا ما يجتمع أعضاؤه¹. كان السلطان هو من يركي هؤلاء القضاة بظهير التعيين والتوقيع بعد توافق اليهود حولهم². وقد كان هؤلاء الديانيم، كما هو الحال بالنسبة للمناصب الدينية الأخرى، يتم اختيارهم من الأسر ذات الجاه والأرستقراطية الفكرية اليهودية، ويحدث عادة أن تتوارث نفس الأسر تلك المناصب، وذلك ما يفسر بقاء تلك الوظائف الدينية والقضائية محصورة في أسر بعينها³، كما هو الشأن بالنسبة لعائلي بيرديغو ومعيمران بمدينة مكناس⁴. تمثلت اختصاصات القضاة في البت في قضايا الأحوال الشخصية لليهود كالزواج والطلاق وإثبات القرابة والتبني والوصايا وقسمة التركة والهبات⁵، إضافة إلى البت في النزاعات المدنية المرتبطة بالتجارة والعقار التي يكون فيها طرفا النزاع يهودا⁶، دون أن يتدخل القضاة المسلمون في شؤونهم.

كما كان بإمكان المتنازعين اليهود في إطار القضاء العبري الخاص بهم، أن يحتكموا للقاضي الذي يختارونه، لكن كان يحرم على اليهود اللجوء إلى المحاكم الإسلامية إلا في حالات نادرة، وإلا سيطال من قرر ذلك قرار "الحرم"، وذلك حفاظا وتحصينا لقضائهم العبري⁷. لكن عندما يتعلق الأمر بالمخالفات الجنحية والجنائية التي يرتبط بها أمن

¹ "ينظم سير القضاء "بيت الدين" (دار العدالة) أو المحكمة الربية، حيث يوجد قاض واحد (بيت دين شل بحيد) أو العديد من القضاة، وهم عادة ثلاثة (بيت دين شل شلوش). وتسمى المحكمة الكبرى (بين دين كدول)، وقد تتألف المحكمة من أكثر من ذلك. ويرأس المحكمة قاض يسمى "أب بيت الدين" (شيخ المحكمة)". حاييم الزعفراني، ألف سنة من حياة اليهود بالمغرب...، مرجع سابق، ص. 128.

² "عند توافق اليهود على الديانيم الذي سيكلف بحل خلافاتهم وفق الشريعة الموسوية، كان يقوم السلطان بتزكيته بظهير، وفيما يلي نموذج لأحد الظهائر التي تم بموجبها تعيين أحد القضاة اليهود بمدينة مكناس: "يعلم من هذا الكتاب الكريم، المتلقى بالإجلال والتعظيم، أننا بحول الله وقوته، وبمنه ومنته، ولينا ماسكه الذمي الحزان سلوم بن الحزان شمويل عماد بن الوزيري الفصل بشرعهم بين يهود مكناس، كما كان والده المذكور ولمعرفته، ولكونه من أساقفتهم وأخبارهم، وتوفر شروط ذلك فيه حسبا أخبره حزانو فاس حين سألهم عنه لمآثره في شأنه قليل يهود مكناس ممن لا عبرة بهم عندهم، وأسدلنا عليه أودية الاعتناء والاعتبار، والملاحظة والوقار، وأسقطنا عنه الكلفة المخزنية والعطاء كله إلا الجزية، ونأمر الواقف عليه من العمال ان يشد عضده في تنفيذ ما حكم به من أهل ملتهم بشرعهم. صدر امرنا المعتر بالله في 22 شعبان الأبرك من سنة 1307 هجرية". ابن زيدان، العز والصولة في معالم نظم الدولة...، ص. 140.

³ حاييم الزعفراني، ألف سنة من حياة اليهود بالمغرب...، مرجع سابق، ص. 132.

⁴ يوسف اخليص، القضاء القنصلي، ومسألة السيادة في مغرب ما قبل الحماية...، ص. 104.

⁵ ANR, Note du Moise Nahom sur l'organisation des Communautés Israélites, 28 Mars 1913, Dossier Juifs du Maroc, non classé.

⁶ D. Bensimon-Donath, Evolution du Judaïsme Marocaine..., op. cit, p. 120.

⁷ يوسف اخليص، القضاء القنصلي، ومسألة السيادة في مغرب ما قبل الحماية...، مرجع سابق، ص. 104.

الملاح، على اعتبار أن أمن الملاح من أمن المنطقة وأمن المنطقة من أمن الدولة، فإن القضاء المخزني هو الذي كان يتدخل ليحسم في الأمر¹، علما أن هذا القضاء كانت تشوبه العديد من التجاوزات². وفيما يلي مضمون مراسلة سلطانية تؤكد هذا الأمر مؤرخة في 6 ربيع الثاني عام 1300هـ، جاء فيها:

"خديمنا الأرضي الطالب محمد بركاش، وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله، وبعد فقد بلغنا أن أعيان يهود ملاح فاس العليا اجتمعوا واتفقوا على إحداث أمر بملاحهم مخالف لعاداتهم، وهو نصب حزان وتاجرين من تجارهم في ملاحهم للحكم فيما يعرض بين إخوانهم في الدين من الوقائع، كالسرقة وسائر الدعاوي وعلى إبداهم في رأس كل شهر بآخرين، وصار هؤلاء الحكام يقبضون على من أرادوا من خصوم إخوانهم ويوجهونهم للسجن على يد عاملهم ويسرحونهم منه على يده، وحين لم تجر أهم عادة بنصب من ذكر، وكانوا معاهدين والأمور بينهم وبين المسلمين لها مبنية على قواعد الشرع رددنا قضيتهم هذه لنائب قاضي فاس وأهل الشورى من علمائها، وأمرناهم بالتنازل لها، وإعطائها حقها من النظر والتأمل والبحث، وما اقتضاه الشرع فيها من تسوية ذلك لهم أو منعهم منه وردهم لعاداتهم يطالعون به علمنا الشريف، ويعلمون به عاملهم خالنا القائد العربي ولد أب محمد لينفذه وفق أمرنا الشريف الصادر له بتنفيذه، وأعلمناك لتكون على بال من ذلك إذا وقع فيه الكلام هناك، وتعلم من تجيب به عنه فيه، والسلام".³

أما عندما تكون الخصومة بين اليهود والمسلمين، فإن اختصاص البت في القضية يكون أيضا من اختصاص القضاء المخزني⁴. وتجدر الإشارة إلى أن الديانيم كانوا يمارسون مهنة القضاء بالجمان، ويعيشون فقط من الهبات التي كانت تقدم لهم، أو من عائدات الوضع الاعتباري للحاخام بالقدس الديني. بالمقابل، كان هناك قضاة يمتلكون

¹ نفسه، ص. 101.

² "صلاحيات القاضي المخزني (باشا أو قائد أو من ينوب عنهما من خلفاء أو أشياخ) الجنائية والجنية، غير محدودة وغير خاضعة لمساطر مضبوطة ومحددة في غياب قوانين مكتوبة. فما أن يتلقى الحاكم شكاية ضد شخص ما إلا ويسارع إلى استدعاءه وإجراء محاكمة سريعة له، غالبا ما تنتهي به إلى السجن دون اجتهاد أو التأكد من براءته أو إثبات البينة على الجرم الذي اتهم به. في القضايا المدنية والتجارية تجري كذلك المحاكمات المخزنية بطريقة شفوية ومرجلة، ولا تتداول فيها سوى تقارير "خبراء المعايينة" فقط، ولا توجد محاضر توثق لذلك. وفي هذه القضايا يتم اعتماد أسلوب التحكيم، كما هو الحال في القضايا الجنائية. وهذا ما جعل القضاء المخزني يخدم عن قصد أو دون قصد، المؤامرات التي كانت تحاك ضد العديد من الأشخاص. وأحكام القضاء المخزني تتراوح بين السجن والغرامة أو هما معا. ولا توجد تسعيرات تغريمية محددة ومعلومة ومدونة، فتحدد قيمة الغرامة من اختصاص الحكام، وغالبا ما يحتفظون بها لأنفسهم لمراكمة ثرواتهم. ويحصل أن يعتمد هؤلاء الحكام التحرش بالأعيان والأغنياء في مناطق نفوذهم لتوريطهم في قضايا توظف ضدهم لإدخالهم السجن أو تغريمهم أو ابتزازهم والاستيلاء على جزء من عقاراتهم أو ثرواتهم". نفسه، ص. 75-76.

³ ابن زيدان، العز والصولة في معالم نظم الدولة...، مصدر سابق، ص. 137.

⁴ D. Bensimon-donath, «Relation entre Juifs et Musulmans au Maroc sous le Protectorat Française», in les relation entre Juifs et Musulmans en Afrique du Nord XIX- XX siècles, Actes du colloque international de l'institut d'histoire des pays d'outre-mer, Ed du centre national de la recherche scientifique, Paris 1980, p. 100.

ثروات كبيرة. وإلى جانب القضاة كان هناك "السوفير" الذي يشبه العدول عند المسلمين، وكانت مهمته تحرير العقود، مقابل أجر يتلقاه من الأشخاص الذين كان يقوم بتحرير عقودهم¹.

أما فيما يتعلق بالمؤسسات الطائفية التي كانت تتولى تدبير باقي شؤون الجماعة اليهودية قبل الحماية، فقد تمثلت في النكيد (شيخ اليهود)، والقضاة (الديانيم)، والحاخامات، وبيت الدين، والمعمد (مجلس الجماعة)². ولم يكن هناك نص قانوني يحدد صلاحيات هذه الأطراف واختصاصاتها، لذلك طوروا نظاما للتسيير الذاتي يتلاءم مع خصوصيات المجتمع المغربي³. لقد اقتضت أنشطة هذه "المؤسسات" ومهامها على تدبير الشؤون الدينية والاجتماعية، من دون ممارسة أي وظيفة سياسية، لأن هذا المجال كان محفوظا للمخزن. وقد كان المعمد أعلى هيئة تتولى الإشراف على تدبير أمور الجماعة اليهودية⁴. وهو يضم الحاخامات الكبار، والقضاة، وسبعة أعيان في كل مدينة، ويترأسهم النكيد، الذي لا يمكن له الحصول على هذه الصفة، ولا مباشرة مهامه، إلا بعد موافقة وتزكية من المخزن، وقد كان هذا الأخير يتولى مهمة الوساطة بين الطائفة والسلطات المخزنية، كما كان يشغل ما يشبه مهمة الشرطة داخل الملاح، وهو الذي يتولى الإشراف على تنفيذ العقوبات التي يصدرها المعمد أو المحكمة الحاخامية⁵.

ومن أجل الإحاطة الدقيقة بأشكال التنظيم اليهودية قبل الحماية نورد ما أشار إليه محمد حاتمي في هذا الصدد نقلا عن شلومو ديشن:

"منذ تأسيس الدولة الإسلامية بالمغرب، دأب اليهود على تنظيم أمورهم الداخلية في استقلالية تكاد تكون تامة عن السلطة السياسية والقائمين على تنظيم الحياة العامة للمسلمين (علماء وقضاة...). وأسست الجماعات اليهودية بالمغرب - خاصة بعد قدوم يهود إسبانيا في النصف الثاني من القرن الخامس عشر - مجموعة من المؤسسات الخاصة لعبت دورا رياديا في تكريس الاستقلالية والحفاظ على انسجامها وتحقيق التضامن بينها، وضمان الصلات مع يهود العالم الخارجي، وخاصة وأن الأساس في عملها كان هو الاهتمام بالجوانب الدينية والأعمال الخيرية. وكان أمر تسييرها في الغالب حكرا على الأعيان المعترف لهم بالفضائل الخلقية واليسر المادي، وأهمهم النجيد (شيخ اليهود) الذي يعينه أو يبارك تعيينه السلطان، يتلوه هرميا المكلف بالصندوق (الكزبار)، وهي شخصية مهمة

¹ANR, Note du Moise Nahom sur l'organisation des Communautés Israélites, op. cit.

²A. Berdugo, **Juives et Juifs dans le Maroc Contemporain**, Ed Librairie Orientaliste Paul Geuther, Paris 2002, p. 43.

³Ibid, p. 42.

⁴"القرارات التي كان يصدرها المعمد كانت تتخذ من طرف رؤساء الجماعة والحاخامات الذين كانوا يحررون المرسوم ويبعثونه به ليتلى في جميع البيع يوم الشباط، ولم يكن من الممكن التراجع عن قرارات المعمد التي تصبح ملزمة للجميع بعد صدورها".

Ibid, p. 44.

⁵Ibid, p. 44.

داخل الجماعة، لكونه مكلفا بتدبير أملاكها وضمان تسديد الجزية [...] وعموما، كان التنظيم الداخلي يعطي الانطباع بوجود "دولة داخل الدولة" ويشغل كحلقة ربط بين المخزن المركزي والمحلي واليهود...¹.

وفيما يتعلق بالمصادر المالية التي كانت الجماعة تلجأ إليها لتمويل أنشطتها الخيرية والتزاماتها الاجتماعية، فقد تمثلت في الضريبة على الذبائح طبقا لتعاليم الطقوس الدينية وتسمى بالكاشير، بالإضافة إلى الهبات والصدقات والهكديش (الوقف اليهودي)، أضف إلى ذلك عائدات الممتلكات التي اشترتها الجماعات اليهودية، أو تلك التي كان يوصي بها المحسنون².

بعد خضوع المغرب للحماية سنة 1912 أصبحت لليهود المغرب انتظارات كبرى، حيث باتوا يتطلعون إلى إحداث تحول إيجابي في وضعهم القانوني، من قبيل الحصول على الجنسية الفرنسية بشكل جماعي على غرار ما حصل بالنسبة لليهود الجزائر بمقتضى قانون كريميو الذي صدر سنة 1870، بهدف الحصول على مكتسبات المواطنة الفرنسية التي تحول لهم التحرر من الخضوع للقضاء المخزني. ومن أجل تحقيق هذا المسعى، وبتاريخ 6 دجنبر سنة 1912، استقبل المقيم العام ليوطي مندوبية عن اللجنة المركزية للأليانس، وكان موضوع اللقاء بين الطرفين حول الوضع القانوني لليهود المغرب³، وخلال سنة 1913 سعت الأليانس مجددا عبر رئيسها "نارسييس لوفان" إلى محاولة إقناع المقيم العام ليوطي بضرورة خضوع المغاربة اليهود للقضاء الفرنسي عبر التوجه إليه من خلال هذه الرسالة:

"خلال هذه المرحلة سيستفيد الإسرائيليون من نظام الحماية القنصلية الذي أنقذهم من الخضوع للقضاء المحلي، لكن للأسف هذا الامتياز مقصور فقط على هذه الفئة. أغلبية اليهود يعانوا من سلبات وحيف القضاء المغربي، وينتظرون من النظام الجديد أن ينصفهم من خلال إخضاعهم للمحاكم الفرنسية وتحريرهم من قضاء الأهالي [...] وسيكون من غير العدل أن يتم إخضاع المحميين للقضاء الإسلامي، وهم الذين طالما استفادوا لوقت طويل من التبعية للقضاء القنصلي. ألتمس منكم السيد المقيم العام أن تولوا عناية خاصة لليهود المغاربة في إطار الممكن، ولا يخفى عليكم مدى المنافع السياسية التي يمكن أن تجنوها من وراء ذلك...⁴."

غير أن الحسابات السياسية للمقيم العام ليوطي لم تسمح له بالاستجابة لهذه المطالب، لأن هاجسه الأول كان هو إنجاح سياسته بالمغرب انسجاما مع السياسة الأهلية التي تعد أحد إبداعاته، بناء على المسح الأنثروبولوجي

¹محمد حاتمي، الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية وهران المغرب المستقل...، مرجع سابق، ص. 151.
Cité in: Shlomo Deschen, **Les gens du Mellah: La vie Juive au Maroc à l'époque pré-coloniale**, Paris, Albin Michel, 1991.

²ANR, Note du Moise Nahom, sur l'organisation des Communautés Israélites, op. cit.

³A. Chouraqui, **L'AIU et la renaissance Juive contemporaine...**, op. cit, p. 121.

⁴R. Assaraf, **Eléments ...**, op. cit, p. 183.

والسوسيولوجي والتاريخي والسياسي الذي قام به مجموعة من "الباحثين" الذي كلفوا بإعداد مجموعة من الدراسات، كان الهدف منها الوصول إلى أفضل صيغة ممكنة لحكم المغرب وإخضاعها بأقل التكاليف الممكنة. لقد استهدفت هذه السياسة الأهلية الحفاظ على طابع البلاد العتيق، بمؤسساته وتراتبته الاجتماعية¹، بما يخدم مصالح فرنسا أولاً وأخيراً، لذلك رفض ليوطي بشدة تمتيع اليهود بوضع خاص بالمغرب تفادياً لإحداث انقسام في المجتمع الأهلي، خاصة وقد استخلص رفقة عدد من أطر الحماية، الدروس والعبر من تجربة الجزائر، وكان حريصاً بموجبها على عدم تكرار الخطأ الذي ارتكب هناك، عندما صدر قانون كريميو الذي سبق وتحدثنا عنه، خصوصاً وأن عدد اليهود بالمغرب كان يفوق بكثير عدد يهود الجزائر.

ومن أجل تفادي الحرج مع رئيس الرابطة، اختار ليوطي التعاطي بدبلوماسية مع طلبه القاضي بتحرير اليهود من قبضة القضاء المخزني، حيث أعطى الانطباع بأنه سيدرس هذا الالتماس، لكنه صرح بما يفيد أن الاستجابة لهذا الطلب غير ممكنة ما لم تكن مشفوعة بموافقة حكومة جلالة السلطان الشريفة. وفيما يلي نص جواب المقيم العام ليوطي: "لقد درست هذه الرسالة بعناية كبيرة، وقد تم تحويلها إلى المصالح القضائية، وستفحص وتناقش من أجل البحث عن صيغة مناسبة للاستجابة لتطلعات إخوانكم في الدين، وسيتم ذلك بتنسيق تام مع حكومة الإيالة الشريفة".²

أكثر من ذلك، كان من نتائج معاهدة الحماية أن أعادت للسلطان ممارسة نفوذه على كل رعاياه المسلمين واليهود، ذلك أن أغلبية الدول الموقعة على معاهدة مدريد تنازلت عن الحماية القنصلية بما في ذلك إسبانيا، باستثناء إنجلترا التي قررت عدم التنازل عن محمييها إلى حدود سنة 1937، وبمقتضى ذلك سيتمكن عشرة من يهود مكناس من الاستمرار في الخضوع للقضاء الفرنسي حتى تلك السنة³. وبناء على ما سبق يتضح بأن المقيم العام ليوطي قد قرر أن يظل يهود المغرب مجرد رعايا لجلالة السلطان في إطار فلسفة السياسة الأهلية، التي اقتضت أن يظل هؤلاء في مكائهم الذي اعتادوا عليه، حتى لا تتم إثارة المسلمين ويعتقدوا بأن الحماية جاءت من أجل خدمة اليهود على حسابهم. أما أقصى ما أُتيح لهم من قبل الإقامة العامة فهو الاستمرار في لعب دور الوساطة التقليدي بين الفرنسيين والمغاربة المسلمين، والحصول على بعض المكاسب دون المساواة مع الأوروبيين.

¹بيير بارون، تطويع الأهالي زمن الاستعمار الفرنسي، مغرب (1912-1939)، ترجمة وتقديم عبد الرزاق لكريط، مطبعة وراقة بلال، الطبعة الأولى، فاس، 2016، ص. 23.

²R. Assaraf, *Eléments ...*, op. cit, p. 182-183

³Ibid, p. 181.

تريث المقيم العام ليوطي وعدم تسرعه في الاستجابة لمطالب المغاربة اليهود بإعادة النظر في وضعيتهم القانونية، لم يمنعه من التفكير مبكراً في البحث عن صيغة مناسبة ومنسجمة مع سياسته الأهلية، من أجل احتواء العنصر اليهودي بالنظر إلى ما يمكن للحماية أن تحصل عليه من مكاسب من وراء ذلك، وفي نفس الوقت التخفيف من حدة التدخلات الخارجية كما سنوضح لاحقاً. في هذا السياق، ومن أجل التحضير مبكراً لبعض التعديلات في الوضع القانوني للمغاربة اليهود، قام ليوطي سنة 1914 بتكليف المؤرخ والمستشرق اليهودي الفرنسي ناحوم سلوش بإعداد مشروع في أفق تعديل المؤسسات اليهودية، ومن أجل إنجاز مهمته قام هذا الأخير بعدد من الزيارات لعدد من القرى والمدن المغربية من أجل استمزاغ آراء المسؤولين عن الطوائف اليهودية فيما يتعلق بأرائهم في أمر التعديلات، في أفق تحصين المكتسبات الإيجابية وتطوير الجوانب التي تتميز بالقصور¹. وقد كانت زيارته الأولى إلى مدينة فاس، التي كانت تمثل عاصمة الثقافة اليهودية، ثم بعدها إلى مدينة صفرو²، ومنها انتقل إلى مدينة مكناس التي حل بها خلال نفس السنة، وفي تواصله مع الجماعة اليهودية التي رحبت به، نصحتها بضرورة التريث في عملية الانفتاح من أجل مصلحتها، وقد عبر أحد المدونين المحليين عن تلك الزيارة بما يلي:

"في سنة 5674 من بدء الخليقة وصل العالم اليهودي المعروف والمحبوب والعالى الشأن لدى الحكومة الفرنسية السيد ناحوم سلوش حفظه الله إلى مدينتنا قادما إليها من العاصمة الكبيرة باريس. وقد حل ضيفاً على الري ابرهام عمار. وفي يوم السبت جمع أعيان المدينة على الساعة الثانية زوالاً بالبيعة الكبيرة ليعقوب بيرديغو، وخطب فيها خطبة رائعة بعبرية واضحة [...] الذين يعيشون بالمغرب تعودوا العيش في ظلمات حاكميهم [...] ورأوا الآن نورا يغمرهم بفضل تدخل فرنسا. اليهود المغاربة الذين كانوا يعيشون معهم عانوا من نفس الظلام والإهانات والابتزاز، وهم الآن معرضون لنفس النور، لذلك وجب عليهم عدم الانفتاح عليه بسرعة حتى لا يعميهم الضوء المشع".³

بعد لقاء ناحوم سلوش بإخوانه في الدين، أعرب عن امتعاضه من رفض أغلبية الجماعة اليهودية أي شكل من أشكال التحديث، بالرغم من أنه كان حريصاً أثناء تواصله معهم على عدم استفزاز مخاطبيه التقليديين المتشبهين بعاداتهم⁴.

¹Ibid, p. 188.

²R. Assaraf, *Une certaine Histoire des Juifs du Maroc, 1860- 1999*, Ed Jean Claud Gawsewitch, 2005, p.296.

³Ibid, p. 296.

⁴R. Assaraf, *Eléments ...*, op. cit, p. 188.

بعد إكمال المهمة التي كلف بها، قدم الرجل مجموعة من التوصيات للمقيم العام ليوطي، لكن هذا الأخير سيرفضها بسبب مؤاخذاته على ناحوم سلوش، المتعلق بعضها بتعاطف هذا الأخير مع الدعاية الصهيونية، وبعضها بعلاقاته المشبوهة مع اليهودية الأمريكية، الأمر الذي من شأنه أن يؤدي إلى وضع اليهود تحت تأثير القوى الأجنبية¹، وهو ما لم يكن ممكناً للمقيم العام أن يقبل به. لذلك استغل زيارة سريعة قام بها لفرنسا فقرر إنهاء مهمته بالمغرب²، مع تقديم التفسيرات اللازمة لذلك القرار³. بعد تنحية هذا الأخير قرر المقيم العام ليوطي استدعاء رجل ثقته في الأمور المتعلقة بشؤون اليهود يحيى زاكوري من أجل إكمال المهمة، وقد كان هذا الأخير يعمل سابقاً مترجماً بالقنصلية الفرنسية بالدار البيضاء، كما يتولى في الآن نفسه، مهمة رئيس الجماعة اليهودية المحلية. وحتى يستطيع زاكوري النجاح في مهمته، قام فور تكليفه بطلب النصيحة من رئيس المحكمة العبرية لمدينة سلا الحاخام رفايل أنكوا الذي كان يحظى بمكانة رفيعة في تقدير النخب اليهودية⁴، وبناء على ما قدمه زاكوري قررت الإقامة العامة القيام بأول تعديل يخص المؤسسات اليهودية بعد تأخر دام لست سنوات عن تاريخ توقيع معاهدة الحماية⁵، حيث ستقوم سلطات الحماية سنة 1918 بأول تعديل يهم المؤسسات اليهودية، وذلك بإصدار ظهير بتاريخ 22 مايو من نفس السنة، والذي فصل في الأمور المسطرية والإدارية للعدالة الحاخامية⁶، كما منح الشخصية القانونية لمجالس الجماعات اليهودية، وحدد شكل التعيين فيها وطرق عملها واختصاصاتها ومصادر تمويلها⁷. والظاهر أن تأخر سلطات الحماية في مباشرة هذا الإصلاح لم يكن ناتجاً عن احترام التقاليد المغربية، بقدر ما كان يتماشى مع فلسفة سلطات الحماية التي لم تكن تتدخل في أمر من الأمور التي تخص اليهود، إلا إذا رأت بأنه سيعود عليها بالنفع، وهي السياسة نفسها التي اتبعتها مع المسلمين، والتي قضت بعدم إحداث تغييرات جذرية كما هي عادة أي بيروقراطية تريد تدبير أمور الدولة والمجتمع من دون مخاطر كبيرة⁸.

¹J. Tolédano, *Portait d'une Communauté Juive Marocaine...* op. cit, p. 208.

²R. Assaraf, *Eléments ...*, op. cit, p. 189.

³قام الكاتب العام للحكومة الشريفة السيد هنري جبار بتقديم التوضيحات اللازمة لوزارة الخارجية التي كانت تحاول من جهتها ممارسة الضغط لكي يكمل مهمته بالمغرب قائلاً: "إن الطريقة التي يعمل بها لم تقنع الحكومة الشريفة التي لم يلتزم بتعليماتها. أنا أريد دراسة تقنية، في حين أن السيد سلوش يهتم بخدمة القضية الصهيونية، ويتدخل في كل شيء من خلال طرح الأسئلة الشخصية. وأثناء إقامته بمدينة فاس في شهر أكتوبر من سنة 1914 جعل من نفسه الناطق باسم الأفكار الوطنية الإسرائيلية، كما أثار حفيظة إخوانه في الرابطة الإسرائيلية العالمية".

R. Assaraf, *Une certaine Histoire des Juifs du Maroc, 1860- 1999...*, op. cit, p. 297.

⁴R. Assaraf, *Eléments...*, op. cit, p. 190.

⁵J. Tolédano, *Portait ...*, op cit, p. 208.

⁶Dahir du 22 mai (11 chaabane 1336) portant réorganisation des tribunaux rabbiniques et du notariat israélite, in BO, N° 292, 27 mai 1918, p. 523.

⁷Dahir du 22 mai (11 chaabane 1336) portant réorganisation des Comités israélites, in, ibid, p. 525.

⁸J. Tolédano, *Le temps du Mellah...*, op. cit, p. 136.

أما فيما يتعلق بالتعديلات التي همت القضاء العبري، فقد أدت إلى خلق قضاء يهودي موحد من خلال التنصيب على أن المحاكم اليهودية قد أصبحت تحتضن ثلاثة قضاة في المدن الكبرى، وحاخاماً منتدباً في المراكز الصغيرة¹، كما تم إحداث أعضاء السكرتارية المحلفين والمكلفين بتبليغ الأحكام وتقنين أتعاب خدمات التوثيق². أما فيما يخص الشروط اللازم توفرها في الموارد البشرية العاملة بهذه المحاكم فقد تم احترام استقلالية الجماعات في تدبير هذا الأمر³. وعلى مستوى الاختصاصات، قد تم تضيق وحصر القضايا التي يمكن لهذه المحاكم أن تبت فيها بالمقارنة مع ما سبق، وبناء عليه، اقتصر نظر هذه المحاكم فقط في القضايا التي تتعلق بالأحوال الشخصية المتمثلة في الزواج والطلاق وإثبات القرابة والتبني، أضف إلى ذلك ما يرتبط بالوصايا وقسمة التركة والهبات وشؤون الوقف المتعلقة بالمغاربة اليهود⁴. لكن مقابل ذلك تم منع هذه المحاكم من البت في النزاعات المدنية لليهود، ولو تم ذلك بطلب من الأطراف المتنازعة، لأنها أصبحت من اختصاص محكمة الباشا أو القايد بغض النظر عن جنسية المتقاضين اليهود⁵، لكن الحاخامات اليهود كانوا في الغالب يتوصلون إلى تحقيق تسويات في هذه القضايا حتى لا يضطر اليهود إلى المثول أمام القضاء المخزني⁶. بمقتضى هذه التعديلات صار القضاء اليهود موظفين مدنيين يخضعون للقانون العام بعدما يتم تعيينهم من قبل الحكومة بعد استشارة أعضاء الجماعة وتوصية مفتش المؤسسات الإسرائيلية⁷، كما أصبحت أجورهم تؤدي من قبل الدولة بعدما كانت تؤدي في السابق من قبل الجماعة اليهودية من خلال بيت مالها⁸. هذا التعديل الأخير كان من الأهمية بمكان، لأنه لم يعد بإمكان الجماعة اليهودية تعيين الحاخامات القضاة المتشددون في تأويل الهالاخا، كما خفف العبء المادي فيما يتعلق بتمويل المحاكم. وعلاقة بهذا الموضوع نشير إلى أن النخب اليهودية المحافظة قد رفضت اقتراحاً سابقاً لناحوم سلوش يقضي بإضافة قضاة لا يحملون صفة حاخام لهيئة المحكمة العبرية، لأنها اعتبرت ذلك الاقتراح خطوة جد عصرية من شأنها أن تدخل للقضاء العبري المغربي شيئاً جديداً علماني التوجه⁹. ومن أجل تجنب عيوب النظام القضائي القديم الذي كان يفرض على طرفي النزاع استئناف الأحكام القضائية أمام المحاكم بالمدن الأخرى ولعدة مرات من دون سقف معين، تم إحداث المحكمة العبرية العليا

¹J. Tolédano, *Portait d'une Communauté Juive Marocaine*, op. cit, p. 208.

²"صدر ظهير شريف في شأن تنظيم المحاكم الإسرائيلية ومحرري الوثائق لديها، وقد حرر بالرباط بتاريخ 23 أبريل من سنة 1918 ووقع من طرف ممثل الحكومة الشريفة والإقامة العامة في 32 مايو من نفس السنة، وقد تضمن بابين و24 فصلاً تطرقت بالتفصيل إلى كيفية تشكيلها واختصاصاتها وما يتعلق بالمرافعات وتنفيذ الأحكام والرجوع للأحكام وتحرير الوثائق". للمزيد من التفاصيل يمكن العودة للجريدة الرسمية عدد 266 بتاريخ: 1918/06/03، ص. 558.

³R. Assaraf, *Une certaine Histoire des Juifs du Maroc, 1860- 1999...*, op. cit, p. 298.

⁴R. Assaraf, *Eléments ...*, op. cit, p. 190.

⁵Ibid, p. 190.

⁶J. Tolédano, *Le temps du Mellah...*, op. cit, p. 212.

⁷J. Tolédano, *Portait ...*, op. cit, p. 208.

⁸R. Assaraf, *Eléments...*, op. cit, p. 190.

⁹Ibid, p. 191.

بالرباط، تشكلت هيأتها من ثلاثة حاخامات قضاة¹. كما ينبغي التذكير بأنه بمقتضى التعديلات التي تمت بمقتضى ظهير 22 ماي 1918، كان يمكن التجريح في كل قاض من قضاة المحكمة الحاخامية الابتدائية أو المحكمة العبرية العليا في الحالات التالية:

- إذا كان للقاضي أو لزوجته مصلحة شخصية في النزاع، أو كان لأحد أسلافهما أو أعقابهما خصما في القضية.
- إذا كان القاضي دائما لأحد الطرفين أو مدينا أو موهبا أو وكيلا أو كان قد تلقى منه هدايا.
- إذا سبق للقاضي أن أبدى رأيه في النزاع أو كان طرفا فيه.
- إذا وجدت صداقة أو عداوة مشهورة بين القاضي وأحد الأطراف.
- إذا وجدت علاقة تبعية بين القاضي أو زوجته وبين أحد الأطراف وبين أحد الأطراف أو زوجته. ويتعين طلب التجريح منذ افتتاح الجلسة الأولى².

رغم أن هذه التعديلات كانت محدودة وغير كافية، فقد استأثرت بالنقاش العمومي من طرف الجماعة اليهودية بالمغرب، إلا أنها حققت بالمقابل ما كان يصبو إليه المقيم العام الجنرال ليوطي باعتبارها إشارة من طرفه إلى العناية والاهتمام اللذين أظهر أنه يولييهما لطموحات المغاربة اليهود³. وبشكل عام، فقد تم تنزيل هذا الإصلاح بسلاسة بجميع المدن المغربية، غير أن الجماعة اليهودية لمدينة مكناس ترددت في تبني هذا النظام القضائي الجديد، ليس من حيث المبدأ، ولكن بسبب عناد الحاخامات الخمسة المحليين الذين كانوا يمثلون التشكيلة القديمة للمحكمة العبرية قبل دخول ظهير 1918 حيز التطبيق. حاخامات مكناس: شلومو شترت، وياشوا بيرديغو، ويعقوب طوليدانو بن يوسف، ويعقوب طوليدانو بن موشي، وابرهام عمار، لم يستطيعوا التوصل إلى التوافق فيما بينهم لاختيار ثلاثة منهم للعضوية بالمحكمة العبرية الجديدة، لأن كل واحد منهم كان يطمح للحصول على منصب في المحكمة الجديدة⁴. أمام هذا التعنت، اضطر مفتش المؤسسات اليهودية يحيى زاكوري إلى اللجوء لحل متطرف من أجل إيجاد مخرج لهذا المشكل، وتمثل ذلك في تعامله مع الجماعة اليهودية بمكناس على أنها جماعة صغيرة، فتم اتخاذ قرار يقضي بتدبير شؤونها القضائية من طرف قاض واحد مندوب تابع للمحكمة العبرية بمدينة فاس، على أساس أن يتناوب الخمسة

¹صدر ظهير شريف في شأن تأسيس محكمة إسرائيلية عليا وقد تضمن ثمانية فصول من أهمها مضمون الفصل السادس الذي يقول: إن الأحكام الصادرة بمحضر الخصوم يقع الإعلام بها في الجلسة نفسها من رئيس المحكمة العليا وأما الأحكام الصادرة غيابيا فيقع الإعلام بها للمحكوم بواسطة الكاتب المسجل في ظرف ثمانية أيام من تاريخ صدورها ويمكن الاعتراض على الأحكام الصادرة غيابيا في ظرف ثمانية من تاريخ الإعلام بها وإذا حكم على المعارض غيابيا مرة ثانية فلا حق له في تقديم اعتراض مرة أخرى. للمزيد من التفاصيل يمكن العودة للجريدة الرسمية عدد 266 بتاريخ: 1918/06/03، ص. 526.

²إيلي مالكا، "تاريخ القضاء العبري والقضاء الإسرائيلي بالمغرب"، القضاء والقانون، السنة 7، الأعداد 62-63-64، أكتوبر- ديسمبر 1963، الدار البيضاء، ص. 18.

³R. Assaraf, *Eléments ...*, op. cit, p. 191.

⁴J. Tolédano, *Le temps du Mellah...*, op. cit, p. 212.

على شغل هذا المنصب بدءاً بالأكبر سناً فالذي يليه، وكان أولهم الحاخام شلومو شترت¹. استمر العمل بهذا النظام لمدة طويلة حتى سنة 1923. وقد مثل ذلك القرار إهانة كبيرة للجماعة اليهودية المحلية. بعد ذلك بست سنوات تمكن أعيان المدينة اليهود من التوصل إلى اتفاق فيما بينهم، مما سمح للمدينة بأن تستعيد مكانتها وتحصل على محكمتها العبرية الخاصة، وكانت نموذجية على المستوى الوطني تحت رئاسة الحاخام يعقوب بن يوسف طوليدانو².

بالمجمل، لقد استقبلت هذه التعديلات باستحسان كبير من قبل اليهود التقليديين، في حين أثارت امتعاضاً وسط النخب العصرية التي لم ترَ فيها تقدماً كبيراً، خاصة وأنها كانت تتطلع إلى إصلاحات تماثل القضاء الفرنسي، لذلك ظل خضوعهم للقضاء المخزني يذكرهم لا بوضعهم كأهالي خاضعين للسلطان، بل كذميين. وبناء عليه اعتبروا خضوعهم للقضاء المخزني مسألة غير عادلة³. أمام هذا الوضع سيقوم اليهود المتطورون باستغلال جميع الوسائل والإمكانات المتاحة من أجل تحقيق ما كانوا يصبون إليه. وهكذا استغلوا زيارة رئيس الجمهورية الفرنسي للمغرب سنة 1922، فتقدموا إليه بملتصق يقضي، على الأقل، بأن تصبح شهادة اليهودي مقبولة أمام محكمة الباشا، خاصة وأن هذا الأخير، حسب ادعاءاتهم، كان يمارس عليهم تعسفات، ولا يأخذ بحسابه كونهم رعايا للسلطان، وإن بأهلية محدودة بالنظر للطبيعة الدينية للقوانين المؤطرة للأقلية اليهودية⁴، رغم أن حاييم مونتيفوري كان قد تمكن، سنة 1864، من استصدار ظهير من السلطان ينص على مساواة الجميع أمام القضاء⁵.

وفي محاولة للضغط على سلطات الحماية قامت أسبوعية المستقبل المصور بقيادة حملة صحفية في العديد من مقالاتها لتسليط الضوء على تجاوزات القضاء المخزني في حق المغاربة اليهود، حيث أوردت العديد من الحالات التي كان فيها اليهود ضحية لتلك التعسفات، من قبيل ما حدث لبعض يهود مكناس سنة 1926⁶. حيث أكدت الأسبوعية أن الباشا، كان أحياناً، ينعت المتقاضين اليهود بأبشع النعوت (التي توجد بكثرة في العربية الدارجة) كابن الكلب وابن الحمار (أولاد الكلب، أولاد الحمار)، كما أكدت بأن شهادة اليهودي غير مقبولة مهما كانت الطبقة التي ينتمي إليها. وكمثال على هذه التجاوزات أوردت بعض الحالات، الحالة الأولى: قضية اليهودي إيلي أبيسورا الذي استدعاه الباشا شاهداً لكن عند دخوله للمحكمة قابله الباشا قائلاً: "يهودي عفن، حثالة اليهود، ألا تعرف

¹R. Assaraf, *Eléments ...*, op. cit, p.192.

²J. Tolédano, *Portait*, ., .op .cit, p. 209.

³D. Bensimon-Donath, *Evolution du judaïsme marocain...*, op. cit, p. 102.

⁴J. Tolédano, *Le temps du Mellah*, op. cit, p. 135.

⁵A. Chouraqui, *L'AIU, et la renaissance Juive contemporaine*, op. cit, p. 109.

⁶«Le Triste sort des Juifs de Meknès», in AI, N° 44-45, Vendredi 1927, P. 2.

منذ قرون بأن شهادة اليهودي بدون قيمة، انصرف!". وقد استنكرت الصحيفة هذا السلوك متسائلة: إن كان هذا التعاطي صادراً عن عليّة القوم، فماذا ستفعل العامة من المسلمين الذين يعاملون اليهود بوقاحة على مرأى ومسمع من الجميع؟ الحالة الثانية: تتعلق بزوجة أحد الأعيان اليهود التي كانت مصابة بمرض مزمن ومعدٍ، وأثناء انتظارها دورها بباب أحد المستشفيات الأهلية تعرضت للإهانة من طرف الممرض، وعندما حاولت الرد عليه شتمها مرة أخرى ثم ضربها، وعندما مثلاً أمام محكمة الباشا قام هذا الأخير بتبرئة الممرض وفرض بالمقابل غرامة على المرأة اليهودية بلغت 50 فرنكاً مقابل عدم سجنها. وقد أشار صاحب المقال إلى أنه بفضل تدخل السيد رولاند تراجع الباشا عن حكمه وأدان الممرض بثلاثة أيام سجن، لكن الحكم لم ينفذ. الحالة الثالثة: تتعلق بالحاخام جودا بيرديغو الذي تم سجنه في إطار الإكراه البدني، لأنه تأخر في أداء الضريبة الحضرية. وقد أبدى كاتب المقال استغرابه من كون المغرب ما يزال، آنذاك، من البلدان التي يسجن فيها المتخلف عن أداء الضريبة، معتبراً بأن هذا الأمر قد صار متجاوزاً¹. الحالة الرابعة: بتاريخ 7 دجنبر سنة 1926 قام مجلس الجماعة الإسرائيلية بمكناس بعرض حالة ثلاثة من "الأهالي" اليهود الفقراء بالمدينة على حاكم الناحية الجنرال فريدنبرغ، لأنهم سجنوا بسبب عدم قدرتهم على أداء ضريبة "البتانت"، فتم إلقاء القبض عليهم وحلق رؤوسهم كالحكومين بالأشغال الشاقة، كما تم اقتيادهم للقيام بأعمال السخرة بورشة لشبكة الطرق رفقة سجناء الحق العام. كما أضاف المقال بأن أحد أولئك الثلاثة كان رجلاً مسناً يبلغ من العمر 60 سنة، ومريضاً في حالة يرثى لها، وكان آخر قد شُفي للتو من مرض التيفويد².

في سنة 1930 طالبت أسبوعية المستقبل المصور مجدداً على صفحاتها بضرورة فك خضوع المغاربة اليهود للقضاء المخزني مؤكدة: "لقد طالبنا أن يخرج اليهود من القضاء الإسلامي أو على الأقل ألا يخضعوا له من دون ضمانات"³. غير أن الحملة التي قادتها جريدة المستقبل المصور لم تقابل بترحاب كبير من قبل السلطات الفرنسية⁴.

¹«Le Triste sort des Juifs de Meknès», in Al, op. cit, p. 3.

²Ibid, p. 3.

³Ibid, p. 2.

⁴«كان من نتائج الحملة التي قادتها جريدة المستقبل المصور أن انتشرت دعاية كاذبة بمدينة مكناس تفيد بأنه سيتم تجنيس كل اليهود مستقبلاً بالجنسية الفرنسية. وفي رد فعله على ذلك قام الجنرال حاكم الناحية بكتابة رسالة للمقيم العام أبدى فيها انفعاله مما يروج جاء فيها: " هذه المقالات تم نقلها إلى مدينة مكناس من قبل عدد من اليهود الثرثارين الذين يرغبون في الانفصال عن الأهالي، ويلعنون البورجوازية المسلمة التي لا زالت تحترمهم. بما أن اليهود يتطورون بسرعة كبيرة، فمن المؤكد أن الخطوة التي يوصي بها ممثل الرابطة الإسرائيلية العالمية السيد " سماح" إذا ما تم تطبيقها بالمغرب فإنها ستؤدي إلى التسبب في غضب كبير في صفوف الساكنة المسلمة، ومن الممكن أن يؤدي ذلك إلى أعمال عنادية ستتجهم عنها فوضى كبيرة". الإقامة العامة طمأنت فوراً قائد ناحية مكناس، وأكدت له بأن فلسفة الحماية لن يطرأ عليها أي تغيير ولن تستجيب مطلقاً للضغوط التي تمارسها كل من الرابطة الإسرائيلية العالمية، والعناصر اليهودية المتفرنسة، خاصة وأن العناصر المتطورة كانوا مجرد أقلية مشتبه بها من قبل إخوانها في الدين، خصوصاً من طرف الحاخامات المعارضين لأي تغيير من شأنه النيل من سلطتهم على اليهود التقليديين المتدينين الراضين للتغيير".

R. Assaraf, *Eléments ...*, op. cit, p. 187.

وفي محاولة لتجاوز عقبة الخضوع للقضاء المخزني سبق لأحد المحامين المسلمين من أصل جزائري كان مقيما فاس يدعى الطاهر الفاسي، أن عبر عن تعاطفه مع اليهود الذين يعانون من تلك التجاوزات، وبناء على ذلك اقترح عليهم سنة 1928 حلا يتمثل في أخذ كل يهود المغرب بتجربة يهود مكناس الذين خلقوا صندوقا تضامنيا للمساعدة في توكيل دفاع مؤهل أمام محكمة الباشا، للدفاع عن كل يهودي يضطر للتقاضي أمام محكمة الباشا¹. وفي نفس السياق طالب المندوبون المغاربة الذين مثلوا يهود المغرب بالمؤتمر اليهودي العالمي، الذي انعقد بأطلانتيك سيتي سنة 1944، بضرورة إحداث منصب مستشار يهودي بالمحاكم المخزنية والفرنسية عندما يكون أحد المتقاضين يهوديا². كما استنكرت جريدة النوار Noar على صفحاتها عدم إمكانية أن يصبح اليهود المغاربة قضاة وبشوات، رغم أن السلطان وسلطات الحماية كانا يصرحان في أكثر من مناسبة بأن المغاربة اليهود مواطنون كاملو المواطنة³.

جوانب النقص في القضاء المغربي على عهد الحماية كانت موضوعاً للدراسة والتقييم من قبل ضباط الشؤون الأهلية الفرنسيين الذين طالبوا بإعادة النظر فيه بسرعة وبفعالية أكبر، بسبب إدراكهم لتعطش المغاربة للعدالة بعدما عبروا عن عدم استجابة النظام المعمول به لتطلعاتهم ورغباتهم، لأنهم صاروا يتهربون من المحاكم الأهلية ويستخفون بها⁴. غير أنه بالرغم من كل المساعي التي قام بها اليهود، خاصة المتطورون منهم، من أجل فك الارتباط بالقضاء المخزني، فقد أبقت سلطات الحماية على نفس النظام القضائي، لأنها ظلت تعتبر اليهود مواطنين مغاربة بسبب الخلفيات التي تحكممت في صياغة السياسة الأهلية، والتي ظلت روحها مستمرة طيلة فترة الحماية⁵.

التغيير الثاني الذي تم بموجب ظهير 22 ماي 1918 شمل مجلس الجماعة كما سبق وأوضحنا ذلك في مقدمة هذا المحور، والذي تم بمقتضاه منح الشخصية القانونية لمجلس الجماعة وتحديد كيفية الحصول على العضوية فيه واختصاصاته وطرق التمويل⁶، بعدما كانت جماعة اليهود قبل ذلك تتمتع بصلاحيات متعددة غير محددة بدقة. وتنبغي الإشارة إلى أن هذا التعديل كان أول عمل مشترك في هذا الشأن بين سلطة الحماية الفرنسية والسلطة الشريفة بالمغرب⁷.

¹J. Tolédano, *Le temps du Mellah*, op. cit, p. 135.

²M. Nouvel, op. cit, p. 21.

³«Rapport sur les Juifs du Maroc », in Noar, Mai 1947, p15.

⁴بيير بارون، تطويع الأهالي زمن الاستعمار الفرنسي، مغرب (1912-1939) ...، مرجع سابق، ص. 118.

⁵D. Bensimon- Donath, «*Relations entre Juifs et Musulmans*»..., op.cit, p. 100.

⁶Dahir du 22 mai (11 chaabane 1336) portant réorganisation des Comités israélites, op. cit, p. 525

⁷M. Eisembeth, *les Juifs au Maroc*..., op. cit, p. 91.

أما فيما يتعلق بطريقة حصول أعضاء مجلس الجماعة على العضوية فيه طبقاً لهذا الإصلاح، فقد تمثلت في إعداد إخوانهم في الدين لائحة تقدّم للصدر الأعظم تتضمن عدد من سعيينون، بشرط أن يكونوا من فئة الذين يساهمون مالياً في بيت مال الجماعة، وتُعلق تلك اللائحة قبل ذلك لمدة 15 يوماً بأبواب البيع ليتعرف عليهم أعضاء جماعتهم اليهودية، ومن ثم السماح لهم بتسجيل أي طعن/ اعتراض على أحد المترشحين. بعد هذه الخطوة ترسل سلطة المراقبة الإدارية تلك اللائحة إلى إدارة الشؤون الشريفة مرفقة بملاحظات واقتراحاتها الشخصية، وبعد تزكية مراقب المؤسسات الإسرائيلية يأتي التعيين الرسمي لأعضاء مجلس الطائفة من طرف الصدر الأعظم، ويقوم سنوياً أعضاء المجلس باختيار رئيس من بينهم، والذي كان يعين بدوره من طرف الصدر الأعظم، إضافة إلى نائب الرئيس وأمين المال¹.

لقد كان مجلس الجماعة يضم في عضويته رئيس المحكمة الربية وعدداً آخر من الأعيان، على ألا يقل العدد الإجمالي لأعضاء مجلس الجماعة عن أربعة ولا يتجاوز عشرة، حسب عدد سكان كل جماعة يهودية². وهكذا أصبح المجلس ينعقد بانتظام، ويتم الحسم في القرارات المتخذة عن طريق التصويت بالأغلبية، كما كان الكاتب يتولى تحضير محاضر الجلسات الخاصة بالمجلس³. أما ما يتعلق بالاختصاصات فقد تقلصت حيث تم حصرها في الإشراف على تنظيم الحياة الدينية (البيع والجنائز والمقابر والتعليم الديني)، وتنظيم التكافل الاجتماعي للجماعة والمساعدة الصحية وتدبير الأوقاف/ الحكديش والأملاك العقارية والهبات والامتيازات، والإشراف على تحصيل الضرائب التقليدية المفروضة على الذبائح والنبذ الكاشير⁴.

وقد كانت أنشطة مجلس الجماعة تحت مراقبة الصدر الأعظم ومفتشية المؤسسات الإسرائيلية وموظف إدارة الشؤون الشريفة⁵. هذه الاختصاصات تم توسيعها بناء على القرار الوزيري الصادر في 20 يوليوز سنة 1929 الذي سمح ببناء البيع بموافقة مجالس الطوائف⁶. ثم جاء ظهير 10 يناير 1931 الذي أعطى لتلك المجالس الشخصية المدنية⁷، وإمكانية مباشرة جميع الأعمال المتعلقة بحيازة العقارات⁸، غير أن القانون المنظم لمجالس الجماعات لم يمنحها

¹E. Goidan, op. cit, p. 99.

²«Le Statut des Communautés Israélites au Maroc», in AI, N° 10, 1ère année, Vendredi 17 Décembre 1962, p.6.

³D. Bensimon-Donath, **Evolution du Judaïsme Marocain...**, op. cit, p. p. 87-88.

⁴J. Tolédano, **Portait d'une Communauté Juive Marocaine...**, op. cit. p. 209.

⁵D. Bensimon-Donath, **Evolution du Judaïsme Marocain**, op.cit. p.88.

⁶E. Goidan, op. cit, p. 99.

⁷E. Goidan, op. cit, p. 99.

⁸J. Tolédano, **Le temps du Mellah...**, op. cit, p. 137.

أي اختصاصات سياسية¹. كما حدد الفصل الرابع من إصلاح 22 ماي 1918 الموارد المالية للجماعة في الهبات والصدقات، خاصة تلك التي كان يتم تحصيلها خلال الأعياد الدينية المهمة، بالإضافة إلى الضرائب على الذبائح الدينية، والوقف /الحكديش²، وجزء من موارد البيع، كل ذلك بعد الحصول على ترخيص وزيري يشترط موافقة الباشا والصدر الأعظم الضرورية على الميزانية السنوية³.

تم تنزيل هذا التعديل بمدينة مكناس بكل سلاسة على عكس المشاكل التي رافقت تشكيل المحكمة العبرية⁴. ورغم أن هذا الإصلاح قد قلص من مدى استقلالية الجماعة، بمنحها مؤسسات تشكو قلة ديمقراطيتها⁵، إلا أن مجلس جماعة مدينة مكناس كان من المجالس القليلة في المغرب التي انضبطت لما حدده الظهير من اختصاصات ضيقة، وإن ظل يبدي آراءه في كل ما يتعلق بشؤون الجماعة اليهودية المحلية بفضل جودة النخب المحلية⁶، رغم أن عضوية المجلس اقتصر في البداية على النخب القديمة قبل أن يتم الانفتاح تدريجيا على قدماء تلاميذ مدرسة الرابطة الإسرائيلية العالمية منذ نهاية العشرينات وبداية الثلاثينات⁷، وذلك على نحو سمح لأعضاء المجلس بأن يصبحوا ديناميين أكثر، حيث عملوا على تغطية تقصير سلطات الحماية في العديد من الجوانب⁸. وقد كان دافيد بن عاروش أول رئيس من الجيل الجديد ابتداء من سنة 1930، كما كان أيضا عضوا بغرفة التجارة والفلاحة، ومن أهم إنجازاته إحداثه مدرسة جديدة تابعة للرابطة بالملاح الجديد حيث كان مستقرا، وبعده جاء جوزيف بيرديغو الذي طبع هذا المنصب بمكانة خاصة حيث استطاع أن يصل إلى رئاسة مجلس الجماعة سنة 1935 عبر التعيين بالنظام القديم طبقا لظهير 1918، واستطاع الاستمرار في منصبه حتى وفاته سنة 1968، بفضل علاقاته ونفوذه اللذين سمحا له بالتأقلم مع تعديلات سنة 1945 التي سنتحدث عنها لاحقا⁹. والظاهر أن مقتضيات ظهير 22 ماي 1918 قد نصت على تبعية الجماعات اليهودية للمخزن، كما سمحت لسلطات الحماية بالحفاظ على مقتضيات السياسة الأهلية، ذلك أن المقيم العام ليوطي حرص شخصا على ضرورة توافق نص الظهير شكلا ومضمونا مع الروح العامة التي طغت على الظهائر في تلك المرحلة المتقدمة من الوجود الفرنسي في المغرب، والهادفة إلى إعادة هيكلة وتنظيم

¹«Le Statut des Communautés Israélites au Maroc», in AI, N° 10, première année, vend 17/12/1926, p. 6/ voire aussi: Capitane Nollet, «Les Juifs du Maroc et L'occident», op. cit, p. 4.

²E. Goidan, op. cit, p. 98.

³D. Bensimon-Donath, *Evolution du Judaïsme Marocain...*, op. cit, p. 88.

⁴R. Assaraf, *Eléments ...*, op. cit, p. 193.

⁵روبير أصراف، محمد الخامس واليهود المغاربة...، مرجع سابق، ص. 88.

⁶J. Tolédano, *Portrait...*, op. cit, p. 209.

⁷Ibid, p.209.

⁸J. Tolédano, *Le temps du Mellah...*, op. cit, p.137.

⁹Ibid, p. 137-138.

المؤسسات المخزنية والهيئات العامة التي أوكلت لها مأموريات تسيير الحياة العامة للأهالي والرفع من فعالية السلط التي تمارسه، وترسيخ امتثال من تمارس عليهم قصد ضمان انسجام المكونات المختلفة للمجتمع المغربي¹.

من المؤكد أن إقدام الإقامة العامة على تعديلات 1918، التي تحدثنا عنها، كان مدفوعاً من جهة، بإدراكها بأن جل مطالب اليهود كانت مشروعة، خاصة تلك المتعلقة الأمور الشرعية، ومن جهة أخرى بسعيها التخفيف من "وطأة" تحكم رجال المخزن المحليين (القواد والبشوات)، بسبب الانتقادات الشديدة والمتكررة التي طالتهم من قبل النخب اليهودية المتطورة، وأيضاً من أجل قطع الطريق على التدخلات الخارجية في شؤون المغاربة اليهود² الذين صاروا يبحثون عن الدعم الأجنبي في سياق النتائج التي أدت إليها الحرب العالمية الأولى، لذلك كان ليوطي مضطراً إلى تحقيق نوع من "التحرر" بشكل يعطي الانطباع لليهود بأن سطوة السلطة المخزنية عليهم قد تقلصت من حيث الحجم والطبيعة، لكنها في الواقع عززت من ارتباط اليهود بالسلطان على غرار الأهالي المسلمين³، ولعل اعتماد آلية التعيين في المجالس كان الهدف منه ضمان التحكم في النخب التي تولت الإشراف على تدبير شؤون الجماعات اليهودية حتى لا تخرج الأمور عن السيطرة⁴.

النقائص التي شابت إصلاحات 1918 في تقدير الشبيبة اليهودية المتنورة خريجة مدارس الأليانس، دفعت أسبوعية المستقبل المصور إلى تحرير العديد من المقالات منذ أواسط العشرينات وخلال فترة الثلاثينات، وجهت من خلالها انتقادات شديدة اللهجة تعبيرا عن عدم رضاها عن تلك التعديلات، من خلال التذكير بأن دونية اليهود واستمرار آثارها المتمثلة في عدم تقلد المهام العمومية، أو عدم قبول شهادتهم بالمحاكم المخزنية ضد المسلمين، إنما هي من بقايا قانون أهل الذمة الذي وضعه الخليفة الثاني عمر ابن الخطاب⁵. كما استنكرت تركيبة مجلس الجماعة الذي ظل تحت سيطرة نفس النخب التقليدية بسبب آليات التعيين التي أقرها الإصلاح، متهمة إياها بمقاومة دعاوي

¹ محمد حاتمي، *الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية وهران المغرب المستقل...*، مرجع سابق، ص. 151.
² "عرض ليوطي الأسباب التي دفعت به إلى إصدار هذا القانون: " لم يقدم اليهود المغاربة أي ملف مطلبى أمام إدارة الحماية [...] إلا أنه يستوجب علينا في هذه المرحلة الدقيقة التي تعرف نهاية الحرب وتنامي الضغوط التي يمارسها يهود أمريكا وما حققته الفكرة اليهودية من نجاح (يقصد إعلان وعد بلفور)، أن نسد الطريق أمام محاولات تهدف إلى تقديم عرائض للمطالب، تزعم أنها من صياغة يهود مغاربة وترمي إلى الحصول على وضع خاص لليهود..." نفسه، ص. 152.

³ D. Bensimon-Donath, «Relation entre Juifs et Musulmans au Maroc sous le Protectorat Française»..., op.cit, p. 99.

⁴ «Le Statut insaisissable », in AI, N° 252, 31 octobre, 1936, p. 2.

⁵ M. Goulven, «Israélites et Musulmans au Maroc », in AI, op. cit, p. 23.

التغيير بسبب خوفها من فقدان مكاسبها ومصالحها الشخصية¹، منبهة إلى أن تطور العقليات ساهم في محدودية تأثير تلك النخب التقليدية على الجماعات اليهودية، بشكل جعل هذه الأخيرة عرضة للتأثيرات الخارجية².

نيران الانتقادات طالت، أيضا، سلطات الحماية الفرنسية حيث اتهمتها بغض الطرف عن الجمود الذي ساهم في استمرار الوضع التقليدي بالرغم من وفاء وإخلاص اليهود للدولة الحامية، وبناء عليه ناشدت أسبوعية المستقبل المصور لجان الجماعات بضرورة أخذ المبادرة للمطالبة بتحسين الوضع القانوني لليهود، أكثر من ذلك، طالبت الإدارة الفرنسية على الأقل بالتطبيق الأمثل لإصلاح 22 ماي 1918 على علته في انتظار الشروع في مراجعته³. كما شجبت في نفس الوقت عدم السماح لليهود الأجانب الذين قدموا للمغرب بالمشاركة في عضوية مجالس الجماعات - تم حصر دورهم فقط في تقديم الإعانات المالية لدعم الأعمال الخيرية-، رغم الإمكانيات التي كانوا يتوفرون عليها ماديا وثقافيا، لأنه لو حصل العكس لسمح ذلك بضخ دماء جديدة ويحسن من الفعالية في تدبير المجالس لنشاطاتها بشكل يتماشى مع التطورات السوسيوثقافية التي حصلت، بالرغم من أن ظهير 23 ماي لسنة 1925 لم يتضمن أية إشارة إلى جنسية أعضاء مجالس الجماعات⁴.

مقابل ذلك، نبهت الأسبوعية المذكورة إلى أن اليهودية المغربية قد تطورت بشكل سريع وملفت، بفضل ظهور جيل جديد متشبع بالثقافة الفرنسية يملك علاقات قوية مع أوروبا ومع التنظيمات اليهودية خارج المغرب، مقابل علاقات ضيقة مع المؤسسات العامة بالبلاد، بالتالي من غير المقبول، في تقديرها، ألا تستفيد الجماعات اليهودية من حيوية هذا الجيل عبر خلق تعاون مع الجيل القديم من أجل التكيف مع شروط الحياة المتطورة، موضحة أن: "[...] تحركات الشبيبة التي تنتقد الوضع في الشهور الأخيرة ما هي إلا ردة فعل على الجمود الذي بات يعيش فيه المجتمع اليهودي، وتعبير عن طموحاتهم في تطور المؤسسات والعقليات"⁵.

نفس الأسبوعية أقدمت في أكثر من مقال على انتقاد حصر نشاط مجلس الجماعة في العمل الخيري بشكل بات يشجع على تفاقم مشكل الاحتياج الذي كان من المحتمل أن يتحول إلى مرض اجتماعي⁶، أكثر من ذلك، نبهت إلى مشكلة اقتصار موارد مجلس الجماعة على الضرائب غير المباشرة المستوحاة من الشريعة اليهودية بسبب

¹ «Le Statut des Communautés Israélites au Maroc»..., op. cit, p. 6 et 7.

² «Le Statut insaisissable»..., op. cit, p. 2

³ «Première Etape», in AI, N° 253, 15 novembre 1936, p. 2.

⁴ «Le Statut des Communautés Israélites au Maroc»..., op. cit, p. 6 et 7 ; «Le Statut insaisissable»..., op. cit., p. 2

⁵ «Première Etape»..., op. cit., p. 2.

⁶ «Le Statut des Communautés Israélites au Maroc»..., op. cit, p. 2.

افتقار الجماعات الإسرائيلية لموارد مالية خاصة، وأضافت بأنه يجب التفكير في موارد جديدة لأن مفعول الثقافة الدينية سيتلاشى يوما ما مع تزايد انتشار الأفكار الحديثة¹.

وعلى مستوى طريقة الحصول على العضوية داخل المجلس، طالبت "المستقبل المصور" باعتماد نظام الانتخابات عوض التعيين، لاختيار أفضل العناصر التي باستطاعتها القيام بمهام أكبر من مجرد تقديم المساعدة للمحتاجين، عبر توسيع أنشطتها الاجتماعية من أجل القضاء على الفقر والهشاشة والجهل والتسول، مع الاهتمام بالتكوين المهني وتأسيس المستشفيات وبناء دور للعجزة وللمصابين بالأمراض المزمنة وإعادة إصلاح المقابر والمعابد².

أما خلال مرحلة الثلاثينات، فقد استمرت نفس الأسبوعية في إثارة نفس المطالب، من قبيل مطالبة المقيم العام الجديد نوجيس مجددا باعتماد نظام الانتخابات لاختيار أعضاء مجلس الجماعة وبصلاحيات فعلية³، متهمة إدارة الحماية بالتملص من مسؤوليتها في مراجعة القانون المنظم لعمل الجماعات عبر إلقاء المسؤولية على الأشخاص الذين كانوا على رأس مجالس الجماعات⁴. ولم يفتها أن تذكر بأن انتقاداتها كانت موجهة للمؤسسات أو بالأحرى بسبب غياب المؤسسات، وليس النيل من أعضاء الجماعات في ذاتهم⁵، وأن الانتقادات التي كان يبدو أنها تطل الأشخاص⁶ لم يكن من الممكن تفاديها لارتباطها بعمل المؤسسات⁷.

هذا وقد وجهت الجريدة ملاحظات قوية وصريحة لمدوب الرابطة الإسرائيلية بالمغرب سماش، موضحة بأن انتقاداتها الموجهة لتعديلات 1918 لم تكن للتقليل من شأن أعمال البر والإحسان كما اتهمها هذا الأخير، بل لأنها كانت ترى بأن شؤون الجماعة أكبر من أن تحتزل في الأعمال الخيرية فقط⁸. ومن أجل توضيح خلفية ومرامي ما كانت تطمح إليه استحضرت نموذج الجماعة اليهودية بمدينة طنجة، الذي طالبت بأن يكون قدوة لباقي جماعات المغرب، حيث كانت لجنة الجماعة اليهودية هناك تنتخب بالاقتراع الشعبي منذ ما يزيد على خمسين سنة،

¹«Le problème Juif au Maroc», in AI, N° 256, 15 janvier, 1937, p. 5-6.

²«Le Statut des Communautés Israélites au Maroc»..., op. cit, p. 6 et 7.

³«Le Statut insaisissable», in AI..., op. cit, p. 2

⁴«Le Dahir inappliqué», in AI, N° 256, 15 Janvier 1937, p.2.

⁵«Première Etape»..., op. cit, p. 2.

⁶"الحاخامية المغربية التي تتحكم في توجيه الرأي العام اليهودي حاليا تضم شخصيات ووجوه شاحبة، يتم اختيارهم من بين أناس غير متعلمين، ماعدا تمكنهم من بعض المعارف التلمودية ، وعاجزين عن إلقاء خطبة دينية بسيطة... اليهودية تتقدم ببطء مع أن هناك طاقات متعلمة ومتقفة في صفوف الجماعات ترفض مشاركتها خوفا من سحب البساط من الأعيان التقليديين، لذلك تكتفي بالمشاهدة فقط... هذه الشخصيات الروحية التي تترأس لجان الطوائف وتشرف على أمور العبادات، لم تنجح في تقوية روابط التضامن بين أعضاء الجماعات، لأن لجان الجماعات في صيغتها التقليدية لم يكن لها برنامج..."

«Le problème Juif au Maroc»..., op. cit, p. 5-6.

⁷«Le Dahir inappliqué »..., op. cit. p. 2.

⁸«Le Statut insaisissable»..., op. cit, p. 2.

واستطاعت التكفل بكل الشؤون الاجتماعية للجماعة (التعليم والر والإحسان وشؤون العبادة)¹. هذا وفي إطار تقديم المزيد من الاقتراحات لتجاوز قصور برنامج عمل لجان الجماعات الذي كان محط انتقادات متكررة، طالبت المستقبل المصور في أحد مقالاتها، باعتماد البرنامج التالي: القضاء على الفقر المدقع، وخلق أعمال خيرية تحت رقابة عليا تتمثل في تقديم "الحريرة" للمعوزين، وبناء مآوي للعجزة، وإحداث المطاعم الدراسية، وصندوق للإغاثة، وحضانة للأطفال، وتشديد بناءات رخيصة، وتنظيم الإعانات الطبية، وإحداث المستوصفات وعيادات الولادة والمستشفيات، ومراقبة التعليم فيما يتعلق بالعبرية، والاهتمام بالتعليم المهني والفلاحي، والنظر في تعديل مهمة الحاخام وتشديد المعابد الرسمية. وأضافت، معلقة على ذلك، بأن هذه الأهداف يمكن تحقيقها إذا ما تم تشييب لجان الجماعات بشكل يساعد على نيل اهتمام الساكنة وانتزاع الاعتراف من إدارة الحماية².

رغم كل الانتقادات التي وجهتها العناصر المتطورة، ظلت سلطات الحماية على موقفها الرافض لأي مراجعة لما جرى من إصلاحات منذ 1918 حتى سنة 1945، معتبرة أن مؤاخذات العناصر الشابة مجرد امتداد للصراعات التي كانت بين النخب التقليدية والنخب العصرية المتشعبة بالأفكار "الثورية" التي تشبعوا بها بفضل مدارس الأليانس³.

وفي الوقت الذي استطاع فيه المغاربة اليهود تحقيق بعض المكاسب الاجتماعية ما بين 1912 و1940، حصل تطور لم يكن متوقعا، وضع حدا لتفاؤلهم من أجل ردم الهوة العميقة بين تطورهم السريع وبين المؤسسات القديمة التي لم تكن تستجيب لطموحاتهم، ونقصد بذلك تطبيق قوانين فيشي العنصرية ابتداء من شهر أكتوبر سنة 1940⁴. غير أنه بعد نهاية الحرب العالمية الثانية حدثت تطورات متعددة على المستويين المحلي والدولي ساهمت في دفع سلطات الحماية إلى إعادة النظر في مضامين تعديلات 22 ماي 1918، وقد تمثلت تلك التحولات تباعا فيما يلي: تأثير المحرقة اليهودية على يد النازيين الألمان من جهة، ورغبة سلطات الحماية من جهة أخرى في تجاوز عقدة فيشي و"التصالح" مع عموم اليهود "الحلفاء التقليديين، لأن الإقامة العامة رأت أن الحكمة تقتضي إصدار قوانين جديدة منظمة للعمل الجماعي اليهودي تؤسس لمرحلة جديدة مليئة بالتحديات⁵، أضف إلى ذلك رغبة الحماية في ضبط

¹«Le Statut insaisissable»..., op. cit, p. 2.

²«Le problème Juif au Maroc»..., op.cit, p. 5-6.

³محمد حاتمي، الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية وهران المغرب المستقل...، مرجع سابق، ص. 154.

⁴ANR , Secrétariat Général du Protectorat, Service de Législation, Objet:Dahir à l'application au Maroc de la Loi du 3 Octobre 1940 portant Statut des Juifs, op. cit.

⁵محمد حاتمي، الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية وهران المغرب المستقل...، مرجع سابق، ص. 155.

التوازنات المحلية بعد الخلل الذي أصابها بسبب ظهور حركة وطنية منظمة تعمل بتنسيق مع السلطان خاصة بعد تقديم وثيقة المطالبة بالاستقلال¹.

كما أن حذر المقيم العام غابرييل بيو تجاه اليهود شأنه في ذلك شأن سابقه، لم يحل دون محاولة إرضاء جزء من المطالب التي كان الصهاينة يتبنونها² بسبب ضغط التنظيمات الصهيونية المغربية المؤازرة بهيئات عالمية (خاصة المؤتمر اليهودي العالمي والمجلس اليهودي الأمريكي)، ناهيك عن مضاعفات ونتائج الحضور القوي للقوات الأمريكية، والزيارات المتكررة للدبلوماسيين الأمريكيين للملكة³. ونذكر في هذا السياق أن ممثلي الوفد المغربي بمؤتمر أطلانتيك سيتي قد طالبوا بضرورة التعجيل بإجراء إصلاحات تمس الوضع القانوني والسياسي ليهود المغرب⁴.

فضلا عن ذلك، ساهمت مجموعة من الدراسات التي حصلت على مستوى البنيات المؤسساتية والعقليات والعلاقات بين مكونات الأهالي، في إقناع الحماية الفرنسية بجدوى الاستجابة لما كانت تنتظره النخب اليهودية، وكذلك طمأنتها من ردود فعل الأغلبية المسلمة، لأن الإصلاحات لا تعنيها ولن تتم على حسابها. كما أن الدراسة التي قام بها الضابط غودان حذرت إدارة الحماية من أن عدم تجاوبها مع المطالب اليهودية يمكن أن يدفع بهم إلى التقارب مع الأحزاب الوطنية المغربية⁵، الأمر الذي من شأنه أن يعطي دفعة قوية للوطنيين بفضل التأييد الذي كان يمكن أن تحصل عليه من طرف اللوبيات اليهودية العالمية، وبالتالي قد تصبح العناصر اليهودية مناهضة للوجود الفرنسي بالمغرب⁶، وهو الأمر الذي لم تكن لتسمح به سلطات الحماية.

لذلك، وبناء على كل ما سبق، ستقوم هذه الأخيرة بإصدار ظهير بتاريخ 7 ماي سنة 1945 الذي وسع من الصلاحيات المنصوص عليها في التعديلات السابقة، حيث نص في الفصل الأول على السماح لمجلس الجماعة بالتعبير عن الآراء المبررة وعرض الاقتراحات التي تخص جميع قضايا الطائفة الإسرائيلية، أضف إلى ذلك الإشراف على تدبير شؤون المؤسسات الخيرية⁷، وينص في الفصل الثاني على طريقة نيل عضوية مجلس الجماعة، حيث أصبح أعضاؤه يعينون بعد اقتراع سري منظم تحت مراقبة سلطات الإدارة المحلية، على أن يضم مجلس الجماعة رئيس المحكمة

¹ نفسه، ص. 155.

² محمد كنيب يهود المغرب، 1912-1948...، مرجع سابق، ص. 253.

³ محمد حاتمي، الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية وهران المغرب المستقل...، مرجع سابق، ص. 155.

⁴ E. Goidan, op.cit, p. 127.

⁵ Ibid, p. 90.

⁶ محمد حاتمي، الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية وهران المغرب المستقل...، مرجع سابق، ص. 155.

⁷ Dahir du 7 mai 1945 (24 jourmada 1, 1364) relatif à la réorganisation des comités des communautés israéliques marocaines, i, BO, 1945, p. 327.

العبرية أو الحاخام المندوب إضافة إلى الأعيان اليهود بمن فيهم اليهود من أصل مغربي سواء كانوا من المحميين والمجنسين، كما أضاف بأنه لا يتمتع بحق التصويت إلا الأعيان الذين يدفعون دوما هبات لصندوق التبرعات الخاص بالطائفة المخصص لتمويل الأعمال الخيرية، أي أن الأمر يتعلق هنا بكتلة ناخبة محصورة في "الأعيان الواهبين"، أضف إلى ذلك المشرفون على دور العبادة وأعضاء مكاتب الجمعيات المشكلة بطريقة قانونية، التي ضمت اليهود من أصل مغربي بمن فيهم المحميين والمجنسين مع التأكيد على استثناء اليهود الأجانب والجزائريين من المشاركة في هذه العملية، على أن يظل أعضاء لجان مجلس الجماعة تحت رقابة الصدر الأعظم مع ضرورة أن يكون عدد الأعيان المنتخبين أكثر من نصف الأعضاء الذين سيعينون من قبل الصدر الأعظم¹. من نتائج هذا الشرط أن تم حصر عدد الناهبين بمكناس في أول انتخابات في 600 ناخب، بنسبة 10 بالمائة من عدد الذكور البالغين من عدد ساكنة كانت تقدر حينها بحوالي 14000 نسمة²، بدون احتساب مشاركة النساء لأنهن كن مازلن مقصيات من المشاركة في تدبير الشأن العمومي، بالرغم من أن نص التعديلات أكد على حق الإناث في الانتساب للكتلة الناخبة، إذا توفرت فيهن الشروط المنصوص عليها في الفصل الثاني.

كما رفع الفصلان الثالث والرابع من عدد أعضاء المجلس (أقله ثمانية وأكثره عشرون)، وقد تم ذلك بناء على مضمون قرار وزيرى نظم هذه المسألة حسب أهمية كل جماعة. هذا وتدوم ولاية كل عضو أربع سنوات مع تجديد نصف المجلس كل سنتين، وفي حالة غياب أحد الأعضاء بسبب الموت أو الاستقالة يتم تعويضه بقرار من الصدر الأعظم من اللائحة التكميلية طبقا للشروط الوارد ذكرها في الفصل الثاني، وتنتهي ولايتهم خلال المدة التي كانت مقررة للذين تم تعويضهم³. بينما نص الفصل الخامس على اختيار أعضاء مجلس الجماعة من بينهم، سواء تعلق الأمر بالرئيس ونائبه والكاتب وأمين المال، ويظلون خاضعين بدورهم لموافقة الصدر الأعظم، ويتم تجديد أعضاء المكتب كل سنتين مع تأدية مهامهم مجانا⁴. في حين نص الفصل السادس على تحديد مصادر تمويل مجلس الجماعة، التي حددها في العطايا والهبات والضرائب على المواد والمنتجات الشعائرية بالإضافة إلى عائدات المؤسسات الخيرية، وتخضع الميزانية سنويا لرقابة الصدر الأعظم. وأقر الفصل السابع بالزامية عقد اجتماع سنوي لرؤساء أهم الجماعات بالرباط، في شهر مارس، بقصد التشاور والتنسيق في إطار مؤسسة جديدة هي مجلس الجماعات اليهودية المغربية⁵.

¹Dahir du 7 mai 1945 op.cit, p. 327.

²J. Tolédano, **Portait...**, op. cit, p. 329.

³Dahir du 7 mai 1945 op. cit. p, 327.

⁴Ibid, p. 327.

⁵Dahir du 7 mai 1945, op. cit, p. 327.

الذي حدد الظهير 7 ماي 1945 وظائفه الرئيسية في تمثيل السكان اليهود لدى السلطات المخزنية والفرنسية، وتقديم السند والمساعدة للأهالي، وتدير شؤون الوقف اليهودي والمؤسسات الدينية وتنظيم الحياة الروحية¹.

من خلال مقارنة تعديلات 1918 مع تعديلات 1945 يتضح أن هذه الأخيرة قد حققت لليهود بعض المكتسبات المتمثلة في مضاعفة عدد أعضاء مجلس الجماعة ومدة الولاية، إضافة إلى التخفيف من سلطة الصدر الأعظم في التحكم في تحديد من يشغل عضوية المجلس من خلال اعتماد نظام الاقتراع السري في اختيارهم، ناهيك عن السماح بتأسيس مجلس الجماعات اليهودية الذي أتاح لأعضائه فرصة للتنسيق والتداول سنويا حول الأمور التي تخص الجماعات اليهودية. غير أن أهم مكسب تحقق بفضل الإصلاحات الأخيرة هو "إحداث القطيعة نظريا على الأقل" مع نظام الأعيان التقليديين، لأنه أتاح مبدئيا لأعضاء الشبيبة المتطورة والديناميكية فرصة إيجاد مكان داخل لجان الجماعات، بشكل سمح تدريجيا بالتخفيف من حدة سوء التفاهم والأحكام المسبقة التي كانت حاجزا بين الطرفين، مع ما لذلك من أهمية في تسهيل العناية بشؤون الجماعات اليهودية². هذا وتجدر الإشارة، أيضا، إلى توصية صدرت عن الضابط غوادان، سبقت الإشارة إليها، دعا فيها سلطات الحماية إلى تبني إصلاحات إضافية للتعديلات التي أقرها الظهير 7 ماي 1945، مقدما الاقتراحات التالية مشيرا أن تبنيها متيسر دون أن يؤدي ذلك إلى إحداث أي خلل في موازين القوى:

- التخفيف من مسااطر الحصول على الجنسية الفرنسية.
- تمثيل اليهود بمجلس شورى الحكومة.
- توسيع مجال حرية الصحافة والجمعيات.
- توسيع اختصاصات مجالس الجماعات والهيئات التي تنتخبها.
- الاعتراف القانوني بالتنظيمات الصهيونية ومنظمات الكشفية.
- تعيين مساعدين قضائيين يهود في المحاكم المخزنية، وتعديل الأحكام المعمول بها لقبول شهادة اليهود.
- تعميم التعليم العصري على جميع الأطفال اليهود.
- بناء أحياء يهودية عصرية لصالح اليهود، وتحسين ظروف السكن في الملاحات فورا³.

¹محمد حاتمي، الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية وهران المغرب المستقل...، مرجع سابق، ص. 156.

²E. Goidan, op. cit, p. 87.

³Ibid, p. 88.

في نهاية دراسته ألح غوادان على أن "الوضع خطير حقا" ويتطلب نهج سياسة طموحة لن تعود بالنفع على اليهود فقط، بل على المسلمين والوجود الفرنسي بالمملكة¹. هذه الاقتراحات كان لها دور في دفع سلطات الحماية في عهد المقيم العام الجنرال ألفونسو جوان (ماي 1947 - شتنبر 1951) سنة 1947 إلى إصدار ظهير 13 أكتوبر سنة 1947 سمح بموجبه بعضوية اليهود بمجلس شورى الحكومة إلى جانب المسلمين والفرنسيين، حيث نص في مرسومه التنظيمي في الفقرة الرابعة على تمثيلية المغاربة الإسرائيليين ب 6 أشخاص مندوبين ومعينين من طرف أعضاء لجان الجماعات اليهودية² بالمدن الكبرى التالية: الدار البيضاء، ومراكش، وفاس، والرباط، ووجدة، ومكناس³. وقد كان من بينهم جوزيف بيرديغو ممثلاً عن مدينة مكناس، الذي تولى منصب نائب الرئيس في فدرالية المندوبين داخل مجلس شورى الحكومة والذي تميز بشخصيته القوية وكاريزمته داخل هذه المؤسسة رغم أن وظيفته كانت استشارية خصوصا في الأمور المتعلقة بالمالية⁴. لقد كان هذا الأخير يعبر عن آرائه بقوة بشكل أثار ثناء جريدة صوت الجماعات في إحدى مقالاتها سنة 1950، مما جعل منه مفخرة لإخوانه في الدين بمكناس⁵.

¹ibid, op. cit, p. 90.

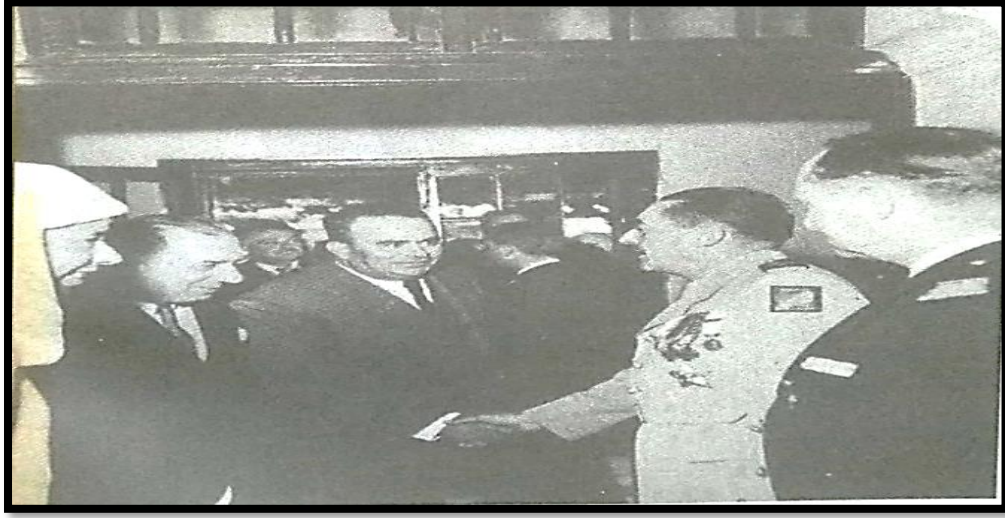
²M. Eisembeth, *les Juifs au Maroc*, op. cit, p. 93.

³أوردت الإقامة العامة العديد من التبريرات لقرارها حيث شددت على الرغبة في إشراك ممثلين عن جميع المكونات البشرية المغربية في أعلى مؤسسة تمثيلية ليتمسوا على ضوابط وقواعد اللعبة الديمقراطية. وذكرت بأن القاعدة اقتضت دوما مشاركة عناصر يهودية يسندون السلطان في تسيير مرافق عمومية شهد لهم بالإلمام بأسرار تسييرها، كما أشارت إلى أنه لتستوفي الدولة المغربية الشروط التي تجعلها بحق دولة عصرية، فإنه لا مناص من النقل من تيوقراطيتها وفسح المجال تدريجيا أمام الفعاليات الأكثر ليبرالية وانفتاحا. ويبدى أن الإقامة العامة سعت بالدرجة الأولى إلى تحقيق أهداف من طبيعة سياسية محضة حيث أوهمت النخب اليهودية بالمشاركة في تدبير الحياة السياسية، وأنه بإمكانها - أخيرا - الإدلاء بآرائها فيما يتعلق بالشأن العام". محمد حاتمي، *الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية ورهان المغرب المستقل...*، مرجع سابق، ص. 163.

⁴J. Tolédano, *Portait...*, op.cit, p. 329.

⁵Ibid, p. 330.

صورة رقم 21: جوزيف بيرديغو، رئيس الجماعة اليهودية بمكناس يحيي المقيم العام الجنرال غيوم بالرباط



Source : J. Tolédano, *Portait...*, op cit. p. 312.

لم تقف طموحات النخب اليهودية المهتمة بالشأن العام عند هذا الحد، حيث عبرت عن عدم رضاها عن نسبة تمثيلية اليهود بمجلس شورى الحكومة والتي تمثلت في 6 ممثلين فقط، مقارنة مع تمثيلية المسلمين التي حددت في 60 ممثلاً، لذلك طالبوا سلطات الحماية بالرفع من عددهم عبر ضمان ممثل عن كل جهة، مستشهدين بمنطقة أكادير التي لم تمثل بالرغم من وجود جماعات يهودية مهمة هناك من حيث العدد. كما انتقدوا طريقة اختيار المندوبين التي حصرت عملية اختيارهم في أعضاء مجالس الجماعات المحلية فقط، بشكل كرس نفس النخب في أكثر من منصب، وعوضاً عن ذلك طالبوا من سلطات الحماية بأن يتم انتخاب المرشحين من طرف جميع سكان الطوائف على المستوى الجهوي حتى تتحقق لهم شرعية التمثيل جهويا¹. والجدير بالذكر أن طموح اليهود إلى تحقيق المزيد من المكتسبات في هذا الموضوع، قابلته معارضة شديدة من رجال المخزن للمقترح القاضي بإلحاق عدد أكبر من الشخصيات اليهودية بمجلس شورى الحكومة لاعتبارات دينية وفقهية – وشخصية كذلك –، في حين التزم السلطان الصمت². لكن سلطات الحماية الفرنسية سعت بالمقابل إلى إقناعهم بضرورة وجدوى مشاركة العنصر اليهودي في السير العادي للمؤسسات التمثيلية، لأن ذلك سيسمح بالاستفادة من خبرة الأطر اليهودية، مثلما يستجيب في الآن نفسه لنداءات الهيئات المدافعة عن حقوق اليهود المغاربة في الممارسة السياسية³. وانسجاماً مع هذه الرؤية،

¹M. Eisembeth, *les Juifs au Maroc...*, op. cit. p. 94.

²محمد حاتمي، *الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية وهران المغرب المستقل...*، مرجع سابق، ص. 161.

³نفسه، ص. 162.

وبتاريخ 13 أكتوبر 1947 أصدرت سلطات الحماية ظهيراً شريفاً أعقبه في اليوم الموالي قرار وزاري، نصاً معاً على تأسيس غرف مغربية للفلاحة والتجارة والصناعة، وحددا وظائفها ومكوناتها وطرق الانتخاب بالنيابة فيها، وقد كان نصيب يهود مكناس في تشكيلة هذه المؤسسة 4 ممثلين مقابل 17 مسلماً¹. وقد أسفرت الانتخابات (10 ديسمبر 1947) في جل المراكز على فوز العناصر المنتمية إلى مجالس الجماعات المحلية، أي أنها كرست هيمنة النخب الغنية والتقليدية على شؤون الجماعات².

ورغم محدودية هذه الإصلاحات، في تقدير النخب اليهودية المتطورة، فقد ساهمت في خلق ديناميكية مهمة أثارت اهتمام أفراد الجماعة اليهودية بمكناس، وخاصة فيما يتعلق بنوع النخب التي يجب أن تتولى السهر على تسيير شؤونهم، ومن الوقائع التي تؤكد ذلك ما حدث بمناسبة الانتخابات التي جرت في 19 ديسمبر 1953 من أجل انتخاب أعضاء مجلس الجماعة المحلية، حيث حصل توتر شديد بين أبرز مرشحين هما جوزيف بيرديغو و مريجن³، ذلك أنه في إطار الحملة الدعائية من أجل كسب الأنصار قام جوزيف بيرديغو بعقد ندوة عمومية بالبيعة الكبرى لباروخ طوليدانو وسط جمع من الحضور بلغ حوالي 500 شخص، بينما العشرات الذين لم تتسعهم القاعة ظلوا يتابعون عرض السيد بيرديغو عبر مكبرات للصوت، وقد وصف مبعوث المصالح الأمنية ذلك قائلاً: "قدم بيرديغو برنامجه في مدة قدرت في حوالي ساعتين، وعرض حصيلة ما قدمه من منجزات لمدة 22 سنة، منها أربع سنوات رئيساً و 18 سنة عضواً، حيث عبر عن فخره بما قام به لصالح جماعته وفي علاقتها بالسلطات [...]"، كما أضاف قائلاً: لقد كان وضعنا خلال فترات معينة حساساً وخطيراً، لكن يمكن القول أن طموحاتنا قد لقيت الرعاية اللطيفة من قبل الإدارة بفضل العقول الحكيمة والعادلة. لقد نجحنا أثناء وخلال الفترة القامة للحرب في تطبيع علاقتنا مع المخزن والسلطات الفرنسية مما مكننا من حل مشاكلنا الحساسة. في علاقتنا مع الخارج، تتمتع جماعتنا بسمعة جيدة، وجميع ذوي النوايا الحسنة يتفقون على هذا الأمر، وتكفي الشهادات المتعاطفة والمعبرة عن إعجابها⁴. كما أسهب في استكمال عرض تقريره في الأمور المتعلقة بنجاحاته في تدبير مالية الطائفة⁵. لكن في نهاية نشاطه التواصل

¹نفسه، ص. 163.

²نفسه، ص. 163.

³R. Assaraf, *Eléments ...*, op. cit, p. 280.

⁴J. Tolédano, *Portait...*, op. cit, p. 331.

⁵في نهاية سنة 1934 كانت ميزانية الطائفة تقدر 23000 فرنكاً وفي ذمتها دين قيمته 40000 فرنكاً، كان قد وُظف في بناء مؤسسة التلموذ تورا. أثناء الحرب كان وضعنا المالي جد حساس، وعرضة للحوادث الاستثنائية والمخاطر كارتفاع الفقر والانخفاض المهول في القدرة الشرائية ونقص في التموين... إلخ، لكن رغم ذلك تمكنا من تخطي المشاكل والحفاظ على توازن ميزانيتنا بفضل العقول الحكيمة، وكرم أعيانها الذين لم ييخلوا عنا بمساعدتهم. في تاريخ 1 يناير 1935 كانت ميزانية الطائفة تقدر ب 9378876 فرنكاً دون احتساب دفع الدين الذي قدر ب 400000 فرنك وشراء أملاك عقارية جديدة تضم 14 عمارة جديدة، بعضها ذات قيمة عقارية عالية، ويمكن تقييم المجموع ب 50000000 فرنك. أيضاً من مظاهر ازدهار طائفتنا، خلوها الكامل من الفقراء بالمقارنة مع أطباف المجتمع الأخرى والذي يعبر عن نقص التضامن والتلاحم وحسن التسيير الذي يميز طائفتنا والذي يجب الحفاظ عليه بشدة".

Ibid, p.331.

قام أنصار منافسه مريجن باقتحام مكان العرض، وإحداث البلبلة بين الحاضرين الذين فضل بعضهم المغادرة، وقد كانوا في نفس الوقت يوزعون أوراق الحملة الانتخابية، تماماً كما كان يفعل أنصار بيرديغو، وإن بحكمة أكبر. في ظل هذه الأجواء المشحونة تدخلت الشرطة من أجل استتباب الأمن، وكذا تمكين الذين غادروا من العودة، وبعد حوالي ربع ساعة من التوتر وتبادل العبارات الجارحة بين الطرفين، استطاع بيرديغو أن يكمل عرضه¹. بعد ذلك قام مريجن بعرض خطابه باللغة العبرية وبسرعة مبرزا من خلاله أنه قدم بدوره خدمات جليلة لإخوانه في الدين بمدينة مكناس عندما ترأس مجلس الجماعة خلال مرحلة الثلاثينات، وأضاف بأن الإعلانات المثبتة على الأسوار تلخص كل ما قام به من أنشطة لصالح جماعته في السابق².

خلال اليوم الموالي أجريت الانتخابات بنسبة مشاركة بلغت 95 بالمائة حيث قام بالتصويت 622 شخصاً من أصل 649 ممن كانت تتوفر فيهم شروط الكتلة الناجبة، وقد أسفرت النتائج مرة أخرى عن تكريس فوز لائحة جوزيف بيرديغو الذي فاز بـ 5 مقاعد وبالغلبية. الفوز الكبير الذي تمكن من تحقيقه السيد بيرديغو أدى إلى انتشار بعض الأقاويل تفيد بأنه كان يحظى بدعم من الإدارة الفرنسية، الأمر الذي سيدفع هذه الأخيرة إلى محاولة خلق نوع من التوازن مع معارضيه، وقد تم ذلك عقب تقديم 12 شخصية من الجماعة اليهودية بمكناس لعريضة للسلطات الفرنسية يطالبونها فيها بالرفع من عدد أعضاء مجلس جماعتهم لتحقيق التناسب بين عدد أفراد الجماعة الذي بلغ سنتها 14500 نسمة ونسبة تمثيلهم بالمجلس الذي كان في حدود 10 أشخاص، فاقتروا أن يتم رفع العدد إلى 14 شخصاً، كما هو الشأن بالنسبة للجماعة اليهودية بمدينة فاس التي كان عدد أفرادها 14000 مقابل 14 عضواً بمجلس الجماعة³.

انسجاماً مع هذا الطلب، وأخذاً بعين الاعتبار لنتائج آخر انتخابات، قررت إدارة الداخلية تعيين أربعة ممثلين أعضاء آخرين إثنين منهم كانا محسوبين على مريجن هما: دافيد مريجنو ميمون مريجن، والآخرين كانا تابعين لبيرديغو هما: دانييل طوليدانو وباروخ بنعمرام. ورغم هذه الإضافة فقد ظلت الأغلبية الساحقة في حوزة بيرديغو بواقع 12 عضواً من أصل 14، لكن الرجل رفض ذلك معترضاً بشدة على منح مقعدين لمنافسه، وما كان منه إلا الاستمرار في تحدي سلطات الوصاية المتمثلة في مفتشية المؤسسات الإسرائيلية والكاتب العام لمجلس الجماعات جاك دحان، حيث استمر في عقد اجتماعات مجلس الجماعة في صيغته الأصلية دون استدعاء الأعضاء الأربعة الجدد، مما أدى

¹R. Assaraf, *Eléments* ..., op. cit, p. 280.

²Ibid, p. 280.

³J. Tolédano, *Portait*..., op. cit. p.p. 323-333.

إلى صدور قرار إدانة في حقه -في غيابه- من قبل مؤسسة مجلس الجماعات¹، كما أن مديرية الشؤون الشريفة رفضت كل الدفوعات التي تقدم بها، وشددت على أن القرار نهائي ويدخل ضمن اختصاصات الصدر الأعظم²، في النهاية اضطر للرضوخ، كما أن تسارع الأحداث في السنوات الأخيرة من الحماية في اتجاه تحقيق الاستقلال أرغم الإدارة الفرنسية على إلغاء نتائج انتخابات سنة 1955، بشكل وفر الفرصة لجوزيف بيرديغو كي يظل رئيسا لمجلس جماعة مكناس خلال الشهور الأخيرة من الحماية، وخلال مرحلة ما بعد الاستقلال حتى سنة 1968³.

إذا كانت هذه الإصلاحات قد أثارت استحسان النخب اليهودية التقليدية التي اعتبرت خطوة مهمة ومؤشرا إيجابيا يعد بتحقيق المزيد من المكتسبات في أفق تحقق التحرر الشامل للمغاربة اليهود⁴، فإنها بالمقابل أثارت درجة كبيرة من الاستياء في صفوف النخب المتطورة التي عبرت عن عدم رضاها بما تحقق، لأن تلك الإصلاحات في تقديرها لم تسائر مستوى التطور الاجتماعي الكبير الذي حققه الإسرائيليون المغاربة بفضل التعليم العصري مقارنة بالمسلمين⁵، بالرغم من أنها ساهمت نسبيا في تعزيز الديناميكية التي انطلقت وسط يهود مكناس منذ نهاية العشرينات بشكل سمح بإثارة اهتمام أفراد الجماعة اليهودية أكثر تجاه مؤسسة مجلس الجماعة، الأمر الذي سمح بتكريس وصول بعض العناصر الشابة النشيطة من قداماء مدرسة الرابطة إلى "مركز صنع القرار"⁶، رغم أن منصب الرئاسة ظل منذ منتصف الثلاثينات في يد جوزيف بيرديغو كما سبق وأوضحنا ذلك. من جهة أخرى، اعتبر المؤتمر اليهودي العالمي والمجلس اليهودي الأمريكي والبورود البريطاني والأليانس تلك الإصلاحات التي تحققت مباشرة بعد نهاية الحرب العالمية الثانية مخيبة للآمال⁷. ومن ثم كان تقدير هذه الأطراف أن تعديلات سنة 1945 لم تكن تعبر عن إرادة حقيقية في اتجاه إحداث إصلاح ثوري من قبل سلطات الحماية التي ظلت في العمق حريصة على عدم الذهاب بعيدا في مسلسل "التحديث" الذي كانت تطمح إليه النخب اليهودية التي راهنت فيه كثيرا "بسداجة" على فرنسا⁸. وفيما يلي أهم المؤاخذات التي سجلت على تلك الإصلاحات وردت بكتاب أندري شورافي المعنون بـ "الوضع القانوني لليهود المغرب": أولا، استمرار اشتداد الرقابة والوصاية الإدارية على مجلس الجماعة من طرف سلطات الحماية بشكل أعاق نيل الاستقلالية في اتخاذ القرارات، بالرغم من أن اليهود كانوا ينظرون إلى أنفسهم بعد الحرب أنهم وصلوا إلى

¹Ibid, p.334.

²R. Assaraf, *Eléments...*, op. cit, p. 281.

³J. Tolédano, *Portait...*, op. cit, p. 335.

⁴محمد حاتمي، *الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية وهران المغرب المستقل...*، مرجع سابق، ص. 159.

⁵A. Chouraqui, *La condition juridique de l'Israélite Marocain*, publié par L'Alliance Israélite Universelle, Ed Presse du livre Français, paris, 1950, p. 187.

⁶J. Tolédano, *Portait...*, op. cit, p. 209.

⁷محمد حاتمي، *الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية وهران المغرب المستقل...*، مرجع سابق، ص. 160.

⁸J. Tolédano, *Le temps du Mellah...*, op. cit, p. 138.

مستوى من التطور الاجتماعي والنضج كان يؤهلهم للتحرر من تلك الوصاية¹، ومن الأمثلة الدالة على تلك الرقابة البيروقراطية، على سبيل المثال لا الحصر، اضطراب مجلس الجماعة إلى الانتظار لأسابيع حتى تصل رسالته إلى الإدارة المركزية، بسبب لزوم مرورها عبر السلم الإداري بمختلف الإدارات، مروراً بمصالح الشؤون البلدية ورئيس الجهة، ثم إدارة الداخلية، ثم مجلس شورى الحكومة، ثم مفتش المؤسسات الإسرائيلية، وأخيراً الصدر الأعظم. كما أن الجواب كان يمر بنفس التسلسل الإداري، الأمر الذي يتسبب في تعطيل الكثير من المصالح². ثانياً، إقصاء اليهود الأجانب المقيمين بالمغرب، خصوصاً الفرنسيين والجزائريين الحاملين للجنسية الفرنسية، من حق المشاركة في انتخاب أعضاء مجلس الجماعة أو الترشح لعضويته، الأمر الذي اعتبرته النخب اليهودية خسارة كبيرة أدت إلى حرمان اليهودية المغربية من خبرات وكفاءات اليهود الأجانب المتطورين، والذين كانوا سيقدمون الشيء الكثير لمجالس الجماعات، لو تم السماح لهم بالمشاركة. ثالثاً، اقتصار الكتلة الناجبة على الأعيان الذين كانوا يساهمون مادياً بشكل دوري في تمويل الصندوق الخيري للجماعة، بالإضافة إلى أعضاء مكاتب الجمعيات المعترف بها ومسيحيي البيعات³. رابعاً، اقتصار اختصاصات مجلس الجماعة على النظر في الأعمال الخيرية وشؤون العبادة⁴. رابعاً، عدم التنصيص على حق اليهود في مباشرة الوظائف العمومية أو منحهم نسباً معينة في الوظائف العليا والمشاركة الوزارية⁵.

في خضم هذه الحثثيات تقدّم أندري شوراقي باقتراح عدد من الإصلاحات لتجاوز النقائص التي ترتبت عن إصلاح 1945، يمكن إجمالها فيما يلي: أولاً، توسيع القاعدة الانتخابية التي تتولى اختيار المرشحين لعضوية مجلس الجماعة لتشمل كل الذين حصلوا على قدر محترم من التعليم حتى تتسم عملية الاختيار بديمقراطية أكبر⁶. ثانياً، توسيع اختصاصات مجلس الجماعة حتى يستطيع تقديم الاقتراحات والتعبير عن الآراء في قضايا التعليم والسكن والوقاية الصحية وكل ما يتعلق بالأمور الحيوية التي تخص الجماعة اليهودية... إلخ⁷. ثالثاً، السماح لليهود الأجانب المقيمين بالمغرب بالمشاركة في الانتخاب والترشح لمجالس الجماعات، بشرط أن يثبتوا إقامتهم بالمغرب بشكل متواصل لمدة لا تقل عن 5 سنوات⁸. رابعاً، تحرير نشاط مجالس الطوائف من رقابة بيروقراطية السلطات الرسمية من قبيل تمكينها من التواصل مباشرة مع مديرية الشؤون الشريفة مباشرة دون مرور المراسلات بالإدارات المحلية والجهوية من

¹A. Chouraqui, *La condition juridique de l'Israélite Marocain...*, op. cit, p. 187.

²Ibid, p. 189.

³A. Chouraqui, *La condition juridique de l'Israélite Marocain...*, op. cit, p. 187.

⁴Ibid, p. 186.

⁵محمد حاتمي، *الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية وهران المغرب المستقل...*، مرجع سابق، ص. 160.

⁶A. Chouraqui, *La condition juridique de l'Israélite Marocain...*, op. cit, p. 187.

⁷Ibid, p. 189.

⁸Ibid, p. 187-188.

أجل ربح الوقت¹. خامسا، ضرورة قيام سلطات الحماية بتقديم المساعدة المالية لمجالس الجماعات لأن المداخل الخاصة لهذه الأخيرة غير قادرة على تغطية جميع احتياجات أعضائها المتعددة².

يتضح مما سبق، أن سلطات الحماية كانت حريصة كل الحرص على ممارسة وصاية كبيرة على اليهودية المغربية، وكان الهدف من وراء ذلك الحيلولة دون مشاركتهم في الحياة السياسية، بالرغم من تناقض ذلك مع ما كان يتلقاه أبناء اليهود بالمدرسة العصرية التي كانت تحدثهم عن قيم الجمهورية الفرنسية المتمثلة في الديمقراطية والحرية والأخوة والمساواة³. غير أنه، وعلى حد تعبير محمد حاتمي، لقد ساهم صدور كتاب أندري شورافي المشار إليه سابقا، في إثارة جدل واسع داخل الأوساط اليهودية المغربية والفرنسية والدولية⁴. وعلى الرغم من كل الضغوط والمسايعي التي قام بها اليهود المتنورون من أجل دفع سلطات الحماية الفرنسية إلى الاستجابة إلى ما كانوا يطمحون إليه، ظلت هذه الأخيرة حريصة على التعاطي مع المغاربة الإسرائيليين باعتبارهم أهالي، حيث لم تكن ترى مبررا لتخصيص فئة من الأهالي بامتيازات قانونية "من أعلى مستوى" لمجرد أنهم من ملة غير الإسلام، ولأنهم متعلمون متشبعون بالقيم والأفكار الغربية. كما أن حرص السلطان ورجال المخزن على استمرارية الروابط مع اليهود وتثبيتها، عامل جعل السلطات الفرنسية تمتنع عن الانخراط في كل مسلسل يحتمل حدوث منزلقات قانونية ومخاطر اجتماعية⁵. غير أن الجدير بالذكر أن الجماعة اليهودية بمدينة مكناس كانت مهيكلة بشكل جيد، كما أن مؤسساتها كانت تنشط بشكل منظم⁶.

إجمالاً، وإذا أخذنا بكل الانتقادات التي وجهها اليهود المتنورون لسلطات الحماية في أفق تحقيق ما كانوا يطمحون إليه، أمكن القول إن التصور الذي كانت تدافع عنه النخب المتطورة كان يعبر عن تطلعات ليبرالية مناقضة تماما للإطار المحافظ الذي كانت تسعى إلى استمراره سلطات الحماية والمخزن. هذه التطلعات يمكن النظر إليها في

¹Ibid, p.189.

²Ibid, p. 188.

³D. Bensimon-Donath, *Evolution du Judaïsme Marocain...*, op. cit, p. 91.

⁴"الصحافة اليهودية في المغرب والعالم روجت لمحتوياته، ووصفت العديد من المقالات الموجهة الوضع في المغرب بالوسيطي، ورأت أن تجاوزه يفترض استخلاص اليهود من تبعاته وإكراهاته حتى وإن تطلب الأمر خلخلة التوازنات والتنكر للضوابط والقوانين المتحكمة في العلاقات بين الدولة والمغربية واليهود، وخلصت جل التعاليق والتحليل إلى أن الوضع القانوني لليهود المغرب يشكل بحق "معضلة إنسانية". وشجع الصدى الواسع لمؤلف شورافي، مجلس الجماعات اليهودية بالمغرب على شن حملة دعائية دولية واسعة داخل الأوساط اليهودية المؤثرة في الولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا وبريطانيا، بهدف الحصول على دعم قوي للدفع بالحكومة الفرنسية إلى مراجعة سياستها تجاه الجماعات، وخاصة ما يتعلق بصفتهم رعايا للسلطان ملزمين بتبعات البيعة الأبدية. وقد طمح المجلس المغربي إلى الاستفادة من الوضع الصعب للوجود الفرنسي في المغرب على إثر احتدام الأزمة في العلاقات بين القصر السلطاني والإقامة العامة، وبين هذه الأخيرة والحركة الوطنية. فالنخبة المسيرة للشأن اليهودي راهنت على تفهم الحكومة الفرنسية لمطالبها الجوهرية، أساسا لأن إدارة الحماية في المغرب فقدت السيطرة على مجريات الأمور وأضحت أكثر استعدادا لتنفيذ التعليمات الصادرة من باريس". محمد حاتمي، *الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية وهران المغرب المستقل...*، مرجع سابق، ص. 165-166.

⁵نفسه، ص. 170.

⁶Mohamed Hatimi, «Les derniers Juifs d' El Ismaïlia», in le Journal, du 21 au 27 Avril, 2001, p. 39.

إطار المد التحرري الذي اخترق اليهودية المغربية بفضل مكتسبات وحصيلة العمل الذي قامت به مدارس الأليانس العلمانية، والتي ساهمت في النهاية في توفير البيئة الحاضنة للدعاية الصهيونية بعد الحرب العالمية الثانية من أجل "إجبار" اليهود على "خيار" التهجير، والافتناع بخيار الهجرة إلى فلسطين بعدما استحال عليهم الحصول على الجنسية الفرنسية بشكل جماعي على غرار إخوانهم في الدين الجزائريين.

2. انبثاق مجتمع يهودي نشيط ومتضامن

"لقد رأى الرب يوحنا بن زكاي في منامه أن أولاد أخيه على وشك خسارة مبلغ 700 دينار، فأخفى عنهم رؤيته، لكن بالمقابل طلب منهم ضرورة منحه كل ما يملكون كصدقة، على أن يحتفظوا بـ 17 ديناراً فقط. فوافقوا على ذلك. وقبل يوم واحد من عيد كيبور، قامت السلطة بمصادرة جميع أموال اليهود، فتوجه يوحنا لأبناء أخيه قائلاً: "لا تقلقوا لأنكم لا تملكون سوى 17 ديناراً وهو كل ما أخذوا منكم". فسأله أبناء أخيه: "كيف عرفت ذلك؟" أجاب: "رأيت ذلك في المنام"، فاستفسروه لماذا لم يخبرهم بالأمر قبل ذلك، فرد عليهم: "لأنني وددت أن تتصدقوا بطريقة خالية من الأنانية"¹.

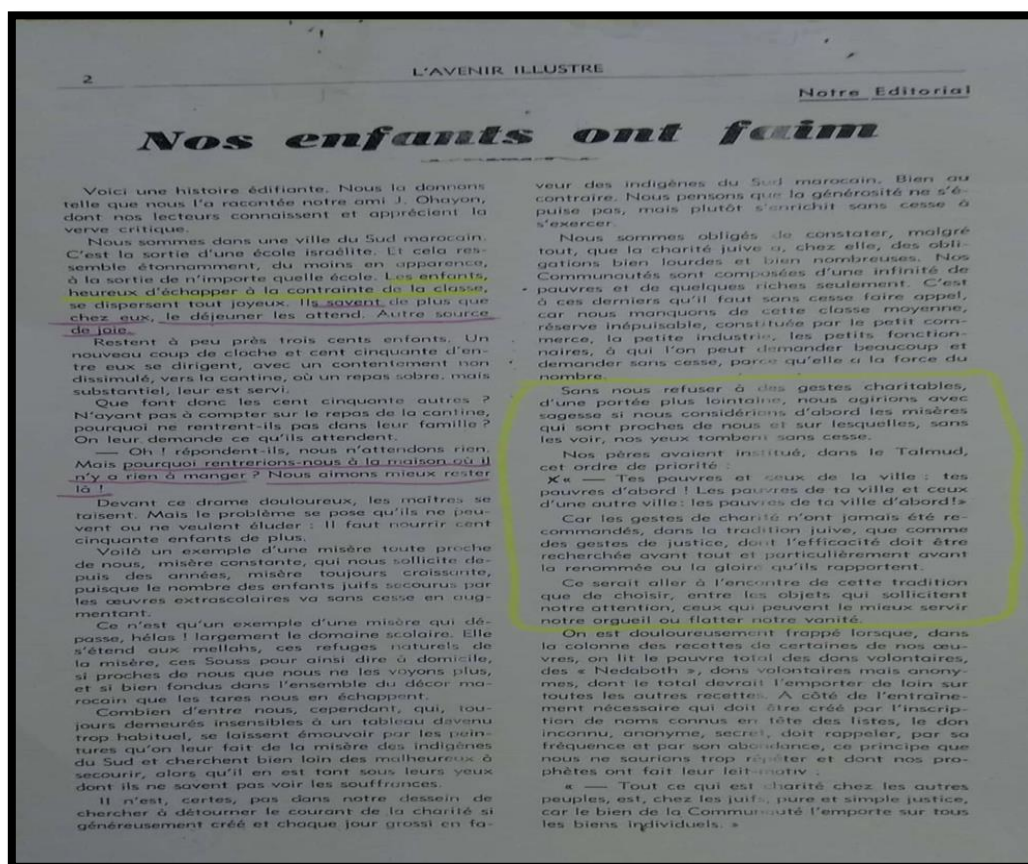
حظي العمل الخيري لدى اليهود دائماً بعناية خاصة، ليس لأن ذلك يعد من المتطلبات التي تندرج ضمن ما يميز الأقليات في ما يتعلق بضرورة تضامن وتلاحم أعضائها من أجل البقاء، بل يعود أيضاً إلى الرغبة في الاستجابة إلى التعاليم والمبادئ الدينية والأخلاقية اليهودية التي تحض على البذل والعطاء لصالح الإخوان في الدين المعوزين، إذ يمكن للمحاكم العبرية أن تلزم أعضاء الجماعة بضرورة تبادل المصالح فيما بينها رعاية للمصلحة العامة. فالغنى في اليهودية لا معنى له إلا إذا كان مفيداً أيضاً للآخرين، طبقاً للمبدأ الديني اليهودي الذي يقول: "كل ما هو خيري لدى الشعوب الأخرى، يساوي عندنا نحن اليهود العدالة"، لأن مصلحة الجماعة أهم من الملكية الفردية"².

وانسجاماً مع هذا المبدأ عُدت الصدقة واجبا تُحدد في الثلث أو الربع من مجموع الثروة الواجب التصديق منها، وقد كانت الصدقة تعتبر ميتسفا mitzva، أي التزاماً ملزماً لجميع اليهود، فضلاً عن التبرعات العفوية، كما كانت هناك ضرائب مفروضة على مواد معينة، مثل اللحوم المذبوحة على الطريقة الدينية/كاشير. وفي سبيل تدبير الأموال والعقارات الخيرية قام اليهود بخلق صندوق الصدقات/Qoupathasedaka، الذي اختص بتسيير ومراقبة جميع الأنشطة المتعلقة بتدبير الممتلكات الخيرية، وقد كان الأعوان المكلفون بمراقبة الصندوق يسمون بـ الجسبار أنييم/GisbarAniyim، من مهامهم تسيير الأملاك العقارية التي يهبها ملاكها للجماعة لصالح المحتاجين. كما كانوا يسيرون أيضاً الأملاك التي أصبحت عامة لأن أصحابها هجروها طبقاً للقاعدة المعمول بها في هذا المجال³.

¹J. Attali, *Les Juifs, le monde et l'argent...*, op.cit, p. 137.

²«Nos enfants ont faim», in AI, N° 260, 30 Avril, 1937, p. 2.

³A. Lévy, *il était une fois des juifs Marocain...*, op. cit, p. 55.



Source : « Nos enfants ont faim », in AI, N° 260, 30 Avril, 1937, p. 2.

وفي سبيل حث اليهود على التصدق لصالح إخوانهم في الدين المعوزين، يشبه الموروث الديني اليهودي الممتلكات المادية بالنافورة التي "وجب تركها تسيل"، لأن المال كلما تحرك أدى إلى خلق الثروة المفيدة للجميع، والسعي إلى المحافظة عليه يُعد جنوناً قاتلاً، بينما يُعد العطاء عملاً أخلاقياً ووسيلة للإثراء. وقد ميز التلموديين أربعة أشكال من المتصدقين: "الذي لا يتصدق إلا بعد امتناع الآخرين عن ذلك ليطمئنهم، والذي يريد أن يتصدق الآخرون لكنه يمتنع عنها، والذي لا يتصدق ويمنع الآخرين من التصدق ويعتبر شريراً، والذي يتصدق ولو تصدق الآخرون ويُعتبر حكيماً". وتُعد الصدقة في الديانة اليهودية التزاماً دينياً، وليست عملاً يهدف من وراءه المتصدق ضمان الجنة، بعكس ما يوجد في المسيحية. لذلك فأعمال الخير ليست ضماناً لما بعد الموت، بل مجرد واجب إنساني ومسؤولية جماعية. لذلك فأى جماعة يهودية تعتبر مسؤولة عن السرقات وأعمال القتل الواقعة في صفوفها

لعجزها عن تجنب الفقر من حولها. وبناء عليه كان كل عضو في الجماعة ملزما بأداء ضريبة لهذه الأخيرة لكي توزع كاملة على الفقراء¹.

كما نصت نفس التعاليم اليهودية على ضرورة أن يسمح الفلاح - بعد انتهائه من الحصاد وجمع الحزم وجني الكروم- للفقراء بجمع البذور المتساقطة وغير الناضجة، بل أكثر من ذلك، عليه أن يخصص حيزا من حقله ليكون تحت تصرف أي أجنبي سواء كان يهوديا أو غير يهودي، وعليه ألا يكون راضيا عن حصاده إلا إذا كان حصاد الجزء المخصص للغرباء في حقله جيدا. كذلك لا يجب على الغني أن يخفي ثروته لتخفيض صدقاته، بل عليه مضاعفتها في حدود الخمس من مداخيله لكي لا يضر بثروته²، وإذا تقلصت موارده وجب عليه اقتطاع الصدقة التي سوف يدفعها لاحقا طبقا لما ينص عليه التلمود³. كما توصي التعاليم الدينية اليهودية بضرورة الحرص على أن تتم الصدقة في الخفاء، لأن تقديمها بشكل علني واحتفالي معناه بحث المتبرع عن مقابل، وبناء عليه سيعتبر ذلك عملا تجاريا، ويؤدي إلى عواقب وخيمة⁴. كما نصت هذه التعاليم على أولوية منح الصدقة للمقربين، طبقا للمبادئ التلمودية: "فقراؤك وفقراء المدينة: فقراؤك أولا! فقراء مدينتك ثم فقراء مدينة أخرى، فقراء مدينتك أولا"⁵.

انطلاقا من روح هذه التعاليم اليهودية أوجد المغاربة اليهود مؤسسات خيرية تقليدية حاولوا من خلالها التخفيف من مظاهر الفقر والبؤس والحرمان التي كانت تعاني منها نسبة كبيرة من يهود الملاحات، بمن فيهم أعضاء الجماعة اليهودية بمدينة مكناس. وقد تمثلت أهم الأعمال الخيرية في زيارة المرضى ومواساة الفقراء واليتامى والأرامل واستضافة الزائرين ومد العون لعموم المحتاجين، كمن يريد الزواج مثلا، وإعانة الطلبة ودفن الموتى... إلخ، بالاعتماد على الضرائب المفروضة على اللحم الحلال والخمر والملح بالإضافة إلى الهبات والأعشار⁶ وعائدات الوقف اليهود (الحكديش). غير أن أشكال العمل الإحساني التي كانت تتم عبر القنوات التقليدية ظلت عاجزة عن تطوير كل مظاهر الإقصاء الاجتماعي، وهو ما أصبح خلال فترة الحماية موضوع انتقادات كثيرة من طرف النخب اليهودية المتطورة على صفحات جريدة المستقبل المصور، حيث نبهت في العديد من مقالاتها إلى أن طرق المساعدة التقليدية

¹J. Attali, *Les Juifs, le monde et l'argent...*, op.cit, p. 136.

²Ibid, p. 137.

³"تحكي إحدى القصص التلمودية ما يلي: لقد رأى الرب يوحنا بن زكاي في منامه أن أولاد أخيه على وشك خسارة مبلغ 700 دينار، فأخفى عنهم رؤيته، لكن بالمقابل طلب منهم ضرورة منحه كل ما يملكون كصدقة، على أن يحتفظوا ب 17 دينارا فقط. فوافقوا على ذلك. وقيل يوم واحد من عيد كيبور، قامت السلطة بمصادرة جميع أموال اليهود، فتوجه يوحنا لأبناء أخيه قائلا: " لا تقلقوا لأنكم لا تملكون سوى 17 دينارا وهو كل ما اخذوا منكم". فسأله أبناء أخيه: " كيف عرفت ؟" أجاب: " رأيت ذلك في المنام" فاستفسروه لماذا لم يخبرهم بالأمر قبل ذلك، فرد عليهم: " لأنني وددت أن تتصدقوا بطريقة خالية من الأنانية".

Ibid, p. 137.

⁴J. Attali, op.cit. p. 137.

⁵«Nos enfants ont faim», in AI, N° 260, op.cit. p. 2.

⁶أحمد شحلان، اليهود المغاربة من منبت الأصول إلى رياح الفرقة، مرجع سابق...، مرجع سابق، ص. 140-141.

باتت عاجزة عن حل إكراه الاحتياج الذي تحول إلى مشكلة مزمنة¹، كما أشارت إلى أن اقتصار موارد مجلس الجماعة على الضرائب غير المباشرة المستوحاة من الشريعة اليهودية رهان غير مضمون بسبب افتقار الجماعات الإسرائيلية لموارد مالية خاصة، وأضافت بأنه يجب التفكير في موارد جديدة لأن مفعول الثقافة الدينية سيتلاشى يوما ما مع تزايد انتشار الأفكار الحديثة². لذلك طالبت مرارا بضرورة إدخال تعديلات على اختصاصات مجالس الجماعات اليهودية التي تحدثنا عنها خلال المحور السابق، بالشكل الذي يسمح لها بتطوير مداخل الجماعة اليهودية حتى تستطيع، عبر أنشطتها الخيرية، الإشراف على أعمال خيرية متعددة بتعدد مظاهر الاحتياج، من قبيل تقديم الطعام للمعوزين وبناء مأوى للعجزة وبناء المطاعم المدرسية، وإحداث صندوق للإغاثة، وحضانة للأطفال، وبناء مساكن رخيصة، وتنظيم الإعانات الطبية وتشديد المستوصفات والمستشفيات، وعيادة الولادة، ودعم التعليم العبري، والاهتمام بالتعليمين المهني والفلاحي، وتشديد المعابد العمومية³.

غير أن الانتقادات التي وجهتها النخب اليهودية لسلطات الحماية من أجل تعديل اختصاصات مجالس الجماعات بهدف توفير شروط جديدة للنهوض بالعمل الخيري على أسس عصرية، لم تحقق أي نتيجة تذكر، إذ ظلت هذه الأخيرة على موقفها الرافض لأي تعديلات ثورية طلية الفترة ما بين الحربين، بشكل ساهم في استمرار الخصائص الاجتماعي في العديد من المجالات الاجتماعية كالسكن والصحة والتعليم⁴... إلخ، ذلك أن أشكال التضامن التقليدية ظلت عاجزة عن الاستجابة لمتطلبات الجماهير اليهودية المعوزة بالملاح، بل أكثر من ذلك، ساهم الرهان في محاولة تحسين مداخل صندوق الفقراء على حساب الفئات المعوزة نفسها، من خلال الرسوم المفروضة على اللحم والخمر "الكاشير" المقتطعة من مشترياتهم الهزيلة، في إفقارهم أكثر⁵.

أمام تلك سلطات الحماية الفرنسية في الاستجابة لمطالب النخب اليهودية المتعددة في المجال الاجتماعي التي كانت تعبر عنها العناصر المتطورة من خريجي مدارس الرابطة، لم يتأخر المجتمع اليهودي المحلي بمدينة مكناس في القيام بمجموعة من الأعمال الخيرية المتنوعة على الطريقة "الغربية"، والتي تعايشت مع أشكال التضامن التقليدية⁶.

¹ «Le Statut des Communautés Israélites au Maroc»..., op. cit, p. 6-7.

² «Le problème Juif au Maroc»..., op. cit, p. 5-6.

³ Ibid, p. 5-6.

⁴ «Le problème Juif au Maroc», in AI, N° 157, 18 Juin, 1931, p. 2.

⁵ محمد كنيب، **يهود المغرب 1912-1948**...، مرجع سابق، ص. 133.

⁶ «لقد كان للوازع الديني دور كبير في حث الأغنياء على مساعدة الفقراء، حيث انتشرت علاقات تضامن مهمة داخل الملاحات بين الفقير والغني، ذلك أن كل عائلة غنية كان لها "زبناؤها" الفقراء الذين يتلقون معونتهم خلال الأعياد الدينية التي تطبع السنة اليهودية، فضلا عن الأعياد العائلية كالزواج والولادة Bar-mitzva والجنائز، وفي بعض الملاحات كان يتم جمع هبات للفتيات الفقيرات. وقد ساهم ضيق الملاح علاوة على غياب الاستقرار الاقتصادي في "أنسنة" العلاقات بين الفقراء والأغنياء...» [و] وعند الدخول في الحياة المهنية تلعب العلاقات العائلية دورا مهما، حيث يتم إقحام الطفل بورشة أحد الأقرباء ليتعلم الحرفة، ذلك أن العائلات الميسورة كانت نادرا ما تترك أقرباءها الفقراء يعانون من البؤس، كما أن ترك

وذلك بفضل مجموعة من الفاعلين في طليعتهم جمعية قدماء التلاميذ، التي توزعت خدماتها بشكل عام بين تقديم الدعم والمعونة للفقراء، بالإضافة إلى تأطير الشبيبة اليهودية تربويا ورياضيا للرفع من التكوين الأخلاقي والبدني للمستفيدين من أنشطتها¹.

وعموماً فإن استمرار الأعمال الخيرية لليهود الميسورين تجاه إخوانهم في الدين المعوزين خلال فترة الحماية كان استمراراً لروح التضامن التي طبعت التقاليد اليهودية المغربية كما هو الشأن بالنسبة لجميع الجماعات اليهودية عبر العالم².

هذا، وقد حظي مجال التعليم بمختلف أنواعه ومستوياته بعناية خاصة من طرف المحسنين اليهود، حيث تعددت المبادرات في هذا القطاع، كان من أبرزها كما أسلفنا في المحور الخاص بالتعليم قيام Rivka زوجة الحاخام شلومو طوليدانو بالإشراف على تأسيس المقر الأول لمؤسسة التلمود توراه بالملاح القديم، والتي فتحت أبوابها في وجه كل الأطفال الفقراء الذين كانوا ينحدرون من الأسر المعوزة وغير القادرة على تسجيل أبنائها بمدارس الرابطة الإسرائيلية العالمية. وقد تمت هذه المبادرة تحت إشراف ورعاية جمعية "أم هاينيم/EmHabanim"³؛ أي "أم الأطفال"⁴.

وبما أن المقر القديم قد صار ابتداء من سنة 1925 ضيقاً وغير قادر على استيعاب كل التلاميذ⁵، فقد كان موضوع تقرير شديد الحدة من قبل أعضاء البعثة المغربية بالمؤتمر اليهودي العالمي، حيث جاء في هذا التقرير ما يلي: "[...] التلاميذ الفقراء هم ضحايا جهل أقاربهم ومعلميهم، منشغلون فقط بمحاولة حفظ الأبجدية العبرية، في حين أن المعلم الجالس فوق مقعده فخور بنشر قدراته في ميدانه، ومن فترة لفترة يصرخ عالياً حتى يتمزق سواد الغرفة ويستيقظ التلاميذ النصف نيام. كما أن الهواء لم يكن من الممكن استنشاقه لاختلاط جميع الروائح الكريهة المشبعة

مسن أو أرملة في فقرهم بالملاح كان يثير استنكار الجميع، وأي عائلة محترمة تقوم بما هو مطلوب في إطار القواعد الدينية والعادات والتقاليد لتجنب العار".

D. Bensimon-Donath, *Evolution du Judaïsme Marocain...*, op. cit, p. 95-75.

¹A.IU, XXXI, E 511, Rapport moral et financier de l'Association des Anciens Elèves de l'Alliance Israélite de Meknès pour la période du 2 juillet 1938 au 31 Mars 1939, 18 Avril, 1939.

²D. Bensimon-Donath, *Evolution du Judaïsme Marocain...*, op. cit, p. 94.

³R. Assarf, *Eléments...*, op. cit, p. 239.

⁴هذه الجمعية كانت من حسنات المرور القصير للحاخام زيف هالبرين بالمغرب الذي كان قد نجح في مبادرته القاضية بإدماج المرأة في رعاية التعليم الديني خلفت آثاراً إيجابية جداً ذلك أن عدداً من النساء بكل من مدن مكناس وصفرو وفاس قد أسسوا تحت رعايته وتوجيهاته جمعية سميت بـ "أم الأطفال" والتي استطاعت تحقيق نتائج مميزة خاصة بمدينة مكناس.

R. Devico, *Juifs du Maroc des racines ou des ailes ?*, op. cit, p. 72-73.

⁵R. Assaraf, *Eléments...*, op. cit, p. 239.

بالأمونياك والغازات الكبريتية التي تملأ صدور الأطفال...¹. ولتجاوز هذه المشكلة، عملت الجمعية بنصيحة الحاخام باروخ بنعمار أحد المتعاطفين معها، إذ تمكنت من حيازة قطعة أرضية شاسعة بالملاح الجديد، بعدما تمكن باروخ بنعمار من الاهتمام إلى فكرة ذكية، تمثلت في قدرته على إقناع المنعشين العقاريين التابعين لمجموعة ماص ببيع تلك البقعة للجمعية بثمن تفضيلي، لأن من شأن نقل مقر تلك المؤسسة للملاح الجديد أن يغري اليهود المحافظين بالانتقال للاستقرار بهذا الأخير. لكن بسبب غياب الأموال اللازمة تأجل بناء مؤسسة التلمود توراه حتى سنة 1927²، حيث قرر مجلس الجماعة إطلاق حملة تبرع واسعة بدعم منه من أجل بناء مقر حديث لهذه المؤسسة الدينية الابتدائية، حتى تستطيع استقبال أبناء الفقراء وأبناء الميسورين معا، ولأجل ذلك تم تأسيس جمعية أشرفت على عملية البناء ترأسها رئيس مجلس الجماعة وأحد الأعيان اليهود الكبار بالمدينة المحمي الإنجليزي ياليزير بيرديغو/ Eliezer Berdugo الذي أظهر مواهب كبيرة في جمع أموال التبرعات، حيث قام بمجهود استثنائي رفقة عدد من الحاخامات من أجل إقناع الجميع بالمساهمة كل حسب إمكانياته، مقترحاً على الذين لم يستطيعوا تقديم التبرعات تقديم قروض من دون فوائد للمؤسسة بضمانة الثلث من الضريبة المفروضة على الذبائح. وقد تبني، في هذا السياق، حاخامات وأعيان المدينة اليهود آخر فتوى استثنائية/Tqana في تاريخ يهود المغرب سمحت لهم بالرفع من الضريبة/ La Gabéla على اللحم-الكاشير من أجل ضمان الوفاء بالقروض التي تم أخذها³. هذه الحملة المنظمة من أجل بناء مؤسسة تلمود توراه كانت نموذجية، حيث استطاعت جمع مبلغ 400000 فرنك، استطاعوا بفضلها بناء المقر الجديد الذي صار جاهزا ابتداء من سنة 1930، وقد ضم 24 قسما استطاع استقبال 1500 طفل⁴.

ومن أجل توفير المزيد من الدعم المادي لإنجاح هذه المبادرة، كانت نساء جمعية أم هابنيم تقمن بخياطة معاطف للتلاميذ المحتاجين بالثوب الذي كن يحصلن عليه كهبة من التجار مرتين في السنة، بمناسبة عيدي البيساح أو الفصح/Pessah والمظلة/Soucot*، كما قامت هذه الجمعية مطلع الأربعينات بتشييد مطعم مجاني سير بتفانٍ

¹P.Cohen, op. cit, p. 163.

²J. Tolédano, *Portrait ...*, op. cit, p. 238.

³R. Assaraf, *Eléments...*, op. cit, p. 240.

⁴«Le Talmud Torah de Meknès»..., op. cit, p. 102.

*"عيد الفصح أو الفصح، بمعنى: الخروج أو المرور أو التخطي، ويوافق أول أيامه الخامس عشر من الشهر الأول من السنة العبرية، وهو شهر نيسان (يوافق شهر أبريل)، ويمتد احتفالهم به سبعة أيام بعد يوم العيد نفسه، فينتهي احتفالهم به في الحادي والعشرين من شهر نيسان، وهو اليوم الذي تذكر توراتهم أن الله أغرق فيه فرعون وجنوده، ونجى موسى وبني إسرائيل ويسر لهم الخروج من مصر، ويحتفلون فيه بنجاة موسى وبني إسرائيل من فرعون وقومه وخروجهم من مصر". شعبان سلام، "فلسفة الدلالات الدينية لبعض الأعياد اليهودية"، المحجة، مجلة متخصصة تعنى بشؤون الفكر الديني والفلسفة الإسلامية، ملف العدد: اليهودية: مدارسها الدينية وتياراتها الفكرية، العدد 15، معهد المعارف الحكمية للدراسات الدينية والفلسفية، 2007م/1428 هـ، ص. 125.

*"عيد المظال أو الظل (جمع ظلة) ويسمى بالعبرية "سوكوت"، وسمي بهذا الاسم نسبة إلى المظلة التي يقيمها المزارع اليهودي في الحقل في موسم الحصاد [...] والأصل في هذا العيد أنه عيد زراعي، كان يحتفل فيه بتخزين المحصولات الزراعية الغذائية للسنة كلها في فصل الخريف، فكانوا يكسبون مؤونتهم من التمر والتين الجاف والزيتون والزبيب والنبيذ، ولذلك يسمونه أيضا "حج هاسيف"، أي: عيد الحصاد، أو التخزين بالعبرية. شعبان سلام، "فلسفة الدلالات الدينية لبعض الأعياد اليهودية". نفسه، ص. 120.

أسطوري من طرف امرأة استثنائية أطلق عليها من باب الإطراء لقب سمحة بنت الملك/smha ben el mélékh، وهي سمحة بوتبول، زوجة يوسف مامان. لقد تطوعت هذه المرأة للعمل مجاناً بهذا المطعم، يومياً، لمدة 16 سنة إلى أن توفيت عام 1954، وقد كان هذا المطعم يتولى إطعام مئات الأطفال المحتاجين الذين كانوا تحت رعاية الجمعية السالفة الذكر. ويروي جوزيف طوليدانو أن هذه السيدة كانت محترمة جداً حتى أن تأبينها ضم أعداداً هائلة من الجماهير، لدرجة أن رئيس المحكمة الحاخام باروخ طوليدانو تجاوز العادة التي تمنع إلقاء مدح جنائزي على النساء، بقوله: "أريد فقط تذكير نساء جماعتنا بالأعمال التي قامت بها طوال حياتها وتفانيها في تقديس العمل الخيري، حتى يتسنى للأخريات حذو مثالها". وعلى ضريحها نقشَت العبارة التالية: "هنا ترقد قديسة صادقة ومخلصة قدمت كل دعمها لجمعية بارنسات هاييلاديم/Parnassat Hayeladim، لإعداد الوجبات وتجهيز الطاولات طيلة سنوات، بتفانٍ وفرح خدمةً للرب"¹.

روح التضامن بين اليهود أخذت أبعاداً وتحليلات متعددة، ذلك أن العديد من يهود البادية كانوا يرسلون أحد أبنائهم إلى أحد الأقرباء من أجل متابعة الدراسة بالياشيفات²، بالنظر للقيمة التي كانوا يولونها للتعليم الديني. في هذا السياق، وفي إطار الاهتمام الذي حظي به التعليم الديني بمكناس، خلال فترة الحماية، بالنظر لتعدد المتدخلين، ورغبة النخب التقليدية بهذه المدينة في استفادة أكبر عدد ممكن من أبناء اليهود من هذا النوع من التعليم، اقترح رئيس المحكمة العبرية بمكناس باروخ طوليدانو أن يتم استقبال التلاميذ الفقراء من أبناء القرى المعزولة بالأطلس بمؤسسة التلموذ توراه بمكناس، لكن طلبه سيواجه بالرفض من قبل رئيس مجلس الجماعة حينها جوزيف بيرديغو الذي برر موقفه بغياب الإمكانيات المادية للقيام بذلك، مضيفاً بأن فقراء المدينة أولى بذلك من أبناء يهود الأطلس، الأمر الذي أدى إلى نشوب صراع بين الطرفين، خاصة وأن رئيس المحكمة العبرية كان بكاريزمته يعد نفسه وصياً على كل ما له علاقة بالأمن الروحي لإخوانه في الدين. لذلك قرر تأسيس ياشفات خاصة بأبناء الفقراء، وكان يقوم بجولات بعدد من المراكز القروية، ويجلب معه عدداً من التلاميذ الحاخامات الذين كان يتدبر أمر إقامتهم ومأكلهم عند بعض العائلات التي كانت تتطوع لإيوائهم، وذلك بسبب غياب داخلية لاحتضانهم. ومن أجل توفير الموارد المادية اللازمة لمؤسسته كان يعتمد على جزء من كرم أبناء طائفته، كما قام بخلق ورشة لصناعة بعض المنتجات التقليدية الدينية. هذه التجربة كادت تتوقف، بسبب شيوخ مرض خطير في صفوف التلاميذ، وخوفاً من انتقال

¹J. Tolédano, *Portrait ...*, op. cit, p. 428

²D. Bensimon-Donath, *Evolution du judaïsme marocain*, op. cit, p. 74.

العدوى تم التفكير في إعادتهم إلى عائلاتهم¹، لكن تدخل أحد شركائه في الياشفات إسحاق أوحنا ساهم في إنقاذ هؤلاء التلاميذ، حيث تمكن من علاجهم رفقة زوجته، قبل أن يعودوا إلى متابعة الدراسة من جديد².

وفي إطار الاهتمام الذي أصبحت توليه المنظمات الأجنبية للجماعات اليهودية بالمغرب بعد الحرب العالمية الثانية دعماً للنشاط الصهيوني الذي كانت تقوم به تحت غطاء العمل الإحساني، ستقوم منظمة لوبافيتش*/ Loubawitch الروسية الأصل وإحدى التيارات الحسيدية المعروفة بديناميتها وأنشطتها الرسولية سنة 1949، ببعث الحاخام ليبسكس/ Michel Lipsker إلى مدينة مكناس، حيث أكمل المشروع الذي بدأه باروخ طوليدانو الخاص بالاقتصاد على ضمان التعليم الديني للتلاميذ الفقراء المنحدرين من النواحي³، لأن باقي التلاميذ كانوا تحت رعاية مدارس الرابطة وجمعية أم الأطفال، وقد تمت هذه العملية في إطار نفس الياشفات. ولكي يمنح هذه المؤسسة دفعة جديدة، قام هذا الأخير ببراء فضاء واسع مكّنه من الحصول على قاعات للدرس وداخلية لإيواء المئات من الأطفال، وقد تمكن من تمويل مشروعه بطريقة استثنائية، بفضل مساعدات الحرفيين المحليين الذين أعانوه على تهيئة ورشة صنع المنتجات التقليدية الدينية وبجودة عالية كان يتم تصديرها للخارج على نطاق واسع⁴.

دعم ورعاية الأنشطة والخدمات التطوعية الخيرية لصالح الشبيبة اليهودية سيعرفان نقلة نوعية بعد تأسيس جمعية قدماء تلاميذ مدارس الأليانس بمدينة مكناس سنة 1927⁵، حيث ستتولى هذه الأخيرة رعاية العديد من الأنشطة الثقافية والرياضية التي لم تكن ضمن اختصاصات مجلس الجماعة. لقد كان لهذه الجمعية دور حاسم في

¹J. Tolédano, *Portrait ...*, op. cit, p. 327.

²Ibid, p. 328.

*"أطلق هذا الاسم على أحد المجموعات الحسيدية المهمة التي ارتبط تاريخها بمدينة لوبافيتش/ Lubavitch التي تقع شمال روسيا، والتي سكنها وعاش فيها بعض زعماء هذه المجموعة. وكان المؤسس لهذه المجموعة والزعيم الأكبر لها هو الصديق شنيور زلمان بن باروخ. [...] وكان شنيور زلمان قد ولد في مدينة ليونزو Liozno في روسيا البيضاء عام 1745م، وكان أبوه حسيدياً من أتباع الحركة الحسيدية يعمل سراً فيها مع مجموعة سماها "نستاريم" (متخفين)، عندما كانت الحركة تواجه هجوماً من معارضيها. ويرى اللوبافيتش بأن بعل شمع طوب نفسه هو الذي بارك شنيور زلمان عند ولادته وتنبأ له بمستقل عظيم. وهم يرون كذلك بأن المؤسس لحركتهم كان متميزاً منذ طفولته حيث خص بروح جديدة لم تنزل إلى الأرض سابقاً ولم تعرف جسماً آخر". جعفر هادي حسن، *اليهود الحسيديين، نشأتهم، تاريخهم، عقائدهم، تقاليدهم*. الدار الشامية، دار القلم، الطبعة الأولى، بيروت، دمشق، 1994، ص. 216.

³لقد كان للوبافيتش مدارس كثيرة في الولايات المتحدة الأمريكية وفي بريطانيا وإسرائيل وغيرها من بلدان العالم، ومدارسهم أكثر مرونة من بقية الحسيديين، ولا تستعمل اليديش فقط كلغة للتدريس. ففي بروكلين مثلاً لهم مجموعة مدارس بعضها تكون لغة التدريس فيها اليديش، وأكثر موادها تركز على القضايا اليهودية، وبعضها يدرس باليديش والإنجليزية معاً. وفي كندا هناك بعض المدارس لهم لا تكون الأغلبية فيها من الطلاب من اليهود اللوبافيتش، وتكون العبرية لغة التدريس فيها إضافة إلى اللغة الإنجليزية. وهو يستخدمون أحياناً مدرسين غير يهود لتدريس المواد الغير الدينية، لكن هؤلاء يكونون تحت مراقبة شديدة من المسؤولين اللوبافيتش. وفي مدارس البنات تكون المواد الدراسية غير الدينية أكثر منها في مدارس الذكور. وهو بصورة عامة لا يدرسون مادة علم الأحياء، ولا يشيرون إلى نظرية النشوء والارتقاء في مناهجهم بتاتا. وللوبافيتش معاهد دينية، منها معهد يدخله من عمره ستة عشر عاماً وليس عنده خلفية في الموضوعات الدينية، وهناك معاهد دينية أخرى تخرج حاخامين حيث يدخلها الطالب في عمر الرابعة عشرة. ولا يشجع الطلاب بصورة عامة على الدراسة خارج معاهد اللوبافيتش ومدارسهم. وهناك حالات خاصة واستثنائية تكون الموافقة عليها من الزعيم الروحي نفسه. وللوبافيتش كذلك مراكز ثقافية أخرى غير المدارس المنتشرة في أنحاء العالم، ومنها في المغرب في مدينة مراكش، ومكناس، وكزابلانكا، حيث يقوم اللوبافيتش في هذا البلد بنشاط دعوي بين اليهود المغاربة". نفسه، ص. 228-229.

⁴R. Assaraf, *Eléments...*, op. cit, p. 277.

⁵J. Tolédano, *Le temps du Mellah*, op. Cit, p. 193.

تدشين مسلسل التحديث بوتيرة متسارعة داخل الجماعة اليهودية لمدينة مكناس¹، حيث ستتولى القيام بمجموعة من الأنشطة المختلفة التي كان الهدف منها تأطير الشبيبة تربويا ورياضيا وثقافيا، لذلك تمحورت أغلب أنشطتها حول كل ما يرتبط بمدرسة الأليانس بمكناس². أما ما يتعلق بالجانب التربوي والثقافي فقد تولت هذه الجمعية القيام بما يلي:

✓ إعداد وتجهيز مكتبة للقراءة، تم تزويدها بالكتب والصحف تحت إشراف بروسير كوهن، بالإضافة إلى الاشتراك في عدد من الجرائد الدورية بمبلغ كلهم على التوالي 630.15 و 1000 فرنك.

✓ تقديم دروس في المحاسبة.

✓ برمجة دروس في اللغة العربية الفصحى.

✓ القيام بالإشراف على تنظيم عدة عروض وندوات ثقافية بالشراكة مع أساتذة مدرسة الرابطة في مواضيع عدة، بما في ذلك ما يتعلق بطرق الوقاية من الأوبئة والأمراض.

✓ تقديم دروس ليلية في اللغة الفرنسية للأمين الراشدين مجانا من قبل أساتذة متطوعين ك M.Méchalý، وقد تولى الإشراف على هذه العملية ميمون مريجن.

✓ إعطاء دروس في اللغة العبرية بمؤسسة التلمود توراه باعتماد طرق بيداغوجية عصرية تحت إدارة وإشراف مايير عمار³، حيث بلغ عدد المستفيدين من هذه العملية 320 تلميذا سنة 1938⁴. كما كان يخصص جزء من ريع الأمسيات التي كانت تنظمها جمعية قدماء التلاميذ بمناسبة نهاية السنة الدراسية لمساعدة أبناء الفقراء على متابعة دراستهم عبر منح كانت تمنح لهم، تماشيا مع دور الرابطة الذي كان يهدف إلى الرفع من المستوى المادي والمعنوي والثقافي للشبيبة اليهودية⁵، لتغطية الخصاص الذي كانت هذه الأخيرة عاجزة عن التكفل به، بسبب كثرة الطلب على التعليم العصري.

تنبغي الإشارة إلى أن أنشطة جمعية قدماء التلاميذ التربوية والرياضية داخل مدرسة الرابطة لم تخل من عراقيل، ذلك أن مدير المدرسة لورنر/ Lerner لم يستغ استقلالية الجمعية في قراراتها خصوصا في عهد ميمون مريجن الذي

¹ تم تأسيس هذه الجمعية بمدينة مكناس سنة 1927، حيث شكلت مستنبت للمسيحيين الجدد لمجلس الجماعة اليهودية بالمدينة، حيث تم التصويت في 20 يناير على دافيد بنعاروش كرئيس لها، وسنة بعد ذلك سيعين كرئيس لمجلس الجماعة بينما عين بينحاس مريجن، وبعد ذلك سيتولى جوزيف بيرديغو نفس المنصب لمدة طويلة ابتداء من 1935 حتى سنة وفاته سنة 1968.

Ibid, p. 193.

² A.AIU, XXXI E 511, Lettre de du président de L'Association des Anciens élèves de L'AIU de Meknès, au président de L'AIU à Paris, 27/02/1929.

³ A.AIU, XXXI E 511, Rapport moral et financier de L'Association des Anciens élèves de L'A.I.U. de Meknès..., op.cit.

⁴ J. Tolédano, Le temps du Mellah, op. cit, p. 195.

⁵ «Meknès», in VC, N° 19, Mars 1952, p. 5.

أصبح رئيسا لها ابتداء من سنة 1936، إذ أصبح هذا الأخير بالنسبة للمدير بمثابة الخصم العنيد الذي يجب أن يشتغل تحت وصايته. وبالمقابل، لم يرق سلوك المدير مسؤولي الجمعية، الأمر الذي أدى إلى نشوب صراع كبير بين الطرفين، وكان هذا الصراع موضوع العديد من المراسلات بين الجمعية والرابطة بباريز ومندوبيتها بالرباط من جهة، وبين المدير ونفس الجهات من جهة أخرى، حيث سعى كل طرف من جانبه إلى توضيح وجهة نظره لدى الأليانس بباريس والمندوبية بالرباط. ويمكن إجمال الاتهامات التي وُجّهت من طرف الجمعية لمدير مدرسة الرابطة في ما يلي:

✓ رفضهم قبول تسجيل الأطفال الفقراء بمدرسة الرابطة بدعوى أنهم صغار، وطردهم لاحقا بدعوى أنهم متقدمون في السن، وإهانتهم وإهانة أوليائهم، مقابل حرصه على تسجيل أبناء الميسورين والأعيان وغيرهم من الذين تتم تركيتهم من طرف جهات نافذة، لأن التعليم بمدرسة الرابطة لم يكن مجانيا. لذلك التمس رئيس الجمعية من المدير العام لمديرية التعليم العمومي التدخل لدى المدير كي يقبل تسجيل أبناء الفقراء بمدرسته¹.

✓ التنديد بالقرار الذي اتخذته المدير، والقاضي بعدم السماح للجمعية بالاستمرار في تقديم دروس الدعم الليلية - بعد شهر من تدشينها بتاريخ 1938/11/20 - في مواد اللغة الفرنسية والمحاسبة والعبرية بأقسام مدرسة الرابطة رغم أن الجمعية قبلت شرط المدير القاضي بضرورة ربط الأقسام المستعملة بشبكة الكهرباء على نفقتها بقيمة 650 فرنكا، بدعوى أن أولئك الأساتذة المتطوعين من جهة غير مؤهلين وغرباء عن المؤسسة من جهة أخرى².

✓ تماطل المدير في مد الجمعية بمفاتيح القاعات التي سبق للجمعية استعمالها في تقديم الدروس الليلية.

✓ استهجان الجمعية سلوك المدير، بسبب مبالغته في مطالبتها بدفع مبلغ مالي كبير جدا، يفوق قيمة ما استهلكته الجمعية خلال المدة التي استغلت فيها أقسام الإناث لتقديم الدروس الليلية. أضف إلى ذلك القيام بنفس الأمر عندما أجبر الجمعية على تقديم مبلغ 75 فرنكا تعويضا عن كسر زجاج إحدى النوافذ التي لم تكن قيمتها الحقيقية تتجاوز 7 إلى 8 فرنكات.

✓ رفض المدير مد مدرس اللغة العربية بلائحة الأطفال الفقراء حتى يستطيع منحهم الكتب المدرسية بالجان، بدعوى أن كل التلاميذ الذين يدرسون بالمدرسة ميسورون، وهو الأمر الذي كان يجانب الحقيقة كما أوضحت الجمعية في رسالتها التظلمية.

¹A.AIU, XXXI E 511, Lettre au Directeur Général de L'instruction publique à Rabat, Le 04/11/1935.

²AIU, XXXI E 511, Lettre de L'Association des Anciens élèves de L'AIU de Meknès au Semach Délégué de L'AIU au Maroc. 14/08/1939.

✓ تراجع المدير عن وعوده السابقة للجمعية بخصوص المساهمة في بناء ملعب رياضي بالمؤسسة، حيث عمد إلى حرمان العمال من التزود بالماء من داخل هذه الأخيرة، مما أجبرهم على التزود بالماء من مكان آخر¹.

في نفس الإطار، وفي رسالة تظلمية سابقة مطولة إلى رئيس الرابطة الإسرائيلية العالمية بباريس، قامت الجمعية مرة أخرى بعرض العراقيل التي كان المدير يقوم بها عمدا حتى يدفع الجمعية إلى التوقف عن الاستمرار في أنشطتها، متهمين إياه بعرقلة فلسفة الأليانس التي كانت تسعى، عبر شبكة مدارسها، إلى الارتقاء بالمستوى الأخلاقي والثقافي للشبيبة اليهودية. ومما جاء فيها اتهامه بتجاهل كل الأنشطة التي كانت تقوم بها جمعية قدماء التلاميذ، حيث كان سلبيا وتعوزه المبادرة، عكس المدراء الذين سبقوه، والذين كانوا يخطرون في دعم جميع الهوايات والأنشطة الرياضية ليس فقط لصالح التلاميذ الجدد والقدماء بل حتى لفائدة جميع أعضاء الجماعة.

هذا وكان المدير يتماطل في الاستجابة لملتزمات أعضاء الجماعة اليهودية بخصوص المساهمة في تحديث طرق التدريس بمؤسسة التلمود توراه. أضف إلى ذلك أنه لم يهتم لمصير قدماء مدرسته بالرغم من أنهم كانوا يتوجهون إليه لطلب النصائح حول اختياراتهم المستقبلية، باستثناء اهتمامه ودعمه للمطعم المدرسي فقط، لأن زوجته هي التي كانت تشرف عليه. أكثر من ذلك -دائما وفق رواية الجمعية- لم يقيم يوما بتنظيم أية زيارة لإبداء الاهتمام بدروس الدعم الليلية، باستثناء زيارتين فقط: الأولى في شهر ديسمبر من سنة 1938 ليطلب منهم إخلاء القاعة، والثانية في شهر مارس من سنة 1939 ليطلب منهم الحرص على نظافة القاعة².

بالجمل، لقد كان لا يتردد في القيام بكل المحاولات الممكنة لإزعاجهم والتشويش عليهم حتى يجبرهم على الخضوع والاستسلام لتصوراته. وذلك ما عبر عنه بوضوح جوزيف مريجن رئيس جمعية قدماء التلاميذ في إحدى رسائله إلى مندوب الرابطة بالرباط، أوضح له فيها بأن مدير المدرسة لورنر إنما يقوم بكل تلك العراقيل لأسباب شخصية ترتبط بصراعه معه، وأنه مصر على عدم تسهيل مهام الجمعية مادام هو على رأسها، وقد أنهى رسالته بمناشدة المندوب سماش بالتدخل لدى المدير لورنر للتراجع عن مواقفه، مذكرا إياه في نفس الوقت بأن المواقف والقرارات التي كان يعبر عنها كانت تتم بإجماع كل أعضاء الجمعية³.

¹A.IU, XXXI E 511, Lettre du président de L'Association des Anciens élèves de L'AIU. De Meknès, au Président de L' A.I.U. à Paris. 14 Août 1939.

²A.IU, XXXI E 511, Lettre du président de L'Association des Anciens élèves de L'AIU. de Meknès au Président de L'AIU à Paris, 27/04/1939.

³A.IU, XXXI E 511, Lettre du président de L'Association des Anciens élèves de L'AIU de Meknès au Semach Délégué de L'AIU au Maroc, 29/06/1939.

وفي إطار رد الفعل على اتهامات ومؤاخذات الجمعية للمدير، حاول هذا الأخير، من جهته، الدفاع عن نفسه بتوجيه رسالة شديدة اللهجة إلى ميمون مريجن رئيس الجمعية، جاء فيها ما يلي: "السيد رئيس جمعية قدماء التلاميذ، قطعاً إنك تحب أن تضايق الناس برسائلك أنت حر، لكن لا تروِ حكايات وأحجيات لا تطابق الحقيقة. أحيطك علماً أن رزلان Rezlan الذي فوضته أُمّـر قابلتي لم يخبرك بكل الحقيقة حول ما دار في هذه المقابلة. عندما طلب مني أن أراجع عن القرار الذي اتخذته بشأن الدروس الليلية، أوضح لي بأنه يجب العمل بذلك لما فيه مصلحة الجميع، وأضاف قائلاً: "في غضون شهر سوف تجري انتخابات جديدة وستصحبها تغيرات عديدة". ماذا يمكنني أن أقول سوى أن مساعدك يحضر للعبة سيئة. لو كنت مكانك لاحترست منه... في جميع الأحوال يجب أن تتيقن بأنه سواء بقيت رئيساً بعد الانتخابات المقبلة، أو أي شخص آخر مكانك، فكل واحد سيظل مكانه، وفي المدرسة سوف أكون الوحيد الذي يقرر ما أفعل، وما لا أفعل".¹

في خضم هذه الخصومة، قرر مندوب الرابطة بالرباط الاصطفاف إلى جانب المدير لورنر، حيث سعى في جميع ردوده على رئيس الجمعية، وعبر عدة رسائل إلى تبرئة هذا الأخير من كل التهم الموجهة إليه عبر التوضيحات التالية:

✓ لم يكن المدير يهين التلاميذ الفقراء وأولياءهم، بل على العكس من ذلك، كان يستقبل تلاميذ التلمود توراه من دون أن يأخذ ثروة آبائهم بعين الاعتبار.

✓ كان يقوم بمساعي وتدخلات عديدة لدى عدة أطراف من أجل خدمة مصلحة التلاميذ اليهود وجمعية قدماء التلاميذ.

✓ تطوع للتدريس بمدرسة التلمود توراه لمدة سنتين في ظروف مزرية، وساهم من جهته في تحولها إلى مدرسة عصرية لتدريس الفرنسية والعبرية الحديثة، كما برأه من تهمة إعاقه التحاق التلاميذ اليهود المنحدرين من مكناش بالمدرسة العليا الشرقية (مدرسة تكوين المعلمين).

✓ كما ذكر خصمه بأن المدير قام بوضع كل مرافق المدرسة رهن إشارة الجمعية للاستفادة منها في تنظيم الحفلات وتقديم الدروس الليلية وأنشطة التربية البدنية، لكن، وبما أن نسبة كبيرة من الساكنة كانت تريد الاستفادة من تلك الأنشطة الرياضية داخل المؤسسة، فإن لورنر كان مضطراً لتنظيم العملية وفق إكراهاته لأنه يتحمل مسؤولية كبيرة، خاصة وأن المستفيدين من تلك الأنشطة داخل المؤسسة كانوا يتصرفون داخل الفضاء المدرسي كما لو أنهم في فضاء خاص بهم بشكل أدى إلى إحداث العديد من المشاكل. من جهة أخرى، أوضح بأن المدير كان على حق عندما رفض السماح بإعطاء الدروس الليلية داخل مدرسة الرابطة من طرف أساتذة غرباء يفتقرون إلى المعارف

¹A.AIU, XXXI E 511, Lettre de Lerner Directeur De l'école de L'AIU de Meknès, au Président de L'Association des Anciens Elèves de Meknès, 17/07/1939.

البيداغوجية والسلطة التربوية، كما أشار إلى أنهم كانوا يمحضون معظم الزمن المدرسي في الثروة، بالتالي كان عملهم في تقديره من دون فائدة. وبناء عليه لم يكن من الممكن أن تتم هذه الدروس داخل المؤسسة إلا على يد أساتذة الرابطة وتحت رقابة المدير، مضيفاً بأنه في حال استمرت الجمعية بالتشبيث بهذه الدروس فما عليها سوى تقديمها بمؤسسة التلمود توراه بناء على الموافقة التي أبدتها رئيس مجلس الجماعة اليهودية بمكناس مع حق الاستفادة من الإنارة¹. كما ذكرهم بأن قرار المنع قد اتخذ بالتنسيق مع مديريةية التعليم العمومي، معبرا عن إدانته لأعضاء مكتب جمعية قدماء التلاميذ بدعوى تواطئهم ضد المدير لورنر واختلاقهم للأكاذيب في حقه².

هذه الإحاطات لم ترق الجمعية قدماء التلاميذ، التي لم تستسغ ردود فعل مندوب الرابطة بالرباط، فردت عليه برسالة مطولة فندت فيها كل ادعاءات وأكاذيب "لورنر" جاء فيها:

- ✓ أن لورنر لم يتطوع للتدريس بمؤسسة التلمود توراه سوى لمدة نصف يوم واحد، وأن الجمعية عوضته بأوحن الذي تكلف بقسمه، مقابل التنويه بزوجه التي تطوعت للتدريس لمدة سنتين بتلك المؤسسة.
- ✓ تجدييد التنديد بسلوك المدير الذي كان حريصاً على تسجيل أبناء الأغنياء وإقصاء الفقراء.
- ✓ التذكير بأن الجمعية التزمت بالانضباط عندما استعملت مرافق المدرسة لإقامة الحفلات والدروس الليلية والتربية البدنية، أضف إلى ذلك أن الأساتذة المتطوعين الذين كانوا تحت تصرف الجمعية لتقديم الدروس الليلية كانوا كلهم حاصلين على الديبلومات التي تؤهلهم للتدريس بشكل يستجيب لدفتر تحملات الأليانس.
- ✓ نفى تهمة عدم الانضباط عن التلاميذ والأساتذة كونهم كانوا يقضون أغلب الوقت في الثروة.
- ✓ الإشارة إلى أن قاعات التدريس بمؤسسة التلمود توراه كانت غير مناسبة على عكس ادعاءات المدير، لذلك كان عدد كبير من التلاميذ يغادرونها بسبب عدم صلاحيتها³.

وفي رسالة موجهة من طرف ميمون مريجن إلى المندوب سماش أوضح له فيها أن رفض المدير لورنر السماح لهم باستغلال الأقسام لتقديم الدروس الليلية لم يكن مرتبطاً بهذا الأمر في حد ذاته، بقدر ما كان الأمر يتعلق، حسب تصريح نسبه ميمون مريجن للمدير، بمشكل شخصي بين الطرفين، حيث أفاد ميمون مريجن بأن المدير سبق وصرح أنه سيستجيب لهذا الطلب عندما لن يكون مريجن رئيساً لجمعية قدماء التلاميذ⁴.

¹A.IU, XXXI E 511, Lettre de Semach Délégué de L'AIU au Maroc, au Président de L'Association des Anciens Elèves de Meknès, 11/05/1939.

²A.IU, XXXI E 511, Lettre de Semach Délégué de L'AIU. au Maroc, au Président de L'Association des Anciens Elèves de Meknès, 17/07/1939.

³A.IU, XXXI E 511, Lettre du Président de L'Association des Anciens Elèves de Meknès, Au Semach Délégué de L'AIU au Maroc, 27/05/1939.

⁴A.IU, XXXI E 511, Lettre du Semach Délégué de L'AIU au Maroc, au Président de L'Association des Anciens Elèves de Meknès, 30/05/1939.

بالرغم من تعدد التظلمات التي رفعتها الجمعية، في حق المدير لورنر، إلى الرابطة الإسرائيلية بباريس والتي وصلت إلى حد المطالبة بتغييره في وقت مبكر¹، فإن هذا الأخير تمكن من الحفاظ على منصبه، والسر في ذلك يعود إلى وجود قرابة عائلية بينه وبين مندوب الرابطة بالرباط، ذلك هذا الأخير كان عم زوجته، لذلك ظل يوفر له الحماية طيلة وجوده على رأس المندوبية²، ولم يتغير هذا الأمر إلا بعد الحرب العالمية الثانية، بعد تعيين مندوب جديد للرابطة وهو التاجوري، والذي قام ببعث رسالة إلى روني كاسان رئيس الرابطة الإسرائيلية العالمية كان من نتائجها أن تم اتخاذ قرار بشكل نهائي يقضي بوضع كل مرافق مدرسة الرابطة رهن إشارة جمعية قدماء تلاميذ الرابطة لتنظيم كل أنشطتها الثقافية والمسرحية خلال أيام العطل المدرسية³.

ورغم المتاعب التي واجهتها الجمعية خلال هذه الفترة فإن ذلك لم يمنعها من الاستمرار في متابعة أنشطتها المدنية على أكثر من واجهة، حيث تولت المساهمة في تمويل العديد من الأنشطة الأخرى المختلفة التي تصب في خدمة علاقاتها مع محيطها بما يعود بالنفع لصالح أفراد الجماعة اليهودية بشكل عام، خاصة التلاميذ، من قبيل دفع مساهمات مالية على التوالي لصالح الكشفية الفرنسية-الفرع الإسرائيلي، التي كانت تهتم بالمرضى اليهود، وجمعية الأعمال الخيرية الفرنسية، وجمعية الأعمال الخيرية الإسلامية، وصندوق مدرسة الرابطة، وجمعية بيكورحوليم/BikourHolim (تعني زيارة المرضى)⁴ التي كانت تقدم خدماتها الخيرية في مجال العناية بصحة اليهود.

أما في ما يرتبط بتأطير الشبيبة اليهودية رياضيا وترفيهيا، فقد تولى القيام بذلك مجموعة من قدماء تلاميذ الرابطة الذين عقدوا اجتماعا سنة 1945 مع جاكوب أزوكي/Jacob Azogui قريب ميمون مريجن، من أجل خلق مخيم للعطل الصيفية/Œuvre de Colonies de Vacance Israélite خاص بيهود مدينة مكناس⁵، من أجل تجاوز فترة الحرمان التي رافقت الحرب العالمية الثانية، وقد كان الشعار الذي اعتمده المنشطون لتأطير هذه المبادرة هو: "الحياة والصحة"/ Vie et Santé، خاصة وأن الهدف المعلن من وراء تأسيسها كان هو تمكين أطفال الأسر الفقيرة من التخييم خلال فترة العطل بمراكزها الإصطيفائية بمدنيتي أزرو وإفران المجاورتين، للرفع من مستواهم الصحي ولياقتهم البدنية، لأن المناخ هناك كان ملائما، كما كان الأطفال يستفيدون من التغذية الجيدة لمدة ثلاثة أسابيع. وقد قامت البرامج التكوينية لهذه المخيمات على مرتكزات فلسفية وعملية "ثورية"، من أهمها اعتماد مبدأ الاختلاط

¹A.IU, XXXI E 511, Lettre du Président de L'Association des Anciens Elèves de Meknès, au président de L'AIU. 27/02/1929.

²A.IU, XXXI E 511, Lettre au Directeur Général de L'Instruction Publique, op. cit.

³J. Tolédano, *Portrait ...*, op. cit, p. 235.

⁴A.IU, XXXI E 511, Rapport moral et financier de L'Association des Anciens élèves de L' AIU, op. cit.

⁵R. Assaraf, *Eléments...*, op. cit, p. 269.

بين الجنسين، وتكوين الشباب للشباب، والصرامة في الامتثال والانضباط المسؤول، وتقديس المسؤولية الفردية والجماعية. ثم إن الحلقات التكوينية اعتمدت أسلوب المحاضرات التوجيهية التي يليها نقاش حر¹. هذه المؤسسة الاصطيفائية حظيت بالدعم من طرف الجيش الفرنسي، الذي مكنها من الحصول على 450 خيمة خلال أول سنة من نشاطها، بعدما تمكن فيكتور أتياس وجاكوب أزوكي وبنشيمول وألير كوهن من إقناع المسؤولين العسكريين بذلك². وبما أن مطالبة أسر الأطفال الفقراء بتحمل مصاريف التخيم كان أمراً متعذراً، فقد لجأ المشرفون على العملية إلى القيام بحملة لجمع التبرعات المادية والعينية (المواد الغذائية) من طرف التجار اليهود³.

تجدر الإشارة إلى أن ضمان خدمات المخيم كانت تطوعية من طرف جاكوب أزوكي وزوجته، ورافيل بنسيمون وزوجته، وجوزيف حاسين وسلمون أتياس، وباقي شباب جمعية القدماء الذين قاموا بدورهم في مهام التأطير مجانا لفائدة المصطافين الضعفاء، ذلك أن هذه الأعمال الخيرية لم تكن في حاجة للتمويل المالي فقط، بل استوجبت أيضاً أن يمتلك المتطوعون حس القابلية للعتاء وشرط القوة الجسدية والتضحية بالوقت، فضلاً عن الطاقة الحيوية⁴. نتائج هذه المبادرة كانت جيدة، حيث تمكن الأطفال الستون المستفيدون من هذا المخيم من زيادة وزهم بكيلوغرامين في ظرف ثلاثة أسابيع، لكن الطريف في الأمر أن الأمهات اليهوديات توجهن بالعتاب إلى المشرفين على المخيم لأن أطفالهن عادوا إليهن بلون برونزي/أسمر، حيث توجهن إلى المؤطرين قائلات: "منحناكم أطفالاً بيضاً كالطحين، وأعدتهم لنا كالخبازين السود؛

«On vous a confié des enfants blancs comme la farine et vous nous les ramenez noirs comme des mitrons».

على أساس أن الحصول على اللون الأسمر لم يكن بعد قد أصبح موضوعة العصر، كما أنهن كن يجهلن أن السبب الرئيس للإصابة بمرض السل الذي كان يفتك بأبنائهن إنما يعود لعدم تعرضهم الكافي لأشعة الشمس بأزقة الملاح المظلمة، ومما كان يزيد الأمر سوءاً هو حرصهن على حماية أطفالهن منها، لكن مع مرور الوقت تمكن المشرفون على التخيم الصيفي من التغلب والانتصار على هذه الاعتقادات والأحكام الخاطئة⁵.

جمعية Œuvre de Colonies de Vacance Israélite de Meknès/O.C.V.I.M لم يقتصر نشاطها على العناية بصحة الأطفال اليهود فقط، بل سعت أيضاً إلى تلقينهم مبادئ السلوك المدني القويم، من قبيل تفادي

¹ محمد حاتمي، الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية وهران المغرب المستقل...، مرجع سابق، ص. 148.

² J. Tolédano, *Portrait ...*, op.cit, p. 298.

³ Ibid, p. 298.

⁴ Ibid, p. 429.

⁵ R. Assaraf, *Eléments...*, op. cit, p. 269.

التشاؤب أمام الناس، وفي حال الاضطرار لذلك لابد من وضع اليد على الفم. وفي حال الرغبة في العطس أو السعال لابد من القيام بذلك بدون أن ينتبه لك الآخرون. كما كانوا يوصونهم باستغلال أية فرصة أتاحت لهم حتى يكونوا نافعين سواء داخل أسرهم أو في المدرسة أو في المجتمع، مع الحرص على عدم حشر الأنف في التجمعات التي لا تعنيهم، وتفادي الإشارة إلى الناس بالأصبع¹.

بفضل النجاح الذي حققته هذه الجمعية خلال موسمها الأول، استطاعت الحصول على صفة المنفعة العمومية، الأمر الذي مكنها من الحصول على الدعم المادي من طرف مجلس الجماعة ومن مصالح البلدية ومنظمة الجوانت الأمريكية²، بعدما دخل المغرب ضمن اهتمامات هذه المؤسسة بعد الحرب العالمية الثانية³. مع مرور السنوات التحق العديد من المتطوعين لتأطير أنشطة هذه الجمعية خصوصا بعد النجاحات التي استمرت في تحقيقها، حيث وصل عدد المستفيدين من خدماتها إلى 450 شابا سنة 1952، وفي السنة الموالية وصل العدد إلى 600 مستفيد، إلى درجة أن القائمين عليها فكروا في شراء بقعة أرضية بمساعدة جوزيف بيرديغو رئيس الجماعة اليهودية بمكناس من أجل بناء مخيم قريب من مدينة أزرو، غير أن هذا المشروع لم يرَ النور، ومع ذلك استمر فرع كشفية مكناس في تقديم خدماته حتى سنوات الستينات، حيث توقف عن النشاط بسبب الهجرة الكبرى ليهود المدينة خارج المغرب⁴. إلا أن الحري بالذكر أن بعض مؤسسي هذه الجمعية، وعلى رأسهم رئيسها الأول Jacob Azogui كان يهدف، أيضا، من وراء أنشطة هذه المنظمة إلى إعداد شباب مثقفين وفي صحة جيدة حتى يكونوا مواطنين صالحين للاندماج في "إسرائيل" لاحقا⁵، وهو موضوع سنتطرق له بالتفاصيل في محور النشاط الصهيوني⁶.

¹J. Tolédano, *Portrait ...*, op. cit, p.298.

²Ibid, p. 299.

³أقدم مجموعة من الأثرياء اليهود في سنة 1914، على تأسيس جمعية إنسانية تهدف إلى تجميع الدعم المالي قصد إعانة يهود فلسطين على مواجهة الظروف الصعبة التي ترتبت عن مجاعة كانت أرض الميعاد ضحية لها، وفي السنة الموالية، التحقت هيتتان يهوديتان كبيرتان، وشكل الجميع الجوانت، وسرعان ما أصبح أهم منظمة إنسانية تمثل اليهود الأمريكيين وتتوب عنهم في تقديم العون للجاليات اليهودية أينما كانوا خاصة تلك التي تعيش في أوروبا الشرقية، ويفسر الاهتمام بهذه المنطقة بالذات، من جهة الصعوبات القومية التي كان يهود هذه البلدان عرضة لها، ومن جهة أخرى لأن شباب بلدان هذه المنظمة شكلوا العقود الرافد الأساسي للهجرة نحو أرض الميعاد، ويستمد الجوانت مصادره المالية والعينية وقوة الضغط التي يمارسها على أصعدة متعددة من الحركة التي تعتمدها المنظمات والهيئات اليهودية المحلية، ويعتمد في عمله الإنساني على المبادئ الأمريكية في الموضوع بما يسمى « Welfare »، ويعني أنه لا يمكن جعل الطرف المستفيد من المعونة يعتمد كليا على الجهة المقدمة، فالإعانة تكون جزئية ولوقت قصير، وتحصل فقط في الحالات المستعجلة أو خلال الكوارث/ وانطلاقا من سنة 1947، أي منذ الفترة التي أصبح فيها تأسيس الدولة العبرية أمرا وشيكا، أصبحت المهمة الرئيسية للجوانت هي ترحيل أكبر عدد ممكن من اليهود القادرين على حمل السلاح، وفق مخططات وتعليمات تقدمها الحكومة الإسرائيلية بتنسيق مع الوكالة اليهودية". -محمد حاتمي، "الجمعيات اليهودية المغربية زمن الحماية"، ضمن "الجمعيات بين التأطير والتوظيف"، أعمال الندوة المنعقدة أيام 18 و19 و20 أكتوبر 2007، بفضاء كلية الآداب والفنون والإنسانيات بمنوبة تقديم وتنسيق الكراي القسنطيني، تونس 2009، ص. 205-206.

⁴J. Tolédano, *Portrait ...*, op. cit, p. 299.

⁵Ibid, p. 298.

⁶"استلهمت فرق الكشفية اليهودية وسائل عملها وبرامجها من التنظيمات الصهيونية في البيشوف". محمد حاتمي، الجمعيات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية ورهان المغرب المستقل...، مرجع سابق، ص. 147-148.

امتدت ديناميكية جمعية القدماء في تأطير الشبيبة اليهودية أيضا للنشاط الرياضي، حيث ستتولى هذه الأخيرة تأسيس ملعب لكرة السلة بالقرب من المقبرة بتمويل من مجلس الجماعة الذي تولى شراء القطعة الأرضية، وقد كان فريق كرة السلة المحلي للذكور الذي أشرف عليه لويس ومريجن¹، يشارك في الدوريات التي كانت تنظم بمختلف المدن المغربية، وقد اقتضت مزاوله هذه الرياضة على أبناء الأعيان فقط عكس كرة القدم التي كانت ذات طابع شعبي². كما قامت الجمعية، أيضا، ببناء ملعب رياضي آخر في جزء من ساحة مدرسة الرابطة بفضاء سخاء مديرية التعليم العمومي بمبلغ كلفها 400300 فرنك³. فضلا عن تأسيسها فرقا رياضية أخرى داخل الملاح لمزاوله كرة الطائرة والريكي، كما أشرفوا على تجهيز قاعة لممارسة رياضة الجمباز وكمال الأجسام وحمل الأثقال⁴.

النشاطات الخيرية والتأطيرية لجمعية قدماء التلاميذ على أكثر من واجهة، كان يتم تمويلها اعتمادا على مصادر متعددة، حيث دأبت هذه الأخيرة منذ سنة 1933 على تنظيم حفل راقص في نهاية كل موسم دراسي⁵، أصبح لاحقا تقليدا سنويا من أجل جمع التبرعات كما حدث في 8 نونبر من سنة 1952⁶، بحضور أعضاء من مجلس الجماعة والعديد من أعيانها بالإضافة إلى قائد الناحية الفرنسي، وبفضل هذه المناسبة استطاعوا الحصول على العديد من التبرعات المالية المهمة⁷، وبلغت ميزانية الجمعية بناء على نفس التقرير الذي يغطي الفترة الممتدة من 2 يوليوز 1938 إلى 13 مارس 1939، 36.089,35 فرنكا⁸، وفي ما يلي نموذج لأهم مصادر تمويل جمعية القدماء بناء على ما جاء في أحد تقاريرها الأدبية والمالية:

✓ ما تبقى من مالية المكتب خلال الفترة السابقة (321.35 فرنكا).

✓ مساهمات أعضاء الجمعية (8990.00 فرنكا).

¹J. Tolédano, *Portrait ...*, op. cit, p. 297.

²R. Assaraf, *Éléments...*, op. cit, p. 270.

³A.AIU, **XXXI E 511**, Rapport moral et financier de L'Association des Anciens élèves de L'AIU, op. cit.

⁴Fabienne Bergmane et Haim Shiran (Shkérane), **Le Rocher d' origine**, Ed la Compagnie Littéraire, Paris, 2013, p. 15.

⁵J. Tolédano, **Le temps du Mellah**, op. Cit, p. 194.

⁶سنة 1952 نظم قدماء تلاميذ مدرسة الرابطة حفلتهم الراقصة السنوية في جو من المرح، وكان من بين الحاضرين الخليفة بن المختار الفيلاي ورئيس الجمعية دافيد مريجن ونائب الرئيس رافييل عمار وجاه كوهن والمساعد المدرسي مارك بن شترتيت والأمين العام هنري دراوي والمندوب الرياضي كوهن سالمون والمندوب الثقافي أوكيرات. وقد رقص الجميع خلال هذه الأمسية حتى وقت متأخر من الليل على أنغام المجموعة الموسيقية التي قدمت من مدينة الدار البيضاء. وقد كان الهدف من هذا الحفل هو الرفع من معنويات الشبيبة اليهودية. [...] وبهذه المناسبة ألقى دافيد مريجن كلمة باعتباره رئيس قدماء تلاميذ الأليانس رحب فيها بالحضور، وشكر بالأخص الجنرال قائد الناحية، كما أعرب عن سعادته بأن خص هذا الأخير الحفل بعنياته، كما شكر أيضا المسؤولين الفرنسيين والمغاربة على حضورهم. وبمناسبة مرور 26 سنة على تأسيس جمعية قدماء تلاميذ الأليانس بمكناس صرح رئيس مجلس الطائفة بأن عمل جمعية القدماء يصب في تكملة ما تقوم به الرابطة التي مر على تأسيسها 90 سنة، والمتمثل في الرفع من المستوى المادي والمعنوي والثقافي للشبيبة اليهودية. كما أشاد بكل من يساهم في محاربة العجز والضعف وزيادة على النتائج الإيجابية للأنشطة التي تقوم بها الجمعية. كما استغل هذه المناسبة للإعراب باسم الجمعية عن عظيم إخلاصهم ووفائهم للسلطات وممثلي فرنسا بالمغرب، وأكد ثقته في الإدارتين الفرنسية والمغربية اللتين تبدلان مجهودات مهمة لصالح جمعية قدماء التلاميذ، وفي نفس الوقت عبر عن امتنانه الخالص والعميق لمجلس الطائفة الجماعة الإسرائيلية بالمدينة على دعمها لهم."

«Le Bal de l'aide scolaire», in VC, N° 25, Novembre 1952, , p. 3

⁷Ibid, p. 3.

⁸A.AIU, **XXXI E 511**, Rapport moral et financier de L'Association des Anciens élèves de L'AIU, op. cit.

- ✓ مداخيل المقصف (12369.25) ولعبي ping-pong et Billard (924.50 فرنكا).
- ✓ أرباح حفل شاي (2908.40) ونزهة نظمت بمدينة إفران (156.35 فرنكا).
- ✓ عائدات الحفلة الراقصة لنهاية السنة (8227.00 فرنكا).
- ✓ عائدات دروس الدعم في اللغة الفرنسية (1591.00 فرنك)، والمحاسبة (522.50 فرنكا)، ثم الهبات المجهولة الاسم (88.00 فرنكا).

وقبل الحديث عن الأنشطة الخيرية في مجال العناية بصحة اليهود بمدينة مكناس، لابد من الإشارة إلى أن الخدمات التي كانت تقدمها المؤسسات الصحية التي أحدثتها إدارة الحماية بالمدينة (مستشفيات ومستوصفات) لم تكن قادرة على الاستجابة لجسامة للطلب المتزايد، بالنظر لهول الاحتياجات بسبب الاكتظاظ الذي تفاقم بالملاحظات نتيجة المهجرات الداخلية من المراكز القروية الصغيرة بالأطلس نحو المدن الكبرى¹، ناهيك عن تردي خدمات مستشفى سيدي سعيد الذي كان يقدم خدماته للأهالي المعوزين بمن فيهم اليهود، عكس الأقلية الإسرائيلية الميسورة التي كانت تستطيع الاستفادة من جودة العلاجات الصحية الجيدة التي كانت تقدمها مصحة الجراح Cornette de Sant Cyr².

تردي الخدمة الصحية وسوء الاستقبال بالمستشفيات الأهلية كان موضوع انتقاد شديد من طرف الصحافة اليهودية، كما جاء على لسان المراسل المحلي لجريدة صوت الجماعات الذي وصف هذا الواقع قائلاً: "حالة المستشفيات الأهلية تثير سخطا عاما في وسط اليهود، حتى في صفوف أولئك الأقل عنادا من شعبنا، بسبب نظام المفاضلة الذي كان يتم العمل به في مستشفى سيدي سعيد، والذي كان يضع المريض اليهودي في الدرجة الأخيرة بعد المرضى الآخرين. نعم، نقبل أن يتنازل المريض الذي ليس في حالة خطيرة عن دوره في التطبيب لمريض آخر يوجد في حالة مستعجلة، وتلك بادرة حسنة، لكننا نندهش من استمرار نظام المفاضلة بين الناس في هذا العصر الذي من المفروض أن تحتفي فيه هذه الممارسة، لأن الواجب يفضي أن تشيع المساواة بين الناس في الحقوق، لكن للأسف يحدث أن يتم تبني هذا النظام التمييزي في مؤسسة استشفائية يتوجب أن تنضبط للقيم الإنسانية وألا يُقرض على اليهود تحمل عناء الانتظار طويلا إلى حين قدوم مفاجئ لمريض عربي ليأخذ مكانهم، إنها قاعدة أساسية لا تحمل أي استثناءات".³

¹R. Devico, *Juif du Maroc, des racines ou des ailes...*po. Cit, p. 63.

²J. Tolédano, *Portrait ...*, op. cit, p. 300.

³Ibid. p. 300.

انطلاقاً من هذه الوضعية، وأمام تماطل سلطات الحماية الفرنسية في الاستجابة لكل تطلعات اليهود في الميدان الصحي من قبيل توسيع المرافق الصحية التي كانت قد أصبحت غير كافية بسبب الزيادة في عدد السكان¹، تولى المجتمع المدني اليهودي المحلي رعاية عدة مبادرات خيرية لضمان ما أمكنه من العلاجات والإسعافات للإسرائيليين. وقد قام، في هذا الإطار، مجموعة من الأعيان والحاخامات اليهود بمدينة مكناس بمحاولة تطوير الخصاص في الميدان الصحي من خلال تأسيس جمعية "بيكور حوليم"/Bikour Holim سنة 1923 تحت رئاسة أهارون سودري/Aharon Soudry. هذه الجمعية ستتولى تقديم خدمات متواضعة بسبب ضعف إمكانياتها المادية، لأنها كانت تعتمد في البداية على الهبات فقط، إضافة إلى مساهمة بسيطة من طرف مجلس الجماعة اليهودية المحلي، وفي هذا الصدد يذكر أفنير سودري/Avner Soudry كيف كان جوزيف مريجن وشالوم سودري يجلسان بسوق الملاح الجديد بمناسبة نصف أعياد بيساح وسوكوت، ويطلبان بكثير من الجرأة من المارة الأغنياء التصدق كل حسب استطاعته². وفي مرحلة لاحقة ستستفيد هذه الجمعية من الدعم المادي الذي كانت تقدمه جمعية قدماء التلاميذ للعديد من الجمعيات، حيث حصلت سنة 1939 على مبلغ 200 فرنك³. بناء عليه، وفي ظل الخصاص الكبير في هذا القطاع، تولت هذه الجمعية تحمل جزء مهم من حاجيات فقراء الجماعة في الميدان الصحي، حيث تكفلت بتقديم العلاجات المجانية والقيام بالكشوفات الطبية والعمليات الجراحية، كما قامت بعقد شراكات خاصة مع بعض الصيادلة والمرضين والأطباء الجراحين، وأغلب المساهمين كانوا يقبلون بالحصول على تعويضات متأخرة حسب ما اتفقوا عليه مع الجمعية. هذه الأخيرة كانت تتكفل أيضاً بالمتابعة الصحية للمرضى بعد استفادتهم من العلاجات، ذلك أنها قامت سنة 1949 بتمويل الفحوصات الطبية وتقديم الأدوية لـ 3294 مستفيداً مقابل 2433 مستفيداً سنة 1948، كما قمت لهم أيضاً، مساعدات مادية وغذائية بلغ عدد المستفيدين منها سنة 1948، 575 مستفيداً. وبفضل تدخل رئيس لجنة الجماعة اليهودية لدى مصلحة الصحة التابعة لإدارة الحماية قامت هذه الأخيرة بفتح مستوصف صغير بمؤسسة التلمود توراه، وبانتداب طبيب لاستقبال مئة مريض يومياً⁴.

ابتداءً من سنة 1951 أصبحت كل الإسعافات التي كان يستفيد منها الأطفال تحت المسؤولية المادية لجمعية خيرية كان مقرها بالدار البيضاء، كانت قد تأسست سنة 1946 من طرف الطبيب S.D. Lévy بدعم من

¹« L'Eternel problème », in AI, N°251, 15 Octobre 1936, p. 2.

²J. Tolédano, *Portrait ...*, op. cit, p. 300.

³A.AIU, XXXI E 511, Rapport moral et financier de L'Association des Anciens élèves de L'AIU, op. cit.

⁴J. Tolédano, *Portrait ...*, op. cit, p. 301.

الجوانت/Joint، ومنظمة إغاثة الطفولة¹O.S.E/2، وقد تكلف جوزيف مريجن بتوفير مقر للمتطوعين داخل بيت فسيح بالملاح الجديد³. وجدير بالإشارة أن شالوم سودري الذي خلف أباه أهارون في الإشراف على تدبير مخدع الأدوية التابع لجمعية بيكور هوليم قد تكلف بالإشراف على استرجاع الأدوية من الأشخاص الميسورين الذين كانوا يتمكنون من الحصول عليها من الجمعية بطرق احتيالية، رغم أنهم كانوا لا يستحقونها لصالح المعوزين الذين كانوا في أمس الحاجة إليها، وقد كان يقوم بهذه العملية بتكتم مخبراً إياهم أن الأدوية التي حصلوا عليها كانت منتهية الصلاحية، كما كان يوجه المعوزين إلى الصيدليات التي كانت لها شراكة مع الجمعية للحصول على الأدوية بناء على الوصفة الخاصة بكل حالة على حدة⁴.

محاربة مظاهر الفقر والبؤس والحرمان وكل أشكال الإقصاء الاجتماعي، كانت أيضاً من الانشغالات الأساسية التي استأثرت باهتمام الجمع المدني اليهودي بمدينة مكناس في الفترة ما بين الحربين، خصوصاً بعدما خابت آمال اليهود بشكل عام في سلطات الحماية الفرنسية التي لم تقم بإيجاد حلول عملية للقضاء على الفقر والبطالة في صفوف الساكنة الإسرائيلية كما كانوا يأملون⁵. ولتطويق هذه المشاكل حثت جريدة المستقبل المصور لجاء الجماعات اليهودية على اعتماد برامج لمحاربة البؤس بالملاحات عبر مبادرات عملية من قبيل: تقديم "الحريرة" للمعوزين، وبناء مأوى للعجزة وحضانات للأطفال وبناء المطاعم المدرسية، وإحداث صناديق للإغاثة، وبناء مساكن رخيصة وتنظيم الإعانات الطبية وإحداث المستوصفات وعيادات الولادة⁶.

انسجاماً مع هذه الرؤية، تعددت مبادرات المجتمع المدني في هذا المجال على أكثر من واجهة، لدرجة أن الفرنسيين كانوا إذا أرادوا "الاستهزاء" من ساكنة الملاح، كانوا يقولون بأن الصناعة المزدهرة هناك هي أعمال البر والإحسان⁷. وفي سياق العناية الخاصة التي أولاهها المجتمع المدني اليهودي للطفولة عملت جمعيات قدماء التلاميذ، في إطار المساعدة المدرسية، على القيام بمبادرات لإطعام وكساء التلاميذ اليهود الفقراء، لأنه كان من المستحيل على المعوزين منهم متابعة دراستهم في غياب هذين الشرطين: الملابس والغذاء⁸. لقد كان مدرء مدارس الرابطة

¹"منظمة غوث الأطفال تأسست بروسيا في نهاية القرن التاسع عشر، وتم نقل مقرها إلى ألمانيا ثم إلى باريس". محمد كنيبي، **يهود المغرب، 1912-1948**، مرجع سابق، ص. 258.

²"سنة 1947 تم تأسيس الفرع المغربي لمنظمة إغاثة الطفولة بتمويل من الجمعية الأم بفرنسا، وقد نصت الوثيقة التأسيسية على الاهتمام بمأمرات إنسانية مستعجلة، وهي تقديم المساعدة المباشرة والقيام بالخدمات الطبية والاجتماعية لصالح الأمهات في المنازل ومحل الإقامة في دور الصفيح". محمد حاتمي، **الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية ورهان المغرب المستقل**، مرجع سابق، ص. 147-148.

³J. Tolédano, **Portrait ...**, op. cit, p. 301.

⁴Ibid, p. 301.

⁵«L'Éternel problème», in AI, N°251, 15 Octobre 1936, p. 2.

⁶«Le problème Juif au Maroc», in AI, N° 256, op. cit, p. 5-6.

⁷J. Tolédano, **Portrait ...**, op.cit, p.428.

⁸D. Bensimon-Donath, **Evolution du judaïsme marocain**, op.cit. p.96.

يواجهون في كثير من الأحيان من قبل الآباء بالحيرة التي كانت تنتابهم ما بين الرغبة في السماح لأبنائهم بمتابعة الدراسة وبين إكراه منعهم من ذلك بسبب حاجتهم لعمل أبنائهم من أجل المساهمة في تحمل الأعباء المادية للأسرة. وفي ما يلي نموذج للحوار الذي كان يدور بين الطرفين:

-الأب: أريد سحب ابني من المدرسة.

-المدير: لماذا؟

-الأب: لأنني لا أملك ما يسمح لي بتوفير حاجته من الطعام.

-المدير: إذا قمت بتسجيل ابنك بالمطعم المدرسي، هل ستسمح له بمتابعة دراسته؟

-الأب: نعم.

بهذه الفلسفة العملية تمكن عدد من الأطفال الفقراء من متابعة دراستهم بمدارس الرابطة، بعدما ضمنوا الحصول على الطعام والملبس¹. وفي نفس الإطار، وعلى سبيل المثال لا الحصر، خصصت جمعية قدماء التلاميذ برسم نشاطها ما بين 1938 و1939 ما قيمته 1743.70 فرنكا من أجل توفير الكساء لـ 155 تلميذا من تلاميذ مؤسسة التلموذ توراه². لقد كانت المدرسة بالنسبة للطفل اليهودي الفقير أكثر من مكان لتحصيل الثقافة، كان يراها، أيضا، بمثابة مرفق للحصول على الغذاء اللازمة، وكانت تشكل من هذا المنظور فضاء لتجسيد قيم التكافل الاجتماعي³.

لم يقتصر العمل الخيري في هذا المجال (الكساء والطعام) على النخب العصرية، بل عرف أيضا انخراطا مهما للنخب التقليدية، ذلك أن "[...] الحاخام باروخ رفايل طوليدانو كان معروفا باهتمامه الكبير بالفقراء داخل مدينة مكناس وفي محيطها، وثمة روايات عديدة تناولت حماسه الشديد لمساعدة المحتاجين، إذ يحكى أنه أثناء أحد أسفاره، وصل إلى قرية نائية بالأطلس، ولم يتحمل مقدار الفقر الذي رآه هناك، ذلك أن الساكنة اليهودية لم تكن تتوفر حتى على لباس يقيها من برد فصل الشتاء القارس بأعالي الجبال. وبمجرد رجوعه لمكناس، بادر إلى جمع الأموال، وبعد حصوله على المبلغ المطلوب لم يجد كمية الثوب التي يحتاجها بسبب النقص الحاصل في هذه الفترة من الحرب العالمية الثانية. في خضم هذه الأحداث، تم التبليغ عنه لأنه يجمع الأموال من المتبرعين، وهو الأمر الذي كان ممنوعا القيام به خلال هذه الفترة، فتم استدعاؤه من طرف الحاكم الذي عامله بقسوة، متهما إياه بخرق النظام العام. الحاخام باروخ وصف له آنذاك الحالة المزرية لسكان القرية، وأودع أمامه المبلغ الذي جمعه قائلا له: "هذا هو موضوع الجريمة،

¹A. Lévy, op. cit. p. 53.

²A. AIU, XXXI E 511, Rapport moral et financier de L'Association des Anciens Elèves de L'AIU, op. cit.

³J. Ohayon, «La politique scolaire», in AI, 6^e Année, N° 149, 18 Avril, 1931, p. 2.

أتركه لك ويمكنك الآن أن تلبس هؤلاء المساكين بنفسك، لأنهم قبل كل شيء يعتبرون أيضا من رعيته". هذا الموقف أشعر الحاكم بالشفقة والحرص، فبرأه من كل التهم واستخدم كل نفوذه لمساعدة الحاخام في الحصول على الثوب الكافي ليُتم مهمته النبيلة¹.

هذا، ويجدر أن نشير إلى الدور الذي لعبته المرأة اليهودية المكناسية في هذا المجال أيضا، حيث ترأست الإسرائيلية صول طوليدانو الكيريف/SOL Tolédano-Elkrief اتحادا للنساء الإسرائيليات كان يتولى مساعدة الشابات المنحدرات من عائلات بسيطة على توفير جهاز مشرف للعروس، في حين أن جمعية موشاب زكينيم/Mochab Zkénim التي يرأسها موشي طوليدانو ابن ابراهام كانت تضمن للعجزة المحتاجين مدخولا بسيطا مقابل القراءة اليومية للمزامير بالمعابد وخلال طقوس الدفن. وقد كانت خدمات الدفن تطوعية يقوم بها متطوعو "الهيبركاديشا" التي كانت تعتبر أعمالهم قمة التجلي في نكران الذات². كما أنه في سنة 1955 تطوع بعض يهود المدينة لإحداث جمعية مدرسية إسرائيلية لتوفير الغذاء والملبس للمحتاجين³.

وخلال المجاعة التي أصابت المغرب خلال موسم 1944-1945، والتي أدت إلى نقص حاد في المواد الغذائية الأساسية، استطاع يهود مكناس تفادي حصول عدد كبير من الوفيات في صفوفهم بفضل التضامن الذي حصل بين فقراء الجماعة وأغنيائها⁴. وجدير بالذكر أن طريقة تقديم الصدقة إلى الفقراء بالنسبة ليهود مكناس كانت لا تقل أهمية عن الصدقة في ذاتها حرصا على كرامة المستفيدين منها⁵.

¹J. Tolédano, *Portrait*, op.cit, p. 431.

²Ibid, p. 429.

³Annuaire Marocaine, 1955, op. cit, p. 964.

⁴J. Tolédano, *Le temps du Mellah*, op. cit, p. 148.

⁵الشكل الأرقى لأعمال البر يتمثل في الماتانبيسيتير /Matanbesseter الصدقة المجهولة التي تراعي كرامة الفقراء بعدم معرفة المتصدق. وقد كان يهود مكناس الذين يريدون التصدق بهذه الطريقة يعطون صدقاتهم لأحد الأعيان الكبار للملاح الجديد، معروف بنشاطه في حياة الجماعة ومعروف كذلك بنزاهته وبدقته، وهو رفائيل طوليدانو ابن موشي الذي يتولى تقسيمها بتكتم كبير بين الفقراء المجهولين الذين يستحيون من مد يدهم لأعمال البر العامة، أرامل كن في ما مضى غنيات، تجار شهدوا خسارة تجاراتهم. طريقة العطاء مهمة مثلما مهم مبلغ الصدقة، هناك طرق لإعطاء الصدقة جد مدانة حتى أنه يستحسن الابتعاد عنها مثل الغني الذي يعطي أكثر مما عنده لدرجة الإفلاس، وبطريقة متباهية تحط من كرامة المستفيد يجب التصدق من القلب وبفرح. يحكى أن الأسطورة ربي رافائيل بيرديغو، كان معتادا يوم شباط بعد بوريم القيام باستدعاء، أعيان المدينة إلى معبده بمناسبة قداس الصباح ليلقي عليهم خطبته حول أهمية الواجب الخيري، خصوصا بعد اقتراب عيد ببساح حيث احتياجات الفقراء تتزايد. جرت العادة في كل النواحي، أن تبدأ العملية بمباركة المتصدق ثم إعلان مبلغ الصدقة، غير أنبير ديوغو على العكس من ذلك حيث كان يعلن عن مبلغ الصدقة ويؤخر مباركة المتصدق، ذات مرة شعر أن المتصدق أعلن عن صدقته باستياء، تعامل كما لو أنه لم يسمع إعلان المبلغ المتصدق به ولم يبارك صاحبه، وانتقل إلى ذكر المتصدق اللاحق. فما كان من الشخص المعني إلا أن قفز من كرسيه، وطلب من الحاخام سبب تناسيه له، هذا الأخير أجابه: "أعلم يا ابني أن الشخص الذي يتصدق لا يعطي شيئا يمتلكه لأن كل شيء ملكا للرب كما ذكر: "له كل الأرض". لا تعتبر صدقة إلا التي أعطيت عن قلب خالص دون تحفظات كما كتب في دوتيرونوم /Deutéronome: "لا يجب أن تتصدق له، وإن تمنح له بدون أن تندم، لأن ثمن تصرفك، سوف يكون مباركة ربك لعملك وكل شيء تقوم به " إذا تصدقت بئد أو حزن فكأنك لم تتصدق. وأنت أعطيت بدون فرح، إذا كأنك لم تتصدق لهذا السبب لم أباركك."

J. Tolédano, *Portrait*, op. cit, p. 430.

غير أن الجدير بالإشارة، عموماً، أن العمل الخيري المرتبط بإطعام الأطفال اليهود الفقراء المحرومين الذين لم تكن المطاعم المدرسية تستطيع استيعابهم، كان في بعض الأحيان يتجاوز إمكانات المؤسسات الخيرية الأهلية، وهو ما كان موضوع تعليق جريدة المستقبل المصور، إذ نددت في إحدى افتتاحياتها بهذا الوضع المأساوي، ودعت المجتمع اليهودي الأهلي إلى ضرورة التفكير في إيجاد الحلول المناسبة لتجاوز هذه الوضعية¹.

حاصل القول هنا أن الجمعيات الأهلية اليهودية قامت بعمل مهم في العناية بالاحتاجين اليهود منذ مطلع الثلاثينات حتى نهاية الحرب العالمية الثانية، وهي الفترة التي فقد فيها يهود المغرب الامتياز الذي مكّنهم ما بين 1912 و1930 من تحقيق نجاحات مهمة اقتصادياً واجتماعياً. وتعود عوامل تضررهم خلال الفترة اللاحقة إلى عدة أسباب نجملها فيما يلي:

✓ منافسة التجار الأوروبيين والمسلمين الشديدة لهم في قطاع التجارة بالجملة ونصف الجملة، وهو القطاع الذي كانوا يحتكرونه فيما قبل.

✓ آثار الأزمة الاقتصادية العالمية لسنة 1929 التي انتشرت آثارها بمختلف الأقطار التي كانت تدور في فلك النظام الرأسمالي بما في ذلك المغرب.

✓ انهيار أسعار المواد الأولية بالأسواق العالمية، والمضاعفات السلبية للمنافسة الاقتصادية التي تسببت فيها السلع اليابانية.

✓ مخلفات الأزمة الفلاحية التي ضربت المغرب ما بين سنتي 1935 و1938.

كل هذه العوامل أدت إلى فقدان اليهود مصادر عيشهم وتقهقرهم وإفلاس العديد منهم، بشكل أدى إلى انتشار البطالة والفقر والهشاشة بالملاحات اليهودية، الأمر الذي استدعى الاستنجد بقيم التضامن اليهودي تحت إشراف لجان مجالس الجماعات والجمعيات الخيرية التي أنقذت حياة الكثيرين منهم بفضل توزيع وجبات الحساء العامة². دينامية المجتمع الأهلي اليهودي هذه هي التي تفسر تعدد الجمعيات التي كانت تنشط في ميدان الأعمال الخيرية والتأطير التربوي والرياضي والثقافي لصالح الشبيبة اليهودية، ذلك أنه وفق إحصاء قامت به الأليانس سنة

¹ جاء في مقال جريدة المستقبل المصور بتصرف ما يلي: "...عندما دق الجرس الثاني للمدرسة (مدرسة يهودية جنوب المغرب، لم يحدد صاحب المقال بالتسمية) خرج 300 طفل؛ 150 منهم اتجهوا إلى المطعم المدرسي، حيث يقدم لهم طعام مغذي، بينما 150 طفل الآخرون ظلوا بجانب المدرسة ولم يتوجهوا إلى منازلهم، وعندما تم استفسارهم عن السبب، أجابوا: "لا ننتظر شيئاً ! ولماذا نعود إلى منازلنا حيث لا يوجد شيء نأكله، نحب أن نبقى هنا". أمام هذا الوضع المؤلم كان المعلمون يضطرون للسكوت، أمام وضعية تتطلب إطعام 150 طفل. كما أضاف صاحب المقال قائلاً: "نحن ملزمون بالذكور بأن "المؤسسة" الخيرية اليهودية لها التزامات متعددة وثقيلة؛ لأن الاحتياجات كبيرة ومقابل ذلك جماعتنا تتكون من عدد كبير من الفقراء وعدد قليل من الأغنياء، وهؤلاء هم الذين ندعوهم دائماً لتقديم المساعدة، لأننا نفتقر إلى الطبقة المتوسطة التي تشكل احتياطاً لا ينضب، والتي تتكون من الموظفين والتجار والحرفيين الصغار، والتي كان يمكن أن نطلب منها الكثير نظراً لكثرة عدد أفرادها."

«Nos enfants ont faim», in AI, N° 260, op. cit, p. 2.

²E. Goidan, op. cit, p. 21.

1948 في جميع المراكز التي كانت توجد فيها مدارس تابعة لها، بلغ عدد الجمعيات بمدينة مكناس عشرة، محتلة بذلك المرتبة الثانية بعد مدينة الدار البيضاء¹، وهو الأمر الذي يفسر كثافة أنشطة الجماعة اليهودية بمكناس بعد الحرب العالمية الثانية خصوصا بعد الاستفادة من دعم الجمعيات الأمريكية التي سبق وأشرنا إليها.

أما في المجال القضائي، وفي محاولة لتجاوز جور أحكام القضاء المخزني، سبق لأحد المحامين المسلمين من أصل جزائري بفاس يدعى الطاهر الفاسي، أن عبر عن تعاطفه مع اليهود الذين كانوا يعانون من الأحكام غير العادلة، حيث اقترح عليهم سنة 1928، حلا يتمثل في وجوب احتذاء يهود المغرب بتجربة يهود مكناس، الذين أحدثوا صندوقا تضامنيا للمساعدة في توكيل دفاع مؤهل أمام محكمة الباشا، للدفاع عن كل يهودي يضطر للتقاضي أمام محكمة الباشا². في نفس السياق، سعت جمعية جيميلوت حاساديم/Guemilout Hassadim إلى الاستفادة من العلاقات الجيدة التي كانت لها مع السلطات من خلال حيازتها السبيل إلى رشوتهم عند الحاجة، ولذلك للحيلولة دون تعرض إخوانهم في الدين للأحكام الجائرة. وفي هذا الإطار، اشتهر أحد كبار الأعيان اليهود أليزر برديغو بلقب "أب السجناء"، حيث كان يتكلف بضمان سراح أعضاء الجماعة المرميين بالسجن لسبب من الأسباب. بعد وفاته المبكرة حل محله ابنه الأكبر أرموند، ويروى أنه "ذات مرة ارتقى يهودي عند قدميه متوسلا بإياه كي يتدخل لصالحه، بعدما تشاجر مع زبون عربي، اتهمه بازدراء ديانتته، مع ما يترتب عن ذلك من عقوبة سجنية قاسية جدا، فقرر أرموند الذهاب معه عند القاضي الذي تعامل معه بطريقة قاسية في الجلسة العلنية، معتبرا هذا السلوك شكلا من أشكال التمرد. لكن بعد الجلسة العلنية، انفرد أرموند بالقاضي ساعيا إلى التوصل معه إلى التسوية، حيث قام هذا الأخير برشوة القاضي مانحا إياه مبلغا ماليا يقارب ألف فرنك. هذا الأخير تسلم المبلغ ولكنه اعتبره غير كاف، فتوجه إليه أرموند متسائلا: ألسنت رابحا وأنت تحوز هذا المبلغ؟ ولحسن الحظ كان القاضي يمتلك غريزة رجال الأعمال، ويتمتع بحس الفكاهة، الأمر الذي ساهم في طي الملف"³.

وفي نفس السياق، ثمة حكاية فريدة كانت تروى حينها بمدينة مكناس، تفيد بأنه: "في أحد الأيام، قام رئيس الجماعة دافيد بنعاروش بحضور محاكمة يهودي من نفس مدينته قُبض عليه بمكناس، وكان يجهل عقوبته التي هي السجن. وجود الرئيس حير الباشا الذي طلب تأجيل تنفيذ العقوبة إلى ما بعد مرور عيد الكيبور* بضمان حضور

¹ محمد حاتمي، الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية وهران المغرب المستقل 1948-1961...، مرجع سابق، ص. 143.

² J. Tolédano, *Le temps du Mellah...*, op. cit, p. 135.

³ J. Tolédano, *Portrait...*, op.cit, p.429.

*"عيد الكيبور أو يوم الغفران من الأعياد اليهودية ذات الصبغة الدينية، وهو يوم في السنة يحاول فيه اليهودي أن يعبد الله، لا كإنسان بل كملاك، والملاك لا يأكل ولا يشرب، ويقضي يومه كله في العبادة وتعظيم الله، ذلك أنه على اليهودي أن يعيش هذا اليوم كما تعيش الملائكة في صوم جاد وعبادة دائمة. ويسمونه أيضا يوم الكفارة، وهو اليوم العاشر من شهر تشرى العبري/ أكتوبر. وتبدأ شعائر هذا العيد قبيل غروب الشمس كم اليوم التاسع من "تشرى"، ويستمر إلى ما بعد غروب شمس اليوم التالي، وهي مدة تصل إلى حوالي سبع وعشرين ساعة، يفرض فيها على اليهودي الصيام ليلا ونهار، وعدم الاشتغال بأي عبادة ما عدا العبادة. وترجع هذه الشعيرة إلى عصور العبريين الأولى، ومن الراجح أن الشريعة الموسوية قد قررت يوما في السنة لحساب النفس ومراجعتها والندم على ما بدر من المؤمن من الخطايا، والتكفير عنها لا بالصوم فقد، بل بالذبايح والصلوات

المتهم بعد هذا العيد. لحظتها توجه القاضي ل بنعاروش قائلا: السيد بنعاروش، أظن أنك أخطأت المكان، نحن غير متواجدين في سوق الحبوب، حيث تحظى حضرتك بمكانة مهمة. لحظتها استخدم الرئيس نباهته المتقدمة، متذكرا ظهيرا كان قد سبق نشره بالجريدة الرسمية بالمغرب، يقرر أنه في حالة صدور حكم من طرف المحاكم الفرنسية على مستوطن بالسجن قبيل فترة الحصاد، يتم تعليق تنفيذ عقوبته إلى ما بعد نهاية موسم الحصاد. كما أضاف الرئيس بحماس، قائلا: "كيف إذاً بالذي وجب عليه ألا يلتزم بمسؤوليته تجاه الأرض بل تجاه السماء؟" في الأخير وافق الباشا على تأجيل تنفيذ العقوبة إلى ما بعد مرور عيد الكيبور، متمتما: "سوف نرى عجباً مع هؤلاء اليهود، بما في ذلك السجن عن طريق الائتمان"¹.

لقد امتد العمل الخيري أيضا إلى محاولة تغطية الخصاص الذي ظل مستمرا في مجال السكن بالرغم من بناء الملاح الجديد، ويعود هذا الاهتمام إلى عدم تجاوب إدارة الحماية الفرنسية مع مطالب اليهود في هذا الأمر، بالرغم من المناشدات التي كان يتم توجيهها للإقامة العامة عبر الصحافة اليهودية التي عبرت مرارا عبر العديد من مقالاتها عن حجم الخصاص الاجتماعي لدى الإسرائيليين². لذلك سعى المجتمع الأهلي اليهودي إلى محاولة الحد من هذا المشكل، حيث قام مجلس الجماعة اليهودي بمدينة مكناس تحت رئاسة جوزيف بيرديغو بالإشراف على مبادرة خيرية تمثلت في تخصيص بقعة أرضية كانت في ملك المجلس بلغت مساحتها 3410 أمتار مربعة لبناء مساكن للإسرائيليين المعوزين³.

اهتمامات يهود المغرب بشكل عام، ويهود مكناس بشكل خاص بالعمل الخيري لم تقتصر على القيام بمبادرات لصالح إخوانهم في المغرب فقط، بل امتدت أيضا إلى المساهمة في العديد من الأعمال الخيرية لصالح إخوانهم في الدين خارج المغرب، ذلك أنه إثر الأحداث العنيفة التي اندلعت بفلسطين يومي 23 و 24 غشت سنة 1929 بين المسلمين واليهود، اجتمع يهود مدينة مكناس بالبيعة الكبرى للمدينة للاستماع إلى الدعوة الموجهة من طرف الحزان الأكبر إلى رئيس الجماعة اليهودية بمكناس في هذا الشأن، وبناء عليه تم فتح اكتتاب لفائدة "الضحايا" اليهود بفلسطين⁴، وقد كانت سلطات الحماية الفرنسية حريصة كل الحرص على الحيلولة دون تطور الوضع بين المسلمين

والأموال ورد المظالم إلى أهلها، وطلب الصفح من المعتدى عليهم. [...] ويسبق هذا اليوم بتسعة أيام تسمى "أيام الثوبة" (يومي تشوئا)، حيث يظهر اليهودي خلالها تطهيرا يكفل له النقاء خلال العام القادم، وفي اليوم العاشر يوم الصوم والعبادة تكمل طهارة اليهود، ويغفر لهم ما سبق من سيئاتهم، ويعدون لاستقبال عام جديد. شعبان سلام، "فلسفة الدلالات الدينية لبعض الأعياد اليهودية"، مجلة المحجة، العدد 15، مرجع سابق، ص. 119-120.

¹J. Tolédano, *Portrait ...*, op.cit, p.429.

²«L'Éternel problème», op. Cit, p.2.

³« Contact... », op. Cit, p. 3.

⁴E. Goidan, op .cit, p. 18.

واليهود نحو العنف في المغرب، لذلك طالبت اليهود بالحرص على جمع التبرعات بتكم شديد حتى لا يتم استفزاز المسلمين. تشدد سلطات الحماية في مراقبة هذه العملية تجلى في عدم السماح لأي حاخام بجمع التبرعات في منطقة الحماية الفرنسية بالمملكة الشريفة من دون الحصول على رخصة من مفتش المؤسسات اليهودية موقعة بعطف من طرف مستشار الحكومة الشريفة. تلك الرخصة كانت تحدد المدة الزمنية ومجال المنطقة التي تتم فيها عمليات جمع التبرعات¹. بعد جمع تلك التبرعات كان يتم وضعها رهن إشارة مفتش المؤسسات الإسرائيلية الذي تولى بدوره وضعها رهن إشارة الممثلين اليهود من أصل مغربي بفلسطين، من أجل توزيعها فقط على "الضحايا" اليهود من أصل مغربي². مقابل ذلك، وفي إطار رد الفعل في سياق الأجواء المشحونة نتيجة الأحداث الدامية بفلسطين، قام عدد من الشبان الوطنيين المسلمين بتنظيم حملة لجمع التبرعات داخل المساجد بعدد من المدن الكبرى وإرسالها إلى الشيخ الحاج الحسيني بفلسطين عبر شبكة البريد البريطاني، وعبر الطلبة المغاربة المسلمين الذين كانوا يدرسون بالقاهرة. حملة التبرعات هذه تمت بخلفية المساهمة في الدفاع عن المقدسات الإسلامية هناك. وحتى لا تخرج الأمور عن السيطرة، قامت سلطات الحماية الفرنسية بتاريخ 5 شتنبر من سنة 1929 بتنبيه المسلمين منبهة إياهم بأن تعاطيها معهم سيكون مطابقا لما فعلته مع الإسرائيليين، وبناء عليه ستقتصر فقط على الضحايا الفلسطينيين المسلمين من أصل مغربي فقط. أكثر من ذلك، بادرت الإقامة العامة في الثامن من شهر أكتوبر إلى إرسال مساعدة مالية إلى فلسطين عبر ممثليها القنصليين قدرت ب 5000 فرنك، شريطة أن تُقسم بين كل الضحايا من أصل مغربي من دون تمييز على أساس الدين. وجدير بالإشارة أن البحث الذي قامت به الممثلة الفرنسية بفلسطين كشف أن الخمسين عائلة المسلمة من أصل مغربي المقيمة هناك لم تطلب مساعدة القنصلية الفرنسية، ولم تكن تعاني ولا عانت من أوضاع كارثية، الأمر الذي دفع سلطات الحماية إلى عدم التسامح كثيرا مع مسألة جمع التبرعات لاحقا³. وفي خطوة تصعيدية ابتداء من سنة 1934- بعدما أصبحت القضية الفلسطينية تحظى باهتمام متزايد من طرف المغاربة المسلمين- قامت نخبة من الوطنيين المغاربة بتوجيه عريضة موقعة من طرف 227 شخصية تنحدر من كبرى المدن بالمغرب إلى القنصل البريطاني بالرباط يهددون فيها بالقيام بحملة لمقاطعة المنتوجات البريطانية إذا استمرت بريطانيا في دعم هجرة اليهود إلى فلسطين. غير أن هذه الخطوة ظلت من دون تفعيل، لأن الهدف منها كان هو التعبير عن التعاطف مع القضية الفلسطينية⁴.

¹ محمد حاتمي، الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية ورهان المغرب المستقل 1948-1961...، مرجع سابق، الهامش رقم 2، ص. 187.

² E. Goidan, op .Cit, p. 18.

³ E. Goidan, op .Cit, p. 18-19.

⁴ Ibid, p. 19-20.

من جهة أخرى كانت جريدة "المستقبل المصور" تقوم بحملة داخل المغرب بما فيها مدينة مكناس لفائدة "صندوق الدعم" الذي أحدث خصيصا لمواجهة ما سمته بـ "الإرهاب العربي"¹. وفي إطار التضامن مع اليهود بأوروبا، ضحيا حملة معاداة السامية ما بين الحربين قام يهود مكناس سنتي 1933 و1934 بالإشراف على تنظيم عملية اكتتاب لليهود اللاجئين من ألمانيا وبولونيا، وبتاريخ 17 و18 شتنبر قرر المغاربة اليهود الصيام تعبيرا منهم عن تضامنهم مع هؤلاء الضحايا. كما تم تنظيم حملة واسعة لمقاطعة المنتجات الإيطالية والألمانية. ومحاربة تصاعد الفاشية بأوروبا اتجه عدد من تلاميذ مدرسة الرابطة المتشبعين بقيم الثورة الفرنسية إلى التماهي مع أحزاب اليسار، حتى أن الحزب الشيوعي استقطب عددا من الأتباع اليهود بمكناس، لدرجة أن أحد المنخرطين أطلق على ابنه اسم ماركس².

كما ساهم يهود مكناس من جهتهم في التبرعات التي كانت تجمع تحت إشراف عدد من الحاخامات بغرض شراء الأراضي بفلسطين³. غير أن سلطات الحماية تشددت في تعاطيها مع كل الأنشطة المؤطرة من طرف نشطاء الحركة الصهيونية بالمغرب -بما في ذلك عملية جمع التبرعات لصالح اليبشوف* - خصوصا في عهد المقيم العام الجنرال ليوطي، حرصا منها، من جهة، على الحفاظ على التوازنات المحلية بين اليهود والمسلمين⁴ بشكل يضمن أكبر قدر ممكن من السلم الاجتماعي الضروري لمشروع الحماية الفرنسية تجاه "الأهالي" بالمغرب. ومن جهة أخرى، كانت الحماية ترى بأن تحسين الوضع بفلسطين مهمة منوطة ببريطانيا العظمى، وأن أية مساهمة في هذا الاتجاه مهما كانت طبيعتها وحجمها ووسائلها هي في الحقيقة مكسب للتاج البريطاني، وخسارة للجمهورية الفرنسية⁵، وذلك انسجاما مع قناعات المسؤولين الفرنسيين بالمغرب، والذين كانوا في معظمهم عسكريين أوفياء للتقليد الفرنسي الذي كان يعتبر بريطانيا العظمى عدوا تاريخيا واستراتيجيا. هذا التوجس هو ما دفع بهم إلى اعتماد الحذر في تعاملهم مع "المنتجات" الفكرية التي كانت تحظى بالرعاية البريطانية⁶.

توجيه يهود المغرب لجزء من تبرعاتهم الخيرية إلى اليبشوف كان أيضا موضوع انتقاد شديد من طرف الوطنيين المغاربة المسلمين، ومن أبرز من تصدى لذلك على صفحات جريدة "الشباب المغربي" نذكر "أبو خليل" الذي كتب قائلا: "نعم إننا لا نجهل أن أغلب يهود المغرب يناصرون الحركة الصهيونية مناصرة فعالة، فهم لهذه الغاية

¹ محمد كنيب، **يهود المغرب، 1912-1948...**، مرجع سابق، ص. 177.

² J. Tolédano, **Le temps du Mellah...**, op.Cit, p.144.

³ « **Le Talmud Torah de Meknès** », op. Cit, p. 104.

*تعني ساكنة أو تجمع سكاني متحضر، وكانت تطلق على الكيان الصهيوني فوق أرض فلسطين قبل الإعلان عن قيام دولة إسرائيل.
⁴ محمد حاتمي، **الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية وهران المغرب المستقل 1948-1961...**، مرجع سابق، ص. 187.

⁵ نفسه، ص. 189.

⁶ نفسه، ص. 187.

يبدلون كل غال ورخيص ويجودون بكل ما يملكون لتحقيق ذلك الحلم فتراهم يتسابقون إلى إقامة الحفلات وتنظيم الاجتماعات حيث لا يضمنون بهذه المناسبات بكثير من اكتتاباتهم وإعاناتهم تلك الاكتتابات المتجمعة ترسل فوراً إلى فلسطين. ولا نغالي في القول إذا قلنا إن ذلك الفقير المعدم أو ذلك التاجر البسيط لا يتأخر أبداً بوضع نصيبه في الصندوق المخصص لهذه الغاية. وكثير منهم يدعون أن ربع تلك المبالغ يخصص للمعوزين والحقيقة التي لا مراء فيها أن ثلثي تلك المبالغ تخصص وترسل إلى يهود فلسطين والثلث الباقي يوضع في صناديق جمعياتهم وهيئاتهم الخيرية.¹ موقف أبو خليل وغيره من الوطنيين المغاربة المسلمين المعادي للصهيونية أثار ردود فعل يهودية تنفي من خلالها التهم الموجهة إليها والمتمثلة في كون الدعاية الصهيونية تتسبب في الإضرار بالتعايش بين مسلمي ويهود المغرب.²

تحصل لدينا مما سبق أن المجتمع الأهلي اليهودي بمدينة مكناس قد تميز خلال فترة الحماية بتعدد المبادرات في مجال العمل الخيري، بفضل دينامية أفراد الجماعة المحلية التي كانت لها تقاليد عريقة في أعمال البر والإحسان، أضف إلى ذلك الانخراط القوي للأجيال التي تدرست بمدارس الرابطة الإسرائيلية العالمية. والحاصل أنه لم يكن هناك أي تناقض بين النخب التقليدية والنخب العصرية، بل على العكس من ذلك استطاعت الأعمال الخيرية والخدماتية العصرية أن تتعايش مع نظيرتها التقليدية مما سمح بتضافر وتكامل الجهود بين الطرفين لصالح إخوانهم في الدين، الذين استفادوا من تعدد مبادرات الجمعيات الخيرية وجمعيات الشباب والرياضة التي كانت تقوم بتأطير حوالي 18000 يهودي عند بداية الخمسينات من القرن العشرين³ بشكل سمح بالاستجابة للحاجيات الجديدة، كما أدى إلى إحداث تحولات مهمة في اليهودية المحلية. غير أن العمل الخيري وباقي الأنشطة الإحسانية لم يكن الهدف منها خدمة أعمال البر والإحسان فقط، بل تعدت ذلك إلى استثمار تلك الأنشطة الخدماتية في القيام بالدعاية الصهيونية من أجل تهجير يهود المدينة للهجرة إلى "اليشوف" بعد الحرب العالمية الثانية، خصوصاً بعد دخول المنظمات الدولية الأمريكية على الخط، والتي صارت أكثر اهتماماً بمنطقة شمال إفريقيا، وخاصة المغرب الذي شكل بالنسبة لها احتياطاً ديموغرافياً مهماً، وجدت فيه الدولة

¹نفسه، الهامش رقم 2، ص. 222.

² "لقد اعتبرت الأليانس تلك الانتقادات مستفزة ومتحاملة

³M. Hatimi, «Les dernier Juifs d'El Ismaélie»..., op. Cit, p.39.

العبرية الحديثة بعد 1948 بديلا مناسباً إثر اتخاذ السلطات السوفياتية والحكومات التابعة لها قراراً يقضي بمنعها من العمل في دول أوروبا الشرقية.¹

¹ محمد حاتمي، الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية ورهان المغرب المستقل 1948-1961...، مرجع سابق، ص. 118.

3. التحولات البنيوية للجماعة اليهودية

مثلت المرحلتان الممتدتان من 1856 إلى 1862 ومن 1862 إلى 1912 طورا تمهيدا حصلت خلاله مجموعة من الأحداث والتطورات، مكنت بعض المغاربة اليهود من التواصل أكثر مع العديد من القوى الغربية على أكثر من صعيد، بشكل مكنها من تدشين مسلسل فك الارتباط تدريجيا مع البنى الاجتماعية والسياسية التقليدية التي كانت تؤطرها سابقا في علاقتها مع المخزن وباقي "الأهالي"؛ مسلمين ويهود، وهو ما أدى إلى تدشين سلسلة من التحولات الاجتماعية البنيوية في حياة الجماعة اليهودية بالمغرب طيلة المرحلة اللاحقة الممتدة ما بين 1912 و1956.

نجاح جون دريموند هاي المفوض البريطاني بطنجة في "إقناع" السلطان المولى عبد الرحمان ابن هشام في التوقيع على معاهدة 1856¹، لم يؤدّ فقط إلى تحرير المبادلات التجارية بين المغرب والسوق الرأسمالية العالمية، وتجريد المخزن من سيادته في مجال المبادلات التجارية البحرية، بل أدى أيضا إلى تدشين مسلسل "تحرير" نخبة من المغاربة اليهود من الخضوع لمقتضيات قانون أهل الذمة الذي كان يؤطر علاقتهم بالمخزن سياسيا واجتماعيا، ذلك أن نظام الحماية القنصلية خلع سيادة السلطان عن عدد من رعاياه اليهود المقيمين فوق إيالته. وبالتالي، أدى ذلك الانفتاح المبكر لاحقا، خصوصا بعد الترخيص للرابطة الإسرائيلية العالمية بإحداث سلسلة من المدارس بالمغرب ابتداء من تطوان التي دشنت بها أول مدرسة سنة 1862، إلى اعتناق أجيال متلاحقة من المغاربة اليهود قيماً عصرية جديدة كان لها أثر كبير في تغيير العقليات والعادات والأذواق، إضافة إلى تمكينهم نسبيا من الترقى اجتماعيا بالمقارنة مع باقي "الأهالي" المسلمين. ومن أخطر ما جاء في معاهدة 1856 وكانت له بعد ذلك تداعيات كبيرة ما جاء في المادة الثالثة:

"إن نائب سلطنة كرت برطن أو من هو موجه من جانبها لسلطان مراكش مع قصصات كرت برطن الذين هم مستقرين بالمراسي خلاف النائب المذكور يكون لهم الوقر والاحترام دائما يوافق منزلتهم، وكذلك دارهم وأهلهم يكونون محفوظين محروسين لا يتعرض لهم احد بمظلة ولا ينقص في مرتبتهم قولاً أو فعلاً، ومن تعرض لهم شيء من ذلك فتلزمه العقوبة الشديدة تأدياً له وزجراً لأمثاله. والنائب المذكور يختار من يترجم عنه ويخدمه من المسلمين أو غيرهم، ولا يلزم المترجمين عنه والخدام له شيء من الجزية والغرامة ولا ما يشبه ذلك، وأما القنصوات الذين هم خلاف النائب المذكور

¹ "وقعت هذه المعاهدة بين المغرب وإنجلترا يوم 9 دجنبر من سنة 1856، متضمنة لسبعة وثلاثون شرطاً. وقد خصص البند الثاني لحق ملكة بريطانيا في تسمية قنصل أو أكثر بمراسي أو مدن المغرب، وإقامتهم تلك تبقى رهن اختيارهم الخاص والموانئ لمصلحة بريطانيا وتجارها. في حين اختص الشرط الثالث بشروط التوقيع والاحترام والحصانة الممنوحة للبريطانيين بالمغرب [...] والمميز في هذا الشرط هو توسيع امتيازات محبيهم من المغاربة يهودا ومسلمين، حيث نص هذا الشرط على أن من حق القنصل وخلفائه أن يختاروا مترجمين ومتعلمين بوابين وخدم [...]". يوسف اخليص، القضاء القنصلي ومسألة السيادة في مغرب ما قبل الحماية...، مرجع سابق، ص. 268.

المستقرين بالمراسي لهم أن يختاروا ترجمان واحد وبواب واحد ومتعلمين من المسلمين أو من غيرهم ، ولا يلزمهم الجزية ولا الغرامة ولا ما يشبه ذلك، وإذا جعل النائب المذكور خليفة في خدمة تقنصولت بمراسي سلطان مراكش من رعية السلطان يكون هو وعياله الساكنون بداره موقرين محترمين ولا يلزمهم جزية ولا غرامة ولا ما يشبه ذلك، ولا يكون له احد تحت حمايته من رعية هذه الإيالة إلا عياله فقط/ ويؤذن للنائب المذكور وللتنصوات المذكورين في اتخاذ موضع لصلاهم، وفي جعل السنجاك لجنسهم في كل وقت بأعلا ديارهم التي تكون بأيديهم داخل المدينة أو خارجها وفي زورقهم إذا ارتحلوا في البحر"¹.

هذه المعاهدة وغيرها من المعاهدات التي تلتها مع عدد من القوى الأوروبية في اتجاه تحرير السوق المغربية من الرسوم الجمركية وتكريس الحماية القنصلية، أدت تدريجيا إلى تحطيم نظام تجار السلطان حيث تحول هؤلاء إلى "سماسرة" ووسطاء محصنين قضائيا وجباثيا، وموالين لحماهم الجدد².

وفي إطار مسلسل تسابق القوى الأوروبية لاستمالة يهود المغرب، احتضنت فرنسا مشروع جمعية الرابطة الإسرائيلية العالمية القاضي بإحداث مدارس عصرية توخى منها مؤسسوها ابتداء من سنة 1862، "إعادة الاعتبار المعنوي" ليهود المغرب ومساعدتهم على تحسين ظروف عيشهم اليومية، وذلك وفقا لشعار الرابطة، "كل اليهود إخوة" أينما كانوا ووجدوا. لقد راهن الآباء المؤسسون لهذه الجمعية على "المعرفة المتنورة" والتعليم المفتوح على الحداثة، والتكوين المهني في القطاعات الواعدة مستقبلا، والمرتبطة بتحولات الاقتصاد المغربي في سياق إدماج البلاد في السوق العالمية. وبفضل تدخل المفوضية الفرنسية بطنجة، أمكن للرابطة الحصول على الترخيصات اللازمة، وفتح أول مدرسة لها بالمغرب وبالعالم الإسلامي، وهي المدرسة التي تم تدشينها بتطوان سنة 1862³. كما أيدت الحكومة البريطانية مشروع رئيس مجلس نواب اليهود البريطاني ذي الأصول المغربية، الذي قام بزيارة للمغرب أواخر 1863 ومطلع 1864، حيث استطاع كما أسلفنا في الفصل الأول، من استصدار ظهير ملكي من السلطان محمد ابن عبد الرحمان يتعهد فيه بالعمل على معاملة اليهود وفق مبادئ العدالة والمساواة بينهم وبين المسلمين أمام القانون⁴.

¹ محمد كنييب، المحميون...، مرجع سابق، ص. 84-85.

² نفسه، ص. 151.

³ نفسه، ص. 259.

⁴ A. Guigui, op. cit, p. 121.

تحقق هذه المكتسبات بفضل الاتصال المبكر للمغاربة اليهود بالقوى الأوروبية زاد من متطلباتهم في تحقيق المزيد منها¹، خصوصا بعدما تابعوا كيف تمكن يهود الجزائر سنة 1870 من الحصول على الجنسية الجماعية، عقب إقدام الحكومة الفرنسية بمبادرة من وزيرها في العدل أدولف كريمو المحامي ورئيس الرابطة الإسرائيلية حينها، من تحقيق هذا المكسب وتمكينهم من الحصول على حقوق مماثلة لحقوق المعمرين الفرنسيين².

كل هذه التطورات التي سبقت خضوع المغرب للحماية الفرنسية سنة 1912³، أدت إلى تحولات اجتماعية مبكرة في حياة المغاربة اليهود. وبناء عليه أدى انتشار حمايات القنصلية في صفوف بعض اليهود المنتمين إلى طبقة الأثرياء إلى اتساع الهوة بينهم وبين عموم جماهير الملاحات، التي كانت تعاني من ظروف عيش قاسية، وكان من نتائج ذلك انتشار جو من التوتر بين أفراد الجماعة اليهودية، حيث أدى استقواء المحميين بالحماية القنصلية إلى ارتكابهم مجموعة من التجاوزات في حق إخوانهم في الدين، وفي حق المسلمين بكثير من الرعونة والاستعلاء، وصلت إلى حد ممارسة العنف اللفظي والمادي في حقهم، كما اكتسب ذلك العنف أوجها اقتصادية، وهو ما عبرت عنه رسالة وجهها السلطان المولى الحسن الأول إلى وزير خارجيته محمد بركاش بتاريخ 26 يناير من سنة 1800 يستنكر فيها ذلك⁴.

وفيما يرتبط بيهود مكناس نشير*، إلى أن تجليات التحولات العامة التي مست أفراد الجماعة اليهودية قد اتخذت مظاهر متعددة، ولا بأس أن نشير، في هذا الصدد، إلى الصراع المرير الذي اندلع ودام لسنوات طويلة، بين

¹Groupe d'auteur, **les relations entre Juifs et Musulmans en Afrique du nord XIX et XX Siècle**, Ed du C. N.R.S. Marseille 1980, p. 98.

²محمد كنييب، **المحميون...**، مرجع سابق، ص. 239.

³لوحظ بعد توقيع معاهدة معاهدة 1856 ازدياد هجرة فقراء أوروبا نحو المغرب قصد المتاجرة ببطاقات الحماية وتحقيق الثروة والترفي الاجتماعي بهذا الامتياز القنصلي، كما لوحظ بعد معاهدة 1861 التي وقعها المغرب مع اسبانيا (بعد حرب تطوان) ازداد عدد المحميين في صفوف اليهود عامة والتجار اليهود والمسلمين خاصة. بل إن القناصل العامون والوزراء الأجانب المفوضين استغلوا وضع اليهود بالمغرب لجعلهم ورقة ضغط وابتزاز واضحة ضد المخزن. بل إن المتتبع للأحداث خاصة بين 1856 و 1880، أي بين مرحلة الانفتاح التجاري الكبير للمغرب على التجارة العالمية ومؤتمر مدريد، اتجاه القناصل العامون إلى محاولة تعميم الحماية على كل يهود المغرب، وإن بدون سند قانوني أو شرط دولي وارد في المعاهدات التي أبرمها المغرب مع الدول الأجنبية". يوسف أخليص، **القضاء القنصلي ومسألة السيادة في مغرب ما قبل الحماية...**، مرجع سابق، ص. 318.

⁴"وبعد فمن جملة ضرر الحماية العائد على هذه الرعاية، أن من بها من اليهود تعدوا طورهم بسببها، وكثرت منهم الوقائع وقشى فيهم نقض العهد الذائع، وما تحضره الشريعة، ويتعين فيه سد الذريعة، حتى ان يهوديا منهم اسمه مردوخ بن يشوعياطواني شرب وتسلح، وتعرض بقرب سيدي بونافع لامرأة مسلمة بدوية من أولاد الحاج أتت مع زوجها من القبيلة لسوق فاس تتسوق، وتاخر عنها زوجها (...) فصارت تصيح وتستغيث إلى أن ورد عليها زوجها، فجعل يطرده عنها ويدافعه، فاخرج اليهودي كابوسه وحمل عليه وضربه، فأصاب الرصاصة صدغه ثم ضربه بحجارة تكسر منها صدغه، فقبض الجراس الذين هناك على السلم واليهودي وذهبوا بهما إلى عامل المدينة (...)، ثم بعد ذهابهم بهما أشهر يهودي آخر سلاحه اسمه إبراهيم بن يعقوب العلوف كان مع اليهودي المذكور، وصار يسب الدين والمخزن، فوقع هرج كبير، واجتمع عليه أخلاط الناس والصبيان، وقتلوه وأدخلوه لقعر زنقة خالية وأوقدوا فيه النار بالحطب الذي يبيعه المعاشة (...)، ولولا لطف الله حضر وتدبرك ذلك لأتى القتل على جميع اليهود، ولوقع الذهب في الملاح. وهذا الفعل الذي فعله أهل الذمة في وسط أهل المحل الذين هم به، الحائطين بهم إحاطة الهالة بالقمر من أقوى الدلائل على جسارتهم وتعديهم طورهم بسبب الحماية...". الطيب بياض، **المخزن والضريبة والاستعمار، ضريبة الترتيب 1880-1915**، إفريقيا الشرق الدار البيضاء 2011، ص. 183-184.

*كما أوضحنا ذلك بالتفصيل في المحور الثاني من الفصل الأول.

التاجر يعقوب أوحنا وبعده ولده ابرهام و"حزبهما" من جهة، والمحتسب محمد أجانا واليهود المناهضين لممارسات أوحنا من جهة ثانية¹. وهو الصراع الذي أدى إلى تطاول اليهود المحميين وارتكابهم مجموعة من المخالفات في حق إخوانهم في الدين، وفي حق المسلمين، وهو ما أثار حفيظة المخزن الذي استنفر مخاطبيه التقليديين لتدارك الوضع قبل أن تخرج الأمور عن السيطرة. ونظرا لتطابق مصالح بعض الأعيان اليهود التقليديين، ولاسيما أفراد الطبقة الأوليغارشية المقربة من السلطان والوزراء وكبار القواد، فقد استجابوا للنداءات الداعية إلى الحد من "تجاسر وطيش" اليهود المحميين، وكل ما من شأنه إيقاظ نار الفتنة "الطائفية"². استقواء اليهود المحميين بالقوى الأجنبية الحامية التي استباححت السيادة المغربية³ لم يؤد فقط إلى ما أشرنا إليه من تجاوزات، بل أدى أيضا إلى تماطلهم في دفع الجزية في وقتها، معتذرين مثلا بظروف الجفاف وكساد أنشطتهم الحرفية والتجارية، وكان الاعتذار يتكرر أكثر من مرة في هذا الشأن. ونتيجة لذلك صار التأخر في دفع الجزية يتعدى أحيانا العقد من الزمن، وقد تفاقمت هذه الظاهرة أكثر مع انتشار الحمايات الأجنبية وشهادات التجنيس.

أمام هذا الواقع اضطر السلطان إلى الاكتفاء باستفسار الولاة والمحتسبين والقضاة من حين لآخر لحثهم على استخلاص مستحقات الجزية المتراكمة عند اليهود وإخضاعهم للطقوس الرمزية المعتادة⁴، ومقابل ذلك أصبح فقراء الملاحات يمثلون الحلقة الأضعف في استخلاص تلك الضريبة، والذين كانوا لا يترددون في استعطاف السلطان من أجل رفع الحرج عنهم⁵. وعلاوة على ما سبق، أدى نظام الحمايات أيضا إلى دفع المحميين إلى تفضيل المثل أمام المحاكم القنصلية، لأنها كانت توفر لهم ضمانات أقوى، وقد أشار دونالد ماكنزي، في هذا الصدد، وهو مواطن بريطاني أقام لمدة طويلة بالمغرب، واهتم كثيرا بمظاهر الحماية ومخلفاتها، إلى أن قضاء اليهود الذي كان مصدر ربح بالنسبة للديانيم (القضاة اليهود) كان أسوأ حالا وأكثر ارتشاء، مقارنة بقضاء المغاربة المسلمين. ومن المرجح أن هذا الفساد كان أحد أسباب تفضيل المحميين للمحاكم القنصلية، وعدم التفاتهم للعوائق الدينية-الإثنية⁶.

هذا، ورغم الاختراقات التي تحققت في ميدان الحمايات القنصلية بعد سلسلة من المعاهدات مع القوى الأجنبية، والتحول النوعية التي أدت إليها في حياة بعض المغاربة اليهود، فإن تأثيرها ظل محدودا في حياة الجماعة

¹ محمد اللحية، "الواسطة بين ملاح اليهود والمدينة..."، مرجع سابق، ص. 105-106-107.

² محمد كنيبي، المحميون...، مرجع سابق، ص. 292.

³ مؤتمر مدريد 1880 والجزيرة الخضراء شكلا تنويعا سياسيا لاختراق المغرب وصياغة تاريخ جديد لبلد ظل لمدة طويلة تقليديا. يوسف أخليص، القضاء القنصلي ومسألة السيادة في مغرب ما قبل الحماية...، مرجع سابق، ص. 255.

⁴ محمد كنيبي، المحميون...، مرجع سابق، ص. 304.

⁵ نفسه، ص. 305.

⁶ نفسه، ص. 294-295.

اليهودية المغربية، مقارنة بالتحويلات العميقة التي أحدثتها مدراس الرابطة الإسرائيلية العالمية في حياة الإسرائيليين المغاربة ابتداء من سنة 1862 حتى سنة 1956¹.

وفي سياق ذي صلة، وجب التذكير بالأثر الذي خلقتة مبادرة تأسيس الرابطة الإسرائيلية العالمية لأول مدرسة بمدينة تطوان سنة 1862، واستمرارها بعد ذلك في تأسيس شبكة من المدارس بأغلب مناطق تواجد الجماعات اليهودية بالمغرب، بما في ذلك مدرسة مدينة مكناس سنة 1911²، بعد فشل المحاولة الأولى لسنة 1902، وتخرج عدد من الأجيال من هذه المدارس العصرية، لقد أدى كل ذلك إلى إثارة في حفيظة النخب اليهودية التقليدية، حيث انتبهوا قبل المخزن إلى "مخاطر" تلك المدارس التي رأوا أنها ستؤدي إلى بروز ذهنيات جديدة متأثرة تأثرا عميقا بالثقافة الفرنسية خصوصا، والحضارة الغربية عموما³، فضلا عن سبب آخر تمثل في خوفهم من فقدانهم لامتيازاتهم الاقتصادية، ووضعهم الاعتباري الاجتماعي الذي كان يسمح لهم باحتكار مهام الوساطة التي كانت تدر عليهم منافع مادية ورمزية⁴.

لقد ركز المحافظون في انتقاداتهم لهذه المدارس على طغيان الطابع العلماني في برامجها وغياب الدروس الدينية واللغة العبرية فيما كان يلحق للتلاميذ، كما أعابوا عليها أيضا اعتمادها على معلمين أشكينايزين قادمين من أوروبا، كانوا يجهلون أعراف ولغة وثقافة يهود المغرب، لأنهم تعاطوا مع اليهود المحليين بنظرة "استشراقية" متعالية عرقلت، من جهة، سيرورة التحويلات كما كانت تأمل الرابطة، وصعبت، جهة أخرى، مهمتهم في الاندماج بسهولة وتنزيل أهداف الرابطة، وهو ما وقفنا عليه في التجربة الأولى لمدرسة مكناس سنة 1902، حيث أدى قدوم المدرسين الزوج

¹لقد كان الآباء المؤسسون للرابطة الإسرائيلية العالمية، كما هو الشأن بالنسبة للمدرسين الأوائل الذين تم إرسالهم للمغرب للإشراف على فتح مدارسها معجبين جدا بالحضارة الغربية، لذلك سعوا إلى نشر الثقافة الفرنسية برسولية. مهمتهم في البداية تعرضت للمعارضة من طرف النخب اليهودية التقليدية، لكن مع ذلك، ومع حلول الحماية الفرنسية كانت الرابطة قد استطاعت تأسيس 15 مدرسة بأهم المدن المغربية، وقد بلغ عدد تلاميذها سنتها 55000 طفل وطفلة، حيث كان متاحا لهم مبدئيا متابعة دراستهم إلى نهاية المرحلة الابتدائية. هذا العدد كان قليلا وكبيرا في نفس الوقت. هؤلاء الأطفال الذي تدرّسوا بهذه المدارس الأوروبية الطراز، أتيح لهم الاطلاع على الحضارة الغربية، ذلك أن عددا من خريجيها تشبعوا بقيمتها لدرجة جعلتهم يبدون غرباء ومختلفين عن المسلمين وعن باقي إخوانهم في الدين الذين لم تتح لهم فرصة نيل هذا النوع من التعليم.. هذه المدرسة الأوروبية الشكل والمضمون كانت أول عامل ساهم في إحداث القطيعة مع نمط العيش التقليدي الذين كان يحتضن في السابق العيش التقارب والعيش المشترك بين اليهود والمسلمين.

D. Bensimon-Donath, «Relations entre Juifs et Musulmans au Maroc sous le Protectorat Français», in, Les relations entre Juifs et Musulmans en Afrique du Nord... Actes du Colloque international..., op. cit. p. 96.

²R. Assaraf, *Eléments...*, op. cit, p. 221.

³محمد كنيبي، *المحميون...*، مرجع سابق، ص. 292.

⁴هذا الموقف المتوجس من النخب الشابة العصرية كان هو نفسه لدى الأعيان المسلمين التقليديين، الذين توجهوا لنفس الأسباب وخلال نفس الفترة (أواخر القرن 19) من الطلبة الذين عادوا من أوروبا، والذين سبق وقام السلطان الحسن الأول بإرسالهم في إطار ما سمي بالبعثات الطلابية. وفي هذا الصدد نستشهد بما أورده عثمان أشقرا نقلا عن مخطوط الطاهر الأودي قائلا : " إن حاشية السلطان كانت لا تنتظر بعين الارتياح إلى حركة البعثات. وهذا ما يسجله أحد طلبتها وهو الطاهر بن الحاج الأودي: فقد نصح الحكومة المغربية بالاستعداد لمواجهة التدخل الأجنبي، لكن الوزراء والكتاب رموه بالإلحاد، ومرة أخرى قالوا للسلطان الحسن الأول: إن أعضاء البعثات بعدما أقاموا بأوروبا سنين عادوا منها جهالا متعصبين". عثمان أشقرا، *العطب المغربي، بحث في أصول التحديث وإعاقاته بالمغرب*، الملتقى، الطبعة الأولى، مطبعة النجاح الجديدة- الدار البيضاء 2003، ص. 53.

"فلادجي" من خارج المغرب، إلى تعاطيهما بنوع من الازدراء والتعالي مع الجماعة اليهودية بمكناس،¹ الأمر الذي أثار استياء وامتعاض هذه الأخيرة، بشكل أدى إلى تعدد الاصطدامات بين الطرفين، حيث كان موقف النخب التقليدية متوجساً من التعليم العلماني، ولم يكن من الممكن القبول بتعليم لا يجدون فيه ذكراً لله و خوارقه!، بالتالي شكلت المدرسة العصرية حلبة للصراع بين أنماط التفكير التقليدية وموروثات الماضي.

غير أنه رغم الصعوبات التي رافقت بدايات تأسيس مدرسة الرابطة بمدينة مكناس، فقد استطاع المشرفون عليها، مع مرور الوقت، نيل ثقة أفراد الجماعة اليهودية بالمدينة والنجاح في المحاولة الثانية سنة 1911، وهكذا أعطت ثمارها الأولى سنة 1915، عندما تخرج منها أول فوج ضم 15 مرشحاً منهم 6 يهود و6 أوروبيين و3 مسلمين². بعد ذلك أمكن للمدرسة الاستمرار في ممارسة مهمتها التعليمية والتنويرية وترسيخ قيمها المستوحاة من الثقافة الفرنسية بصعوبات أقل طيلة فترة الحماية. وقد كان طبيعياً أن يتأثر خريجو هذه المدرسة بمضامين برامجها وأساليب تلقينها، وهي برامج كانت شبه مستنسخة عما كان يجري به العمل بفرنسا، مع بعض التعديلات البسيطة التي تعلق بإضافة جغرافية ولغة البلد الأم (العربية)³، وقد لعبت اللغة الفرنسية المعتمدة في التدريس رفقة الوسائط الأخرى كالسينما والصحافة والراديو*، دوراً كبيراً في اكتشاف الأطفال اليهود حضارة مخالفة تماماً لما كانوا يعيشونه، كما كانت هذه الثقافة الجديدة لا تقدم لهم فقط بوصفها نموذجاً يجب الاحتذاء به، بل بوصفها عالماً يملكون الحق فيه. لقد كان هدف المدرسة العصرية هو فرنسة الطفل اليهودي، الذي سيطالب بنصيبه من شعار "الحرية والمساواة والأخوة" المنقول إليه من طرف هذه المؤسسة⁴، التي كانت تحتضن أنشطة موازية أخرى مختلطة من قبيل الأنشطة الرياضية المتعددة والمسرح تعبيراً عن الانتماء إلى الحضارة الحديثة، لأن مدرسة الرابطة ساهمت في إطلاق مسلسل تحرير العقول والأجساد⁵.

غير أن وثائق الرابطة الإسرائيلية العالمية التي اشتغلنا عليها توضح أن حدة التأثيرات التي مست الشبيبة اليهودية بمكناس بفضل مدرسة الرابطة قد تمت بدرجات متفاوتة وبشكل محدود في البداية، ذلك أنه إلى حدود الثلاثينات، وطبقاً لما جاء في الرسائل التي كان يبعث بها المدرسون إلى الرابطة بباريس، لم يكن كل التلاميذ يعكسون

¹J. Tolédano, *Portait...*, op. cit, p. 170.

²J. Tolédano, *Le temps du Mellah*, op. cit, p. 190.

³R. Devico, op. cit, p. 305.

*"بلغ عدد أجهزة الراديو المصرح بها لدى يهود مكناس سنة 1938، 312 في حين كان عددها لدى نظرائهم المسلمين 128". محمد كنيبي، *يهود المغرب 1912-1948...*، مرجع سابق، ص. 176.

⁴D. Bensimon-Donath, *Evolution du judaïsme marocain...*, op. cit, p. 121.

⁵D. Cohen, op. cit, p. 30.

القيم الأخلاقية التي تعلموها بالمدرسة عندما يعودون إلى البيت، خاصة أطفال الأسر التي كانت تعاني من الأمية، حيث ظلت عاداتهم هي نفس عادات المسلمين، الذين لا يخالفونهم سوى في العقيدة فقط. كما كان بعضهم ما زال حريصا على ارتداء البلغة والجلباب، ويرفض تناول الأكل الذي كان يقدم لهم بالمدرسة، بالإضافة إلى استمرار انتشار القيم والعادات الفاسدة في سلوكياتهم، من قبيل عدم اهتمامهم كثيرا بشروط الوقاية الصحية. يتضح، إذاً، أن التعليم العصري الذي كانت تقدمه الرابطة لم يؤدِّ إلى إحداث تغيير فوري وشامل في الذهنيات التقليدية، خصوصا وأن سطوة الملاح كانت لا تزال أقوى من تأثير المدرسة العصرية، لذلك ظل المدرسون يراهنون على عامل الزمن ومنطق التراكم لتحقيق أهداف الأليانس. أمام تلك الصعوبات ظل مدير مدرسة الرابطة بمكناس حريصا في ردوده على ملاحظات الأساتذة على الرفع من معنوياتهم، كما كان يطلب منهم عدم الاستسلام لليأس، لأن عمل المدرسين في نظره يتطلب الإصرار والنفس الطويل حتى تنجح المدرسة في الرفع من المستوى الأخلاقي للتلاميذ اليهود¹.

ورغم أن الحماية الفرنسية إلى حدود الثلاثينات لم تحقق لليهود ما كانوا يتوخونه لظروف موضوعية مرتبطة بالتزامات معاهدة الحماية في إطار السياسة الأهلية²، باستثناء بعض المكتسبات المهمة من قبيل سقوط كل الممارسات التمييزية المتعلقة بالسكن والملبس³، فضلا عن إلغاء ضريبة الجزية⁴، فإن جريدة المستقبل المصور كانت متفائلة بشأن تحسن أوضاع المغاربة اليهود بشكل عام، وفي هذا الصدد كتبت: "إن المشكلة اليهودية بالمغرب ليست مشكلة في الحقيقة، لأن الحل يتحقق أمام أعيننا كل يوم... وهذا الأمر يمكن تلخيصه في هذه العبارة: إن اليهود المغاربة يتطورون بسرعة أكبر من باقي ساكنة المغرب"⁵. لقد وضعت المدرسة العصرية بذور ثورة حقيقية في نظرة الطفل والناشئ اليهودي لنفسه، ولذويه، ومكونات مجالته وعلاقاته بها، وآفاقه القريبة والمتوسطة والبعيدة.

¹A.IU. IIB12.65, Lettre de Almaleh Bentizon au président de L'AIU à Paris, Meknès, 11-04-1935.

²M. Kenbib, *Juifs et Musulmans au Maroc, des Origines à nos jours...*, op. cit, p. 191-120.

³"وضع حد لحالتهم كذميين لم يؤدِّ إلى تغيير كبير في وضعيتهم القانونية التي لم تشملها تغييرات جذرية، إذ بعد خيبتهم في الحصول على الجنسية الفرنسية الجماعية ... ظل اليهود يعيشون في وضع ملتبس مرجعيتهم الوحيدة فيه، هي أنهم "مواطنون" يستمدون الرعاية من حماية السلطان الشخصية". روبرت أصراف، *محمد الخامس واليهود المغاربة*...، مرجع سابق، ص. 76.

⁴"إكراهات الذمة سقطت من تلقاء نفسها تدريجيا أساسا لأن المجتمع لم يعد في حاجة إليها لتقنين وضبط علاقاته بأقلية اليهود، فمنذ بداية الحماية لم تصدر عن أية جهة أو عن أي عالم فتوى أو حكم يشير إلى وضع "الصغار" اليهودي. وبدل عدم تلقي العلماء لنازلة في الموضوع على استئناس العامة بالوضع الجديد لليهود داخل الحاضرة الإسلامية. والحقيقة أنه حل محل الاعتبار الدولي القائم على أسانيد فقهية، اعتبار لا يقل تصغيرا من شأن اليهود مدعم بأسانيد حضارية وأخلاقية تتفق في نعت اليهودي بالمتنمر والرافض للامتثال للضوابط المؤطرة لعلاقات طبيعية وعادية بين أغلبية المسلمين وأقلية اليهود. ونقف في الخطاب السلفي المغربي على إشارات وإحالات توحى باستمرار وجود اعتبارات موروثية عن زمن الذمة، وهي إشارات تجعله خطابا متذبذبا. ومن ذلك ما ورد في تقرير للاستخبارات في شأن درس ليلي ألقاء علال الفاسي بالقرويين سنة 1934، عرض فيه للسيرة النبوية وحذر مستمعيه من اليهود من اليهود ومخططاتهم، وذكر بأن الرسول نيه المسلمين من مكائد اليهود". محمد حاتمي، *الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية ونداء المغرب المستقل*...، مرجع سابق، ص. 303-304.

⁵L'Avenir Illustré, N°5, 1930, p. 2.

فالمناهج والبرامج التعليمية عملت تدريجياً على تعميق قناعة التلميذ بأن "حماية فرنسا قد حلت محل حماية السلطان"، وأن رعاية الجمهورية "أنجح وأضمن وأفيد للارتقاء والانفلات من واقع الملاح الفكرية"¹.

مع مرور الوقت، وخصوصاً بعد الحرب العالمية الثانية أصبح للمدرسة العصرية دور أكبر، بعدما راكمت المزيد من الخبرات في كيفية التعاطي مع الواقع المحلي بكثير من الواقعية وبرؤية شمولية، بشكل مكنها من التكيف مع الظروف المحيطة بها، ومن دون اندفاع كان من شأنه أن يعطل مهمتها التنويرية، على عكس مدرسة ما قبل هذه الفترة التي تميّزت بمرونة أقل، تجلّت في تفاعلها مع محيطها بأناة وبحذر، وبشيء من التشنج مع أفراد الجماعة المحافظين². وهو ما أجهض تجربة الزوج فلادجي، كما سبق وأوضحنا ذلك.

لقد وجد يهود مكناس أنفسهم إزاء تحدّيات وعوامل ساهمت في خلخلة بنياتهم التقليدية، نورد منها: تجاوز تحديات ما قبل الحرب العالمية الثانية³، والتخفيف من ظاهرة الاكتظاظ التي كانت تعيق استفادة أكبر نسبة ممكنة من التعليم العصري⁴، والتحرر من موجة معاداة السامية التي كانت قد برزت خلال مرحلة الثلاثينيات⁵ وتجاوز محنة مرحلة فيشي⁶، وتخرج عدة أجيال من المدرسة العصرية وتقلدهم لمهام "مؤثرة" داخل مجلس الجماعة بمكناس، بالإضافة إلى العمل الاستثنائي الذي قامت به جمعية قدماء التلاميذ، فضلاً عن الاحتكاك أكثر ولفترة أطول مع الأوروبيين المقيمين بمدينة مكناس والنواحي وبعموم المغرب، بشكل سمح لليهود بالاطلاع على نمط عيشهم والثقاف معهم، هذه التحديات والعوامل تضافرت فيما بينها، وساهمت نسبياً في تسارع وتيرة التحولات الاجتماعية كما وكيفا، على مستوى نمط العيش والتفكير وداخل العائلة، وفي العلاقة مع وضعية المرأة، في اتجاه تعزيز التماثل الاجتماعي لليهود مع خصائص العيش الأوروبية، دون الانسلاخ التام عن بعض القيم اليهودية.

¹ محمد حاتمي، **الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية ونداء المغرب المستقل...**، مرجع سابق، ص. 299.
² J.P. Ohana, «Les deux écoles », *La Voix des Communautés* N°3, Avril, 1950, p. 10.
³ "بعد تحرر فرنسا سنة 1945، عرفت الرابطة استقراراً تاماً في نشاطها بالمغرب، وقد انعكس الحماس الكبير الذي استأنفت به اللجنة المركزية المعاد إنشاؤها بباريس على وضع مدارس الرابطة بالمغرب، إذ شهدت مرحلة تآلق وازدهار استمرت إلى ما بعد حصول المغرب على الاستقلال، حيث انتقل عدد تلاميذها من 14000 سنة 1945 إلى 28000 سنة 1952، أي بزيادة تقدر بـ 2000 تلميذ في السنة، وقد همت هذه الزيادة بشكل خاص مدن مراكش ومكناس والرباط والدار البيضاء، ففي سنة 1956 كانت الأليانس تتوفر على عدد مهم من المدارس بلغ 83 مدرسة". عفيف جليلة، **يهود مدينة صفرو على عهد الحماية الفرنسية. 1912-1956**، أطروحة لنيل الدكتوراه في التاريخ المعاصر، جامعة سيدي محمد ابن عبد الله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2003-2004، ص. 241.
⁴ "من أعراض تدني المستوى الثقافي لعموم المغاربة اليهود قبل الحرب العالمية الثانية، معارضة نسبة مهمة منهم للإيديولوجية الصهيونية، ذلك أنهم ظلوا إلى حدود هذه المرحلة بمعارف محدودة، لذلك ظلوا متشبثين بقيمهم الأخلاقية والدينية التقليدية". محمد حاتمي، **الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين بين نداء الصهيونية ونداء المغرب المستقل...**، مرجع سابق، ص. 196.

⁵ «Etre Juif !», in *Al*, N° 272, 31 Mai, 1938, p. 2.

⁶ "مع اندلاع الحرب العالمية الثانية وجدت مدارس الأليانس بالمغرب نفسها أمام مشكلة كبيرة منذ 1940 حيث انقطع الاتصال بينها وبين ممثليها ولجنتها المركزية بباريس التي تم تحويل مقرها إلى مدينة فيشي، فأصبح من الصعب عليها إرسال مساعدات مالية لمدارسها بالمغرب، لكنها استطاعت التغلب على هذه المشاكل بفضل "العناية" التي أولاها السلطان محمد بن يوسف آنذاك للمغاربة اليهود، والتفهم الذي وجدته لدى بعض كبار موظفي المديرية العامة للتعليم العمومي". عفيف جليلة، **يهود مدينة صفرو على عهد الحماية الفرنسية. 1912-1956**، مرجع سابق، ص. 239.

من تجليات تلك التحولات على مستوى نمط العيش، نذكر تحلي عدد من اليهود عن اللباس التقليدي والإقبال المتزايد على ارتداء الزي الأوربي¹ الذي كان يتم اقتناؤه من عند تجار الملابس المستعملة الأوربيين، أو الموزع في إطار المساعدة الخيرية²، لدرجة أن الفرنسيين اندهشوا للسهولة التي "تنكر" بها عدد من اليهود "لماضيهم"، وكيف غيروا اللاوي (سترة طويلة تشبه ثوب الكهنة اللاوين) بالبذلة العصرية، علاوة على اتجاههم لتأثيث منازلهم على الطريقة الأوربية داخل وخارج الملاح حيث تم تعويض الصوان والصندوق الذي توضع فيه الثياب والإبريق بالتجهيزات العصرية كالثلاجة والفرن الذي يعمل بغاز البوتان، لكن لم يصل الأمر إلى درجة القطيعة الكاملة مع الماضي، ذلك أن البورجوازية اليهودية كانت عند استضافتها لأصدقائها الأوربيين تستقبلهم بالصالون العصري، في حين كانوا يستقبلون أصدقائهم المسلمين بالصالون التقليدي، وإن غلب عليهم شيئا فشيئا نزوع إلى حذف كل مظاهر الأثاث التقليدي المغربي، حيث أصبح البيت "العصري" بكل تجهيزاته المؤشر القوي المعبر عن التحديث الذي تبناه هؤلاء، مع الاحتفاظ أحيانا ببعض الأثاث الذي يذكرهم بذكرياتهم الماضية، كالنجد (الأفرشة) التي تتضمن بورتريهات لبعض الشخصيات في التوراة.³ بالمقابل حافظت بعض الأسر الأخرى على نمط العيش التقليدي، من قبيل تواجد الكانون إلى جانب الموقد الغازي أو المطبخ الكهربائي، كما أن عدداً من النساء ظلن يحضرن الخبز بالطريقة التقليدية، وفي نفس الوقت يغسلن ثياب أسرهن في آلة التصبين.⁴

كما حلت اللغة الفرنسية في الكتابة والخطاب محل اللغة العربية والعربية العبرية⁵، لأن هذه الأخيرة لم تعد بالنسبة لليهود المتطورين كافية للتعبير عن الحاجات الجديدة الاجتماعية والثقافية.⁶ أضف إلى ذلك فرنسة أسماء اليهود في إطار التأسيس لسلوك جديد يندرج في التقطيع مع الماضي،⁷ بعدما اكتشفوا عالماً جديداً بقيم جديدة كانوا يجهلون من قبل⁸، فأصبح اليهودي العصري رافضاً لأشكال العيش البئيسة التي لا تتماشى مع عقلية المتطورة، لذلك فضل بعض اليهود المقيمين بالبادية ترك الأعمال الشاقة بها والالتحاق بالمدينة بحثاً عن آفاق أخرى مهنية واجتماعية.⁹

¹D. Cohen, op. cit, p. 17.

²محمد كنيبي، **يهود المغرب، 1912-1948...**، مرجع سابق، ص. 59.

³D. Bensimon-Donath, **Evolution du judaïsme marocain...**, op. cit, p. 53.

⁴Ibid, p.53.

⁵A. Chouraqui, **L'AIU et la renaissance juive...**, op. cit, p. 238.

⁶D. Bensimon-Donath, **Evolution du judaïsme marocain...**, op. cit, p. 124.

⁷محمد كنيبي، **يهود المغرب، 1912-1948...**، مرجع سابق، ص. 59.

⁸D. Bensimon-Donath, **Evolution du Judaïsme Marocain...**, op. cit, p.33.

⁹«Le Problème juif au Maroc», in AI, N°255, 15 Décembre 1936, p. 5.

تفاعل العوامل التي أتينا على ذكرها حرر نسبة مهمة من المغاربة اليهود من التردد في التماهي مع الوجود الفرنسي¹، لأنهم كانوا يمثلون الثقافة الفرنسية كونها عالمية، بفضل مدرسة الرابطة التي هيئت الأرضية لذلك، الأمر الذي يفسر، عموماً، ارتقاء النخبة اليهودية متنوعة بنسبة مهمة من الإسرائيليين في خيار العصرية والليبرالية، بشكل أدى إلى تمرد بعضهم على العادات العائلية والدينية، أضف إلى ذلك تنامي النزعة الوصولية والفردانية في صفوف أفراد الجيل الجديد الذي احتك أكثر بالأوروبيين²، بعدما صاروا يستضيفونهم كأصدقاء ببيوتهم³، بل إن بعضهم اتجه إلى تبني الإيديولوجية الشيوعية⁴، لأنها المرجعية الإيديولوجية الممكنة لتحقيق المساواة. كل هذه التحولات كانت تتم دون فقدانهم هويتهم اليهودية على نحو كامل، لأن يهود مكناس استطاعوا التأليف بين العصرية والتقليدية، خصوصاً وأن هذه المدينة ظلت تعد "الأكثر يهودية بالمغرب"، بشكل لم يؤدِّ إلى حدوث قطيعة درامية مع الماضي - كما سنوضح ذلك لاحقاً -، على عكس المدن الجديدة كالدار البيضاء⁵، سيما وأن التعليم الديني الذي ظل قوياً بمكناس بفضل بيعها الكثيرة (حوالي 30 بيعة)⁶، فضلاً عن دور مؤسسة التلمود تورا، التي كان لها تأثير واضح في الحفاظ على حضور القيم التقليدية وترسيخها في وعي الشبيبة اليهودية بفضل التعليم الديني الذي كانت توفره للتلاميذ قبل التحاقهم بمدرسة الرابطة⁷.

يصح القول إن التحولات التي مست، بدرجة معينة، نمط عيش وتفكير العناصر التي استفادت من التعليم العصري، واحتكت أكثر بالأوروبيين، كانت لها انعكاسات متعددة على العائلة اليهودية، وقد تجلّى ذلك في عدة مظاهر، من أبرزها أن الآباء أصبحوا يجدون صعوبة في فرض آرائهم على أبنائهم الذين صاروا أفضل تكويناً منهم، لذلك صاروا يرفضون الصيغ القديمة للخطوبة⁸، بشكل كان يؤدي أحياناً إلى توتر العلاقة بين الطرفين⁹. كما أصبح الخطيبان يتعارفان قبل الزواج، وأصبح الطرفان يختاران بعضهما البعض بفضل الاختلاط داخل المدارس، أو بأماكن

¹ "إن اليهود المغاربة [المتعلمين] لا يرغبون في الاستمرار في وضع الأهالي رعايا السلطان، فهم لا يشعرون بأن هنالك أواصر تربطهم بالمسلمين، إنهم يعتقدون بأن المسلمين سعوا على الدوام إلى النيل منهم وإذلالهم، ونفس الشعور يكونه للمخزن [...] إن اليهود المتنورين ينظرون في اتجاه واحد، هو اتجاه فرنسا". محمد حاتمي، *الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية ونداء المغرب المستقل...*، مرجع سابق، ص 299، وتحديدًا بالهامش رقم 03.

²D. Bensimon-Donath, *Evolution du Judaïsme Marocain...*, op. cit, p. 125.

³ibid, p. 84.

⁴M. Nouvel, «L'évolution du Judaïsme Marocain», op.cit, p. 8-9.

⁵J. Tolédano, *Le temps du Mellah...*, op. cit, p. 135.

⁶Ibid, p. 208.

⁷Ibid, p. 202.

⁸D. Bensimon-Donath, *Evolution du Judaïsme Marocain...*, op. cit, p. 76.

⁹Ibid, p. 84.

العمل، حيث كانت الفرص متاحة للالتقاء أكثر بين الجنسين، بعدما اكتشفوا الحب على الطريقة الأوربية¹، وفي هذا الصدد نورد قصة زواج دافيد كوهن، كما حكاها في سيرته حيث يقول:

"لم أكن خجولا، بل كنت حكيما، لقد عرفت الحب الكبير في حياتي مبكرا، في سن الثامنة عشر، إنها المرأة التي ستصبح فيما بعد زوجتي، وتدعى Sol Derh، كانت تبلغ من العمر 15 سنة. لقد تعرفت عليها سنة 1940، وأجزم أننا أحببنا بعضنا من النظرة الأولى. حبنا قاوم كل الصعوبات، ذلك أن علاقتنا كانت بعلم والديها ابراهام وحاسيدا ديري قبل إعلان خطوبتنا الرسمية، كمظهر من مظاهر تطور العادات والتقاليد. أتذكر أول صيف التقينا فيه، حينما كانت تقضي عطلتها الصيفية مع والديها بمدينة الحاجب، حيث كان والدها تاجرا كبيرا للحبوب والمواد الغذائية. ومن شدة شوقي لرؤيتها، كنت أركب دراجة هوائية لأقطع ثلاثين كيلومترا التي كانت تفصلني عنها، وقد كانت أول مرة أذهب فيها إلى هناك، ولم أكن أدرك قبل ذلك خاصية عش الغراب بتلك البلدة الأطلسية الجميلة المعروفة أيضا بأعشاش اللقالق، والتي ستصبح واحدة من أكبر حاميات الجيش الفرنسي، ذلك أنها كانت تمثل حاجزا حقيقيا للأطلس المتوسط الأمازيغي. لا أعرف كيف يستطيع الحب أن يصنع الأجنحة. لقد امتلكت القدرة لأتسلق مرتفعاتها الوعرة التي كانت تثبط حتى السيارات. لكن الجائزة التي كانت تنتظرني كانت تنسيني تعي. لقد التقيت حبيتي وسمحت لي في نفس الوقت بالتعرف على عائلتها الكبيرة التي كانت تقضي عطلتها في هذا المكان المريح والعذب. لقد تعرفت على إخوتها وأخواتها، مسود، وأبنير، ورافايل، وجيلبرت، وريجين، وجولييت، وأنيت، وجدها من الأم مخلوف كوهين، وزوجته حنا أحيون، وجدتها من الأب زرا توليدانو درحي"².

كما تقلص الفارق في السن بين الزوجين، لكن ظل هاجس الآباء، مع ذلك، هو زواج أبنائهم خاصة الإناث في أقرب وقت ممكن. كما تراجع الزواج بين أفراد نفس الجماعة، وصار يهود فاس ومكناس وصفرو، على سبيل المثال لا الحصر، يتزوجون فيما بينهم. كما تراجعت العادات التي كانت تعيق حياة عادية بين الزوجين خلال الشهر الأول للزواج، خاصة بالوسط الحضري.

عموما لم يعد الزوجان الشابان يستقران عند أبويهما، بل أصبح الجيل الجديد يفضل الاستقرار بالبيت الخاص، خاصة وأن النساء العصريات صرن يرفضن العيش مع الزوج بيت أبويه. هذا النوع من الزواج كان له دور في تفكيك بنية الأسرة التقليدية³. غير أن التخلي عن أشكال الارتباط القديمة كانت له في نظر الأسر المحافظة عواقب سلبية، حيث كثرت حالات فسخ الخطوبة بسبب الإغواء وحوادث الاغتصاب، وهو ما دفع السلطات الدينية الحاخامية

¹Ibid, p. 78.

²D. Cohen, op. cit, p. 40-41.

³D. Bensimon-Donath, *Evolution du Judaïsme Marocain...*, op. cit, p. 79.

سنة 1947 إلى أخذ قرار يلزم الخطيب الذي وعد امرأة بالزواج، ولم يقترن بها لاحقا إلى تأدية غرامة مالية، وفي سنة 1952 قررت نفس السلطات رفع قيمة هذا المبلغ¹. غير أن حرية اختيار الشريك الآخر في الزواج ساهمت بالمقابل في التقليل من عدد حالات الطلاق، وفي احترام الحياة الشخصية، علاوة على إشراك المرأة في القرارات المتخذة، وقد اقتصر ذلك على الأوساط المتطورة، ناهيك عن تبني هؤلاء خيار تنظيم الأسرة من خلال التقليل من عدد الولادات²، أضف إلى ذلك الاتجاه إلى تلقين الأطفال تربية مرنة أكثر³، ذلك أن التربية العلمانية بالمدرسة العصرية وإغراءات الحياة اليومية التي هبت رياحها بشكل قوي من الخارج بشكل متلاحق، ساهمت في المزيد من تعميق الهوية مع أنماط العيش العتيقة، وهذا التحرر كان مدفوعا بتمثيلات اليهودي لما يقع خارج أسوار الملاح بالمدينة الأوروبية. وهو ما عمق من دون شك الاختلاف بين الأجيال داخل الأسرة، ذلك أنه في الوقت الذي كان فيه الأجداد لا يتحدثون إلا العربية العبرية، كان الأحفاد لا يتكلمون في الغالب إلا اللغة الفرنسية، وهو ما عطل نوعا ما من التواصل بين الجيلين⁴، حيث ساهم في تمرد الأبناء على الآباء⁵.

لكن رغم الاختلاف بين ذهنية الأبناء والآباء، فقد ظل هاجس أولياء الأمور هو أن يبلغ أبنائهم في مسيرتهم التعليمية ما لم يستطيعوا بلوغه⁶، لأنهم صاروا مدركين أهمية التعليم في اقتناص فرص الترقى الاجتماعي. لقد ساهم نبيل الأطفال للتعليم العصري في إحساسهم "بالخجل" من ماضيهم والوسط الذي ينتمون إليه، لذلك كان المراهقون يبذلون مجهودات مهمة للنجاح في حياتهم المهنية للتحرر من الوسط العائلي الذي كانوا يعيشون فيه، فكانت مجهوداتهم تتوج بالنجاح أحيانا وبالفشل أحيانا أخرى⁷، لأن منافسة المعمرين الأجانب على الوظائف المهمة لم تكن سهلة، إلا أنهم كانوا محظوظين على العموم، لأن آباءهم استطاعوا مساعدتهم على إكمال تعليمهم حتى نهاية المرحلة الابتدائية، عكس أقرانهم الذين لم تسعفهم ظروفهم في ذلك⁸. وبالمقابل، كانت قلة قليلة فقط من تستطيع إكمال تعليمها الثانوي⁹ والعالي، وهو ما كان يؤدي إلى بروز فارق كبير في الذهنيات بين الجيلين الثاني والثالث.

¹Ibid, p. 79.

²ibid, p. 80.

³A. Chouraqui, *L'AIU et la renaissance Juive...*, op. cit, p. 238.

⁴D. Bensimon-Donath, *Evolution du judaïsme marocain...*, op. cit, p. 84.

⁵D. Cohen, op. cit, p. 29

⁶D. Bensimon-Donath, *Evolution du judaïsme marocain...*, op. cit, p.85.

⁷Ibid, p.85.

⁸"عدد من التلاميذ كانوا ينقطعون عن الدراسة مبكرا، رغبة في كسب القوت أو لمساعدة الأب في التجارة أو الحرفة، أو لاختيار مهنة أخرى، على عكس الذين أتموا دراستهم الذين تمكن بعضهم من العمل في المؤسسات الأجنبية أو أصبحوا ممثلين تجاريين لشركات أجنبية، ومنهم من اشتغل بالتعليم". أحمد شحان، *من منبت الأصول إلى رياح الفرقة...*، مرجع سابق، ص. 79.

⁹"سياسة سلطات الحماية في التعليم ارتكزت على التقسيمات التالية: تم توجيه التعليم الأوربي لأبناء المعمرين بالتحديد، قبل أن يتم السماح لعدد قليل من أبناء أعيان اليهود والمسلمين بولوج مدارسهم، هذا وكان ثمة تعليم خاص بأبناء المسلمين، وآخر خاص بأبناء الإسرائيليين".

D. Bensimon-Donath, «Relations entre Juifs et Musulmans au Maroc sous le Protectorat Français», in, *Les relation entre Juifs et Musulmans en Afrique du Nord...* Actes du Colloque international... op. cit, p. 98.

وبما أن درجة انفتاح وتطور أي مجتمع ذكوري محافظ تقاس في وجه أساسي منه بتطور وضع المرأة فيه، فمن المفيد أن نرصد وضعيتها قبل بداية بروز تحولات غيرت حياتها نحو الأفضل، إذ الملاحظ أن المرأة اليهودية كانت تعاني من العديد من مظاهر الدونية، كما عاشت داخل التقليد اليهودي حياة إقصائية لم تكن تسمح لها بأي حضور قوي داخل الأسرة والجماعة¹. لقد كانت الأسرة اليهودية خاضعة لقواعد النظام البطريكي، وهو نظام اجتماعي يمتلك فيه الرجال السلطات الأساسية داخل الأسرة والجماعة، ويحظون بوضع اعتباري مهم عكس النساء²، حيث كانت المرأة اليهودية منذ ولادتها تعيش في وضعية دونية، وتستقبل بفتور منذ ولادتها³، كما كانت تظل بعد زواجها تحت وصاية الزوج وأسرته الزوج، ذلك أن هذه الأخيرة وبمباركة من أحد الحكماء، كان لها الحق في مراقبة علاقتها بأسرتها، وقد تتلقى الأمر بالاعتصار على زيارة أبويها مرة واحدة فقط في الأسبوع، وقد يتطور الأمر إلى ضرورة الحصول على إذن كتابي. كما كانت النساء تُستبعدن من أعمال الرجال، ولا يمكن لهن إدارة أعمالهن الخاصة. وحسب تصريح للحاخام يوسف برديجو (1922-1943)، فإن: "النساء لا تستحقن حتى أن تأدبن على الشتم التي تمس شرف الإنسان، كما لا يمكن لهن أن يتولين علنا أي دور في النظام السياسي الداخلي الذي يتمحور أساسا على المفاهيم الذكورية التي تتعلق بالشرف والفضيحة"⁴. لقد كانت المرأة اليهودية بالنسبة لزوجها تعد كالخادمة، وليست في مقام الزوجة، وعليها أن تكون حريصة على التصرف مع زوجها باحترام كبير⁵، ومن مظاهر ذلك عدم استحسان مناداته باسمه الشخصي، في حين يحق للزوج القيام بذلك. كما أن العلاقة العاطفية لم يكن يتم التعبير عنها شفها بين الزوجين، لأن الملاح كان يجهل الحب على الطريقة الأوروبية⁶.

هذا، وكان تعليم بعض الإناث، قبل دخول مدارس الرابطة الإسرائيلية العالمية للمغرب، يقتصر على تلقي التعليم الديني⁷، لكن غالبا ما كان يتم تزويجهن في سن مبكرة دون استشارتهن، ذلك أن أمر الزواج كان يتم تدارسه

¹ "في ظل مجتمع ذكوري لم يكن الأمر يختلف عن وضعية المرأة المسلمة في الريف على سبيل المثال لا الحصر، وفي هذا الصدد يقول أحمد سراج : " تعتبر المرأة شريكة الرجل في تأسيس الأسرة، لكنها مع ذلك، لم تكن تتمتع بنفس المكانة الاجتماعية التي كان يتمتع بها الزوج. فإذا كان الرجل يتحرك بحكم وظيفته في مجال واسع (الدشار أو القبيلة) فإن مجال المرأة لم يكن يتعدى المنزل إلا نادرا. وهي بحكم موقعها في عملية الإنتاج، وبحكم طبيعتها الفيزيولوجية لا تملك أية سلطة فعلية، بل تعتبر خاضعة لسلطة الزوج، تنفذ أوامره وتهيئ المستلزمات الضرورية للحياة العائلية. فمسؤوليتها تقتصر على البيت، من تحضير الطعام، وتنظيف للمسكن، وتربية للأطفال. ويمكن أحيانا أن تتمتع بسلطة ضيقة على زوجات الأبناء في حالة زواج أحد أبنائها أو بعضهم". أحمد سراج، *آيتورياغل، التاريخ، المؤسسات، العلاقة مع السلطة*، منشورات ملتي الطريق، 2017، ص. 68.

² غالبا ما كانت النساء تلجأن إلى الجنس للدفاع عن أنفسهن، تستخدمه أولا في حياتهن الخاصة، ثم في العلن إذا اشتد الصراع مع الزوج أو عائلته. السيطرة الثقافية على الجنس بين الزوجين كانت هي المصدر الوحيد لسلطة المرأة اليهودية [...] وكان الزوجان لا يترددان فيجعل عائلتهن يتدخلون في الصراع الخاص بهما".

R. Devico, op. cit, p. 72.

³D. Bensimon-Donath, *Evolution du Judaïsme Marocain...*, op. cit p.69.

⁴R. Devico, , op. cit, p. 71.

⁵D. Bensimon-Donath, *Evolution du Judaïsme Marocain...*,op. cit, p. 69.

⁶Ibid, p. 70.

⁷R. Devico, op. cit, p. 72.

فقط بين أبوي الزوجين المرتقبين*. الآباء اليهود كانوا يستعجلون تزويج أبنائهم وخاصة الفتيات، خصوصا وأن التلموذ يحدد سن بلوغ الفتاة سن 12 سنة ونصف، وسن بلوغ الذكر في 13 سنة، ثم إن عادة الزواج المبكر كانت جد منتشرة بالمغرب، ففي بعض الأحيان كان يتم تزويج فتيات تتراوح أعمارهن بين 6 إلى 8 سنوات بأطفال أعمارهم ما بين 8 إلى 10 سنوات¹ مع تأجيل البناء²، لأن الديانة اليهودية توصي الآباء بتزويج أبنائهم مبكرا، لذلك كانت العائلات ترى نفسها ملطخة بالعار إذا لم تتزوج بناتها قبل الثانية عشرة³.

لقد كان زواج الفتاة بالنسبة للأب نجاحا في حد ذاته، في بلد كانت ظروف الحياة فيه غير مستقرة، علاوة على الخوف من أن تأخذ الأمور منحى سلبيا من الناحية الأخلاقية. كما لم تكن الأسر تجد حرجا في الفارق الكبير في السن بين الخطيب وخطيبته، والذي كان يصل أحيانا إلى ما بين 20 إلى 30 سنة⁴. لقد كان الهدف من تزويج الفتاة المبكر هو الإنجاب، لذا كان العقم يعتبر مصدرا للعار وشؤما بالنسبة للمرأة، وعندما كانت تتعدى المرأة عشر سنوات من الزواج دون إنجاب، كان يحق لزوجها تطليقها، لكن هذا الأمر كان نادر الحدوث، لأن القضاة اليهود كانوا لا يقبلون الطلاق لهذا السبب، ولتجنبه كانوا يبيحون للزوج إذا كانت له إمكانيات مادية الزواج من امرأة أخرى⁵، وقد يصل العدد حتى أربع زوجات، لأن الشريعة اليهودية تحيز تعدد الزوجات⁶.

أكثر من ذلك، كانت المرأة اليهودية طبقا للشريعة اليهودية مجبرة على الزواج بأخ الزوج إذا توفي زوجها وليس لها أطفال، وكان هذا النوع من الزواج يسمى بزواج السلفة⁷، طبقا لما جاء في التوراة، كما ينص عليه الإصحاح

*"جرت العادة، في المجتمعات اليهودية الإسلامية، أن يختار الآباء لأبنائهم زوجات منذ الصغر، وعندها كان الفتى يساير اختيار ذويه في الغالب. ويحدث أحيانا ألا تتوافق رغبة هذا الأخير مع رغبة الوالدين، لذلك كانت تحدث منازعات [...] أما بالنسبة للبنات التي لا يطلب منها رأيها في مثل هذه الحالة، فأمر الرفض غير وارد، وما عليها إلا أن تخضع لقرار أبويها وهي مرغمة. وكان أب الولد في العادة، هو من يتقدم إلى أب البنت لطلب ابنته دون واسطة، إذا كانت الصداقة تربط العائلتين. ويحدث، في أغلب الأحيان، أن تسند هذه المهمة إلى أشخاص آخرين هذه مهمتهم، هو "الخطاب" أو "الخطابة"....". حاييم الزعفراني، *يهود الأندلس والمغرب، الجزء الثاني*، مرجع سابق، ص. 443-424.

¹D. Bensimon-Donath, *Evolution du judaïsme marocain...*, op. cit, p. 63.

²"كان الآباء يهتمون، في طوائف وادي تودغا في جبل الأطلس الكبير، عندما يبلغ الولد سن الخامسة، بشيئين اثنين: تعليمه التوراة، واختيار زوجته، طبقا لأحد الأوامر التلمودية. لقد جرت العادة أن يحتفلوا ليلة "شابعوت"، التي تصادف ذكرى نزول الوحي في جبل سيناء، بنوع من زواج الطفولة "حوباه بزعيم انبيم". فكان الأبوان يختاران في هذا الحفل، قرينة لولدتهما من نفس سنه، فيرتبط الطفلان حقيقة تتخللها الاحتفالات. وفي هذا اليوم بعد صلاة الصبح "شخريت" يقصد الرجال بيت الخطيب، فيخط الربي الأبجدية العبرية بالعسل على لوح نظيف، ويطلب من الولد أن يلحق الحروف وهو يقول: "ليكن كلام التوراة حلوا في حلقك مثل هذا الشهد". لقد تحدث عن هذا الاحتفال كل من Brunot و Malka، في كتابهما (النصوص العبرية- العربية بفاس). ويبدو أنهما لم يهتما إلا بمظهر واحد من هذين المظهرين الذي هو وعد زواج الصبيين مستقبلا. وأوضح لنا من أخبرهما بالخبر، وهما رجلا أحدهما من تودغا والآخر من محميد الغزلان، بتخوم الصحراء، أن الأمر يتعلق أولا وقبل كل شيء، بعرس رمزي تزوج فيه التوراة للطفل". حاييم الزعفراني، *يهود الأندلس والمغرب، الجزء الثاني*، مرجع سابق، ص. 433.

³إيلي مالكا، *العوائد العتيقة اليهودية بالمغرب من المهد إلى اللحد*، اتصالات سبو الملتقى، الطبعة الثالثة، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، 2013، ص. 38.

⁴D. Bensimon-Donath, *Evolution du Judaïsme Marocain...*, op. cit, p. 64.

⁵ Ibid, p. 67

⁶إيلي مالكا، *العوائد العتيقة اليهودية بالمغرب من المهد إلى اللحد*، مرجع سابق، ص. 60.

⁷R. Devico, op. cit, p. 74.

الخامس والعشرون في الآية الخامسة من سفر التثنية¹. هذا الأمر كان يتم دون مراعاة فارق السن، وهي ملزمة بالامتثال لهذا التشريع، ولو كان أخ الزوج يكبرها أو يصغرها بخمسين سنة، سواء كان مريضاً أو عاجزاً². وإذا رفض أخ زوجها المتوفى الزواج بها يطبق في حقه ما يسمى بطقس "الحالصة"³. من جهة أخرى، كان اليهود يولون أهمية كبرى لعذرية الفتاة، حيث تقوم قريبة إحدى الزوجين صباح الدخلة بمراقبة دليل العذرية، وبعد ذلك تزف الخبر لأُم الزوجة، وبعدها يتم عرض دليل العذرية أمام الوالدين والنساء الحاضرات⁴، وكان ذلك يعد مفخرة كبيرة لأسرة الزوجين، لكن عندما يكتشف الزوج عدم عذرية زوجته، يتركها على الفور، ويولي ذلك شجار مع أسرة الزوجة، وتصبح المرأة في هذه الحالة منبوذة من قبل أفراد الجماعة اليهودية⁵.

أما فيما يتعلق بحق المرأة اليهودية في الإرث قبل الحماية، وعلى قدر ما اطلعنا عليه، فلم يكن من حقها الإرث في حال وجود وريث ذكر في المستوى نفسه من القرابة، كما أنها لم تكن ترث زوجها، وكل ما لها بعد موته هو مؤخر المصدق. أما إذا لم تطالب به فلها أن تعيش مع الورثة من مال التركة⁶. عموماً، لم يكن للنساء اليهوديات المغربيات أي حق في الملكية، باستثناء ما يتعلق بمقهن في ملكية مجوهراتهن وتحت مراقبة الزوج، غير أن المرأة اليهودية استفادت في بعض الحالات من بعض الحقوق بناء على التشريع الحاخامي اليهودي المغربي، ويتعلق الأمر بحقها في ملكية ما حصلت عليه بوصفه هبات، واقتصار الاستفادة من ذلك عليها وحدها إن أرادت ذلك. كما كان من حقها حق ملكية ما كانت تحصل عليه من زوجها خلال فترة الزواج أو ما انتقل إليها من ممتلكات عن طريق العطايا والإرث⁷.

حري بالذكر أن تأسيس مدرسة الرابطة الإسرائيلية بمدينة مكناس، ودخول الفرنسيين للمغرب بعد توقيع معاهدة الحماية لم يؤدّ إلى تحسن فوري في الوضع الاجتماعي للمرأة اليهودية، بل دليل ما وقفنا عليه من وثائق أرشيف

¹ "إذا سكن اخوة معاً ومات واحد منهم وليس له ابن فلا تصر امرأة الميت إلى خارج لرجل اجنبي اخو زوجها يدخل عليها ويتخذها لنفسه زوجة ويقوم لها بواجب اخي الزوج. والبكر الذي تلده يقوم باسم أخيه الميت لنلا يمحى اسمه من إسرائيل". التوراة، الإصحاح 25، الآية 5 و 6 من سفر التثنية. أنظر الرابط الإلكتروني التالي: شرح الكتاب المقدس - العهد القديم - القمص أنطونيوس فكري بالتثنية 25 - تفسير سفر التثنية.

https://st-takla.org/pub/Bible-Interpretations/Holy-Bible-Tafsir-01-Old-Testament/Father-Antonious-Fekry/05-Sefer-El-Tathneya/Tafseer-Sefer-El-Tathnia_01-Chapter-25.html

² الحاج محمد الناسك، الحياة الثقافية والاجتماعية للطائفة اليهودية بالدار البيضاء في عهد الحماية، أطروحة لنيل الدكتوراه الوطنية في الآداب، تخصص التاريخ، نوقشت بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بوجدة، جامعة محمد الأول وجدة. 2013، ص. 144.

³ "إن لم يرض الرجل أن يأخذ امرأة أخيه، فلأرملة أن تتوجه إلى شيوخ المدينة وتقول: قد أبى اخو زوجي أن يحيي في إسرائيل اسم أخيه، ولم يرغب في أن يتزوج بي وفقاً لما هو واجب عليه شرعاً. فيدعوه شيوخ مدينته ويتكلمون معه. فإن أصر وقال: لا أرضى أن أتخذها، تتقدم امرأة أخيه إليه أمام أعين الشيوخ، وتخلع نعله من رجله، وتبصق في وجهه، وتصيح قائلة: هكذا يفعل بالرجل الذي لا يبني بيت أخيه. فيدعى اسمه في إسرائيل بيت مخلوع النعل". إيلي مالكا، العوائد العتيقة اليهودية بالمغرب، من المهد إلى اللحد...، مرجع سابق، ص. 57.

⁴ D. Bensimon-Donath, *Evolution du judaïsme marocain...*, op. cit, p. 66-67.

⁵ Ibid, p. 68.

⁶ الحاج محمد الناسك، الحياة الثقافية والاجتماعية للطائفة اليهودية بالدار البيضاء في عهد الحماية...، مرجع سابق، ص. 146.

⁷ R. Devico, op. cit, p. 73.

مؤسسة الرابطة اليهودية العالمية، فألى حدود منتصف الثلاثينات من القرن العشرين كانت المرأة اليهودية داخل جماعتها بمدينة مكناس، لا تزال مجبرة على القيام بالأدوار التقليدية، وموضوعاً للمتعة الجنسية للزوج والعناية بالأطفال وشؤون البيت الروتينية طيلة أيام الأسبوع، أما يوم السبت الذي هو يوم راحة فقد كانت تكتفي فيه بالوقوف أمام عتبة المنزل، والمتحركات القليلات، هن من كان باستطاعتهم التنزه لوحدن على طول الشارع المجاور لبيوتهن. كما ظل أمر الزيارات إلى الأغيار حكراً على الرجال فقط، وإذاًك تكتفي المرأة بالصمت، ويقتصر حضورها على تقديم الخدمة للضيوف دون مشاركة الحديث معهم أو الإدلاء برأيها، لأن هذا الدور كان حكراً على الرجال فقط¹. وفي البيت لم يكن من حقها أن تتناول الأكل رفقة الزوج، وعوضاً عن ذلك تكتفي بالأكل داخل المطبخ لوحدها أو رفقة أولادها. أما مسألة الطلاق فقد كانت لا تزال عملية سهلة في يد الزوج، الذي يستطيع تطليق زوجته والإتيان بغيرها، إذا بدر منها من يدعوه إلى فعل ذلك. استمرار الذهنية التقليدية في التعامل مع المرأة لم يكن شأنًا خاصاً فقط بالكبار، بل كان منتشراً حتى في صفوف الجيل الجديد من الشباب المتزوجين الذين ظلوا متشبعين بالثقافة الذكورية، يتصرفون في حياتهم الزوجية كالعزاب، حيث لم يكونوا يصطحبون معهم زوجاتهم إلى المقهى أو المرقص².

انطلاقاً مما سبق، انتهى مدرسو الأليانس بمكناس، إلى أن أغلبية أفراد الجماعة اليهودية بهذه المدينة، قد ظلوا حتى هذه المرحلة تقليديين، وأحد الأسباب الرئيسية التي أعاققت تطوّرهم بسرعة، تكمن في كونهم ظلوا يعيشون منعزلين عن الأوروبيين في الملاحين القديم والجديد، الأمر الذي لم يسمح بتطوير علاقات تلاقح سريعة بين أفراد الجماعة اليهودية، ومستوطني مكناس الأوروبيين بالمدينة الجديدة، من قبيل الاطلاع عن قرب على نمط الحياة الأسرية (العلاقة بين الزوجين ومع الأبناء)، ذلك أن مناسبات التواصل بين الطرفين كانت في الغالب تقتصر على المعاملات التجارية³. وفي هذا الصدد يقول مدرس الرابطة، واصفاً وضع يهود مكناس خلال هذه الفترة ما يلي: " لا توجد بالملاح عائلات تستقبل الأغيار والغرباء، لا يوجد مجتمع بمكناس. لماذا؟ لأن المرأة التي تمثل روح المجتمع غير موجودة"⁴.

لقد ظل تعليم الإناث بدوره ضعيفاً حتى هذه الفترة، ذلك أن أغلب يهوديات مكناس كن غير متمدرسات، واللواتي أسعفن الحظ في الذهاب للمدرسة، كن مضطرات لتركها في سن 12 سنة أو 13 من أجل الزواج استجابة

¹A.IU.IIB12.63, Lettre de Almaleh Bension au président de l'AIU à Paris, Meknès, le 26 Mars 1933.

²A.IU.IIB12.63, Lettre de Almaleh Bension au président de l'AIU à Paris, Meknès, le 26 Mars 1933.

³Ibid.

⁴Ibid.

لضغط الأسر التي ظلت تحتصر نجاح المرأة في الزواج، سيرا على نهج الأمهات والجدات¹. لقد كان تحرر المرأة و الجماعة بطيئا، لكن مدرسو الرابطة ظلوا، رغم ذلك، من خلال ما اطلعنا عليه من ملاحظاتهم، يعتقدون بأن تحرر الجماعة من الذهنية التقليدية سيتم لا محالة خلال السنوات اللاحقة، وفي هذا الصدد يقول مدرس الرابطة بمكناس: "هل سيستمر هذا الوضع طويلا بهذه المدينة؟ الراجح أن ذلك لن يطول كثيرا، رغم أن التطورات التي تحققت لحد الآن بطيئة، لكنها ستتقدم بسرعة عندما تصبح الطفلات المتدربات حاليا، واللواتي يبلغ سنهن ما بين 10 و 12 سنة أمهات في المستقبل، حينها لن تقبلن استمرار هذه الوضعية، خصوصا وأن جمعية قدماء التلاميذ عبر بعض عناصرها المؤثرين، تقوم بمجهودات مهمة لتطوير وضعية المرأة اليهودية. وفي اتجاه دعم هذا الطموح قام هؤلاء بتوجيه دعوة للنساء اليهوديات بمكناس من أجل شغل عضوية مكتب الجمعية، وقد أثمرت هذه الدعوة تجاوب امرأتين أو ثلاث فقط..."².

يتضح مما سبق أن مدرسي الرابطة -الذين كانوا على دراية مهمة بأحوال الجماعة اليهودية بمكناس-، كانوا متفائلين بمحتمية تطور يهود هذه المدينة، خصوصا أولئك الذين أسعفهم الحظ في الاستفادة من التعليم العصري، عكس أقرانهم غير المحظوظين، ولعل ذلك هو ما يفسر مراهنتهم على التعليم العصري. لكن رغم ذلك ظل تطور العقليات فيما يخص موقف اليهود، عموما، من تعليم المرأة بطيئا. فرغم أن الآباء كانوا يرسلون بناتهم إلى المدرسة، فقد ظلوا يعتقدون أن معيار النجاح في الحياة بالنسبة للمرأة، عبر التعليم، أقل أهمية مقارنة بالذكر، لذلك لم يكن يسمح للفتيات بشكل عام بمتابعة دراستهن حتى أبعد نقطة ممكنة³.

لقد ظل الاعتقاد راسخا في الأوساط المحافظة بضرورة استمرار التزام الجنسين بالأدوار التقليدية، حيث حددت مهمة الرجل في العمل خارج البيت، بينما اختزل دور المرأة في الاهتمام بشؤون البيت الداخلية⁴، على عكس يهود المدن الساحلية الذين تحرروا أكثر، بحكم احتكاكهم المبكر بالأوروبيين، وأيضا لأن مدارس الرابطة أحدثت بتلك المدن سنوات طويلة قبل مكناس، وباقي المدن الداخلية⁵. ولعل هذا ما يفسر كيف أن بعض الزعامات الروحية عند يهود مكناس خلال فترة الحماية، لم تكن تنظر بعين الرضا إلى تحرر بعض اليهوديات في العلاقة مع الفضاء العمومي، إذ كانت خائفة من توسع الحريات في أوساط الشباب. ولابأس أن نشير في هذا الصدد إلى المبادرة التي قام بها

¹Ibid.

²Ibid.

³D. Bensimon-Donath, *Evolution du Judaïsme Marocain...*, op. cit, p. 83

⁴R. Devico, op. cit, p. 75.

⁵J. Tolédano, *Portait...*, op. cit, p. 197.

الزعيم الكاريزمي الحاخام باروخ رافاييل طوليدانو،-الذي خلف أباه الحاخام يعقوب المتوفى سنة 1932 عضواً بالمحكمة الحاخامية- بسبب انزعاجه مما بدى له انحلالاً للأخلاق في أوساط النساء خاصة¹، مما حدا به إلى محاولة فرض حضر التجوال بالملاح عبر منع خروج الفتيات بدون رفيق بعد الثامنة مساءً، وخصص لذلك دوريات مراقبة شُكلت من طرف متطوعين لحراسة الشوارع بالليل، الأمر الذي خلق جواً من الخوف في أوساط الشباب، وهو ما دفعهم، خلال الحفلات الراقصة التي كانوا ينظمونها، إلى تكليف أحدهم بالحراسة، كي ينبهم إلى قدوم الدورية المخيفة².

واعتباراً لاستحالة الوقوف في وجه هذا المنع علنا احتراماً للآباء³، فقد قام بعض الشباب بالاتصال بجريدة "المستقبل المصور" لاطلاعها على هذا الأمر، فما كان منها إلا أن تجاوزت معهم، عبر مقال ساخر تحت عنوان "حريم الملاح"، انتقدت فيه هذه الطريقة في التعامل مع النساء اليهوديات، واستنكرت من خلاله ما اعتبرته رجوعاً إلى الوراء بشكل يتناقض مع القيم العصرية، التي سعت مدرسة الرابطة إلى خلقها في صفوف يهود المدينة، والتي تهدف إلى احترام المرأة العصرية، حتى لا تظل سجيناً داخل الملاح. استهجان النخب العصرية هذا القرار، دفع لجنة الجماعة إلى معارضته، خصوصاً وأنه لم يكن محل إجماع منذ البداية، ذلك أن رئيس مجلس الجماعة الشاب جوزيف برديغو كان مصرّاً على قيادة جماعته نحو دمجها بالعالم العصري، ولكن دون التخلي عن العادات اليهودية الأصيلة، لذلك حدد مهمة الحاخامات في ضرورة الاقتصار على الاكتفاء بتأطير المجالين الروحي والديني فقط. أمام هذا الموقف الصارم، الذي اتفقت حوله أغلبية أعضاء الجماعة، تم وقف حضر التجوال الذي تم نسيانه في خضم المشاكل الجديدة، التي بدأت تواجه يهود مكناس منذ مرحلة الثلاثينيات⁴.

تنوجب الإشارة في هذا السياق، إلى أن التحفظ من تحرر المرأة اليهودية عبر التعليم لم يقتصر على النخب اليهودية التقليدية فقط، بل امتد حتى إلى بعض الشباب المسلمين من "الوطنيين" الذين لم يستسيغوا مظاهر تحرر المرأة اليهودية التي كانت تخيفهم، رغم تأثرهم بأفكار النهضة التي كان يروج لها محمد عبده، وبأفكار الثورة الفرنسية وما تلقوه في المدارس أبناء الأعيان، وإن اعترفوا بأهمية التعليم الذي كانت تقدمه مدارس الرابطة اليهودية العالمية، إذ كتب أحدهم في مقال نشر بجريدة الوداد العربية، يدافع فيه عن المرأة المسلمة ضد أخلاق الشارع: "نلاحظ الآن ذهاب عدد كبير من الفتيات اليهوديات للمدرسة العمومية، حيث يتلقين معرفة لا يستهان بها، ولكن نلاحظ

¹Ibid, p. 197.

²D. Cohen, op. cit, p. 40.

³J. Tolédano, **Portait...**, op. cit, p. 244.

⁴ Ibid, p. 245.

أيضا تراجعاً في قيمهن وفوضى في حياتهن، نظراً لنقص ثقافتهن، ذلك أن التعليم الذي تلقينه أدى بشكل معكوس، ضداً على أهدافه، إلى انحطاطهن الأخلاقي¹.

لا شك أن وضع المرأة اليهودية، قد عرف تطورات مهمة خلال السنوات اللاحقة لمرحلة الثلاثينات خصوصاً المرحلة التي تلت فترة الحرب العالمية الثانية، كما أسلفنا، بفضل الانطلاقة القوية التي عرفتتها مدرسة الرابطة، ودخول فاعلين أجانب جدد للعناية بأحوال المغاربة اليهود، فضلاً عن أن تبني نسبة من النساء اليهوديات لنمط العيش الأوروبي قد ساهم في إحداث القطيعة مع الأنماط التقليدية، ورغم أن فترة التمدرس بالنسبة للنساء كانت قصيرة إلا أن آثارها كانت مهمة، تجلت في طريقة تدبير شؤون البيت، وطريقة اللباس، ناهيك عن حصول تراجع في العادة التي كانت تقضي بمنع المرأة من الخروج لوحدها أو بدون سبب².

دينامية التحولات الاجتماعية في اتجاه التحديث توجت سنة 1947 باتخاذ السلطات الدينية اليهودية مجموعة من الإجراءات كان الهدف منها تحسين الوضع القانوني للمرأة اليهودية المغربية، حيث اهتموا أساساً بالحد من سلطة الرجل في الطلاق³، ناهيك عن إلزامه بتحمل أعباء مالية إذا ثبت أنه مذنب، ضداً على ما كان سائداً قبل ذلك، حيث كانت المحاكم الدينية ترفض دعاوي النساء اللواتي كن يعبرن عن التظلمات التي يتعرضن لها من قبل أزواجهن. كما تم، في نفس الاتجاه، تحرير الأرملة من زواج السلفة⁴، أضف إلى ذلك تراجع الزواج المبكر والمدبر، كما لم يعد الآباء يتدخلون في اختيار شريك الحياة الزوجية⁵.

أما فيما يتعلق بقضية الإرث فقد تأخر إدخال التعديلات فيه إلى سنة 1950، بمناسبة إنشاء المؤسسة العليا للدراسات العبرانية في الرباط، والتي كان من بين مموليها الأسخياء السلطان محمد الخامس، حيث قرر مؤتمر المحاكمات إدخال بعض التعديلات القانونية فيما يتعلق بحقوق المرأة، خصوصاً ما يتعلق بالإرث عبر مراجعة أنظمة الإرث التي كان معمولاً بها من قبل، والتي انقسمت إلى ثلاثة أنواع:

✓ بعض اليهود كانوا يحتكمون حرفياً لأحكام الهالاخا.

¹M. Kenbib, *Juifs et Musulmans au Maroc*, ..., op. cit, p. 135.

²D. Bensimon-Donath, *Evolution du judaïsme marocain*..., op. cit, p. 82.

³ ibid, p. 81.

⁴Ibid, p. 82.

⁵ D. Cohen, op. cit, p. 39.

✓ آخرون كانوا يطبقون ما نص عليه مرسوم فاس، الذي يفيد أن الزوج والزوجة يعتبران شريكين على قدم المساواة في الإرث، لصالح من بقي على قيد الحياة، في حين يرث الأبناء 50% المتبقية، وهذه الأخيرة توزع بالتساوي فقط بين الذكور والإناث غير المتزوجين.

✓ الخيار الثالث كان يتوقف تطبيقه بناء على ما قع عليه الاختيار في المرسوم المنظم لذلك، بحيث يقوم الورثة بإعطاء نصف الإرث للأرملة، أو مقدار من المال المنصوص عليه في عقد الزواج، وهذا المرسوم ينص على أن حصة إرث الأرملة تساوي حصة الأبناء¹.

وفي سياق متصل بالمسألة عقد الحاخامات القضاة الممثلون للجماعات اليهودية، ما بين سنتي 1947 و1955، ستة مؤتمرات لإيجاد حلول للعديد من المشاكل، من بينها جعل القوانين والعادات الدينية منسجمة. ومن ضمن ما انبثق منها اقتراح يقضي بتوحيد نظام الإرث بالنسبة لجميع الجماعات اليهودية بالمغرب. وقد ترتب عن ذلك، أن أصبح بإمكان الفتاة أن ترث من والديها مثلها مثل الذكر، وقد تم إقرار هذه القاعدة في المحاكم، غير أن الفتاة المتزوجة لم يكن لها الحق في الإرث، أضف إلى ذلك حرمان المرأة من إمكانية النيل من ميراث زوجها، وإن سمح لها أن تحصل مقابل ذلك، على حصة نقدية تعادل مهرها المتفق عليه في عقد الزواج. غير أن الأرملة ما لم تبادر إلى المطالبة بحصتها من المهر، تستطيع المكوث في بيتها ولها حق الانتفاع من نصيبها في الميراث².

ورغم ذلك، فقد ظلت هذه التعديلات في نظر الطبقة المتنورة من اليهود محدودة وغير كافية³. لذلك تم التطرق خلال المؤتمر الخاص بالجماعات اليهودية الذي انعقد بالرباط سنة 1952، لضرورة تحرير المرأة اعتباراً للانقلاب الحاصل في سلم القيم، على أساس منحها مكانة تليق بها في المجتمع العصري. ولتسريع هذا الطموح الذي كانت تتطلع له يهوديات المغرب تمت مطالبة رئيس المؤتمر بتقنين وعقلنة الوضع الشخصي للمرأة، وإعادة النظر في حقها في الميراث⁴، لكن رغم ذلك ظلت المكاسب القانونية التي سبق وتحدثنا عنها، هي نفسها حتى نهاية مرحلة الحماية، غير أن ذلك لم يمنع من تطور الوضع الاجتماعي للمرأة اليهودية بفضل التعليم العصري كما سبق وأوضحنا ذلك.

مجمال التحولات التي اخترقت الجماعة اليهودية منذ أواخر القرن التاسع عشر مروراً بفترة الحماية، كانت تأثيراتها عموماً، متباينة الحدة على المغاربة اليهود، الأمر الذي ساهم في تشكل تمايزات اجتماعية مختلفة داخل أفراد هذه الجماعة، مما أدى إلى حدوث تمزقات في الهوية، وكذا تشكل "طبقات" مختلفة، بخصائص اجتماعية متباينة،

¹R. Devico , op. cit, p. 78.

²R. Devico, op. cit, p. 78-79.

³D. Bensimon-Donath, *Evolution du Judaïsme Marocain...*, op. cit, p. 82.

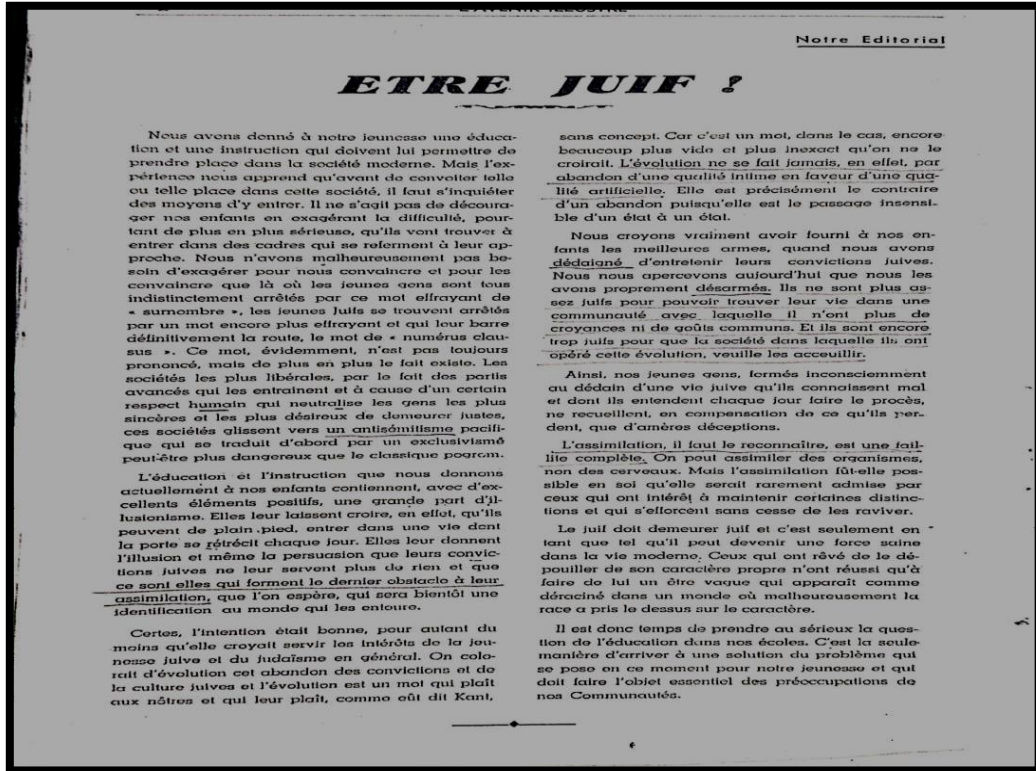
⁴«Le Congrès des Communautés Israélites» op. cit, p. 91-92.

وهو ما لم يكن موضوع استحسان من طرف النخب اليهودية المتطورة، التي كانت تسعى إلى دفع الجميع نحو تبني التحديث والعصرية، قصد النجاح في تحقيق التماثل الاجتماعي مع المستوطنين الفرنسيين. غير أن رهانات النخب العصرية لم تتحقق على الوجه الأمثل، رغم ما بذلته المدرسة العصرية من مجهودات في هذا الاتجاه.

أما ما يتعلق بموضوع الهوية وأزمة الانتماء، فقد أثير هذا الموضوع على صفحات جريدة المستقبل المصور أواخر الثلاثينات، حيث تم التنبيه إلى الأزمة الروحية التي عانت منها العناصر التي استفادت من التعليم العصري، لأن طموحاتها كانت قد اصطدمت بصعوبات الاندماج بشكل مثالي في المجتمع الكولونيالي، ذلك أن التعليم العصري الذي قدمته مدرسة الرابطة للشبيبة اليهودية منحهم أحلاما كبيرة، لكنه، في الآن نفسه، أنساهم طبيعة الواقع الذي كانوا يعيشون فيه، أي أن تطلعهم للعيش طبقا للأفكار التي تلقوها بالمدارس، كان يصطدم مع الواقع الذي لم يكن يتيح عمليا تحقيق ذلك التماثل الاجتماعي النموذجي¹، كما أدى ذلك على نحو متزامن إلى الابتعاد عن تقليدية باقي أفراد الجماعة. بالتالي فقد كان هذا التطور المعاق، ثمنا للتغريب السريع لجزء من الساكنة اليهودية بالمراكز الحضرية الكبرى.

¹«Etre Juif !», in AI, op. cit, p. 2.

صورة رقم 23: صورة مقال يتناول موضوع الهوية وأزمة الانتماء في صفوف المغاربة اليهود



«Etre Juif !», in Al, op. cit, p. 2.

إن التقاء بعض المغاربة اليهود بالحضارة الغربية عن طريق المدرسة العصرية، قد شكل بالنسبة لهم صدمة نفسية، ظلوا ممزقين على إثرها بين عالمين، عالم الأسرة والملاح الذي أرادوا التخلص منه، وعالم المستقبل الذي حاولوا الاندماج فيه بكل قواهم¹، خصوصا وأن تعرف التلاميذ على الثقافة الفرنسية المغاربة لثقافة الحاخامات داخل المدارس العصرية، جعل الدين مثار تساؤل، وموضوعا للنقد، وبدا أن هناك طلاق بين العقل والدين، كما تدهور الإحساس بضرورة الصلاة، فأصبح يتبلور نوع من سوء التفاهم بين الشبيبة اليهودية والتعليم الديني².

لقد فقد التلميذ اليهودي توازنه بعد احتكاكه بالحضارة الغربية، وأصبح يتساءل ما معنى أن يكون يهوديا؟ فكان مدرسه العلمانيون يجيبونه بأنه في المغرب لا يوجد يهودي أو مسلم، بل مغاربة، وعندما كان يتصرف كمواطن

¹D. Bensimon-Donath, *Evolution du judaïsme marocain...*, op. cit, p. 127.

²A. Chouraqui, *L'AIU et la renaissance juive...*, op. cit, p. 238.

مغربي أمام المسلمين من دون استحضار الوضعية التقليدية، كان يتم تذكيره بأن جميع المغاربة رعايا السلطان، ومتساوون في الحقوق، لكنه كان يدرك بأن "الذمي" كانت تنقصه بعض الحقوق على المستوى الاعتباري، في الوقت الذي ظلت سلطات الحماية تعتبره "إسرائيليا مغربيا"، وعندما كان يفكر في الهجرة إلى فلسطين، كان يعتبر على الفور مغربيا¹. وبالتالي عاشت النخب اليهودية العصرية حالة من الاضطراب في تعاطيها مع إخوانها في الدين التقليديين، ومع يهوديتها بالذات، ومع الآخرين من غير اليهود، مسلمين وفرنسيين. خجلها من اليهود التقليديين ومن كل ما يذكرها بالماضي، وعدم تعاطفها معهم، بل والتحامل عليهم ومهاجمتهم لكل ما هو عتيق، لم يساعدها على الاندماج الكلي في مجتمع المستوطنين، فظلت ممزقة بين هموم الماضي وتساؤلات الحاضر ووعود المستقبل، مع العلم أن هذا التطور قد كان أقل حدة بالمغرب، بالمقارنة مع الوضع بالجزائر وتونس، لأن سطوة التقاليد بالمغرب كانت أكثر حضورا².

هذه الانتكاسة النفسية والاجتماعية أثارت انتباه النخبة اليهودية العلمانية مبكرا، إلى ضرورة إعادة النظر في فلسفة الاندماج القديمة التي ربطت تحرر اليهودي، بلزوم تخليه عن هويته اليهودية التقليدية عبر التعليم العصري، وهو الأمر الذي لم ينجح كما اتضح لاحقا، لأنه أدى إلى شعور خريجي المدرسة بالاغتراب داخل مجتمع يهودي متشبث بالتقاليد، لاسيما وقد ظل يُنظر إليهم من طرف الفرنسيين كونهم يهوداً فقط. بناء عليه، أوصى صاحب مقال "معنى أن تكون يهوديا" بضرورة مراجعة فلسفة التعليم لتجاوز هذا المشكل، حتى تستطيع المدرسة النجاح في التنوير، وكذا العمل على أن يظل اليهودي يهوديا، لأن أية محاولة لاقتلاعه من جذوره، لن تؤدي في النهاية إلا إلى تشكل كائن تائه، لا ينتمي إلى أي مكان، في عالم كانت التقاليد فيه ما تزال تحتل فيه مكان الصدارة³.

أما ما تعلق بالدور الذي لعبته كل من مدارس الرابطة، والاحتكاك بالفرنسيين على أكثر من صعيد، ودور ذلك في بروز التمايز الطبقي لدى كل يهود الحواضر الكبرى بما في ذلك مدينة مكناس، فقد أدّى ذلك إلى بروز ثلاث طبقات اجتماعية بخصائص مختلفة: وهكذا نجد في أعلى الهرم الاجتماعي طبقة أرستقراطية تشكلت أساسا من عدد قليل من الأفراد الذين كانوا دائما قريبين من المخزن قبل الحماية. أفراد هذه الطبقة اشتهروا بتخصصهم في مهام الوساطة بينه وبين القوى الخارجية⁴، وبعد توقيع معاهدة الحماية اقترب هؤلاء من سلطات الحماية الفرنسية، واستمروا في القيام بدور الوساطة التجارية في بعض السلع بين المغرب وفرنسا، عبر عمليات التصدير والاستيراد، مما

¹D. Bensimon-Donath, *Evolution du Judaïsme Marocain...*, op. cit, p. 127.

²A. Chouraqui, *L'AIU et la renaissance Juive...*, op. cit, p. 238.

³«Etre Juif !», in AI, op. cit, p. 2.

⁴D. Bensimon-Donath, «Relations entre Juifs et Musulmans», op. cit, p. 98.

مكنهم من تموين السوق المغربية بشكل عام، والحاميات العسكرية بمكناس بشكل خاص، ببعض السلع التي كانوا في حاجة إليها¹، مستغلين في ذلك الدعم الكبير لسلطات الحماية بسبب تشابك المصالح بين الطرفين²، بالإضافة إلى اعتمادهم على رساميلهم وعلاقاتهم الدولية، ومعرفتهم الكبيرة بما كان يجري بالبلاد، فحققوا بذلك نجاحات كبيرة مكنتهم من توفير ظروف عيش جيدة، مقارنة بالأغلبية الساحقة التي ظلت تعيش ظروفًا بئيسة في أدنى الهرم الاجتماعي³. ومن مظاهر الرفاه الاجتماعي لدى هذه الطبقة الميسورة تزايد عدد الشابات المسلمات العاملات خادمت في منازلها، وهو الأمر الذي لم يكن مستساغًا من طرف المسلمين⁴.

وسط هذه البنية الاجتماعية، تواجدت طبقة متوسطة تشكلت من رؤساء الحرف، وفئة التجار الذين استفادوا من لعب دور الوساطة، المتمثل في تزويد الفرنسيين المقيمين بمدينة مكناس والنواحي بالعديد من المواد⁵، والذين يعود لهم الفضل في إدخال المواد إلى السوق المحلية. أفراد هذه الفئة كان وضعهم الاجتماعي غير مستقر، لأنهم عانوا من منافسة المسلمين والأوربيين، لذلك ظلت وضعيتهم المادية متذبذبة حسب الظروف. كما نجد داخل هذه الطبقة فئة من الموظفين الذين اشتغلوا بالعديد من الوظائف المدنية، كالعامل بالأبنك⁶، أو التعليم⁷، لقد تشكل أفراد هذه الفئة أساسًا من قدماء تلاميذ مدرسة الرابطة الطموحين لتسلك سلم الترقى الاجتماعي، كما امتهن بعض أفراد هذه الطبقة العديد من الحرف الجديدة التي سبق وأشرنا إليها بالتفصيل في محور النشاط الاقتصادي. وفي أدنى الهرم الاجتماعي، تواجدت طبقة فقيرة كانت تعيش حياة بائسة ضمت في صفوفها العمال والحرفيين والمياومين والتجار الصغار، وهؤلاء كانوا يشكلون الأغلبية والأكثر فقرًا، ونسبة مهمة منهم كانت من اليهود المهاجرين الذين وفدوا إلى لمدينة من الضواحي. أما أوضاعهم المعيشية فقد كانت لا تختلف عن أحوال نظرائهم من الفقراء المسلمين⁸. غير أنه الجدير بالذكر، هنا، أن التراتبية الاجتماعية في مغرب الحماية بشكل عام، ظلت منضبطة لمبدأ غير مكتوب، ولكنه كان مفروضًا بقوة الواقع، ونقصد بذلك أنه مهما بلغ "الأهالي" من المكانة الاجتماعية، كانت الأولوية في تصدر الصدارة في الهرم الاجتماعي للفرنسيين، وفي الوسط تموقع الوسطاء اليهود، وفي الأسفل "الأهالي المسلمين"⁹.

¹D. Cohen, op. cit, p. 33- 49.

²ابراهيم السرفاتي، "اليهود المغاربة وإسرائيل"، مجلة شؤون فلسطينية، العدد 3، بيروت، 1971، ص. 220.

³L. Massignon, op. cit, p 151.

⁴محمد كنييب، يهود المغرب، 1912-1948...، مرجع سابق، ص. 139.

⁵D. Cohen, op. cit, p. 32.

⁶Ibid, p. 34.

⁷Ibid, p. 29.

⁸D. Bensimon-Donath, «Relations entre Juifs et Musulmans...» op. cit, p. 98.

⁹D. Cohen, op. cit, . p.34.

بالجمل يمكن أن نخلص إلى أن كلا من الرابطة اليهودية العالمية وسلطات الحماية، قد لعبتا، بأساليب متميزة، دورا مهما في إحداث مجموعة من التحولات السوسيو-اقتصادية والثقافية في حياة الجماعة اليهودية بمدينة مكناس، لكن، مع ذلك، ظل يهود مكناس بشكل عام، بفضل تجمعهم بالملاحين القديم والجديد والصور المحيط بهما، يعيشون تقريبا شبه معزولين عن العالم الخارجي، كما ظل التأزر حاضرا فيما بينهم، رغم مظاهر العصرية التي حدثت بعد قدوم جالية أوربية مهمة إلى المدينة. ورغم التراجع النسبي للقيم الدينية مقارنة بالمدن المغربية الأخرى كالدار البيضاء، فإن الجانب الطائفي لم يضعف لدى اليهود. صحيح أن التحديث قد ألحق تغييرات مهمة باليهودية التقليدية، لكنه لم يستطع محو الثوابت الكبرى¹، بل في بعض الأحيان قواها، ولعل قرب النخب اليهودية العصرية، المسيرة للجنة الجماعة، من هموم إخوانهم في الدين ككل، دليل على ذلك، بحجة التطور الكبير الذي حدث في مجال السكن بالملاح الجديد الذي لم يعد رديفا للفقير والأوساخ كما كان بنفس الحدة من قبل². كما ساهم التعليم الديني الذي كان قويا بالمدينة في الحفاظ على الحضور القوي للقيم التقليدية³ لدى الأغلبية، ولعل تواجد 30 بيعة بالملاح⁴ أكبر دليل على قوة حضور القيم اليهودية التقليدية⁵ التي استطاعت التعايش مع مظاهر التحديث.

¹ يرى حاييم الزعفراني بأن التغريب لم يمس إلا شريحة محدودة في المجتمع اليهودي المغربي، ويتعلق الأمر ببعض العائلات التي كانت تتمتع دائما بالامتيازات في المدن الكبرى، والتي استطاع أبناؤها أن ينالوا حظا وافرا من التعليم العصري، لما كانت تتوفر عليه من وضع ملائم في المجال الاقتصادي والمهن الحرة. بينما ظل الجمهور العريض في معظمه غريبا عن إغراءات الغرب، وظل وفيما لقيمه التقليدية إلى أن أتت المناسبة ليهاجر إلى "إسرائيل".

-حاييم الزعفراني، ألف سنة من حياة اليهود بالمغرب، مرجع سابق، ص. 283

²J. Tolédano, *Le temps du Mellah...*, op. cit, p. 201.

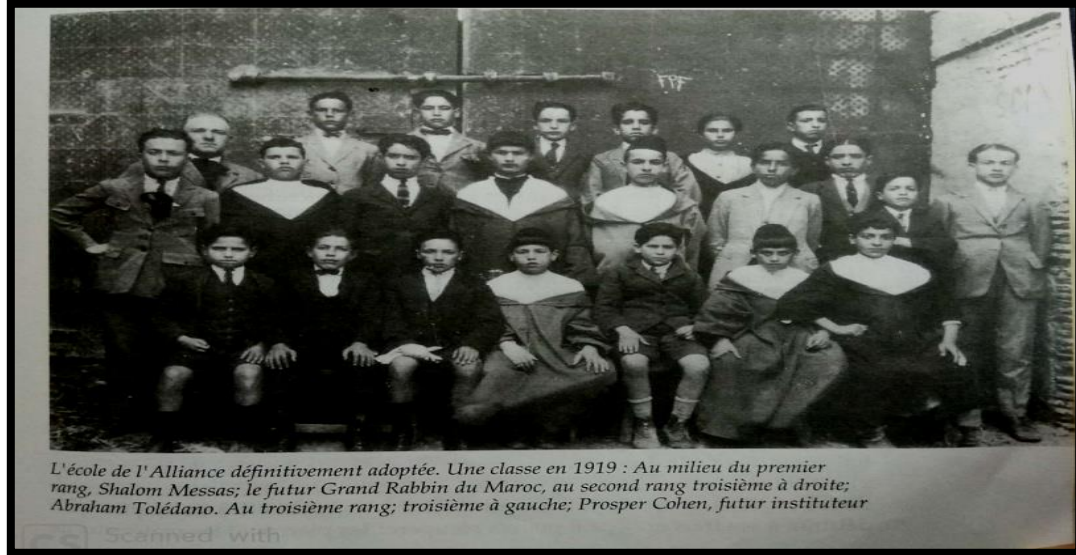
³Ibid, p. 202.

⁴Ibid, p. 208.

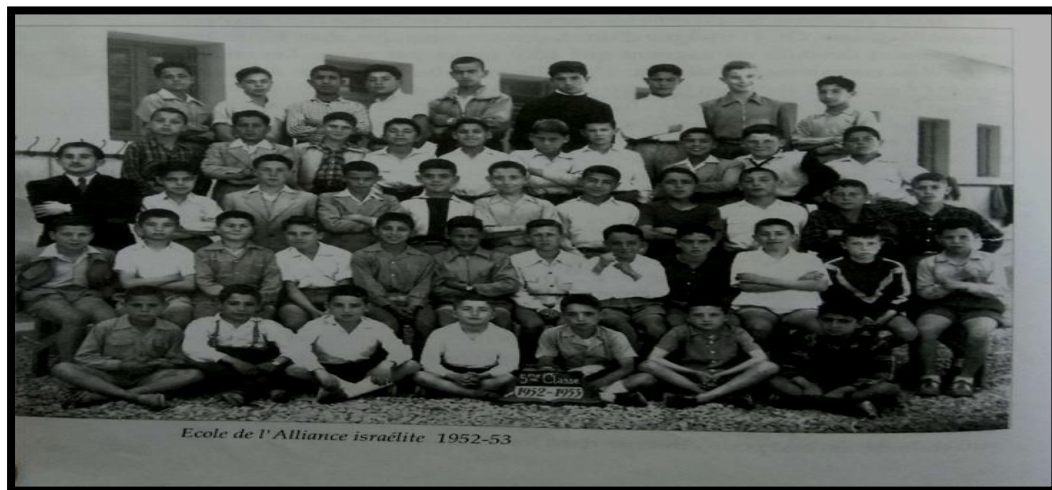
⁵"مدينة مكناس تميزت بتخريج حاخامات من مستوى عال في العلوم الدينية المرتبطة بتفسير التوراة والتلمود، أضف إلى ذلك الهالاخا والقانون العبري، والنحو والشعر... خاصة وأن يهود مكناس تميزوا بالحرص الشديد على تلقين التوراة لأطفالهم منذ سن مبكرة، بدليل أن مؤسسة التلمود توراه كانت تضم عددا كبيرا من الأطفال منذ سن 3 سنوات، وقد كانوا يدرسون لساعات طويلة تمتد من الصباح إلى المساء. ومن الأسر اليهودية المكناسية التي اشتهرت بإنتاج حاخامات من مستوى راق نجد عائلات: بديغو وطوليدانو ومساس... ولم يكونوا منغلقيين على اهتماماتهم الخاصة، بل كرسوا جهودهم أيضا لكل ما يخص جماعتهم اليهودية، سواء في فترات الشدة أو الرخاء. كما تميز تدريسيهم للأطفال بالذكاء، حيث لقنهم الحس النقدي والتحليل والاستنتاج بعيدا عن الدوغمانية والأسطرة. مما أهلهم فيما بعد للنجاح في حياتهم الدراسية بالجامعات أو في مجالات العمل، خصوصا وأن التعلم الديني بمؤسسة التلمود توراه العصرية بمكناس استطاع بفضل ذكاء هؤلاء التأقلم مع رياح العصرية التي هبت بعد الثورة الفرنسية التي انتصرت للتعليم العلماني، ونقص ذلك مدارس الرابطة اليهودية. بناء عليه يمكن القول أن مؤسسة التلمود توراه بمكناس قد استطاعت إنقاذ يهودية المدينة، التي تميزت بأصالتها النابعة من عمق الثقافة التقليدية بها، والتي شكلت حالة استثنائية قياسا مع جميع المدن السفردية بحوض الأبييض المتوسط. وذلك ما جعل يهود مكناس حالة خاصة مقارنة بيهود المغرب، الذين لطالما اعتبروا أنفسهم جماعة دينية جد منسجمة ودائما ظل يحكمهم الحس الجماعي في اتخاذ القرارات المصيرية، وذلك ما تأكد بعد مجيء الحماية الفرنسية، حيث فكروا جميعا في الكيفية التي سيواجهون بها صدمة الحداثة، وأحد مظاهر ذلك هو قرارهم ببناء ملاح جديد".

R. Assaraf, *Eléments...*, op. cit, p. 10-11-13.17

صورتان (24 و 25): تعكسان التحول الذي طرأ على أبناء يهود مكناس ما بين 1919 و 1953:
اللباس نموذجاً



Source : J. Tolédano, *Portrait...* op. cit. p. 227.



Source : J. Tolédano, *Portrait...* op. cit. p. 324.

الفصل الثاني: تصدع العلاقة بين يهود ومسلمي المدينة

1. التطورات والأحداث التي خدمت الدعاية الصهيونية بالمدينة

رغم ضعف تجدر الصهيونية السياسية في صفوف المغاربة اليهود خصوصا خلال الفترة التي سبقت قوانين فيشي، فإن ذلك لم يُلْجأ دون استفادتها لاحقا بشكل مباشر أو غير مباشر، من الأثر الذي تراكم في ذاكرة اليهود جراء جملة من الأحداث والتطورات المحلية والوطنية والدولية، التي حدثت على مراحل طويلة فترة الحماية، واختمرت في وجدانهم، لاسيما الأحداث الأليمة منها في ظل رهافة الإحساس التي تميز الأقليات تجاه الشعور بالخطر والاضطهاد ووهمه أحيانا، وهو ما أدى إلى إرباك أطروحة الاندماجين لاحقا، مما جعلهم مهينين للاستجابة، للدعاية الصهيونية، على مراحل، في أفق الهجرة إلى فلسطين لاحقا، بعدما لم يعد الأمر مجرد القيام بمناسك الحج، بل بالمساهمة الفعلية في إنجاح مشروع تأسيس الدولة العبرية بالأراضي الفلسطينية. ولعل أول المنعطفات التي ستبصم ذاكرة اليهود هي الأحداث الدامية التي طرأت بفاس سنة 1912¹، (ترتيل فاس)، والتي أدت إلى إلحاق الكثير من الأضرار المادية والبشرية بيهود فاس². وفيما يلي شهادة عن تلك الأحداث الأليمة للحاخام يوسف مساس، يصف فيها من وجهة نظره ما حدث، وكيف أدى ذلك إلى انتشار القلق والخوف في صفوف يهود مكناس:

"بتاريخ 1 ماي، حدث تمرد بالمدينة وتوصلنا بمعطيات تشير إلى أن السكان العرب بمدينة فاس قاموا رفقة جنود السلطان مولاي عبد الحفيظ بأعمال شنيعة تمثلت في السرقة والقتل ونشر الرعب في صفوف ساكنة الملاح، كما اغتصبوا النساء المتزوجات والعازبات ضاربن القانون بعرض الحائط. ولم يبق أحد بنجدهم، فانفطر قلبنا عندما تنهى إلى مسامعنا ما حدث، لأننا لم نكن نعلم إن كانت الأخبار صحيحة أم لا، وبناء عليه قام عدد من رفاقنا بزيارة تفقدية لمدينة فاس حاملين معهم مؤنا كثيرة. وفي اليوم الموالي - الجمعة - عادوا وبرفقتهم عدد من المتضررين من النساء والأطفال، أغلبهم كانوا عراة وجرحى وبدون أحذية، ويعانون من الجوع والعطش. وما زاد من تعميق معاناتهم أن المطر لم يتوقف طيلة رحلتهم حيث وصلوا مبللين ويعانون من البرد. حتى القلوب القاسية انفطرت تأثرا بهذا المشهد، مما دفع جميع الأعيان إلى الإسراع إلى القيام بمواساتهم. كما تطوع كل واحد بإيواء عدد كبير منهم بيته. وقد حل بيت زوج أُمي حوالي 20 شخصا، تم إطعامهم وإيواءهم لمدة شهرين. وبتاريخ 5 ماي قامت الجماعة بجمع مبلغ كبير من المال، إضافة إلى الألبسة والأغطية والطعام بوفرة، وإرسال ذلك إلى إخواننا المنكوبين. فضلا عن ذلك ساهمت جميع الجماعات القريبة

¹"Dès la signature du Traité du protectorat, le Mellah de Fès fait l'objet d'une perquisition sous le contrôle de soldat Français-venus confisquer armes et munitions, sous prétexte que les Juifs en faisaient la contrebande au profit de certaines tribus non rallies à la France." R. Devico, op. cit, p. 371.

²B. Lugan, op. cit, p. 244.

منها والبعيدة بما في ذلك الفرنسية والبريطانية في بعث المساعدات. فليبارككم الله ولينجنا من مثل هذه الأحداث الحزينة.¹

وفي الوقت الذي كان فيه يهود المغرب - خصوصا النخب المتطورة التي تدرست بمدارس الرابطة - ينتظرون أن يصبحوا مواطنين فرنسيين مباشرة بعد توقيع معاهدة الحماية، عبر الحصول على الجنسية الفرنسية بشكل فوري ، على غرار ما حدث مع يهود الجزائر بفضل قانون كريميو سنة 1870، سيصدون برفض سلطات الإقامة العامة لمطلب التجنيس الجماعي انسجاما مع الفلسفة السياسية الأهلية لمهندسها المقيم العام ليوطي²، الذي برر موقفه بكون الحالة الجزائرية تختلف تماما عن الحالة المغربية، بمقتضى ما جاء في معاهدة الحماية، وبمقتضى مقررات مؤتمر مدريد، التي تستوجب في نظره عدم المس بالوضع القانوني لليهود باعتبارهم رعايا السلطان³. إدراجهم في خانة الأهالي مثل انتكاسة قانونية بالنسبة لهم قلصت من قيمة المكاسب المادية التي جلبها الحضور الفرنسي. أكثر من ذلك قامت سلطات الحماية الفرنسية باتخاذ سلسلة من القرارات التي كان الهدف منها إلغاء الامتيازات المترتبة عن نظام الحماية، بشكل أدى إلى تجريد النخب اليهودية من القواعد التي مكنتها، لأكثر من نصف قرن، من تفادي المراقبة والمتابعة المخزية⁴. وفي إطار غلق الباب أمام إصرار اليهود على المطالبة بالتجنيس^{*}، ستسن إدارة الحماية بتاريخ 20 أبريل من سنة 1920 قانون الجنسية المغربية، الذي أقر بأن اليهود المغاربة بنفس قدر المسلمين، مواطنون مغاربة تحدد وضعهم القانوني البيعة الدائمة للعرش العلوي^{*}. لقد جعل هذا القانون اليهود من الناحية الفعلية ممنوعين من الحصول على جنسية مغاربة من "دون ترخيص وتصريح من السلطان نفسه"⁵، ومن جهة أخرى لم تذهب

¹R. Assaraf, *Eléments ...*, op. cit, p. 174-175.

²كان أول اهتمام للسلطات الفرنسية، بعد توقيع معاهدة فاس في 30 مارس 1912، هو إعداد ما كانت تعتبره سياسة أهلية لضمان الحضور الفرنسي على التراب المغربي، وتعزيزه بشتى السبل قصد استمرارية الوجود الفرنسي. وكانت السياسة الأهلية من إبداع الجنرال ليوطي الذي وجد في التجارب الكولونيالية الإنجليزية والهولندية مثالا لسياسة طالما فكر فيها أثناء حملاته في الهند الصينية وإفريقيا، وتنبني على احترام العادات والأعراف التقليدية للبلد المستعمر وتثمينها. وقد وسم المقيم العام ليوطي السياسة الأهلية بنقطتين طبعنا أسس استراتيجيته، الأولى تتعلق بالتفكير في عمل منسق (سلمي وعسكري) متدرج يركز على استخدام العناصر المحلية بشكل تناوبي، والثانية تهدف إلى بناء تحالف مع المخزن المغربي، مع خلق آليات لتسيير غير مباشر للبلاد، مهمتها الحفاظ على طابع البلاد العتيق، بمؤسساته وتراثيته الاجتماعية". بيبير بارون، *تطويع الأهالي زمن الاستعمار الفرنسي، مغرب (1912-1939)...*، مرجع سابق، ص. 23.

³M. Kenbib, *Juifs et Musulmans au Maroc*, op. cit, p. 129-130.

⁴محمد حاتمي، *الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية وهران المغرب المستقل...*، مرجع سابق، ص. 171.
^{*}"طرح اليهود أسانيد متنوعة شكلت مجتمعة منظومة فلسفية رمت إلى تحقيق التجرد قانونيا من روابط التبعية تجاه سلطة السلطان المطلقة. ويأتي على رأس الأدلة عدم انتماء اليهودي عمليا للدولة المغربية لأنه "بكل بساطة" خارجها على اعتبار أن جوهر الاختلاف بين الرعايا اليهود والرعايا المسلمين يكمن في انتماء هؤلاء للأمة الإسلامية بدليل اشتراط الانتماء الإسلامي لتحصيل الانتماء الوطني، والتمتع بفوائده والحصول على الجنسية المغربية. وفي المقابل، يوجد الرعايا اليهود أصلا خارج الأمة لأنهم يدينون بدين غير الإسلام لا سيما وأن المسلمين يبنون الملة اليهودية ويحتقرونها. فاليهودي وفق هذا الطرح "إنسان من دون حقوق ولا واجبات"... و "خارج الدولة الوطنية". وذهب بعض المتشددون إلى القول بأن اليهودي لا يعتبر من الناحية القانونية حتى من رعايا السلطان"، لأنه "يعيش في إطار سياسة التسامح المطبقة، وهي لازمة للدولة الإسلامية"، تجعل منه من الناحية الفعلية إنسانا مرتبطا بالدولة المغربية بروابط أخلاقية فقط (وليست قانونية)". محمد حاتمي، *الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية وهران المغرب المستقل...*، مرجع سابق، ص. 172.

^{*}"هناك بعض المغاربة اليهود الذين عارضوا طلب الحصول على الجنسية الفرنسية بدعوى أن تجنيس النخبة المتعلمة سيجرم اليهودي المغربي من أطرها التي كانت قد تغربت بسبب العصرية السريعة. أضف إلى ذلك كانوا يخشون من أن تؤدي مطالبتهم بالجنسية إلى الظهور بمثابة خونة وغير أوفياء في نظر المسلمين".

D. Bensimon- Donath, «*Relation entre Juifs et Musulmans...*» op. cit. p. 100.

⁵محمد حاتمي، *الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية وهران المغرب المستقل...*، مرجع سابق، ص. 171.

سلطات الحماية في اتجاه إحداث تحولات ثورية في الوضع القانوني للمغاربة اليهود، رغم التعديلات التي تمت سني 1918 و 1945، حيث كانت حريصة على أن يظلوا دائما في خانة الأهالي التابعين للمخزن، لنفس الاعتبار المرتبطة بالسياسة الأهلية التي لم تكن مقاصدها تسمح بمنح امتيازات قانونية لليهود بشكل يمكن أن يؤدي إلى استفزاز المسلمين.

الإحباط الذي أصاب اليهود، خصوصا المتنورين منهم، في العلاقة مع موضوع التجنيس والوضع القانوني، ساهم بالتفاعل مع العوامل السابقة الأخرى في تهيئ الشروط للنشطاء الصهيونية لإنجاح عملية استقطاب المستائين للحل الصهيوني، خصوصا خريجي الأليانس الذين صاروا يفقدون ثقتهم في الحل الاندماجي بشكل أدى بهم إلى تبني مواقف أكثر اعتدالا اتجاه الصهيونية السياسية.

وفي سياق التطورات التي حدثت بعد رحيل المقيم العام ليوطي وقدم تيدور ستينغ، ستستفيد الدعاية الصهيونية من بعض الانفراج¹، بشكل سيسمح سنة 1926 بظهور صحافة يهودية ناطقة بالفرنسية داعمة لتلك الدعاية تحت إشراف جوناتان تورز Jonathan Thursz* عبر جريدة المستقبل المصور، خصوصا وأن العلاقة بين الروابط الصهيونية في المغرب مع الحركة الصهيونية العالمية قد اتسمت في البداية بسوء التواصل، حيث كان عامل اللغة من الأسباب التي حالت دون تحقيق قدر كاف من التواصل بين الطرفين، ذلك أن الحركة الصهيونية كانت قد اعتادت أن ترسل المواد الإعلامية إما باليديش* أو بالألمانية، بينما كان يهود المغرب لا يتحدثون إلا الفرنسية والعربية والعبرية². والجدير بالذكر، هنا، أن السياق الذي ظهر خلاله جوناتان تورز قد ارتبط بقرار المنظمة الصهيونية العالمية التي كانت قد عازمت على الاهتمام بوضع اليهود بشمال إفريقيا استجابة لطلبات الفروع المغربية³، لذلك قررت أن تبث بهذا الأخير إلى المغرب سنة 1923، ليعيد تنظيم الحركة الصهيونية المحلية من قبيل الإشراف على فرع منظمة

¹P. Cohen, op. cit, p. 180.

*"جوناتان تورز يهودي من أصل بولوني ولد بفارصوفيا سنة 1895، وبعد مقام قصير ببلجيكا حيث تعلم اللغة الفرنسية، انتقل إلى بريطانيا وحصل على جنسيتها وهناك أبان عن كفاءات عالية في العمل الصهيوني. وانطلاقا من سنة 1921، حين قررت المنظمة الصهيونية العالمية الاهتمام بالوضع في شمال إفريقيا استجابة لطلبات الفروع المغربية، بعثت به للعمل في المغرب سنة 1932 لأن الخلايا الصهيونية المحلية كانت لها أفكار مشوشة حول الصهيونية السياسية لتيدور هرتزل. وبعد مقام قصير بمدينة طنجة، رحل إلى الصويرة حيث برهن عن قدرات تنظيمية متميزة لفتت انتباه السلطات الأمنية بالمدينة، حيث تولى خلق مجموعة من الفروع التابعة لمنظمة. وفي تلك الفترة شارك في المؤتمر الصهيوني الرابع عشر المنظم في فيينا كممثل للمغرب وتونس. وبعد عودته، رحل إلى الدار البيضاء فأصبح يشغل منصب الكاتب العام للجنة التنفيذية للفدرالية الصهيونية المغربية- فرع المغرب، وهو منصب ظل يشغله حتى شهر غشت من سنة 1941 حين اضطر للرحيل إلى الولايات المتحدة الأمريكية رفقة عائلته وظل هناك إلا أن توفي سنة 1976 بمدينة نيويورك".

P. Cohen, op. cit, p. 181-194.

*لغة المخاطبة عند اليهود الأشكيناز في شرق أوروبا ابتداء من القرن 10 أو مطلع القرن 1م، وقد تشكلت من روافد مختلفة: عبري، آرامي، وروماني قديم وألماني هو الأساس في اليديش، وعلى مر الأجيال استوعبت هذه اللغة أسسا من لغات أخرى مثل: الإنجليزية والإسبانية، وتكتب بحروف عبرية.

²أحمد الشحات هيكال، يهود المغرب، تاريخهم وعلاقتهم بالحركة الصهيونية، مركز الدراسات الشرقية- القاهرة، ص. 70.

³P. Cohen, op. cit. p.182.

Keren Hayessodn¹. حيث استقر بمدينة الدار البيضاء ابتداء من سنة 1924، وظل على اتصال بلندن وجنيف والفدرالية الصهيونية بفرنسا، وتولى في نفس الوقت إحداث عدة فروع تابعة لمنظمة Kern Kayemeth Lesraël² بأهم المدن الكبرى بمنطقة الحماية الفرنسية من أجل جمع التبرعات في عين المكان، غير أنه سرعان ما سيتخلى عن هذه المهمة، ليتفرغ كلياً للإشراف على جريدة المستقبل المصور سنة 1926³.

وفي إطار إبداء نوع من الاحتفاء بالمقيم العام الجديد سيقوم جوناثان تورز بتاريخ 15 ماي من نفس السنة بنشر تهنئة بعث بها إلى تيودور ستيغ، تعبيراً منه عن تقديره للتسامح النسبي* الذي أبداه تجاه نشاط الحركة الصهيونية، وهو ما تبدى في الرسالة التي بعث بها هذا الأخير إلى اللجنة التنفيذية للفدرالية الصهيونية فرع المغرب بتاريخ 7 يونيو سنة 1962، إذ عبر المقيم العام قائلاً: "أنا متيقن أن أعضاء الحركة الصهيونية بالمغرب سيعرفون، وهم يتابعون من أجل تحقيق حلمهم الأعلى، كيف يتعاونون من أجل ازدهار وعظمة هذا البلد."⁴ وفي إطار رد الجميل ستقوم جريدة المستقبل المصور سنة 1928 بإصدار عدد خاص في 10 شتنبر من السنة ذاتها يتضمن صدر غلافه صورة للمقيم العام، عرفانا وتكريماً له، على اعتبار الانفراج الذي تحقق لليهودية المغربية في عهده⁵. وفي إطار تأكيد توجهها الصهيوني قامت هذه الصحيفة بعرض صورة كبيرة لتيودور هرتزل بواجهة أحد أعدادها الصادرة سنة 1931⁶.

¹"منظمة ثم إحداثها سنة 1920 من قبل المنظمة الصهيونية العالمية، وفي سنة 1929 استقلت عن هذه الأخيرة، وأصبحت تحت إشراف الوكالة اليهودية من أجل فلسطين، وهي المؤسسة التي تكلفت بالتنظيم المادي للوطن القومي لليهود. مداخل Keren Hayessodn خصصت لاستقبال اليهود المهاجرين إلى فلسطين وتوطينهم وضمان تأقلمهم مع الحياة الاقتصادية بفلسطين، كما كان يخصص جزء من تلك المداخل لتغطية مصاريف الوكالة اليهودية، وتمويل نشاطها السياسي ودعايتها في الداخل والخارج".

E. Goidan, op. cit, p. 13.

²منظمة Fonds national juif/ K.K.L تم تأسيسها من طرف المنظمة الصهيونية العالمية بهدف جمع الأموال لشراء الأراضي بفلسطين.

E. Goidan, op. cit. p.14.

³Ibid, p. 14-15.

⁴"لم يتوان تيودور ستيغ عن تذكير جوناثان تورز، في الرسالة التي وجهها إليها جواباً على تهنئته، بأنه سيظل ملتزماً بسياسة إدارة الحماية اتجاه النشاط الصهيوني بالمغرب قائلاً: " بإمكانك أن تطمئن فيما يتعلق بالصهاينة الذين تمثلهم بلندن، سأظل ملتزماً بثبات بالمبادئ الموجهة للسياسة المتبعة من قبل الجمهورية الفرنسية بعصبة الأمم".

P. Cohen, op. cit, p. 180.

⁴Ibid, p. 180.

⁵Ibid, p. 180.

⁶AI, 6 année, N°149, 16 Avril 1931.

صورة رقم 26: صورة لتيودور هرتزل بواجهة جريدة المستقبل المصور



Source : ANR

وتجلى الخط التحريري المتصهين لهذه الجريدة في طباعة المواضيع المتنوعة التي كانت تثيرها على صفحاتها في العديد من المقالات التي كان الهدف من ورائها ضمان ارتباط المغاربة اليهود عاطفيا بالمشروع الصهيوني ومحبة فلسطين، من خلال الحديث عن كل ما يتعلق بـ"أرض الميعاد"، وعرض ما تحقق بها من إنجازات بفلسطين، بتقديم عدة محاضرات حولها، وعرض مضامين عدة أفلام وثائقية بخصوصها¹. أضف إلى ذلك تسليط الضوء على ما كان يعاني منه يهود الشتات، وما كانوا يتعرضون له من مضايقات بأوروبا، من قبيل معاداة السامية، فضلا عن الدعوة إلى تعلم اللغة العبرية والاطلاع على التاريخ اليهودي لمحاربة خطر الاندماج، مع الحرص على تجاهل البعد الاستيطاني في المشروع الصهيوني. في هذا الإطار تناولت "l'Avenir Illustré" في أحد أعدادها ما سمته بالحل الوحيد، وتعني

¹P. Cohen, op. cit, p. 189.

بذلك أن الحل الصهيوني هو أفضل مخرج لليهود في ظل الصدمة التي أحدثتها الأنظمة الفاشية بأوروبا (ألمانيا وإيطاليا)، وفيما يلي جزء مما جاء في المقال: "إن الاضطهاد الألماني الذي يعتمد على عقيدة التعصب العنصري جاء لتأكيد بصيرة مؤسسي الصهيونية. وعندما نرى بلدا عظيما كألمانيا ينفي اليهود تشريفا لأساطير وثنية، ونرى إيطاليا تبعد مواطنين امتازوا بولائهم لها بدون أي سبب أو ضرورة، بل فقط من باب تأكيد التعصب الألماني، لنا الحق في فقدان ثقتنا في ليبرالية عانت من مثل هذا الكسوف"¹، وبناء عليه، رأى صاحب المقال أن الصهيونية هي الحل الجذري الوحيد للمشكلة اليهودية للهروب من تطرف "الإمبراطوريات الشمولية" بأوروبا، وذلك عبر هجرة اليهود المضطهدين إلى فلسطين"، حتى يتم وضع حد لذلك الشعب المستبعد والسهل الانقياد"، ومن ثم فإن أي حل آخر غير إيجاد مكان لجميع اليهود المضطهدين سيكون حلاً غير مضمون النتائج². وفي مقال آخر معنون بأرض الميعاد، تم عرض مضامين شريط وثائقي يصف ويشيد بالإنجازات التي تمكن اليهود من تحقيقها بفلسطين تحت سلطة الانتداب البريطاني، ومما جاء فيه:

"[...] الأمر بالنسبة لنا أكبر من مجرد شريط وثائقي، إنه إحياء للأمل في مستقبل أحسن لكل واحد محتاج لوطن قومي[...]. الإنجاز اليهودي بفلسطين زاد من إعجابنا عندما رأينا الجزء الأول من الفيلم، وكيف كانت فلسطين القديمة قبل 30 سنة، كانت فقيرة وبئسة لا يسكنها سوى العجزة اليمينيون النصف عرب، فضلا عن عجزة من الجائآت التي لدينا ذكريات سيئة عنها. [...] الأشغال لا تتوقف، إنه ورش كبير للبناء. وبتل أبيب، يمكن المرور وسط الشوارع الواسعة والمستقيمة والمعبدة، وعلى الجنبات تتواجد الفيلات البيضاء العصرية، كما يمكن مشاهدة سيارات من آخر موديل، بالإضافة إلى الشاحنات والجرارات وكذلك الجمال، فضلا عن شواطئها الساحرة. شرب الشاي في الساعة الخامسة على عتبتها(تل أبيب) لا يختلف عن أي مدينة في أي بلد غربي، لكن الفيلم لم يعر اهتماما كبيرا لها سوى لبضع دقائق، وحتى هذه الدقائق أخرجت كثيرا من الصهانية القدامى الذين يعتبرون أن أماكن الرقص غير مهمة بفلسطين إلا بالنسبة للذين هاجروا إليها[...]. الشباب ذكورا وإناثا يحطمون بالمعول والمطرقة الأحجار التي ستصلح لاحقا لبناء الطريق الجديدة، رجال يستخرجون من باطن الأرض الماء النادر والمبارك، فتيات شابات يعملن في بناء العمارات، والنساء يعملن في الزراعة ببساتين البرتقال، وكل ذلك يتم تحت الشمس الحارقة[...]. نم أيها الوادي الجميل لإسرائيل، نم في سلام، سوف نعتني بك."³

¹«L'unique Solution», in AI, N° 278, 15 Décembre 1938, p. 2

²Ibid, p. 2.

³«Terre Promise», in AI, N° 271, 30 Avril, 1938, p. 13.

صورة رقم 27: نموذج مقال يشيد بالمنجزات اليهودية التي تحققت بفلسطين

L'AVENIR ILLUSTRE 13

« TERRE PROMISE »

Nous publions ci-dessous une appréciation, parue dans « La Tribune Juive » de Bruxelles, du grand film palestiniens : Terre Promise.

Il nous est particulièrement difficile de juger ou de critiquer la « Terre Promise » en tant que documentaire graphique, en tant que réalisation cinématographique, tant au second plan. Nous voyons, pendant une heure, en réalité, ce mouvement, en « onirisme », ce à quoi des centaines de milliers d'hommes juifs consacrent le plus clair de leur temps et leur plus bel idéalisme. Nous voyons la réalité palestinienne, cette œuvre que nous avons créée de rien, que nous avons vue pousser, et qui, pour nous-mêmes, de loin, et malgré les joies, la littérature, les chansons, la langue commune, le « chimisme » commun, reste inimaginable. Pour nous ce ne peut être un documentaire : c'est l'empire rêvé d'un avenir meilleur pour tous ceux qui ont besoin d'un foyer national.

L'œuvre juive en Palestine nous impressionne que d'avant-lui, nous avons vu la première partie du film. La Palestine ancienne, telle qu'elle fut il n'y a pas trente ans... pays, misérable, n'habitant presque que des vagues et des yéménites à demi-arabes, des vieux d'une galatée dont nous avons mauvaise souvenir. Nous retrouvons le Juif qui, n'ayant donné à la gentilité que sa palente folle en la venue du Messie, ne pouvait apporter en Palestine que la même rédemption : s'il n'y a pas vécu — du moins il y mourra et y sera enterré.

Aujourd'hui, la Palestine nouvelle, pleine de contrastes, de contradictions, de combats et de rêves. Rien d'achevé, rien de définitif, un grand chantier de construction. 32 d'abord Tel-Aviv, pour traverser les larges avenues rectilignes, asphaltées, bordées de villas blanches ultra-modernes — des voitures dernier modèle, des camions, des tracteurs, mais aussi des chameaux. Et se place que l'on a soin de nous montrer sous tous ses aspects : sportif, mondain, pittoresque. Le film s'écoule dansant sur le promontoire, tel-avéilien ne diffère en rien des films d'occident. Et c'est pourquoi le film ne s'y arrête que quelques secondes. Et même ces quelques secondes ont le don d'indisposer maints dévots de vieille date, qui croient que le film juif n'est nécessaire en Palestine qu'à ceux qui ont été dérangés en Palestine, sans plus à pour que la vie en Palestine ne signifie pas une métamorphose psychologique et intellectuelle. C'est qu'il met en danger la situation idéaliste d'antan, cet idéalisme qui a permis au pays avec un minimum de 2.000 et qui a déposé la majeure partie de son immense fortune, seize millions de livres, dit-on, dans les banques, mais à des conditions telles que cet argent ne peut fructifier et ne rend service à personne. Et c'est cet idéalisme-là qui crée l'absence de celle qui vit à la campagne.

La situation de son œuvre. Mais le film n'est et c'est là la sauvegarde de son œuvre. Mais le film nous montre des villages magnifiques, conçus d'une façon rationnelle et des maisons propres, équipées de la façon la plus hygiénique ; des industries qui fonctionnent à toute vapeur ; toutes choses entreprises les deux dernières années d'entreprise par ces capitaux. Et la confiance vous pousse lorsque l'on voit l'essor magnifique des villages palestiniens et croissante en nous-mêmes et en la contagieuse atmosphère haloustique. L'on se rend compte que cette époque est une époque de panique et d'évolution ; que ces « capitalistes » ne sont ni des enfants qui parlent écumamment l'hébreu après 4 semaines scolaires, ni des haloustim qui sont venus jeunes, souples, et avec un lourd bagage de culture juive.

L'autre partie de la « Terre Promise », c'est l'hymne au travail et à la culture nouvelle, et c'est un chapitre écrit avec amour. Le travail même n'est pas idéalisé, nous le voyons sous sa forme la plus dure et la jeunesse masculine et féminine courant à la pioche et au marteau, les pierres qui serviront à la construction d'une route nouvelle ; d'un homme entrainant dans le travail du sol l'eau rare et bénie ; des jeunes filles dans le travail du lin ; les femmes au potager, à l'arrosage, à l'étable, à la basse-cour. Tout cela sans mise en scène et le travail sous les rayons ardents, l'effort de l'apprentissage, l'effort de l'adaptation.

Mais aussi le goig d'appel et le retour en groupe vers la salle à manger commune. Et là, une des scènes les plus émouvantes qui se peuvent voir : la création d'un chœur. L'un des camarades se met au piano et joue sa nouvelle chanson, oh, très simple !

« Dors, belle unité de Jardin, dors en paix, nous veillerons sur toi ».

Les cuillères s'immobilisent, les yeux s'ouvrent à la cadence et déjà toute cette jeunesse enthousiaste chante. Déjà la mélodie accompagne tous les travaux de la journée et elle est portée, nul ne sait comment, aux quatre coins de la Palestine.

Et nous voyons encore l'Université, et l'école technique de Haifa. Nous voyons une belle jeunesse montante partir au pas vers la ville. Nous assistons à la « Fête des Primaire » et au concert en plein air où des chœurs chantent, avec accompagnement d'orchestre la « Création » de Haydn.

La Palestine dans son stade de développement présente est étonnante ; peut-être plus émouvante qu'elle ne le sera dans dix ans. Car à présent ce sont toujours des pionniers, ces jeunes qui ont entrepris en commun un travail gigantesque. Encore aujourd'hui, malgré leurs maisons qui ne sont plus des tentes ni des baraquas, ils parlent, en commun, le terrible souf du fondamental, de la récolte, du budget. Ce n'est toujours pas la certitude, le calme travail d'un abnisme arrivé.

Mais la Palestine est devenue la solution dans la vie de ceux qui s'y attendent le moins et, dans son dernier livre Hugo Herrmann prend un malin plaisir à leur rappeler leur mot d'apprit passé et cynique : « la solution ». C'est lorsque un Juif, au moyen de l'argent d'un second Juif, achète un troisième Juif en Palestine ».

M. X.

LE CHIC DE MONSIEUR

Snob

CHEMISIER

27, Rue Chénier — CASABLANCA

Téléphone A. 61-69

Chaussures **Grands Magasins** **Chemiserie**

pour Dames, Hommes **« CORONA »** **Bonneterie**

et Enfants **52, Rue Blaise Pascal** **Articles**

Les dernières créations **CASABLANCA** **de tout premier choix**

canned with

Source : ANR

يتضح من هذا الكلام أن الخط التحريري لجريدة المستقبل المصور قد سعى، باستمرار، إلى الإشادة بالتجربة "الفريدة" التي تحققت على أرض فلسطين، باعتبارها دليلاً على نجاحة العمل اليهودي حين تتاح له الظروف المواتية¹. وما يجب التذكير به أن جريدة المستقبل المصور كانت حريصة على تفادي دعوة المغاربة اليهود إلى الهجرة إلى فلسطين، لأن كل ما كانت تسعى إليه الدعاية الصهيونية قبل الحرب العالمية الثانية هو ضمان التعاطف مع المشروع الصهيوني بفلسطين عن طريق جمع التبرعات²، وبناء عليه "حرصت جريدة المستقبل المصور، باستمرار، على التذكير

¹ محمد حاتمي، **الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية وهران المغرب المستقل...**، مرجع سابق، ص. 198.

² "في هذا الصدد كان جوناثان تورز مدرك لكون أن أي دعاية صهيونية قوية قد تكون مبرراً لسلطات الحماية لمنع صحيفته من الصدور كما حدث قبل ذلك بالنسبة لجريدة Or Hamaarab، لذلك كان حريصاً على اعتماد خط تحريري حذر وبراعماتي، لذلك أكدت المستقبل المصور منذ ظهورها سنة 1926 على موقفها من الهجرة، وقد عبر عن ذلك المبعوث الصهيوني إلى المغرب المحامي الفرنسي فرناند كوركوس ذي الأصل المغربي محذراً في أحد أعداد جريدة المستقبل المصور سنة 1926، بضرورة تفادي قول أية كلمة يمكن أن تأخذ معنى آخر يوحي بالفرقة بين اليهود والعرب أو بين العلاقات المغربية- الفرنسية، لأن الصهيونية كانت تقدم بكونها ليست دعوة لليهود للهجرة إلى فلسطين، بل بكونها عقيدة من أجل التقدم الإنساني الكبير تهدف إلى بيت طائفي وعرقي إضافي".

بأن واجب اليهود تجاه الصهيونية لا يتناقض والولاء لفرنسا ولا مع متطلبات الاندماج في المجتمع المغربي، ولا يكمن بالضرورة في تحقيق العالياه، وإنما في توفير السند المالي* والمعنوي لإنجاح التجربة الصهيونية في فلسطين. على أساس أن تظل العلاقة مع أرض الميعاد عاطفية وليست مشروعا للرحيل والاستقرار والاستثمار. إن الصهيونية وفق هذا الطرح المغربي هي دون شك حل لليهود فلسطين، وليست بالضرورة حلا للقضايا السياسية والاجتماعية التي يتخبط فيها يهود المغرب، والتي تستوجب عملا محليا: "أرض صهيون بالنسبة لليهود المغرب هي أرض المغرب نفسها."¹ ويعود عدم اهتمام المنظمة الصهيونية العالمية بالوضع بالشمال الإفريقي ليس فقط إلى الجهل بواقع اليهود به، وإنما لأنها أصلا لم تكن ترغب إلى حدود الحرب العالمية الثانية في هجرة يهود أرض الإسلام لصعوبة تأقلمهم مع الوضع في الشوف لأنهم في نظرها يشكلون عبئا وعرقلة لتحقيق حلم هرتزل.²

وجبت الإشارة إلى أن جريدة المستقبل المصور لم تكن المعبر الأيديولوجي الوحيد عن توجهات نخبة المغاربة اليهود، لأن نسبة مهمة منهم لم تكن تشاطر القناعات المعبر عنها من طرف هذه الأخيرة، بحيث كان الاندماجيون يرون بأن تحسن وتطور أحوال المغاربة اليهود لا يمكن أن يتم إلا في إطار الثقافة الغربية الفرنسية في أفق الاندماج والنجاح داخل المجتمع المغربي، وفي هذا الإطار ستقوم نخبة من يهود الدار البيضاء سنة 1932 بتأسيس جريدة الاتحاد المغربي³ L'Union Marocaine تحت إشراف إيلي ناتاف.⁴

وقد سطرت هذه الجريدة أهدافها في افتتاحية أول عدد صدر بتاريخ 4 فبراير سنة 1932، حيث أكدت أنها ستعمل على الاهتمام بالقضايا الاجتماعية والسياسية بغرض الرفع من شأن المغاربة اليهود وتحسين أوضاعهم في ظل الرعاية الفرنسية.⁵ وقد أكدت على أن دعوتها للاندماج لا تعني التفريط في التراث الأخلاقي للأجداد، أو التنازل عنه، بل تعني تكيفا محترما مع الماضي، مع مراعاة المستقبل.⁶

*"جاء في أحد مقالات صحيفة المستقبل المصور يوم 1927/3/23: "إننا لا نرغب في الحصول على الذهب الأمريكي فحسب، بل أيضا على الذهب المغربي"، وكان الأمر، على هذا النحو، يوحي أنه من المطلوب قيام يهود المغرب بالهجرة إلى فلسطين للاستيطان بها، وأن كل ما عليهم هو تقديم المساعدات المالية للمشروع الاستيطاني. [...] وقد أدى هذا التجاهل من جانب الحركة الصهيونية العالمية -خاصة بعد وعد بلفور- إلى شعور يهود المغرب باليأس والإحباط، مما دفع بالعديد منهم إلى الإحجام عن ممارسة نشاط صهيوني فعال، كما تضاعف عدد الراغبين في الهجرة، وأصبح الراسخ في الأذهان أن الحركة الصهيونية ما هي إلا هيئة خيرية تهدف فقط إلى جمع التبرعات، وظل هذا الانطباع سائدا لفترة طويلة. أحمد الشحات هيك، يهود المغرب، تاريخهم وعلاقتهم بالحركة الصهيونية، مرجع سابق، ص. 74-75.

¹ محمد حاتمي، الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية وهران المغرب المستقل، مرجع سابق، ص. 198.

² محمد حاتمي، الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية وهران المغرب المستقل، مرجع سابق، ص. 199.

³ "جريدة الاتحاد المغربي كانت تحظى بدعم شخصيات يهودية فرنسية في غالبيتها كانت قريبة من الأليانس بباريس، وقد كانت تتمثل التحرر والخلاص اليهودي على الطريقة التي تم بها الأمر لليهود فرنسا، وهو المثال الذي كانت ترى بأنه يجب أن يحتذي به، على عكس المستقبل المصور التي كانت ترى أن الخلاص لا يمكن أن يتم إلا في إطار وطن قومي لليهود بفلسطين".

P. Cohen, op. cit, p. 206.

⁴ "مؤقف فرنسي من أصل تونسي ومن أشد دعاة الاندماج، استقر بالمغرب منذ سنة 1912 مديراً لأحد مدارس الرابطة، وقرر سنة 1932 تأسيس جريدة الاتحاد المغربي بمساعدة مجموعة من اليهود الفرنسيين، كما شغل مهمة كاتب عام في الجماعة اليهودية بالدار البيضاء".

P. Cohen, op. cit, p. 198.

⁵ «Notre programme», in UM, 4 février 1932, p. 1.

⁶ P. Cohen, op. cit, p. 200.

صورة رقم 28: جريدة الاتحاد المغربي الناطقة باسم اليهود الاندماجين



Source : Pierre Cohen, La Presse Juive éditée au Maroc, op. cit. p. 196.

وفيما يخص موقفها من الصهيونية، فقد أشارت هذه الجريدة في العديد من المناسبات إلى أنها تعتبرها إيديولوجيا مستوردة واستثمارا "طوباويا" يحيد بالمغاربة اليهود عن الطريق السوي والأكثر ضمانة من حيث النتائج أساسا، لأن فرنسا ترعاه وتسطر مساره¹. وهو ما كان موضوع نقد شديد وساخر من طرف جريدة المستقبل المصور التي ردت على ذلك في أحد أعدادها بما يلي: "صحيفة الاتحاد المغربي لم تستوعب لحد الآن أي شيء [...] بالنسبة إليها حركة النهضة اليهودية مجرد يوتوبيا. يوتوبيا ! هل 175000 من الذين خرجوا من الغيتوهات واستوطنوا بأرض الأسلاف يوتوبيا؟ هل الإنجازات الصناعية والفلاحية والثقافية يوتوبيا؟ هل تل أبيب وحيفا والجامعة والقدس يوتوبيا؟ هل إحياء العبرية والوطن القومي يوتوبيا؟ وأخيرا، هل مذابح 1929 والاضطهاد الذي تم بحائط المبكى يوتوبيا؟ كل هذه الدموع تجسد الحلم، الحلم المسيحاني ! الحلم المسيحاني الذي تم في وقته المناسب، كتب الرسول الصالح !،

¹ محمد حاتمي، الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية وهران المغرب المستقل...، مرجع سابق، ص. 196.

[...] لكن الصهيونية خطيرة [...] ويوتوبيا...¹. أطروحة المستقبل المصور ستتعزيز² مقابل رهان الاندماجين الذي تعرض للإحباط بعد محنة قوانين فيشي التي أدت إلى دفن حلم التجنيس، مما دفع بالكثير من اليهود الذين كانوا يراهنون على ذلك إلى التماهي أكثر مع مشروع الصهاينة³.

غير أنه رغم الخلاف الذي كان بين الصحيفتين حول الموقف من الاندماج والتجنيس والصهيونية⁴، إلا أنهما كانتا معا تطمحان إلى تحقيق الهدف نفسه، ألا وهو الرفع من مستوى اليهودية المغربية، كما أن جمهورهما كان نفسه، ونعني بذلك قدماء تلاميذ مدارس الرابطة، وسكان الحواضر وعموم المتأثرين بالثقافة الغربية، كما أنهما تجاوزتا خلافاتهما وحصل بينهما نوع من التضامن ضد تصاعد موجة معاداة السامية بأوروبا بعدما تمكن النازيون من الصعود للحكم بألمانيا⁵.

توقف جريدتي المستقبل المصور والاتحاد المغربي عن الصدور سنة 1940 وصدمة الاندماجين أنصار الخط التحريري لهذه الأخيرة بسبب إكراهات قوانين فيشي⁶، لم يثنيا الفدرالية الصهيونية بالمغرب عن استعادة نشاطها الدعائي ابتداء من سنة 1944، خصوصا وأنها استفادت، ابتداء من هذه المرحلة، من تسامح كبير أبدته تجاهها سلطات الحماية الفرنسية، التي تغاضت كثيرا عن نشاطها حتى تساعد على نسيان ما تعرضوا له خلال مرحلة فيشي⁷. في هذا السياق، سترخص سلطات الحماية بصدور جريدة Noar ذات الخط التحريري الصهيوني، وسيصدر عددها الأول في شهر دجنبر سنة 1945، وستستمر في الصدور حتى سنة 1952⁸، وقد كانت لسان حال جمعية الشبيبة اليهودية Charles Netter⁹. هذه الصحيفة "لعبت دورا أساسيا في بث الخطاب الصهيوني خلال الفترة التي تلت الحرب العالمية الثانية، حيث أخذت تطرح بكثافة هواجس الأعمال الانتقامية ضد اليهود في حالة الإعلان عن تأسيس الدولة العبرية بفلسطين، وتعمل على استغلال أي حدث له علاقة بالموضوع من أجل ربط مصير المغاربة

¹«Utopie», in AI, 14 Avril 1932, p. 13.

²"المستقبل المصور لم تكن تراهن كثيرا على التجنيس الجماعي والفردى كحل لتحرر اليهود لأنها كانت على بينة من تشدد سلطات الحماية والشرية في هذا الأمر".

P. Cohen, op. cit, p.213.

³Ibid, p. 212.

⁴Ibid, p. 211.

⁵Ibid, p. 214.

⁶Ibid, p. 212.

⁷Ibid, p. 239.

⁸Ibid, p. 237.

⁹"تأسست هذه الجمعية سنة 1930، بهدف تمكين الشبيبة اليهودية من المزاوجة بين مقومات الشخصية اليهودية وقيم الثقافة العصرية، وفق برامج مستقاة من النماذج المعمول بها في فرنسا، وقد كانت تركز على الجوانب الثقافية الترفيهية (الخرجات والرحلات والعروض المسرحية والأنشطة الرياضية). وكانت مفتوحة أساسا أمام متعلمي الأليانس الذين أسسوا سنة 1934 فيدرالية جمعيات قدماء تلامذة الأليانس حيث بلغ عدد فروعها قبيل الحرب العالمية الثانية ستة عشر فرعا. وأصبحت جمعية شارل نيتير أكبر جمعية للشبيبة بالمغرب في النصف الثاني من الأربعينات، حيث نجحت في استقطاب الفئات الصغيرة والياقة في المدن أساسا بفضل احتضانها للتنظيمات الكشفية (أول جمعية كشفية يهودية تأسست في الثلاثينات بمدينة طنجة)". محمد حاتمي، الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية ورهان المغرب المستقل...، مرجع سابق، ص. ص. 147-148.

اليهود بمصير الدولة اليهودية، والتهمة النفسية للهجرة إليها. ومن هنا حديثها عن بعض الأحداث المعادية لليهود بليبيا سنة 1945 وغيرها من أجل دفع المغاربة اليهود إلى "التماهي مع ضحايا النازية"، ومما ساعد في ذلك أكثر هو تحول المغرب إلى ملجأ لاستقبال الفارين عبر اسبانيا، لا سيما بعد أن تم فتح مخيم لصالحهم بمدينة المحمدية¹. هذه الصحيفة كانت تقوم بتوجيه المغاربة اليهود بطريقة غير مباشرة نحو الهجرة نحو إسرائيل، لأنها كانت واعية بإكراهات السياسة الداخلية بالمغرب² المحكومة دائما بالسياسة الأهلية التي كانت تعارض دائما الدعاية الصهيونية المباشرة، التي من شأنها أن تؤثر على السلم الأهلي بين المسلمين واليهود بشكل يمكن أن يؤدي إلى إرباك مصالح الحماية الفرنسية بالمغرب.

بالإضافة إلى العوامل السابقة ساهم صدى الصراع العربي الإسرائيلي بفلسطين في تهيئة البيئة الحاضنة للدعاية الصهيونية السياسية في صفوف المغاربة اليهود، وقد تم ذلك ابتداء من نهاية العشرينيات ومطلع الثلاثينيات، ونخص بالذكر أحداث ثورة البراق لسنة 1929*، أو ما عرف بأحداث الخليل، حيث أدت إلى إخراج الصراع بين الجماعات الصهيونية وسكان فلسطين العرب (مسلمين ومسيحيين) من إطاره المحلي (داخل فلسطين) إلى بعده الإقليمي³، بما في ذلك المغرب، مما أدى إلى انتشار جو من التوتر بين مسلمي المغرب ويهوده، البلد الذي كانت إبانها العلاقة بين أهاليه مازالت هادئة على نحو ملحوظ⁴. في سياق هذا الحدث سيقوم الحاخام الأكبر لمدينة القدس وM. Ussiskin الرئيس العام لمنظمة K.K.L./ الصندوق القومي اليهودي باستغلال هذا الحدث من أجل خدمة الدعاية الصهيونية، وفي هذا الإطار ستنتقل حملة لجمع التبرعات في جميع المدن المغربية الكبرى والمتوسطة المتواجدة بمنطقة الحماية الفرنسية كسلا والرباط وفاس ومكناس وآسفي والدار البيضاء، ناهيك عن المراكز الحضرية الصغرى كالتّي توجد بالشاوية. ومن أجل تفادي أية تداعيات سياسية لهذه التطورات تدخلت سلطات الحماية وطلبت من اليهود أن يقتصر أمر جمع هذه التبرعات على الطابع الخيري فقط، كما طالبتهم بالتكتم حتى لا يؤدي الأمر إلى إثارة المسلمين،

¹ أحمد الشحات هيك، يهود المغرب، تاريخهم وعلاقتهم بالحركة الصهيونية...، مرجع سابق، ص. 86.

² P. Cohen, op. cit, p. 247.

³ "الحادث المباشر الذي أدى إلى اصطدامات الثالث والعشرين من شهر غشت سنة 1929 كانت مظاهرة قام بها اليهود عند حائط المبكى في الأسبوع السابق لذلك التاريخ، وفي الرابع والعشرين من نفس الشهر قامت تظاهرة في تل أبيب بمناسبة ذكرى تدمير الهيكل وفي اليوم الموالي قام جمهور من الشباب اليهودي بقيادة أقلية من المتطرفين الصهاينة القادمين من تل أبيب بمسيرة لم يسبق لها مثيل حتى ذلك الحين عبر شوارع القدس حتى وصلوا إلى قرب حائط المبكى وهناك رفعوا العلم الصهيوني وبدؤوا بإنشاد النشيد القومي الصهيوني-الهاتكفاه- كما شتموا المسلمين وذلك خلافا للتعليمات التي أصدرها المندوب السامي بالوكالة. كان المشهد عند حائط المبكى استفزازيا لدرجة كبيرة، ودونت لجنة التحقيق أن هتافات سمعت من قبل اليهود تنادي أن الحائط حائطنا، وفي اليوم الموالي لمسيرة اليهود قام المسلمون بمظاهرة مضادة شارك فيها حوالي ألف شخص كان بينهم المسؤولون عن المسجد الأقصى وشخصيات من خارج القدس وخصوصا من مدينة نابلس. وقد أدى الاصطدام بين الطرفين إلى مقتل 28 يهوديا وجرح 13 من العرب". علي أبو الحسن، دور أبريطانيا في تهودي فلسطين أقر دور في التاريخ، الطبعة الثانية 2001، ص. 386.

³ محمد حاتمي، الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية وهران المغرب المستقل...، مرجع سابق، ص. 225.

⁴ E. Goidan, op. cit, p. 17.

⁵ "كان مقر هذه الجمعية بالمغرب بزنقة كولي بالدار البيضاء، وكاتبها العام هو أوجيون، وفي رسالة إلى الربى سيمون دهان بمنطقة الريش، شرح أوجيون الأهداف المتوخاة من وراء الانخراط في الجمعية التي يمثلها: "إن غابتنا إنسانية محضة تسعى إلى تعمير وبناء الأرض المقدسة، ثم إن أنشطتنا تتم في تكتم تام لأن مجال القيام بها هي البيع وبيوتات الخواص بعيدا عن التشهير والدعاية." محمد حاتمي، "الجمعيات اليهودية المغربية زمن الحماية"...، مرجع سابق، الهامش رقم 2، ص. 212.

فضلا عن ذلك ألزمهم بأن يتم وضع تلك التبرعات تحت وصاية مفتش المؤسسات الإسرائيلية، ويتم توزيعها بفلسطين تحت إشراف القناصل الفرنسيين هناك لصالح الضحايا اليهود من أصل مغربي فقط¹.

بالمقابل قام الوطنيون المغاربة المسلمون² في إطار رد الفعل بحملة لجمع التبرعات لفائدة الضحايا المسلمين لتلك الأحداث بفلسطين بعدد من المدن المغربية، كما قاموا بقراءة اللطيف وتنظيم الصلوات الجماعية بالمساجد من أجل رفع معنويات إخوانهم في الدين، والتنديد بالتهديد الذي لحق بالمسجد الأقصى³. وخلال اللقاءات السياسية، حرص الوطنيون على تخصيص قضية فلسطين بحيز مهم في اجتماعاتهم، وجعلوها، باستمرار، ضمن قائمة المواضيع المقترحة للنقاش. وحين تمت صياغة التوصيات أفردوا لها فقرات نصت في الغالب على إدانة المخططات المعادية ووجوب نصرته المواقف الفلسطينية ودعم العمل المساند لها⁴. كما لوحظ منذ الثلاثينات أن تطور الصراع بين الصهاينة والعرب، يثير أكثر من أي معضلة مشرقية أخرى، فضول الجمهور المغربي ويستتفر تعاطفه⁵. وفي سنة 1934 وقعت عريضة من طرف 227 شخصية مسلمة تنتمي إلى كل المدن المغربية الكبرى رفعت إلى القنصل البريطاني بالرباط، نددوا من خلالها بالسياسة البريطانية بفلسطين، كما أعربوا عن نيتهم مقاطعة* المنتجات البريطانية إذا استمرت بريطانيا في سن سياسات معادية لعرب فلسطين⁶.

وفي سنة 1936 استتوجس سلطات الحماية من التوتر الذي نشب بين المغاربة اليهود والمسلمين، إثر التصعيد الذي حصل بفلسطين بين اليهود والعرب بسبب أعمال التحري التي قام بها الألمان والإيطاليون، والتي أدت إلى نشوب مواجهة عنيفة بين العرب واليهود خلفت العديد من الضحايا والجرحى، الأمر الذي أدى إلى انتشار القلق في صفوف المغاربة اليهود، وقد كان من نتائج ذلك قيام الخلايا الصهيونية بإطلاق حملة لجمع التبرعات من أجل مساعدة إخوانهم في الدين بفلسطين⁷. ومن أجل تفادي تطورات مماثلة لما حدث سنة 1929 ستطالب سلطات الحماية الطرفين (المسلمين واليهود) بالتزام الهدوء، كما أشرفت بنفسها عبر قنصلها بالقدس على عملية إمداد

¹ E. Goidan, op. cit, p. 18.

² "من أبرز الفاعلين في هذا الإطار نذكر: محمد اليزيدي، الحاج احمد الشرقاوي وأحمد بلافريج (هذا الأخير كان طالبا بالقاهرة، وكان في عطلة بمدينة الرباط عندما اندلعت تلك الأحداث بالقدس، وقد قام رفقة رفيقه في الدراسة المكي الناصري، الذي ظل بالقاهرة بالتعبير عن تعاطف المغاربة مع العرب بفلسطين ضحايا الإمبريالية البريطانية، كما صرحوا عبر الصحافة بالمشرق، بأن الحكومة الفرنسية تمنع على المغاربة جمع التبرعات لإخوانهم بفلسطين)".

E. Goidan, op. cit, p. 18.

³ Ibid, p. 18.

⁴ محمد حاتمي، **الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية وهران المغرب المستقل...**، مرجع سابق، ص. 226-252. نفسه، ص. 226.

* علق غودان على هذا التهديد كالاتي: "لم يتمخض عن هذا التهديد المقنع أية متابعة فعلية لأنه كان من صياغة مجموعة من المثقفين الوطنيين الذين كانوا يعرفون أن المقاطعة لن تؤدي إلى أية نتائج ملموسة، فضلا عن ذلك كانوا يرغبون من خلال ذلك عن التعبير عن آرائهم، حيث شكلت العريضة بالنسبة لهم وسيلة رمزية للتأكيد على قناعاتهم بمشروعية القضية العربية".

E. Goidan, op. cit, p. 19-20.

⁶ Ibid, p. 19.

⁷ Ibid, p.20.

الضحايا اليهود بالأموال التي تم جمعها¹. فضلا عن ذلك سعى بعض الوطنيين إلى تهدئة الأجواء حرصا على تحقيق تقدم في القضية الوطنية².

صدى الأحداث الدامية بالشرق، الذي عرف تطورات مهمة انطلاقا من مطلع الثلاثينات - كما سبق وأوضحنا ذلك-، تزامن طيلة هذه المرحلة مع موجة معاداة السامية التي بدأت هزاتها الارتدادية تصل إلى المغرب منذ سنة 1932، بشكل خدم أنصار الدعاية الصهيونية وأضعف تدريجيا أطروحة الاندماجين³. لقد تسربت الدعاية المعادية لليهود إلى البلاد من الخارج*، من إيطاليا وألمانيا كما حدث بالشرق، في إطار محاولة النظامين الفاشي والنازي محاصرة النفوذ البريطاني الفرنسي بحوض المتوسط. وقد وظفت أجهزة مخابرات النظامين بالمغرب إمكانيات مهمة⁴ وشبكة من العملاء والوكلاء السياسيين، الذين استطاعوا إقناع بعض الوطنيين بالتماهي مع الدعاية الفاشية ضد اليهود، فضلا عن التأثير بأفكار شكيب أرسلان*، بدعوى أن سلطات الحماية الفرنسية منحت الكثير لليهود⁵. وتجدد الإشارة إلى أن الإيطاليين قد قاموا ابتداء من ابتداء من شهر أبريل سنة 1932، عبر القنصل العام الإيطالي بالرباط، بتوزيع نسخ من جريدة "مستقبل العرب"* بمدينة الرباط يومي 11 و 12 ماي سنة 1932، ويؤكد غودان على تورط بعض الوطنيين في تلك الأحداث بناء على ما ورد في بعض المنشورات بإيطاليا⁶. لقد اشتدت حدة الدعاية السامية بالمغرب بعدما

¹Ibid, p. 20.

²من أجل التخفيف من الانعكاسات "المغربي" للحرب الحقيقية التي كانت تدور بين اليهود والمسلمين في فلسطين- التي شارك فيها بكيفية مباشرة بعض "المهاجرين" المغاربة، والذين انضم البعض منهم على ما يبدو إلى المجموعات الإرهابية "للجهان" و "شثيرين"- حاولوا توجيه ردود فعل المدن التقليدية والملاحات وإنجلترا، والقوا مسؤولية تعدد المواجهات المسلحة على مخطط التقسيم الذي كانت الحكومة البريطانية تحضر له. وقد أدى البحث عن مخرج من هذا المأزق إلى تحرير عريضة احتجاج مشتركة ضد هذا المخطط. وندد الموقعون الاثنان والثلاثون (16 مسلما و 16 يهوديا) على هذه الوثيقة، التي وجهت إلى وزارة الخارجية البريطانية بخطر "إحياء روح الحروب الصليبية" المرتبطة بمشروع التقسيم الذي اعتبر "ضارا بالعرب واليهود" على حد سواء. وطالب الموقعون بخلق دولة "فلسطينية مستقلة متوفرة على مؤسسات ديمقراطية لتوفير حقوق متساوية للعرب واليهود". محمد كنيب يهود المغرب، 1912-1948...، مرجع سابق، ص. 176-177.

³"استفاد الصهاينة منذ مطلع الثلاثينات أكثر من غيرهم من الهدوء الذي وفره لهم تركيز اهتمام الإقامة العامة على تطور انتشار وتجذر الحركة الوطنية بين صفوف البروليتاريا الحضرية وفي الوسط القروي. وهكذا، وأصلوا مجهوداتهم الرامية إلى تنظيم صفوف حركتهم وتعزيزها، في الوقت الذي وصلوا فيه الإشارة إلى " التفاهم اليهودي-الإسلامي"، بل وحتى الدعوة إلى تعليم اللغة العربية في مدارس الرابطة". نفسه، ص. 165.

*"كان نقشي الأمية في صفوف المسلمين من جملة الأسباب التي حملت الدعاية الفاشية والنداءات الداعية إلى الحقد العرقي، إلى الاستعمال المتزايد لأمواج الإذاعة، الأمر الذي أصبح يندرج بتحويله إلى خطر متصاعد، خاصة وأن المغاربة المسلمين شرعوا في اقتناء أجهزة الراديو بوتيرة سريعة نسبيا، وأصبح بإمكانهم التقاط البرامج العربية التي كانت إذاعتا برلين وباري بإيطاليا". محمد كنيب يهود المغرب، نفسه، ص. 175.

⁴ E. Goidan, op. cit, p. 22.

*"اعتبر الأمير شكيب أرسلان أنه من الضروري التحرك في جميع الاتجاهات، وطرق أبواب القوى المستعدة لتقديم العون للقضايا العربية. وعليه أبدى استعدادا كاملا للتعاون من ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشية وإسبانيا الفرنكوية على اعتبار أن لهذه الدول وزنا وتأثيرا في السياسة الدولية وليس لأنها معادية للسامية. للتذكير فإن استعمال الورقة الألمانية ضد التحالف الفرنسي البريطاني "تقليد" عثماني تجدد منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، كما إن إيطاليا هي الدولة الأوروبية الغربية الوحيدة التي يمكن الجزم بأنها لا تعرف تقاليد معادية للسامية، فالبلاد لم تعرف في تاريخها مشكلا يهوديا، فضلا عن أن الفاشية لم تطور منظومة خاصة معادية لليهود. وأخيرا نشير إلى أن الاهتمام بإسبانيا الفرنكوية لاحق للعلاقات المتميزة التي ربطها الأمير بالوطنيين في شمال المغرب". محمد حاتمي، الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية ورهان المغرب المستقل...، مرجع سابق، هامش رقم، 1 ص. 228.

⁵ E. Goidan, op. cit, p. 23.

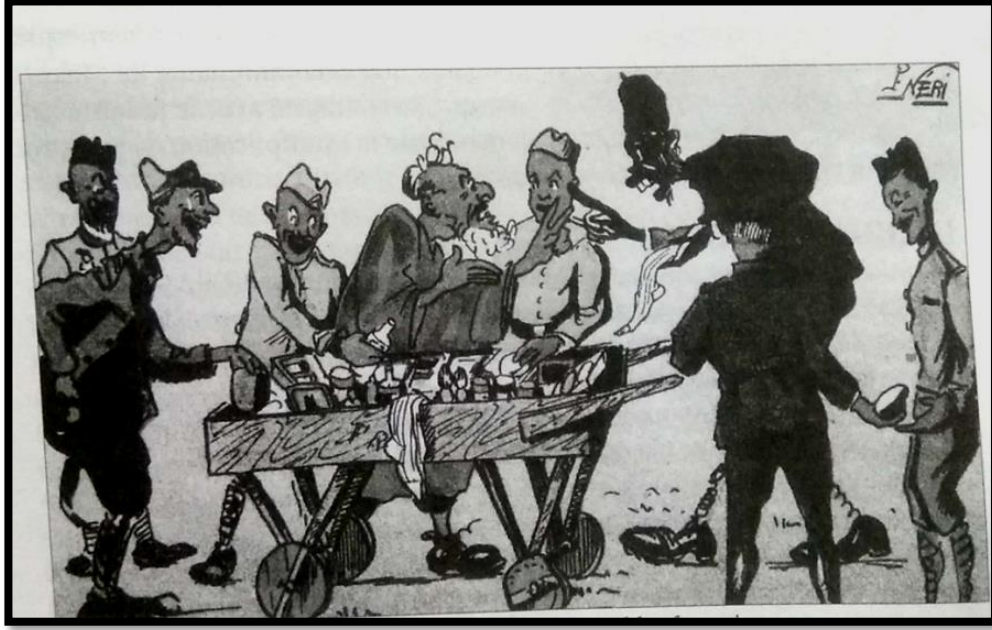
*جريدة كنت تصدر باللغتين الإيطالية والعربية وكانت تطبع بروما.

E. Goidan, op. cit, p. 23.

⁶Ibid, p. 23.

قام نظام موسوليني باعتماد التشريعات المعادية لليهود سنة 1938، والمثير للانتباه أن بعض الأعيان اليهود الحميين من قبل إيطاليا أو المجنسين بجنسيتها قد انخرطوا في الحزب الفاشي¹.

صورة رقم 29: كاريكاتور معادي للسامية؛ تاجر يهودي متجول يتعرض للسرقة من طرف جنود فرنسيين



Source : J. Tolédano, Portrait..., op .cit. p. 245.

تصاعد موجة معاداة السامية في صفوف المستوطنين الأوروبيين بالمغرب، والذين تجرؤا على التعبير عن عدائهم لليهود، تسبب في صدمة نفسية كبيرة للجماعة اليهودية بالمغرب بشكل عام، وبمدينة مكناس بشكل خاص، لأن هذه الأخيرة كانت معقلا لنزعة معاداة السامية الأوربية وللمعمرين الخبراء في "تسخير أصحاب الجلايب"²، الأمر الذي هيا النفوس لاعتناق الدعاية الصهيونية. في ظل هذا المناخ قام عدد من الفرنسيين المنتمين إلى الحزب اليميني المتطرف والمعادين للسامية ليلة 18 ماي سنة 1938 بإلصاق عدد من المنشورات بعدد من المحلات التجارية التابعة لليهود بمكناس بكل من المدينتين الأوربية والأهلية مكتوب عليها عبارات متعددة بحروف بارزة من قبيل: "منزل اليهودي، منزل الانتهازي" و"الجماعة اليهودية تسيطر على أكثر من نصف ثروتنا، يجب مصادرة ثروة اليهود، اخبوهم واستغلوهم حتى تعود للعمال اليهود" و"الشراء من اليهودي يؤدي إلى إفلاس التجارة الفرنسية". هذه العملية دفعت سلطات البلدية إلى الإسراع بمسح تلك العبارات بسرعة، مما أدى إلى عودة الهدوء إلى المدينة³. غير أن التوتر

¹Ibid, p. 23.

²محمد كنيب، يهود المغرب، 1912-1948...، مرجع سابق، ص. 183.

³J. Tolédano, Portrait ..., p. 251.

سيعود للمدينة بتاريخ 10 أبريل سنة 1939، حيث ستؤدي مشادة كلامية بسيطة إلى تطور الأحداث وخروجها عن السيطرة، بعدما حاول يهودي سابق اعتنق الإسلام حل بمدينة مكناس قادما من مدينة طنجة، استجداء عطف وكرم بعض المسلمين بساحة الهديم مقدما على إهانة إخوانه في الدين السابقين، غير أن سلوكه لم يحقق ما كان يصبو إليه، وعند مرور فتاتين يهوديتين بمحاذاته استهزأتا منه عبر توبيخه بما معناه أنه غير دينه من أجل صحن من العدس. هذه الإهانة استفزت بعض المسلمين الذين كانوا بالجوار بعدما انتبهوا لخوف الفتاتين اللتين هربتا للاحتباء بمركز الشرطة¹. أصداء هذه الحادثة انتشرت بسرعة بالمدينة بعدما قام شخص يدعى عبد الله بن الحاج الحسين بطلب مساعدة إخوانه في الدين المسلمين، فاجتمع مئات الأشخاص واتجهوا صوب الملاح القديم والجديد، ومحلات اليهود بحي برمة لمهاجمتها².

ومن خلال ما ذكره روبير أصراف فإن هذه الأحداث لم تكن عفوية، وذلك من خلال الاعتماد على شهادة مجموعة من الشهود الذين صرحوا بأن تلك الأحداث قد تمت بتوجيه عن بعد من طرف رجل كان قد حل بالملاح ويحمل ملامح أوربية آرية، وقد قدم نفسه بصفته مفتش شرطة يعمل بمدينة الرباط. هذه الأحداث خلفت وفاة 3 يهود، منهم صائغ يهودي قتل بمحلله، بينما تم قتل الآخرا بمنزلهما، كما جرح 42 آخرون، ثلاثة منهم كنت جروحهم خطيرة بجروح خطيرة³، غير أن جوزيف طوليدانو يتحدث عن قتيلين فقط و34 جريحا*. كما دمرت سبعة منازل وثمانية محلات تجارية قدرت خسائرها بمليون فرنك، قبل أن تتدخل قوات حفظ النظام التي تأخرت رغم نداءات الاستغاثة⁴.

صدى هذه الأحداث الدامية تردد مساء ذلك اليوم براديو مدينة باري بإيطاليا الذي أشار إلى أن تلك الاضطرابات كانت من تدبير أوساط معادية للسامية بأوربا. وبناء عليه انتهت تحقيقات اللجنة المحلية اليهودية المعادية لمعاداة السامية إلى ما يلي: "النخبة المسلمة لا علاقة لها بهذه الأحداث التي تدينها، وستعمل في مستقبل الأيام على التنسيق مع اللجنة لتفادي تكرار هذه الأحداث في المستقبل"⁵. ومن أجل التصدي للدعاية النازية، خصوصا بعد وصول هتلر للحكم بألمانيا سنة 1933، انخرط المغاربة اليهود في الحركة العالمية المعنية بمقاطعة ألمانيا⁶، ذلك أنه

¹R. Assaraf, **Elements...**, op. cit, p. 198.

²J. Tolédano, **Portrait ...**, op. cit, p. 252.

³R. Assaraf, **Elements...**, op. cit, p. 198.

⁴J. Tolédano, **Portrait ...**, op. cit, p. 252.

⁵Ibid, p. 252.

⁶R. Assaraf, **Elements...**, op. cit, p. 198.

⁶"على غرار الوطنيين الذين استلهموا التجربة الهندية، فيما يتعلق بمقاطعة البضائع الواردة من إنجلترا وفرنسا، ولحمل الدولة الأولى على التخلي عن مخطط تقسيم فلسطين، وإرغام الثانية على إلغاء الظهير البربري، فكر اليهود بدورهم في استغلال السلاح التجاري ضد النازيين". محمد كنيب، **يهود المغرب، 1912-1948...**، مرجع سابق، ص. 149.

ابتداء من شهر أبريل من نفس السنة تشكلت لجنة للمقاطعة بالدار البيضاء، وقامت بتوزيع منشور باللغتين الفرنسية والعبرية- العربية لتلاوته بالبيع بمختلف مناطق البلاد، كما طالبت بتعليق منشورات على واجهات المحلات، وزعت من طرف نفس اللجنة، جاء فيها: "لن نبيع المنتجات الألمانية!"، "لن نستقبل ممثلين عن الشركات الألمانية"، "إذا اشترت من الألماني فإنك تحضر لموتك، اشتر من الفرنسي، لأنك تساهم بذلك في قوة البلد الذي يحملك ويدافع عنك!"¹. غير أن هذه المقاطعة لم تؤد إلا إلى نتائج هزيلة، ويرجع محمد كنيب فشلها في جزء منها إلى عاملين اثنين: "تمثل أولهما في رفض عدد لا يستهان به من كبار التجار اليهود، الذين كانوا يمثلون الشركات الألمانية في المناطق الثلاثة، الذين كانوا يعانون من مصاعب جمة بفعل الكساد العام، والامتنال للإجراءات التي سنتها " لجنة مقاطعة المنتجات الألمانية" التي أحدثت بالدار البيضاء، وتمثل ثانيهما في قيام إخوانهم في الدين الألمان، اللاجئين إلى المغرب، الذين حافظوا مع ذلك على الأمل في عودة سريعة لبلادهم، بدعم مواقف كبار التجار من المقاطعة، باعتبارهم متتبعين مهتمين بشعارات "الاتحاد المركزي للمواطنين الألمان المعتنقين لليهودية" (برلين) فقد أحاطوا اليهود المغاربة علما بتهديدات الانتقام الصادرة عن هتلر، ونصحوا الجماعات التي كانوا يعيشون بين ظهرانيها بضرورة التحلي بالاعتدال."².

وللتخفيف من حدة التوتر الذي تسببت فيه الدعاية الفاشية خلال هذه المرحلة، دعا النشطاء اليهود إخوانهم في الدين إلى إيجاد تفاهات مع المسلمين³. قام في هذا الإطار بعض الشبان اليهود بمدينة فاس بالسعي إلى تأسيس الاتحاد المغربي للمسلمين واليهود خلال شهر يوليوز سنة 1936، تعبيرا من طرفهم عن رغبتهم المشتركة في تجاوز الأحكام المسبقة، العرقية- الدينية وتحصين أنفسهم ضد الاهتياج الفاشي. هذا التقارب تم أيضا بعدد من المدن المغربية الأخرى⁴، كما قدم مناضلو اليسار الفرنسي إلى نخب المجموعتين كل أنواع التشجيع، وكان دافعهم إلى ذلك هو الرغبة في " قطع الطريق أمام الفاشية"⁵.

فترة الثلاثينيات كانت عصيبة بالنسبة لليهود مكناس، حيث انضاف إلى ما سبق (معاداة السامية) اندلاع أحداث بوفكران سنة 1937 التي كان من تداعياتها الجانبية تعرض يهود المدينة للعدوان من طرف بعض أهالي المدينة المسلمين، بشكل ساهم في استبطان الوعي الجمعي لليهود إحساسا بعدم الأمان كلما غاب الأمن، لأنهم الحلقة

¹J. Tolédano, *Portrait ...*, op. cit, p. 246.

²محمد كنيب، *يهود المغرب، 1912-1948...*، مرجع سابق، ص. 150.
³"انتاب المسلمين شعور متضارب، يتراوح بين الشفقة على اليهود، والارتياح لرؤية قوة منافسة لفرنسا" تعيدهم إلى مكانهم الطبيعي". وكان التعبير عن شعور المساندة صادرا بصفة خاصة عن الشباب الحضري المثقف، المنتمي للشرائح العليا من المجتمع. وكانت الدوافع التي تحركهم، ترجع في نفس الآن إلى علاقات الصداقة التي كانت تربط عائلاتهم باليهود ويرغبتهم في إبراز التسامح التي تميزهم للفرنسيين. ونشروا في بعض اليوميات الفرنسية " مذكرة تقول بأنهم كانوا حريصين على تأكيد تعاطفهم مع اليهود، بمناسبة ما اقترف في ألمانيا من تجاوزات وأفعال مناهضة للسامية". نفسه، ص. 152-153.

⁴E. Goidan, op. cit, p. 25.

⁵محمد كنيب، *يهود المغرب، 1912-1948...*، مرجع سابق، ص. 171.

الأضعف في المجتمع التي يسهل استهدافها، كما عزز ذلك أطروحة النشاط الصهيونية، لاحقا، والقاضية بأن الخلاص اليهودي لا يمكن أن يتحقق إلا عبر الهجرة إلى فلسطين لتأسيس وطن قومي لليهود.

أحداث بوفكران حصلت في إطار الانتفاضة الشعبية التي قام بها الأهالي المسلمون بمكناس سنة 1937 ضد الفرنسيين، بسبب إقدام مديرية الأشغال العمومية على تحويل جزء من مياه واد بوفكران بأرض تانوت لفائدة أربعة معمرين¹، فضلا عن ذلك مد المرافق المدنية والعسكرية بالمدينة الجديدة - حمريه - بحاجتها من الماء، وإصدار عدة ظهائر وقرارات لتنظيم واستغلال هذه المياه. ويشرح بوشتي بوعسرية موضحا: "قد تزامن هذا الحدث مع الوضعية الصعبة التي كان يعيش عليها المجتمع المكناسي، والمتمثلة في الأزمة الاقتصادية والاجتماعية التي مست بالخصوص الفئات الشعبية داخل هذا المجتمع، ومع بداية تبلور الوعي الوطني عند ثلة من المكناسيين الذين كانوا على اتصال دائم بإخوانهم الوطنيين في أهم المدن المغربية خاصة في فاس. بالتالي لقد كانت الأسباب السالفة الذكر كافية لإلهاب حماس الجماهير المكناسية لمقاومة سياسة الإدارة الفرنسية"²، والاصطدام معها في مظاهرة ثاني شتنبر الدموية³. وبما أن العلاقات كانت "سيئة للغاية" بين المكناسيين المسلمين واليهود بالمدينة، في ظل الأزمة الاقتصادية التي كانت حادة خلال هذه الفترة، وبما أن اليهود كانوا يحتكرون تجارة بعض المواد الضرورية كالقمح* والسكر والملابس والثوب، فضلا عن صناعة المجوهرات النفيسة كالذهب والفضة، ناهيك عن الخطوة التي كانت لهم عند السلطة الفرنسية الإقليمية بمكناس فقد كانت فرصة سانحة للمحتجين والعاطلين بالتحديد للانتقام من هؤلاء اليهود إضافة إلى الفرنسيين، مما دفعهم يوم المعركة إلى الهجوم على الحي اليهودي- الملاح-⁴، رغم حماية قوات "حفظ الأمن" لهذا

¹روبير أصراف، محمد الخامس واليهود المغاربة...، مرجع سابق ص. 153.

²بوشتي بوعسرية، المقاومة المسلحة والحركة الوطنية بمكناس وأحوازا 1911-1956، الجذور- المظاهر- الامتدادات، تنسيق ومراجعة محمد الشريف، منشورات وزارة الثقافة، مطبعة دار المناهل، ص.

³"عند الفجر، أخبر المقدومون "الزعما" الخمسة المزمع اعتقالهم بأمر الحضور إلى محكمة الباشا على الساعة الثامنة والنصف، وبعد حضور هؤلاء "الزعما" في الوقت المحدد، نطق الباشا في حقهم بالحكم التالي: "راهم حكومو عليكم بثلاثة أشهر سجن"، وهو بذلك، يشير إلى الفرنسيين. [...] فكان رد فعل السكان سريعا بعد نقل "الزعما" إلى السجن، فاجتمعوا بالمسجد العظم لتحديد موقفهم، بحكم أن المسجد كان بمثابة مقر لتدارس المشاغل اليومية لأهل مكناس، وطلب أعضاء الحركة الوطنية من المجتمعين بالمسجد التوجه إلى باب محكمة الباشا وإلى ساحة الهديم، في الوقت نفسه حاولت لجنة من الوطنيين الاتصال بالباشا لاستفساره عن سبب سجن إخوانهم، فلم توفق: "...فوجدوا القوة العسكرية حيلة ورماتا- كذا- واقفة بسائر الطرق الموصلة لمحكمة الباشا فردوهم بكل قوة وعنف، ومنعوهم من الوصول للباشا وضربوهم بسائر المكاحيل ضربا بليغا سالت منه الدماء...ولم يتحاشوا عن ضرب النساء- كذا- والصبيان...". ولما رأت الجماهير المحتشدة أمام محكمة الباشا ما لقيه ممثلوهم، اندفعت في اتجاه القوات الفرنسية غير عابئة بما يصيبها من مكروه، وكان عدد هذه الجماهير ما بين 300 و4000 شخص حسب الرواية الرسمية، وأزيد من 15000 متظاهر حسب التقديرات المغربية، خاصة إذا علمنا أن يوم المعركة صادف عقد السوق الأسبوعي بالمدينة، وتوافد العديد من "السواقة" من الضواحي الذين انضموا إلى السكان الحضرين، أدركنا عدد المشاركين في هذه المظاهرة الدموية". بوشتي بوعسرية، المقاومة المسلحة والحركة الوطنية بمكناس وأحوازا 1911-1956...، مرجع سابق، ص. 135-136.

*"قبل أحداث بوفكران سنة 1937، لم يعد المكناسيون يجدون ما يقتاتون به نظرا لقلة المواد الغذائية الأساسية أو لانعدامها، لكون "رحبة الزرع" أصبحت فارغة من الحبوب لعدة أسابيع، لأن اليهود المسيطرين على تجارة الحبوب بمكناس آنذاك اغتنموا فرصة لادخار هذه المادة الحيوية، فارتفع ثمنها بشكل واضح، مما حال دون كيلها من قبل الفئات الفقيرة داخل مكناس، فأصبح السكان مهددين بالمجاعة". روبر أصراف، محمد الخامس واليهود المغاربة...، مرجع سابق، ص. 63.

⁴بوشتي بوعسرية، أحداث بوفكران بمكناس، فاتح وثاني شتنبر، 1937...، مرجع سابق، ص. 349.

الحي¹. كما عرجوا على أسواق المدينة العتيقة وعمدوا إلى تخريب متاجر اليهود الموجودة بالسكاكين (سوق الذهب) والبرازين (سوق المنسوجات)، ولم يكن لأصحاب هذه المتاجر من خيار إلا أن ينفقوا متاجرهم، ويحتجوا وراء أسوار الملاح القديم الذي أغلق أبوابه بسرعة، وقد كانت الخسائر المادية جسيمة، إذ تم تخريب ثلاثة وأربعين متجرًا، ونهب ما بها من سلع².

غير أن روبر أفصاف يؤكد بأن الخسائر كانت أثقل على المستوى النفسي، لأن هذه الأحداث أعطت الدلائل على صدق تخمين بعض اليهود، الذين كانوا قد فقدوا الأمل في حصول أي تغيير في التعامل مع جماعتهم بالمغرب قائلًا: "كانوا دائمًا كبش فداء وسيظلون كذلك"³. وجدير بالإشارة أن هناك من رأى بأن الاعتداءات التي لحقت باليهود عقب هذه الأحداث تدخل ضمن معاداة السامية، خاصة بعد أصداء المواجهات التي سبق وحدثت سنة 1929 بين الفلسطينيين والصهاينة⁴. إلا أن ما اطلعنا عليه من مصادر ومراجع توضح بأن المغاربة المسلمين لم يعرفوا شيئًا اسمه معاداة السامية على غرار ما كان في صفوف بعض الأوربيين⁵.

الحاصل أن الاعتداءات التي لحقت باليهود بمدينة مكناس، عقب هذا الحدث، كانت تدخل ضمن الأعراض الجانبية التي يرافقها العنف والنهب بسبب الفقر والبطالة عندما يضطرب الأمن، خاصة وأن اليهود لم يكونوا وحدهم ضحايا لهذه الأحداث، بل حتى بعض متاجر المسلمين تعرضت للأضرار، خلال التراجع غير المنظم للحشود الذي حدث أمام هجوم قوات الجيش الفرنسي التي أخذت في إطلاق النار بدون سابق إنذار⁶، فضلًا عن ذلك، لم تسجل خسائر في الأرواح في صفوف اليهود عكس المسلمين، حيث بلغ عدد الضحايا وفق ما اتفقت عليه المصادر الرسمية في 19 ضحية، كما أكد بوشتي بوعسرية أن عدد القتلى ظل أكثر مما ورد في الأرقام الرسمية، وفق ما جاء في بعض الشهادات المعاصرة: "[...] إن عدد القتلى الذين عد رسميًا بعشرين، يتراوح حقيقة بين الأربعين والخمسين، ذلك أن عدد منهم أخذه أقاربهم ودفن خفية، خصوصًا الأفارقة، وليس هذا من الغرابة في شيء، لأن الجنود أطلقوا أثناء الحادث ألفي رصاصة..."، وإذا صحت هذه الشهادة - ونعتقد جازمين أنها صحيحة - فإن عدد القتلى كان مرتفعًا، كما هو مثبت في شهادة أخرى: "... وكل ما نعرفه أنه بعد الزوال جاءت شاحنتان عسكريتان، جمعنا من

¹ "عملت سرية الخدمات C.H.R على الحيلولة دون وصول المتظاهرين إلى الملاح الجديد، كما عملت سرية الإرشاد والدعم C.T.E.A، على حماية متاجر اليهود من نهب المتظاهرين، كما كلفت الفصيلة الرابعة من سرية الخدمات C.H.R، بمهمة حراسة باب الملاح الجديد". بوشتي بوعسرية، أحداث بوفكران بمكناس، فاتح وثاني شتير، 1937...، مرجع سابق، ص. 254-256.

² روبر أفصاف، محمد الخامس واليهود المغاربة...، مرجع سابق، ص. 153.

³ نفسه، ص. 153.

⁴ M. Nouvel, op. cit, p. 10.

⁵ Ibid, p. 11.

⁶ محمد كنيبي، يهود المغرب، 1912، 1948...، مرجع سابق، ص. 181.

ساحة الهديم الجثث التي وجدتها... ومنذ ذلك الوقت، والعديد من العائلات لم تر زوجا أو ابنا أو أخا...¹. ورغم ذلك فقد تعاطت سلطات الحماية مع اليهود في مسألة "التعويضات" * بأفضلية، رغم أن طموحهم كان كبيرا في هذا الموضوع، إذ طالبوا بمبلغ قدره 430000 فرنك، وهو التقدير الذي رأى فيه رئيس مجلس الطائفة جوزيف بيرديغو مبالغة كبيرة، لذلك اقترح تحديد مبلغ التعويضات في 200000 فرنك فقط، الأمر الذي لقي معارضة من قبل باقي أعضاء المجلس²، فكانت فرصة مناسبة للسلطات الفرنسية التي اقترحت مبلغ 50000 فرنك، مقابل 6000 فرنك، فقط، للمسلمين فقط³، هذا وقد ذكرت بأنها قامت بذلك من باب التضامن الإنساني وليس من باب التعويض، كما كلفت جوزيف بيرديغو بتوزيعه على الأكثر تضررا واحتياجا، باعتبار ذلك يدخل في باب الصدقة، وليس في باب التعويضات⁴.

في سياق هذه الأحداث قام المقيم العام نوجيس * بزيارة لمدينة مكناس من أجل ضمان استتباب الأمن وطمأنة الساكنة اليهودية⁵، كما لم يفوت الفرصة من أجل معاتبة الأعيان اليهود وتذكيرهم بأنهم يجب أن يكونوا سعداء، لأنه لم تسجل وفيات في صفوفهم، لذلك كان عليهم أن يكونوا ممتنين - في تقديره - للقوات الفرنسية التي حافظت على أرواحهم، وقال في هذا الصدد: "تصوروا حجم المأساة لو لم نكن هنا"، فرد عليه أحد الأعيان بقوله: "عندما لم تكونوا هنا، لم نكن في حاجة لقوات تدافع عنا، لقد كنا نعيش في سلام مع جيراننا"، الأمر الذي أثار ذهول المقيم العام، ولم يكن الذي رد عليه سوى أبرهام طوليدانو الذي كان يعمل بالمصالح البلدية، ولشدة غضب المقيم العام رد عليه: "هل تعتقد أن الحماية جاءت لحماية اليهود؟". سنتين بعد ذلك سيكون أبرهام طوليدانو أول يهودي بمكناس تطبق عليه قوانين فيشي العنصرية⁶.

وفي سياق ذي صلة حري بالقول إن اندلاع الحرب العالمية الثانية وما رافقها من أحداث وتطورات داخل وخارج أوروبا، ونعني بذلك الفضاءات التي اقترفت من طرف النظام النازي في حق اليهود بالميتروبول، فضلا عن قوانين فيشي التي طالت يهود المستعمرات الفرنسية، قد كان لها دور حاسم في قيام عموم الإسرائيليين بالمغرب

¹بوشتي بوعسرية، المقاومة المسلحة والحركة الوطنية بمكناس وأحواها 1911-1956...، مرجع سابق، ص. 139.
* لمعرفة تفاصيل كل ما يتعلق بمسألة التعويضات يمكن الإطلاع على ما ورد في العمل الذي أنجزه بوشتي بوعسرية (أحداث بوفكران بمكناس، فاتح وثاني شنتير، 1937)، من الصفحة 354 إلى الصفحة 368.

²J. Tolédano, *Portrait ...*, op. cit, p. 250.

³بوشتي بوعسرية، أحداث بوفكران بمكناس، فاتح وثاني شنتير، 1937...، مرجع سابق، ص. 372.

⁴J. Tolédano, *Portrait ...*, op. cit, p. 251.

* "رغم أن رؤساء لجان الطوائف لم يتعاطوا نظريا للسياسة، فإنهم لم يتوانوا مع ذلك عن إعلان ترحيبهم العميق " بالمساعد الأمجد للماريشال ليوطي". غير أن المتنورين اليهود، لم يطمئنوا لتعيين أحد تلامذة ليوطي بالرباط، ذلك أن هذا الأخير قد حرص على الإبقاء عليهم في وضعية الأهالي تحت رحمة المسنين منهم [...] خاصة وأن ليون بلوم اختار أن يترك للجنرال نوجيس مهمة تبني " السياسة الأهلية" الأكثر تطابقا مع "المصالح العليا لفرنسا". محمد كنيبي، *يهود المغرب، 1912-1948...*، مرجع سابق، ص. 170-171.

⁵روبير أصراف، *محمد الخامس واليهود المغاربة...*، مرجع سابق، ص. 153.

⁶J. Tolédano, *Le temps du Mellah...*, op. cit, p. 143.

مراجعات جذرية في اتجاه تبني الإيديولوجيا الصهيونية، ضدا على القناعات التي كان الإندماجيون يروجون لها إلى حدود اندلاع الحرب العالمية الثانية، ذلك أنه فور انطلاق هذه الأخيرة سنة 1939، سارع هؤلاء رفقة المسلمين إلى إعلان تضامنهم مع فرنسا، وعندما طالبتهم الحكومة بالدعم المالي كان اليهود يستجيبون بسرعة، كما أعرب العديد منهم عن استعدادهم للتطوع في الجيش استجابة للنداء الذي عبر عنه هذا الأخير، وبناء عليه، قامت سلطات الحماية بتسجيل المتطوعين، وطلبت منهم الانتظار حتى إشعار آخر، غير أن صدهم من طرف سلطات الحماية التي رفضت تجنيدهم لأسباب سياسية مرتبطة بالسياسة الأهلية كان غير متوقع، وقد تمثلت مبررات الرفض بالخصوص في معارضة السلطان محمد بن يوسف، وتجنبا "لإغضب" المسلمين الذين تعودوا على اعتبار اليهود عرق غير جدير بحمل السلاح¹.

وقد أثار تحمسهم هذا صدور تعليقات لاذعة من طرف الصهاينة، إلا أن الاندماجيين المتعودين على هذا النوع من الانتقادات كانوا قادرين على تجاهلها، وإن كان من الصعب عليهم بالمقابل، فهم أسباب التحفظ الحقيقية الكامنة وراء عدم قبولهم من طرف سلطات الحماية، إذ كانت الإقامة العامة لا تزال بالفعل متشبثة بالخط الذي سار عليه ليوطي منذ سنة 1912، وحججه التي قدمها عندما جست الحكومة الفرنسية نبضه سنة 1918، فيما يتعلق باحتمال تجنيد عناصر لقيف يهودي من المغرب للتوجه إلى فلسطين. ومنذ ذلك التاريخ، أصبح من الصعب على الإقامة العامة قبول فكرة تجنيد مقاتلين من بين ساكنة الملاحات، مستندة في رفضها هذا إلى تحريم² حملهم السلاح من وجهة نظر الشرع باعتبارهم أهل ذمة، واعتبرت أن تجنيدهم في صفوف قواتها سيلحق ضررا بالغاً بجاء فرنسا بالمغرب³.

هذا الأمر سبق وأن تطرقت إليه جريدة المستقبل المصور في أحد مقالاتها حيث أشارت إلى أن قانون الذمة المفروض من طرف المخزن كان دائما يحول دون حملهم السلاح دفاعا عن الوطن⁴. وهو الأمر الذي التزمت به سلطات الحماية منذ دخولها إلى المغرب. غير أن تطور أوضاع اليهود نحو الأسوأ خلال هذه الفترة لم يقف عند هذا الأمر، فبعد هزيمة فرنسا أمام ألمانيا وتوقيع الهدنة يوم 22 يونيو سنة 1940⁵، سيجد المغاربة اليهود أنفسهم أمام

¹D. Bensimon-Donath, *Evolution du judaïsme marocain...*, op. cit, p. 108.

²محمد كنييب، *يهود المغرب 1912-1948...*، مرجع سابق، ص. 206.

³نفسه، ص. 207.

⁴"يقولون إن اليهود يمتنعون عن المشاركة في الدفاع الوطني، ننتظر أن يذكرنا بالظروف التي دعا فيها. لقد كانت تتم تنحيته من الجيش، دائما، بالنظر إلى وضعهم. ثم إن الازدراء التام الذي يظهره المغربي المسلم باقتناع للقيمة العسكرية لليهودي تبين اللامبالاة التامة لهذا الأخير تجاه مساهمة الإسرائيلي في الحرب. ولطالما رددنا بأن معيار الأمان في البلاد هو أمن اليهودي والمرأة على طرقات السلطان، هذا التلازم الذي يزدي إلى حد ما اليهودي والمرأة يكشف درجة عدم الرغبة في وجود اليهودي في الجيش، ذلك أن قبول مشاركة اليهودي في الدفاع عن البلاد، هو بمثابة قبول لمواطنته بكل نتائجها، وبناء عليه نتساءل إلى أي مدى يقبل المسلمون المغاربة بنتائج هذا الالتزام؟".

j. Ohayon, «Le Statut du judaïsme marocain» in AI, N° 273, 30 Juin 1938, p.4.

⁵وليام هويستن، *الحماية الفرنسية بالمغرب بين الأوج والأفول تحت قيادة الجنرال نوجيس 1936-1943*، تعريب: إبراهيم بوطالب، منشورات كلية الآداب بالرباط، الطبعة الأولى 2001-2002، مطبعة النجاح الجديدة- الدار البيضاء، ص. 252.

إكراه خضوعهم لقوانين فيشي العنصرية* التي طبقت بفرنسا وبمستعمراتها. وقد وجدت حكومة فيشي داخل إدارة سلطات الحماية خداما أوفياء كانوا متحمسين لتطبيق القوانين المعادية لليهود، خصوصا وأن موجة معاداة السامية كانت قد انتشرت في صفوف المستوطنين الفرنسيين بالمغرب خلال مرحلة الثلاثينات ارتباطا بالأسباب التي سبقت الإشارة إليها.

لقد كان للإجراءات المعادية لليهود وفق قوانين فيشي تأثير عميق على نفسية اليهود "المتطوئين"، خاصة وأن الآلاف من يهود شمال إفريقيا الذين تربوا بمدارس الرابطة على حب الحضارة الفرنسية، كانت لهم ثقة في شعار الحرية والمساواة والأخوة. ومن ثم صار نظام فيشي في نظرهم هو فرنسا¹. لقد كان الغموض المحيط بمسألة الاندماج يجعل معاناة الراغبين منهم لا تطاق، مما أفضى إلى جعلهم قابلين للتأثر بمحتوى النداءات لفائدة "بديل صهيوني"². فضلا عن ذلك، أدت أخبار المحرقة اليهودية (الهولوكوست) على يد النازيين بأوربا إلى فتح الطريق أمام الصهيونية السياسية داخل جميع طبقات الجماعة اليهودية، بشكل أدى إلى كساد اختيار الدعوة إلى الانصهار³.

لقد استفادت الحركة الصهيونية من الفشل النهائي الذي مُني به النموذج الاندماجي لصالح الخيار الصهيوني، وهو المذهب الذي كان الاندماجيون ينعتونه فيما قبل "بالطوباوية"، لاسيما وأن الأليانس نفسها قد أبدت سنة 1945 استعدادها لتبني البديل الصهيوني، بناء على المراجعات التي قامت بها اللجنة المركزية بباريس بقيادة رئيسها روني كاسان/ René Cassin، وبناء عليه قام هذا الأخير بإصدار إعلان جاء فيه: "يجب أن نعترف ولأسباب متعددة منها ما هو تراجيدي بأن عددا من اليهود صاروا لا يرغبون في الاندماج في اقتصاد ومجتمع البلدان الأصل، لذا ليس أمامهم غير خيارين: الموت في عين المكان، أو الهجرة واللجوء إلى الخارج -وفق مبادئ الأمم المتحدة- حيث تسود ظروف إنسانية أقل سوءا"⁴. وتحت تأثير الحركة الصهيونية منذ سنة 1944 تم إقرار اللغة العبرية كلغة وحيدة للتحدث في البيع⁵، وفي نفس السياق قام Jules Braunschwig أحد المندوبين المؤثرين في اللجنة المركزية للرابطة الإسرائيلية بزيارة لشمال إفريقيا، بما في ذلك المغرب، حيث دعا، في إطار ترجمة التطبيع مع الحركة الصهيونية، إلى إدراج تعليم اللغة العبرية والتاريخ المقدس للتلاميذ اليهود، وقد تم ذلك بالتوافق مع مندوبيتها بالرباط* التي كان

* هذه القوانين وكل ما يتعلق بها سنتطرق لها بالتفصيل خلال المحور اللاحق.

¹D. Bensimon-Donath, Evolution du Judaïsme Marocain, op. cit. p. 110.

²محمد كنيبي، **يهود المغرب 1912-1948...**، مرجع سابق، ص. 47.

³روبير أصراف، **محمد الخامس واليهود المغاربة...**، مرجع سابق، ص. 275.

⁴E. Goidan, op. cit, p. 65.

⁵J. Tolédano, **Le temps du Mellah...**, op. cit, p. 227.

* سبق وأن قام النشطاء الصهاينة بتوجيه انتقادات قوية وحادة جدا للمناهج التعليمية المعتمد من قبل الرابطة بسبب عدم منحها الأولوية لتعليم اللغة العبرية.

A. Chouraqui, **L'Aïu et la Renaissance Juive...**, op. cit, p. 187.

على رأسها يحيى التاجوري. غير أن توصيات هناك كانت تقتضي ضرورة الحرص على الطابع العلماني للتعليم الذي كانت تقدمه مؤسسات الأليانس، حتى لا تتحول إلى مدارس دينية التوجه¹. لقد تعاطت الحركة الصهيونية مع هذا الموضوع بحذر شديد، فهي وإن عبرت، قبلا، عن عدم رضاها عن التعليم العلماني الصرف الذي كانت تقدمه الرابطة للشبيبة اليهودية، بشكل ساهم، في تقديرها، في تراجع التمسك بالدين والتقاليد اليهودية، إلا أنها كانت لا تود الذهاب بعيدا في إضعاف التعليم العلماني لصالح العبرية المواد الدينية إلا بالشكل الذي يساهم في ترسيخ الأفكار الصهيونية، لأن الدين كان أحد الركائز التي تأسست عليها منذ البداية² في علاقتها باليهود الشرقيين بمن فيهم يهود المغرب³.

لقد كان شعار الحركة الصهيونية على هذا النحو: "مادام الشعب أي شعب متمسكا بلغته، فذلك وحده ما يسمح له دوما بالاحتفاظ بمفاتيح بيته"⁴، لذلك اعتنوا أكثر من أي وقت مضى باللغة العبرية منذ نهاية الحرب العالمية الثانية استجابة للتوجيهات التي كانوا يتلقونها من قادة الحركة الصهيونية، إيمانا منهم بأن اللغة العبرية هي ما يسمح بتشكيل هوية جامعة وعابرة لمختلف الطوائف أينما كانوا، لأن الروح اليهودية لا تتحقق إلا عبر اللغة العبرية. عناية المنظمات الصهيونية بمختلف المناطق التي كانت مجالا لدعايتها ضرورة تمكن الأطفال اليهود من اللغة العبرية الحديثة كان الهدف منه ربط بعضهم وجدانيا إلى بعض وإلى فلسطين، في أفق تحقيق الاندماج الكامل هناك⁵. فضلا عن ذلك تم التركيز أكثر، ابتداء من هذه المرحلة، على ضرورة توجيه التلاميذ إلى التعليم المهني بدعم من جمعية* تنظيم التعليم المهني والصناعي والفلاحي في صفوف الإسرائيليين المغاربة⁶، وكان هذا النوع من التعليم يحظى بدعم ورعاية كبيرين من طرف منظمة إعادة الاعتبار بواسطة العمل / O.R.T، هذه الأخيرة كانت تهدف من وراء تكوين الأطر والتقنيين إلى جعلهم في خدمة المشروع الصهيوني⁷.

¹E. Goidan, op. cit, p. 66.

²M. Nouvel, op. cit, p. 18.

³"لم يكن بإمكان الخطاب الصهيوني في المغرب أن يأخذ محتويات اشتراكية ولا علمانية لأن الغالبية العظمى من يهود المغرب ذوو معارف "فلسفية" محدودة ومنتشبتون بقيم أخلاقية ودينية وبنيات اجتماعية تقليدية. وهذا المعطى، يفسر إلى حد كبير المسخ الذي تعرضت له الإيديولوجية الصهيونية في المغرب، فهي أفرغت من جوهرها فأضحت دينية تبشيرية حتى تتكيف وعقليات اليهود المغاربة. فالصهيونية في شكلها المغربي لم تعتبر الحس القومي محركا أساسيا للهجرة صوب أرض الميعاد والاستقرار بها، فأكدت على أن القومية اليهودية انتهت بالقضاء على مملكة العبرانيين الثانية وانحباس زمن النبوءات. وأثرت المعتقدات الشعبية على طبيعة أنشطة الصهاينة، فهي ركزت بالأساس على الترويج لثقافة ودعم ومساعدة اليشوف في فلسطين. [...] وعموما، فإلى حدود تأسيس الدولة العبرية كانت الأغلبية الساحقة من يهود المغرب غير صهيونية، لكنها لم تكن لا أخلاقيا ولا عمليا مناهضة للصهيونية. [...] وانطلاقا من هذا المعطى المبدئي تحاشى الخطاب الصهيوني المغربي جعل إسرائيل غاية للعليه، وأصر بطرق شتى بعضها صريح والآخر مبهم، على اعتبارها ملاذا لليهود المغلوبين والمقهورين والطوباويين". محمد حاتمي، **الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية ورهان المغرب المستقل**...، مرجع سابق، ص. 196-197.

⁴E. Goidan, op. cit, p. 59.

⁵Ibid, p. 59.

Ibid, p. 66.

⁶Ibid, p. 66.

⁷Ibid, p. 67.

كل الأحداث السابقة مكنت النشطاء الصهيانية من تحقيق اختراقات نوعية داخل الجماعة اليهودية، خصوصا داخل الأليانس، مستفيدين من الأزمة التي مرت منها خلال فترة الحرب العالمية الثانية¹. فأصبح النشاط الصهيوني بالمغرب بعد سنة 1945 أكثر فعالية، كما صار النشطاء الصهيانية يستثمرون الدين بشكل كبير في هذه الدعاية لأفكارهم، فضلا عن أن فلسطين أصبحت تمارس جاذبية كبيرة على يهود المغرب منذ هذه المرحلة²، بعدما راجعت الرابطة موقفها من هجرة اليهود إلى فلسطين³، وقد كان اعتناقهم للدعاية الصهيونية نتيجة لـ"مراجعات مؤلمة" بعدما سبقتهم إلى ذلك قيادة الرابطة كما سبق وأوضحنا ذلك، حيث تخلت عن إستراتيجية الإدماج، وشرعت في التعاون مع المنظمات الصهيونية بعدما كان الإندماجيون ينعتون الصهيانية فيما قبل بـ"الطوباويين"، فتم الرفع من عدد الساعات المخصصة للعبرية والتربية الدينية، كما تم وضع البنية التحتية للرابطة الإسرائيلية العالمية بالمغرب رهن إشارة المنظمات الصهيونية. وقد كانت مؤسسة "إعادة الاعتبار بواسطة العمل" O.R.T، و"مؤسسة غوث الأطفال" O.S.E، أول الجهات المستفيدة من مراجعة هذه المواقف، فعملت عن طريق عملها الإحساني في الإسراع بصهينة الملاحات⁴.

لقد تزامنت العوامل التي تحدثنا عنها قبيل وخلال الحرب العالمية الثانية، -خصوصا مع اكتشاف الطابع الوهمي للإندماجيين-، مع الجفاف والجماعة الرهيبيين اللذين اجتاحتهم المغرب خلال سنة 1945 بشكل ساهم في ازدياد تقبل جماهير الملاحات للدعاية الصهيونية⁵، ذلك أن النشطاء الصهيانية الذين كانوا يعملون في إطار خلايا متميزة بدينامية عالية عملوا على استغلال هذه الظروف، في ظل قصور سلطات الحماية عن القيام بالمتعين لإنقاذ جماهير الملاح من البؤس، والتي كانت مناسبة مواتية بالنسبة لهم للترويج لبديل صهيوني يعد بالخلاص عبر إعادة بناء وطن قومي يهودي بفلسطين بديلا وحيدا، ووسيلة مثلى لكل الآلام التي عانت منها الجماعات اليهودية، وكذلك لتحقيق الحلم التوراتي⁶. كما كانت الحركة الصهيونية تستفيد في ظل هذه الظروف من اللامبالاة المتزايدة لليهود الميسورين تجاه السواد الأعظم من جماهير الملاح⁷.

تطور النشاط الصهيوني بالمغرب سيعرف دفعة قوية مباشرة بعد الحرب العالمية الثانية بفضل تدخل المنظمات اليهودية الأمريكية العالمية في شؤون المغاربة اليهود بشكل كبير وبفعالية⁸، خصوصا بعد الإعلان عن تأسيس الدولة

¹Ibid, p. 64.

²Capitane Nollet, op. cit, p. 7.

³J. Bernos, op. cit, p. 56.

⁴محمد كنييب، **يهود المغرب 1912-1948...**، مرجع سابق، ص. 258-275.

⁵نفسه، ص. 250.

⁶نفسه، ص. 99.

⁷نفسه، ص. 100.

⁸D. Bensimon-Donath, **Evolution du judaïsme marocain**, op. cit, p. 93.

العبرية سنة 1948 عكس ما كان قبل ذلك¹. لقد أتى اهتمام المنظمات اليهودية الأمريكية بيهود المغرب ابتداء من هذه المرحلة* في سياق مواز لتزايد اهتمام الولايات المتحدة الأمريكية تدريجيا بقضايا الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، رغبة منها في احتلال مواقع حليفاتها المتقدمة بريطانيا العظمى².

لقد استفادت الدولة العبرية من هذا الأمر، لذلك استثمرت تل أبيب "الكرم" الأمريكي لتنفيذ برامجها القاضية بدفع يهود شمال إفريقيا إلى المهجرة نحو فلسطين، كما انتبعت أطر المنظمة الصهيونية الأمريكية، (ZOA) وهي أكبر تنظيم يهودي في العالم، تعمل في إطار مجلس الإنقاذ للقضايا الصهيونية (Emergency Committee for Zionist Affairs)-³ إلى أن المرحلة دقيقة فعلا، وأن العديد من المعطيات تسمح لها بالحركة "في واضحة النهار"، من أجل إعطاء السياسة الأمريكية في العالم العربي وجهة مطابقة للمصالح الإسرائيلية، دون أن يؤدي الأمر حتما إلى إلحاق الضرر بالمصالح الإستراتيجية الأمريكية الكبرى. ولتسهيل عملها وجعله أكثر فعالية في المناطق التي لا يستسيغ أهاليها لفظ "صهيونية"، جعلت المنظمة الصهيونية من الوكالة اليهودية والمؤتمر اليهودي العالمي وهيئات أخرى (تسميهم الأدبيات الصهيونية Operating arms)، أدواتها في الميدان، وزودتها بما تحتاجه من اعتمادات مالية وأطر بشرية⁴.

وقد كانت منظمة الجوانت⁵/American Joint Distribution Committee، من أبرز المنظمات اليهودية الأمريكية التي اهتمت بإفريقيا الشمالية بشكل فعلي ابتداء من سنة 1947، في إطار عام يهم مجموعة من الدول التي تنتمي إلى العالم "العربي" والإسلامي، مع منح أولوية خاصة لوضع اليهود في مناطق ذات مواقع إستراتيجية (إيران واليمن وشمال إفريقيا)⁶، خصوصا وأن 95 بالمائة من يهود الولايات المتحدة الأمريكية كانوا متصهينين، لهذا

¹ "تعود أسباب عدم اهتمام المنظمات والجمعيات والهيئات اليهودية الأمريكية بيهود المغرب، فضلا عن العرائيل الإدارية التي اجتهدت في حبكها السلطات الفرنسية، إلى أمرين: الأول هو اعتبار القانمين على المؤسسة الأمريكية بأن يهود المنطقة ليسوا عرضة لسياسة عدائية منهجية تطبقها الدولة أو هيئة سياسية معينة، والثاني هو اعتبارهم بأن سلطات الحماية تقوم "بالواجب" تجاه أقلية تربطها بالدولة الفرنسية علاقات تاريخية وثقافية. كما تجدر الإشارة إلى أن الهيئات الأمريكية سواء الرسمية أو الخاصة كانت تجهل "كل شيء تقريبا" عن المغرب وعن أوضاع المغاربة. ولم تكن النخب اليهودية المغربية من جانبها تملك الجرأة الكافية للاتصال بيهود أمريكا وإقناع منظماتهم بتقديم الدعم المادي والمعنوي. فالتنظيمات المغربية اعتمدت أساسا على دعم السلطات والمؤسسات الإنسية الفرنسية، وهو دعم ضعيف من حيث الحجم ودون جدوى من حيث الفعالية". محمد حاتمي، "الجمعيات اليهودية المغربية زمن الحماية"...، مرجع سابق، ص. 206-207.

² "يعتبر لويس برانديس Louis D. Brandeis من أهم المفكرين اليهود في أمريكا الذين نظروا لما يجب أن تكون عليه العلاقات بين يهود العالم الجديد واليشوف. وقد عمل برانديس في مداخلات عديدة على التخفيف من حدة الشعور بالذنب لعدم القدرة على اتخاذ القرار الحاسم القاضي بالرحيل إلى فلسطين-وهو شعور ينتاب من حين لآخر العديد من يهود أمريكا-، عبر تقديم حلول مختلفة تجعل يهود أمريكا يعتقدون في صهيونيتهم ويفعلون مبادئها. وأكد برانديس على "أن الولاء للولايات المتحدة الأمريكية يفرض على يهودها أن يكونوا صهاينة"، وهي مسألة تقتضي "التنظيم ثم التنظيم العالم". محمد حاتمي، الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية وهران المغرب المستقل...، مرجع سابق، الهامش رقم 1، ص. 118.

³ نفسه، ص. 117.

⁴ نفسه، ص. 117.

⁵ نفسه، ص. 118.

⁶ منظمة الجوانت كانت توازي عملها الإحساني في مجال الخدمات الاجتماعية بالدعاية الصهيونية.

D. Bensimon-Donath, *Evolution du judaïsme marocain...*, op. cit, p. 94.

⁶ محمد حاتمي، "الجمعيات اليهودية المغربية زمن الحماية"...، مرجع سابق، ص. 207.

قاموا بدعم كبير للأنشطة الإحسانية عبر مساعدة O.R.T و O.S.E، التي كان يتم خلالها بث الدعاية الصهيونية، خاصة وأن اليهودية الأمريكية كانت الأغنى على المستوى العالمي¹.

تزايد اهتمام اليهودية الأمريكية بيهود المغرب جاء في أعقاب نشر المؤتمر اليهودي العالمي سنة 1947 تقريراً مفصلاً، حول أوضاع هؤلاء مشدداً في خلاصاته على تدني ظروف عيش اليهود بالمغرب وحاجتهم العاجلة إلى المساعدة العاجلة². إثر ذلك عقد "الجوانت" المركزي مجموعة من الاجتماعات العاجلة بغرض عرض الخطوط العريضة لبرنامج عمل استثنائي استهدف، أساساً، جعل قضية يهود المغرب قضية عمومية. وقد كانت أولى القرارات التي اتخذتها اللجنة الخاصة هي تنفيذ حملة دعائية تستهدف الرأي العام الأمريكي، ومن خلاله الرأي العام في دول العالم الحر³. وانطلقت الحملة فعلاً في بداية سنة 1948، وسخرت لها اعتمادات مهمة وساهمت فيها العديد من قنوات التأثير من أهمها جريدة نيويورك تايمز التي قامت بتقديم معطيات تفتقر للحذر في تناول الموضوع⁴.

هذا التعاطي الإعلامي أدى إلى ردة فعل فرنسية، حيث سعت السفارة الفرنسية في واشنطن إلى تقديم معطيات وأرقام أخرى، من أجل تقديم صورة أقرب إلى الحقيقة⁵. وقبل مباشرة "الجوانت" عبر فرعه بباريس في تنزيل مشاريعه بالمغرب، قام في خطوة أولى برصد حجم احتياجات المؤسسات الخيرية والتنظيمات الجمعوية ذات المصداقية وتحديدتها، كما سارع إلى ربط الجسور مع الهيئات "المعترف بها قانونياً"، والتي كانت تربطها بالسلطات الفرنسية والمخزنية علاقات متميزة⁶. وقد حددت هذه الجمعية الأمريكية مجال تدخلها في كل ما من شأنه المساهمة في الرفع من مستوى الخدمات الصحية ومساندة الأعمال المدرسية والخيرية⁷، لذلك ركزت "الجوانت" أنشطتها على الأعمال الاجتماعية عبر إيلاء عناية خاصة لتأطير الشبيبة اليهودية في الميادين التقنية والتطبيب وتقديم الخدمات الصحية⁸. لقد أولت "الجوانت" التنظيمات الخيرية التقليدية عناية متميزة، إلا أن برامجها ركزت بشكل كبير على التنظيمات العصرية المهتمة بالشبيبة وإعطائها مفاهيم فضفاضة، لتضم كافة الطاقات الجديدة من الرضاعة حتى النضج، ولتشمل

¹M. Nouvel, op. cit, p. 14.

²محمد حاتمي، الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية وهران المغرب المستقل...، مرجع سابق، ص. 140. نفسه، ص. 140-141.

⁴ولخص أحد المتتبعين للحملة فحواها كما يلي: "قبل للأمريكيين بأن اليهود في الجزائر والمغرب وتونس وليبيا- وهي بلدان إسلامية- يعيشون في ظروف "غير إنسانية". ودأب "الجوانت" على تقديم تقارير تسهب في التعليق على "المعدل العالي" لوفيات الرضع والأطفال مؤكدة على أنها تصل في بعض المناطق إلى 50 بالمائة، وتعرض لمظاهر البؤس والفاقة والأمية، وهي أمور شددت على أنها تزيد عيشة يهود "المغرب والجزائر" شقاء، فضلاً عن كونهم أصلاً "مكروهين ومضطهدين". ووصفت هذه التقارير السكن اليهودي بأقبح الأوصاف، فنعتته بأنه أشبه بالأكواخ المتجمعة في غيتوهات لا يمكن لليهود العيش إلا داخلها، وأجملت الحملة الدعائية حياة اليهود في المنطقة بأنها تمثل ألفي سنة من الحقد والمعاملة اللاإنسانية...". نفسه، ص. 207-208.

⁵نفسه، ص. 141.

⁶محمد حاتمي، "الجمعيات اليهودية المغربية زمن الحماية"...، مرجع سابق، ص. 208.

⁷محمد حاتمي، الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية وهران المغرب المستقل...، مرجع سابق، ص. 140.

⁸محمد حاتمي، "الجمعيات اليهودية المغربية زمن الحماية"...، مرجع سابق، ص. 210.

دائرة الأنشطة والتأطير والتوجيه جميع الأمور التي من شأنها المساهمة في "صنع" الإنسان اليهودي الصالح والقادر على تحمل مسؤوليات كبرى سواء أرحل إلى أرض الميعاد أم بقي في المغرب¹.

ومن أجل النجاح في مهمته الموكلة إليه وتمكين الجهات المستقبلية "الخيرية والغير خيرية" من المساعدات والدعم، كانت الجوانت حريصة ألا تظهر من قريب أو من بعيد مدعمة أو مناصرة بل وحتى متفقة مع تنفيذ أي نشاط لا ترغب فيه الإدارة الفرنسية أو تناهضه السلطات المخزنية. وتأقي الدعاية والعمل الصهيوني بشتى أنواعه على رأس هذه الأنشطة، وهو ما جعل الجوانت تحجم عن ربط علاقات رسمية مع الفيدرالية الصهيونية المغربية². بناء عليه كان شرط "الجوانت" أن يحرص المتعاملون معها على الامتناع عن الترويج علنا للأفكار الصهيونية، بل وحتى الإحالة عليها في خطاباتهم الخيرية والتربوية³. انسجاما مع هذه الإستراتيجية تفادت "الجوانت" التعامل -على الأقل رسميا- مع التنظيمات المستوردة ذات التوجه الصهيوني الصريح مثل "درور إيسيرتسيون"⁴ و"كارين كيانات لإسرائيل"⁴. مقابل ذلك كانت "الجوانت" حريصة على المستوى الغير الرسمي، عبر شبكة ملتوية من الاتصالات، على القيام بكل ما من شأنه الاستجابة لطلبات المساعدة اللوجيستكية التي قدمتها الهيئات الصهيونية⁵، مستفيدة في ذلك من التساهل الذي صارت تعامل به من طرف سلطات الحماية الفرنسية⁶، بالمقارنة مع المرحلة السابقة على الحرب العالمية الثانية.

ومن أهم الجمعيات التي اختارت "الجوانت" احتضانها نذكر أورت *ORTE التي حظيت بنصيب كبير من المساعدة والدعم منذ تأسيس فرعها المغربي فور نهاية الحرب العالمية الثانية⁷، وهو ما دفعها إلى توظيف تجربتها الطويلة

¹ محمد حاتمي، **الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية وهران المغرب المستقل...**، مرجع سابق، ص. 145. نفسه، ص. 141.

² محمد حاتمي، **"الجمعيات اليهودية المغربية زمن الحماية"**، مرجع سابق، ص. 212. *دور إيسيرتسيون / DrorIsereTson: وتعني التسمية باللغة العبرية "حركة الشبيبة اليهودية، وهو تنظيم تأسس في فلسطين، وخلق له فروعا في جميع أنحاء العالم. ويمثل تيارا علمانيا اشتراكيا، اختار شعار "تحقيق الحرية لشبيبة صهيون". ووضع هذا التنظيم نصب عينه الهجرة نحو فلسطين. وفي انتظار موعد الهجرة، عمل على "تربية الشبيبة اليهودية" وتهيتها وتعليمها مهنيا وعلميا لتسهيل إدماجهم في المزارع الجماعية في فلسطين. وتأسس الفرع المغربي سنة 1948، إثر انشقاق داخل صفوف جمعية "شارل نتير". وكان المؤسسان هما سام أبيطبول Sam Abitbol وسويسة سالمون Suissa Salomon، إلا أنهما ما لبثا أن هاجرا إلى فلسطين. وترأس التنظيم دودو سالومون Dodo Salomon، (كان يقيم بالدار البيضاء)، وفكتور حكيم Victor Hkim، وهو يهودي مصري مستقر بالدار البيضاء كان عضوا في المجلس المركزي للفيدرالية الصهيونية بالمغرب. ولم يلق التنظيم النجاح في المغرب لأن أغلبية اليهود اعتبروا ممارساته "تهديدا للعادات والتقاليد والتعاليم الدينية". محمد حاتمي، **الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية وهران المغرب المستقل...**، مرجع سابق، الهامش رقم 04، ص. 144-145.

³ محمد حاتمي، **"الجمعيات اليهودية المغربية زمن الحماية"**، مرجع سابق، ص. 212. نفسه، ص. 208.

⁴ روبرت أصراف، **محمد الخامس واليهود المغاربة...**، مرجع سابق، ص. 247. *أسست هذه المنظمة بروسيا سنة 1880، ثم نقل مقرها إلى برلين سنة 1920، ثم إلى جنيف فيما بعد. محمد كنيبي، **يهود المغرب 1912-1948...**، مرجع سابق، ص. 256.

⁵ كانت تشترط الأورت على أفراد كل جماعة تريد إحداث مدرسة مهنية المساهمة بـ 50 بالمائة، على أن تساهم هي الأخرى بـ 50 بالمائة المتبقية، وبناء عليه، كانت تشترط على كل جماعة راغبة في التعاون، من أجل الحصول على هذه المساعدة، تأسيس شركة تحمل اسم O.R.T، على أن يتولى المسؤولون البارزون عن الجماعة إدارتها [...] ومن أجل تنشيط العمل لم يكن الأمر يتطلب في نظر الأورت مدرسة بحجم كبير، بقدر ما كان يجب أن تكون هناك إمكانية للقيام بهذا العمل بشكل منظم، كما اقترحت ضرورة تحقيق الانطلاقة بالمتاح من المدرسين المهنيين، مع ضرورة الأخذ بعين الاعتبار احتياجات بلد الإقامة، فضلا عن ضرورة توفر الآلات وكلفة تركيبها بالإضافة إلى المدرسين.

P. Cohen, **Congres Juif Mondial...**, op. cit, p. 115-119.

التي اكتسبتها في تأطير "غيتوهات" أوروبا الشرقية¹ فضلا عن فرنسا. وكان الغرض الأساسي لأورت في بداية عهدها بالمغرب هو مساندة مجهودات الأليانس والتركيز على التكوين المهني والتقني للقضاء على التسول²، والإسهام في الرفع من مستوى عيش المغاربة اليهود الكادحين عن طريق تلقين الأطفال الصغار مهنا مهنة يدوية³. ومباشرة بعد توقيع الأورت لاتفاق شراكة مع "الجوانت"، قامت بتكثيف أنشطتها الهادفة إلى "إنقاذ" أكبر عدد ممكن من الأطفال الذين لم يتلقوا تعليمًا في المدارس العصرية أو فشلوا في متابعة دراستهم الابتدائية، وذلك بتمكينهم من تعلم حرف واحدة خلال مدة تكوين قصير (ثلاث سنوات)، بهدف تكوين أطر تقنية موجهة لخدمة الصهيونية⁴، لذلك راعى واضعو برامج التعليم تضمينها عناصر محفزة تدفع بالمتعلم للتفكير جديا في "الرحيل صوب إسرائيل"، كما أنهم خصصوا قسطا من ميزانية الجمعية لتمويل هجرة التلاميذ المتفوقين (122 مليون فرنك سنة 1954)⁵.

لقد دشنت "الجوانت" وفق نفس المنطق، برنامج عمل طموح مع أوص/ O.S.E* (عنيت بالخدمات الطبية وتعليم طرق التربية)، فأصبحت سنة 1953 الداعم الرئيسي لأنشطتها (بمعدل 90 بالمائة من ميزانيتها)⁶. تجدر الإشارة إلى أن الأعمال الخيرية الإحسانية التي كانت تقدمها هذه المنظمات كانت تبدو وكأنها تصب في اتجاه استمرارية التجذر والتواجد اليهودي بالمغرب، لكنها كانت في حقيقة الأمر تجليات للبعد الإحساني للمنظمات الصهيونية⁷، التي كانت تعمل بخطط مدروسة من أجل تهيئ المرشحين للهجرة، خصوصا وأن ذلك تزامن بعد الحرب العالمية الثانية مع الشعارات التي رفعها الصهاينة، إلى درجة نسيت معها، تقريبا الجماعات اليهودية بالمغرب أن تلك الخطوب التي تعرض لها اليهود بأوربا، لم تصبها بأذى، وبأن سنتي المحنة التي عانت منها بسبب قوانين فيشي، كانت عديمة الأثر تقريبا، حتى بالمقارنة مع ما عاناه منها إخوانهم في الدين بكل من الجزائر وتونس⁸.

كما أولت "الجوانت" أهمية خاصة لجمعية شارل نيتير التي تمزت بأنشطتها وخدماتها لصالح تأطير الشبيبة اليهودية، وكذا في ميدان الإعلام بإصدارها أهم جريدة يهودية في المغرب بعد الحرب العالمية الثانية ونقصد بذلك جريدة Noar/النوار⁹ التي سبق وتحدثنا عنها. لقد تأسست هذه الجمعية بمدينة الدار البيضاء سنة 1930، وقد تمثلت أهدافها فيما يلي:

¹ محمد كنيبي، **يهود المغرب 1912-1948**...، مرجع سابق، ص. 258.

² محمد حاتمي، **الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية وهران المغرب المستقل**...، مرجع سابق، ص. 146.

³ E. Goidan, op. cit, p. 67.

⁴ ibid, p. 67.

⁵ محمد حاتمي، **"الجمعيات اليهودية المغربية زمن الحماية"**...، مرجع سابق، ص. 214-215.

⁶ مؤسسة غوث الأطفال تأسست بمدينة سانبيترسبورغ سنة 1912 من طرف مجموعة من الأطباء من أجل تقديم الدعم للأطفال المحتاجين.

R. Devico, op.cit, p. 165.

⁷ محمد حاتمي، **الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية وهران المغرب المستقل**...، مرجع سابق، ص. 147.

⁸ محمد كنيبي، **يهود المغرب 1912-1948**...، مرجع سابق، ص. 267-268.

⁹ نفسه، ص. 256.

⁹ محمد حاتمي، **"الجمعيات اليهودية المغربية زمن الحماية"**...، مرجع سابق، ص. 215.

- ✓ تشجيع ونشر الآداب والفنون وممارسة الرياضة من طرف الشباب اليهود.
- ✓ تمكين المنخرطين من الترفيه والتسلية المفيدة .
- ✓ ضمان انتماء أكبر عدد ممكن من الشباب اليهود للحضارة الفرنسية.
- ✓ زرع وتكريس الاحتفال بذكرى الفقيه شارل نيتير، الرجل الفرنسي واليهودي العظيم أحد مؤسسي الرابطة الإسرائيلية العالمية، ومؤسس أول مستعمرة فلاحية بفلسطين¹. كما أكدت في بندها التاسع من قانونها الأساسي على ضرورة التزام أعضائها بعدم الخوض في أي نقاش ذي طبيعة سياسية أو دينية في مقر الجمعية².

لقد كانت برامج هذه الجمعية مفتوحة أساسا أمام متعلمي الأليانس الذين أسسوا سنة 1934 "فيدرالية جمعيات قدماء تلامذة الأليانس"، فبلغ عدد فروعها قبيل الحرب العالمية الثانية 16 فرعا³. كما أصبحت جمعية شارل نيتير أكبر جمعية للشبيبة اليهودية بالمغرب خلال النصف الثاني من الأربعينات. بحيث نجحت في استقطاب الفئات الصغيرة واليا فعة في المدن أساسا بفضل احتضانها للتنظيمات الكشفية التي كانت تلقن هؤلاء -تحت إشراف أطر شارل نيتير- مبادئ تدعو إلى خدمة اليهودية الوطن، لكنها في الحقيقة كانت خلايا صهيونية صغيرة موجهة من طرف شارل نيتير التي صارت منذ هذه المرحلة توجه أعضائها إلى التعاطف مع الأفكار الصهيونية الأكثر تشددا⁴.

كما أنها ربطت اتصالات مستمرة مع تنظيم Pael Hamizrahi العلماني الاشتراكي، وهو من التنظيمات الصهيونية في فلسطين.

هذا وقد استلهمت فرق الكشفية اليهودية وسائل عملها من التنظيمات الصهيونية في اليشوف⁵. أما الحلقات التكوينية التي كانت تقام عادة خلال الرحلات والمخيمات، فقد اعتمدت أسلوب المحاضرات التوجيهية التي يليها نقاش حر، وهو منهج أثبتت جميع المعايير البيداغوجية العصرية إيجابية مردوديته، لأنه يجعل المتلقي من تلقاء نفسه يأخذ منحى فكريا ينبذ الروابط التقليدية لصالح انتماءات واسعة تعبد الطريق للإيمان بالأفكار الصهيونية⁶. بناء على ما سبق يتضح بأن تدخل المنظمات الدولية ذات التوجهات الصهيونية في تأطير التنظيمات الخيرية والجمعيات التربوية للمغاربة اليهود كان له دور مهم في إعدادهم للاستقطاب، على مراحل، لصالح مشروع الحركة الصهيونية في اتجاه الهجرة إلى فلسطين.

¹ E. Goidan, op. cit, p.124.

² Ibid, p.125.

³ محمد حاتمي، الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية وهران المغرب المستقل...، مرجع سابق، ص. 148.

⁴ E. Goidan, op. cit, p. 71.

⁵ محمد حاتمي، "الجمعيات اليهودية المغربية زمن الحماية"...، مرجع سابق، ص. 216.

⁶ محمد حاتمي، الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية وهران المغرب المستقل...، مرجع سابق، ص. 148.

أما مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية فقد كانت مليئة بالأحداث المتفرقة، ساهمت في توفير بيئة حاضنة للدعاية الصهيونية، ومن أهم الوقائع التي تندرج في هذا السياق نذكر أحداث وجدة وجردة التي اندلعت صيف 1948 بسبب تفاعل مجموعة من العوامل المحلية والدولية¹. وهكذا بدأت المواجهات التي كانت هذه المدينة مسرحاً لها بشكل عفوي في صباح 7 يونيو 1948 إثر حادثين مستقلين بمدينة وجدة، كان لهما أثر مباشر في إثارة عموم المسلمين ضد اليهود². انتشار خبر الأحداث التي جرت بمدينة وجدة وجردة المجاورة بعد وقت قصير أدى إلى انطلاق الجماهير من عقلاها، خاصة وأن الميدان كان مهياً بدوره للاشتعال، بعدما انتشرت إشاعات مفادها أن "يهود وجدة قتلوا مسلمين" وأنه "تم هدم مئذنة المسجد الكبير"، مما أدى إلى اشتعال الغضب الذي لم يكن يحتاج سوى إلى الشرارة التي تمثلت في شجار بسيط بين مسلم وعارض يهودي باع له ورقة يانصيب خاسرة³، فكانت النتيجة تجمع جماعة من عمال المنجم (2000 شخص) في وسط المركز، تم توجيهت صوب مساكن اليهود فهاجمتها مستغلة ظلام الليل، فبلغ العنف درجة أعلى بكثير مما وقع في وجدة⁴.

هذه الأحداث العنيفة أدت في مدينة وجدة إلى مقتل خمسة يهود منهم، اثنان يحملان الجنسية الفرنسية، وثلاثين جريحاً من بينهم ستة في حالة خطيرة. أما في مركز جردة فالحصيلة كانت أشد، ذلك أن عدد القتلى وصل إلى 37 قتيلاً، من بينهم فرنسي واحد و16 مسلماً، والباقيون يهود كلهم أطفال ونساء وأغلبهم ينتمون إلى عائلة ربي الجماعة. كما بلغ عدد من اعتقلتهم السلطات المحلية وأحالتهم على القضاء 215 شخصاً كلهم مغاربة مسلمون⁵. لقد تعددت الروايات حول الجهة المسؤولة عن هذه الأحداث الدامية، فهناك من اتهم الوطنيين المغاربة المسلمين بذلك، على أساس أن غضبهم ضد اليهود كان بسبب انتشار جو من التوتر جراء اندلاع الحرب العربية

¹ "في إطار سعي المقيم العام جوان وصديقه بونيفاس، الذي كان قد عين رئيساً لمنطقة الدار البيضاء، بعد حذف مديرية الشؤون السياسية سنة 1946، إلى دراسة الوسائل القمينة بالخط من شأن السلطان محمد بن يوسف في أعين الرأي العام الفرنسي ولدى رعاياه المغاربة [...] لم يغفلا دراسة" فرضية عمل "أخرى تتمثل في استغلال ما قد يقع من مواجهات بين الجماعيتين المسلمة واليهودية بسبب الصراع القائم في فلسطين، ولم يكن أي احتمال من هذا القبيل يقلقهم على أرجح الظن، ويرجع ذلك إلى حد ما إلى أن الرجلين، كما هو الشأن لبقية "فريق قسنطينة"، قد احتفظا منذ إقامتهما بالجزائر بأحكام مسبقة قوية، مناهضة للعرب واليهود على حد سواء. [...] ولم يكن من المستبعد في مثل هذه الظروف تورط مصالح الإقامة العامة بشكل أو بآخر، في المؤامرات التي أدت إلى اندلاع أحداث وجدة. فقد كانت هذه المدينة مهياً بالفعل لكل أنواع الاستفزاز، وهو أمر كان معروفا لدى السلطات، خاصة بعد التقرير الذي أنجزته مصالح الاستعلامات، وأوضحت فيه بأن هذه المدينة كانت في الوقت نفسه "مكاناً لتجمع المهاجرين الصهاينة الذين يبحثون عن عمل خلال موسم الحصاد بالغرب الجزائري و(يشكلون"، باعتبار هشاشة وضعهم الاجتماعي، مجموعة سهلة الاستثارة". محمد كنيبي، **يهود المغرب 1912-1948**، مرجع سابق، ص. 281-282.

² "يتعلق الحادث الأول بتطويق مجموعة من المسلمين ليهودي أعزل (البيبر بنسوسن) يعمل حلاقاً في مدينة وجدة بتهمة محاولة المرور إلى الجزائر ومنها الهروب نحو فلسطين، وكانت حجتهم هي حمله لقربة مملوءة بالماء. تبعد تدخل قوى البوليس لتخليص بنسوسن، توجهت الجماعة إلى دار المخزن لتقدم شكاية ضد مرونة السلطات المحلية-الفرنسية والمخزنية- في زجرها لمحاولات مرور اليهود المغاربة صوب الجزائر. أما الحدث الثاني، فوقع في ساحة العطارين في الساعة التي تلت الحدث الأول، حين طعن شاب يهودي تاجراً مسلماً (بنكيران) بسبب خصام بينهما. وسارع بنكيران إلى طلب مساعدة تجار يهود مجاورين لمحلّه (الأخوة مارتشيانو) الذين خلال تقديمهم الإسعافات الأولية، اعتبرتهم المارة والمتجمهرون بالمكان المسؤولين عن العدوان. وقد تدخل البوليس لاحتواء الحادثة، إلا أن خبر اعتداء أحد اليهود على مسلم شاع بسرعة في الأحياء المجاورة ثم في أرجاء المدينة والدواوير القريبة، فكان له أثر فوري في تجمهر المسلمين واندلاع موجة من الغضب استهدفت اليهود المغاربة في الأزقة وفي منازلهم". محمد حاتمي، **الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية وهران المغرب المستقل**، مرجع سابق، ص. 243.

³ محمد كنيبي، **يهود المغرب 1912-1948**، مرجع سابق، ص. 285.

⁴ محمد حاتمي، **الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية وهران المغرب المستقل**، مرجع سابق، ص. 244.

⁵ نفسه، ص. 246.

الإسرائيلية التي جعلتهم يرفضون الهجرة السرية لليهود نحو إسرائيل لأن التحاق هؤلاء بإخوانهم في الدين بفلسطين يعد اصطفافاً منهم إلى جانب العدو ضد الفلسطينيين¹، وهو شعور زاد في حدته الخطاب الذي كان قد أدلى به سلطان البلاد والذي أكد فيه على دعم الشعب المغربي للنضال العربي في الشرق الأوسط². في حين رأى آخرون أن ما حدث كان بتخطيط من طرف رئيس الجهة " برونيل" * بالتنسيق مع سلطات الحماية، في إطار البحث عما يمكن من خلاله إضعاف السلطان والوطنيين، من أجل تقديم المغرب على أنه بلد غير جدير بالحصول على الاستقلال³. بل وثمة رأي آخر حمل المسؤولية فيما حدث للنشطاء الصهيونية، بناء على تواجد عملاء إسرائيليين في وجدة، إذ كانت المنظمات الصهيونية تلجأ بصفة عامة إلى تبني أساليب مشابحة لتنظيم عمليات اجتثاث اليهود، كما وقع في البلدان العربية الأخرى ونقلهم إلى فلسطين، خاصة في اليمن والعراق من خلال عمليات " أجنحة النسر" و "البساط الطائر" و "علي بابا"⁴.

¹ يرى محمد حاتمي بأنه من الصعب الاعتقاد بأن السبب الرئيسي والوحيد لاندلاع أحداث العنف هو سعي المسلمين للتعبير عن تضامنهم مع إخوانهم الفلسطينيين. بديهي أنه كان لهزيمة الجيوش العربية في حربها ضد " العصابات الصهيونية في فلسطين" وقع مباشر على ميالي المناطق الشرقية، إلا أن الشعور بالمرارة مهما بلغت درجة حدته، ما كان ليدفع بالآلاف المتظاهرين إلى اجتياح مجالات اليهود والتكفل بهم. إن مراكز حضرية و عمالية كثيرة تعرف اكتظاظاً يهودياً مهماً ونشاطاً صهيونياً ظاهراً يقابلها تأطير وطني فعال – مثل فاس والدار البيضاء-، كانت مؤهلة أكثر لتشهد أحداثاً محفزة الرئيس هو النعرة القومية. ومع ذلك، ظلت مظاهر التضامن بها في حدود معينة ولم تتعد التظاهر وتجميع المعونات وإقامة اللقاءات الخطابية. ثم إن أقطاراً عربية وإسلامية أخرى أقرب مركز الحدث كبلاد الشام ومصر، بالرغم من أن مدنها عرفت حركات احتجاج شعبية، لم تقع بها أحداث عامة استهدفت جماعات يهودية. ولا يمكن كذلك التسليم بتهمة تأطير حزب الاستقلال للعنف وتديره لمسلسل الرفع من حدة التوتر وفق مخططات مسبقة. حتى وإن افترضنا أنه كان موازراً ومدعوماً من جهات أجنبية، فلم يحص قط أن نادت الأطر الحزبية بصب جام الغضب على اليهود/ كما أن الهياكل الإقليمية للحزب في هذه المرحلة لم تكن منظمة ومنضبطة بدرجة تسمح بالتخطيط لعمليات كبيرة. ثم إن الفعاليات الوطنية كانت على بينة من العديد من الحقائق التي لها علاقة بحجم قوات الأمن في المنطقة ومدى استعدادها للتدخل، وبالتالي لم يكن في مصلحتها اختلاق اضطرابات تؤدي إلى الوقوع في يد أجهزة الأمن الفرنسية. انظر: محمد حاتمي، **الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية وهران المغرب المستقل...**، مرجع سابق، ص. 247-248.

² نفسه، ص. 241.

* كما أن يهود وجدة بأنفسهم شكوا في تورط برونيل، ولإزالة هذه شكوك المحيطة به، اقترح عليهم هذا الأخير 5000 تأشيرة خروج، مقابل موافقتهم على أن لا يشيروا إلى اسمه في محاكمة المثيرين للشغب حتى يقتصر الأمر على مجرد أشخاص (كمبارس) عادييين لنفاذي حضور شهود مزعجين."

M. Kenbib, **Juifs et Musulmans au Maroc...**, op. cit. p. 172-174.

³ لقد كان برونيل "يجر وراءه ماضياً مناهضاً للسامية، وهي سمعة اكتسبها غداة نزول الأمريكيين بالمغرب". لقد من المفروض أنه اتخذ الإجراءات الوقائية التي كانت تفرض نفسها، ليس فقط بالنظر لجو التوتر الذي خلقته أحداث فلسطين والهجرة السرية لليهود، وإنما أيضاً بسبب أيضاً بسبب إضراب عمال مناجم جرادة، ونشاط الحزب الشيوعي المغربي في عين المكان- الذي كان عدد لا يستهان به من مناضليه المحليين يهود فرنسيين (من الجزائر) ومغاربة- وبسبب اتصالات مناضلين من حزب الاستقلال مع قبائل بني يزناسن، والتنقل الدائب عبر الحدود لوطنيين جزائريين، ولمهريين كانوا ينتقلون بين مليلية ووجدة والغرب الجزائري. غير أن برونيل اهتم على ما يبدو، بالأساس بمضاعفة الاستنزافات الكفيلة بمنحه فرصة سانحة لتوجيه ضربة للوطنيين والنقابيين في نفس الوقت، وذلك على الأرجح بتواطؤ مع كل من المقيم العام، ومدير الداخلية الجديد جاك دوبلسون Jacques de Blesson، وهو بدوره " جزائري" من الأوفياء لبونيفاس، الذي كان يعتبره (رب المغرب بعد الله) وجان دوتوي (Jean Dutheil) وهو " مناهض فظ للسامية". وكان اهتمام هذا الفريق ينصب بكيفية متزايدة على صلاية الاضطرابات التي كانوا يعتبرونها " سياسية" بالنظر إلى الهيمنة المتزايدة لحزب الاستقلال على الدوايب الرئيسية للاتحاد العام للنقابات المغربية المتحدة (الفرع المغرب للكونفدرالية العامة للشعب CGT الذي أعيد تأسيسه سنة 1946. [...] كما أن الاستخفاف الذي قابل به برونيل تحذيرات الأعيان اليهود الذين أبلغوه بالشائعات الرانجة حول قرب حدوث اضطرابات خطيرة كان بدوره أمراً مشبوهاً، وأخير فيدل بقاءه في مقر عمله غاب عنه صبيحة يوم 7 يونيو بدعوى حضور زفاف بنت أحد معمرى تاوريرت [...] وبدوره كتب أحد عملاء المصالح السرية الإسرائيلية الذي كان موجوداً في عين المكان قائلاً: " كان الفرنسي جان برونيل، يبحث عن وسيلة لصرف اهتمام عرب المغرب عن نضالهم من أجل الاستقلال، وكان في سبيل ذلك دعماً لعناصر مناهضة للسامية، وأخرى متعاطفة مع الجامعة العربية، كما كان يرشي في الخفاء عدداً من العرب قصد القيام بأعمال عنف ضد اليهود". وأكد صاحب هذا التقرير على أن العناصر المتورطة في الأحداث، كانت تعمل بكيفية منهجية بتحريض من محركيها، إذا قام " المرتزقة العرب العاملون لحساب برونيل في اليوم السابق للقتال (6 يونيو) بوضع علامات بالبشائر على أبواب متاجر اليهود المغاربة فقط". محمد كنيبي، **يهود المغرب 1912-1948...**، مرجع سابق، ص. 283-284.

⁴ نفسه، ص. 287.

غير أنه بالنظر لتعدد الروايات حول هذه الأحداث، يمكن الجزم أن أحداث العنف التي وقعت لم تكن نتيجة مباشرة لسبب واحد بعينه، بقدر ما كانت تحصيل حاصل لتعدد مصادر الغضب الشعبي التي تراكمت مظاهرها خلال مدة طويلة قبل أن تنفجر في شكل تمرد عفوي وجماعي استهدف الفئات الأقل حماية، لأنها غير قادرة على الدفاع عن نفسها، ولأن الاعتقاد الذي أضحي سائدا منذ ضبط العديد من اليهود الراغبين في الهجرة إلى فلسطين عبر الطريق الشرقية، هو أن كل صهيوني كامن بالقوة ويستوجب محاربته* ومنعه من إلحاق الضرر بالمسلمين. لعل ما يؤكد هذا الطرح أن اليهود استهدفوا في أرواحهم، حين لم يتعرض الغاضبون لأي رمز من رموز الدين اليهودي حيث لم تدنس بيعة ولا مقبرة¹.

لقد أدت هذه الأحداث إلى إشاعة جو من القلق والخوف في صفوف المغاربة اليهود بمختلف المناطق، بشكل أدى إلى تعزيز أطروحة الدعاية الصهيونية، حيث لم تتردد المنظمات والهيئات اليهودية والصهيونية العالمية في استغلال هذه الأحداث المأساوية باعتبارها فرصة ذهبية للضغط على إدارة الحماية، من أجل بلورة وتفعيل برامج استقطاب جديدة في أفق تعزيز خيار هجرة المغاربة اليهود نحو إسرائيل على أساس أن الدولة العبرية هي الكفيلة بتوفير الأمن والراحة للمنعدين بالمغرب، وهما أمران يستحقان التضحية بالمكاسب الاقتصادية في المغرب².

لقد شكلت أحداث المغرب الشرقي منعطفا في سيرة الأليانس في تعاملها مع الشأن العام اليهودي بالمغرب، ذلك أن الإدارة المركزية بباريس والمندوبية في الدار البيضاء اعتبرا ما وقع هزيمة أخلاقية لهما واندحارا للمثل والمبادئ التي طالما اجتهدت الأطر التربوية في الدفاع عنها، وعملت منذ عقود على تحقيقها وإعطائها قوة فعلية. إن طبيعة الأحداث ودرجة العنف والاندفاع الكامل للمسلمين وعجز السلطات الفرنسية على مواجهة العنف، أمور بدت وكأنها تعطي الدليل لخصوم الأليانس بنهاية أسطورة اليهودي المتعلم المندمج في المجتمع الذي تقوم فرنسا على حمايته وضمان انسجام عناصره³، مما أدى في النهاية، بالتفاعل مع العوامل السابقة، إلى تمكين النشاط الصهيوني من تسريع مسلسل تصهين خريجي مدارس الأليانس، وعموم المغاربة اليهود⁴ الذين صاروا أكثر قابلية لركوب خيار الهجرة نحو أرض الميعاد، خصوصا بعد الإعلان عن تأسيس الدولة العبرية بتاريخ 14 ماي 1948.

*"وقد كان هذا الموقف يسير بموازاة مع اعتبار كل اليهود صهاينة طبقا لمواقف حزب الشورى والاستقلال (على عكس مواقف حزب الاستقلال الحذرة). ففي المصطلحات الجديدة لهذا الحزب، لم تعد الملاحظات إلا " حارات صهيونية". وفي معرض تعليقه على البلاغ الملكي ليوم 23 ماي، هدد محمد العربي العلمي، أحد زعماء هذا الحزب، اليهود دون موارد بإجراءات انتقامية، " فالشعب المغربي- على حد قوله- لا يمكن أن يبقى مكتوف الأيدي أمام التجنيد الإرادي (لليهود) ورحيلهم نحو فلسطين" و" التضامن الكامل لليهود في هذه القضية سواء كانوا صهاينة أم لا. هذا إذا افترضنا أنه لا يزال هنالك يهود غير صهاينة". نفسه، ص. 289-290.

¹محمد حاتمي، **الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية وهران المغرب المستقل...**، مرجع سابق، ص. 248.

²نفسه، ص 248-249.

³نفسه، ص. 249.

⁴"ربط دعاة الصهيونية من جهة أخرى، بين ما كانوا يسمونه ب" بمذابح وجدة وجراة" ب" مذابح فاس" (1912)، بل ذهب بهم الأمر إلى حد اعتبار بعض المسلمين مسؤولين عن مشروع الإبادة الجماعية لليهود الذين خطط له فرنسيون ينتمون إلى اليمين المتطرف سنة 1942 بالدار البيضاء. وتمكنوا على هذا النحو من التقليل من أهمية الهدوء الذي خيم على كافة ربوع البلاد، بما في ذلك مثلا مدينة دبدو الصغيرة الصغيرة

وقد تعزز هذا الموقف أكثر بعد أحداث سيدي قاسم سنة 1954، حيث تعرض يهود مكناس الذين كانوا يعملون بهذه المدينة إلى اعتداء شنيع خلف في صفوفهم عدة ضحايا. وتجدد الإشارة إلى أن عددا من يهود هذه المدينة كانوا قد استقروا بهذه الأخيرة من أجل مزاولة أنشطة اقتصادية، خصوصا في قطاع التجارة والنقل¹. وقد كانت العلاقات بين يهود ومسلمي هذه المدينة "عادية" تتميز بالانسجام والتكامل، بشكل أعطى الانطباع بأن المدينة في منأى عن أسباب الاضطدام، وبناء عليه لم تعر السلطات المحلية - الفرنسية والمخزنية - أهمية لحملة قام بها ممثلون عن الحركة الوطنية - خاصة حزب الاستقلال - وفدوا على المدينة من الرباط ومكناس خلال الأسبوع الأخير من شهر يوليوز 1954، قصد تجنيد الصفوف للاحتفال بالذكرى الأولى لنفي السلطان محمد بن يوسف².

وفي هذا السياق دعا الوطنيون يوم 3 غشت إلى القيام بإضراب عام، وهو الأمر الذي كان يهود المدينة عازمون على الاستجابة له حرصا منهم على سلامتهم، غير أن شرطة المدينة أخبرتهم ألا شيء يدعو للخوف، لأنها ستتكفل بحفظ الأمن، الأمر الذي ثنأهم عن القيام بذلك³. وفي يوم 3 غشت، مباشرة بعد صلاة الفجر، تجمع حشد من سكان المدينة القديمة بعدما استمعوا لأحد المسلمين يصرخ بشكل هستيري ويدعوهم للاحتجاج، مما أدى إلى هيجان ذلك الحشد المتكون من حوالي 1000 شخص، والذين انتقلوا مباشرة إلى وسط المدينة الأهلية. ويعود السبب في تلك الأحداث إلى تمزيق إحدى صور للسلطان كانت ملصقة بأحد المحولات الكهربائية بمكان عمومي، وتعليقها بواجهة محل أحد اليهود، الأمر الذي أثار استياء المسلمين الذين راحوا يهتفون "عاش الملك"، وفي الوقت الذي حاول فيه شرطي إزالة تلك الصورة، ثم رميه بالحجارة مما اضطره للانسحاب، من دون أن يفكر في استعمال سلاحه لتفريق المحتجين⁴.

وفي الساعات الموالية، اتسعت رقعة المظاهرة وحجمها، مما فصح المجال أمام تجاوزات قامت بها عناصر غير منضبطة، استغلت الفوضى العامة للهجوم على اليهود ومحلاتهم بدعوى أنهم تحالفوا مع المستعمر وبيعوا محمد بن عرفة وناصره ومدوه بالعون⁵. ومن التداعيات الخطيرة لهذه الأحداث الهجوم على صموئيل بوسيدان الذي كان أبا لعدة أطفال، والبالغ من العمر 42 سنة بضربه بقطع من الحديد، وتمزيق جثته إلى نصفين من الأعلى إلى الأسفل بطريقة مروعة، ورميه بعد ذلك فوق كومة من الأكياس ثم حرقه. كما قاموا بإحراق حافلة تعود لشالوم الفاسي،

الواقعة في المغرب الشرقي، وملاحظات أخرى جد معزولة بالأطلس الكبير وسوس وتافيلالت حيث لم يحدث آنذاك أي عنف بين الجماعتين الدينيتين باستثناء بعض المشادات المحدودة التي تسبب فيها بمراكش رشق مسلمين بالحجارة من طرف بعض الشبان اليهود". محمد كنيبي، **يهود المغرب 1912-1948**، مرجع سابق، ص. 292.

¹J. Tolédano, **Portrait** ..., op. cit, p. 339.

²محمد حاتمي، **الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية وهران المغرب المستقل**، مرجع سابق، ص. 416.

³J. Tolédano, **Portrait** ..., op. cit, p. 339.

⁴A. Guigui, op. cit, p. 124.

⁵محمد حاتمي، **الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية وهران المغرب المستقل**، مرجع سابق، ص. 416.

وبعد ذلك اتجهوا وهم يصيحون إلى مخزن هذا التعيس، وقاموا بقتله بطريقة بشعة عبر رميه بقطع من الياجور، كما فعلوا نفس الأمر في حق ابنه البالغ من العمر 22 سنة والأب لطفل واحد. بعد ذلك اتجه الحشد الغاضب إلى مخزن إيلي طوليدانو البالغ من العمر 53 سنة، هو رب أسرة مكونة من عدة أطفال، وقاموا بتمزيقه بطريقة مروعة رفقة ابنه البالغ من العمر 12 سنة. نفس المصير لقيه يهودي آخر يدعى ابرهام عمار. ومن أجل ختم هذه المجزرة قام الجناة برمي حثث الضحايا الخمسة داخل محل للجزارة، واشعلوا النار فيه بالبنزين بعدما قاموا بإغلاقه. هذا وقد تم العثور على جثة ضحية سادسة في وقت لاحق¹. في خضم هذه الأحداث لم تتعرض ممتلكات المسلمين لأية أعمال عدوانية، ونفس الشيء بالنسبة للممتلكات الفرنسية، ذلك أن الجموع عندما وصلوا أمام شركة S.C.A.M. التي كانوا ينوون إحراقها تساءلوا عن مالكيها إن كانت تعود للفرنسيين أم لليهود، وعندما تبين لهم بأنها في ملكية الفرنسيين تفادوا إلحاق الضرر بها، واستمروا في البحث عن أهداف يهودية أخرى².

المثير للاستغراب في هذه الأحداث أن سلطات الأمن الفرنسية التي كانت تعرف ما يمكن أن يقدم عليه "الأهالي" غادرت المدينة القديمة من أجل حماية الحي الأوربي، واكتفوا مقابل ذلك بتتبع المجزرة رغم نداءات الاستغاثة اليائسة للضحايا. وقد تم تبرير هذا الغياب بعدم كفاية قوات الأمن، وانتظار مجيء التعزيزات الأمنية من الرباط³. وفي حدود العاشرة والنصف قامت الشرطة أخيرا بوضع حاجز أمني عندما بدأ المتظاهرون يطلقون النار⁴. بعد هدوء الأجواء تسلم اليهود ضحاياهم الذين تم دفنهم بسرعة في نفس الليلة وبشكل سري تقريبا، حتى لا تثير جنازتهم أحداث عنف أخرى. وقد كانت تلك الجثث متفحمة وكان من الصعب تمييز هويات الضحايا لذلك تم دفنهم في قبر مشترك بمدخل مقبرة الملاح الجديد⁵. وإثر هذا الحادث تمت صياغة بيان من قبل المسؤولين المحليين عن مؤسسة keren kayemet Israel باللغتين العبرية والعربية-اليهودية، تم فيه تسليط الضوء على حجم الإرهاب النفسي الذي عانى منه اليهود، كما اعتبر أصحاب هذا البيان أن الضحايا الذين قتلوا إنما تعرضوا لذلك لكونهم يهودا فقط، وأنه لو حدث هذا الأمر لدى شعب آخر لثم بناء تمثال من أجل ذكرهم الحزينة، لذلك اقترحوا عوضا عن ذلك غرس غابة باسمهم بأرض إسرائيل حتى يتم التخفيف من آلام عائلاتهم⁶.

تفسير هذه الأحداث، من خلال استقراء عدد من المراجع، يقضي أن يقول إن سلطات الحماية قد التزمت نوعا من الحياد السلبي، بل وسمحت سمحت لبعض الفرنسيين المتطرفين بأن يخططوا لتلك الجريمة من أجل تشويه

¹J. Tolédano, *Portrait ...*, op. cit, p. 341.

²A. Guigui, op. cit, p. 125.

³R. Assaraf, *Eléments...*, op. cit, p. 284.

⁴A. Guigui, op. cit, p. 125.

⁵J. Tolédano, *Portrait ...*, op. cit, p. 342.

⁶R. Assaraf, *Elément de l'histoire des Juifs de Meknès...*, op. cit, p. 285.286

سمعة الوطنيين عشية انطلاق المباحثات حول القضية المغربية بهيئة الأمم المتحدة، حتى يتم تقديم الشعب المغربي للرأي العام بفرنسا بأنه لم يبلغ من النضج ما يكفي لتمكينه من الاستقلال¹. وهو ما سعت أطر الحركة الوطنية إلى تنفيذه*، وفضلاً عن ذلك سرت إشاعات نقلها من عين المكان مندوب الرابطة الإسرائيلية العالمية تفيد بأن التجار الفاسيين المقيمين بسيدي قاسم كانوا غيورين من منافسة التجار اليهود ونجاحهم الاقتصادي، مما حدا بهم إلى تحريض العوام من المسلمين الفقراء حتى ينكلوا باليهود، ليخلصوا "أسيادهم" من منافسة التجار اليهود، فيخلو بذلك المجال للرأسمال الفاسي².

الأحداث الدامية التي جرت بمدينة سيدي قاسم خدمت بشكل مباشر أجندة النشطاء الصهاينة الذين لم يفوتوا الفرصة للاستفادة منها. وقد ورد في تقرير صاغه مبعوث الوكالة اليهودية (جوزفتال) إثر جولة قام بها صيف 1954 قادته إلى العديد من المناطق المغربية، أن زعماء الجماعات والنخب وحتى الربيين أكدوا له في محادثاتهم أن عموم اليهود يعيشون حالة ترقب خطيرة تشل من حركيتهم، وتجعلهم يتوجسون كل تطور. وزاد من تخوفاتهم وقوفهم على ضعف وهشاشة الوسائل الأمنية المخصصة للدفاع عنهم. وشدد جوزفتال في تقريره على أن استقطاب يهود "البلاد" في عقر ديارهم أضحى متجاوزاً، لأنهم اقتنعوا "من تلقاء أنفسهم" بضرورة الرحيل، فقرروا في غالبيتهم التحرك نحو المدن للاتصال بالهيئات التابعة لكادما³. وبناء عليه أجبرت أحداث سيدي قاسم الحكومة الإسرائيلية ومجموع الهيئات والمنظمات الصهيونية واليهودية العالمية على ضرورة الإسراع بتهجير المغاربة اليهود⁴.

يتضح، إجمالاً، أن مروجي الدعاية الصهيونية السياسية قد استفادوا بشكل مباشر وغير مباشر من عدة أحداث وقعت في سياقات وطنية ودولية مختلفة، من أجل دفع المغاربة اليهود إلى فقدان الثقة في الخيار الاندماجي لصالح الخيار الصهيوني، مستفيدين في ذلك من التسامح الذي أبدته سلطات الحماية تجاه نشاطات الخلايا والمنظمات الصهيونية بعد رحيل المقيم العام ليوطي، وبعد محنة قوانين

¹A. Guigui, op. cit, p. 125.

*"بأمر الوطنيين المغاربة (خاصة العاملون في أمريكا الشمالية) إلى الرد على الاتهامات الموجهة ضد الحركة الوطنية والشعب المغربي. وفي تعليقهم على الأحداث، ركزوا على النوايا السيئة للإدارة الاستعمارية التي ما فتئت تختلق الأحداث لتثويه صورة الشعب المغربي وتحمله مسؤولية أعمال عنف لا صلة لها بالأخلاق الإسلامية وثقافة التسامح التي طبعت سيرة المسلمين مع أهل الكتاب. وشددوا في ردودهم على أن الدوائر الاستعمارية تسعى إلى تكريس سياسة "فرق تسد" واختلاق أسباب اندلاع شبه حرب أهلية بين مكونات الشعب المغربي حتى يتسنى لها تمديد مدة نظام محكوم عليه بالموت والاندثار". محمد حاتمي، الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية ورهان المغرب المستقل...، مرجع سابق، ص. 418-419.

²J. Tolédano, *Portrait ...*, op. cit, p.341.

³محمد حاتمي، الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية ورهان المغرب المستقل...، مرجع سابق، ص. 419-420.

⁴"الحملة الدعائية التي روجت لفصولها الصحافة اليهودية جعلت المسؤولين يولون ملف هجرة يهود المغرب أهمية متزايدة خاصة وأن المملكة باتت المزود الرئيسي لمهاجرين أغلبهم راغب أصلاً في الهجرة، والباقيون دلت العديد من المؤشرات على أن إقناعهم عملية لا تتطلب الكثير من الجهد. وتدل قراءة للمواد الصحافية المنشورة داخل إسرائيل نفسها على أنه حصل المجتمع العربي ما يشبه الإجماع بضرورة القيام بكافة الإجراءات لترحيل يهود المغرب" قبل فوات الأوان" مهما تطلب ذلك من تكاليف وتضحيات. وهذا التطور شجع الحكومة الإسرائيلية على مغازلة حلم ترحيل عشرة آلاف يهودي كل ثلاثة أشهر، ودفع بها إلى سن ضريبة جديدة لصالح الترحيل والإدماج على اعتبار أن العملية تتطلب اعتمادات مالية استثنائية". محمد حاتمي، الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية ورهان المغرب المستقل...، مرجع سابق، ص. 421.

فيشي، بشكل سمح للنشطاء الصهيينة، على مراحل، بإقناع الفئات اليهودية المختلفة بالحواضر والقرى، بخيار الهجرة بالرغم من اختلاف رهاناتهم، هذا الخيار تعزز أكثر في ظل تلاشي المراهنة على مغرب الاستقلال الذي بات يلوح في الأفق خلال السنوات الأخيرة للحماية.

2. يهود مكناس بين قوانين فيشي والإنزال الأمريكي

أدى اندلاع الحرب العالمية الثانية سنة 1939 واضطرار فرنسا للمشاركة فيها، إلى إشاعة قدر من التفاؤل في نفوس المغاربة اليهود، لأن الحرب كانت ستؤدي في تقديرهم إلى اضطراب عدد من الفرنسيين المقيمين بالمغرب إلى الانتقال لفرنسا للمشاركة في الدفاع عن بلادهم، وهو ما كان سيمكنهم من شغل العديد من الوظائف الشاغرة، خصوصاً المناصب الرفيعة في الإدارات العمومية والشركات الخاصة¹. هذا وقد عبر المغاربة اليهود فور اندلاع الحرب عن تعاطفهم وولائهم لفرنسا/ "la patrie adoptée"²، - كما كان الشأن بالنسبة للسلطان وأعيان الحواضر والبوادي المسلمين³-. حيث ساد لديهم الاعتقاد بأنهم معنيون أكثر من غيرهم بالمساهمة في المجهود الحربي، لعوامل عدة من جملة ميلهم لفرنسا، والشعور الكبير بالأمن الذي منحه إياهم الوجود الفرنسي بالمغرب، بعد التهديد النازي الذي لاحق اليهود في كل أرجاء المعمور، والدعوات الملحة الموجهة للمسلمين قصد حثهم على ارتكاب مذابح في حقهم⁴، من قبل راديو برلين والعملاء الألمان، فعملوا تبعاً لذلك على المساهمة بدورهم في المجهود الحربي الفرنسي⁵. وبناء عليهم أبدوا استعدادهم في التطوع للقتال في صفوف الجيش الفرنسي⁶.

لقد حاول الصهاينة من جهتهم القيام بدور وازن في تجنيد إخوانهم في الدين، حيث حثوهم على عدم التزام جانب "الحياة في حرب... فرعون جديد ضد إسرائيل"، وضرورة مساندة النضال الذي "تخوضه الدول العظمى، التي يرتبط مصير إسرائيل بمصيرها من أجل تحقيق النصر على الكابوس الهتليري"⁷. كما تمت مواكبة تلك النداءات، وإبراز طابعها الاستعجالي، بواسطة نشر أخبار المذابح التي ارتكبتها النازيون في بولونيا، والقوافل الأولى للمبعدين و"التصفيات الجسدية التي تمت على نطاق واسع داخل معتقل بوسنوالد"⁸.

وتفاعلاً مع ذلك، تولت جريدة المستقبل المصور القيام بالتعبئة في اتجاه دفع اليهود المقيمين بالمغرب إلى مقاطعة البضائع الألمانية، كما تمت دعوة التجار اليهود إلى وقف جميع الأنشطة الاقتصادية مع الألمان كشكل من

¹A. Lévy, op. cit, p 85.

²M. Kenbib, *Juifs et Musulmans au Maroc...*, op. cit, p. 140.

³"اطلع المقيم العام نوجيس بارتياح على موقف الزعماء الوطنيين الداعي للوقوف إلى جانب "الدولة الحامية"، وذلك من خلال البرقيات التي وجهتها إليه جمعيات ثقافية معروفة بخطها الوطني، وأعلن مسيروها من خلالها "تعاطفهم مع فرنسا" وأعادوا إلى الأذهان "تمسكهم بفرنسا الثورة (1789)" "الأبطال المغاربة الذين ضحوا بأرواحهم من أجل فرنسا خلال الحرب العالمية الأولى". وفي خضم الاسعادات للمواجهة العسكرية، تم تجنيد وتدريب عدة آلاف من المغاربة بعد نشوب الأزمة التشيكوسلوفاكية، وبدأ الشروع في إرسالهم لفرنسا مباشرة بعد اندلاع الحرب في شتنبر 1939، وتجاوز عددهم في شهر أبريل 1940، 15000 رجل". محمد كنيبي، *يهود المغرب 1912-1948*،... مرجع سابق، ص. 204.

⁴محمد كنيبي، *يهود المغرب 1912-1948*،... مرجع سابق، ص. 205

⁵M. Kenbib, *Juifs et Musulmans au Maroc...*, op. cit, p. 140-141.

⁶Ibid, p. 140.

⁷Ibid, p. 141.

⁸محمد كنيبي، *يهود المغرب 1912-1948*،... مرجع سابق، ص. 205

أشكال المقاومة¹. وارتباطا مع هذا كله، فتحت جمعيات قدماء التلاميذ مكاتب لتسجيل الراغبين في الخدمة العسكرية في جميع المدن الكبرى²، حيث وضع العديد من اليهود أنفسهم على وجه التطوع، بكيفية فردية أو جماعية، تحت تصرف السلطات الفرنسية. وكان عدد المتطوعين مرتفعاً بصفة خاصة بين يهود الجنوب، وهي منطقة كانوا يتقاسمون فيها شظف العيش الذي كان يعيشه سكان الجبال المسلمون³.

لقد أثار تجنيد المتطوعين اليهود في صفوف الجيش بالنسبة للسلطات الفرنسية عدة مشاكل؛ فعلى خلاف المسلمين الذين كانت غالبيتهم العظمى أمية، لا يعرفون سوى أنهم "يتجنّدون" للذهاب لمحاربة الألمان، كان من بين المتطوعين اليهود عدد من "المتطوعين" الحضريين⁴، وكانوا على بينة من الرهانات الكبرى للحرب، وقد اقترحوا أنفسهم لحمل السلاح للمساهمة في تحقيق انتصار الديمقراطية⁵، غير أن قبول انخراطهم في الجيش من أجل خدمة العلم الفرنسي، كان معناه القبول بمنحهم الجنسية الفرنسية بعد الحرب⁶، وهو مطلب عبروا عنه صراحة غداة أزمة ميونيخ⁷. هذا وقد كانت تعبئة المتطوعين بالملاحظات تثير جملة من الانفعالات، نظراً لأن هذا النداء كان من شأنه أن يُفهم ويُؤوّل بطريقة سيئة، في حال لم يتردد اليهود في القول بأن فرنسا المنهكة اضطرت إلى طلب مساعدتهم⁸.

لقد استحسنّت سلطات الحماية تعاطف اليهود وقبلت تبرعاتهم المادية السخية⁹، غير أنها قامت، بعد عدد من المشاورات، بدعوة الشباب اليهودي المسجلين بمكاتب التجنيد، بلطف ولكن بصرامة، إلى انتظار نداء خدمة العلم الذي لن يأتي⁹. الحماس الذي انتاب اليهود تجاه التجنيد لتحقيق آمالهم (التجنيس)، ولو أدى بهم الأمر إلى التضحية بحياتهم، أثار تعاليق لاذعة من طرف الصهاينة، إلا أن الاندماجين المتعودين على مثل هذا النوع من الانتقادات كانوا قادرين على تجاهلها. وإن صُعّب عليهم، بالمقابل، فهم أسباب التحفظ الحقيقية الكامنة وراء عدم قبولهم من طرف سلطات الحماية في صفوف الجيش، إذ كانت الإقامة العامة لا تزال بالفعل متشبثة بالخط الذي سار عليه ليوطي منذ سنة 1912، وحججه التي قدمها عندما جست الحكومة الفرنسية نبضه سنة 1918، فيما يتعلق باحتمال تجنيد عناصر لفييف يهودي للتوجه لفلسطين من المغرب. ومنذ ذلك التاريخ، أصبح من الصعب على الإقامة العامة قبول فكرة تجنيد مقاتلين من بين ساكنة الملاحظات، مستندة في رفضها هذا إلى تحريم حملهم

¹M. Kenbib, *Juifs et Musulmans au Maroc...*, op. cit, p. 141.

²روير أصراف، محمد الخامس واليهود المغاربة...، مرجع سابق، ص. 167.

³محمد كنيبي، يهود المغرب 1912-1948...، مرجع سابق، ص. 206.

⁴M. Kenbib, *Juifs et Musulmans au Maroc...*, op. cit, p 142..

⁵روير أصراف، محمد الخامس واليهود المغاربة...، مرجع سابق، ص. 167.

⁶محمد كنيبي، يهود المغرب 1912-1948...، مرجع سابق، ص. 206.

⁷روير أصراف، محمد الخامس واليهود المغاربة...، مرجع سابق، ص. 168.

⁸M. Kenbib, *Juifs et Musulmans au Maroc...*, op. cit. p. 142.

⁹روير أصراف، محمد الخامس واليهود المغاربة...، مرجع سابق، ص. 171.

للسلاح من وجهة نظر الشرع لاعتبارهم أهل ذمة، وبناء عليه اعتبرت أن تجنيدهم في صفوف قواتها سيلحق ضررا بالغاً بجاه فرنسا بالمغرب¹.

لقد كان هناك سبب آخر وراء رفض انضمامهم إلى الجيش، تمثل في أن إدارة الحماية المدنية والعسكرية كانت تضم في صفوفها العديد من الفرنسيين المعادين للسامية (ضباط الشؤون الأهلية والمراقبين المدنيين فضلاً عن المعمرين)، لذلك لم يتم قبول سوى بضع عشرات من الحاملين للجنسية الفرنسية². هذا الرفض أثار قلق اليهود، كما تضاعف خوفهم أكثر من سيناريو غزو الجيوش الألمانية للمغرب، مما دفع الأثرياء منهم إلى الهجرة نحو الولايات المتحدة الأمريكية، كما حصل مع المدير السابق لجريدة "المستقبل المصور" جوناثان تورز، أما الأغلبية من بسطاء الملاح فقد كانوا مجبرين على البقاء بملاحاتهم والابتغال إلى الله داخل البيع من أجل أن ينصر الحلفاء³.

هذه الصلوات التي صارت مزعجة مثلها مثل تحركات بعض العناصر الموالية للمعسكر الإنجليزي من الديغوليين ممن كانوا يحملون جواز السفر الإنجليزي، كما هو الشأن بالنسبة لسالومون بنعدي، دفعت الإقامة العامة إلى استدعاء يحيى زاكوري للعودة لاستئناف مهامه مفتشاً للمؤسسات الإسرائيلية (بعد إحالته على التقاعد قبل ستة أشهر) بغرض مراقبة تحركاتهم، ذلك أن سلطات الحماية لم تكن، مع ذلك، غافلة عن الدعم المالي الذي كان البعض منهم يقدمه للشبان الفرنسيين- كما كان يفعل المحامي Félix Guedj الذي توفي في السجن- الذين كانوا يحاولون الالتحاق بدوغول⁴.

مسار الأحداث تغير بشكل درامي، خصوصاً بعدما انهزمت فرنسا أمام اجتياح الجيش الألماني، واضطرارها للاستسلام وتوقيع الهدنة زوال 22 يونيو سنة 1940⁵، حيث تحمل نوجيس مسؤوليته الكاملة في جعل حد للمقاومة نزولاً عند رغبة حكومة بيتان، ولا شك أن ذلك لم يكن هينا عليه، لكنه امتثل بمنتهى الأسى والأسف لعدم مواصلة المعركة بشمال إفريقيا، حيث أصبح هو الساعي إلى إطفاء روح القتال في إفريقيا الشمالية⁶، التزاماً بما أسماه "المشروعية"، حيث قرر الاعتراف بالنظام الجديد، "الدولة الفرنسية"، والخضوع لسلطة رئيسها، المارشال بيتان، وذلك بالرغم من نداءات دوغول، الذي وجه له فعلاً عدة برقيات من لندن لحثه على متابعة القتال، وأعرب له عن

¹M. Kenbib, *Juifs et Musulmans au Maroc...*, op. cit, p. 142.

²Ibid, p. 142.

³Ibid, p.143.

⁴Ibid, p.144.

⁵وليام هويسطن، الحماية الفرنسية بالمغرب بين الأوج والأفول تحت قيادة الجنرال نوجيس 1936-1943...، مرجع سابق، ص. 252.

⁶نفسه، ص. 258.

استعداده للامتثال لأوامره بصفته القائد العام لمسرح العمليات في شمال إفريقيا¹. غير أن الأمر الذي جعل نوحيس يطمئن لقراره إدراكه أن الهدنة لم تغير شيئا من الأوضاع الاستعمارية، فانضوت بذلك شمال إفريقيا تحت لواء فيشي².

هذه التطورات المتسارعة خلفت صدمة وموجة من القلق في صفوف المغاربة اليهود بشكل عام، ويهود مكناس بشكل خاص، لأن هذه المدينة كانت معقلا لمعادي السامية في صفوف المعمرين والموظفين المدنيين والعسكريين الذي لم يترددوا في استغلال هذا المناخ للقيام بعدة تحركات في حق يهود المدينة: كما حدث في 18 غشت سنة 1940³، لأن حكومة فيشي انقلبت على قيم الثورة الفرنسية⁴. قلق اليهود تصاعد أكثر؛ لأن مسألة معاداة السامية* كانت قد بدأت بالمغرب بشكل ملحوظ منذ سنة 1936، لذلك وجدت حكومة فيشي بإدارة سلطات الحماية بعد توقيع الهدنة خداما أوفياء تحمسوا لتطبيق قوانين فيشي المعادية لليهود⁵، حيث قامت العناصر الأوربية المتطرفة في إطار تحمسها المحموم لنظام الماريشال "بيتان"، وتسرعها لوضع حد نهائي للمنافسة اليهودية، بالتكثيف من دعواتها لمقاطعة التجار اليهود، كما ألصقوا على واجهات متاجرهم منشورات ذات منحى نازي تتضمن شعارات من بينها: "هنا توجد مؤسسة يهودية، أي مؤسسة استغلاليين"، "التبضع من متاجر اليهود تخريب للتجارة الفرنسية"، "أيها العامل، إن عدوك هو اليهودي الذي يستنزفك، ويبي ثروته المغتصبة على رؤسك"⁶. ويبدو أن تلك الأوساط من بين السكان الفرنسيين كانت تذهب إلى حد التطلع إلى نشوب "حرب أهلية" للانتهاء من أمر اليهود، بمساهمة محتملة من طرف أولئك الذين كان الديموغوجيون الفرنسيون يسموهم بـ "إخواننا المسلمين".

¹ محمد كنيبي، "نظام فيشي و«فرنسا الحرة» والحركة الوطنية المغربية (1940-1944)"، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، العدد 20، 1995، ص. 133-134.

² وليام هويسطن، الحماية الفرنسية بالمغرب بين الأوج والأفول تحت قيادة الجنرال نوحيس 1936-1943...، مرجع سابق، ص. 259.

³ J. Tolédano, *Portrait ...*, op. cit, p. 259.

⁴ "كانت شعارات فيشي المناادية بالعمل والأسرة والوطن عوضا عن شعارات الجمهورية المناادية بالحرية والمساواة والإخاء، تستجيب لعقلية المعمرين وللواقع الإمبريالي أكثر من ثالوث الديمقراطية. فالانضباط والطاعة والنظام والواجب والهيراركية والوحدة، تلك الألفاظ المترددة إلى حد الملل في خطاب بيتان، والتي كانت دائما من مصطلحات بناة الإمبراطورية. ولا جدال في أن الفرنسيين في الخارج كانوا أكثر ميلا للسياسة المحافظة من إخوانهم في الميتروبول، وقل في إفريقيا الشمالية من صعب عليه مسابقة التوجهات السياسية للنظام الجديد في فرنسا الذي كان أقرب لأسلوب الاستبداد في المستعمرات منه لأسلوب الجمهورية. أما رجال الجيش، فإن فيشي كان في نظرهم بمثابة الحلم الذي تحول إلى واقع، فهو أول نظام فرنسي حديث يكتسي اللون الكاكي جهارا". وليام هويسطن، الحماية الفرنسية بالمغرب بين الأوج والأفول تحت قيادة الجنرال نوحيس...، مرجع سابق، ص. 278.

* "معاداة السامية لها جذور تاريخية تعود لموجات كراهية اليهود ومناهضة السامية التي اكتسحت أوروبا انطلاقا من ستينيات وسبعينيات القرن التاسع عشر، وقد تبلورت بشكل خاص في ألمانيا غداة اندلاع أزمة مالية كبرى سنة 1873، وإقدام عناصر مسيحية متطرفة على تأسيس "الاتحاد من أجل استئصال اليهود" وامتدت هذه الموجات لتشمل دول ديمقراطية عريقة مثل إنجلترا، وهي التي طفت فيها على السطح مناهضة السامية لأسباب متعددة، ومنها بصفة خاصة العوامل المرتبطة بتدفق المهاجرين اليهود القادمين من روسيا، حيث فروا من اليأس والاضطهاد القيصري وتكدسوا بعد وصولهم إلى أيرلندا العظمى، في لندن وبرمنغهام ومانشستر وليفربول وغيرها من المدن، وأحدثوا نفورا اتجاههم، لا من جهة الأوساط المسيحية فحسب، بل حتى في صفوف اليهود البريطانيين. وقد تخوف فعلا اليهود المندمجون في المجتمع البريطاني من ردود الفعل المناوئة للمهاجرين الجدد من خطر استفحالها وامتدادها بدون تمييز على ساب اليهود المستقرين بانجلترا منذ أجيال. ومن الناحية الرمزية والسياسية كان هؤلاء يعتبرون تألق أحدهم، وهو الثري ليونيل روتشيلد، وفوزه في الانتخابات التشريعية لعام 1872 ووصوله إلى البرلمان (غرفة العموم) بمثابة انتصار تاريخي ثمين تحتم في نظرهم الدفاع عنه وصيانته في بلد ديمقراطي كان يحرمهم فيما مضى من التمثيل البرلماني لاعتبارات دينية (ومنها ضرورة أداء القسم حسب الطقوس المسيحية بعد الفوز في الانتخابات)". محمد كنيبي، المحميون...، مرجع سابق، ص. 273.

⁵ D. Bensimon- Donath, *Evolution du judaisme marocain...*, op. cit, p. 108.

⁶ M. Kenbib, *Juifs et Musulmans au Maroc...*, op. cit, p. 147.

وفي انتظار اندلاع أحداث من هذا القبيل، طالب الفرنسيون باتخاذ إجراءات أشد صرامة في حق من كانوا ينعوتهم بـ "الحثالة الديغولية" و "الفرنسيون المشكوك في أمرهم" و "اليهود والخلاسيون واللاجئون"¹.

كما ارتفعت أصوات بعض غلاتهم للتنديد، خصوصاً، بالإبقاء على بعض الموظفين المعروفين بتعاطفهم مع دوغول في مناصبهم، وبإجراءات العفو المتخذة في حق الزعماء الوطنيين. كما توجه زعمائهم بالخطاب مباشرة إلى الماريشال "بيتان"، لاتخاذ إجراءات الطرد في حق "الماسونيين الذين نصبهم ليون بلوم"، والتعجيل بوضع "برنامج الثورة الوطنية" موضوع تنفيذ. كما نددوا بالتسامح الذي استفاد منه اللاجئون اليهود الألمان والنمساويين وغيرهم من الأوروبيين، وكل الذين يدعمونهم، إضافة إلى رفض التساهل في منح رخصة التنقل بحرية للمحامي Hélène Cazes-Benatar الرئيس الجهوي لمنظمة ² (WIZO) women's international Zionist organisation، والذي كان يعمل بتنسيق مع منظمة لوجوانت الأمريكية للعناية باللاجئين اليهود³. وبناء عليه تقرر تجميع 7700 لاجئ أغلبهم من اليهود، تم إقصائهم ما بين يونيو 1940 وفبراير 1941 من المنطقة الفرنسية في إقامات إجبارية، ومراكز تبعد عن المدن، وكان ضغط العناصر المتطرفة من جملة الأسباب التي أدت إلى التطبيق الجزئي لهذه الإجراءات، وتم الترخيص لهم بالإقامة مؤقتاً في أراضي المحمية، في انتظار هجرتهم نحو أمريكا أو فلسطين⁴، وهو الإجراء الذي انتقد من طرف اليمين المتطرف الموالي للماريشال بيتان⁵.

في هذا السياق المفعم بمعادة السامية أصدر القانون الفرنسي الأول المعادي لليهود بتاريخ 3 أكتوبر 1940⁶، الذي سن مجموعة من الإجراءات العنصرية ضدهم⁷، وبعد تردد ومشاورات قام بها موظفو الحماية، وقبل المرور إلى

¹ محمد كنيبي، **يهود المغرب 1912-1948...**، مرجع سابق، ص. 212.

² المنظمة الصهيونية الدولية للمرأة، التي يعود تأسيسها إلى ثلاثة عوامل أساسية: الصحة السياسية والاجتماعية للمرأة الأوروبية بشكل عام والمرأة البريطانية بشكل خاص، والزمخ المتزايد للحركة الصهيونية عند نشر إعلان بلفور، ونقل مركز نشاطها إلى بريطانيا بعد الحرب العالمية الأولى، والسير الشخصية لمؤسسيها.

³ M. Kenbib, **Juifs et Musulmans au Maroc...**, op. cit, p.147.

⁴ Ibid, p.147.

⁵ "اعتبر هنري كيرات تجميع هؤلاء اللاجئين بمثابة إجراء غير كاف، وحمل في مقال بجريدة L'Emancipation Nationale وهي أسبوعية يمينية تتلقى الدعم مباشرة من طرف ديوان الماريشال "بيتان" نفسه، المسؤولية مباشرة للمقيم العام، وهاجم بحدة "تساهله" تجاه اليهود، مضخماً إلى حد التهويل المخاطرة التي افترض أن المحمية سوف تتعرض لها في حالة ربط اتصال بين اللاجئين و "الأهالي". وقد اقترح نوجيس، في مواجهة حدة هذه الحملات، وخطر إقدام اللاجئين الذين لم يتم ترحيلهم بعد على القيام بـ "أنشطة مناهضة لفرنسا" إرسالهم إلى فرنسا، وشدد من أجل تعزيز هذا الاقتراح على أن "وجود عدد هام من الأجانب، لسننا متاكدين من ولانهم في بلد يتوفرون فيه على صلات تربطهم بالسكان بحكم (وحدة) الجنس والدين، هي أمور تبدو لي غير مرغوب فيها". وقد كانت هذه الاقتراحات غير قابلة للتنفيذ، لكن المقيم العام ألح عليها لاعتبارات شتى من ضمنها رغبته في إيقاف الحملات التي كانت تستهدفه شخصياً، الأمر الذي يمكن أن يؤدي إلى الكشف على رؤوس الإشهاد عن الأصول اليهودية لزوجته، لذلك قرر ترحيل العناصر المشتبه في أمرها نحو معسكرات الاعتقال والأشغال الشاقة، وكان عددها آنذاك اثني عشر مركزاً في المجموع، ويوجد بعضها في مناطق نائية عن المركز مثل بونزيب وإكذر. وتمت مواكبة هذه الإجراءات بواسطة مصادرة عدة صحف تنتسب لليمين المتطرف، نظراً "لخرقتها لتعليمات الرقابة ونشرها لمقالات تعمل على إثارة قلقاً خطيرة مناهضة للسامية". محمد كنيبي، **يهود المغرب 1912-1948...**، مرجع سابق، ص. 213.

⁶ ANR, Secrétariat Général du Protectorat, Service de législation, Objet : statut des Juifs, Dahir relatif à l'application au Maroc de la loi du 3 octobre 1940 portant Statut des Juifs..., op. cit.

⁷ "صدور قوانين معادية لليهود خلال الحقبة المعاصرة ويرعاية رسمية من النظام النازي أي من فوق يختلف عن أشكال اضطهاد اليهود في الحقبة الكلاسيكية، ففي الحالة الأخيرة تم الأمر من قبل حركات شعبية من أسفل، بينما في الأولى كان موحى بها من فوق أي من الدولة، وهذا الأمر يعد

تنفيذ هذا القانون، وجدت إدارة الحماية نفسها أمام عدة أسئلة: هل يجب تطبيق جميع فصول القانون الفرنسي على المغاربة اليهود، أم الاكتفاء ببعضها فقط؟ وهل ستشمل تلك القوانين كل اليهود المقيمين بالمغرب بما في ذلك الأجانب؟ أم سيقصر الأمر على المغاربة فقط؟. وبسرعة أدرك المقيم العام نوجيس وشركاؤه استحالة تطبيق كل بنود القانون الفرنسي على كل اليهود الذين يقيمون على أراضي أجنبية غير فرنسية¹.

صورة رقم 30: وثيقة تتضمن مضامين ظهير 31 أكتوبر 1940

CLASSEMENT :		B. O. n° 1463
Israélites		1940, page 105
① Secrétariat Général du Protectorat		
② SERVICE DE LÉGISLATION		
③ Objet:	Statut des Juifs	
Dahir		
relatif à l'application au Maroc de la loi du 3 octobre 1940 portant statut des Juifs		
OBSERVATIONS :	Origine S. L. - SGP.	
Commission restreinte	Arrivé le 19-10-40.	
le 21 octobre 1940	Scellé au Maroc le 29 ramadan 1359	
	Promulgué le 31 OCT. 1940	
	Donné au B. O. français le 31 octobre 1940	
	pour le n° 1463 du 8 novembre 1940	
	et le 29 NOV 1940	

Source : ANR

خلال هذه المرحلة أصيب يهود المغرب بالذعر، خصوصاً وأنهم لم يكونوا يتوقعون إقدام الفرنسيين على إصدار مثل هذا القانون العنصري، لذلك حاولوا بكل السبل تفادي بنوده، ذلك أنهم صاروا يصرون على التذكير بوضعيتهم

حدثاً ناذراً في تاريخ الإنسانية [...] وهذا الأمر له جذور تاريخية ذلك أن اللاسامية الحديثة المبكرة (1881-1900) كانت ردة فعل أناس يكون كراهية عميقة للمجتمع الحديث بكل مظاهره، ما حسن منها وما ساء، وآخرين مغالين في اعتقادهم بنظرية التآمر التاريخي، جعلوا من اليهود كبش فداء لانتهيار المجتمع القديم (الذي صورته مشاعر اللاساميين لهم أكثر انضباطاً مما كان عليه في الواقع)، ولكل أمر مزعج في العصور الحديثة، ومنذ البدئ واجه اللاساميون ما شكل بالنسبة لهم مشكلة صعبة في كيفية تعريف كبش الفداء، وخاصة بتعابير شعبية. وما الذي يفترض أن يكون قاسماً مشتركاً بين الموسيقي اليهودي، والمصرفي اليهودي والحرفي اليهودي، والمتسول اليهودي، خصوصاً بعد أن ذابت إلى حد كبير السمات الدينية المشتركة على الأقل في المظهر الخارجي. فجاءت نظرية العرق اليهودي لحل هذه المشكلة عند اللاساميين. "إسرائيل شاحاك، اليهود واليهودية، وطأة 3000 عام...، مرجع سابق، ص. 106-109.

¹A. Lévy, op. cit, p. 85.

بوصفهم أهل ذمة، بيعتهم في عنق السلطان الذي يتحمل مسؤولية حماية رعاياه طبقا لروح الشريعة الإسلامية¹. لكن إصرار سلطات فيشي لم تترك للسلطان، وهو الذي كان يواجهها مجردا من كل سلاح، أية استراتيجية سوى محاولة تقليص مدى الإجراءات المناهضة لليهود وأبعادها². في هذا السياق، وابتداء من يوم 4 أكتوبر 1940، بدأت المفاوضات بين الإقامة العامة والمخزن لتكييف قانون 3 أكتوبر مع الحالة المغربية. وبما أن محمد بن يوسف كان واقعا ليعرف أنه لا يتوفر على الوسائل اللازمة لمعارضة دخول قانون أساسي لليهود الذي لا "يتفق معه شكلا ومضمونا"، فقد حاول التقليل من حدته، وبعد بعض المقاومة اضطر إلى وضع ختمه على ظهير 29 رمضان 1559 (31 أكتوبر)³، الذي تضمن 10 فصول، نعرض منها:

الفصل 2: حدد من هو اليهودي حسب المعيار الديني، وليس العرقي، عكس ما جاء في القانون الفرنسي: "اليهودي هو من لديه ثلاثة أجداد من عرق يهودي أو اثنين من نفس العرق إن كان الزوج نفسه يهوديا"⁴. هذا التعديل الذي عرف اليهودي المغربي على أساس المعيار الديني صار يعتبر يهوديا بموجبه كل من يعتنق الديانة اليهودية بدون الاهتمام بعرق أجداده أو آباءه، وبناء عليه كل من تحول إلى الديانة الإسلامية لا تطبق عليه قوانين فيشي، غير أن هذا التعديل كان من دون أي قيمة عملية، لأن الارتباط العميق للمغاربة بديانتهم منعهم من اللجوء إلى هذا المخرج⁵.

الفصل 3: مُنع عن اليهود بموجبه تقلد الوظائف العمومية، وقائمة طويلة من المهام الفخرية، كما دعا إلى فصل جميع الأساتذة اليهود الذين يعملون بالمؤسسات التعليمية الفرنسية، باستثناء الذين يزاولون مهامهم بالمؤسسات المخصصة لليهود، أي المدارس التابعة للأليانس، فضلا عن إقراره إقصائهم من المجالين السياسي والاقتصادي، بعدما تم الأخذ بمقتضيات القانون الفرنسي في هذا المجال، بإدراج عدد من المحظورات توجد بالقانونين العام والخاص، ترمي إلى استبعاد اليهود جزئيا من الحياة السياسية الوطنية، مع استثناء القضاء الشرعي اليهودي والأعوان من مختلف الرتب التابعين لجميع مصالح الشرطة، وكذا المترجمين المكلفين بالترجمة للغة العبرية⁶.

¹روبير أصراف، محمد الخامس واليهود المغربية...، مرجع سابق، ص. 181.

²نفسه، ص. 183.

³R. Assaraf, *Eléments ...*, op. cit, p. 250.

⁴ANR, Secrétariat Général du Protectorat, Service de législation, Objet : statut des Juifs, Dahir DU 31 Octobre 1940 (29 ramadan 1359), relatif à l'application en zone française de l'Empire chérifien de la loi du 3 octobre 1940 portant Statut des Juifs.

⁵R. Assaraf, *Eléments...*, op. cit, p. 250.

⁶"يمنع على اليهود الانخراط في الوظائف العمومية ومباشرتها، وكذا تولي التفويضات المذكورة لاحقا: أولا: أعضاء المجالس كلها المكلفة بالحرف والصنائع، وكل الجمعيات أو النيابة المؤسسة بالانتخاب. ثانيا: المديرين، والمديرون العامون، ونواب المديرين، ورؤساء المصلحات بالإدارات المركزية أو الإدارات المشابهة لها، والكتاب العامون بالنواحي، ورؤساء الإدارات البلدية، ومعاونوهم، والأعوان من جميع الرتب التابعين لإدارة

الفصل 4: نص هذا الفصل على بعض الإعفاءات التي منحت لفئة من الأشخاص، وتحديدًا من تتوفر فيهم الشروط الآتية: "أن يكونوا حائزين على بطاقة المحارب في حرب 1914-1918، أو نوه بهم في هذه الحرب، وأن يكونوا قد اشتهروا أو تميزوا أثناء حرب 1939-1945، أو أن يكونوا حائزين على وسام جوقة الشرف برسم العسكرية أو على التمييز أثناء خدمتهم بالجيش الموجودة بالمغرب، إن كانوا حائزين على ورقة بطاقة محارب لمناسبة عمليات عسكرية تم القيام بها بالمغرب بعد تاريخ 23 أكتوبر 1919، وأن يكونوا قد نالوا وسام الاستحقاق العسكري الشريف. كما نص نفس الفصل على منعهم من مواصلة مهن الدفاع أمام محاكم المخزن، أو التسجيل على لوائح الخبراء القضائيين، أو المترجمين القضائيين المحلفين، باستثناء الترجمة باللغة العبرية¹. كما نص هذا الظهير في فصله الثامن على ضرورة مغادرة اليهود للوظائف المحظور عليهم مواولتها في أجل لا يتعدى شهرين ابتداء من تاريخ نشر ظهير 31 أكتوبر 1940.²

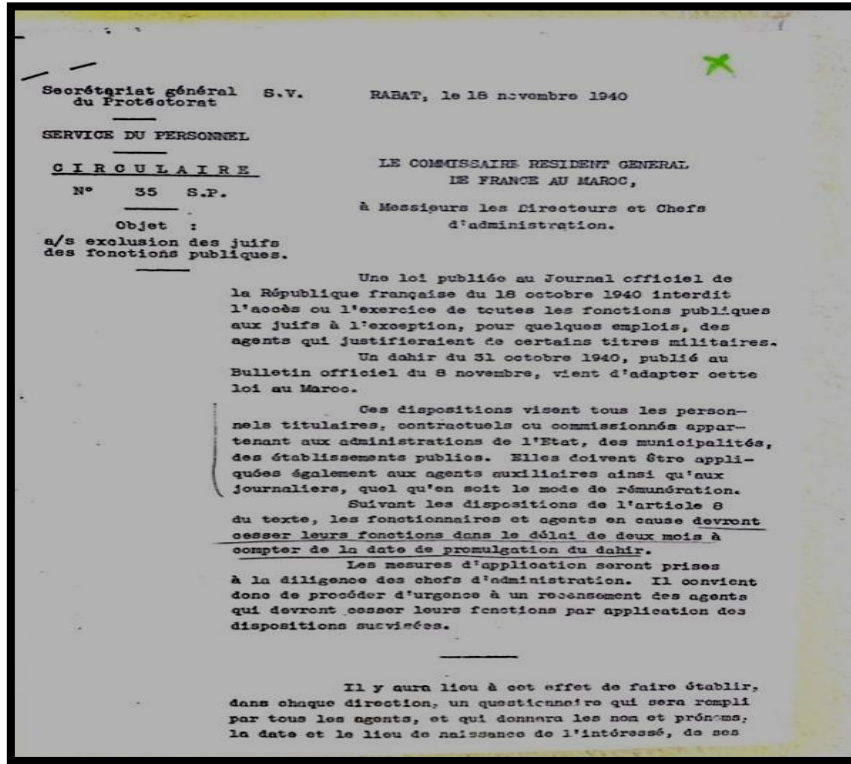
الأمور السياسية، والأعوان من جميع الرتب المستخدمون بمكاتب المحاكم العدلية ومكاتب وكلاء الدولة وبقسم الترجمة العدلية الفرنسية، وأعوان التوثيق الفرنسي، ومندوبو الحكومة، والأعوان من جميع الرتب لدى المحاكم الشريفة ما عدا المحاكم الإسرائيلية، والأعوان من جميع الرتب المستخدمون بجميع مصالح الشرطة. ثالثًا: أفراد قطاع التعليم ما عدا الذين يعملون في المدارس الخاصة باليهود لا غير. رابعًا: الإداريون، والمديرون، والكتاب العامون في الشركات المستفيدة من امتيازات أو إعانات مالية ممنوحة لها من طرف جماعة من الجماعات العمومية، والمناصب التي تعين الدولة أصحابها في المشاريع ذات مصلحة عمومية."

ANR, Secrétariat Général du Protectorat, Service de législation, Objet : statut des Juifs, Dahir DU 31 Octobre 1940 (29 ramadan 1359), op. cit.

¹ANR, Secrétariat Général du Protectorat, Service de législation, Objet : statut des Juifs, Dahir DU 31 Octobre 1940 (29 ramadan 1359), op. cit

²ANR, Secrétariat Général du Protectorat, circulaire N° 35- S.P. Objet : a/s- exclusion des Juifs des fonctions publiques. Numéro de Boîte : A :1046.

صورة رقم 31: دورية بخصوص إبعاد اليهود من بعض المهن بمقتضى قوانين فيشي



Source : ANR

الفصل 5: سمح لهم بمزاولة المهن الحرة، إلا إذا كانت هناك قرارات وزارية تحدد النسبة الممكنة. وفي هذه الحالة يحدد القرارات المذكورة شروط إعفاء اليهود غير المشمولين بالنسبة المقررة¹.

الفصل 6: نص على إبعاد اليهود من جميع المهن التي يمكن أن يمارسوا من خلالها تأثيرا على الرأي العام. ويتعلق الأمر بمديرو الصحف أو المجلات أو الوكالات أو الجرائد التي تصدر في أوقات معلومة، وكذلك وكلاؤها ومحروها (باستثناء النشرات ذات الصبغة العلمية المحضة)، ومديرو وكلاء الشركات التي يرمي غرضها إلى صناعة الشرائط السينمائية وتوزيعها وعرضها، والمخرجون ومديرو التصوير وكتاب السيناريو، ومدراء وإداريو ومسيري قاعات المسرح ودور السينما، ومتعهدو العروض ومدراء وإداريو ومسيري كل الشركات التي لها علاقة بالعمل الإذاعي².

¹ANR, Secrétariat Général du Protectorat, Service de législation, Objet : statut des Juifs, Dahir DU 31 Octobre 1940 (29 ramadan 1359), op. cit

²ANR, Secrétariat Général du Protectorat, Service de législation, Objet : statut des Juifs, Dahir DU 31 Octobre 1940 (29 ramadan 1359), op. cit

القوانين العنصرية التي طالت المغاربة اليهود طبقا لظهير 31 أكتوبر 1940، كان أثرها محدوداً جداً على أفراد الجماعة اليهودية بمكناس¹، إذ لم تطبق في مجال الحرمان من الوظيفة العمومية إلا في حق ابرهام طوليدانو الذي كان يعمل موظفا بالمصالح البلدية-وهو أول يهودي مكناسي تطاله تلك القوانين- في حين لم يكن هناك أي يهودي بمكناس يشتغل بالسينما أو بالإعلام². ويعود السبب في ذلك إلى أن أفراد الجماعة اليهودية بمكناس لم يكونوا بعد قد انخرطوا بقوة في مسار التحديث بقوة، غير أن وجود عدد من المستوطنين المعادين للسامية بالمدينة كان قد خلق مناخا مناسباً من العدوانية تجاه يهود مكناس، من قبيل تسريح أصحاب الشركات الفرنسيين لليهود المستخدمين، كما حصل مع حبيب طوليدانو، الذي طرد من المطبعة الفرنسية رغم أنه كان متفانيا في عمله بما لمدة 23 سنة³.

أما في مجال التعليم فقد كان جل اليهود، عموماً، يدرسون أطفالهم بمختلف شبكات مدارس الرابطة أو بمؤسسة أم هابينيم، وقد فرحوا لأن القانون الأساسي المعادي للسامية قد استثنى المؤسسات التعليمية اليهودية، ذلك أنه قد سمح لها بالاستمرار في مزاولة عملها دون شروط⁴. غير أن التلاميذ الأوربيين بثانوية Poeymireau كانوا محبطين، لأنه لم يتم طرد التلاميذ اليهود، وقد عبروا عن عدائهم تجاههم من خلال كتابة شعارات عنصرية ليلة 23 دجنبر 1941 على واجهة الجدران الداخلية والخارجية للثانوية، وفوق تمثال Poeymireau جاء فيها: "أيها التلاميذ، اطرّدوا اليهود من الثانوية ! اتحدوا ضد اليهود لننتقل للفعل، لنزّم باليهود خارجاً ! الموت لليهود !"⁵. مضايقات التلاميذ الأوربيين لزملائهم اليهود والمسلمين لم تتوقف، لأنهم كانوا مجرد أقلية وسط أغلبية أوروبية، بحيث لم يكن يمر يوم واحد لا تحدث خلاله مناوشات ومشاجرات بين الطرفين، لأن المناخ العام بالثانوية خلال هذه المرحلة كان ملوثاً بالعنصرية ومعاداة السامية⁶.

في نفس السياق المعادي للسامية تم طرد الأعضاء اليهود من النوادي الرياضية الخاصة والجمعية، خصوصاً نوادي التنس والسباحة. وعندما كان اليهود يحاولون تأسيس فرق رياضية خاصة بهم، كان يتم رفض الاعتراف بها، كما حصل مع ألبير عطيا الذي كان من أشهر لاعبي الكرة المستطيلة بالمدينة داخل نادي الاتحاد الرياضي المكناسي، حيث تولى تأسيس فرقة اقتصرت العضوية فيها على الشباب اليهود فقط، لم تنل اعتراف الفدرالية الفرنسية لكرة

¹R. Assaraf, *Eléments...*, op. cit, p. 252.

²J. Tolédano, *Le temps du Mellah*, op. cit, p. 143.

³J. Tolédano, *Portrait* ..., op. cit, p. 260-261.

⁴R. Assaraf, *Eléments...*, op. cit, p. 252.

⁵J. Tolédano, *Portrait* ..., op. cit, p. 261.

⁶Ibid, p. 261

الريكيبي. غير أن الهواة كان بإمكانهم خوض مباريات ضد فرق الجنود وفرقة الثانوية الأوربية¹. وفي هذا الصدد يحكي جوزيف طوليدانو كيف أن أبناء الأوربيين كانوا يرسمون صورا كاريكاتورية فوق أسوار الثانوية توحى بأن أبناء اليهود ضعفاء وهزيلي البنية خلافا لبنيتهم، ورغبة في تزكية هذا الزعم نظمت، بعد شهرين من الإعداد مباراة بين الطرفين كان يبدو فيها أبناء الأوربيين ببنيات قوية على عكس أبناء اليهود الذي ضم فريقهم أسماء العناصر التالية: موسى غزلان، ألبير مالكا، حاييم بن زينو، دافيد طوليدانو، إسحاق ألكريف، ماكس أزوكي، ميمون عمار، دهان، جاكوب أزبراد، ودافيد بنعروش [...]. غير أن المفاجأة أن النتيجة كانت لصالح فريق أبناء اليهود بثلاثة لصفر. وفي الغد قام دافيد بنعروش تعبيرا عن فرحته برسم كاريكاتور فرعوني بأحد ممرات الثانوية يصور فيه سبع بقرات عجاف يأكلن سبع بقرات سمان².

في هذا السياق المفعم بمعادة السامية قام بعض رجالات المخزن، ببعض المدن ولأسباب دينية، بالعودة لمنع تشغيل الخادמות المسلمات بمنازل اليهود³، كما كان الحال مع الباشا الكلاوي بمراكش، حيث لم تمنعه العلاقات الجيدة التي كانت له مع الرابطة الإسرائيلية العالمية قبل الحماية، وكذا علاقته المتميزة مع أعيان مراكش اليهود، من تطبيق هذا القرار بصرامة، لأنه كان أحد ركائز نظام الحماية الموالي لفيشي الذي تكفل بمهمة اضطهاد اليهود، كما طالبهم بضرورة ارتداء "الزي التمييزي التقليدي اليهودي المتمثل في الجلباب والبلغة الأسودين والخرقة"⁴. هذا وقام الباشا محمد الصبيحي بمدينة سلا بدوره بمنع اليهود من تشغيل مسلمات كخادومات، وحظر على المسلمين ارتياد الملاح، ولعله مؤكد أن هذا الباشا الذي لم يكن يتمتع بوزن أو خصائص مماثلة لـ "سيد مراكش" قد وقع إلى حد ما — وهو أمر غير مستبعد تماما — تحت تأثير عبد اللطيف الصبيحي، الذي تميز بعنفه اللفظي ضد اليهود خلال تلك الحقبة⁵. غير أن هذه الإجراءات كانت وبحدة أقل بالمدن الأخرى كمكناس⁶.

وفي نفس السياق المشجع على معاداة اليهود، ومن أجل تمييزهم عن منافسيهم غير اليهود، قام بعض التجار الفرنسيين شهر فبراير من سنة 1941 بتعليق شعار فيشي (ساطور برأسين) على أبواب متاجرهم، وهو الأمر الذي

¹J. Tolédano, *Portrait ...*, op. cit. p.262 .

²Ibid, p. 262.

³"قام كل من باشا مراكش وسلا بما كانت الإقامة العامة تنتظره منهما، كما بدورها في فرض قيود مختلفة عل مختلف تنقلات اليهود، وأصدرت قرارا يقضي " بالبحث عن المضاربين" من بينهم، ومنع شبابهم من التفسخ في أماكن مختلفة، ومنع المعوزين منهم من تعاطي التسول. وتوضح هذه الإجراءات بكيفية جلية أن القيود التي فرضها هؤلاء البشوات تنخرط بالفعل ضمن إستراتيجية نهجتها الإقامة العامة، تجتمع في نفس الآن، اعتبارات تتعلق بالحرص على المحافظة على النظام مع الرغبة في العودة للتحكم في الجماعات اليهودية، بواسطة إقامة خلط متعمد بين وضعية أهل الزمة و" قوانين فيشي". محمد كنيبي، *يهود المغرب 1912-1948*...، مرجع سابق، ص. 215.

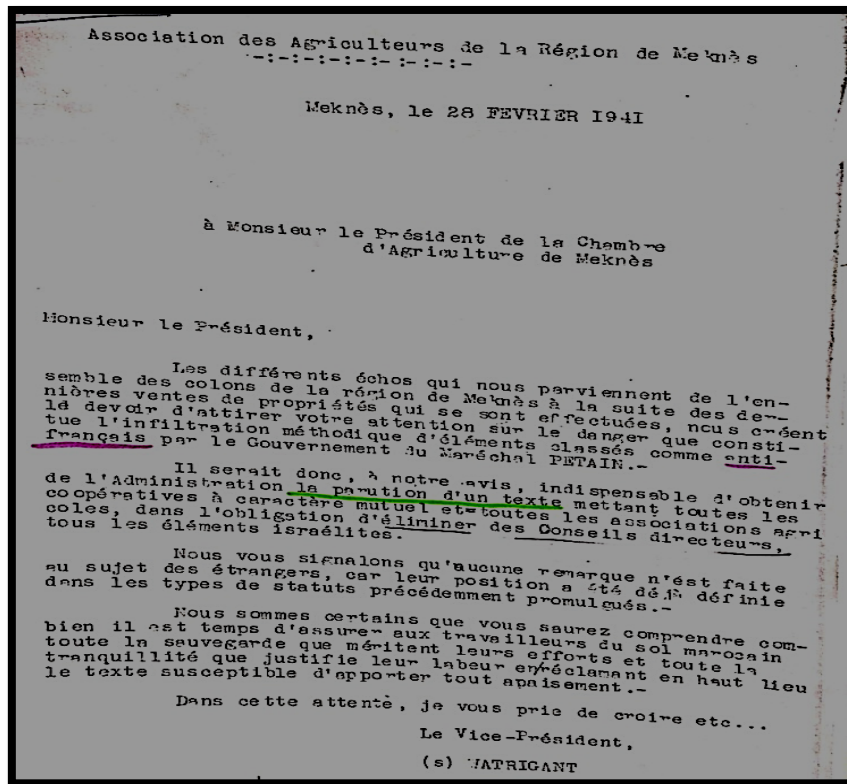
⁴M. Kenbib, *Juifs et Musulmans au Maroc*..., op. cit, p. 150.

⁵محمد كنيبي، *يهود المغرب 1912-1948*...، مرجع سابق، ص. 215.

⁶J. Tolédano, *Portrait ...*, op. cit, p. 262.

لم يرق سلطات الحماية، حيث تم سحبه في الحال من طرف رئيس المصالح البلدية، بدعوى أن أمر معاداة السامية صار جزءا من السياسة الرسمية للسلطة، والتالي لن يسمح للمبادرات المتهورة الفردية بالتعبير عن نفسها¹. رغم ذلك ظل بعض المستوطنين المعادين للسامية بمدينة مكناس يحاولون إقصاء العناصر اليهودية، حيث قام أعضاء جمعية الفلاحين المستوطنين بمدينة مكناس بمطالبة رئيس الغرفة الفلاحية بضرورة استصدار قانون يقصي كل العناصر اليهودية من عضوية مجالس إدارة التعاونيات التشاركية والجمعيات الفلاحية، بدعوى أنهم معادون للفرنسيين². لكن المصالح الإدارية لسلطات الحماية أكدت على حق اليهود في تأسيس الجمعيات وعضوية مكاتبها المسيرة لأنه لا يوجد في ظهير 31 أكتوبر 1940 ما يحول دون ذلك³.

صورة رقم 32: وثيقة تعكس موقف معادي للسامية من طرف مستوطنين فرنسيين بمدينة مكناس



Source : ANR

¹روبير أصراف، محمد الخامس واليهود المغاربة... مرجع سابق، ص. 192.

²ANR, Lettre de L'Association des Agriculteurs de la Région de Meknès au Président de la chambre d'Agriculture de Meknès, N° de boîte : A1046.

³ANR, Lettre de L'Inspecteur Général des Services Administratifs au Conseiller juridique du Protectorat (Service de législation), N° de boîte : A1046.

كما لم يفوت التجار المسلمون بالمدينة القديمة فرصة استغلال هذا المناخ من أجل المطالبة بطرد منافسيهم اليهود من سوق الجملة للأتواب الكائن بحي البزازين، غير أنه رغم تهديداتهم بتصريف هذا القرار بأنفسهم بالقوة إذا لزم الأمر في حال تأخرت السلطات المحلية في ذلك، فإن مطلبهم لم يُطبق، لأن باشا المدينة هدد بخفض الأسعار في حال اختفاء المنافسة اليهودية¹، وبالرغم من أن التشريعات المعادية لليهود في القانون الأول قد اقتصرت تأثيراتها السلبية على عدد محدود من يهود مكناس، بسبب انخراطهم المحدود في بنية الاقتصاد العصري، فإن معاناتهم الكبيرة بشكل يومي قد كانت بسبب صعوبة تزودهم بالمواد الأساسية، لأن ظروف الحرب العالمية الثانية التي تزامنت مع محنة قوانين فيشي، دفعت سلطات الحماية الفرنسية إلى اعتماد نظام تراتبي في التموين، ذلك أن الأوربيين كانوا في أعلى الهرم، عكس الأهالي، وخصوصا المغاربة اليهود الذي كانوا في أدنى السلم. وهكذا ففيما يخص مسألة التموين بالسكر كانت سلطات الحماية قد قررت أن يستفيد المسلمون من حوالي 700 إلى 800 غرام من سكر القالب للشخص الواحد شهريا²، في حين خصص لليهود حوالي 350 إلى 400 غرام من مسحوق السكر، علما أنهم كانوا يستهلكون هذه المادة بنفس شغف المسلمين، مقابل ذلك استفاد الأوربيون من 500 غرام للشخص الواحد، علما أنهم كانوا أقل استهلاكاً لهذه المادة³.

أما بالنسبة لمادة الشاي الأخضر والمشروب الغازي الوطني، فقد خص المسلمون واليهود على السواء بـ 25 غراما لكل شخص أسبوعيا. أما بالنسبة للزيت، فقد خص اليهود بأقل نسبة قدرت بـ 230 غراما للفرد شهريا بالرغم من أنهم كانوا الأكثر استهلاكاً لهذه المادة، خصوصا وأنهم كانوا يحتاجونها في صنع وجبة الكاشيروت، وازداد الأمر صعوبة بالنسبة لهم لأن عاداتهم الغذائية تقضي بعدم استهلاك الدهون الحيوانية والزبدة، ومقابل ذلك خص المسلمون بـ 330 غراما مقابل 250 غراما للأوربيين. وفيما يتعلق بصابون الغسيل مرسليليا فقد استفاد الأوربيون من 250 غراما مقابل 70 غراما فقط لليهود والمسلمين. وفيما يخص صابون الحمام وباقي المواد الاستهلاكية الفاخرة فقد اقتصرت على اليهود فقط، ونخص بذلك الحليب المجفف الغني بالسكريات المخصص للأطفال، والمعجنات والكاكوا والبطاطس والبنزين العصري والأحذية⁴ والشكلاطة والأتواب⁵.

¹J. Tolédano, *Portrait ...*, op. cit, p. 262.

²Ibid, p. 263.

³Ibid, p. 264.

⁴Ibid, p. 264.

⁵A. Lévy, op .cit, p. 89.

أما ما يتعلق بالمشروبات الروحية فقد كان نصيب الأوروبيين منها 10 لترات للفرد الواحد شهريا، مقابل لترين إلى لتر ونصف لليهود (ولاشيء للمسلمين)، غير أن حدة هذا الإجراء كانت غير محسوسة كثيرا بمدينة مكناس، لأن العائلات البورجوازية كانت تتولى صناعة خمرها الخاصة وتقدم منه لجيرانها. أما ما يتعلق بطريقة التزود بهذه المواد فقد كان اليهود كالمسلمين مجبرين على اقتنائها من إخوانهم في الدين، عكس الأوروبيين الذين كان بإمكانهم التزود بها من أينما شاءوا. فضلا عن ذلك كانت المحلات اليهودية هي آخر ما يتم تزويده بتلك المواد بجودة أقل على العموم¹.

مهمة توزيع بطاقات التموين بالنسبة للأوروبيين والمسلمين الحضرين بمكناس تمت إنطاقتها بالمصالح البلدية عكس اليهود الذين كلفت لجان جماعتهم بتلك المهمة، مع ما كان لذلك من مشاكل ارتبطت بضعف إمكاناتها في القيام بها، وكذا حدوث بعض التجاوزات المرتبطة بالاختلاس والتمييز لصالح بعض الأفراد، غير أن تكليف نيسيم أويون بهذه المهمة داخل الجماعة اليهودية بمكناس لم يؤدّ إلى حدوث مثل تلك التجاوزات، لأنه اشتهر بنزاهته وصرامته وتعاطفه أكثر مع المعوزين²، وذلك بشهادة HaimeShiran_Shkérane في مذكراته التي يقول فيها: "في بداية الحرب العالمية الثانية، كان الجميع ممونا بالطحين والسكر والزيت، وكانت كل المستلزمات الضرورية للمطبخ المغربي قد صارت نادرة وغالية الثمن. لقد كنت الطفل الأول في عائلي، وكانت أمي توقظني باكرا كي آخذ دوري في الصف أمام محل المواد الغذائية، حتى أتمكن من الحصول على ما نحتاجه من المواد التموينية... وكنت غالبا من أوائل الأطفال الذين يتم استعجالهم لهذه المهمة من قبل آبائهم. عند فتح المحل حوالي الساعة الثامنة، كان يصل طول الصف لحوالي عشرات الأمتار. وعندما توشك الساعة السادسة كانت أمي تلتحق بي كي تأخذ مكاني، حتى أتمكن من الذهاب للصلاة مع أبي"³.

في ظل هذا المناخ المتسم بالندرة ازدهرت السوق السوداء لدى كل طبقات الساكنة، لذلك كان الجميع يصف الأمر بـ "سوق اليهود"، مما أدى إلى العديد من المتابعات والملاحقات في صفوف هؤلاء. وإذا كانت ثروة بعض التجار قد ازدهرت خلال هذه الحقبة إلى درجة أن أحد الأحياء بالملاح الجديد سمي بـ "درب السوق السوداء" فإن

¹J. Tolédano, *Portrait ...*, op. cit, p. 264.

²Ibid, p. 264.

³Ibid, p. 264.

الأغلبية خلال هذه الفترة عانت من صعوبات اقتصادية كبيرة. وفي ظل فقر كهذا كان المحاكمات أقل صرامة في إصدار أحكام التحريم والمنع المتوافقة مع ما يجب الالتزام به خلال الاحتفال بعيد "البساح" (عيد الفصح)¹.

وللتغلب على هذا الوضع، كان الأعيان اليهود بمدينة مكناس لا يترددون كل من جهته في استغلال علاقاتهم الشخصية مع رجالات المخزن أو موظفي سلطة الحماية، من أجل تخفيف أو تلطيف تداعيات قانون فيشي في نسخته الأولى². في هذا السياق نذكر حالة رئيس جماعة يهود مكناس جوزيف بيرديغو الذي كان معروفا بعلاقاته الممتازة مع السلطات المخزنية والفرنسية، ذلك أنه لم يتردد عند اندلاع الحرب العالمية الثانية عن التعبير عن "حب يهود المغرب لفرنسا"، كما طلب دعم الأعيان المسلمين، ودعم الباشا المدينة للتدخل لدى السلطان لفائدة بعض يهود جماعته³. ومن أجل تجاوز محنة قوانين فيشي بأقل الخسائر الممكنة سعى اليهود خلال هذه الفترة العنصرية إلى التذكير بكونهم "أهل ذمة" يبعثهم في عنق السلطان أملا في الخلاص، وهو الأمر الذي طالما حاولوا التخلص منه منذ عشرات السنين. وتفاعلا مع ذلك يذكر روبر أصراف بأن السلطان محمد الخامس قد صرح قائلا: "أنا لا أوافق أبدا على القوانين الجديدة المعادية لليهود، وأرفض الاشتراك في إجراء أشجبه. وأريد أن أخبركم أن الإسرائيليين سيظلون كما كانوا في الماضي تحت حمايتي، وأرفض أن يكون هناك تمييز بين رعاياي."⁴ لذلك طبقت قوانين فيشي بطرق مختلفة وحسب الأشخاص والظروف، كما أنه بسبب معارضة السلطان لم تظهر سلطات الحماية تجاوزا في الاندفاع في تنزيل مقتضيات تلك القوانين، ناهيك عن حرصها على عدم المخاطرة بالتوازن الاقتصادي للبلاد، لأنها كانت مدركة بأن في منطق الرأسمال يرجح منطق المردودية في بعض الأحيان على العنصرية⁵.

تسعة أشهر بعد القانون الأول (ظهر 13 أكتوبر 1940)، ونتيجة للضغط الألماني تم تصعيد القوانين المعادية لليهود من طرف نظام فيشي⁶، عبر مؤسسة المفوضية العامة لشؤون اليهود التي كانت مكلفة بشؤون اليهود، وكان المسؤول عنها هو النائب كسافيي فلات الذي كان ينتمي إلى اليمين المتطرف، وقد كان قبل ذلك من قدماء المحاربين الأشد عداء للألمان خلال الحرب العالمية الأولى. هذا الأخير صار ينظر إلى القانون الأساسي الأول المعادي لليهود على أنه ناقص، وبناء عليه قام بصياغة قانون جديد نشر بتاريخ 2 يونيو 1941 من أجل تطبيقه بالميتروبول⁷.

¹Ibid, p. 265.

²روبير أصراف، محمد الخامس واليهود المغربية...، مرجع سابق، ص. 187.

³روبير أصراف، محمد الخامس واليهود المغربية...، مرجع سابق، ص. 188.

⁴نفسه، ص. 190.

⁵نفسه، ص. 192.

⁶D. Bensimon- Donath, *Evolution du judaisme marocain...*, op. cit, p. 109.

⁷R. Assaraf, *Eléments...*, op. cit, p. 253.

لقد أدّى نشر قانون 2 يونيو المتعلق باليهود بالميتروبول¹، إلى إشعار يهود المغرب بأن قانوناً جديداً سوف يليه، يطبق بجميع المستعمرات الفرنسية، مما جعل الخوف يتزايد حول الوضع القانوني لليهود المغاربة. هذه المرة خرجت الجماعة اليهودية المكناسية من سباتها ورضوخها الذي ميزها منذ نكبتها، ولم تكن مهمة رؤسائها سهلة، وذلك لعدم توفر يهود المغرب على هيئة تمثيلية مركزية قادرة على توحيد الموقف تجاه هذا التطور، لأن الجماعات كانت تشتغل منعزلة عن بعضها البعض، وبناء عليه كانت كل جماعة تستغل معارفها الشخصية مع ممثلي المخزن والإقامة العامة. ومدينة مكناس، تولى رئيس الجماعة مهمة التدخل لدى الباشا وأعيان المدينة ولدى القصر. كما التجأ ممثلو الجماعة اليهودية إلى العرف التقليدي المتمثل في "المزاوكة" عبر ذبح ثور أمام مقر العامل لطلب الحماية الإلهية لليهود، وفي نفس الوقت تذكير الموظف المخزني بأن قانون الذمة يحتم عليه ويلزمه أن يحميهم. كما قام راديو الملاح بإشاعة خبر مفاده أنه منذ شهور هناك أصداء مشجعة عن معارضة السلطان محمد بن يوسف لهذه الإجراءات العنصرية المفروضة على رعاياه اليهود².

صورة رقم 33: صورة تعكس عرف "المزاوكة" من طرف اليهود طلباً للحماية



Source : J. Tolédano, *Portrait...*, op. Cit, p. 261.

ولعل ما زاد من طمأننتهم تصريح للسلطان عندما استقبل ممثلي الجماعة اليهودية على هامش الاحتفال بعيد العرش بتاريخ 18 نونبر جاء فيه: "أنا لا أوافق أبداً على القوانين الجديدة المعادية لليهود، وأرفض الاشتراك في إجراء

¹ANR, Secrétariat Général du Protectorat, Service de législation, Objet : Loi du 2 JUIN 1941 remplaçant la loi du 3 octobre 1940 potant statut des Juif, N° boit : A1046.

²R. Assaraf, *Eléments...*, op. cit, p. 253.

أشجبه، وأريد أن أخبركم أن الإسرائيليين سيظلون تحت حمايتي كما كانوا في الماضي، وأرفض أن يكون هناك تمييز بين رعاياي"¹.

خلال هذه الفترة انتشر قول للسلطان محمد بن يوسف يفيد بأنه سيحمل رفقة عائلته النجمة الصفراء إذا ما أُرغم رعاياه اليهود على حملها لأنه يعتبرهم كأولاده²، وهو نفس الموقف الذي أكدته في مناسبة أخرى عندما استقبل بقصره سرا ممثلين عن الجماعة اليهودية لمكناس، حتى لا يثير حفيظة الإقامة العامة. وحسب شهادة لرئيس جماعة مكناس جوزيف بيرديغو، فإن اليهود قد استطاعوا الدخول للقصر محتبين في شاحنة مغطاة محملة بالمؤن الغذائية، وعندما قابلوه صرح بما يفيد وعده إياهم بأن التصريح بالممتلكات الذي جاء في قانون 2 يونيو 1941 لن يكون مقدمة لأعمال المصادرة، كما ذكرهم بأنه معارض لكل الإجراءات التعسفية التي يمكن أن تطالهم، ووعيا منه أنه لا يستطيع إلغاء ذلك القانون فإنه وعدهم بالتخفيف من حدته³. مواقف وتصريحات السلطان هاته انتشرت بسرعة في صفوف المغاربة اليهود، مما أدى مع مرور الزمن إلى أسطورة شخصية السلطان في وجدان رعاياه اليهود⁴.

هذه التحركات لم تتجاهل حقيقة أن السلطة الفعلية هي بيد الإقامة العامة، ولذلك، وتفاديا لتطبيق القانون الثاني ل 2 يونيو 1941، عمل اليهود على استغلال مدة الشهرين الفاصلة بين المصادقة على القانون بفرنسا وتطبيقه بالمغرب⁵، وبموافقة ضمنية للمخزن، بعث رئيس مجلس الجماعة بمكناس جوزيف بيرديغو إلى جانب رؤساء الجماعات الثلاث الأساسية لكل من الدار البيضاء والرباط وسلا، وهم على التوالي: يحيى زاكوري، ووالبير أميال، وبنسيون أويون، دعوة "يائسة" للمقيم العام نوحيس بتاريخ 23 يوليوز 1941 جاء فيها: "باعتبارنا رؤساء الجماعات الإسرائيلية الأربع بالمغرب، والتي تضم 200 ألف نسمة، نود بكل تقدير، أن نلفت اهتمامكم السامي إلى القلق العميق الذي انتابنا منذ الإعلان عن إجراءات تهدد إخواننا، وذلك فيما يتعلق بتطبيق القانون الجديد لليهود. إننا لسنا في حاجة إلى أن نخبركم بأن هذا القلق ينتاب جميع أفراد جماعاتنا، والذين يتصورون بكل سهولة الاضطراب الذي يمكن أن تلحقه هذه الإجراءات المقررة ضدهم، وضد أناس آخرين يكفلونهم، سواء على الصعيد المادي أو المعنوي. [...] منذ أن استقر اليهود بالمغرب قبل قرون شكلوا دائما عنصرا مسالما وصادقا وخدميا، حتى قبل تأسيس الحماية، ولم يخلوا بولائهم وتشبثهم بفرنسا حتى في أحلك الفترات. لذلك فإن إمكانية إقصائهم عن الحياة الاقتصادية

¹J. Tolédano, *Portrait ...*, op. cit, p. 265.

²R. Assaraf, *Eléments...*, op. cit, p. 254.

³روبير أصراف، محمد الخامس واليهود المغربية...، مرجع سابق، ص. 226.

⁴J. Tolédano, *Portrait ...*, op. cit, p. 265.

⁵روبير أصراف، محمد الخامس واليهود المغربية...، مرجع سابق، ص. 205-206.

والفكرية والاجتماعية لفرنسا المرتبطين بها أحبطت إخواننا في الدين، ومن واجبنا إعلام الممثل الرئيسي لفرنسا من أجل إسقاط هذه الكارثة المعلنة..."¹.

بعد شهرين من المفاوضات بين الإقامة العامة والوزير الأعظم، صدرت يوم 8 غشت 1941 النسخة المغربية من القانون الجديد المعادي لليهود في إطار 4 ظهائر². الحاصل أن هذا القانون الجديد كان من جهة، أقل قسوة من الذي طبق بالميتروبول نظرا للاستثناءات التي طلبها المخزن وكذلك الإقامة العامة³، ومن جهة أخرى كان أكثر حدة من القانون الأول لسنة 1940، وذلك من خلال ما جاء في فصوله، فضلا عن القرارات الوزارية المكملة له.

مثلما كان الأمر في القانون الأول، نص القانون الجديد بمقتضى مذكرة صدرت في شهر شتنبر من سنة 1941 على تعريف اليهودي المغربي على أساس ديني وليس على أساس عرقي⁴، وهو ما كان يتيح لهم في حال اعتناقهم للمسيحية أو الإسلام التحلل من تلك القوانين، ولو كان لهم جد يهودي رابع، على عكس يهود الجزائر الذين ظلوا يهوداً في نظر قوانين فيشي في صيغتها الأولى والثانية⁵ بالرغم من اعتناقهم للمسيحية أو الإسلام، وهو ما لم يُطبق حتى في ألمانيا والمناطق الخاضعة لها⁶.

وفي الفصل الثالث من ظهير 5 غشت 1941، نص على ما يلي: "يجوز لليهود أن يزاولوا، بحرية، أية حرفة من الحرف وكذلك التجارة بالتقسيط، وتستصدر قرارات وزيرية في تعيين الحدود والشروط التي يمكن بموجبها أن يباشروا الأنواع الأخرى من التجارة، وكذلك المهن الحرة والصناعية". كما وسع القانون الجديد لائحة المهن الممنوعة على اليهود، كما جاء في الفصل الرابع: "صاحب بنك، ومبدل السكك، والوسيط في الشؤون البنكية والمتوسط في أسواق السندات بالبورصة، أو في أسواق التجارة، وممون النشر والإذاعة، والوسطاء في الشؤون العقارية، أو في قرض الأموال والمتاجرين في المحلات التجارية أو الأمتعة، والسمسار والوسيط بالعمولة، ومستثمر الغابات، والحائز على امتياز لعب القمار، وناشر الصحف والمكتوبات الدورية ومديرها ومسيرها وإداريها ومحررها وحتى مراسلها على المستوى المحلي، باستثناء المنشورات العلمية المحضة أو الدينية. ومستغل ومدير ومسير الشركات التي موضوعها صناعة

¹J. Tolédano, *Portrait* ..., op. cit, p. 266.

²ANR, B.O, N°1502 du 8 août 1941, N° de boit : A1046.

³R. Assaraf, *Eléments*..., op. cit. p. 255.

⁴ANR, Délégation Générale du Gouvernement en Afrique Française, Bureau Politique, Note sur le nouveau statut des Juifs au Maroc, N° de boit : A1046.

⁵ANR, Extrait du Journal Officiel de la République Française N° 256, du 8 Octobre 1940, p. 5234, portant abrogation du décret du Gouvernement de la défense nationale du 24 Octobre 1870 et fixant le statut des JUIFS Indigènes des Départements de L'Algérie, N° de boit : A1046.

⁶Michel Abitbol, *Les Juifs d'Afrique du Nord sous Vichy*, Ed Riveneuve, Paris, 2008, p. 90-91.

وطبع وتوزيع وعرض الأفلام السينمائية، والمخرج ومدير التصوير وكتاب السيناريو. ومستغل ومدير ومدير ووكيل قاعات السينما والتمثيل والمستثمر في العروض. ومستغل ومدير ومدير ووكيل بالإذاعة. وستصدر قرارات وزيرية لتحديد شروط تطبيق كل صنف في هذا الفصل". وفي الفصل الخامس تم التنصيص على منع اليهود المغاربة من قرض الأموال تحت أي شكل من الأشكال، حتى ولو لم يكن ذلك يدخل في مهنتهم العادية¹. كما صدر قرار وزيري يفيد بضرورة التزام المغاربة اليهود بالتخلي عن الوظائف المحجزة عليهم قبل تاريخ 30 نونبر 1941².

ونص الفصل السادس على ما يلي: "لا يسوغ لليهود المغاربة في أي حال من الأحوال أن يشاركوا في المنظمات المكلفة بالنيابة في الحرف المشار إليها في الفصلين الثالث والرابع من ظهيرنا الشريف..."³. أما الفصل السابع فقد أشار إلى عدم حصول أي تغيير فيما يتعلق المؤسسات والمنظمات الخاصة بإسرائيل بالإيالة الشريفة بما في ذلك مفتشية هذه المؤسسات والمنظمات. كما استهدف الفصل الثامن من الظهير فئة الموظفين حيث نص على أن "الموظفين اليهود المغاربة المعنيين في المادتين الثالثة والرابعة من ظهير 31 أكتوبر 1940 المتعلق بقانون اليهود، يعتبرون وكأنهم انقطعوا عن مهامهم ابتداء من فاتح يناير 1941". أما الفصل الحادي عشر فقد حدد العقوبات في حال خرق مواد القانون، جاء فيه: "لن يكون ضرر بالقانون بالنسبة لمندوب الحكومة أو السلطة التي ينتدبها لهذا الغرض، في الحكم بالحبس من ستة أشهر إلى سنتين وبغرامة تتراوح ما بين 500 و1000 فرنك، أو بإحدى هاتين العقوبتين أو على كل من يتعاطى، أو يحاول أن يتعاطى نشاطاً يحظر عليه ممارسته بمقتضى هذا الظهير. الحكم بالحبس من سنة إلى خمس سنوات سجناً وبغرامة تتراوح ما بين 1000 و20000 فرنك، أو بإحدى هاتين العقوبتين على كل يهودي يتملص أو يحاول أن يتملص من الممنوعات الواردة في الفقرة السابقة، بواسطة تصريحات كاذبة أو عمليات مزورة، ويمكن للمحكمة بالإضافة إلى هذا، أن تأمر بإغلاق المؤسسة". الفصل 12 جاء فيه: "ستصدر قرارات وزيرية تحين إن اقتضى الحال شروط تطبيق الظهير الشريف في المنطقة الفرنسية من إيالتنا⁴، مع استثناء من تم السماح لهم بإمكانية استمرار تمديد حق مزاوله بعض المهن الممنوعة حتى ما بعد تاريخ 30 نونبر 1941، مع ضرورة الحصول على قرار وزيري لضمان حق التصرف في الممتلكات اليهودية المخصصة لممارسة مهنة أو وظيفة محظورة"⁵.

¹ANR, Dahir du 5 Aout 1941 (11 rejev 1360) relatif au statut des Juifs Marocains, N° de boîte : A1046. p. 10.

²ANR, Arrêté Viziriel pour L'application du dahir du 5 Aout 1941 (11rejev 1360) relatif au statut des Juifs Marocains, 16 Septembre 1941, (23 chaabane 1360) Signé Mohammed El Mokri, N° de boîte : A1046.

³ANR, Dahir du 5 Aout 1941 (11 rejev 1360) relatif au statut des Juifs Marocains, N° de boîte : A1046, p. 10.

⁴ANR, Dahir du 5 Aout 1941 (11 rejev 1360) relatif au statut des Juifs Marocains, N° de boîte : A1046, p. 11.

⁵ANR, Lettre du Directeur de L'Agence Cherfienne D'Importation et d'Exportation, au Conseiller Juridique du Protectorat- Maitre des Requêtes au Conseil D'Etat, N° de boîte : A1046.

وفيما يرتبط بالمنع الذي طال مزاولة بعض المهن الحرة، فقد صدرت قرارات وزيرية تكميلية لظهير 5 غشت 1941، حددت لليهود النسبة المسموح لهم بممارستها (le numerus Clausus)، وبخصوص مهنة المحاماة فقد حددت النسبة في 2 بالمائة بمقتضى القرار الوزيري الذي صدر في 18 غشت 1941 (24 رجب 1360)¹. أما بخصوص الأطباء فقد طُبق القرار نفسه بناء على قرار وزيري صدر في 24 فبراير 1942 (9 صفر 1361) جاء في الفصل الأول منه: "إن عدد الأشخاص المعينين بالظهائر الشريفة المشار إليهم بمقتضى ظهير 5 غشت لسنة 1941 الذين وقع قبولهم لمباشرة مهنة الطب لا يمكن أن يتجاوز 2 في كل مجلس إقليمي للجماعة من مجموع عدد الأطباء غير اليهود"².

أما فيما يخص المنع الذي طال اليهود في السكن، فقد صدر ظهير في هذا الشأن بتاريخ 19 غشت 1941 جاء في الفصل الأول منه: "على اليهود المغاربة الذين يمتلكون بأي وجه كان محلات للسكن بالأحياء الأوروبية بالمدن البلديات، إذا لم يأتوا بحجة تفيد حيازة تلك العقارات قبل فاتح شتنبر، 1939 أن يفرغوها في أجل شهر من تاريخ صدور الظهير". كما نص الفصل الرابع على ضرورة الالتزام بإفراغ تلك المحلات قبل فاتح شتنبر، وسينظم ذلك بمقتضى ظهير سيصدر من الوزير الأعظم. وتجدد الإشارة إلى أن الفصل الخامس من نفس الظهير قد استثنى من هذا المنع اليهود المغاربة الذين تتوفر فيهم الشروط التالية:

✓ أن يكون حائزا على بطاقة المحارب التي تمت الإشارة إليها في الفصل 101 من قانون 19 دجنبر 1926.

✓ أن يكون حاصلا على صليب الحرب برسم حملة 1939-1940، بمقتضى قرار 28 مارس 1941.

✓ أن يكون حاصلا على وسام الشرف أو الميدالية العسكرية لأسباب تتعلق بالحرب.

✓ أن يكون المعني بالأمر قريبا أو أرملة أو يتيما لعسكري توفي من أجل فرنسا.

✓ أن يكون حاصلا على الاستحقاق المدني أو العسكري الشريف³.

وقد صدرت في هذا الصدد توجيهات عن الإقامة العامة لمختلف الإدارات المكلفة بالبحث في ملفات المعفيين من قوانين فيشي أو المطالبين بتمديد فترة مزاولة أحد المهن الممنوعة أو المطالبين بحق التصرف في ممتلكاتهم، على أساس أن يحسم فيها رئيس الجهة بشكل موضوعي وصارم من دون محاباة⁴.

¹ANR, Arrêté Viziriel du 18 Aout 1941(24 rejev 1360) réglementation par les Juifs de la profession d'avocat. N° de boit : A1046.

²ANR, Arrêté Viziriel réglementant, en ce qui concerne les Juifs la profession de médecin, 24 Février 1942(9 Safar 1361), N° de boit : A1046.

³ANR, Dahir du 19Aout 1941 (25 rejev 1360) interdisant l'habitat des Juifs sujet marocains dans les secteurs européens des municipalités, N° de boit : A1046.

⁴ANR, Instruction Résidentielle pour L'examen des demandes de dérogation résultant de la législation en Vigueur sur les Juifs, N° de boite : A1046.

في مجال التعليم، تم التنصيص على ألا تتجاوز نسبة استفادة اليهود - من جميع الجنسيات: فرنسيين جزائريين ومغاربة وأجانب - من التعليم العالي 3 بالمائة في كل قسم، في حين حددت النسبة في التعليم الثانوي في 10 بالمائة في كل قسم، ونفس النسبة في الأقسام الفرنسية في المستوى ما قبل المدرسي والابتدائي والتكميلي والمهني، مع استثناء مدارس الرابطة والمدارس اليهودية-الفرنسية الابتدائية والمهنية من ذلك¹. ارتباطا مع هذا الموضوع، تجدر الإشارة إلى أن بعض اليهود البرازيليين المقيمين بالمغرب قد أبدوا استغرابهم من هذه القوانين العنصرية في التعليم التي بمقتضاها تقرر أن يخضعوا لنفس النسب في المدارس الفرنسية للحماية، الأمر الذي دفعهم إلى الاحتجاج على المسؤولين الفرنسيين بالمغرب لأن الحكومة البرازيلية لا تميز بين مواطنيها على أساس الانتماء الديني². وهو الأمر نفسه الذي سعى إليه بعض اليهود الفرنسيين المقيمين بالمغرب، حيث سعوا إلى إثبات عدم يهوديتهم طبقا للقانون الفرنسي حتى يستطيعوا الإفلات من قوانين فيشي³.

هذا وقد أصبح إحصاء المغاربة اليهود وأموالهم المنقولة وغير المنقولة إجباريا بمقتضى ظهير 5 غشت 1941⁴، بدعوى محاربة السوق السوداء، وبناء عليه طُلب من جميع اليهود القاطنين بالمغرب ملء مطبوع خاص تم سحبه من المصالح البلدية، تضمن ضرورة الإدلاء بالمعطيات التالية: اسم الأب، ولقبه، ومحل ازدياده، وأصله (آري أو يهودي)، وجنسيته، وحالته العائلية (أعزب أو متزوج)، وأسماء أبنائه، وسن كل واحد منهم، ونوع الأمتعة التي يملك، وقيمتها، وموقعها، على أن يقوم بهذا التصريح الزوج عن زوجته والوصي عن محجوزه، مع إمضاء المعني بتعبئة المطبوع⁵. كما صدرت في هذا الشأن رسالة من مدير الشؤون السياسية إلى رؤساء الجهات بخصوص الإجراءات الواجب التقيد بها في عملية إحصاء اليهود طبقا لمضامين قانون 5 غشت 1941⁶. وبناء عليه نظمت عمليات تفتيش دورية لمنازل اليهود، بل للسكنة المغربية ككل، والتي عانت خلال هذه المرحلة من عمليات التفتيش لصالح الميتروبول ومن رفع الضرائب⁷.

¹ANR, Annexe n°3 au Bulletin de Renseignement Politique du 5 au 11 Septembre, Admission des élèves Juifs dans les Etablissements d'enseignement public du Maroc, à partir de la rentrée d'Octobre 1941, N° de boîte : A1046.

²ANR, Lettre du Consul du Brésil, au Chef du Cabinet Diplomatique Résidence Rabat, 8 Novembre 1941, Casablanca.

³ANR, Note pour Monsieur le Commissaire Résident Général, N° de boîte : A1046.

⁴ANR, Secrétariat Général du Protectorat, Service de législation, Objet : Dahir du 5 Août 1941 (11 rejev 1360), Prescrivant le recensement des Juifs. N° de boîte : A1046.

⁵ANR, Application du Dahir du 5 Août 1941 (11 rejev 1360), Prescrivant le recensement des Juifs. N° de boîte : A1046.

⁶ANR, Lettre du Directeur des Affaires Politique aux Chefs de Région : Casablanca, Fès, Marrakech, Meknès, Oujda, Rabat, (Secrétariat généraux) au Chef Commandement Agadir-Confins, (Bureau du Commandement) Tiznit, Objet : a/s Application du Dahir du 5 Aout 1941 (11 rejev 1360), Prescrivant le recensement des Juifs. N° de boîte : A1046.

⁷D. Bensimon- Donath, *Evolution du judaïsme marocain...*, op. cit, p. 109.

صورتان (34 و 35): نموذج وثيقتين بخصوص إحصاء المغاربة اليهود وأموالهم المنقولة وغير المنقولة

PROTECTORAT DE L'ÉTAT FRANÇAIS
AU MAROC

Application du dahir du 5 août 1941
portant statut des Juifs marocains et du dahir du 5 août 1941 (11 rejev 1360)
prescrivant le recensement des Juifs marocains.

Région d.....
Territoire d.....
Ville ou circonscription.....

DÉCLARATION DE JUIF MAROCAIN

Je soussigné
né le
et domicilié à déclare être
Juif marocain au regard du dahir du 5 août 1941 comme étant né de (r).....
et de (s).....
Je suis (3).....
Je suis père de enfants (4).....
J'exerce la profession d.....
L'état de mes biens est le suivant : (5)
a) Biens mobiliers :
b) Biens immobiliers :

*40.000
Traduction
du text en
arabe*

RÉSIDENCE GÉNÉRALE DE FRANCE
AU MAROC

COPIE

Publ. le 21 Août 1941

3 DIRECTION
DES
AFFAIRES POLITIQUES

Section administrative

N° 7170 D.A.P./S

OBJET :
Application des dahirs du
5 août 1941 prescrivant le
recensement des Juifs.

Le Directeur des Affaires Politiques
à Messieurs les chefs de Région :
CASABLANCA, FES, MARRAKECH, TANGER, OUJDA, RABAT
(Secrétariat généraux)
à Chef Commandement Agadir-Confins
(Bureau du Commandement) TINGIT

J'ai l'honneur de vous faire parvenir, sous ce pli
en vous priant de les répartir d'urgence jusqu'à l'échelon
poste, un certain nombre d'exemplaires de déclarations à
soussigner par les Juifs marocains et autres en application
des dahirs du 5 août 1941 prescrivant le recensement des Juifs
marocains.

Pour plus de commodité, deux modèles de déclara-
tions ont été prévus, l'un concernant les Juifs marocains,
l'autre les Juifs autres que les Juifs marocains.

Ces imprimés devront être remis à la disposition
des intéressés dans les bureaux des Services Municipaux pour
les villes et dans les bureaux de Contrôle Civil ou d'Affaires
Indigènes pour les tribus et les centres non constitués en
municipalités.

Je vous prie de bien vouloir, dès réception de la
présente circulaire, donner toutes instructions utiles aux
autorités placées sous vos ordres afin qu'elles envoient, par
les moyens de publicité à leur disposition, tous les Juifs
domiciliés ou en résidence sur leur territoire à se faire
délivrer les formulaires de déclarations nécessaires.

Les déclarations, une fois remplies, devront être
remises, suivant le cas, aux Services Municipaux, bureau de
Contrôle Civil ou d'Affaires Indigènes qui les rassembleront
et vous les feront parvenir.

Source : ANR

ومن تداعيات قوانين فيشي العنصرية على يهود مكناس في مجال الوظيفة العمومية، أن تم عزل عدد محدود من يهود المدينة الذين كانوا يشغلون بعض الوظائف التي تمت إضافتها إلى لائحة المهن المحظور عليهم مزاولتها بمقتضى ظهير 5 غشت 1941¹.

أما في المجال الاقتصادي فقد كان للمخزن دور مهم في الحفاظ على بعض المكتسبات الاقتصادية، ذلك أن تحرير الفصول 3 و4 و5، بناء على طلبه انسجما مع مبدأ البيعة كان له الفضل في حفاظ اليهود على حريتهم في مجال مزاوله الأنشطة الحرفية والتجارة بالتقسيط، لأن المخزن أراد بذلك أيضا المحافظة على مصالح المغاربة المسلمين الذين كانوا يتعاملون مع نظرائهم اليهود بكثافة في هذا المجال، لأن إبعاد اليهود عن الحياة الاقتصادية بشكل كلي كان سيشكل ضربة قاضية للاقتصاد التقليدي، وهو ما شكل بالتالي امتيازاً مهما حافظ على الوضع القائم في هذين المجالين المهمين بالنسبة لهم وللمسلمين². وفيما يتعلق بالنسب التي حددت فيما يرتبط بالمجالات الأخرى لم تكن لها أضرار فضلا عن أنها جاءت متأخرة³. غير أن الأمر كان مختلفا في مجال التعليم، ذلك أن حصر عدد التلاميذ اليهود الذين كان من حقهم متابعة تعليمهم الثانوي بالمؤسسات الفرنسية في 10 بالمائة بمعدل أقصاه تلميذان يهوديان فقط في كل قسم، كانت له تداعيات سلبية، لأنه أدى إلى طرد عدد من التلاميذ اليهود، خصوصا وأن تنزيل القانون كان يتم باحتساب النسبة حسب القسم، وليس حسب المؤسسة التعليمية ككل، بالتالي كان ممنوعا على التلاميذ المطرودين من فصل استوفيت النسبة المحددة فيه الانتقال إلى فصل آخر لم تستوف فيه هذه النسبة، وقد كان الهدف من ذلك حرمان اليهود من فرصة الحصول على أكبر نسبة من الحاصلين على شهادة البكالوريا⁴. وقد جاء في مرحلة كان فيها بعض التلاميذ اليهود قد حققوا بعض التقدم في هذا المستوى. لكن الحاصل أن بعضا لأساتذة الذين كانوا يعملون بثانوية بومبيرو تعاطفوا مع تلاميذهم اليهود⁵، ونخص بذلك الأستاذين Habchet وRousseau اللذين قررا معا الانتقال للملاح من أجل تقديم الدروس للمطرودين بمنزلهم حتى يستطيعوا الترشح لاجتياز امتحانات البكالوريا كأحرار. وفي ظل هذا المناخ المشحون بمعادة السامية، قام مدير مدرسة

¹R. Assaraf, *Eléments...*, op. cit, p. 254.

²Ibid, p. 255.

³J. Tolédano, *Portrait ...*, op. cit, p. 268.

⁴Ibid, p. 268.

⁵J. Tolédano, *Le temps du Mellah...*, op. cit, 145.

الأليانس بتحذير التلاميذ اليهود الذين كانوا يصدد اجتياز امتحان الشهادة الابتدائية بالمدارس الفرنسية من أن فرصهم في النجاح كانت ضئيلة، لأن التعليمات كانت قد أعطيت حتى يتم ترسيب أكبر عدد من أبناء اليهود¹.

لكن رغم التضيق الذي تم في مجال التعليم، فإن يهود المغرب عموما كانوا محظوظين، لأن الإجراءات التمييزية المتعلقة بالتعليم بمقتضى قوانين فيشي لم تشمل إلا عددا محدودا من أطفالهم، ويرجع السبب في ذلك إلى أن السواد الأعظم منهم كانوا يتابعون تعليمهم في مؤسسات الرابطة الإسرائيلية العالمية²، فضلا عن ذلك سمح استمرار مدارس الرابطة في العمل بشكل طبيعي، للمدرسين اليهود المطرودين من الثانويات الفرنسية بالالتحاق بها لمزاولة عملهم بشكل عادي³. وفي التعليم العالي الذي فرضت فيه نسبة 3 بالمائة، كانت التداعيات شبه منعدمة، لأنه مؤسسات للتعليم العالي لم تكن إبناها بالمغرب، وبناء عليه كانت إمكانية التحاق أبناء المغاربة اليهود الحاصلين على شهادة البكالوريا بجامعة بوردو منعدمة، لأنها كانت المؤسسة الجامعية الفرنسية المعتمدة لدى المغاربة اليهود، وهو ما أدى إلى رفض التحاقهم بها كما حصل مع Albert Benabou⁴.

وبخصوص إجراءات التصريح بالملمتلكات المنصوص عليها في ظهير 5 غشت 1941، فقد أدت مباشرة من طرف سلطات الحماية إلى انتشار القلق الشديد في صفوف يهود مدينة مكناس على غرار باقي يهود المغرب، اعتقادا منهم أن هذه العملية ليست إلا مقدمة لمصادرة وسلب ممتلكاتهم⁵ (الأرينة*)، وما فاقم من مخاوفهم أن الأمر تزامن مع قدوم كزافيي فلات المفوض المكلف بالشؤون اليهودية إلى الرباط عشرة أيام بعد تشريع ذلك القانون، من أجل التأكد من مدى التزام سلطات الحماية بتطبيق قوانين فيشي بشكل صارم، وفي إطار مهمته تلك قام أيضا بزيارة لمدينة فاس المجاورة لمدينة مكناس⁶. مخاوف هؤلاء تقلصت بعدما تم التأكد من أن التصريح بالملمتلكات قد اقتصر فقط على تلك التي تتجاوز قيمتها 5000 فرنك، أما الأثاث والحلي والأغراض الشخصية فقد استثنيت من ذلك⁷.

تأثير قانون فيشي في مجال السكن اختلف حسب المدن، ذلك أن تداعياته كانت كبيرة في بعض المدن كالدار البيضاء، حيث بلغ عدد الذين فرض عليهم مغادرة الأحياء الأوربية 10000 يهودي، في حين بلغ العدد بفاس 2000،

¹J. Tolédano, *Portrait ...*, op. cit, p. 268.

²محمد كنيبي، *يهود المغرب 1912-1948...*، مرجع سابق، ص. 223.
³نفسه، ص. 231.

⁴J. Tolédano, *Portrait ...*, op. cit. p.p. 268-269.

⁵J. Tolédano, *Le temps du Mellah...*, op. cit, p. 145.

*مصطلح الأرينة في هذا السياق كان يقصد به تحويل الممتلكات اليهودية إلى الملكية الأرية.

⁶R. Assaraf, *Eléments...*, op. cit, p. 256.

⁷M. Kenbib, *Juifs et Musulmans au Maroc...*, op. cit, p. 157.

أما في مدينتي الرباط وسلا فقد وصل العدد إلى 1800، غير أن العدد كان محدوداً بمدينة مكناس حيث لم يتجاوز 150 يهودياً، ويعود السبب إلى أن غالبية يهود هذه المدينة كانوا قد استقروا بالملاح الجديد¹، ومن مكر الصدف أن هذا الإجراء أكد أن خيار الاستقرار بالمدينة الأوربية ينطوي على مجازفة غير مأمونة العواقب، كما تنبأ بذلك ميمون بنعبو الأب الروحي لفكرة بناء الملاح الجديد²، (كما سبق وأوضحنا ذلك في المحور الخاص بالملاح الجديد) عكس ليون طوليدانو، الذي كان من أول من استجاب لطلب المصالح البلدية رفقة عمه باروخ طوليدانو القاضي بالرهان على خيار بناء منازلهم بالمدينة الأوربية، لكن لحسن حظه لم يتضرر من ذلك الإجراء، لأنه ملكيته كانت قبل فاتح شتنبر 1939³، ذلك أنه كان قد مر على استقراره بالمدينة الأوربية 15 سنة⁴. وفي العلاقة مع الصعوبات التي واجهت يهود مكناس في موضوع السكن خلال هذه المرحلة، قام الوزير الأعظم بإصدار دورية بتاريخ 20 أكتوبر 1941 طالب من خلالها البشوات بضرورة العمل مستقبلاً على تفادي السماح لليهود بالسكن بالمدينة القديمة لمبررات "دينية"، وبناء عليه قام باشا مدينة مكناس بمطالبة ست عائلات يهودية بالانتقال للعيش بالملاح القديم، بعد الإخلاء الفوري لمنزليين بحي بريمة كانا يأويان ستة عائلات يهودية⁵. الإجراءات المعادية لليهود لم تتوقف عند هذا الحد، حيث وصلت أخبار في صيف 1942، تفيد بأن كل اليهود سيكونون ملزمين بحمل الشارة الصفراء⁶ بحلول 15 نونبر من سنة 1942، وقد تم تعليق منشورات فوق الأسوار تفيد قرب تحقق هذا الأمر، حتى أن جريدة la vigie Marocain قد قامت بنشر أولى المقالات التي تشير إلى ذلك بعنوان "الأرض للنقاء اليهودي ضد الجذام الفرنسي"⁷.

أخذت الأحداث منعطفاً آخر بعد الإنزال الأمريكي بالشواطئ المغربية بتاريخ 8 نونبر 1942، حيث استبشر اليهود بذلك اعتقاداً منهم أن هؤلاء قد جاؤوا أساساً لتحريرهم، لذلك استقبلوا مجيئهم بالكثير من الحماس والتفاؤل بمختلف المدن المغربية بمن فيهم يهود مدينة مكناس، لدرجة أنهم عمدوا إلى تزيين منازلهم بصور ملونة للرئيس

¹J. Tolédano, *Portrait ...*, op. cit, p. 267.

²R. Assaraf, *Eléments...*, op. cit, p. 256.

³J. Tolédano, *Portrait ...*, op. cit, p. 268.

⁴J. Tolédano, *Le temps du Mellah*, op. cit, p. 146.

⁵J. Tolédano, *Portrait ...*, op. cit, p. 270.

⁶"خلال الحقبة النازية، أعادت السلطات الألمانية إدخال الشارة اليهودية بوصفها أساساً في خطتها لقمع اليهود في أوروبا. لقد استخدموا الشارة ليس فقط لوصم اليهود وإهانتهم، بل أيضاً لفصلهم ومراقبة تحركاتهم والتحكم فيهم، كما سهلت الشارة أيضاً الترحيلات الإجبارية. وكان وزير الدعاية النازي جوزيف جوبلز أول من اقترح "علامة مميزة عامة" لليهود الألمان في مذكرة صدرت في مايو 1938. وكرر قائد شرطة الأمن راينهارد هابديتش الفكرة في اجتماع في 12 نوفمبر 1938 عقده هيرمان جورنج بعد كريستالناخت. في كلتا الحالتين لم يتم اتخاذ إجراءات فوراً. [...] في 1 سبتمبر 1941، أصدر راينهارد هيدريش مرسوماً يجبر كل يهودي في الرايخ الذي يبلغ من العمر ست سنوات أو أكثر على ارتداء لباس يتألف من نجمة داود صفراء على وجه أسود يتم ارتداؤها على الصدر مع كلمة "يهودي" منقوشة داخل النجمة باللغة الألمانية أو باللغة المحلية. وقد كان هذا القرار ينطبق على جميع اليهود الألمان واليهود في الأراضي الألمانية المحتلة."

<https://encyclopedia.ushmm.org/content/ar/article/jewish-badge-during-the-nazi-era>

⁷J. Tolédano, *Portrait ...*, op. cit, p. 270.

الأمريكي روزفلت، حيث نظروا إلى الأمريكيين بوصفهم حماة جدد، فعلقوا عليهم آمالا كبيرة¹، غير أن يهود مكناس لم يكونوا على علم بالتطورات التي حصلت بين سلطات الحماية والأمريكيين لأنهم كانوا معزولين عما يحدث بالمدن الساحلية²، حيث قرر نوجيس مقاومة النزول الأمريكي لمدة ثلاثة أيام إخلاصا منه لفيشي³، وقد استطاع تكبديهم بعض الخسائر* بعدما طلب الإمدادات من الرباط وفاس ومكناس، مما مكنه من الاستمرار في القتال دفاعا عن مطار بور ليوطي طيلة يوم 9 نونبر، مع التآرجح بين الهجوم والهجوم المضاد⁴، ولقد ألح الأمريكان وبعض أفراد حاشية نوجيس بضرورة إيقافه القتال، لكنه امتنع قائلا: "لاحق لي في الإذن بوقف القتال ما لم أتوصل بأمر من رؤسائي في الجزائر أو ممن فوقهم من قادة فيشي". لقد اتخذ نوجيس هذا الموقف، وهو يستحضر المتاعب السياسية التي كادت أن تكلفه منصبه سنة 1940 عندما حاول الخروج عن الطاعة، لذلك كان يتوقع العواقب الوخيمة سياسيا وعسكريا إذا ما تصرف من تلقاء نفسه. وبناء عليه فقد ظلت استراتيجيته على ما كانت عليه طيلة يوم 10 نونبر التي كان يسعى من خلالها إلى عرقلة الزحف الأمريكي في انتظار استصدار الأوامر من الجزائر أو من فيشي⁵، إلى أن انتهى الأمر لصالح الأمريكان يوم 10 نونبر، علما بأن المقاومة استرسلت إلى آخر لحظات الزوال.⁶ يومها انهار نوجيس حيث أوفد رسولا إلى بيتان ليطلععه على خطورة الأوضاع السياسية والعسكرية، بعد أن أضحت المقاومة الفرنسية منحصرة عند بعض "العمليات الانتحارية"، وصار الجنود لا يبدون الرغبة في القتال، لدرجة أن بعض صغار الضباط تطوعوا لدى الأمريكان على الطريق إلى الدار البيضاء كي يتوقف القتال⁷.

قرار الاستسلام الذي كان يتطلع إليه نوجيس أتى في اليوم نفسه من الجزائر (10 نونبر) من قبل الأميرال دارلان، الشخص الثاني في القيادة بعد بيتان⁸، وبناء عليه تم توقيع الهدنة مع الأمريكان يوم 11 نونبر بشروط شبيهة لما تم مع الجزائر، حيث احتفظ الفرنسيون بسلاحهم وبالسلطة على المغرب⁹.

¹J. Tolédano, *Le temps du Mellah...*, op. cit, p. 146.

²R. Assaraf, *Eléments...*, op. cit, p. 275.

³وليام هويستن، الحماية الفرنسية بالمغرب بين الأوج والافول تحت قيادة الجنرال نوجيس 1936-1943...، مرجع سابق، ص. 329.
*قائد الإنزال الأمريكي باطن كان يود أن يصطدم بالفرنسيين لحاجة جنوده إلى " شيء من إراقة الدماء"، لما في ذلك من الفائدة" مشاريعه في المستقبل"، على ما اعترف به في مذكراته". وليام هويستن، الحماية الفرنسية بالمغرب بين الأوج والافول تحت قيادة الجنرال نوجيس 1936-1943...، مرجع سابق، ص. 334 .

⁴نفسه، ص. 335.

⁵نفسه، ص. 337.

⁶نفسه، ص. 335.

⁷نفسه، ص. 337.

⁸R. Assaraf, *Eléments...*, op. cit, p. 257.

⁹وليام هويستن، الحماية الفرنسية بالمغرب بين الأوج والافول تحت قيادة الجنرال نوجيس 1936-1943...، مرجع سابق، ص. 343.

تسارع الأحداث هذا لم يحدث أثرا فوريا على حالة اليهود بالمغرب، إذ استمر العمل بقوانين فيشي، كما أن سلطات الحماية تشددت في منع التواصل بين اليهود والأمريكيين¹. وعندما سرت شائعة كاذبة (يوم 11 نونبر 1942) في صفوف يهود مكناس تفيد بحلول الجنود الأمريكيين بالمدينة، قام المئات من يهود المدينة بالخروج من الملاح لتحية هؤلاء اعتقادا منهم أن الأمريكيين سيحلون محل فرنسا التي خاب ظنهم فيها²، مما أدى إلى حدوث اصطدام مع قوات حفظ النظام الفرنسية التي قامت بالسيطرة على الوضع، فضلا عن اعتقال يهوديين³. أكثر من ذلك قامت سلطات الحماية الفرنسية بحصار الملاح لمدة تقارب الشهر ما بين 13 نونبر و15 دجنبر، حيث سيتولى عدد من الجنود السينيغاليين منع أي يهودي من مغادرة الملاح، باستثناء أولئك الذين كانوا يعملون بالمدينة الأوربية، وحاصلين على تصريح مكتوب يميز لهم الخروج، وقد تولى رئيس مجلس الجماعة صلاحية منح تلك التراخيص لمن استطاع الإدلاء بما يفيد الاشتغال بالمدينة الأوربية، كما أن سلطات الحماية تشددت في فرض احترام هذا المنع من خلال تهديد كل من يخالف ذلك بالتعرض لعقوبات شديدة جدا⁴. وفي هذا الصدد قامت الشرطة الفرنسية المعادية للسامية بمدينة مكناس يوم 28 نونبر بنصب "فخ" لعدد من اليهود، حيث قامت باقتحام 5 قاعات للسينما واعتقال ما بين 350 و400 يهودي وعرضهم على مقر الشرطة المركزية، بدعوى أنهم غادروا الملاح من دون الحصول على الإذن بذلك⁵، رغم أن الذين تم القبض عليهم كانوا من فئة الذين حصلوا على تلك التراخيص التي تثبت أنهم يشتغلون بالمدينة الأوربية، غير أن الشرطة بررت قرارها بكونها منحت لهم تلك الجوازات للذهاب للعمل وليس للتسلية⁶، لذلك سحبت منهم تلك التراخيص، ووجهت لهم إنذارا بالحبس لمدة ستة أشهر في حال عاودوا القيام بذلك، بينما تم عرض من لم يكونوا يحملون تلك التراخيص على محكمة الباشا فتم الحكم عليهم بغرامات كبيرة⁷.

لم تقتصر هذه المضايقات على اليهود القاطنين بالملاح فقط، بل عانى منها أيضا اليهود الذين كانوا يقطنون بالمدينة الأوربية، حيث كانوا يتعرضون للإهانات من قبل الموظفين الفرنسيين الذين كانوا في أغليبيتهم من المعادين للسامية، بالرغم من قرار الهدنة الذي وقع مع الأمريكيين، ذلك أن الذين كانوا يتوجهون لطلب ترخيص الخروج من الملاح من قبل الفرنسيين، كانوا يواجهون بعبارة: "إنكم لستم في حاجة لذلك، ارتدوا ملابسكم اليهودية وعودوا للعيش بالملاح!" فضلا عن ذلك يؤكد جوزيف طوليدانو أن مسلمي المدينة الذين كانت لهم علاقات جيدة مع

¹R. Assaraf, *Eléments* ..., op. cit, p. 257.

²J. Tolédano, *Portrait* ..., op. cit, p. 171.

³R. Assaraf, *Eléments*..., op. cit, p. 257.

⁴Ibid, p. 257.

⁵J. Tolédano, *Portrait* ..., op. cit, p. 272.

⁶روبير أصراف، محمد الخامس واليهود المغاربة...، مرجع سابق، ص. 237.

⁷J. Tolédano, *Portrait* ..., op. cit, p. 272.

اليهود فيما قبل، التزموا الحياد تجاه هذه المعاملة¹، في حين كان البعض منهم يقوم بالتبليغ عن اليهود الذين يدخلون للمدينة الأوربية للسلطات الفرنسية، كما أن باشا المدينة كان يتوجه للأعيان اليهود قائلًا: "عليكم أن تحذروا إخوانكم في الدين بأنني سأعاقب بستة أشهر حبسا كل يهودي عرض على محكمتي لأي سبب كان، سواء كان المعني بالأمر على صواب أو على خطأ...!"².

في ظل هذا الوضع، استمر اليهود في الشعور بالإحباط، بسبب استمرار العمل بقوانين فيشي رغم نجاح الإنزال الأمريكي، ويعود الأمر إلى أن المقيم العام نوجيس كان قد نجح مؤقتًا خلال توقيعه الهدنة مع الأمريكيين في إقناعهم بضرورة عدم المس بحزمة فرنسا بالمغرب، تجنبًا لاشتعال ثورة في صفوف "الأهالي" المسلمين*، خصوصًا وأن هذه الأخيرة كانت قد أصبحت في صف الحلفاء، فضلًا عن أن الأمريكيين قد اختاروا التريث قبل اتخاذ أي قرار خدمة لحساباتهم السياسية³. وهو الأمر الذي سمح باستمرار التجاوزات في صفوف يهود مكناس، ذلك أن أحد يهود المدينة تعرض للاعتداء من أحد المارة الفرنسيين، لأنه لم يتردد في رفع العلم الأمريكي، فكان رد فعل أفراد الشرطة المسلمين أن قاموا باعتقال اليهودي مقابل إطلاق سراح المعتدين. أمام هذا التجاوز تشكلت لجنة مكونة من أعضاء لجنة الجماعة وتوجهت إلى الجنرال قائد ناحية مكناس طالبة منه أن يجعل حماية الملاح من اختصاص أفراد الجيش أو الشرطة الأوروبية عوض أفراد الشرطة المسلمة، غير أن رد فعل السلطة لم يكتفِ فقط برفض طلب هؤلاء، بل تم استدعاؤهم بعد ثلاثة أيام من قبل الباشا، وتم الحكم عليهم بثمانية أيام سجنًا⁴.

بعد الإنزال الأمريكي بخمسة أشهر، وتحت ضغط المنظمات اليهودية الأمريكية، توجهت الولايات المتحدة الأمريكية بطلب للجنرال جيرو الموالي لدوغول، من أجل إلغاء قوانين فيشي بكل شمال إفريقيا، وذلك ما تم خلال

¹Ibid, p. 272

²Ibid, p. 272

*"لحثهم على تزكية الوجود الفرنسي ودعم نظام الحماية، لم يتردد نوجيس في تضخيم تأثير الألمان على المغاربة واستجابتهم للدعاية النازية، ملحا على وجود أعوان لقوى المحور بين " الأهالي" وقيامهم بتخطيطات لإنجاز أعمال تخريبية بهدف شل خطوط الحلفاء اللوجيستكية في المغرب وعرقلة تقدم قواتهم نحو تونس وليبيا، والاستعداد للهجوم على أحياء اليهود في المدن الكبرى". محمد كنيبي، "نظام فيشي و" فرنسا الحرة" والحركة الوطنية المغربية (1940-1944)...، مرجع سابق، ص. 141.

³وقيل عن باطن بلسان المؤاخذه بأنه وقع ضحية مخابرات نوجيس. وربما كان شيء من ذلك. ويمكن أن نلاحظ أن الخيار لم يكن بين " نوجيس أو الفوضى" أو بين العمل مع فرنسي فيشي أو طرد الفرنسيين من المغرب، بل القضية قضية تعويض أنصار فيشي في إفريقيا الشمالية " بمجموعة من الوطنيين الفرنسيين المرموقين الذين لم يكونوا قد تنسوا بالتعامل مع النازيين، أو الملتزمين مع الحلفاء تمام الالتزام والذين كانوا مبعدين عن المسؤولية ينتظرون الفرصة لتحملها". ولكن باطن كان منشغلا من جهة سلامة جنوده وقوتهم القتالية، ومن جهة ومن جهة موقف الأسبان وقدرة الألمان على الانتقام، وأيضا من جهة ما سيكون من أدواره العسكرية لاحقا في حملة إفريقيا الشمالية. وكان يفكر فيمن سيفوز بالحرب في إفريقيا وأوروبا وليس فيمن سيحكم المغرب. ولذلك رأى " الخوض في الأمور السياسية من منتهى السخافة". وهذا موقف الأمريكان في كل مكان. فقد كتب المؤرخ العسكري الرسمي قائلا: " إن المواقف السياسية السابقة للموظفين الفرنسيين لا عبرة بها مادام أنهم قادرون على القيام بالواجبات التقنية لوظائفهم، كل حسب منصبه". وكان الحكم على نوجيس كما يلي: " نظرا لانعدام من يقوم مقامه، فإن الجنرال نوجيس أكثر فائدة فائدة للأمريكان من أولئك الذين يحتجون على الاحتفاظ به". ولا غرابة في ذلك، فالعمل مع كبار قادة فيشي جزء لا يتجزأ من الإستراتيجية الأمريكية في إفريقيا الفرنسية وامتداد للمراهنة على فيشي منذ 1940. وليام هويستن، الحماية الفرنسية بالمغرب بين الأوج والأفول تحت قيادة الجنرال نوجيس 1936-1943...، مرجع سابق، ص. 343-344.

⁴R. Assaraf, *Eléments...*, op. cit, p. 258.

شهر مارس سنة 1943¹. وبذلك طويت صفحة فيشي بالمغرب، كما أرغم المقيم العام نوجيس على الاستقالة يوم 12 يونيو من نفس السنة، حيث وجد نفسه مضطرا للهروب إلى البرتغال للعيش في المنفى². وعلى الرغم مما خلفته هذه المحنة في صفوف المغاربة اليهود من ذعر وآلام وخسائر، إلا أن معاناتهم بالمقارنة مع ما حصل لإخوانهم في الدين بأوروبا تظل بسيطة، لعدة أسباب يلخصها محمد حاتمي فيما يلي: "قصر المدة الزمنية التي طبق فيها، وضعف الدعاية المعادية للسامية، أصلا بسبب عدم قابلية السكان المسلمين لخطاب غريب عن الثقافة المغربية، والمعارضة التي أبدتها السلطان والسلطات المخزنية والقوى الوطنية، "بالرغم من أنه كان من الممكن أن تمارس عليهم ألمانيا المنتصرة جاذبية"، والتواجد النسبي للمراقبين الألمان على أرض المملكة، واختلاف حدة التنفيذ من منطقة إلى أخرى، فضلا عن أن الإدارة المركزية- لأسباب مادية- لم تكلف هيئة خاصة بالسهر على تطبيق القوانين. لذلك لم يفتقر تطبيق القوانين الخاصة في الذاكرة الجماعية بشخصية معينة أو إدارة مشينة أو بموقع جغرافي محدد، وهي أمور جعلت الحلقة العصبية تبدو وكأنها مجرد كبوة في مسلسل حصيلته إيجابية. وتجدر الإشارة إلى أنه كان من الصعب تطبيق العديد من القرارات الإدارية لعلم السلطات الفرنسية بأن تفعيلها يؤدي حتما إلى وقوع خلل وتعطيل في ميادين حيوية مثل التعليم والحمامة والطب حيث نسب الأثر اليهودية مرتفعة"³.

نستخلص مما سبق أن الجماعة اليهودية بمدينة مكناس كغيرها من جماعات الحواضر المغربية الأخرى لم تتضرر كثيرا من قوانين فيشي، وخرجت من هذه المحنة بأقل الخسائر، نظرا للأسباب التي أثرتها آنفا، وأيضا لأن هذه الجماعة كانت أقل انخراطا في الحياة المعاصرة مقارنة بجماعات أخرى كجماعة مدينة الدار البيضاء، وأكثر حذرا في علاقتها مع الفرنسيين، لأنها كانت جماعة محافظة استطاعت الحفاظ على كثير من استقلالها الذاتي داخل أسوار الملاحين القديم والجديد. غير أن تأثير تلك القوانين العنصرية كان له بالغ الأثر في تهية أفراد هذه الجماعة لاعتناق الدعاية الصهيونية بعدما فقدوا ثقتهم في مبادئ الجمهورية المتمثلة في الحرية والإخاء والمساواة، والتي تشبعوا بها داخل مدارس

¹J. Tolédano, *Portrait ...*, op. cit, p. 273.

²"لقد حكم فيما بعد على نوجيس من قبل المحكمة العليا للعدل، نظرا لمقاومته للأمريكان ولما ترتب عن ذلك من تمكين الألمان من اقتحام تونس، بعشرين عاما من الأشغال الشاقة وبأن "يجرد من حقوق الموطنة لمدى الحياة" فضلا عن مصادرة ثروته وممتلكاته. لكنه لم يدخل السجن أبدا لفراره إلى البرتغال سنة 1943، حيث أقام إلى سنة 1954. ثم عاد إلى فرنسا مطالبا بمحاكمة جديدة، وكانت الخواطر قد سكنت، وغدت قضية الساعة ليست هي قضية التعامل ولكن قضية تصفية الاستعمار. وفي تلك الظروف تذكر الناس نوجيس بصفة كونه تلميذا ليوطي ومستشار سيدي محمد بن يوسف والمحافظ على نفوذ فرنسا في المغرب. وأبدت الصحافة تعاطفها مع مجهودات رجل أنهكته السنون يدافع عن شرفه. ومع ذلك لم يبدي المدعي العام أي استعداد للتسامح وصدر حكم حضوري غير خال من اللبس، إذ حكم عليه "بالتجريد من حقوق المواطنة" مع إلغاء مفعول ذلك على التو اعتبارا لما كان يشغل بال نوجيس عن جدارة من جهة ردة فعل الألمان في حالة نزول الأمريكان، واعتبارا أيضا لكونه أقام في الخفاء قوات عسكرية "قادرة على المساهمة في النهضة الوطنية" يوم تستعمل ضد ألمانيا إن هي لم تلتزم بوعودها، بناء على ما قال ليفكان سنة 1914". وليام هويستن، *الحماية الفرنسية بالمغرب بين الأوج والأفول تحت قيادة الجنرال نوجيس 1936-1943*،... مرجع سابق، ص. 340.

³محمد حاتمي، *الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية وهران المغرب المستقل 1948-1961*،... مرجع سابق، ص. 73-74-75.

الأليانس، وهو الأمر الذي عزز من رهاناتهم في اتجاه البحث عن الخلاص "خارج" المغرب، وهو ما يفسر أيضا تردد أغليبيتهم في تبني مواقف مؤيدة للمقاومة المغربية ضد فرنسا في أفق الحصول على الاستقلال، لأنهم كانوا، منذ دخول الحماية الفرنسية إلى المغرب، في وضعية حرجة لم تسمح لهم بالمجازفة في التعبير عن موقف كان في تقديرهم مكلفا، اعتبارا للانتظارات البراغماتية التي كانت لهم تجاه الدولة الحامية، خصوصا وأن العقل الجمعي للأقلية عادة ما يكون مشوبا بالحذر، لأنها الحلقة الأضعف في حال المغامرة في القيام باختيارات "خاطئة".

3. مواقف الجماعة اليهودية من المقاومة والحركة الوطنية ومطلب الاستقلال

لم نعتز فيما اطلعنا عليه من وثائق ومصادر ومراجع، عما يفيد مشاركة المغاربة اليهود بشكل عام ويهود مكناس بشكل خاص، في المقاومة المسلحة التي اندلعت بالمغرب ضد الاستعمار الفرنسي-الإسباني، بل على العكس من ذلك، وكما أوضحنا ذلك بالتفصيل في المحور الثالث من الفصل الأول، لم يتردد عموم المغاربة اليهود في الترحيب بقدوم الفرنسيين إلى المغرب سنة 1912. هذا الموقف المتماهي مع الحماية يجد تفسيره في العديد من الأسباب:

- ✓ أولاً: أنهم من أهل الذمة الذين كانوا يعيشون في وضعية "دونية" على المستوى الاعتباري، وكانوا يعانون إكراهات عديدة سبقت الإشارة إليها، ومن تجليات ذلك، التجاوزات التي كانت تطالهم على سبيل المثال لا الحصر في المجال القضائي والتي كانت موضوعاً للعديد من المقالات بالجرائد اليهودية الصادرة بالفرنسية¹.
- ✓ ثانياً: تمايز وعي المغاربة اليهود، عموماً، عن وعي المغاربة المسلمين في علاقتهم بالأمة المغربية، فقد ظلوا دوماً حتى القرن 19 يعبرون عن انتمائهم للجماعة اليهودية أولاً قبل تقديم أنفسهم كمغاربة يهود².
- ✓ ثالثاً: تفاؤلهم بإمكانية تحسن أحوالهم نسبياً بعد قدوم الفرنسيين للمغرب، وهو ما مكّنهم من السكن خارج الملاح داخل المدينة الأوروبية، وارتداء الملابس على طريقة الوافدين الجدد، فضلاً عن ممارستهم عدداً من المهن الجديدة، واستفادتهم من إمكانية متابعة دراستهم بمدارس الأليانس والمدارس الفرنسية اليهودية. كما ساهم التعديل الذي مس مؤسساتهم بمقتضى ظهير 22 ماي 1918 في الرفع من سقف تطلعاتهم في ظل الوجود الفرنسي³.
- ✓ رابعاً: تطلعهم لردم الهوة بين وضعيتهم قبل الحماية وبعدها، خصوصاً وأنهم كانوا يأملون في الاستفادة من الحصول على الجنسية الفرنسية الجماعية على غرار إخوانهم في الدين بالجزائر، وهو الأمر الذي لم يتحقق بسبب فلسفة السياسية الأهلية التي أرسى قواعدها المقيم العام ليوطي.

ويرى محمد كنيب في هذا الباب أن السلب والاعتصاب الذي واكب نظام الحماية لفائدة الشركات الكبرى والمعمرين، وحفنة من "الإقطاعيين"، كان من شأنه أن ييسر مبدئياً إحساس المسلمين واليهود بوضعيتهم المشتركة ومعاناتهم كمستعمرين. كما كان من المفروض أن يشكل الضغط الجبائي الذي كانت المجموعتان تنوءان تحت وطأته

¹Stephen D. Wolcovicz, «Rapport sur les Juifs du Maroc», in Noar, N° 9, Mai 1947, p. 15.

²German Ayache, «La recherche au Maroc sur L'histoire du Judaïsme Marocain», in, Juifs du Maroc, Identité et dialogue, Actes du Colloque international sur La communauté Juifs Marocaine : vie culturelle histoire sociale et évolution (Paris, 18-21 décembre 1978) Ed la Pensée sauvage, p. 123.

³M. Eisenbeth, op. cit, p. 90-91.

والتماثل النسبي لمشاكلهم الاجتماعية المتمثلة في الشغل والسكن والصحة والتعليم*، أن يحثهم على النضال المشترك قصد التخفيف أو التحرر الكلي من حالة الاستعباد كأهالي¹، خصوصا وأن اليهود قد تضرروا من منافسة الأوروبيين فضلا عن المسلمين في بعض الأنشطة التي كانت حكرا عليهم، كالوساطة بين السوق المحلية والميتروبول، أو بين مختلف مناطق المغرب²، وهو التراجع الذي كان قد بدأ منذ أواخر القرن التاسع عشر مع اشتداد التدخل الأجنبي³، بشكل دفع بالنخب اليهودية التقليدية إلى التوجس من قدوم الحماية الفرنسية للمغرب، على عكس النخب المتطورة التي تلقت تعليمها بمدارس الأليانس⁴، والتي لم تكن مقتنعة بالوضع الذي عاش فيه الآباء والأجداد، كما لم تكن مقتنعة بالتصريحات "الخجولة" للنخب المسلمة على مدار سنوات الحماية. لكن رهانات النخب اليهودية المتطورة اختلفت عن رهانات النخب المسلمة منذ دخول الفرنسيين إلى المغرب، وهو ما عبر عنه أندري شورافي لاحقا بالقول:

"إن الدولة الشريفة، بالرغم من الإصلاحات التي تحققت وكذا تلك الجارية، ما تزال في جوهرها بلدا تيوقراطيا يرفض حق اليهود في المساواة. وليس بإمكان النوايا الحسنة ولا التصريحات الأكثر حماسا أن تنال من الحقيقة التالية: لا يمكن داخل بلد تيوقراطي إسلامي ضمان الممارسة العادية لحقوق المواطنة إلا للمسلمين. أما غيرهم فمحكوم عليهم أن يخضعوا لوضع الذمة*." إنه وضع يضمن من

*لم تكن هناك قوانين تسمح للتلاميذ اليهود بمتابعة دراستهم بالمؤسسات التعليمية الفرنسية، خاصة وأن مدارس الأليانس لم تكن توفر غير التعليم الابتدائي.

M. Eisenbeth, op. cit, p. 92.

¹محمد كنيب، **يهود المغرب، 1912-1948...**، مرجع سابق، ص. 132.

²P. Cohen, op cit, p. 91.

³لم تكن الوسائل القمينة بتمكين اليهود من التملص والإفلات من وضع أهل الذمة كامنة في التحولات القانونية التي تقر بتنفيذها الدولة المغربية، بقدر ما تمثلت، بدلا من ذلك، في تحولهم إلى رعايا أو مواطنين تابعين لدول أجنبية أو إلى محميين من قبل إحدى الدول الأجنبية المتوفرة على تمثيل دبلوماسي في المغرب. وإذا باليهود الذين استعملوا في السابق، من لدن الدولة الشريفة، كوسيلة للحد من النفوذ الأجنبي، يتحولون الآن إلى عوامل مساعدة على التغلغل الأجنبي، في الوقت الذي تحتّم فيه على المغرب القبول بتحرير التجارة تحت الضغط الأوربي. إن الأسباب التي دفعت بالعديد من اليهود إلى استثمار مستقبلهم السياسي في أوربا قد مست بطبيعة العلاقات بين اليهود والدولة العلوية [...] وظهر على الساحة سوق حقيقي ما فتئ ينمو ويتوسع لتتبع في كواليسه بطاقات الحماية لسكان البلاد. [...] ومنذ ذلك الحين لم يعد سلطان المغرب ملاذهم الوحيد، إذ أصبحوا على أهبة الاستعداد لدعوة القوى العظمى لشد عضدهم كلما ارتكبت في حقهم بعض المظالم. [...] وساعد على تعزيز نفوذ فرنسا (بالمغرب) اكتساحها للجزائر المجاورة سنة 1830، التي تحولت إلى مستعمرة فرنسية. واعتبر اليهود الجزائريون رعايا فرنسيين في أعقاب صدور ما بات معروفا بمرسوم كريميو (Crémieux). ودأب عدد متزايد من اليهود المغاربة على التوجه إلى الجزائر للتحويل إلى رعايا فرنسيين بعد المكوث فيها فترة وجيزة، ثم يعودون فيما بعد إلى المغرب وفي حوزتهم حقوق جديدة لا عهد لهم بها من قبل." دانييل شروتر، **يهودي السلطان، والمغرب وعالم اليهود السفرد...**، مرجع سابق، ص. 388.389.

⁴P. Cohen, op cit, p. 91-92.

*"إكراهات الذمة سقطت من تلقاء نفسها تدريجيا أساسا لأن المجتمع لم يعد في حاجة إليها لتقنين وضبط علاقاته بأقلية اليهود. فمنذ بداية الحماية لم تصدر عن أية جهة أو عن أي عالم فتوى أو حكم يشير إلى وضع الصغار اليهودي. والحقيقة أنه حل محل الاعتبار الدولي القائم على أساسين فقهية، اعتبار لا يقل تصغيرا من شأن اليهود مدعم بأسانيد حضارية وأخلاقية تتفق فينبعث اليهودي بالمتنرد والرافض للامتثال للضوابط المؤطرة لعلاقات طبيعية وعادية بين أغلبية المسلمين وأقلية اليهود. ونقف في الخطاب السلفي المغربي على إشارات وإحالات توحى باستمرارية وجود اعتبارات موروثية عن زمن الذمة، وهي إشارات تجعله خطابا متذبذبا." محمد حاتمي، **الجماعات اليهودية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية ورهان المغرب المستقل...**، مرجع سابق، ص. 303.

دون شك قسما من الحقوق المعترف لهم بها، ولكنه لن يخول لهم أبدا التمتع بكافة الحقوق. وعليه، فإن اليهودي المغربي يشعر دوما بأنه خارج الدولة التي ينتمي إليها"¹.

وبناء عليه، أصبحت تطلعات السواد الأعظم من اليهود بما في ذلك النخب التقليدية والعصرية ترى في قدوم الفرنسيين فرصة للتحرر من مظاهر الدونية، وتحقيق عدد من المكاسب الاجتماعية والاقتصادية، خصوصا وأن أحد المبررات التي تحججت بها فرنسا لتبرير تدخلها في الشؤون الداخلية للمغرب كان حماية اليهود من كل أشكال الميز والإساءة التي كانوا يتعرضون لها، وهو الأمر الذي انتبه إليه أقطاب الحركة الوطنية لاحقا، ونعني بذلك أن المعاملة السيئة لليهود المغاربة طيلة القرن التاسع عشر شكلت أحد أسباب وقوع المغرب تحت الاحتلال².

عندما تأسست الحركة الوطنية في مطلع الثلاثينيات من القرن العشرين كان يهود مكناس على غرار باقي يهود المغرب يعيشون في عالم مغلق، ولم يكونوا يهتمون إلا قليلا بالحياة السياسية المغربية، باستثناء حالات قليلة³، ثم إن الجماعة اليهودية طالما اعتبرت نفسها مجرد "ضيف" من دون حقوق سياسية، لذلك لم تشعر بالانتماء إلى الحركة الوطنية العصرية رغم النداءات المحتشمة لبعض مؤسسيها، ذلك أن الخلفية الإسلامية لإيديولوجية الحركة الوطنية⁴ كان يصعب عليها استقطاب وإقناع الشبيبة اليهودية التي تلقت تعليما علمانيا بمدارس الأليانس، فضلا عن أن النخب اليهودية التقليدية، خصوصا الأعيان والحاخامات، كانوا مقتنعين بالمكاسب البسيطة التي تحققت لهم بوصفهم فئة محمية داخل المدينة الإسلامية، لذلك لم يعتبروا أنفسهم معنيين برد فعل المسلمين على "الظهير البربري" بحكم أن النخبة الوطنية كانت تسعى إلى الحفاظ على الطابع الإسلامي للمجتمع المغربي⁵.

ونتيجة لذلك، لم يساعد الطابع الديني للحركة الوطنية في تسهيل الحوار الذي حاول نشطاءها الدخول فيه مع العناصر اليهودية المتنورة، قصد حثهم على إعادة تحديد مواقعهم تجاه الإقامة العامة، خاصة وأن هؤلاء المتنورين، كانوا يطمحون إلى "تجاوز" معاهدة فاس، وإرضاء تطلعاتهم، في الوقت الذي كان فيه أعضاء كتلة العمل الوطني يبنون مطالبهم بالتحديد على الخروقات التي تعرضت لها معاهدة الحماية شكلا وروحا، بعدما أقدمت سلطات الحماية على اعتماد الإدارة المباشرة⁶. وينبغي التأكيد على أن الطابع الديني "الإسلامي" الواضح الذي اكتسبته الحركة

¹A. Chouraqui, *Les Juifs d'Afrique du Nord*, Paris, Hachette, 1985, p. 123-124.

²محمد حاتمي، *الجماعات اليهودية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية وهران المغرب المستقل...*، مرجع سابق، الهامش رقم 01، ص. 131.

³R. Assaraf, *Éléments...*, op. cit, p. 282.

⁴B. Lugan, op. cit, p. 269.

⁵J. Tolédano, *Portrait ...*, op. cit, p. 248.

⁶محمد كنيبي، *يهود المغرب، 1912-1948...*، مرجع سابق، ص. 141.

الوطنية السلفية لحظة انطلاقها قد أدى إلى وضع المناضلين اليهود "المفترضين" في وضع غير مريح¹، ناهيك عن أن نشاط الحركة الوطنية لم يعتمدوا بصفة شبه تامة الوسائل النضالية "العلمانية" كالمقاطعة الاقتصادية، وهي إحدى الأسلحة الأشد نجاعة ضد الأوربيين² [...] ذلك أنهم اقتصروا على اعتماد أدوات عمل وأساليب تقليدية ضمن قالب عصري، ومن ذلك هيكلية الحركة الوطنية في البداية على شكل زاوية، واشتراط تأدية القسم عند الانخراط، وتكوين جمعيات ثقافية إسلامية، وإعطاء التعليم الإسلامي الحر أهمية قصوى، وربط علاقات متميزة مع شخصيات وهيئات عربية وإسلامية، وهي أدوات جعلت الوعي الوطني مرتبطا بشكل عضوي بالوعي الديني، وهو ما عكسته الدلالات الإسلامية للمناشير الموزعة وكلمات السر وعبارات التعبئة. ومن دون شك أن أشكال التنظيم الوطني وأسانيده الفلسفية والأخلاقية قد حالت دون انتباه الجدوى استقطاب العنصر اليهودي وترشيد السبل لاستمالته وإقناعه بعدالة القضية المغربية³. وفي هذا الصدد يؤكد محمد حاتمي قائلا:

"وخلال مدة التعبئة التي تلت "إصدار الظهير البربري" - وهي الفترة التي عرفت نشأة الحركة الوطنية العصرية ووضعت خلالها الأسس الإيديولوجية التي أطرتها خلال العقدين التاليين - كانت النخب المسلمة تكاد تقصي من حساباتها السياسية الجماعات اليهودية. وبالرغم من أنها لم تذهب إلى حد وضع اليهود المغاربة في خانة "الأجانب المقيمين في المغرب"، فإن خطاباتها العامة ومبادراتها العمومية أعطت الانطباع بأنها تلحقهم بمكونات المجتمع الاستعماري. والوطنيون الذين دأبوا على التعبير عن آرائهم في المنابر الإعلامية أو عبر الخطب في المجمع والجوامع، شددوا عن قصد على أن هوية المغربي تقوم بالدرجة الأولى على معتقده الإسلامي، وأن الأساس في الانتماء "للأمة المغربية" هو الإيمان بالله محمدية. وحين حديثهم أغلبهم عن الخطط الاستعمارية وغاياتها القصوى الرامية إلى تحقيق مبدأ "فرق تسد"⁴، فإنهم قصدوا بالترفة الفصل بين العرب والبربر، وبين البدو والحضر، وبين مغرب الشمال ومغرب الوسط والجنوب، هذه الوحدات يربط بينها فضلا عن التاريخ المشترك وأواصر البيعة للعرش العلوي، الإسلام الذي اعتبروه "سيد" الأواصر. ولم يخطر ببال أي واحد منهم بأن التفرقة تمس ائتلاف المسلمين واليهود، على اعتبار أن اليهود يشكلون عنصرا مكونا للجسم المغربي. لم يكن موقف التغيب مبدئيا، وإنما أضحى من قبيل "تحصيل الحاصل". فقد اعتبر عموم المسلمين الممارسات الجديدة في تعامل اليهود معهم مروفا أخلاقيا، ومحاباتهم بلا حدود للنصراني سيرة استفزازية، وهي أمور جعلتهم يعتبرون أغلبهم وبكل بساطة "مساعدين وحلفاء طبيعيين" للمستعمر

¹P. Cohen, op. cit, p. 193.

²محمد كنيبي، **يهود المغرب، 1912-1948...**، مرجع سابق، ص. 142.

³محمد حاتمي، **الجماعات اليهودية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية وهران المغرب المستقل...**، مرجع سابق، ص. 303.

⁴نفسه، ص. 306

الفرنسي ومكرسين لمكاسبه ومصالحه على مجموع التراب الوطني. ويفسر هذا الشعور إلى حد كبير النعمة الشعبية التي عادة ما ضربت اليهود عند حصول أدنى اضطراب، وتعرضهم إلى غضب وعنف المتظاهرين لأن النيل من اليهودي يعني تحقيق "انتصار معنوي" على النصراني المستعمر¹.

وفي هذا السياق، ورد في تقرير مصالح استخبارات الحماية الفرنسية، أن علال الفاسي قد حذر، بمناسبة درس ليلي قدمه بالقرويين سنة 1934، مستمعيه من اليهود ومخططاتهم، وذكر بأن الرسول قد نبه المسلمين من مكائد اليهود². وهو ما يؤكد أن النخب المسلمة لم تتواصل مع المكون اليهودي بخصوص إمكانية انضمامه للحركة الوطنية. وهكذا، لم يقوموا في البداية بأية "مبادرة" تذكر لشرح أهداف حركتهم لليهود³.

هذا القصور، في جانب منه، يفسره محمد كنيبي بعدم امتلاك نشطاء الحركة الوطنية جريدة لعرض مشاريعهم، خصوصا وأنهم انبهروا بالإمكانات الهائلة للتجنيد السياسي التي وفرتها الصدمة التي أحدثها الظهير البربري. كما لا يجب استبعاد بقائهم كذلك تحت تأثير العواطف التي أجبتها، قبل صدور الظهير البربري بسنة واحدة أحداث حائط المبكى (البراق) بالقدس⁴. وبناء عليه، نستطيع أن نفسر غياب أي ممثل عن اليهود داخل كتلة العمل الوطني، ذلك أن أقطاب الكتلة الوطنية لم يكلفوا أنفسهم عناء البحث عن متعاطفين يهود، لأن رهاناتهم خلال هذه المرحلة المتقدمة كانت متواضعة-بحكم أن معارفهم السياسية كانت متواضعة- بشكل جعلهم يستبعدون إقناع فعاليات يهودية لها ما يكفي من السلطة الأخلاقية لادعاء التمثيلية والنيابة. والحقيقة أنه كان من الصعب التوفيق بين ما كانت تطمح له النخب الوطنية ومثيلائها اليهودية، لأن أهداف هذه الأخيرة في مجملها رامت الانسلاخ عن المجتمع المغربي⁵.

وابتداء من سنة 1933 حصل تطور في الوعي السياسي للوطنيين، حيث صرحوا بشكل محتشم على أعمدة جريدة عمل الشعب، بأنهم يعتبرون اليهود مواطنين لهم نفس الحقوق وعليهم نفس الواجبات مثل المسلمين⁶، وهو ما تمت ترجمته عمليا ابتداء من سنة 1934، حيث تغير موقف الوطنيين من اليهود نسبيا*، حين قدمت كتلة العمل

¹نفسه، ص. 307.

²M. Kenbib, *Juifs et Musulmans au Maroc, 1859-1948...*, op. cit, p. 545.

³محمد كنيبي، *يهود المغرب، 1948-1912...*، مرجع سابق، ص. 142.

⁴نفسه، ص. 143.

⁵محمد حاتمي، *الجماعات اليهودية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية وهران المغرب المستقل...*، مرجع سابق، ص. 808.

⁶D. Bensimon- Donath, *Evolution du judaïsme marocain...*, op. cit, p. 144.

*"خلال هذه المرحلة ارتفعت أصوات بعض اليهود مكسرة الصمت التقليدي للملاحات إزاء ما كان المسلمون يتعرضون له من قمع (خاصة سنوات 1930-1934) متجاوزة بذلك ضغوط أعيان الجماعات اليهودية التي كانت تدعو إلى "تهذئة إخوانهم في الدين"، وقد ارتفعت هذه الأصوات لمساندة "المسلمين المعتقلين" وعضدت برقيات الاحتجاج التي وجهتها كتلة العمل الوطني إلى رئيس حكومة الجبهة الشعبية بفرنسا". محمد كنيبي، *يهود المغرب، 1948-1912...*، مرجع سابق، ص. 172.

الوطني (فاتح دجنبر) برنامج مطالب الشعب المغربي للإقامة العامة، طالبت من خلاله السلطات الفرنسية بضرورة القيام بعدد من الإصلاحات، والسماح لعموم المغاربة "مسلمين وإسرائيليين" من الاستفادة من بعض الحقوق (التعليم العصري والتكوين المهني...)، وتهيئة الأرضية لتوسيع القاعدة التمثيلية للمغاربة داخل الأجهزة العصرية المسيرة للشأن العام¹. غير أن هذا الاهتمام اللاحق احتل فقط مكانة هامشية سعت إلى البرهنة على أن الحركة الوطنية تطورت في الاتجاه الصحيح، وأن مطالبها لا تقصي أي مكون للمجتمع مهما بلغت نسبته وحجم مساهمته². كما أوجت فقرات المقالات القليلة التي أفردت موضوعها لليهود داخل المجتمع المغربي، بأن مسؤولية تغييب اليهود في الخطاب السياسي الوطني تعود إلى اليهود أنفسهم، بشكل يجعل قارئ تلك المادة الصحفية يستنتج أن الوطنيين كانوا يرون أن النخب اليهودية قبلت طواعية بالأجنبي المستعمر حاميا، فتخلقت بأخلاقه واعتمدت قيمه، وسارت أشواطاً في مسلسل تصاعدي يرمي إلى التنصل من الأواصر التي تربطها بالمجتمع المغربي³.

ومن العوامل الأخرى التي لم تساهم في تبديد سوء الفهم بين الطرفين، أن اليهود، خصوصا المتطوئين منهم، قد اعتمدوا على الصحافة الناطقة بالفرنسية مصدرا للمعلومة حول ما يجري بالبلاد، لأنهم لم يكونوا يتقنون العربية الكلاسيكية إلا قليلا، وبالتالي كان يتعذر عليهم متابعة مجريات الأحداث من خلال صحافة الحركة الوطنية، ثم إن أقل يهودي ميسر من يهود مكناس كان يعلم بأنه سيأتي يوم تنتهي فيه الحماية، لكن كانوا مقتنعين بأن الأمر لن يحدث بعد سنوات بل بعد عشرات السنين⁴، لذلك لم يكونوا في عجلة من أمرهم تقتضي الاقتراب أكثر من الحركة الوطنية.

إن سوء الفهم الذي ساد بين الطرفين، لم يحُل ذلك دون حصول تقارب بينهما على مستوى مدينة مكناس، حيث شارك عدد من الوطنيين المسلمين إلى جانب الشباب اليهودي سنة 1937 في استقبال برنارد لوكاش رئيس العصبة الدولية لمناهضة الحركات المعادية للسامية⁵، وحرصوا معا أشد الحرص على حضور محاضراته والمشاركة في تجمعاته. وقد تم ذلك برعاية وتحت توجيه الحزب الوطني الذي أسسه علال الفاسي عقب انقسام كتلة العمل الوطني، وذلك من أجل إبراز التقارب بين المسلمين واليهود والوقوف في وجه سياسية التفرقة التي كانت تمارسها الإقامة العامة⁶. هذا التقارب المحدود والحذر والبراغماتي أتى عقب تعيين شارل نوجيس مقيما عاما متشعبا بفلسفة

¹ محمد حاتمي، الجماعات اليهودية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية وهران المغرب المستقل...، مرجع سابق، ص. 307.

² نفسه، ص. 309.

³ نفسه، ص. 310.

⁴ R. Assaraf, *Eléments...*, op. cit, p.282.

⁵ J. Tolédano, *Portrait ...*, op. cit, p. 248.

⁶ محمد كنييب، يهود المغرب، 1912-1948...، مرجع سابق، ص. 174.

ليوطي، ومن ثم كانت هناك ضرورة ملحة لتكوين ما يشبه جبهة يهودية-إسلامية مشاركة، حيث أصبح الأمر يفرض نفسه على نخب كلتا الجماعتين، إذ كان الأمر يتعلق بالنسبة للطرفين بإقامة حاجز للوقوف في وجه مناورات اليمين المتطرف وممارسة ضغوط مشتركة على المقيم العام، لحمله على تطبيق الإصلاحات التي كانت كل جماعة تنتظر من جهتها إنجازها من طرف حكومة الجبهة الشعبية، وقد قدم مناضلون من اليسار الفرنسي إلى المجموعتين كل أنواع التشجيع لقطع الطريق أمام الفاشية¹.

من أجل قطع الطريق على التنسيق بين الطرفين، سعت أن الإقامة العامة إلى التشبث باستراتيجيتها الكلاسيكية المتمثلة في إشاعة التفرقة وتدبير المكائد، لاستغلال الاختلافات العرقية والدينية بين الطرفين، وهو الأمر الذي أتاحتها أحداث بوفكران التي سبق وتحدثنا عنها، حيث أدت إلى تعميق جو عدم الثقة بين المسلمين واليهود، وهي الأحداث التي أدت إلى إلحاق العديد من الأضرار والخسائر المادية في صفوف يهود مكناس، كما أدت إلى وفاة شاب يهودي كان قد اعتنق الإسلام حديثاً اسمه ولد يبا، وأصبح يحمل اسم سعيد الإسلامي². الهزات الارتدادية التي خلفتها الأحداث الدامية أدت إلى تعميق توجس اليهود من المسلمين، كما أجهضت التنسيق الذي كان قد بدأ بمناسبة زيارة برنارد لوكاش، رئيس العصبة الدولية لمناهضة الحركات المعادية للسامية، وقد تم ذلك في مناسبتين، الأولى: عندما فتح نقاش بين الطرفين بخصوص التنسيق من أجل تنظيم وقفة احتجاجية بباب عمير من أجل الضغط على سلطات الحماية قصد السماح لليهود والمسلمين بحق الاستفادة من الولوج للمسيح البلدي، لأن هذه الأخيرة كانت قد قررت منح الأوربيين حق ولوج المسبح طيلة أيام الأسبوع، بينما خصصت للمسلمين يوم الجمعة فقط، ولليهود يوم السبت، وهو الأمر الذي لم يرقهم. التنسيق الذي تم في هذه المحطة النضالية بين المسلمين واليهود كان من المناسبات النادرة التي حصل فيها هذا الأمر بين الطرفين، وقد أفضى ذلك إلى القرار التالي: إتاحة المسبح للجميع طيلة أيام الأسبوع مع تخصيص يوم الجمعة للمسلمين فقط ويوم السبت لليهود فقط، ويوم الأحد للأوربيين فقط³. المناسبة الثانية كانت قد انطلقت عشية 2 شتنبر 1937، عندما قررت السلطات الفرنسية المحلية تحويل مجرى مياه واد بوفكران، حيث قام حينها أحد يهود المدينة بكتابة عريضة باللغة العربية وجهت للسلطان من أجل التدخل للحيلولة دون ذلك⁴، في حين التزمت العناصر المتصهينة الصمت المطبق حول القمع الذي تعرض له المسلمون، كما حدث سنة 1930، على الرغم من إشادتهم قبل بضعة أسابيع فقط بـ "التفاهم اليهودي-الإسلامي"، وإلقاءهم

¹نفسه، ص. 171.

²J. Tolédano, *Portrait ...*, op. cit, p. 249.

³Ibid, p. 250.

⁴Ibid, p. 249.

باللائمة على إخوانهم في الدين "الذين لم يكن أفقهم السياسي يتجاوز مغازلة الإقامة العامة"، وتنديدهم ب"نزعة معاداة السامية الأوروبية بالمغرب"¹.

لقد ساهم الاشتراكيون الفرنسيون خلال هذه الفترة في توجيه ضربة موجعة لصيغ التقارب اليهودي الإسلامي التي سبق أن اشتركوا فيها ورعوها، سواء من خلال مواقفهم الضمنية أم الصريحة المؤيدة لتشدد المقيم العام (نوجيس)، وسكوتهم عن الإجراءات "الغادرة" التي عمل من خلالها على كبح حظوظ نمو بذرة دينامية جديدة فيما بين الجماعتين والمسلمة واليهودية. وقد قرر هؤلاء الاشتراكيون بكيفية مفاجئة رفضهم "احتلال موقع ذيلي وراء حزب وطني بورجوازي، وحفنة من المستفيدين الذين يسعون إلى تعويض الاستغلال الإمبريالي باستغلالهم الخاص"، وعندما قرروا التموقع بكيفية واضحة خارج المطالب التي كانت على حد قولهم "تكاد تكون كهنوتية وعنصرية" بدعوى ضرورة عدم "الخلط بين الدفاع عن البروليتاريا ومساندة الوحدة العربية والوحدة الإسلامية"، فساهموا بمثل هذه المواقف في التنفير من الإيديولوجيا التي كانوا ينتسبون إليها، ووجهوا بذلك ضربة موجعة لصيغ التقارب اليهودي-الإسلامي². كما أن اعتقال السلطات الفرنسية زعماء الحركة الوطنية خلال هذه الفترة قد أدى إلى خلق "فراغ" على مستوى العلاقات بين المسلمين واليهود³، بشكل لم يسمح بالمساهمة في تجسير الهوة بين الطرفين، خاصة وأن بلوم رئيس الحكومة الفرنسية كان قد ترك للجنرال نوجيس مهمة تبني "السياسة الأهلية" الأكثر تطابقا مع "المصالح العليا لفرنسا" بالمغرب⁴.

وحري بالقول، أيضا، إن تعثر وتردد المغاربة اليهود في التماهي مع الحركة الوطنية سياسيا للأسباب التي أوضحناها فيما سبق، لم يمنع بعضهم، خصوصا بعض المتنورين منهم، من التعبير عن مواقفهم عبر الخلايا الأولى لفرع الحزب الشيوعي بمكناس، بحكم أن الإيديولوجيا العلمانية لهذا الأخير كانت الأقدر على استمالتهم. ومما تجدر الإشارة إليه أن بواد الحزب الشيوعي بمكناس كانت قد بدأت نشاطها بشكل محكم نهاية سنة 1934، وذلك بعد ظهور مجموعة من المناضلين الذين أطروا هذه التنظيمات الخلوية وترأسوها، حيث تركوا بصماتهم موشومة وواضحة في تاريخ الحزب الشيوعي بالمدينة⁵. ومن أبرز مؤطري خلية الحزب الشيوعي بمكناس نذكر جول دومون Jules

¹ محمد كنيبي، **يهود المغرب، 1912-1948...**، مرجع سابق، ص. 183.

² نفسه، ص. 182.

³ نفسه، ص. 184.

⁴ نفسه، ص. 180.

⁵ بوشتي بوعسرية، **المقاومة المسلحة والحركة الوطنية بمكناس وأحواها (1911-1956)**، مرجع سابق، ص. 247.

Dumont الفرنسي الجنسية*، الذي انضم إلى الخلايا الشيوعية بعدما اقتنع بالإيديولوجية الماركسية في نهاية العشرينات، وكلفته قيادة الحزب الشيوعي في باريس بتنظيم فرع الحزب بالمدينة، والذي اعترفت به السلطات الفرنسية رسمياً سنة 1936. لقد تمكن هذا الفرع من استقطاب عدد من المسلمين والأوروبيين واليهود، ومن هؤلاء نذكر مسعود كوهين أحد يهود مكناس الذين ربطوا علاقات قوية مع دومون. مسعود كوهين، هذا، كان قد بدأ دراسته في مسقط رأسه، وأكملها في فيرساي، وعاد بعدها إلى مكناس، واشتغل بالتدريس معلماً بالمدرسة الفرنسية الإسرائيلية الواقعة في حي الرياض (الملاح الجديد)، وقد كان على علاقة جيدة مع دومون كما أشرنا، الأمر الذي أثار انتباه رجال الأمن، الذين كثفوا مراقبتهم تحركاته، ووضعوه تحت حراسة مشددة، لكن دون أن يتعرض لقمع سلطات الحماية بالمدينة، سواء بالاعتقال أو عبر تقديمه للمحاكمة¹.

وخلال الاجتماعات التي كان ينظمها دومون، كان يدعو الحاضرين إلى مواصلة العمل على توسيع التنظيمات الخلوية الشيوعية استعداداً للدفاع عن حقوق الطبقات المسحوقة، ومواجهة مخططات حكومة الحماية، ومما جاء في خطابه خلال الاجتماع الذي ترأسه بدرب سيدي لحريشي في نهاية شهر نونبر داخل المدينة القديمة: "...قد أطرّد من المغرب، وسأخرج من الباب وأدخل من النافذة، وإذا اعتقلت وسجنوني، سأعود لممارسة نشاطي بعد خروجي من السجن، لأنني صاحب مبدأ لن أحيّد عنه..."². وقبل متابعة خطابه، وزع دومون على الحاضرين نسخة من مقال كتبه وأرسله إلى جريدة شيوعية تصدر في باريس، لنشره، كما وزع عليهم ثلاثة أعداد من جريدة "الشرق العربي" الممنوع دخولها للمغرب، وبعد ذلك انتقل إلى تحليل الأوضاع التي يوجد عليها المكناسيون، وحمل حكومة الحماية الفرنسية الأزمة التي يعيشها السكان وقتئذ، حيث انتزعت منهم أرضهم ومنحتها للمعمرين، وشجعت الاستثمارات الرأسمالية لمزاومة الإنتاج المحلي، الذي لم يكن أصحابه يملكون أدوات مسايرة الإنتاج الرأسمالي، مما جعلهم يتحولون إلى عاطلين، أو أن يشتغل أحسنهم حالا 14 ساعة في اليوم بأجور زهيدة، دون ضمانات اجتماعية

*"ازداد جون دومون يوم فاتح يناير 1888 بروبي Roubaix شمال فرنسا، والتحق بصفوف القوات العسكرية الفرنسية في سن مبكرة، وخولته حنكته في الجندية الحصول على رتبة قبطان في وقت وجيز، نظراً للخدمات التي قدمها لبلاده، فقد استحق وسام جوقة الشرف، وشارك دومون ضمن الجيوش الفرنسية في الحرب العالمية العظمى (1914-1918)، حيث أصيب في إحدى المعارك، وكانت هذه الإصابة البليغة سبب تسريحه من الجيش دون أن يتم الاستغناء عنه، إذ ظل ضمن الجنود الاحتياطيين، ولم يمنع ذلك من مغادرته لفرنسا، بفضل الهجرة إلى المغرب، فاستقر به المطاف في مكناس، حيث حصل في أحوازها قطعة أرضية ضمن الاستيطان الرسمي في بداية العشرينات، ثم ما لبث أن تخلّى عن الأرض التي تملكها، واستقر نهائياً بالمدينة، بمحج زرهون، وأسندت له مهمة مندوب Mondataire بالسوق البلدي بحمريّة [...] وبسبب نشاطه السياسي كانت عناصر المخابرات الأمنية، السرية والعلمية، بالمدينة تقتفي أثره أينما حل وارتحل، كما هو مثبت في التقارير التي قدموها- بانتظام- لعميد الأمن الإقليمي، ومن بينها التقرير الذي أعده مفتش الأمن الممتاز، وضابط الشرطة القضائية، نكروني Lucien Negroni، وحضرا معا اجتماعاً للعناصر الشيوعية، ترأسه دومون، وعقد هذا الاجتماع بدرب سيدي لحريشي في نهاية شهر نونبر 1934 داخل المدينة القديمة، وحضره جمهور غفير من، اندس فيه ستة مخبرين...". بوشتي بوعسرية، المقاومة المسلحة والحركة الوطنية بكناس وأحوازا (1956-1911)،...، مرجع سابق، ص. 248.

¹بوشتي بوعسرية، مكناس: المدينة الجديدة...، مرجع سابق، ص. 418-426.

²بوشتي بوعسرية، المقاومة المسلحة والحركة الوطنية بكناس وأحوازا (1956-1911)،...، مرجع سابق، ص. 248-249.

أو صحية، في غياب ممارسة الحق النقابي، كما تحدث دومون عن الإرهاب والتعسف في استعمال السلطة الذي يمارسه القواد بأحواز مكناس وباشا المدينة، وباقي أعضاء الأجهزة المخزنية المنخورة التي اشترتها السلطات الفرنسية¹. لقد استمات دومون في تعبئة المكناسيين ضد الوجود الفرنسي داعيا مخاطبا إياهم بما يلي: "لابد أن نصل إلى مستوى التمرد على السلطة، لا تخشوها، إنكم أكثر شجاعة من الجزائريين والتونسيين، فهؤلاء تعودوا على الحبال في أيديهم وأرجلهم، ولم يعودوا قادرين على جر السلاسل، في حين لم تتعودوا بعد على السلسلة، وعليكم تكسيرها...". تضايقت السلطات الفرنسية بمكناس من النشاط السياسي لهذا الأخير دفعها إلى إلقاء القبض عليه وتقديمه للمحاكمة بتهمة تحريض السكان عليها²، حيث قدم للمحكمة العسكرية بمكناس يوم 15 يناير 1935 بتهمة التهمج، مع سبق الإصرار، على حقوق السلطة الفرنسية بالإمبراطورية الشريفة، وبناء عليه تم الحكم عليه بثلاثة أشهر نافذة وتغريمه 100 فرنك³.

تضييق الخناق من قبل سلطات الحماية الفرنسية على النشاط الشيوعي بمكناس إلى حدود سنة 1934، لم يؤد إلى اختفاء المد الشيوعي بهذه المدينة، خصوصا مع وصول الجبهة الشعبية إلى الحكم بفرنسا والتي كان الحزب الشيوعي طرفا مشاركا فيها أثناء الحملة الانتخابية التي سبقت شهر ماي 1936، دون أن يشارك في حكومتها المكونة أساسا من الاشتراكيين والراдикаليين، ومع ذلك فقد انعكس التغيير الحكومي في فرنسا إيجابا على فرع الحزب الشيوعي بالمغرب الذي تم الاعتراف به رسميا سنة 1936، غير أنه تعرض للحظر سنة 1939 مع بداية الحرب العالمية الثانية، بسبب موقفه المعادي لهذه الحرب التي اعتبرها إمبريالية⁴.

والحاصل أن الحزب الشيوعي الذي كان الوجهة السياسية المفضلة لعدد لا يستهان به من النخب اليهودية المتطورة بمدينة مكناس⁵، لدرجة أن أحد المنخرطين سمى ابنه ماركس تعبيرا عن تشبعه بالماركسية⁶، عرف انعطافة مهمة يوم 14 نونبر 1943، بعدما تمت مغربته حيث تم فك الارتباط بالحزب الشيوعي الفرنسي⁷، وقد تزامنت هذه الخطوة مع استكمال عدد من الشباب المغاربة تكوينهم السياسي بما في ذلك العناصر اليهودية⁸. غير أن السلطات

¹نفسه، ص. 249.

²نفسه، ص. 250.

³نفسه، ص. 235-251.

⁴نفسه، ص. 259.

⁵D. Cohen, op. cit, p. 35.

⁶J. Tolédano, *Le temps du Mellah...*, op. cit, p. 144.

⁷ألبير عياش، "الحركة النقابية بالمغرب، مغرب الحركة 1943-1948"، الجزء الثاني، ترجمة نور الدين سعودي، منشورات امل، مطبعة النجاح الجديدة، 1997، ص. 33.

⁸لقد تم الإعلان عن تأسيس الشيوعي المغربي خلال الندوة الوطنية المنعقدة يوم 14 نونبر 1943 في مرآب قرب حديقة لبوطي بالدار البيضاء، حيث تم انتخاب أعضاء اللجنة المركزية والأمين العام ليون سلطان. وقد تم صرح ممثل الحزب الشيوعي الفرنسي هنري لوزاري بالمناسبة قائلا: "[...]، فيما يتعلق بالمغرب، يبدو أن مستقبله رهين بالدور الذي سيلعبه الشعب المغربي، ويجب أن تعالج القضايا في كل حالة خاصة، أخذا بعين

الفرنسية لم تستغ فكرة إنشاء حزب شيوعي مغربي حرصا منها على عدم تشجيع السكان المحليين المسلمين منهم واليهود على تأسيس حزب شيوعي مغربي معارض للوجود الفرنسي بالبلاد، وقد عللت ذلك بما يلي:

✓ أولا: في المغرب ليس هناك ترخيص للأحزاب الفرنسية، وإنما يتم التساهل معها.

✓ ثانيا: بناء على نظام الحماية، وعلى سلطة السلطان لا يمكن أن يتواجد أي حزب سياسي مغربي.

✓ ثالثا: إذا أراد الحزب أن يتم التساهل معه كحزب شيوعي فرنسي فعليه أن يتخلى عن أي استقطاب وأيه دعاية في صفوف المغاربة. وعليه بالتالي أن يزيل من أعماله وواجهاته (يتعلق بواجهة مقره) أي شيء له صلة بالمغاربة والقضايا المغربية¹.

غير أن المبادئ التي تم الإعلان عنها من قبل الشيوعيين في هذه المرحلة، زكت حذر الطرفين (اليهود والنخب الوطنية) لاحقا تجاه بعضهما البعض، بالرغم من تطور العلاقات بين الجانبين خلال فترة الحرب العالمية الثانية²، ذلك أن مبادئ الحزب الشيوعي كانت خلال هذه الفترة إصلاحية²، وتناسب مع ما كان يطمح إليه بعض أفراد الأقلية اليهودية المتأثرة بالأفكار التحررية والمشبعة بمبادئ الثورة الفرنسية، والتي كانت تأمل في تحقيق الارتباط بفرنسا³. وهو الأمر الذي يفسر تشاطر المغاربة اليهود الذين كانوا يناضلون في صفوف هذا الحزب الذي تأسس سنة 1943 تعاطف إخوانهم في الدين مع الديغوليين، إذ انخرطوا في صف المعارضة المنهجية التي أبداها رئيس فرنسا الحرة فكرة إعادة النظر في الوضع القائم في المغرب، واعتبروا بدورهم بأنه "على الشعب المغربي أن يبقى مرتبطا بكيفية

الاعتبار ظروف ومصالح الحركة بصفة عامة، إلا أن القضية الأساس في هذه الظروف تتمثل في القضاء على الفاشية، وفي ذلك تتمثل مصلحة الشعب الفرنسي والشعب المغربي [...]". براص محمد، "الثابت والتحول في علاقة الحزب الشيوعي باليهود المغاربة 1943-1948"، هيسبريس تامودا، العدد L، المجلد الثالث 3، مرجع سابق، ص. 38.

¹ ألبير عياش، "الحركة النقابية بالمغرب، مغرب الحركة 1943-1948"، الجزء الثاني، مرجع سابق، ص. 34.

² "لقد حصلت نقلة مهمة في العلاقات بين الأوساط الوطنية وبعض العناصر اليهودية المتنورة خلال فترة الحرب العالمية الثانية، خاصة بعد النزول الأمريكي وما أعقبه من تغيرات جوهرية في المعادلة المغربية (العلاقات بين الوطنيين والسلطان، وبينه وبين سلطات الحماية بعد لقاء أنفا). بدا واضحا للعارفين بموازين القوى أن الظرفية تمثل بحق فرصة للتموقع داخل حقل سياسي متغير ومفتوح على جميع الاحتمالات. ودشنت الحركة الوطنية للمرحلة برفع وثيقة المطالبة بالاستقلال التي حوت العديد من الأسانيد والعناصر دلت على التشبع بالأفكار الليبرالية، وعبرت عن الرغبة في الانتقال من وضع المحجور إلى وضع المؤهل لتسيير أمور بلده بنفسه. ومن دون شك أن النخب اليهودية على اختلاف مشاربها انتبهت إلى النقلة فأضحت على بينة من أن المرحلة المقبلة تتطلب تحديد المواقف والإفصاح عن خيارات. وما يثير الملاحظ، كون أولى الاتصالات بين متعلمين يهود وأقران لهم مسلمين، تمت من خارج الدوائر التقليدية، وهو ما يشير إلى وجود انفصام صريح داخل الجماعات، ورفضاً للصداقة التي مارسها العناصر المحسوبة على الإدارة الاستعمارية". محمد حاتمي، الجماعات اليهودية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية ورهان المغرب المستقل....، مرجع سابق، ص. 312-313.

³ "الأفق الإصلاحى للحزب الشيوعي والذي تم التعبير عنه لحظة التأسيس يوم 14 نونبر 1943، لم يكن هو نفسه المعبر عنه من قبل العناصر المغربية الحاضرة في أعمال الندوة الوطنية، وقد عبر عن مضامينها عبد الله العياشي قائلا: "[...] أما العناصر المغربية فقد اعتبرت برنامج الندوة بعيدا كل البعد عن مطامح الشعب المغربي، وأن هذا الحزب ظلت إصلاحية لا أقل ولا أكثر". براص محمد، "الثابت والتحول في علاقة الحزب الشيوعي باليهود المغاربة 1943-1948"، هيسبريس تامودا، العدد L، المجلد الثالث 3، مرجع سابق، ص. 38-39.

⁴ نفسه، ص. 40.

لا يمكن فك عراها مع المجموعة الفرنسية الكبرى". وهكذا دعت المنشورات التي وزعها هذا الحزب المسلمون للاستمرار في النضال التي تقوده "فرنسا الجديدة" في نضالها ضد النازية¹.

التقدير السياسي لليهود خلال هذه الفترة، كان على خلاف الموقف الذي اتخذته الوطنيين المغاربة الذين اشتروا في دعمهم لفرنسا ضرورة الحصول على وعد بالاستقلال، ذلك أن علال الفاسي سبق وأن اشترط على روني كاسان، الذي أتى إلى برازافيل ليطلب منه الإعلان عن دعمه لفرنسا الحرة، أن يلتزم الجنرال دوغول بالاعتراف رسمياً بمبدأ الاستقلال². تطور مواقف الحركة الوطنية ابتداء من سنة 1944 في اتجاه المطالبة بالاستقلال³، كان له دور في إحساس النخب اليهودية بحرج كبير سواء داخل الحزب الشيوعي أو خارجه⁴، بشكل لم يسمح بحصول تطابق أو تقارب في وجهات النظر من الوجود الفرنسي بالمغرب. وبناء عليه، عندما قدم أقطاب الحركة الوطنية يوم 11 يناير 1944 عريضة المطالبة بالاستقلال، قرر الحزب الشيوعي - الذي كان يضم عددا من المغاربة اليهود فضلا عن المسلمين والفرنسيين-، ساعتها أخذ مسافة من هذا التطور، وقد تعددت تفسيرات المناضلين الشيوعيين لهذه المسألة، حيث ذهب البعض إلى أن عدم مساندة العريضة من قبل الشيوعيين يرجع بالأساس إلى سيطرة الفرنسيين على الحزب في هذه المرحلة، بينما رأى آخرون أن الظروف التي قُدمت فيها العريضة لم تكن مناسبة، بدعوى أن المعالم السياسية الكبرى للبلاد لم تظهر بعد، وأن الحرب العالمية الثانية لم يسدل بعد الستار على فصولها⁵. الجدير بالذكر أن تجاهل أصحاب المبادرة، - وإن كان غير مقصود- (الذين أعدوا وثيقة 11 يناير) الاتصال بشخصية يهودية مغربية لإقناعها بالتوقيع على الوثيقة كان له دور في استمرار التباعد بين الطرفين، بالرغم من أن أقطاب الشورى والاستقلال بدورهم لم "يحظوا بشرف" التوقيع على الوثيقة رغم علمهم بها وتزكية السلطان لها⁶، لكن على الأقل تمثيلية المسلمين عبر أعضاء حزب الاستقلال الموقعين كانت كافية. أكثر من ذلك لقد ظل اليهود حريصين على أخذ مسافة من هذا الأمر، وفي هذا الصدد كتب البير عياش ما يلي: "وقد لقيت هذه الوثيقة، التي وزعت بشكل واسع، نجاحا كبيرا إذ ذهبت وفود إلى القصر بعرائض تحمل آلاف التوقيعات. فيما أعرب قادة الجماعة

¹ محمد كنيبي، **يهود المغرب 1912-1948**،...، مرجع سابق، ص. 242.

² نفسه، ص. 242-243.

³ B. Lugan, op. cit, p. 277.

⁴ "وضعت المطالبة بإلغاء معاهدة الحماية اليهود في موقع دقيق للغاية، إذ لم يعد الأمر بالفعل يتعلق بدعوتهم للمشاركة فقط، كما كان عليه الشأن سنوات 1936-1937 في تصريحات بصدد " التفاهم بين المسلمين واليهود" أو مجرد التعبير عن أمل مشترك في رؤية الإقامة العامة وهي تنهج طريق الإصلاحات، بل أصبحت الأمور تتمحور حول المطالبة بالاستقلال، وذلك في وقت كانت فرنسا لا تزال محتلة وحيث كان الجنرال دوغول يستبعد، كما عبر عن ذلك بعد بضعة أسابيع في مؤتمر برازافيل، حتى مبدأ استقلال ذاتي محدود للممتلكات الفرنسية." محمد كنيبي، **يهود المغرب 1912-1948**،...، مرجع سابق، ص. 244.

⁵ براص محمد، "الثابت والتحول في علاقة الحزب الشيوعي باليهود المغاربة 1943-1948"، هيسيريس تامودا، مرجع سابق، ص. 44.

⁶ محمد حاتمي، **الجماعات اليهودية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية وهران المغرب المستقل**،...، مرجع سابق، ص. 315.

اليهودية بالدار البيضاء، - أمام إلحاح بعض المبعوثين إليهم بأن يقوموا بنفس العمل - بأن وضعيتهم الدونية لا تسمح لهم باتخاذ مبادرة من هذا النوع. إلا أنهم مستعدون للاستجابة بصورة فورية لاستدعاء عاهلهم¹.

لقد حاول الموقعون على تلك الوثيقة الحصول على الالتزام الرسمي للأعيان اليهود بمطالبهم، خاصة وأنهم كانوا يعتبرون أن الصدمة التي خلفتها قوانين فيشي في الملاحظات قد زعزعت ميلهم للفرنسيين، وافترضوا أن انضمام مواطنيهم اليهود لبرنامجهم من شأنه أن يعزز مواقفهم تجاه الحلفاء واللجنة الفرنسية للتحرير الوطني، وكان ذلك بالضبط ما انتهت إليه مصالح الاستعلامات الفرنسية²، وسعت إلى إجهاضه في السنة الموالية عبر الاستجابة لبعض المطالب اليهودية، ونقصد بذلك التعديلات التي همت اختصاصات مجالس الجماعات التي تمت سنة 1945، فضلا عن بعض التعديلات التي همت المجال القضائي بعد ذلك، فضلا على ما يتعلق بامتهان الوظائف العمومية والمشاركة في المجالس البلدية والهيئات الاستشارية، لأن إدارة الحماية باتت تخشى أن يتمخض عن عدم تلبية المطالب اليهودية الدفع بالزعماء اليهود في أحضان الحركة الوطنية التي تسعى إلى استقطابهم قصد تقوية صفوفها وكسب تأييد لوبيات عالمية قوية³.

انسجاما مع ما كانت تطمح إليه سلطات الحماية تحفظ الأعيان اليهود تجاه عريضة الاستقلال، كما صمتوا تجاه المظاهرات التي اندلعت بالرباط وفاس وغيرها من المدن⁴. كما تحصنت الجماعات اليهودية وراء جدار من الصمت تجاه القمع والاعتقالات والمداهمات والتعذيب، وتجميع آلاف الأشخاص داخل معسكرات الاعتقال. فعلى الرغم من المنشورات التي وزعها الوطنيون للتنديد باسم مبادئ الثورة الفرنسية بوحشية الأساليب المستعملة ضد المتظاهرين وأثناء حملات التفتيش (التي قارنها علال الفاسي بحملات الغيستابو)، فإنهم التزموا جانب الترقب والحذر⁵. ومع ذلك استمرت سلطات الحماية في التزام اجتناب جانب الحذر إزاءهم، حيث اتخذت طيلة الأسبوعين اللذين استمرت فيها "القلقل" إجراءات للوقوف في وجه أي "تواطؤ" بين الجماعتين، وتحركت لإبراز خطة تفضيلية لصالح

¹ألبير عياش، "الحركة النقابية بالمغرب، مغرب الحركة 1943-1948"، الجزء الثاني، مرجع سابق، ص. 36.

²"لقد أشارت في تقرير لها حول هذا الموضوع إلى أن "الوطنيين يريدون جذب اليهود لمساندة مطالبهم، وقد سبق لهم أن قاموا بمحاولات في هذا الاتجاه سنة 1937، لكن اليهود يخشون التطور السريع للأوضاع واحتمال وصول البلاد إلى مرحلة سيجدون أنفسهم فيها وجها لوجه مع المسلمين إذا ما غادر الفرنسيون المغرب. وقد دفع البعض منهم مبالغ مالية للصندوق الوطني إلا أنهم امتنعوا عن التوقيع على عريضة المطالبة بالاستقلال". محمد كنيبي، *يهود المغرب 1912-1948*، مرجع سابق، ص. 244.

³محمد حاتمي، *الجماعات اليهودية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية ورهان المغرب المستقل*، مرجع سابق، ص. 155.

⁴محمد كنيبي، *يهود المغرب 1912-1948*، مرجع سابق، ص. 246.

⁵نفسه، ص. 246.

اليهود، ولكسب تأييد إنجليزي وأمريكي إضافي، وهكذا ففي الوقت الذي كانت فيه المدن التقليدية محاصرة ومحرومة من الماء والكهرباء، كانت الملاحات تتوفر بالمقابل على حماية من طرف رجال "الكوم"¹.

يمكن أن نعرض حيثيات أخرى لم تساعد في تجسير الهوة بين المسلمين واليهود خلال هذه الفترة التي انطلقت سنة 1944 في أعقاب تقديم عريضة المطالبة بالاستقلال، منها أن انخراط عدد هام من الشباب المسلم في صفوف الحزب الشيوعي المغربي غداة أحداث يناير- فبراير من نفس السنة كان من شأنه أن يسهل من حيث المبدأ التقارب بين الجماعتين، إلا أن عددهم كان قليلا جدا شأنهم في هذا الباب شأن رفاقهم من اليهود، وذلك ما أعاق تأثيرهم على إخوانهم في الدين، وقد كان هؤلاء سواء منهم المسلمون أم اليهود يعتبرونهم مجرد ملحدين تخلوا عن إيمانهم وتخلوا عن تقاليدهم². لكن ذلك لم يمنع قيادات الحزب الشيوعي المغربي من الاستمرار في محاولة استقطاب المزيد من الأنصار بالبوادي والمدن، ومن ذلك ما كانت تقوم به القيادات الشيوعية بمدينة مكناس التي استمرت في تعبئة الجماهير وتحقيق بعض المطالب، فضلا عن إعادة هيكلة خلايا الحزب³.

هذا وقد ازدادت مخاوف اليهود بسبب شكوكهم التي كانوا يغدونها في ما يتعلق بصدق تمسك حزب الاستقلال بالمثل الديمقراطية، من جراء معاداته للحزب الشيوعي المغربي الذي كان يمثل، منذ 1945، التشكيلة الوحيدة تقريبا التي كانت تضم بين صفوفها مسلمين ويهود ومسيحيين⁴. من جهته لم يقيم حزب الاستقلال باستثمار الخطوة التي قام بها يهود فاس الذين انضموا إلى الوفود التي قدمت من كافة المناطق لتحية علال الفاسي رفقة محمد بن الحسن الوزاني بمناسبة عودتهما من المنفى⁵، من أجل توجيه نداء مفتوح لليهود للمشاركة في الكفاح من أجل الاستقلال بغض النظر عن خلفية مبادرتهم تلك، هل تمت فقط في إطار المجاملة وفي إطار تقاليد الصداقة التي كانت تجمع أعيان الملاح بأعيان المدينة القديمة، أم كانوا قد تصرفوا على ذلك النحو لاعتبارات أخرى⁶. من جهته لم يقيم

¹ نفسه، ص. 247.

² نفسه، ص. 246.

³ براص محمد، "الثابت والتحول في علاقة الحزب الشيوعي باليهود المغربية 1943-1948"، هيسبريس تامودا، مرجع سابق، ص. 45.

⁴ محمد كنيب، يهود المغرب 1912-1948...، مرجع سابق، ص. 262.

⁵ M. Kenbib, *Juifs et Musulmans au Maroc des Origines à nos jours...*, op. cit, p. 170

⁶ "فحسب تقرير كتبه المقيم العام ألفونس جوان سنة 1947، حصلت أولى اللقاءات بين بعض المثقفين اليهود ونظرائهم المسلمين خلال الحرب العالمية الثانية في وقت بدا واضحا أن القوة المستعمرة ضعفت، ولم تعد تمتلك الريادة التي جعلتها في الماضي صاحبة المبادرة. ووقع ما يشبه الاتفاق بين مثقفي الطائفتين على أن الوقت مناسب لتقديم ملف يتضمن مجموعة من المطالب المشروعة. وأوضح جوان أن الوطنيين يعتبرون انضمام اليهود إلى صفوفهم أمرا إيجابيا ومساندتهم للقضية الوطنية ورقة رابحة ضد الفرنسيين. وشرح بأنه من الصعب ضبط محفزات المثقفين اليهود، إلا أنه يظهر أن هذه الأقلية تسعى إلى "اللعب على واجهتين"، "على الواجهة الوطنية بحيث يكون بإمكانهم ادعاء المشاركة إلى جانب إخوانهم المسلمين في المعركة، وبالتالي يكون من حقهم المطالبة بجميع الحقوق والمساواة مع المسلمين". و"تجاه الفرنسيين زاعمين أنهم ضحية تهديد الوطنيين، وبالتالي فإن من حقهم الحصول على حماية أكثر وتسهيلات قانونية للحصول إما على الجنسية الفرنسية، أو أن يترك الباب مفتوحا أمام اليهود للهجرة إلى فلسطين". وخلص الجنرال جوان إلى أن النخبة التي تلعب هذه اللعبة تتبع خطة سماها "سياسة التوازن" بين الوطنيين والفرنسيين، وإلى أن السلطان بشاطر "محميه" الوطنيين الرأي ويشجعهم في سعيهم هذا". محمد حاتمي، الجماعات اليهودية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية ورهان المغرب المستقل...، مرجع سابق، ص. 314.

حزب الشورى والاستقلال، الذي تأسس سنة 1946 هو الآخر، ببذل أية مساعٍ نوعية بهذا الصدد، على الرغم من توفره على توجه يدعو للإخاء بين الجماعات. وبدلاً من أن يفتح هذا الحزب صفوفه لليهود، وأن يسعى لضمهم إليه، سواء من أجل تعزيز الطابع الديمقراطي الذي كان يريد أن يتميز به على الساحة السياسية أم من أجل تحسين وضعيته (الكمية) كـ "حزب صغير"، فإنه اتجه للتقارب مع حزب الوحدة المغربية (تطوان)، محاولاً بذلك التخفيف من رجحان كفة حزب الاستقلال¹، فضلاً عن ذلك عمل هذا الحزب لاحقاً في أعقاب صدور قرار تقسيم فلسطين سنة 1948، وفي إطار مقارنة مطبوعة بروح المزايدة، إلى حد الإعلان أن ارتياد متاجر اليهود، أو الدخول لدور السينما التي هي في ملكهم، كان بمثابة "تسليح للصهاينة بالإمكانات المادية على حساب فلسطين العربية"، كما وجه، بناءً على ذلك، نداءً إلى المسلمين للتصرف إزاءهم بما يفرضه "الموقف الوطني ويقتضيه الإيمان والواجب والشرف"²، وهو الأمر الذي ساهم رفقة العوامل الأخرى في ازدياد حدة الشك بين أفراد الجماعتين، خصوصاً في ظل اشتداد الدعاية الصهيونية ابتداءً من هذه المرحلة، بعدما أصبح خيار الهجرة أكثر إغراء للعديد من المغاربة اليهود في أعقاب الحرب العالمية الثانية³.

لقد كان هذا "الإقصاء" تجاه الحزب الشيوعي المغربي ضرورياً في نظر زعمي الحزبين الوطنيين، بسبب مفهوم "صراع الطبقات" الذي تقوم عليه الإيديولوجيا الماركسية، والمخاطر الاجتماعية والسياسية التي يمكن أن تنتج عن توسع حظوة الحزب الشيوعي المغربي في أوساط الجماهير نتيجة التحاقه بالمؤيدين لمبدأ الاستقلال. كما أصبح هذا الإقصاء في منظورها مسألة حيوية، إذ كانا يأملان، في سياق الحرب الباردة، أن تأخذ الولايات المتحدة بعين الاعتبار معادتهما للشيوعية، وأن تدعم مطالبهما. وهو ما لم يكن مقبولاً في نظر اليهود الشيوعيين، إذ عد ذلك في نظرهم مظهراً من مظاهر "عدم التسامح"، خاصة وأن الحزب الذين كانوا ينشطون فيه قد اختار هو الآخر طريق الاستقلال⁴.

تضافرت الأحداث، بعد ذلك وتسارعت أوجه التفاعل السياسي بالمغرب بين السلطان والحركة الوطنية من جهة وسلطات الحماية الفرنسية من جهة أخرى، وانتهت في 20 غشت من سنة 1953 إلى عزل السلطان محمد بن يوسف من طرف المقيم العام الجنرال غيوم، بدعم كبير من قبل لكلاوي باشا مراکش الذي لعب دوراً حاسماً في

¹ محمد كنيبي، **يهود المغرب 1912-1948...**، مرجع سابق، ص. 265.

² نفسه، ص. 275.

³ اعتبر الصهاينة مستقبلهم "فلسطينياً"، لذلك تجاهلوا الدعوة إلى الكفاح المشترك، التي كانت كتلة العمل الوطني تدعو إليها "المواطنون اليهود"، خاصة وأن اتساع الاضطهاد الهتليري، سهل مهمة الصهيونيين في تحسيس الجماعات اليهودية بضرورة المساهمة المضطربة لفائدة "اليشوف" (الوطن القومي). انظر: محمد كنيبي، **يهود المغرب 1912-1948...**، مرجع سابق، ص. 160.

⁴ نفسه، ص. 266.

عزل السلطان الشرعي وتعيين ابن عرفة مكانه¹. هذا المنعطف أدى بشكل فوري إلى شيوع التذمر الشعبي في صفوف المغاربة المسلمين²، وانطلاق سلسلة من الأحداث العنيفة ضد الفرنسيين³، بتأطير من طرف الحركة الوطنية التي انتبهت إلى وجود التطرف في ردود أفعالها، ليقينها من أنها تلعب في تلك اللحظة بالذات أوراقها الأكثر حساسية من أجل كسب أكبر قدر ممكن من الشعبية⁴ في أفق تحقيق برنامجها السياسي في اتجاه إلغاء معاهدة الحماية. غير أن هذا التطور السياسي الاستثنائي، أربك المغاربة اليهود بنخبهم وعوامهم، بسبب حرصهم على البقاء خارج الصراع، الأمر الذي طبع مواقفهم بالتردد والتذبذب والارتقاب، وهو الأمر الذي ساهم في ازدياد الشرخ والشك بين النشطاء الوطنيين وعموم اليهود⁵. ارتباك ممثلي اليهود تُرجم في موقف مجلس الجماعات اليهودية بالمغرب الذي تحاشى الإعراب صراحة عن موقفه من خلع السلطان، وقد برر ذلك بعدم أحقية الجماعات اليهودية في إبداء رأيها في الأمور الشرعية المتعلقة بالإمامة العليا. أما في الكواليس فقد أفصح جاك دهان رئيس مجلس الجماعات اليهودية عن مشاعره ومشاعر رفاقه في المجلس، مباركا الطريقة الزجرية التي انتهجتها الإقامة العامة لوضع حد لتمرّد السلطان⁶. كما وصف السلطان المخلوع بالعقبة التي تعيق الإصلاحات التي تسعى إلى ترسيخ الوجود الفرنسي بالمغرب، فضلا عن تماديه في التحالف مع العناصر الوطنية المتكتلة في حزب الاستقلال. وقد دلت العديد من المؤشرات على أن أغلب اليهود لم ينزعجوا كثيرا للحدث واعتبروا خلع السلطان نتيجة طبيعية لتعنته وانسياقه وراء الوطنيين المتحمسين⁷. وهو نفس الموقف الذي سبق وعبر عنه الباشا لكلاوي سنة 1950، حيث طلب منه عدم الانسياق وراء الوطنيين⁸.

الراجح أن عدم مشاركة يهود المغرب بمن فيهم يهود مكناس في معركة المطالبة بالاستقلال، التي انطلقت بعد نفي السلطان محمد بن يوسف سنة 1953، كان قرارا مسنودا بتقديرات سياسية خاصة، فالاستقلال يعني العودة

¹B. Lugan, op. cit, p. 281-282.

²Ibid, p. 283.

³R. Assaraf, **Une certaine Histoire ...**, op. cit, p. 577.

⁴محمد حاتمي، الجماعات اليهودية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية ورهان المغرب المستقل...، مرجع سابق، ص. 336.

⁵نفسه، ص. 337.

⁶نفسه، ص. 337-338.

⁷نفسه، ص. 338.

⁸«...Le samedi 23 décembre 1950, le Glaoui s'était rendu au Palais afin d'y présenter ses vœux à Mohammed V à l'occasion de la fête di Mouloud et il avait demandé au souverain de ne plus écouter les « Fauteurs de désordre » qu'étaient les membres de L'Istiqlal et de ne plus se laisser influencer par eux. A. Ben mansour rapporte la suite de l'entrevue : « Le Sultan lui fit comprendre que la fête du Mouloud devait être réservée pour les vœux et non pour des récriminations politiques. El Glaoui lui reprocha alors sa « complaisance » envers la parti nationaliste et poussa son insolence jusqu'à s'adresser à lui en ces termes : " Tu n'es plus Sultan du Maroc. Tu es le Sultan de L'Istiqlal communiste et athée !" Sidi Mohammed le congédia sans ménagement et lui signifia, par l'intermédiaire du grand vizir, l'interdiction d'accéder au palais jusqu'à nouvel ordre » : B. Lugan, op. cit, p. 281.

إلى الوراثة لوضعية الذمي، إلى البؤس، والمجهول. والراجح أنهم كانوا بذلك يعتقدون أو بالأحرى "يوهمون" أنفسهم بأن فرنسا لن تخرج من المغرب. وكان كل هاجسهم تفادي أي نزاع يمكن أن يتجاوزهم¹. مخاوف اليهود ازدادت خلال هذه المرحلة بفعل تمادي سلطات الحماية في شيطنة السلطان عبر باتهامه خلال فترة الحرب العالمية الثانية بربط علاقات سرية مع ألمانيا النازية، حيث قامت العديد من الصحف بنشر نص برقية صادرة عن القنصلية الألمانية في طنجة عرضت لحديث جرى، حسب زعمها، سنة 1940 بين "مبعوث عن جلالته" ونائب القنصل الألماني، صرح فيه المبعوث بإعجاب السلطان بالزعيم ومتمنياته له بالانتصار في حروبه. وقد حققت الحملة الإعلامية وقعا لدى اليهود الذين اعتبروا أنفسهم "مخدوعين" لأنهم وضعوا ثقتهم في شخص لا يستحقها². كما قام الباشا لكلاوي بلعب نفس الدور في شيطنة السلطان في أعين اليهود تماشيا مع الوضع الجديد الذي فرضته سلطات الحماية، حيث أشاع في صفوفهم أن الفضل في السعي لعدم تطبيق قوانين فيشي في حقهم يعود له لأنه وظف نفوذه وسلطته متحديا التعليمات التي أصدرها المقيم العام الجنرال نوجيس. كما نبه في كل المناسبات التي جمعت بممثلين يهود، إلى أن العناصر الوطنية عدوة طبيعية لهم، بدليل تلقيها الأوامر من الجامعة العربية "عدوة المغرب وإسرائيل والتعايش اليهودي الإسلامي"، وترتب عن اقتناع باشا مراكش ببطلان ما تدعو إليه الجامعة العربية جملة وتفصيلا، اعتقاده أن دولة إسرائيل تمثل حليفا للمغرب، واعتباره أنه للكيان الصهيوني "الحق في البقاء" لأنه بفضل شجاعة رجاله وأخلاقهم العالية تمكن من الحصول على مكانة متميزة³، ثم "لأنه فضح العرب خلال حركهم له وأن العرب لا يعرفون سوى الكره"⁴. كما أن السلطان الجديد ابن عرفة اتخذ بعض الإجراءات بعد تنصيبه تفيد أنه يريد أن يصبح المغرب دولة عصرية، ومن أهم الإجراءات الفورية التي أعلن عنها، حذف عادة الركوع أمام السلطان⁵، لأنه يحرم على العبد أن يركع أو يسجد لغير الإله المعبود المختص بالركوع والسجود، والكف عن الاحتفال بعيد العرش "لأن الإسلام لم يأت إلا بعيدي الفطر والأضحى، ثم [...] المولد النبوي الشريف"، وثالثا حذف عادة الهدية "سيرا مع الاقتصاد، وتخفيفا من وظائف رعيتهما، وحسما لمادة المفاسد التي ترتكب في جنايتنا"⁶. كما نال السلطان الجديد عطف فئات عريضة من اليهود، أساسا، بسبب دعاية الصحافة الفرنسية لصالحه إثر مصادقته على ظهائر نصت على أن "جميع المغاربة" دون "ميز بين بربر وعرب ويهود"، وتأكيد - من "الناحية النظرية" على الأقل - على أن جميع المغاربة مؤهلون لشغل كل الوظائف من دون اعتبارات عرقية أو دينية⁷.

¹J. Tolédano, *Le temps du Mellah*, op. cit, p. 247.

²محمد حاتمي، *الجماعات اليهودية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية وهران المغرب المستقل...*، مرجع سابق، ص. 339-340.

³نفسه، ص 340-341.

⁴نفسه، ص. 341.

⁵نفسه، ص. 342.

مخاوف يهود مكناس وعموم يهود المغرب، وتوجسهم من النخب الوطنية، تعززت أكثر بعد ما حل بهم من أحداث مؤلمة بسيدي قاسم في غشت 1955¹، والتي فصلنا فيها القول آنفا، إذ اعتبروا ذلك نموذجا لما يمكن أن يتعرضوا له في مغرب الاستقلال²، خصوصا وأن زعماء الحركة الوطنية، وفق ما جاء لدى روبر أصراف، لم يقوموا بأي رد فعل لإدانة هذه الجريمة، أو مواصلة عائلات الضحايا لإنهاء حالة الخوف التي دبت في صفوف اليهود³. وفي محاولة لرأب الصدع بين المسلمين واليهود، قام المدعو جون أوحنا - رجل أعمال من مدينة الدار البيضاء من أصول مكناسية - بتأسيس حركة سماها ب الحركة الوطنية المغربية⁴، وقد اقتصر الحضور في اجتماعاتها على أفراد العائلة وبعض المقربين⁵. هذه المبادرة أسعدت قادة حزب الاستقلال الذين عدوا تلك الحركة خلية يهودية داخل حزبهم السياسي. وقد كانت غاية هذه الحركة محاولة استشراف وضعية اليهود في مغرب الاستقلال، وجاء في إحدى منشوراتها ما يلي: "هل اليهود المغاربة جزء من الأمة المغربية؟ وهل يستجيبون للمفهوم الجديد للوطنية؟ إنهم جزء أصيل من ساكنة هذا البلد بكل مكوناته، ويتكلمون نفس اللغة الدارجة ومتشبعون بنفس القيم الأخلاقية، ومع ذلك لا يتمتعون بكامل حقوقهم. هذا الفصل بين مكونين أصيلين أدى إلى إحداث التفرقة بينهما لدرجة أنهما صارا يبدوان غريبين عن بعضهما البعض. ومن أجل الخروج من وضعية الدونية الأخلاقية والقانونية التي يعاني منها يهود هذه البلاد، ومن أجل التعبير عن وعيهم الوطني إلى أقصى حد، قرر مجموعة من الشباب تأسيس الحركة الوطنية المغربية"⁶. وفي نفس الوقت تم نشر جو أوحنا مقالا بجريدة Maroc Presse بعنوان "الوعي الوطني" هاجم فيه المؤسسات اليهودية وصفها بكونها تمييزية، وتعيق اندماج اليهود مع الأغلبية المسلمة، كما وصف تلك المؤسسات بكونها أغلال تعيق تطور الوعي الوطني لليهود المغاربة، وأشار إلى أنه لا يجب أن يكون هناك شيء يعيق اندماجهم في الحياة العامة، ويجب أن يشاركوا فيها مثلهم مثل شركائهم في الوطن المسلمين، وأن الوقت ما زال يسمح بذلك⁷.

صدى هذا النداء تردد بشكل ضعيف في صفوف المغاربة اليهود، بسبب توجس الأغلبية من مغرب الاستقلال، ومما تراكم من أسباب سوء الفهم مع الوطنيين، كما تزامن ذلك مع اشتداد التطلع إلى الهجرة نحو فلسطين، وبناء عليه فإن عددا قليلا من اليهود حاول القيام بالدعاية ضد الحماية لكن من دون صدى، فضلا عن ذلك لم تفض الاتصالات التي ربطها الوطنيون بعدد من مسيري الجمعيات اليهودية إلى أي تطور في اتجاه تشكيل

¹R. Assaraf, *Une certaine Histoire des Juifs du Maroc 1860-1999...*, op. cit, p. 579-580.

²J. Tolédano, *Le temps du Mella...*, op. cit, p. 247.

³R. Assaraf, *Eléments ...*, op. cit, p. 286.

⁴P. Cohen, op.cit, p. 259.

⁵R. Assaraf, *Eléments...*, op. cit, p. 286.

⁶Ibid, p. 287

⁷Ibid, p. 287-288.

جبهة موحدة يهودية- إسلامية ضد سلطات الحماية، خصوصا وأن سلطات الحماية الفرنسية كانت حريصة على تجنب ذلك لما ينطوي عليه من خطورة بالغة¹.

لقد تميزت مواقف² معظم اليهود بالكثير من التردد، ذلك أن مسألة انضمامهم إلى الجبهة الوطنية كان رهينا بتأكدهم من مغادرة فرنسا للمغرب. وقد تجسدت حيطة اليهود بشكل واضح في معادلة اقتضت الحفاظ على نوع من التوازن بين الأحزاب والقصر من جهة، والحماية الفرنسية من جهة أخرى، وذلك من خلال الحرص على ربط علاقات مع جميع الأطراف، ومن دون قطيعة ومن دون تعميق الاتصالات مع أي طرف، تحسبا لأي تطور غير مؤكد قد يحصل في المستقبل. ومن رواد هذا الاتجاه كان ثمة رئيس الجماعة اليهودية بالدار البيضاء والعضو المؤثر في رابطة جمعيات قدماء تلاميذ الرابطة الإسرائيلية، والذي كان معارضا بقوة للنشاط الصهيوني الذي عده خطرا على اليهودية المغربية³.

تدهور الأوضاع العامة بالبلاد بسبب المأزق الذي وجدت فرنسا نفسها محاصرة فيه داخليا، وخارجيا، بسبب نفيتها للسلطان⁴، أدى إلى عكس ما كانت تخطط له، ذلك أنه عوض إبعاد شبح الاستقلال إلى آجال غير محددة، حصل العكس، حيث أعطى قرار عزل السلطان دفعة قوية جدا لمطلب الاستقلاليين⁵، فوجدت فرنسا نفسها مجبرة على التحضير للمفاوضات مع السلطان من أجل وضع حد للأزمة المغربية، وبناء عليه قامت إدارة الحماية باستدعاء مجلس الجماعات اليهودية المغربية للمشاركة في مفاوضات إكس ليبان⁶، وهو الأمر الذي لم يستسغه بعض الوطنيين، حيث عدوا ذلك "دليلا" على أن الحكومة الفرنسية كانت تميز بين المغاربة، إذ باتت تعتقد فيهم اليهود المغاربة والمسلمين المغاربة، ويتعين، بناء عليه، الاستماع إلى وجهة نظر اليهود المغاربة على حدة⁷. وقد نصت الوثيقة المنظمة لدعوات المفاوضات في إكس ليبان على تخصيص يومي الجمعة والسبت 26 و 27 غشت لاستقبال الممثلين اليهود ضمن وفد مشترك يضم ممثلين عن فرنسيي المغرب⁸. غير أن النقاش الذي دار على هامش المؤتمر أوضح، بأن

¹M. Nouvel, op. cit, p. 16.

²في سياق تصاعد الأحداث في اتجاه الاستقلال انقسمت مواقف اليهودية المغربية إلى أربع اتجاهات يمكن تحديدها فيما يلي: 1- موقف اليهودية الرسمية" القاضي بتسريع وثيرة الحصول على الامتيازات من إدارة سلطات الحماية، دون إثارة المغاربة المسلمين. 2- اتجاه وافق موقف الاستقلاليين وقد كان أقلية. 3- المعارضين لموقف اليهودية الرسمية، والذين رغبوا في توطيد العلاقات مع المنظمات اليهودية العالمية. 4- الاتجاه الصهيوني الذي عبر صراحة عن تأييده لدولة إسرائيل وساهم في تنظيم هجرة الطبقات الشعبية. لكن الحدود بين هذه المواقف لم تكن دائما واضحة خاصة خلال فترة الاضطراب التي سبقت الاستقلال."

D. Bensimon-Donath, *Evolution du judaïsme marocain...*, op. cit, p. 113-114.

³M. Nouvel, op. cit, p. 16-17.

⁴B. Lugan, op. cit, p. 284.

⁵R. Assaraf, *Une certaine Histoire des Juifs du Maroc 1860-1999...*, op. cit, p. 567.

⁶محمد حاتمي، *الجماعات اليهودية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية وهران المغرب المستقل...*، مرجع سابق، ص. 379.

⁷نفسه، الهامش رقم 01، ص. 379.

⁸نفسه، ص. 380.

الوطنيين قد عارضوا تخصيص أي فئة من مكونات المجتمع المغربي بامتيازات خاصة، لأن في ذلك انحرافا عما يتطلعون إليه في المغرب الجديد، وذلك يجعل الاعتبار الوطنية فوق الحسابات الضيقة. ورفضوا بنفس الدرجة أن يكون لفرنسا أو لأي دولة أخرى - الحق - حتى ولو كان رمزيا - في الاستمرار في رعاية فئة من الشعب المغربي مهما كانت المبررات¹.

توجس ممثل مجلس الجماعات خلال هذه المفاوضات تم التعبير عنه صراحة عبر إعلانه عن معارضته الإعلان رسميا، في الوقت الراهن، عن عودة محمد بن يوسف بدعوى إمكانية إلهاب حماس الشارع المغربي بشكل يمكنه أن يضع ملاحظات المغرب تحت تهديد عامة الشعب المغربي، كما صرح دهان بأنه من الصعب الثقة في الوطنيين لافتقارهم للشجاعة المؤهلة لتأطير المشاعر المعادية لليهود²، وفي هذا السياق وجه نائب رئيس المنظمة الصهيونية المغربية (ألفونس الصباغ)، سنة 1955 "صرخة للضمير اليهودي"، منبها إلى أن الوضع في المغرب "متفجر" مهما كانت قيمة الضمانات ومصدرها، أساسا لأن المسلمين يعتبرون غياب اليهود عن ساحة النضال الوطني جرما لا يغتفر، هذا فضلا عن أن منافسة الرأسمال المسلم ستزداد حدة في المستقبل، مما سيضر بشكل مباشر بالمصالح اليهودية³.

انتبه وطينو حزب الاستقلال إلى مخاوف اليهود، لذلك أكدوا في ما يخص هؤلاء على نية الحكومة الوطنية (بعد إلغاء معاهدة الحماية) التعجيل في تحصيل التدابير المؤدية لخلق ملكية دستورية يكون قوامها مجموعة من المبادئ الأساسية من أهمها: "المساواة بين جميع المواطنين المغاربة من دون تمييز عنصري أو ديني، وضمان الحقوق كاملة فيما يخص الممارسة والتمتع بالحقوق الدينية وسلامة الممتلكات واحترام الأفراد. أضف إلى ذلك حق جميع المواطنين المغاربة في امتثال الوظائف العمومية وفق مبدأ" التساوي في الحظوظ"⁴. غير أن ما توخاه الوطنيون لم يتحقق، أي الدفع بالمسؤولين اليهود إلى اتخاذ مواقف إيجابية من القضية الوطنية. فسواء على مستوى مجلس الجماعات اليهودية أو النخب المحلية الأكثر تأثيرا ظل موقف الحياد سائدا، بل أكثر من ذلك أصبح الرحيل في نظر الأغلبية المتشائمة هو الحل الأمثل، خاصة بعد الأحداث الدامية التي عرفتتها العديد من المدن خلال صيف سنة 1955.⁵

¹نفسه، ص. 382.

²نفسه، ص. 383.

³نفسه، ص. 429.

⁴نفسه، ص. 384.

⁵نفسه، ص. 386.

تأكّد المغاربة اليهود أن نظام الحماية يعيش آخر أيامه، وأن عودة السلطان للعرش وإعلان حصول البلاد على استقلالها بات وشيكاً، دفعهم في 30 أكتوبر 1955، إلى عقد مؤتمر استثنائي ضم جميع ممثلي الجماعات اليهودية، فصوّت الحاضرون بالإجماع على النص التالي: "إن ممثلي الجماعات اليهودية المغربية المجتمعين في دورة عامة يومه الأحد 30 أكتوبر 1955 بالرباط يحيون وكلهم فرحة وبهجة عودة صاحب الجلالة السلطان محمد بن يوسف وعائلته الكريمة إلى فرنسا، ويعبرون لجلالته عن شعورهم المتميز وارتباطهم العميق، وهم عاقدون العزم على ضم صوتهم لصوت مواطنيهم المسلمين لمطالبة الحكومة الفرنسية برجوع الملك الشرعي إلى عرشه، ويناشدون المواطنين اليهود الاشتراك إلى جانب مواطنيهم المسلمين الاحتفال بحلول صاحب الجلالة محمد بن يوسف فوق التراب الوطني، والأمل القريب في عودة الشرعية". وخلال الجلسة نفسها، عين المجتمعون أعضاء وفد كلف بالتوجه في أقرب الآجال إلى فرنسا لتقديم التهاني للسلطان بمقر إقامته في سان جرمان في ضواحي العاصمة الفرنسية¹. وقد كان جون أوحنا من أوائل الشخصيات المغربية التي حظيت باستقبال السلطان محمد بن يوسف بعد عودته من منفاه بسان جيرمان. وقد عبر جون أوحنا باعتباره مندوباً للحركة الوطنية المغربية في خطاب عن مدى سعادته بالاستقبال الذي حظي به من طرف السلطان، كما عبر عن "مدى القلق" الذي ساور اليهود المغاربة بعد حادثة النفي، واعتبر عودة الملك إلى بلاده تدشيناً لمرحلة جديدة سيتم خلالها تحقيق العدالة بين اليهود والمسلمين².

وعندما استقبل السلطان بدوره جاك دهان رئيس مجلس الجماعات اليهودية والحاخام الكبير شاويل دنان، اللذين ينحدران معا على التوالي من مدينتي الجديدة وفاس، عبّر عن كون اليهود جزءاً أصيلاً من الشعب المغربي، وبأنهم كانوا دائماً محل رعاية من قبل السلاطين الذين سبقوه، والذين كانوا حريصين على حماية حرية التدين بالنسبة لرعاياهم الإسرائيليين، كما أكد أن مغرب الاستقلال بحاجة لجميع أبنائه، وأن العدل سيشمل الجميع في الحقوق والواجبات³.

وبتاريخ 5 نونبر 1955 استقبل السلطان مندوبين عن المغاربة اليهود وقال لهم: "سيحظى المغاربة اليهود بكامل حقوقهم في إطار العدالة والمساواة التامة، وسيكونون شركاء في الشأن الوطني، حيث سيتقلدون مناصب حكومية إضافة إلى شغل باقي الوظائف السامية"⁴. وفي 18 نونبر 1955، أي يومين بعد عودته إلى أرض الوطن قادماً من فرنسا، ألقى السلطان خطاباً بمناسبة الذكرى الثامنة والعشرين لجلوسه على العرش، ومما جاء فيه: "إن

¹نفسه، ص. 392-393.

²R. Assaraf, *Eléments* ..., op. cit, p. 288.

³Ibid, p. 288-289.

⁴A. Guigui, op. cit, p. 125.

هاجسنا الأول هو خلق مؤسسات ديمقراطية على أساس الانتخابات الحرة، وفصل السلط في إطار ملكية دستورية قواعدها الاعتراف لجميع المغاربة على اختلاف عقائدهم بحقوق المواطن وبالحرية العامة والنقابة. ومن البديهي أن يهود المغرب هم كجميع المواطنين المغاربة متساوون في الحقوق والواجبات، وهذا النظام الديمقراطي ينبغي أن يحقق للجميع حياة رفاهية وسعادة، وبقي المواطنين غائلة الخوف وعادية الظلم حتى يشعر الجميع بنعمة الاستقلال"¹.

مساعي السلطان والوطنيين في اتجاه طمأنة يهود المغرب حول مصيرهم في مغرب الاستقلال، تم التعبير عنها خلال محادثات إكس لبيان برغبة الطرفين في تعيين وزير يهودي في أول حكومة للاستقلال، وقد صارت المسألة جدية أكثر مباشرة بعد تكليف السلطان محمد بن يوسف للبasha البكاي بتشكيل حكومة ائتلافية وطنية متوازنة ومنسجمة. ففي تعليماته الشفوية، حرص العاهل على التذكير بضرورة إشراك وزير يهودي لتفعيل محتوى خطابه بمناسبة غير العرش الأخير، و"ليبرهن لرعاياه اليهود أنه حقا لا يعتبرهم في وضع دوني ومهمش"². بعد مشاورات واتصالات كثيرة وعدم استجابة عدد من بروفايلات المرشحين لهذا المنصب، وقع الاختيار أخيرا على شخصية ليون بنزاكين الذي قبل المنصب وزيرا للبريد "على مضض"، وقد استقبله العاهل في نفس اليوم، وعند خروجه من القصر، أدلى بتصريح له دلالات كثيرة عكست إدراكه للتحديات التي يفرضها وضعه الخاص داخل حكومة فيسفاينة. وفيما يلي نص تصريحه: "استقبلني جلالة السلطان استقبالا حارا، له أكبر الأثر على نفسي، وأكد لي أنه يعتبرني وزيرا مغربا، وأعرب بالمناسبة عن عطفه وتقديره لبني ملتي بنفس قدر عطفه لمسلمي البلد. إن تعيين وزير يهودي له أكثر من دلالة رمزية، فالمنصب أوكل ليهودي ليس لأنه ممثل لليهود المغرب، وإنما بالأساس لأنه مغربي"³. وقد أجمل بنزاكين فلسفته في موضوع اندماج اليهود في قوله كلما سئل عن خياراته الوطنية: "إن مستقبل اليهود المغاربة سيكون كما يريدونه أن يكون. فليهب اليهود المغاربة للعمل لصالح بلدهم من دون تمييز، وليصونوا إيمانهم كاملا، وليحفظوا ثقافتهم وأخلاقهم، لأن مقوماتهم الذاتية منسجمة تماما مع مغرب اليوم، وليس هنالك أدنى تناقض بينها وبين ما هو مطلوب منهم وما يمكنهم إعطاؤه." انتصار بنزاكين لخيار الاندماج كان محط انتقاد من طرف الصهاينة، لأنه بذلك يعرقل استجابة اليهود لنداء "أرض الميعاد"، ويسعى على المدى البعيد إلى "أسلمتها"⁴. غير أن تعيين وزير يهودي بأول حكومة مغربية قد كان له وقع حسن على نفسية المغاربة اليهود⁵.

¹ Ibid p. 125-126.

² محمد حاتمي، الجماعات اليهودية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية وهران المغرب المستقل...، مرجع سابق، ص. 402.

³ نفسه، ص. 405.

⁴ نفسه، ص. 406.

⁵ D. Bensimon-Donath, *Evolution du judaïsme marocain...*, op. cit, p. 117.

بالمجمل لم يتعرض يهود المغرب لأي غضب من الشارع بعد إعلان الاستقلال مباشرة، ويعود الفضل في ذلك من جهة إلى الثقل الرمزي للسلطان محمد بن يوسف، الذي قرر بعد عودته طي صفحة الماضي، و"الصفحة" حتى عن أشد خصومه بمن فيهم الباشا لكلاوي وكل الأطراف التي أساءت إليه وهو الأمر الذي استحسنته اليهود كثيرا¹، ومن جهة أخرى ساهم الوطنيون من جانبهم في جعل الجماعات اليهودية في منأى من غضب الشارع².

حاصل القول، إن الدور الذي لعبه المغاربة اليهود في إطار الحركة الوطنية المغربية من أجل الاستقلال لم يتناسب، بأي حال من الأحوال، مع عددهم والإمكانات التي كانت متاحة لهم، ذلك أن الذين التحقوا منهم بتيارات الحركة الوطنية كانوا فئة قليلة العدد، وأغلبهم كان ينشط داخل الحزب الشيوعي المغربي، غير أن الذين كانوا يؤيدون الوجود الفرنسي بالمغرب كانوا يمثلون الأغلبية، حيث ربطوا مصيرهم بمصير الحماية الفرنسية، فضلا عن رهاقهم خلال السنوات الأخيرة للحماية، خصوصا بعد سنة 1948، على خيار مغادرة المغرب في اتجاه فلسطين وباقي البلدان الغربية، إدراكا منهم صعوبات الرهان اقتصاديا وسياسيا واجتماعيا على خيار الاندماج بمغرب الاستقلال، وهو خيار لم يكن بإمكان الغالبية الإفلات منه، لأن الأمر لم يكن إرادويا بقدر ما كان محكوما بالسياسات التي تم في ظلها تم اتخاذ قرارات حاسمة في تاريخ الأقليات المعروف عنها حساسيتها الشديدة تجاه ما تتعرض له من أحداث، ولعل الذاكرة الموشومة بالكثير من الأحداث الدامية التي تعرضوا لها سواء قبل الحماية أم بعدها، فضلا عن تعرضهم للضغط الشديد من طرف نشطاء الحركة الصهيونية في ظل التطورات المتصاعدة بالشرق العربي، كان له دور كبير في "اجتثاث" أغلبية أفراد الجماعات اليهودية بالمغرب بمن فيهم يهود مكناس.

¹R. Assaraf, *Une certaine Histoire des Juifs du Maroc 1860-1999...*, op. cit, p. 616-617.

²محمد حاتمي، *الجماعات اليهودية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية ورهان المغرب المستقل...*، مرجع سابق، ص. 406.

الفصل الثالث: يهود مكناس بين النشاط الصهيوني وإشكالية الهجرة

1. النشاط الصهيوني في صفوف الجماعة: سياق النشأة، أزمة الانتماء والولاء المزدوج

قبل الحديث عن مختلف الأحداث والتطورات المحلية والدولية التي ساهمت مجتمعة وعلى مراحل، في توفير مناخ ساعد المغاربة اليهود على اعتناق الصهيونية السياسية، وقبل إبراز السياق السياسي لظهورها بأوروبا، وكيف انتقلت إلى المغرب وتعددت وتطورت مواقف عدد من الفاعلين منها، نرى أنه من الضروري الحديث عن الفرق بينها وبين الصهيونية الدينية تفاديا لأي خلط بينهما.

إن للصهيونية الدينية، حركة دعت إلى إحياء التراث اليهودي عن طريق الآداب والتعليم، وهي ترى بأن "الوطن القومي" اليهودي لا يعني بالضرورة إنشاء دولة يهودية، بل جعل فلسطين مركزا روحيا وثقافيا لليهود. وكثيرا ما نادى المتصوفون اليهود بالصهيونية الدينية، وربطوا بينها وبين الأمل اليهودي في مجيء "المسيح" في آخر الزمان ليتحقق الخلاص¹ وحكم الرب، حينما تُدعى "جميع شعوب الأرض"²، من أجل البشرية جمعاء "ستبارك كل الأمم في ذريتك لأنك أطعت صوتي"³، وتتوجه البشرية إلى الأماكن التي حددتها التوراة لمآثر موسى. لقد أدت الصهيونية الدينية إلى إعادة إحياء الحج إلى الأماكن المقدسة، بل وإلى تكوين طوائف دينية وبخاصة في مدينة صفد⁴. وخلال القرن التاسع عشر أراد "محبو صهيون" إحداث مركز للإشعاع الروحي للدين والثقافة اليهوديين في أرض "صهيون"⁵، من أجل استمرار الحجاج اليهود في زيارة تلك المنطقة التي يعتقدون في قداستها.

*طبقا لما تم ذكره في السردية اليهودية فقد جاء جاء في سفر إشعيا 34: " يخرج فرع من جذع يسي وينمو غصن من أصوله، روح الرب ينزل عليه، روح الحكمة والفهم والمشورة روح القوة والمعرفة والتقوى، ويبتهج بمخافة الرب. لا يقضي بحسب ما تراه عيناه ولا يحكم بحسب سماع أذنيه، بل يقضي للفقراء بالعدل وينصف الظالمين بكلام كالعصا، ويميت الأشجار بنفخة من شفتيه. يكون العدل حزاما لوسطه والحق منزرا حول خصره." والمعنى انه يميت بكلامه كل من يريد، ولا يستطيع أحد الفرار أو النجاة منه. وأما عن عظمته الدنيوية: " ويكون هذا الملك عظيم جدا، ودار ملكه في صهيون، فليتمجد اسمه، ويعم ذكره الأمم " الأغيار " وأكثر من الملك سليمان، وتسالمه كل الأمم، وتخدمه كل البلدان... وكل من يقوم عليه يهزمه الرب ويسلمه إلى يديه". وكتب الرامبام في رسالة اليمن: " إذ أنه في الساعة التي يظهر فيها الملك المسيح يرتعب كل ملوك الأرض من صوته ويخافون وترتجف ممالكهم، ويتألمون حول كيفية مواجهته، بالسيف أو من دونه... كلن تزول الوطأة، والحرب من مشرق الشمس إلى مغربها ليست في بداية ظهوره، بل بعد حرب جوجو ماجوج". وبخصوص مكان ظهوره تذكر المصادر اليهودية أن المسيح سيظهر لأول مرة في أرض إسرائيل. " وتكون بداية ظهوره في أرض إسرائيل، حيث ورد: " وقال الرب القدير: ها أنا أرسل ملاكي فيهيئ الطريق أمامي، ويأتي بعتة إلى هيكله السيد الذي تطلبونه وملاك العهد الذي به تسرون. ها هو أت، قال رب الجنود." وعن صورة ظهوره جاء في المדרاش: " ساعة يجيء الملك المسيح، ويقف على سطح بيت المقدس ويسمع إسرائيل ويقول، أن أوان خلاصكم، وإذا كنتم لا تؤمنون فانظروا نوري الذي أشرق عليكم، وفي نفس الساعة يوهب الرب المتبارك اسمه نور الملك المسيح ويسرون جميعا بنور الملك المسيح ويسرائيل ويأتون ويلثمون التراب من تحت قدمي الملك المسيح، ويأتون ويسقطون على وجوههم أمام المسيح وأمام يسرائيل ويقولون: نكون لك ويسرائيل عبيدا". الواحد من يسرائيل يمتلك 2800 عبد. ومن أفعاله قيامه بإعادة مملكة داود إلى سابق عهد الحكومة الأولى، ويبني الهيكل، ويجمع منفبي يسرائيل، ويفرض على كل يسرائيل السير في سبيل التوراة والاستمسك بدقائقها ويعلمهم التوراة ويريهم سبل الرب، ويأتي الغويم ليسمعوا، ويحارب حروب الرب، ويصلح العالم بأكمله ليعبدوا الرب وحده. [...] ويظل الهدف الأسمى الذي من أجله تاق " جماعة" يسرائيل وحكامهم، إلى أيام المسيح ليس الاستمتاع المادي من مأكول ومشرب وسرور، وكذلك ليس من أجل أن يسيطروا على كل العالم ويضطهدوا الشعوب، بل من أجل أن يكونوا متفرغين للتوراة وحكمتها من دون أي جور وما يلهي عنها، ومن أجل أن يستحقوا حياة العالم الآتي، وبقيّة الأمور ليست سوى واسطة للطمأنينة والراحة من بلايا هذا العالم، واللذين ستقودان إلى هذا الهدف السامي". أسامة حرب، "دخائر آخر الأيام يهودا حيون"، مجلة المحجة، العدد 15، تصدر عن معهد المعارف الحكمية للدراسات الدينية والفلسفية، بيروت، 2007، ص.ص. 180-185.

¹R. Assaraf, *Eléments...*, op. cit, p. 34.

²العهد القديم، سفر التكوين، 12/3.

³العهد القديم، نفسه، 22/18.

⁴روجيه جارودي، إسرائيل الصهيونية السياسية، دار الشروق، 1983، ص. 7.

⁵نفسه، ص. 7-8.

هذا النوع من الصهيونية هو الذي كان معروفا عند المغاربة اليهود -قبل اطلاعهم لاحقا على الصهيونية السياسية-، كشكل من أشكال التعلق الروحي بـ"مقدساتهم" بفلسطين، وهذا التعلق يشبه ارتباط البراهمة بالهند بما ما بين ضفاف نهرى "الهندوس"، وأتباع بوذا بأدغال النيبال، والمسيحيين بمختلف مذاهبهم ببيت لحم والمسلمين بمكة والمدينة، مع أن كل هؤلاء لا يعتبرون هذه المناطق بديلا عن أوطانهم¹.

وبخصوص علاقة عموم المغاربة اليهود بالصهيونية الدينية قبل الحماية أشار ضابط الشؤون الأهلية إيتيان غودان الذي أنجز دراسة من أهم الدراسات في موضوع تاريخ الصهيونية بالمغرب سنة 1946 إلى أن :

"اليهود المغاربة لم يكونوا على بينة من أفكار "تيدور هرتزل" التي ضمنها كتابه " دولة إسرائيل" المنشور سنة 1896، كما كانوا يجهلون مواد البرنامج السياسي المعتمد في مؤتمر بال. إن هذا الإقليم المنتمي إلى العالم غير المتحضر، لم يكن منفتحا بالشكل الذي يسمح بدخول تيارات أجنبية مؤثرة. لكن بالمقابل وجد بالمغرب ضرب من الصهيونية الدينية على النمط الذي كان موجودا في نفس الفترة في المجتمعات اليهودية في أوروبا وأمريكا. ومصدر هذا الارتباط العميق الذي يجمع بين كل يهودي وأرض يهودا، البلد المقدس موطن الأجداد، وهو شعور يبرز خاصة في أشكال عاطفية وروحية مختلفة ويترجم في الواقع في ممارسات بسيطة جدا، منها الحج إلى القدس، والوقوف مرة واحدة على الأقل أمام حائط المبكى، والطموح إلى الموت تحت ظلال جبل صهيون، والتبرع بصدقات لفائدة المؤسسات الدينية التي تهتم بشؤون المحتاجين والمعوزين في فلسطين، وهي صدقات يقوم بجمعها ربيون مفوضون من الشرق. وكل هذه الأمور شكلت بالنسبة لليهودي ممارسات نبيلة تحت عليها صراحة التعاليم الدينية."²

من هذا المنطلق يمكن أن نفسر ما كان يقوم به اليهود الميسورون بالمغرب خلال اليوم الموالي من حفلة البوريم، والذي كان يسمى بـ" سوسنة بوريم"، ذلك أنهم كانوا يحضرون وجبة غذاء جيدة ويبالغون في شرب الخمر، وأثناء تناولهم إياها كانوا يرددون عبارة "السنة المقبلة موعدا في القدس"³. كانوا لا يكتفون بذلك، لأن بعضهم ومنذ العصر الوسيط وحتى الحقبة المعاصرة ظلوا يرحلون إلى فلسطين إما بشكل نهائي* أو بشكل مؤقت، من أجل الحج⁴ وعيش تربة حياة متماثلة مع حياة أجدادهم، أو للاستفادة من الحلقات الدينية من منابعها في عين المكان*، ثم

¹أحمد شحلان، اليهود المغاربة من منبت الأصول إلى رياح الفرقة...، مرجع سابق، ص. 18.

²E. Goidan, op. cit, p. 6.

³أحمد شحلان، اليهود المغاربة من منبت الأصول إلى رياح الفرقة...، مرجع سابق، ص. 66.
*وفق التقديرات التي أوردها أرموند ليفي كان العدد الإجمالي لليهود فلسطين في بداية القرن التاسع عشر يقدر بحوالي 7 إلى 8 آلاف، وحسب نفس التقديرات بلغت نسبة اليهود من أصل مغربي في صفوفهم حوالي ألفين يهودي مشكلين بذلك أكبر جالية يهودية بفلسطين."

A. Lévy, op. cit, p. 128.

⁴Ibid, p. 128.

*لم تثر الصهيونية الدينية البعيدة تماما عن مشروع إنشاء وطن قومي لليهود بفلسطين أية مصادمات بين اليهود والسكان الفلسطينيين العرب منهم والمسلمين". روجيه جارودي، إسرائيل الصهيونية السياسية...، مرجع سابق، ص. 7-8.

العودة إلى البلد الأم كحمايات بوضعية اعتبارية مهمة¹. كما كانت أمنية أتقيائهم بالمغرب أن يدفنوا ومعهم حفنة من تراب مدينة القدس².

أما بخصوص الصهيونية السياسية، فبمقدورنا التأكيد، من خلال ما اطلعنا عليه من مادة تاريخية بأنها كانت مجهولة تماما بالنسبة للمغاربة اليهود قبل الحماية الفرنسية، ومحدودة الانتشار في صفوفهم إلى حدود عقد الثلاثينات من القرن العشرين:

✓ أولا، لأن سياق ظهورها ارتبط بالسياق الأوربي خلال القرن التاسع عشر.

✓ ثانيا، لأن سلطات الحماية خصوصا في عهد المقيم العام ليوطي لم تتساهل معها.

✓ ثالثا، لأن الأليانس ظلت مقتنعة إلى حدود الحرب العالمية الثانية بخيار التحرر عن طريق الاندماج، مع ضرورة الرهان على الدولة الحامية للارتقاء محليا.

تأخر ظهور الصهيونية السياسية وانتقالها إلى اليهود السفريدين خارج أوروبا بما في ذلك يهود المغرب، يعود بالأساس إلى أن هذه الأيدولوجيا تبلورت داخل السياق الأوربي أواخر القرن التاسع عشر، عندما تصاعد المد القومي بها، بعدما صار طموح كل جماعة ترى في حاضرها وماضيها ما يكفي من الأحداث لتبرير تأسيس وطن وقومي خاص بها، سواء كان ذلك وهما أو حقيقة، حيث بدا واضحا أن مفهوم الأمة سيفضي عاجلا أم آجلا إلى بناء دولة قومية³. لذلك لجأت جميع الشعوب إلى الماضي لتنبش منه شيئا لتبرير توجهاتها القومية وتطلعاتها إلى بناء دولة، ومنهم من ارتكز على حقيقة موضوعية ومنهم من ارتكز على وهم لتحقيق ذلك⁴. في قلب هذا السياق راهن مفكرو عصر الأنوار على دور التعليم في انصهار اليهود أفرادا داخل المجتمع الغربي الحديث، شريطة أن يتخلى اليهودي عن يهوديته كي يصبح عضوا كاملا في هذا المجتمع وشريكا فيه⁵. غير أن الحداثة الغربية التي تشكلت على مدى قرنين من الزمن (عصر الأنوار)، والتي استطاعت نسف البنى التقليدية للمجتمعات المسيحية الغربية، لم تستطع اختراق جدران الغيتو الاجتماعي والثقافي والديني لدى اليهود وغيرهم من الأقليات العنصرية على التماثل الاجتماعي⁶، خصوصا وأن الصهيونية السياسية كانت خلال هذه المرحلة شكلا من أشكال التعبير عن القومية اليهودية المعاصرة⁷، في قلب مناخ أوربي مفعم بالقومية، الأمر الذي لم يساعدهم على الابتعاد عن مفهوم العرق، شأنهم في ذلك شأن

¹E. Goidan, op. cit, p.10.

²أحمد شحلان، اليهود المغاربة من منبت الأصول إلى رياح الفرقة...، مرجع سابق، ص. 18.

³سلمان قعفراني، أزمة الانتماء اليهود...، مرجع سابق، ص. 40.

⁴نفسه، ص. 41.

⁵نفسه، ص. 152.

⁶نفسه، ص. 154.

⁷Elie Bernavi, *Sionismes*, in : les Juifs et le XX siècle, Calmann-Lévy, Paris, 2000, p. 217.

الآخرين، بل تبنوه ووجدوا فيه ما يسوغ ترددهم وحيرتهم وازدواجية خطابهم وثنائية مشاعرهم في محاولاتهم للتماثل الاجتماعي¹.

رغم جهود النخب اليهودية الكبيرة والمضنية من أجل التماثل الاجتماعي فإنها لم تستطع فك الارتباط مع ماضيها، فحافظت بذلك على عقلية الأقلية، الناتجة عن الانطواء والانكماش والعزلة التاريخية التي عاشها اليهود لقرون طويلة²، ذلك أن العديد ممن حاولوا الاندماج بألمانيا مثلاً، انسحبوا سريعاً إلى عزلتهم لدى أول عقبة، فأسسوا جمعيات خاصة بهم في تحد واضح للغالبية الكاثوليكية عبر إشعارهم برفضهم لهم³. كما أن خروج اليهود الحديث من الغيتو ودخولهم السريع في صلب الحضارة الغربية ومحاولاتهم الانخراط والاندماج الكليين، بشروطهم هم، كل هذا سبب مشكلة لليهود أنفسهم وللآخرين أيضاً⁴. لذلك آثرت اليهود الساعون إلى التماثل الاجتماعي "الخوف لدى الآخرين"⁵، لأن تماثلهم كان ينظر إليه بعين النقص، طالما لم يستطعوا الخروج من الإطار الفكري والثقافي والعلائقي الذي كرسه يهودية الغيتو⁶.

بالإضافة إلى ذلك شكل المحافظون التقليديون جبهة رفض قوية لمنع تحرر اليهود وخروجهم من الغيتو⁷ خوفاً "من الآثار المضرة على نقاوة الدين"⁸. وفي هذا السياق يفسر إسرائيل شاحاك استبداد الحاخامات تجاه إخوانهم في الدين بقوله: "أسس اليهودية التي وضعها حكماء التلمود، تأثرت بالأفلاطونية، خاصة صورة إسبرطة كما أوردها أفلاطون، ويرى "موسى هداس"، أن السمة الأساسية للنظام السياسي الأفلاطوني، والتي تبناها اليهود

¹ سلمان قعفراني، أزمة الانتماء اليهودي...، مرجع سابق، ص. 156.

² نفسه، ص. 140.

³ نفسه، ص. 148.

⁴ نفسه، ص. 198.

⁵ Alain Finkielkraut, *Le Juif imaginaire*, Ed Seuil, Paris, 1980, p. 88.

⁶ يقول برنار لازار في هذا الإطار: "...اليهود لم ينصهروا بعد، يعني ذلك أنهم لا زالوا يعتقدون بقوميتهم. فهم مستمرون بالاختلاف والتميز عن الذين يحيطون بهم، وذلك بالختان، والقواعد الصحية الخاصة، والنواهي الغذائية، فهم استمروا بصفتهم يهوداً، وليس لأنهم ناقصو وطنية، فاليهود في بعض البلدان- مثل ألمانيا مثلاً- ساهموا أكثر من أي أحد آخر في تحقيق الوحدة القومية، لكنهم يحلون معضلة يبدو أنها عصية على الحل، وهي أن يكونوا جزءاً مندمجاً في قوتين اثنتين، فإن هم كانوا فرنسيين، وإن هم كانوا ألمان، هم أيضاً يهود، وإن رضوا بهم تواضعوا أن يكونوا ألماناً أو فرنسيين، فيلمونهم -بشدة- كونهم يهوداً، فيعتبرونهم في جميع الدول كما يعتبر الأمريكيان الصينيين، وكقبيلة أجنبية اكتسبت الامتيازات نفسها التي للسكان الأصليين، ورفضت أن تختفي وتزول، فيشعرونهم بأنهم مختلفين، وكلما تجانست الأمم، ظهرت الاختلافات أكثر، وفي هذه الحركة الكبيرة التي أدت بكل شعب إلى تناغم العناصر المكونة له بقي اليهود عصاة كالحصاة، بقوا - دوماً- الأمة المتصلبة التي يقذفها المشرع بلغناته وتحریماته." برنار لازار، *مناهضة السامية، تاريخها وأسبابها...*، مرجع سابق، ص. 247.

⁷ لقد كان الغيتو وعلى مدى زمني طوي لأحد التعابير الصارخة عن تلك الثقافة التي عملت على حشر اليهود في أطر فكرية دينية محافظة وتقليدية ضيقة للغاية، وعلى فصل اليهود عن بقية الجماعات الأخرى غير اليهودية، حيث تحول الغيتو مع الزمن، بالتوافق مع السلطات المركزية للممالك والإمبراطوريات، إلى ما يشبه الجزر الاجتماعية والدويلات المصغرة التي أعطي فيها للحاخامات سلطات دينية ودينية مستبدة شاملة ومطلقة في إدارة شؤون اليهود. هذه التسوية "التاريخية" جعلت من الغيتو منفى طوعاً للمهاجرين إلى البلدان المضيفة، التي اشترطت بدورها على اليهود القبول بقوانينها والرضوخ لها فيما يخص مكان الإقامة، الأمر الذي قبله اليهود في ترحالهم الدائم. "سلمان قعفراني، *أزمة الانتماء اليهودي...*، مرجع سابق، ص. 151.

⁸ Michel Pollak, *Vienne 1900*, Gallimard, Paris 1992, p. 78.

منذ عهد المكابيين (142-63 ق.م) هي أن "كل مظهر من مظاهر السلوك الإنساني يتوافق مع الدين إذا ما رأى الحاكم ذلك". ... وإذا استبدلنا كلمة "الحاكم" بكلمة "حاخام" تكونت لدينا صورة كاملة لليهودية التقليدية.¹

في ظل مناخ كهذا ازدهرت مشاعر معاداة السامية ضد اليهودي، الذي بات يمثل في نظر الأغيار ذلك "المتغطرس والمختار من الله، وقاتل المسيح، والمضارب للأخلاق، والمفسد العالمي..."². تصاعدت موجة معاداة السامية ضد اليهود بعد الأزمة الاقتصادية لسنة 1883، خاصة بكل من فرنسا وألمانيا، حيث تطابق في ذهن الشعب كره الرأسمال وكره السلطة وكره اليهود الذين ألصقت بهم كل الإفلاسات واللامساواة وكل أشكال البؤس الإنساني³، حتى التصقت باليهودي أوصاف بدنية لا إنسانية: "العلامات الأساسية التي يمكن من خلالها التعرف على اليهودي كونه يتميز ب: أنف معقوف، أعمش العينين، أسنانه متراسة، أذناه بارزان، أظافره مربعة، رقبته طويلة جدا، رجله مسطحة، ركبته مستديرة، كعبه بارز، يده متعرجة، وهذه الملامح توحى بكونه شخصا متملقاً وخائناً".⁴ بالتالي كانت الصهيونية السياسية التي وجدت في أوروبا الشرقية مجالا خصبا للازدهار⁵، تحصيل حاصل ومنتوجا للحدثا السياسية الأوروبية التي بلغت ذروتها مع الثورة الفرنسية لسنة 1789، والتي طرحت حلين لحل القضية اليهودية، إما التحرر بشكل فردي عن طريق الاندماج، أو الحل الجماعي عبر خيار الدولة الوطنية القومية، فكان الحل الأخير هو "هدية أوروبا لليهود" في سياق تصاعد المد القومي⁶ والعنصري⁷. تجسيد هذا الحل خرج على شكل كتيب صغير⁸ عام 1896، لتيودور هرتزل حمل عنوان "الدولة اليهودية، مساهمة في حل عصري للمسألة اليهودية"⁹، بعدما يئس من الرهان على خيار تحقيق الاندماج عبر دفع إخوانه في الدين إلى اعتناق المسيحية بشكل جماعي¹⁰.

في هذا الكتاب يعتبر هرتزل وجود الدولة اليهودية ضرورة لليهود و"ضرورة للعالم"، لأن وجودها في نظره يساعد على حل المشكلة اليهودية في أوروبا عبر نقلها إلى مكان آخر، لأن المهاجرين الأوائل إليها سيكونون في

¹إسرائيل شاحاك، اليهود واليهودية، وطأة 300 سنة...، مرجع سابق، ص. 34.

²Jaques Le Rider, *Modernité viennoise et crise de l'identité*, Ed P.U.F, Paris 2000, p. 236.

³J. Attali, op. cit, p. 389.

⁴Ibid, p. 389.

⁵E. Bernavi, op. cit, p. 217.

⁶Ibid, p. 217.

⁷"لقد نظرت القومية لليهودي بتعصب وأنانية، وقد عبر برنار لازار عن ذلك قائلا: " ... اليهودي لم ينصهر، ولم يتوقف عن كونه شعبا، لذلك، ولدت مناهضة السامية في المجتمعات الحديثة، لكنها عندما تأكدت أن اليهودي لم ينصهر انتقدته بعنف، واتخذت -عندما كانت تستطيع- كل الإجراءات اللازمة لمنع انصهاره المستقبلي". برنار لازار، مناهضة السامية، تاريخها وأسبابها...، مرجع سابق، ص. 192.

⁸هذا الكتاب لاقى صعوبات جمة لنشره، وجعل من صاحبه "أضحكة" في فيينا بعد أن استقبل في أوروبا بذهول... وعداء شبه مطلق، كما هزئت منه البورجوازية اليهودية والمثقفون اليهود في فيينا، وأدانته اليهودية الأرثوذكسية لأنها رأت فيه محاولة "كافرة تصادر دور المخلص المنتظر".

⁹سلمان قعفراني، أزمة الانتماء اليهودي...، مرجع سابق، ص. 211.

¹⁰E. Bernavi, op. cit, p. 216.

¹¹"هرتزل المسكون بضرورة إيجاد حل للمسألة اليهودية سبق أن عبر في مذكراته في لحظة يأس عن رغبته في تعميم جميع اليهود متخيلا لقاء مع البابا يقول له خلاله: " ساعدونا على التخلص من معاداة السامية، وأنا بدوري سأفجر حركة جماهيرية كبيرة من التبني الحر والشريف للمسيحية، وذلك في واضحة النهار، وفي كنيسة سان أتيين في فيينا، حيث يمكن لليهود أن يدخلوها بفخر دون الشعور بالامثلة التي يشعر بها اليهود فرادى، والتي توحى بالجبن والانتهازية الوظيفية".

Theodor Herzl, *Journal, 1895-1904*, Calman- Lévy, Paris, 1990, p. 40.

البداية من "البائسين" والأكثر فقرا يليهم المكتفون والأغنياء في النهاية"¹، وبذلك تتم تنقية المجتمعات المسيحية و"تستطيع أوروبا المسيحية أن تجد توازنها بعد التخلص من اليهود المزعجين"²، فتنعم بالهدوء والسكينة، ولعل ما يركي ذلك أن أوروبا تلك كانت تعرف مصالحها تماما، خاصة وأن شعارها كان هو ذاته شعار هرتزل "القوة تسبق القانون"³. ومن ثم عمد هرتزل، بدل تحمل كلفة الاندماج والتماثل الاجتماعي داخل المجتمعات الأوروبية، إلى الماضي وأوهامه، بحثا عن الفردوس المفقود، فارتد إلى يهوديته وانغلق داخلها، عاجزا عن الخروج منها، بحجة "أن الشعوب التي تعيش اليهود بين ظهرانيها، هي، بدون استثناء، معادية للسامية علنا"⁴، بالتالي كان الحل الذي اقترحه هو الممكن في تقديره للقطيعة ووهم الاندماج⁵.

انسجما مع هذا الطرح وصف هرتزل الصهيونية السياسية بكونها "فكرة استعمارية" مدينة بفكرها وقوتها وتحولها إلى حقيقة في الشرق الأوسط إلى الإمبريالية الغربية، لأنها امتداد لهذه الأخيرة، وتتصف بكل صفاتها⁶. لقد استمد هرتزل مشروعه من نظام الشركات الاستعمارية الإنجليزية، حيث كتب إلى سيسيل رودس أشهر الاستعماريين الإنجليز في 11 يناير سنة 1902 قائلا: "أرجوك أن ترسل لي خطابا تقول فيه إنك استعرضت برنامجي وأنتك موافق عليه. ولعلك تسأل لماذا إليك يا سيد رودس؟ السبب هو أن مشروعي مشروع استعماري"⁷.

حري بنا القول إن الصهيونية السياسية عكس الصهيونية الدينية، كانت مجهولة تماما بالنسبة للمغاربة اليهود قبل الحماية، ذلك أن أفكار هرتزل التي أتت في كتابه حول الدولة اليهودية سنة 1896، والبرنامج السياسي الذي تم تبنيه في سويسرا في السنة الموالية لم تتسرب مطلقا إلى المغرب الذي كان مقفلا في وجه التأثيرات الخارجية⁸، غير أن ذلك لا يعني بأن المغاربة اليهود لم يكونوا حاضرين في الأجندة السياسية للصهيونية السياسية منذ ولادتها، بدليل أن قضية 150000 يهودي مغربي قد أثّرت في أول مؤتمر صهيوني ببازل بسويسرا سنة 1897، باعتبارهم جماعات يعيشون في الفقر المدقع⁹.

*"نظرة هرتزل إلى اليهود هي إجمالا نظرة ازدراء واحتقار. فهو يعتبر "أن حياة الغيتو أفسدت اليهود جسديا وعقليا...والزواج الداخلي بين اليهود أضعف قدراتهم الجسدية والذهنية وساهم في عدم تحسن العرق"، فاليهود، في رأيه وفي غالبيتهم، هو "أناس بلا إحساس وبلا خيال" و"شعب ساقط" حسب ما سجل في مذكراته. ونتيجة لذلك فإن الحل الأمثل هو إبعاد المتحجرين والمتخلفين منهم إلى مكان ما، وإنشاء دولة يهودية أو غيتو يهودي خاص بهم". سلمان قعفراني، أزمة الانتماء اليهودي...، مرجع سابق، ص. 210-211.

¹Theodor Herzl, *L'Etat de Juifs, essai d'une solution moderne du problème juive*, Ed La découverte, Paris 1989, p. 30.

²سلمان قعفراني، أزمة الانتماء اليهودي، مرجع سابق، ص. 211.

³Th. Herzl, op. cit. 24.

⁴Ibid, p. 36.

⁵A. Lévy, op. cit. p.128.

⁶عبد الوهاب المسيري، الأيديولوجية الصهيونية، دراسة حالة في علم اجتماع المعرفة، مجلة عالم المعرفة، الكويت، 1982، ص. 197.

⁷روجيه جارودي، الصهيونية السياسية...، دار الشروق، 1983، ص. 7-8.

⁸E. Goidan, op. cit, p. 6.

⁹أحمد شحلان، اليهود المغاربة من منبت الأصول إلى رياح الفرقة...، مرجع سابق، ص. 297.

وفي هذا المؤتمر عبر هرتزل عن تدمره من غياب الدعاية الصهيونية بكل من شمال إفريقيا وآسيا¹. بناء عليه وعد هرتزل في المؤتمر الرابع للحركة الصهيونية سنة 1900 إخوانه بأن يبعث عضوا من لجة العمل الصهيوني إلى المغرب، على اعتبار أنه وجد في هذا البلد يهودا أكثر ملائمة للاستنبات في فلسطين².

إلى حدود هذه المرحلة اقتصر تسرب الدعاية الصهيونية إلى المغرب في أول الأمر على المبادرات الفردية، حيث سيقوم تاجر من مدينة مוגادور (الصويرة) يدعى David Bohbot ببعث رسالة إلى هرتزل يخبره فيها بتأسيس أول خلية صهيونية بهذه المدينة، وقد أشار في رسالته تلك، إلى أنه قد تعرف على الصهيونية السياسية عن طريق يهودي إنجليزي من أصل مغربي عندما قام بزيارة هذه المدينة. بعد ذلك وفي نفس السنة تأسست خلية أخرى بمدينة تطوان³، ثم آسفي، ثم تعددت الخلايا بباقي المدن⁴، حيث تم، انطلاقا من المدن الساحلية، تأسيس خلايا للدعاية الصهيونية بأهم المدن الداخلية، وسيتولى، على سبيل المثال لا الحصر، عدد من الأعيان والحاخامات اليهود بمدينة فاس تأسيس أول خلية صهيونية بالمدينة سنة 1908 تحت اسم Hibat Sion (عشاق صهيون)، وكان لها صدى بمدينة صفرو ومكناس⁴، مع وجوب التذكير أن هذه الأخيرة ستعرف تأسيس أول خلية صهيونية سنة 1910 بنفس الاسم (عشاق صهيون) وتحت إشراف الحاخام ياشوا بيرديغو⁵.

وفيما يتعلق بالكيفية التي تلقى بها حاخامات المغرب هذه الدعاية الصهيونية في البداية، فإن الجدير بالإشارة إلى أنهم لم يكونوا على اطلاع تام بفحواها، لأنهم لم يستطيعوا التمييز بينها وبين الصهيونية الدينية طبقا لمتشاكلهم التقليدية⁶ (مشروعها السياسي)، حيث اعتقدوا بأن الأمر يتعلق بطريقة جديدة لمساندة "الإخوة" في فلسطين⁷، وتمكينهم من المال لتحقيق مشاريع عصرية من شأنها تحسين أحوالهم⁷. وفي هذا الصدد يوضح محمد حاتمي قائلا: "وزاد من تقلص حظوظ حصول فهم حقيقي للمشروع الصهيوني في مغرب ما قبل الحماية، جنوح الأوساط اليهودية

¹ A. Lévy, op. cit. p.129.

² أحمد شحلان، اليهود المغاربة من منبت الأصول إلى رياح الفرقة...، مرجع سابق، ص. 297.
* "هي مدينة تنقسم والصورة العديد من الخصائص المتمثلة في الانفتاح على العالم الخارجي، ووجود نخب متعلمة على دراية بالتطورات الدولية، واستقرار قنصل منذ القرن التاسع عشر." محمد حاتمي، الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية وهران المغرب المستقل...، مرجع سابق، ص. 182.

³ A. Lévy, op. cit, p. 129.

⁴ Ibid, p. 129.

⁵ J. Tolédano, *Portrait ...*, op. cit, p. 241-242.

⁶ A. Lévy, op. cit, p. 129.

* "نظر أغلبية يهود المغرب (خلال بدايات تسرب الصهيونية السياسية للمغرب) للنشاط الصهيوني من منظور ديني بحث وفسروا الفكر الصهيوني بأسلوب ممزوج بالورع الديني والتقاليد المسيحية التي ظلت مستمرة بينهم بقوة، بفضل الممارسات الدينية، وتعاملوا مع مسألة الهجرة على أنها فريضة دينية (مثل الرغبة في تلقي العلوم الدينية، وزيارة الأماكن المقدسة والموت على أرضها)، ولم تكن لديهم أية معرفة بالطابع العلماني للفكر الصهيوني. ولذلك جاءت استجاباتهم للنشاط الصهيوني متوافقة مع هذا المفهوم الديني، تتوزع ما بين شراء الشيكال الصهيوني، (كانوا يعتقدون أنهم إذا دفنوا مع هذه السندات بالمغرب، فإن أجسادهم ستنتقل بمعجزة ليدفنوا في جبل الزيتون بفلسطين) وجمع التبرعات وتنظيم حملات دعائية لترويج أسهم الاستيطان الصهيوني، وهذا هو ما كانت تصبو إليه الحركة الصهيونية." أحمد الشحات هيكال، يهود المغرب، تاريخهم وعلاقتهم بالحركة الصهيونية، مركز الدراسات الشرقية- جامعة القاهرة، ص. ص. 23-24.

⁷ محمد حاتمي، الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية وهران المغرب المستقل...، مرجع سابق، ص. 183.

المؤهلة لإعطاء الإيديولوجية الجديدة دفعة قوية (فاس ومكناس وصفرو ودبدو ومراكش) إلى التعامل مع المستجدات الفكرية وفق منطق نبوي. فالفعاليات الدينية والفكرية ذات النفوذ والتأثير في هذه المدن استحسنت العديد من عناصر الخطاب الصهيوني، خاصة ما يرتبط بأرض الميعاد ووجوب مساعدة اليهود المستقرين بها، وهي أمور تتناسب تماما وقناعاتهم الدينية. وفي المقابل لم يكن في وسعها استساغة الأسس والأسانيد العلمانية لأن انشغالها روحية وليست مادية"¹.

هذا ويجذر بنا القول إن تعثر ومحدودية النشاط الصهيوني بالمغرب قد استمر خلال السنوات الأولى للحماية لعدة أسباب:

✓ أولا، استمرار رهان المغاربة اليهود منذ البداية على الفرنسيين من أجل تحسن أحوالهم، الأمر الذي كان له دور مؤثر في تحصينهم من التأثير بالدعاية الصهيونية السياسية، التي لم يكونوا يعرفون عنها إلى القليل جدا، خصوصا وأن هذه الإيديولوجية كانت خلال هذه المرحلة ما زالت تتلمس طريقها بأوروبا والعالم الجديد (الولايات المتحدة الأمريكية). بالتالي ظل رهان اليهودي المغربي خلال السنوات الأولى للحماية منكبا على السعي إلى تحسن أحواله المادية والاجتماعية، ولم يكن يسمع للدعاية الصهيونية إلا بأذن واحدة، كما اقتصر ارتباطه بفلسطين على الهجرة* للأسباب التي تحدثنا عنها من قبل، بالإضافة إلى المساهمة في دفع التبرعات التي كان يتم إرسالها إلى هناك لأسباب دينية².

✓ ثانيا، معارضة الأليانس لهذه الدعاية بعد أن نصبت نفسها أهم ممثل للجماعات اليهودية، وجعلت من خطاب التحرر عن طريق الاندماج الأساس لفلسفتها القائمة على وجوب وضع الثقة في الدولة الحامية والارتقاء محليا³. لقد كانت الأليانس تأمل في أن يستولي خريجوها على الوظائف والموارد المهمة، لذلك كان ممثلوها يحثون إخوانهم في الدين على الإقامة بالمغرب والاندماج فيه⁴. وهذا الموقف كان يتقاطع مع موقف النخب التقليدية التي كانت تعتبر اليهودية دينا وليست جنسية، الأمر الذي دفع بهم إلى الإيمان بجدوى الاندماج في المجتمعات التي

¹ نفسه، ص. 184.

*"ارتباط اليهود روحيا بفلسطين كان أمر مقتضرا فقط على الشرقيين (السفرديم) بل شمل أيضا اليهود الغربيين (الأشكيناز)، وفي هذا الصدد يذكر جعفر هادي حسن بأن: " للصديق أقوال في تشجيع الحسيديم على الذهاب إلى فلسطين والسكن فيها، فهم يقولون إن على كل يهودي أن ينوي العيش في فلسطين. وقد جاء في كتاب الزهر - الذي يقدسه الحسيديم كثيرا - " إن من يسكن فلسطين يساتزل ندى السماء، وتحل عليه روح القدس، وإذا مات تغفر له ذنوبه". وقال الصديق مناحم مندل فيتسبك: " إن اليهودي الذي يعيش في فلسطين يصبح مقدسا طاهرا، بل يتمكن أن يطهر الآخرين". وقال الصديق نحمان براسلاف: " إن من يريد أن يكون يهوديا حقيقيا عليه أن يذهب إلى أرض فلسطين مهما كانت الصعوبات والعوائق، وإن أرض فلسطين تعطي اليهودي سموا روحيا. وفي فلسطين يؤكد اليهودي عقيدته ويتعلم الحكمة". جعفر هادي حسن، اليهود الحسيديم...، مرجع سابق، ص. 175.

² E. Goidan, op. cit, p. 10.

³ محمد حاتمي، الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية وrehان المغرب المستقل...، مرجع سابق، ص. 185.

⁴ أحمد شحلان، اليهود المغاربة من منبت الأصول إلى رياح الفرقة...، مرجع سابق، ص. 81.

يعيشون فيها، والعمل، بالتالي، على تحقيق مكاسب مدنية تضمن لهم السكينة والتطور¹. وبناء عليه قام أنصار الرابطة قبل الحرب العالمية الثانية بمعارضة الدعاية الصهيونية ووصفوها بكونها حركة "تحمل بذور التفرقة، وغير ملائمة لوضعية يهود المغرب" غير أنهم مع ذلك تركوا المجال مفتوحاً للمنظمات التي كانت تهيئ لـ "اجتثاث" ساكنة الملاحات وترحيلها إلى فلسطين².

✓ ثالثاً، معارضة النخب الدينية الأرثوذكسية لأسباب خاصة بها، إذ رأت في الصهيونية السياسية حركة لائكية، كما اعتبرتها منافسة في جمع الأموال التي كان الأحرار المبعوثون يجمعونها هم أنفسهم لفلسطين³. بالتالي ظل القائمون على شؤون الجماعات الروحية يعتبرون أن الإيديولوجيات العصرية الغربية تمثل أكبر خطر يهدد تشبث الغالبية الكبرى من اليهود بمعتقداتهم الدينية "الفطرية". ومن أهم هذه المعتقدات الإيمان بأن العودة إلى أرض فلسطين، عملية لا يمكن أن تتم إلا عبر الخلاص الروحي للشعوب اليهودي، وأمر هذا الخلاص موكّل إلى الله تعالى يحققه عبر بعث شخص مخلص يمتلك قدرات نبوية⁴. ولكي يتحارب النشاط الصهيوني على ممانعة الأحرار وباقي النخب التقليدية المعارضة، فقد كانوا يروجون بين عموم اليهود، أن أهداف الدعاية الصهيونية دينية محضة، تريد بها تحقيق ما حلم به اليهود من قديم طبقاتها لما وعدت به التوراة، وهو العودة إلى أرض الأجداد التي طالما تشوفوا إليها، هذا مع العلم أن الآباء المؤسسين للصهيونية السياسية كانوا لادينيين⁵.

✓ رابعاً، المعارضة الشديدة التي أبدتها سلطات الحماية خصوصاً في عهد المقيم العام ليوطي للدعاية الصهيونية، لأسباب تتعلق بالسياسة الأهلية⁶، من باب الحرص على تفادي كل ما من شأنه إثارة المسلمين⁷، حيث اعتبر هذا الأخير بأن من شأن الترويج لأية أيديولوجية دخيلة-مشرقية أو غربية- خلخلت التوازنات المحلية التي تُمكن السلطان والمخزن من الهيمنة على الرعية، وحرّية بخلق متاعب إضافية للسلطات الفرنسية، وهو الأمر الذي دفع به

¹ محمد حاتمي، الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية وهران المغرب المستقل...، مرجع سابق، ص. 196.

² محمد كنيبي، يهود المغرب 1912-1948...، مرجع سابق، ص. 275.

³ أحمد شحلان، اليهود المغاربة من منبت الأصول إلى رياح الفرقة...، مرجع سابق، ص. 299.

⁴ محمد حاتمي، الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية وهران المغرب المستقل...، مرجع سابق، ص. 196.

⁵ أحمد شحلان، اليهود المغاربة من منبت الأصول إلى رياح الفرقة...، مرجع سابق، ص. 302.

⁶ P. Cohen, op. cit, p. 180.

⁷ A. Lévy, op. cit, p. 130.

إلى إنهاء مهمة ناحوم سلوش Nahum Slousch* سنة 1917 لأن سلطات الحماية تنهت إلى نشاطه الصهيوني¹. غير أن ليوطي سيضطر نتيجة للضغوط الخارجية إلى تقديم بعض التنازلات المرنة في إطار الواقعية السياسية². تشدد ليوطي³ في منع الدعاية الصهيونية، وهو التقليد الذي سار عليه المقيمون العامون من بعده -بتسامح أكثر نسبيا- والذي تميز بتوخي الحذر تجاه النشاط الصهيوني، ارتبط بالموقف الفرنسي من بريطانيا بوصفها قوة استعمارية منافسة، ذلك أن المسؤولين الفرنسيين بالمغرب كان جلهم من العسكريين الأوفياء للتقليد الفرنسي الذي كان يعتبر بريطانيا العظمى عدوا تاريخيا واستراتيجيا، وهو التوجس الذي دفع بهم إلى اعتماد الحذر في تعاملهم مع "المنتجات" الفكرية التي تحظى بالرعاية البريطانية. لقد كان ليوطي يرى بأن الصهيونية خدعة تسعى من ورائها بريطانيا إلى تحقيق غايتين متوازيتين، الأولى تأليب يهود القارة العجوز - بمن فيهم يهود فرنسا- ضد الجمهورية الثالثة، والثانية؛ خلق متاعب حقيقية للوجود الفرنسي في الشرق الأدنى وشمال إفريقيا⁴. لذلك ستعمل سلطات الحماية على وضع العراقيل للحيلولة دون تطور النشاط الصهيوني بالمغرب، من قبيل إلزام رؤساء الجماعات اليهودية بضرورة إخبار السلطات بوجود أي مبعوث أجنبي يحل بين ظهرانيهم، وإلا تعرض من خالف ذلك منهم إلى أداء غرامة مالية، وهو ما عرضهم لانتقادات شديدة من طرف نشطاء الخلايا الصهيونية الذين اتهموهم بكون تعاونهم مع سلطات الحماية كان يتم لأهداف شخصية انتهازية مرتبطة بحرصهم "على الحفاظ على أجرتهم الشهرية"، أو من باب الطموح "للفوز بوسام ما"، وبأنهم بذلك يشاركون في سياسة تهدف إلى إرغام إخوانهم في الدين على الاستمرار

*"لقد قامت الحكومة الشريفة باستدعاء ناحوم سلوش سنة 1915 من فرنسا إلى المغرب للقيام بدراسة من أجل إعادة تنظيم القضاء العبري والجماعات اليهودية المغربية، لكن عوض أن ينكب الرجل على القيام بالعمل التقني الصرف الذي كلف به، سيقوم في رحلته بالدعاية للصهيونية السياسية في صفوف المغاربة اليهود، وكان أول من اتصل بهم هم يهود طنجة، وفي سنة 1916 انتقل إلى يهود فاس، حيث عبر عن عدم استحسناته التعليم الذي كانت تقدمه مدارس الرابطة، معتبرا إياه متأثرا بشكل كبير بقيم الليبرالية الغربية، وهو الأمر الذي سيدفع بسلطات الحماية، التي لم تعد مقتنعة بخدماته، إلى إنهاء مهمته بالمغرب سنة 1917".

E. Goidan, op. cit, p. 12.

¹ Ibid, p. 12.

² "أدت الضغوط الخارجية بالإدارة الاستعمارية إلى اتخاذ مواقف أكثر مرونة وتفهما. فهي ظلت متشبثة بمبدأ منع تأطير الأهالي داخل جمعيات أو تنظيمات ذات طابع سياسي أو تحيل على متن إيديولوجية، إلا أنها في المقابل خلصت إلى أن الواقعية السياسية تفرض إخراج العمل الصهيوني من معازل العمل السري إلى مجالات شبه رسمية ومكتشوفة تسهل مراقبة تطورها وضبط القائمين على الترويج لها، فضلا عن إمكانية زجر أو وضع حد لأية مبادرة تراها منافية لضوابط الاستقرار والتعايش. وفي هذا الإطار وانطلاقا من سنة 1919، تم الترخيص للصهيانية المغاربة بالانخراط " مباشرة وبصفة فردية" في الفدرالية الصهيونية الفرنسية شريطة أن لا يؤدي الأمر " إلى خلق هيئة داخل المغرب تسعى من خلال عملها إلى تغيير وضع نحن نجتهد في الحفاظ عليه". ثم في وقت لاحق (سنة 1923)، سمحت الإدارة بتكوين لجنة تابعة للفدرالية الصهيونية الفرنسية. وأكد قرار الإقامة العامة على أن السلطات ستقف بحزم ضد أي نشاط يأخذ شكلا من أشكال التأطير العسكري أو شبهه، وكل محاولة مهما كان شكلها. تقوم بها هيئات صهيونية تعطي لنفسها صلاحية الدفاع عن الأهالي اليهود". محمد حاتمي، **الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية وهران المغرب المستقل...**، مرجع سابق، ص. 191-192.

³ "لقد رفضت سلطات الحماية في عهده منح الترخيص القانوني لكل الجمعيات ذات الأهداف السياسية وضمنها التنظيمات الصهيونية، خصوصا وأن السلطان ورجال المأوى وبعض المسلمين المتطوئين لم يترددوا، منذ سنة 1919، في مطالبة المقيم العام ليوطي بأخذ موقف معارض للصهيونية. وإلى حدود هذا التاريخ لم تستطع الخلايا الصهيونية بالمغرب الحصول على الشرعية القانونية، ولا على أية إمكانية للتعبير عنها عبر الصحافة، لكن بالمقابل استطاعت تحقيق نجاحات كبيرة في عملية جمع التبرعات، من دون أن تسمح لها سلطات الحماية القيام بذلك بشكل علني أو توزيع لوائح من شأنها استفزاز المسلمين". E. Goidan, op. cit. p.14.

⁴ محمد حاتمي، **الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية وهران المغرب المستقل...**، مرجع سابق، ص. 187.

في العيش رغما عنهم في بلاد الجالوت (المنفى)¹. كما تم تضيق الخناق على المبعوثين المكلفين بجمع التبرعات، للحيلولة دون التوجه بالخطاب للعموم، من خلال إشراف سلطات الحماية على جمع التبرعات أسابيع قبل وصول المبعوثين الذين كانوا عند وصولهم يتم منحهم إياها ومغادرة البلاد على الفور²، وكان الهدف من ذلك تعقيد مأمورية الإنجليز في فلسطين، ومنع نشاط الحركة الصهيونية في المغرب نفسه من "الاستفادة" من ذلك التقليد واستغلال تقوى إخوانهم في الدين لتحقيق أهداف سياسية³. كل هذه العوامل مجتمعة لم تسمح طوال الفترة الممتدة من 1912 و1939 للدعاية الصهيونية بتحقيق نتائج كبيرة بالمغاربة مقارنة مع ما حصل بدول عربية ومغربية أخرى كتونس ومصر والعراق، حيث ظلت الإيديولوجية المستوردة شبه غريبة عن غالبية يهود المغرب الذين اعتبروها عملا خيرا يقوم عليه شباب متحمسون لمشروع غريب وبعيد الإنجاز⁴.

أما فيما يتعلق بالنشاط الصهيوني بمدينة مكناس، فقد وصل إليها بشكل متأخر مقارنة ببعض المدن الساحلية، ويعود الفضل في ذلك إلى النشاط الصهيوني بمدينة فاس المجاورة. لقد تم استقبال الدعاية الصهيونية بمكناس في البداية بترحاب كبير من طرف بعض الحاخامات⁵ بالنظر للطابع الإحساني والديني الذي كانوا ينظرون به إلى هذه الأخيرة⁶. وبناء عليه تأسست أول خلية صهيونية بمدينة مكناس سنة 1910 تحت اسم "حب صهيون" / Hébrat Hibat Sion⁷، وقد تم ترؤسها من طرف الحاخام Yoshoua Berdugo الذي تولى فيما بعد مناصبي رئيس المحكمة العبرية بمكناس والحاخام الأكبر للمغرب. وتعبيرا منه عن استجابته للنداء القادم من أوروبا بنفس الطريقة التي اتبعها العبرانيون في اعتناق التوراة طبقا للقول التالي: "سنعتنق أولا، وبعد ذلك سنسأل عن فحوى ما اعتنقناه"، قام ببعث رسالة إلى المكتب المركزي الصهيوني بكونلون بألمانيا يخبرهم فيها بعزمه على تأسيس أول خلية للدعاية الصهيونية بمكناس، وطلب منهم في نفس الوقت إرسال كتب عن الصهيونية للمغاربة اليهود الذين يسمعون عنها، لكنهم يجهلون كل شيء عنها ما عدا اسمها، وفيما يلي نص تلك الرسالة:

"السلام على إخواننا الأعزاء محبي صهيون، السادة الأعزاء، الأكثر أهمية من الزمرد، رسالتكم الثمينة المليئة بالحب قد وصلت إلينا، وفرحنا بها كثيرا. تيقنوا بأننا سنبدل كل جهودنا لنشر الفكرة الصهيونية المقدسة بين إخواننا في المغرب، آه! كم هو حلو في أفواهنا مجرد النطق بهذا الاسم. آمل أن يكون

¹ محمد كنيبي، **يهود المغرب 1912-1948**، ...، مرجع سابق، ص. 101.

² نفسه، ص. 109-110.

³ نفسه، ص. 103.

⁴ محمد حاتمي، **الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية وهران المغرب المستقل**، ...، مرجع سابق، ص. 194.

⁵ J. Tolédano, **Portrait ...**, op. cit, p. 241.

⁶ روبرت أصراف، **محمد الخامس واليهود المغاربة**، ...، مرجع سابق، ص. 142.

⁷ J. Tolédano, **Portrait ...**, op. cit, p. 241.

لكل إخواننا في إسرائيل قلب واحد وفكر واحد فقط للحفاظ على هذا الحب المثالي. إن الذين يضعون ثقتهم في الإله الأبدي السرمدي لمصلحة شعبنا وصهيون أرضنا المقدسة لن يصيبوا بخيبة أمل، آمين. والآن يا إخواننا، نطلب منكم موافقتنا بالكتب حول الصهيونية لأننا سمعنا أنها موجودة، ولكن لم نرها قط"¹.

بعد ذلك بشهور، وبالضبط في شهر أبريل سنة 1911، أعلن المشرف على هذه الخلية الصهيونية بكلمات غير مشحونة سياسيا بشكل كبير، عن انخراطه الرسمي في الحركة الصهيونية وبداية النشاط النضالي للخلية المحلية بمكناس قائلا: "لقد بدأنا منذ ثلاثة أشهر عملية إرساء قواعد قلعة الصهيونية بمدینتنا. لحدود هذه اللحظة اتسم نشاطنا بالبطء، لكننا عازمون منذ اليوم على التسليح بالشجاعة والإقدام من أجل تحقيق النصر من خلال عملنا، ونحن متأكدون من أن نشاطنا سيزدهر... هذه الكرامة ستثمر عينا، ومن خلال نبیذها سنحتفل بنجاحنا". غير أن الأحداث العنيفة التي رافقت دخول الحماية الفرنسية للمغرب سنة 1912²، واندلاع الحرب العالمية الأولى، فضلا عن تشدد المقيم العام ليوطي في معارضتها، كلها عوامل أدت إلى انقطاع الاتصال بأوربا، مما أدى إلى وضع حد لهذه المحاولة³.

غير أنه رغم ذلك، وفي إطار الحفاظ على العلاقة الدينية/الروحية مع الأرض المقدسة، استقبلت مدينة مكناس قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى الحاخام Yékoutiel Benshimhon - الابن الأصغر للحاخام David، مؤسس لجنة الجماعة اليهودية المغاربية بالقدس - المكلف بجمع التبرعات الموجهة لفلسطين في إطار الصهيونية الدينية*، لكن الحاخام Yékoutiel Benshimhon سيواجه أثناء قيامه بهذه المهمة خلال هذه الفترة بعض المشاكل، ذلك أن مسؤولي الجماعة اليهودية بمكناس سيبلغونه بناء على تعليمات صادرة عن القنصل الفرنسي، بأن التبرعات المحصلة يتوجب وضعها رهن إشارة الرابطة الإسرائيلية العالمية التي ستتولى مهمة توزيعها على فقراء وحاخامات المدينة المقدسة. غير أن الرجل استطاع إقناعهم بالسير على النهج التقليدي الذي كان يجري به العمل، ولو أن نجاحه في هذه العملية قد توقف، لأن الحاخام يعقوب بيرديغو، الذي قدم من مدينة طبرية، كان قد سبقه إلى جمع التبرعات من أجل طبع

¹Ibid, p. 242.

²B. Lugan, op. cit, p. 244.

³J. Tolédano, *Le temps du Mellah...*, op. cit, p. 281.

*"لقد كانت أفكار الصهيونية الدينية منتشرة في صفوف المغاربة اليهود مثلما كان الشأن بالنسبة ليهود أوروبا وأمريكا، ويعود ذلك إلى الارتباط العاطفي لكل يهود العالم بأرض صهيون بوصفها مكانا مقدسا، وقد كان ذلك الارتباط يتجسد في الحج إلى القدس وزيارة حائط المبكى مرة في العمر على الأقل أملا في الموت تحت ظلال صهيون. كما كان ارتباط المغاربة اليهود بفلسطين يتجسد في تقديم التبرعات المادية إلى المؤسسات الدينية بفلسطين، والتي كان يتم تحصيلها من طرف عدد من المبعوثين (حاخامات) القادمين من هناك".

E. Goidan, op. cit, p. 6.

كتاب لجدته¹. هذا الأخير كان أيضا مكلفا بمهمة إقناع أفراد عائلته بالالتحاق به بمدينة طبرية، لكن ظروف الحرب اضطرته للبقاء مرغما قبل أن يعود إلى طبرية لوحده. نفس المغامرة عاشها أيضا مبعوث مدينة صفد الحاخام سيون كوهن الذي حل بالمدينة طيلة فترة الحرب العالمية الأولى ضيفا على أهارون كوهن صهر الحاخام يوسف مساس، والذي استضافه بكرم كبير. وجدير بالذكر أن الحاخام Yékoutiel Benshimhon، قد وافته المنية بمدينة مكناس وهو يقوم بمهمة جمع التبرعات، الأمر الذي أدى إلى أن تظل تلك التبرعات المحصلة محاصرة بمكناس طيلة فترة الحرب².

بسبب ظروف الحرب وتشدد المقيم العام ليوطي تعطل النشاط الصهيوني خلال هذه الفترة، ولم يتمكن من الانتعاش مجددا إلا بعد سنة 1920، حيث تواجد فرع صهيوني بكل من مدينتي فاس ومكناس برئاسة Joseph H.Lévy الذي تولى نشر الأفكار الصهيونية في صفوف يهود المدينتين، وبسبب المعارضة التي كانت تبديها سلطات الحماية برئاسة المقيم العام ليوطي³ لم يتجاوز عدد أعضاء فرع مكناس في بداية العشرينات 100 منخرط فقط⁴. وبناء عليه، لم تتمكن الدعاية لصالح الصهيونية السياسية إلى حدود هذه الفترة من تحقيق اختراقات كبيرة في صفوف الأوساط اليهودية الشعبية بمدينة مكناس، لأنه فضلا عن معارضة سلطات الحماية، كان معظم يهود المغرب إلى حدود هذه الفترة أشد اعتناقا للصهيونية الدينية من خلال ارتباطهم روحيا بما يسمونه بـ"أرض الميعاد". محدودية اعتناق يهود مكناس للصهيونية السياسية تم التعبير عنها من خلال ما صرح به رئيس الفرع الصهيوني لفاس مكناس Joseph H.Lévy في رسالة وجهها في 22 يوليوز 1921 لكتاب الحركة الصهيونية⁵. كما يعود سبب الاستقطاب المحدود أيضا لقيام سلطات الحماية بتقليص عدد زيارات حاخامات فلسطين للمغرب، فضلا عن حصر عدد الياشفات المكلفة بتحصيل العطايا لليهود الشتات في ستة فقط، وكانت النتيجة تحصيل المبعوثين من فلسطين إلى بمدينة مكناس على أقل العطايا مقارنة بالمدن المغربية الأخرى⁶، بحيث لم يتجاوز مقدار التبرعات التي جمعت بمكناس سنة 1926 لصالح يهود فلسطين 30000 فرنك مقابل 95000 فرنك بفاس⁷.

¹J. Tolédano, *Portrait ...*, op. cit, p. 242-243.

²Ibid, p. 243.

³J. Tolédano, *Le temps du Mellah...*, op. cit, p. 268.

⁴Ibid, p. 288.

⁵Ibid, p. 268.

⁶Ibid, p. 274-275.

⁷Ibid, p. 290.

الواقع أن الانتعاش المحدود للدعاية الصهيونية بالمدينة، وحصول سلطات الحماية على معطيات تفيد بتزايد عدد المهاجرين إلى فلسطين بشكل سري، دفع بسلطات الإقامة العامة إلى إعلان حالة استنفار، خصوصاً بعد أن قامت جريدة Le progrès de Fès بنشر مقال بتاريخ 26 نونبر 1922 بعنوان "هجرة يهود فاس: أهميتها وأسبابها". وبناء عليه، وخوفاً من انتقال العدوى إلى جهة مكناس، طلب المقيم العام ليوطي من قائد ناحية مكناس أن يظل يقظاً. هذا الأخير طمأنه من خلال رسالة رد بها إليه، بتاريخ 22 دجنبر سنة 1922 جاء فيها: "بعض الجرائد نشرت خبراً يفيد هجرة عدد مهم من الإسرائيليين إلى فلسطين، خصوصاً من مدينة فاس. لي الشرف أن أحيطك علماً بأني قمت بالتحريات اللازمة من أجل تقصي الحقيقة حول احتمال حدوث هجرة مشابهة بمدينة مكناس، والتي كانت حركة هجرة ضعيفة، اقتصر فقط على اثنتي عشرة عائلة تنحدر كلها من الطبقة الفقيرة، غادرت المدينة من دون نية العودة"¹.

يقظة سلطات الحماية خلال هذه الفترة تجاه موضوع الهجرة، كان نابعا من إدراكها للتأثير الذي باتت تمارسه الصهيونية السياسية على المرشحين للهجرة، الذين صاروا يفقدون الجانب الروحي والخيري الصرف في ارتباطهم بفلسطين كما كان في البداية، ذلك أنه ابتداء من سنة 1919 أصبحت هجرة البعض منهم لا تتم لأسباب إيمانية فقط، بل أيضاً بحثاً عن حياة مادية أفضل. غير أن العديد من المهاجرين قد واجهوا صعوبات مادية كبيرة في الاستقرار هناك، لأن هجرتهم لم يكن مخططاً لها بشكل جيد، مما اضطر بعضهم إلى العودة إلى المغرب²، وهو الأمر الذي خفض مرحلياً من درجة الاستقطاب الصهيوني بشكل خدم اختيارات سلطات الحماية التي كانت تعارض النشاط الصهيوني.

سنوات قليلة بعد ذلك، ستدب الحياة مجدداً في دينامية الاستقطاب، وهكذا سيستفيد النشاط الصهيوني بالمغرب، ابتداء من سنة 1926، من تأسيس جريدة المستقبل المصور التي كانت إحدى أهم وسائل نشر الدعاية الصهيونية، كما سبق وأشرنا إلى ذلك، باعتبار سعة مقروئيتها من طرف المغاربة اليهود، مع التذكير بأن مؤسسها المدعو جوناثان تورز قد كان ممثلاً للمنظمة الصهيونية العالمية بالمغرب، كما كان هو المكلف بتمثيل الصهيونية المغربية بمختلف المؤتمرات الصهيونية العالمية ما بين 1926 و 1939³. ليس هذا فحسب، بل استفادت الدعاية الصهيونية خلال هذه الفترة من رحيل المقيم العام ليوطي سنة 1925، وهو الذي حال دون حصول النشاط الصهيوني بالمغرب

¹ J. Tolédano, *Portrait ...*, op. cit, p. 243.

² E. Goidan..., op. cit, p. 10-11.

³ J. Tolédano, *Le temps du Mellah*, ..., op. cit, p. 283.

على الترخيص القانوني رغم ضغوطات باريس، انسجاما مع فلسفته في السياسة الأهلية التي اقتضت الحيلولة دون حصول أي تنظيم سياسي، كيفما كان ذي دوافع وطنية، على الترخيص بمزاولة نشاطه السياسي بالمغرب، بما في ذلك التنظيمات الصهيونية¹. وبالتالي فقد ساهمت مغادرة ليوطي المغرب سنة 1925 ومجيء مقيم عام جديد في حدوث انفراج محدود لصالح الدعاية الصهيونية بالمغرب من دون منح ترخيص قانوني رسمي للتنظيمات الصهيونية. كما أنه ابتداء من هذه الفترة ستمكن منظمة KKL من حيازة هامش مهم في جمع التبرعات، هذا وقد عرف النشاط الصهيوني دفعة مهمة بعد السماح بانخراط الفرع الصهيوني المغربي في الفدرالية الصهيونية الفرنسية².

رغم الانفراج النسبي الذي استفاده النشاط الصهيوني بالمغرب بعد 1925، إلا أن سلطات الإقامة العامة ظلت حريصة على عدم منح حرية مطلقة للنشطاء الصهاينة، ذلك أن أحد الإجراءات التي اتخذتها سلطات الحماية المحلية بمكناس لمحاربة النشاط الصهيوني بها، كان رفضها الترخيص بتأسيس نادي رياضي Macabi بالمدينة سنة 1930، وذلك للحيلولة دون مشاركة يهود مكناس في البعثة المغربية للمشاركة في الألعاب الأولمبية اليهودية الأولى. نفس الطلب رفض سنة 1937، كما تشددت سلطات الحماية في عدم السماح لحملة جمع التبرعات لصالح يهود فلسطين سنة 1938، لتفادي أي اضطراب قد يحدث بين مسلمي ويهود المغرب³.

من نتائج هذا الحصار انخراط عدد محدود من يهود مكناس في التنظيمات الصهيونية، بحيث لم يتجاوز العدد سنة 1937، 150 فردًا. إلا أن ذلك لم يمنع النشطاء الصهاينة بمكناس من الاستمرار في القيام بمحاولات الاستقطاب بشكل سري، حيث حاولوا بمناسبة الاحتفال بعيد البوريم سنة 1938 القيام بجمع التبرعات بالشارع العام بالملاح، لكنهم أخطأوا عندما توجهوا إلى أحد المسلمين اعتقاداً منهم أنه يهودي، الأمر الذي دفعه إلى تسجيل شكاية لدى المصالح الأمنية، والنتيجة كانت اعتقال أولئك النشطاء الصهاينة، وإرغامهم على دفع كفالة مالية. فضلا عن ذلك تمت مصادرة المبلغ الذي كان بحوزتهم وتحويله إلى صندوق الأعمال الخيرية الخاص بالجماعة اليهودية لمكناس، لأنها الجهة الوحيدة التي كان لها ترخيص قانوني يسمح بجمع التبرعات. بالإضافة إلى ذلك كانت سلطات الحماية المحلية قد قامت بقرصنة البريد الذي كان من المفترض أن يصل إلى رفايل بنسيمون المبعوث المحلي لمنظمة KKL، بناء

¹ J. Tolédano, *Portrait ...*, op. cit, p. 243-244.

² J. Tolédano, *Portrait ...*, op. cit, p. 244.

³ J. Tolédano, *Le temps du Mellah...*, op. cit, p. 290.

على ما صرح به جوزيف طوليدانو، حيث أشار إلى أنه عشر بعد مرور خمسين سنة على عدد من الرسائل بأرشيف الحماية بـ Nantes، والتي كان من المفروض أن يتوصل بها رفايل بنسيمون¹.

على العموم، ظلت الصهيونية السياسية حتى الحرب العالمية الثانية محصورة في عدد قليل من نخبة المدن، خصوصا وأن النشاط الصهيوني تعرض للجمود خلال فترة حكومة فيشي²، ولم تصبح شعبية إلا بعد "الهولوكوست"، والإعلان عن إنشاء دولة إسرائيل سنة 1948.³ أما بعد هذه الحرب فقد عرف النشاط الصهيوني انطلاقة قوية، بالرغم من أن سلطات الحماية ظلت على المستوى الرسمي على موقفها الرافض لمنح الترخيص القانوني للتنظيمات الصهيونية، وإن بدر منها قدر من التسامح تجاه أنشطة هذه الأخيرة بالمقارنة مع الفترة التي سبقت الحرب⁴.

ومن مظاهر تطور النشاط الصهيوني، ابتداء من هذه المرحلة، الاهتمام الذي أصبحت توليه التنظيمات الصهيونية العالمية والمحلية لتعليم اللغة العبرية الحديثة⁵، حيث باتت تعتبر اللغة أحد عناصر مقاومة التصفية الروحية والجسدية التي أرادها النازيون لليهود، ومؤشرا على حصول صحوة يهودية حقيقية. لذلك أولى الصهاينة المغاربة عناية كبيرة لتعليم اللغة العبرية، لاقتناعهم بأن اكتساب الإنسان اليهودي لمبادئها الأولى، حري بتشجيعه على الانخراط في المشروع الصهيوني وتهيئته للاستقرار في فلسطين⁶. لقد صار الهاجس الأساسي للخلايا الصهيونية بالمغرب، هو أن يتلقى جميع الأطفال اليهود داخل مؤسسات التعليم اللغة العبرية الحديثة، أسوة بجميع يهود العالم، وذلك استجابة للتوجيهات التي كانوا يتلقونها من قادة الحركة الصهيونية العالمية التي رفعت شعارا له دلالات معبرة هو: "مادام الشعب المقهور متشبثا بلغته، فإنه سيظل مالكا لمفاتيح بيته"، لذلك كانوا يتدخلون كثيرا في مؤسسات التعليم الديني حرصا منهم على النجاح في هذا الرهان، إيماننا منهم بأن ذلك هو السبيل الأمثل لتحقيق الاندماج في فلسطين، حيث كانت المراكز الجامعية بتل أبيب والقدس تقدم تعليمها العالي باللغة العبرية⁷. لقد كان الهدف الاستراتيجي

¹J. Tolédano, *Portrait ...*, op. cit, p. 244.

²"أصيب النشاط الصهيوني في مختلف أنحاء المغرب، خلال فترة حكومة فيشي (1940-1942)، بالجمود تقريبا وتوقفت الاتحادات الصهيونية عن ممارسة أي نشاط صهيوني. ويصف "مانير عامير"، وهو ناشط صهيوني من مكناس وترأس لجنة الهجرة في جماعته في ثلاثينات القرن العشرين، هذا الوضع في خطاب وجهه للوكالة اليهودية قائلا: "هناك سور من الفولاذ فصل بين الصهيونيين المحليين وبين نظرائهم في فلسطين وأوروبا، مشاعرهم مثل مشاعر الأيتام". واشتكى "عامير" من أن الصهيونيين في مكناس لم ينجحوا في الحفاظ على علاقة مع الصهيونيين في الدار البيضاء...". أحمد الشحات هيك، *يهود المغرب تاريخهم وعلاقتهم بالحركة الصهيونية...*، مرجع سابق، ص. 82.

³J. Tolédano, *Le temps du Mellah...*, op. cit, p. 280.

⁴J. Tolédano, *Portrait ...*, op. cit, p. 303.

⁵"لقد أصبح التنظيم الصهيوني بالمغرب خلال هذه الفترة يراهن على نشر اللغة العبرية في أوساط يهود المغرب، خاصة بعد فترة الجمود النسبي التي عانى منها النشاط الصهيوني نتيجة أحداث الحرب العالمية الثانية وتواجد حكومة فيشي في المغرب. وهو محور كان ضمن أنشطة التنظيم الصهيوني في المغرب قبل الحرب العالمية الثانية، لكنه لم يكن يمثل هذه الكثافة لدرجة أنه أصبح من أهم أولويات النشاط الصهيوني، وأصبح على الأقل يتساوى مع العمل على ترويج الشيكول وجمع التبرعات". أحمد الشحات هيك، *يهود المغرب تاريخهم وعلاقتهم بالحركة الصهيونية...*، مرجع سابق، ص. 85-86.

⁶محمد حاتمي، *الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية ورهان المغرب المستقل...*، مرجع سابق، ص. 101.

⁷E. Goidan..., op. cit, p. 59.

من هذه الفلسفة هو تشكيل هوية جامعة وعابرة لمختلف الجماعات اليهودية أينما كانت، ليس عبر اللغة فقط بل أيضا عبر التاريخ والعرق والروح اليهودية (افتخار اليهودي كونه يهوديا)، حتى يتسنى لهم الارتباط وجدانيا بما يحدث بفلسطين.¹

العناية الخاصة التي حظيت بها عملية تدريس اللغة العبرية بالمغرب كانت محط تقدير وإعجاب وافتخار من طرف النشطاء الصهاينة، ذلك أن رئيس منظمة KKL والزعيم المستقبلي للوفد اليهودي المغرب المبعوث إلى المؤتمر اليهودي بأطلانتيك سيتي، كتب إلى مدير المنظمة الصهيونية العالمية بالقدس في 21 مارس سنة 1944، قائلا: "بجميع مدن المغرب، بالدار البيضاء وفاس ومكناس ومراكش وأسفي والرباط... هناك نهضة رائعة في سبيل إعادة بناء فلسطين. هذه النهضة تتم من خلال خلق دروس تستقطب المئات من الشباب لتعلم اللغة العربية بجميع المناطق، وذلك عبر نوادي / Moadonim لا يتم الحديث فيها إلا باللغة العبرية، فضلا عن ذلك فتح نقاشات حول مواضيع يهودية، وغالبا حول مواضيع تخص فلسطين..."². صدى هذا الاهتمام بتعليم اللغة العبرية بمكناس كان يتردد في الجريدة الصهيونية la voix juive التي كانت تصدر من تونس³، والتي كان يتم توزيعها بالمغرب من خلال الاشتراكات التي بلغت محليا بمكناس سنة 1944، 600 اشتراك⁴. وقد أشارت هذه الصحيفة في العمود الخاص بالمغرب إلى العمل الذي كانت تقوم به جماعة ابن يهودا / Bné Yéhouda التي كانت تنظم كل يوم سبت بعد الزوال أنشطة بيعة جوزيف مريجن لا يتم التحدث خلالها إلا باللغة العبرية⁵.

نتيجة لهذه الجهود بلغ يهود مكناس مستوى جيدا في إتقان اللغة العبرية، طبقا لشهادة إياهو هكراميلي،- الذي كانت عائلته قد استقرت منذ ثلاثة أجيال بطبرية ثم بمدينة حيفا، وأصولها تعود إلى مدينة مكناس، وكان أول مبعوث فلسطيني إلى مكناس سنة 1947، بل وانتُخب لاحقا نائبا برلمانيا بالكنيست (البرلمان الإسرائيلي) عن حزب العمل- وهكذا جاء في شهادته: "فاس ومكناس هما مدينتا التوراة بالمغرب. لقد وجدت بمدينة مكناس مؤسسة تلمود تورا بالمعنى الحقيقي للكلمة. أطفال في عمر الزهور يغنون قصائد باللغة العبرية. ويبلغ عدد تلاميذ هذه المؤسسة حوالي 2000 تلميذ... ولم أكن أتخيل أبداً أنه بالإمكان القيام بمحادثة بلغة عبرية جيدة في مكان كمدينة مكناس ! وفي الوقت نفسه عندما انتهى خبر قدومي إلى رئيس الجماعة اليهودية المحلية جوزيف بيرديغو، ورئيس

¹ Ibid, p. 57.

² J. Tolédano, Portrait ..., op. cit, p. 304.

³ Ibid, p.304.

⁴ E. Goidan..., p. 74.

⁵ J. Tolédano, Le temps du Mellah..., op. cit. p. 294.

الفرع الصهيوني المحلي مايير عمار، وسكرتير تنظيم الشبيبة/Bahad، بليشا، التحقوا بي، وتوجه إلى رئيس الفرع الصهيوني مايير عمار قائلا: "نحن مستأثرون من استقبالنا لكتب عبرية عربية، كما لو أننا لا نتقن اللغة العبرية!"¹. وبناء عليه، طلب منه أن يتم تعويض تلك الكتب العبرية-العربية، بكتب عبرية-عبرية². نفس الإشادة جاءت على لسان أحد الحاخامات الفرنسيين حين زيارته لمدينة مكناس سنة 1948 جاء فيها: "يدشن التلاميذ اليهود مسارهم الدراسي بارتياح مؤسسة التلمود تورا في سن الرابعة والنصف، وفي سن السابعة أو الثامنة يلتحقون بمدرسة الرابطة من أجل تعلم اللغة الفرنسية. إحدى الطفلات في سن الخامسة تلت علينا حكاية الذئب والحمل باللغة الفرنسية في البداية، ثم أعادتها باللغة العبرية... بكيت وتوجهت للمدير وقلت له: أغار منك... اليهودية لن تموت أبدا بوجود مدن ك مكناس في عالم اليهود. آه لو كانت الظروف السياسية تسمح لهذا النموذج اليهودي أن يسود في باقي المراكز اليهودية عبر العالم."³

اهتمام المغاربة اليهود باللغة العبرية، وإتقانهم إياها تأكد من خلال ما جاء في تقرير المركز الثقافي للوكالة اليهودية بالقدس سنة 1954، والذي ورد فيه أن أكبر عدد من الكتب العبرية يبيع في العالم، سنتها، كان بالمغرب⁴، وقد علق مبعوث هذه المؤسسة على ذلك قائلا: "هل تعلمون بأنه في هذه اللحظة لا يوجد مكان في الشتات حيث تحظى العبرية بوضعية ممتازة جدا غير المغرب. لقد بعنا هنا أكبر عدد من الكتب المدونة بالعبرية مقارنة بحجم المبيعات في باقي الشتات."⁵ ومن نتائج ذلك محليا أن اللغة العبرية أصبحت متداولة بشكل عادي وعلى نطاق واسع في الحياة اليومية لليهود مكناس، لدرجة أن بعض المسلمين الذين كانوا يترددون على الملاح صاروا يتكلمونها، كما كان يفعل أحد باعة الحلوى الذي كان يتجول بالملاح ويصيح عارضا بضاعته بلغة عبرية جيدة⁶.

ومن مظاهر نجاح يهود مكناس في إتقان اللغة العبرية أنه في سنة 1953، قامت جمعية بمدينة الدار البيضاء تعنى بنشر اللغة العبرية بمختلف مناطق المغرب، وتدعى Maghen David بتنظيم مباراة في كتابة نص باللغة العبرية حول حياة القديسة "لالة سوليكة" وموتها، وقد كان من بين المتفوقين يهودي من مكناس يدعى حبيب طوليدانو، أستاذ التاريخ اليهودي واللغة العبرية بمدرسة الرابطة الذي تم تلقيبه بـ Ben Yéhouda تكريما له على المجهودات

¹J. Tolédano, *Portrait ...*, op. cit, p. 304.

²J. Tolédano, *Le temps du Mellah*, op. cit, p. 298.

³R. Assaraf, *Eléments...*, op. cit, p. 277-278.

⁴J. Tolédano, *Le temps du Mellah...*, op. cit, p.309.

⁵R. Assaraf, *Eléments ...*, op. cit, p. 278-279.

⁶J. Tolédano, *Portrait ...*, op. cit, p. 304.

التي كان يقوم بها من أجل نشر اللغة العبرية الحديثة.¹ هذا الأخير عرف عنه أنه كان يتحدث في بيته مع أطفاله باللغة العبرية فقط. نجاح مبادرة Maghen David حفز مصلحة الثقافة للوكالة اليهودية سنة 1954 على تنظيم مباراة في القصيدة العبرية. ومن بين 200 مشارك من مختلف مناطق المغرب كان عدد المتفوقين من مدينة مكناس 9 مشاركين، هم: أزوكيي مايير، وعمار بنسيمون، وعمار إسحاق، وبلشيا جاكوب، والبار مخلوف، والحياني مويريس، وكسوس حاييم، وجوزيف طوليدانو، وطوليدانو حبيب.² وفي مناسبة أخرى، حُصصت للاحتفاء بسنة هرتزل، تُركت للمشاركين حرية الكتابة باللغة التي يفضلونها في موضوع "دور الأبطال في التاريخ: حالة هرتزل"، ومن بين 341 مشاركة، تم تحرير 114 موضوعا باللغة العبرية، وقد كان أحد المتفوقين ينحدر من مكناس وهو Acher Benham، الذي تقاسم الجائزة الكبرى مع مرشحين من مدن الرباط وتاوريرت وصفرو.³

غير أنه رغم انتعاش الصهيونية السياسية خلال هذه الفترة، إلا أن سلطات الحماية الفرنسية ظلت حتى السنوات الأخيرة من وجودها بالمغرب حريصة على مراقبة النشاط الصهيوني الذين كانوا مكلفين بنشر الصهيونية السياسية، لخشيتهما من أن يؤدي الترحيل الجماعي لليهود إلى وقوع مضاعفات خطيرة على اقتصاد البلاد، وعلى استمرار التعايش بين مكونات المجتمع (مسلمين ويهودا وفرنسيين ومستقرين في المغرب من جنسيات مختلفة)، وعلى طبيعة العلاقات مع السلطان والسلطات المخزنية. عموما، ظلت سلطات الحماية تعتبر العليا خطرا على مهمتها في المغرب، وهو ما جعل الهاجس الأمني يهيمن على سيرة السلطات تجاه النشاط الصهيوني بالمغرب، لذلك كلفت الأجهزة الإدارية والأمنية في المركز والجهات باتخاذ العديد من التدابير، وإصدار قرارات ترمي إلى الحد من الدعاية لصالح الكيان الصهيوني في فلسطين.⁴

ومن مظاهر تلك الرقابة ما حصل بمدينة مكناس، بناء على ما جاء في تقرير سري يعود إلى سنة 1949، جاء فيه: "أن رئيس الأمن العام قد أشار إلى أن المدعوة هنريت طوليدانو المغربية اليهودية المزدادة بمكناس في 28 شتنبر سنة 1924، والتي كانت تشغل منصب كاتبة لمنظمة KKL، قد كانت متعاونة داخل اللجنة الصهيونية الاحتياطية، كما كانت صديقة لطوليدانو مايير المفوض المحلي لنفس المنظمة، والمتواجد حاليا ببودابست لحضور المهرجان العالمي للسلام."⁵

¹Ibid, p. 304.

²J. Tolédano, *Le temps du Mellah...*, op. cit, p. 310.

³R. Assaraf, *Eléments...*, op. cit, p. 279.

⁴محمد حاتمي، الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية وهران المغرب المستقل...، مرجع سابق، ص. 132.

⁵J. Tolédano, *Portrait ...*, op.cit, p. 305.

نفس الرقابة تعرض لها المبعوث الفلسطيني إلياهو هكراميلي، وقد حكي عن ذلك قائلا: "الشرطة السرية التي كانت تراقبني منذ دخولي المغرب عينت شرطيا لمتابعة نشاطي المسائي، وفي نهايته وعوض أن يوجه لي عبارات مزعجة، هنأني ! وقال لي: "أشكرك على العبارات الجميلة التي قلتها في حق فرنسا". لقد تطرقت في خطابي للثورة الفرنسية، متحدثا عن دورها في إقرار المساواة لأول مرة بين الناس بما في ذلك اليهود، كما تحدثت عن حرب 1870، وعن مقال إميل زولا : "إني أتهم". وقد أجبت قائلا: إن كلماتي صادقة وليست من باب الانتهازية السياسية. فأجابني: "وهذا ما يمنحها قيمتها". فأجبت: إن الشرطة تعرف كيف تميز بين الصواب والخطأ. لقد كان الجمهور منزعجا لحضور هذا الشرطي، ولم يُبدِ ارتياحه لهذا الحوار الذي دار بيني وبينه".¹

بالرغم من استمرار الرقابة التي ظلت تفرضها سلطات الحماية على النشاط الصهيوني بالمغرب، ولو بحدّة أقل عما كان عليه الأمر خلال فترة ليوطي، فإن كثافة النشاط الصهيوني بمكناس بعد الحرب العالمية الثانية، وازدياد اهتمام المنظمات الصهيونية العالمية وخصوصا الأمريكية منها بيهود المغرب، وبعد أن أصبحت الرابطة تتبنى بدورها الحل الصهيوني بسبب صدمة النازية والفاشية بأوربا، أدّى، مجتمعين إلى تحقيق اختراقات مهمة في صفوف يهود مكناس لصالح البديل الصهيوني، ومن مظاهر ذلك أن انتهى الأمر بجمعية قدماء تلاميذ الرابطة بمكناس إلى تبني الأفكار الصهيونية، حيث صرح رئيس مخيم العطل O.C.V سنة 1949 بأن من أهداف أنشطة هذه الجمعية العمل على تبني الصهيونية التي تسعى إلى إنقاذ الطفل الإسرائيلي من البؤس، ناهيك عن إعدادة بدنيا* وثقافيا بشكل جيد حتى يصبح مواطنا صالحا ومنتجا بفلسطين. كي تستطيع هذه الجمعية النجاح في تمويل أهدافها، كانت تنظم تبرعات عمومية بالأحياء والبيع فضلا عن الحفل الذي كانت تنظمه سنويا حتى تستطيع تنظيم برامجها².

ساهمت مجهودات النشاط الصهيوني بمكناس طيلة مرحلة الحماية، خصوصا بعد الحرب العالمية الثانية، في احتلال هذه المدينة للمرتبة الثانية بعد الدار البيضاء من حيث الاستقطاب للصهيونية السياسية، حيث بلغ عدد المتصهينين بها خلال السنوات الأخيرة للحماية 1572 متصهيناً، بعد الدار البيضاء بـ 11992 متصهيناً³، مع ضرورة استحضار الفارق بين المدينتين في عدد السكان اليهود.

¹Ibid, p. 305-306.

*"لقد عمل الصهاينة على حث الشباب اليهودي على التوجه نحو الفلاحة والصناعة، قصد تهيئ الهجرة نحو فلسطين، وفتح لهذه الغاية مكتب سري بمدينة مكناس، كما حرصوا على تشغيل شباب أشداء في ضيعات إخوانهم في الدين بسايس، قصد تعلم الفلاحة والإعداد بكيفية خاصة لـ " الإكثار من الحقول الخضراء في فلسطين بفضل العمل الجبار لرواد اليشوف (الوطن القومي)". محمد كنيبي، يهود المغرب 1912-1948...، مرجع سابق، ص. 166.

²J. Tolédano, *Le temps du Mellah...*, op. cit, p. 240-241.

³Ibid, p. 310.

من خلال تتبع مراحل تطور النشاط الصهيوني بمكناس، يتضح أن تصهين أفراد هذه الجماعة قد تطور بتطور الأحداث المتلاحقة داخليا وخارجيا. لقد اقتصر الأمر في البداية كما أوضحنا على اعتناقهم للصهيونية الدينية انسجاما مع فكرة الخلاص المسيحاني التي كانت تسيطر على شريحة كبيرة من أفراد الجماعات اليهودية المغربية، والتي تم التعبير عنها من خلال الانخراط في حملة جمع التبرعات وإرسالها إلى فلسطين، أو عبر الحج إلى الأماكن المقدسة، لكن مع مرور الوقت، وبعد تجذر النشاط الصهيوني بالمغرب، وتداعيات أحداث الشرق الأوسط وصدمة قوانين فيشي، وتبني الرابطة الإسرائيلية العالمية بدورها للحل الصهيوني، وبعد الإعلان عن تأسيس إسرائيل سنة 1948، فضلا عن بعض الأحداث العنيفة التي تعرض لها اليهود (وجدة/ جرادة- سيدي قاسم)، وقع تحول مهم في قناعاتهم، حيث صاروا شيئا فشيئا أكثر ميلا إلى اعتناق الإيديولوجية الصهيونية السياسية التي اختزلت فكرة الخلاص اليهودي في الهجرة إلى فلسطين، الأمر الذي ساهم على مراحل منذ أواخر سنوات الحماية وبعدها، وبالتفاعل مع العوامل الاقتصادية، دفع المغاربة اليهود إلى المراهنة على خيار مغادرة المغرب أملا في حياة أفضل على أرض مملكة الخلاص المسيحاني أو بمناطق أخرى من العالم الغربي.

2. يهود مكناس بين الهجرة وإكراه التهجير وتلاشي خيار الاندماج

إن مسألة هجرة يهود مكناس المبكرة إلى فلسطين منذ مطلع القرن العشرين، لم ترتبط بالاستجابة للمشروع الذي روجت له الصهيونية السياسية القاضي بالانخراط في مشروع تأسيس وطن قومي لليهود، بقدر ما استجابت لتلك العلاقة العاطفية التي كانت لليهود الشتات المتدينين عبر العالم بفلسطين كمكان مقدس* توجهوا إليه للحج وزيارة حائط المبكى مرة في العمر على الأقل أملا في الموت تحت "ظلال صهيون"¹. وبناء عليه، فقد تم ذلك في إطار تقليد قديم دأب على القيام به يهود شمال إفريقيا من أجل التماثل الاجتماعي في عين المكان مع حياة أجدادهم، والاستفادة في نفس الوقت من الحلقات الدينية في فلسطين، ثم العودة إلى البلد الأم كحماخامات بوضعية اعتبارية مهمة، وذلك ما يفسر تواجد جاليات يهودية من أصول مغربية ببعض المدن الفلسطينية كالقدس وطبرية². وفي هذا الإطار هاجر باروخ طوليدانو رفقة أبيه إلى القدس سنة 1903 وسنه لا يتجاوز حينها 13 سنة، كان الأب أحد التجار الناجحين بمكناس، وقد اختار البقاء هناك إلى أن توفي سنة 1906³—أما الابن فقد عاد إلى المغرب رفقة عمه سالمون سنة 1912⁴—انسجما مع اعتقاد كان سائدا لدى يهود شمال إفريقيا، وبشكل أكثر حدة لدى يهود المغرب [...] من أن الجثث حين تدفن في تراب مدينة القدس، لا تتفسخ وتبقى على حالها إلى حين ظهور منقذ البشرية. ويفسر هذا الاعتقاد كون المسنين والمتدينين من اليهود ظلوا على مر الزمان يراودهم حلم قضاء آخر أيامهم في القدس⁵.

بعد خضوع المغرب للحماية الفرنسية سنة 1912، سعت سلطات هذه الأخيرة، التي كان يشغلها أمر وقف تيار كانت تخشى تبعاته على سياستها الأهلية، إلى تنظيم دعاية ضد فكرة الهجرة إلى فلسطين. فقد كان الأمر يتعلق، كما قال ليوطي، "بمنع هجرة اليهود نحو أرض الميعاد، التي قد يتعرضون فيها للشقاء والتقتيل". وهكذا طُوبل المرشحو لمغادرة المغرب بدفع كفالات مرتفعة نسبيا لتسديد "المصاريف المحتملة التي يتطلبها أمر إعادتهم لوطنهم

*"منذ بداية ظهور الحركة الحسيدية كان زعماءها يتطلعون إلى الذهاب إلى فلسطين والسكن فيها، وقد ذهب بعضهم فعلا وسكن فيها والبعض الآخر زارها، [...] وللصديق أقوال في تشجيع الحسيديم على الذهاب إلى فلسطين والسكن فيها، فهم يقولون إن على كل يهودي أن ينوي العيش في فلسطين. وقد جاء في كتاب الزهر- الذي يقدسه الحسيديم كثيرا- " إن من يسكن فلسطين يستنزل ندى السماء، وتحل عليه روح القدس، إذا مات تغفر له ذوبه". وقال الصديق مناحم مندل فيتسبك: " إن اليهودي الذي يعيش في فلسطين يصبح مقدسا وطاهرا، بل ويتمكن أن يطهر الآخرين". وقال الصديق نحمان براسلاف: " إن من يريد أن يكون يهوديا حقيقيا عليه أن يذهب إلى أرض فلسطين مهما كانت الصعوبات والعوائق، وإن أرض فلسطين تعطي اليهودي سموا روحيا. وفي فلسطين يؤكد اليهودي عقيدته ويتعلم الحكمة". جعفر هادي حسن، اليهود الحسيديم نشأتهم، تاريخهم، عقائدهم، تقاليدهم...، مرجع سابق، ص. 187.

¹E. Goidan, op. cit, p. 6.

²Ibid, p. 10.

³J. Tolédano, Le temps du Mellah..., op. cit, p. 170.

⁴Ibid, p. 170.

⁵محمد حاتمي، الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية وهران المغرب المستقل...، هامش رقم 05، ص. 255.

من طرف قنصل فرنسا بالقدس، "إلا أن تلك الإجراءات كانت عديمة الجدوى،¹ لأن العديد من العائلات اليهودية المغربية كانت قد هاجرت إلى فلسطين قبل إعلان وعد بلفور سنة 1917، استجابة لنداءات النشاط الصهيوني الذين كانوا يخلطون بكيفية لا شعورية أو عن قصد، بين الحركة المهدوية وبين البرنامج السياسي لتيودور هرتزل²، تنفيذاً لنداءات السلطة التنفيذية الصهيونية بلندن³.

والتزاماً من المقيم العام ليوطي بمقتضيات السياسة الأهلية، رفض عودة حوالي 500 يهودي إلى المنطقة الفرنسية، وهم فئة كان قد تم طردها من فلسطين، أو فروا منها هرباً من أعمال السخرة، التي فرضها عليهم العثمانيون في صحراء سيناء. وكان الهدف من هذا الإجراء تجنب أي تأثير لتطور الوضعية بالشرق داخل منطقة الحماية الفرنسية. وقد تم استقبالهم باقتراح منه، وبكيفية مؤقتة بجزيرة كورسيكا حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، حيث انتهى بهم الأمر إلى العودة إلى فلسطين، ولم تتمكن سوى ثلثة قليلة منهم من الالتحاق بعائلاتها بفاس ومكناس وبعض المدن الأخرى⁴، خصوصاً وأن المغاربة اليهود قد ظلوا خاضعين للبيعة الدائمة لشخص السلطان بشكل لا يمكن أن يسقط عنهم الجنسية المغربية، ذلك أن اليهودي المغربي يحتفظ بجنسيته الأصلية حتى حين رحيله إلى بلد آخر، اتساقاً مع الفصل الخامس عشر من اتفاقية مدريد لسنة 1880 الذي ظل ساري المفعول طيلة فترة الحماية⁵.

عودة هؤلاء بعد فشلهم في الاستقرار والاندماج بفلسطين يعود إلى أن هجرتهم تلك لم يكن مخططاً لها بشكل جيد، لكن رغم ذلك اضطر من تبقى منهم هناك إلى الاستقرار مرغماً في ظل ظروف قاسية بعدما باعوا كل ممتلكاتهم بالمغرب⁶، بشكل جعل من العودة مجرد مغامرة معكوسة. التباس الوضع بفلسطين وتشدد المقيم العام ليوطي في مراقبة النشاط الصهيوني والتضييق على الهجرة، واستمرار الرابطة في إبداء معارضتها لمشروع الحركة

¹ محمد كنيبي، **يهود المغرب 1912-1948...**، مرجع سابق، ص. 103.

² نفسه، ص. 100.

³ "لقد كان النشاط الصهيوني ينقلون بالفعل إلى ساكنة الملاحات، نداءات السلطة التنفيذية بلندن، التي كانت تحضهم على المشاركة في بناء "وطن قومي"، وكانوا يقومون بذلك بعد ترجمة تلك النداءات إلى اللهجة اليهودية المغربية، وبعد تكييفها بصفة خاصة، بواسطة انتقاء المصطلحات المناسبة الملائمة، مع عقلية الأوساط التي لم تستأنس بعد بالبعد السياسي للصهيونية، لكنهم كانوا يحجمون لأسباب دعائية، عن إخبار المرشحين للهجرة بالصعوبات الاقتصادية التي كانت تجتازها فلسطين، وكذا بتوصيات اللجنة التنفيذية لهم بعدم الرحيل إلا إذا كانوا "مزودين بموارد مالية شخصية، تمكنهم من تأمين الاكتفاء الذاتي لردح من الزمن على الأقل، بعد وصولهم إلى مقصدهم". محمد كنيبي، **يهود المغرب 1912-1948...**، مرجع سابق، ص. 103-104.

⁴ نفسه، ص. 108.

⁵ محمد حاتمي، **الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية وهران المغرب المستقل...**، الهامش رقم 02، ص. 179.

⁶ E. Goidan, op. cit, p. 10-11.

الصهيونية*، لم يؤدّ إلى تعطيل الهجرة نحو فلسطين تماما، خصوصا وأن الصهيونية السياسية قد صارت تحقق بعض التقدم بعد صدور وعد بلفور سنة 1917¹.

لقد صار المهاجرون يفقدون الجانب الروحي والخيري الصرف في ارتباطهم بفلسطين كما كان الأمر في البداية تحت تأثير الصهيونية السياسية، ذلك أنه، وابتداء من سنة 1919، صارت دوافع البعض وراء الهجرة لا تتم فقط لأسباب إيمانية، بل أيضا بحثا عن حياة مادية أفضل². وما تجب الإشارة إليه أيضا حسب ما جاء لدى محمد حاتمي، "هو أن غلبة المحفزات الدينية والاقتصادية، لا تعني بالضرورة انعدام القناعات الصهيونية عند من أقدموا على الهجرة إلى حدود هذه الفترة. فمن دون شك أنه وجدت بينهم عناصر متعلمة خلصت من خلال قراءة "المأثورات" الصهيونية إلى أن الهجرة تمكنهم من المساهمة في بناء وطن يكونون فيه متحكمين في مسارات حياتهم. ففي تقرير مرفوع إلى الإقامة العامة في موضوع الهجرة إلى فلسطين بتاريخ 6 شتنبر 1919، أشار مفتش المؤسسات اليهودية يحيى زاكوري إلى أن نسبة لا بأس بها من المتعلمين ذوي التكوين العصري قد هاجروا إلى فلسطين، وهم متأثرون أكثر من غيرهم بالدعاية الصهيونية التي أوهمتهم بإمكانية الاستفادة فور وصولهم لفلسطين من المساعدات العمومية ومن موارد البلاد الوفيرة."³

وانسجما مع هذه الدوافع، هاجرت 12 عائلة يهودية من مكناس إلى فلسطين في سنة 1922، وكانت كلها تنتمي إلى الفئة المعوزة، الأمر الذي أثار قلق الإقامة العامة التي كانت تخشى انتقال تأثير الدعاية الصهيونية إلى جميع يهود المغرب، مما اضطر معه ليوطي إلى مطالبة قائد ناحية مكناس بأن يظل يقظا، وهو ما دفع هذا الأخير إلى بعث رسالة للمقيم العام بتاريخ 22 دجنبر سنة 1922، يُطمئنه فيها، ويعلمه أن هذه الهجرة محدودة، وأن الذين هاجروا ليست لهم نية في العودة⁴. موجة الهجرة المبكرة هذه من مدينة مكناس إلى فلسطين تعرضت للتوقف بشكل ذاتي،

*"الصراع بين الرابطة والصهيونية كان أمرا لا مفر منه، حيث اعتبر الأب الروحي للصهيونية السياسية تيودور هرتزل أن الرابطة تعمل على نزع الصفة اليهودية عن الإسرائيليين *déjudaïsation*، لذلك توجب في نظره اختفاؤها. غير أن الرابطة، من جانبها، كانت تعتبر الصهيونية مجرد يوطوبيا، وبأن فلسطين ليست أرض خلاء، كما أنها غير قادرة على استقطاب 11 مليون يهودي من مختلف دول العالم. لكن بعد أن بدأت الصهيونية السياسية تحقق بعد التقدم بعد صدور وعد بلفور سنة 1917 راجعت موقفها، والتزمت الحياد، فلا هي تدعم ولا هي تعارض هذه الحركة. لكن على أرض الواقع لم يلتزم مدرسو الرابطة بهذا الموقف، نظرا لأنهم كانوا متشبعين بالثقافة العلمانية، لذلك عملوا منذ البداية على محاربة الصهيونية، لأنها في نظرهم تتأسس على إيديولوجيا دينية."

J. Tolédano, *Le temps du Mellah...*, op. cit, p. 288.

¹"يرى غودان بأن صدور وعد بلفور سنة 1917 لم يكن له صدى لدى المغاربة اليهود، باستثناء بعض اليهود الأجانب الفرنسيين وغيرهم من إخوانهم في الدين من الجنسيات الأخرى المقيمين بالمغرب الذين تفاعلوا مع هذا الإعلان، وقد تم ذلك ابتداء من سنة 1920، بالنسبة للذين كانت لهم اتصالات مع المنظمة الصهيونية المركزية بلندن."

E. Goidan, op. cit, p. 12.

²Ibid, p. 10.

³محمد حاتمي، *الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية وهران المغرب المستقل...*، مرجع سابق، ص. 275.

⁴J. Tolédano, *Portrait ...*, op. cit, p. 243.

لأن الذين هاجروا كانوا قد واجهوا صعوبات في التكيف مع طبيعة الأوضاع بفلسطين، خصوصا من الناحية الاقتصادية، كما أن العديد منهم عادوا إلى المغرب بحكايات ساهمت في ثني عدد من المرشحين المفترضين عن خوض مغامرة الهجرة، فضلا عن ذلك، كما سبق وأشرنا، كانت سلطات الحماية خلال هذه الفترة متشددة جداً في منح تأشيرات الخروج من المغرب¹. كما أن الرابطة التي كان مدرّسوها لا يزالون يعارضون النشاط الصهيوني قد اعتبروا أن هجرة 12 عائلة من مكناص إلى فلسطين بمثابة دق لناقوس الخطر، مستغلة المناسبة لانتقاد سلطات الحماية التي لم تفعل شيئاً لأجل تحسين ظروف عيش اليهود². العتاب الذي وجهته الرابطة للمقيم العام، تزامن مع النقد الذي وجهته له المنظمة الصهيونية العالمية في شكل تهديدات مبطنة، تفيد بعدم كفاية المنجزات الاجتماعية للإقامة العامة، وللنظام الذي كانت تفرضه على المغاربة اليهود، والعراقيل التي كانت تقيّمها في وجه نشاطهم الخاص بالمغرب، خصوصا كتلك التي كانت حاجزا أمام المؤتمرات التي كانت تعقدها هذه المنظمة في كبريات المدن الأوربية، والتي كانت تجد صعوبة في نشرها في الجرائد التي تغطي أعمال هذه المؤتمرات³.

وعلى العموم، فقد ظل خيار الهجرة إلى فلسطين خلال السنوات الأولى للحماية غير مُعَرِّ لدى أغلب المغاربة اليهود، الذين ظلوا يرون بأن تلك الهجرة مجرد مغامرة ومن دون مستقبل، كما اقتصر ارتباط الأغلبية منهم بفلسطين على القيام بالواجب الديني، في شكل تبرعات وهبات كانت تقدم للمكلفين بجمعها كل ثلاث سنوات، بدعوى تمويل الأنشطة والمؤسسات الدينية بفلسطين⁴.

هذا الموقف اتسق مع إستراتيجية المنظمة الصهيونية العالمية التي لم تكن ترى في تهجير المغاربة اليهود أولوية مستعجلة، لأنها كانت تركز أكثر خلال هذه الفترة على تهجير يهود أوروبا الشرقية. وفي هذا السياق صرح المحامي اليهودي الفرنسي F. Corcos سنة 1926 في إحدى محاضراته بالدار البيضاء بما يلي: "لا نريد منكم حتى القيام بمحاولة الهجرة، لأنه لدينا ما يكفي من المرشحين لذلك، لدينا الكثير. السؤال الكبير بالنسبة للصهيونية ليس هو ملء فلسطين، بل دعم ومساعدة العدد الكبير من يهود أوروبا الشرقية الراغبين منذ سنوات في الانتقال إلى فلسطين. اليهود المغاربة ليسوا متطلعين للاستيطان بفلسطين، ونحن نعلم ذلك، ولا نطلب منهم شيئا من هذا القبيل". ما كان يطلب من المغاربة اليهود هو أن يعبروا عن دعمهم السياسي وتضامنهم مع إخوانهم في الدين بفلسطين، أضف إلى

¹Ibid, p. 243.

²J. Tolédano, *Le temps du Mellah...*, op. cit, p. 288.

³محمد كنييب، *يهود المغرب 1912-1948...*، مرجع سابق، ص. 114-115.

⁴E. Goidan, op. cit, p. 11.

ذلك تقديم المساعدة المالية إذا أمكن في حدود ما تسمح به إمكانياتهم. وفي هذا الصدد أضاف كوركوس قائلاً: "لا نريد الذهب الأمريكي فقط، بل الذهب المغربي أيضاً".¹

كما تنبغي الإشارة إلى أن الأحداث العنيفة التي وقعت بفلسطين سنة 1929، دفعت يهود المغرب، عموماً، إلى التردد في اتخاذ قرار الهجرة، لا لتكلفتها، بل أيضاً لتوتر العلاقات بين المسلمين واليهود هناك، فضلاً عن أن سلطات الانتداب البريطانية كانت لا تمنح التأشيرات إلا للحاصلين على موافقة خاصة من طرف حكومة الحماية الفرنسية، هذا وقد أكد المقيم العام لوسيان سان (1929-1933) بأن الوضعية الاقتصادية المشقة بفلسطين، ستجعل المهاجرين يواجهون الفقر إن لم يكن بحوزتهم بعض المال، إذ سيضطرون للعودة للمغرب، كما أن القنصل العام الفرنسي بالقدس طلب من سلطات الحماية أن تبذل مجهوداتها لعرقلة هجرة المغاربة اليهود. وبناء عليه حث المقيم العام لوسيان سان على ألا تمنح جوازات السفر إلا بعد تأمل شديد، وبعد الوقوف على جميع الضمانات الممكنة التي تفيد أن المهاجرين لهم ما يكفي من المال، حتى لا تضطر سلطات الحماية إلى تحمل تكاليف عودتهم.²

بعد نهاية الحرب العالمية الثانية ستعرف "العلياء" بمكناس بعض الانتعاش، ذلك أن شابين من هذه المدينة هما بينحاس عمار وأهارون الباز، كانوا ضمن أول مجموعة ضمت 10 أشخاص هاجروا إلى فلسطين سنة 1945، بفضل شهادات الهجرة التي حصلوا عليها من الوكالة اليهودية، وقد قام المبعوثون الصهاينة القادمين من فلسطين، الذين كلفوا بالإشراف على هذه الهجرة، بتنظيمها بشكل سري عبر الجزائر³، لأن سلطات الحماية الفرنسية كانت لازالت ترفض منح تأشيرات الهجرة نحو فلسطين لجميع المغاربة اليهود الذين كانوا يطلبونها.

الحاصل أن اهتمام المنظمة الصهيونية العالمية بهجرة يهود المغرب ظل ثانوياً إلى حدود الحرب العالمية الثانية، أما بعدها فقد بدأ الاهتمام بهم يتزايد أكثر مما كان عليه الأمر من قبل⁴، إذ اعتبرت المنظمة أنه قد صار واجباً التوجه بقوة نحو المغاربة اليهود الذين كانوا يشكلون احتياطاً ديموغرافياً مهماً، وهي العليمة، قبلاً، بغنى وأصاله الجماعة اليهودية المغربية⁵. وهو ما يفسر التحول الذي طرأ في التصورات التي تم عرضها خلال المؤتمر الأول للفدرالية الصهيونية المغربية الذي انعقد بالدار البيضاء سنة 1946⁶، والذي عكس حصول نقلة نوعية في محتوى الخطاب

¹J. Tolédano, *Le temps du Mellah*, op. cit, p. 283.

²ANR, Circulaire N° 18 Tr, du Commissaire Résident Générale de ma République Française au Maroc à Messieurs les Chefs des Régions, Objet : Emigration d'Israélites marocains en Palestine, datée du 29 Juillet 1923.

³J. Tolédano, *Portrait ...*, op.cit, p. 306.

⁴R. Assaraf, *Une certaine Histoire des Juifs du Maroc...*, op. cit, p. 515.

⁵A. Chouraqui, *L'Alliance Israélite Universelle ...*, op. cit, p. 333.

⁶محمد حاتمي، *الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية وهران المغرب المستقل...*، مرجع سابق، ص. 202.

الصهيوني المغربي، حيث أُلغى عن اعتبار أرض فلسطين مجرد ملجأ لليهود المضطهدين في بلدان أوروبا الشرقية والوسطى وورشة للتجربة الاشتراكية. لقد برزت ملامح اتجاه فكري يريد أن تكون المشاركة في تأسيس دولة يهودية في فلسطين مفتوحة على جميع الطاقات اليهودية بما فيها المنتمين لأرض الإسلام، بالرغم من مستواهم الثقافي المتدني وكفاءتهم العلمية والفكرية المتواضعة¹. غير أن هذه المنظمة لم يكن في نيتها، إلى حدود هذه المرحلة، إعطاء الأولوية لتهجير المغاربة اليهود، على عكس الأولوية التي أعطيت لليهود الأوروبيين الناجين من معتقلات النازية². كما أن أطر الفدرالية الصهيونية المغربية بدورهم لم يكونوا ينوون خلال هذه الفترة القيام بترحيل جماعي يؤدي إلى إفراغ المغرب من يهوده، وإنما كان أقصى أملهم -وهو ما يبدو واضحاً في برامجهم الأولى- هو ترحيل المعوزين والفقراء شريطة أن يتمتعوا بصحة جيدة، أن يبدوا على استعداد للعمل وحمل السلاح. وأما المثقفون والميسورون والمتعلمون، فقد ارتأت الخطط الأولى جدوى بقائهم في المغرب، ليشكلوا وزناً ضاغطاً على السلطات الفرنسية والمخزنية³.

هذا التصور الذي حكم المرحلة التي سبقت سنة 1948، تاريخ اندلاع الحرب العربية الإسرائيلية الأولى، اتسق مع محدودية حالات الهجرة من المغرب نحو فلسطين، والتي ظلت في مجملها مبادرات شخصية أقدم عليها شباب ذكور راغبون في "تغيير الأجواء" و"البحث عن فضاءات جديدة أكثر ليبرالية وحرية". ففي الفترة الممتدة من مايو 1947 وأبريل 1948، تم تسجيل رحيل ألف شخص من المغرب (من أصل 1500 شخص نزحوا من إفريقيا الشمالية الفرنسية). ويدل ضعف هذا الرقم على أن الهدوء السياسي النسبي الذي عاشه المغرب خلال سنتي 1946 و1947- على الأقل حتى تاريخ زيارة السلطان محمد بن يوسف إلى طنجة-، فضلاً عن الامتيازات القانونية التي استفادت منها الجماعات اليهودية، أمور ساهمت بشكل كبير في خلق جو من الثقة والطمأنينة لدى الفئات اليهودية⁴. غير أن هذا الهدوء لم يطل طويلاً، ذلك أن المزاج العام لليهود في علاقتهم بالمسلمين بالمغرب، سيدشن مرحلة من التوتر وسوء الفهم بين الطرفين⁵ ابتداءً من 29 نونبر 1947، تاريخ إعلان منظمة الأمم المتحدة عن قرار تقسيم فلسطين* -

¹ نفسه، ص. 203-204.

² R. Assaraf, *Une certaine Histoire des Juifs du Maroc ...*, op. cit, p. 515.

³ محمد حاتمي، *الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية ورهان المغرب المستقل...*، مرجع سابق، ص. 204.

⁴ نفسه، ص. 275.

⁵ بالرغم من حرص يهود المغرب على التكتف في التفاعل مع قرار تقسيم فلسطين، فقد انتشر مناخ من التوتر الشديد بينهم وبين المسلمين. وبالنسبة لليهود فقد رؤوا في قرار تقسيم فلسطين تحققاً لحلم انتظروه منذ زمن طويل، أما بالنسبة للمسلمين بالمغرب، كما هو الشأن بالنسبة لمجموع مسلمي الدول "العربية"، فقد اعتبر الأمر كارثة تعادل فقدان الأندلس.

R. Assaraf, *Une certaine Histoire des Juifs du Maroc...*, op. cit, p. 518.

* "رفعت سلطات الحماية من درجة التأهب، خاصة بعد أن عبرت جامعة الدول العربية عن رفضها للقرار، ونيتها نشر قواتها العسكرية للحيلولة دون قيام الكيان الصهيوني. وكان للأنباء الواردة من جبهات الحرب وقع كبير على عموم المغاربة، فجعل المؤشرات دلت على أن المسلمين بنفس قدر اليهود تابعوا التطورات بارتقاب وتوجس. وزاد من حدة التوتر ورود إشاعات تفيد بأن الصهاينة لا يتورعون عن تسميم المياه وتقتيل الأطفال واغتصاب النساء المسلمات. وقد وجد كل جانب في الصلوات وسيلة للتعبير عن تضامنه مع بني ملته، فجوامع المدن الكبرى عرفت تنظيم قراءات من أجل السلام في فلسطين والدعوة لنصرة الإسلام، في حين قرأت في البيع صلوات خاصة بالخلاص. وأصدر المجلس الأعلى لحزب الاستقلال بياناً عبر فيه صراحة عن إدانته لقرار الجمعية العامة القاضي بتقسيم فلسطين وعن مساندته لجامعة الدول العربية، وفي بيان آخر ناشد " جميع

الذي صوتت فرنسا لصالحه¹، بالرغم من أن يهود المغرب قد ظلوا حريصين في التعبير عن فرحهم لهذا القرار بتكتم شديد، ذلك أنه في اليوم الموالي، وبناء على برقية تم تلقيها من طرف الحاخام الأكبر لفلسطين، التزموا طبقا للتوجيهات بأداء صلوات الشكر بسرية تامة بتطلعات مهدوية داخل البيع².

قرار تقسيم فلسطين الذي تزامن خلال نفس السنة مع قيام جهاز الموساد الإسرائيلي خلق شعبة بشمال إفريقيا قصد التكلف بتهجير يهود شمال إفريقيا³، حفز بعض يهود مكناس نحو ركوب مخاطر الهجرة السرية في اتجاه فلسطين، حيث قام شيمون دافيد بمغادرة مكناس خلال السنة نفسها، وهو في سن التاسعة رفقة أبيه وأخته الصغرى. كما صارت تتردد همسا شعارات بالملاح من قبيل "سنلتقي بفلسطين، وما أجمل حيفا"⁴. كما أن صدور قرار الإعلان عن تأسيس "إسرائيل" في 15 ماي 1948، فجر الرغبة في الهجرة نحو أرض الميعاد⁵، وضاعف من التوتر الشديد بالمغرب بين اليهود والمسلمين⁶، بشكل أعطى دفعة قوية، وعلى مراحل، لركوب "العلياه" كما سنوضح لاحقا. غير أن الحري بالذكر في هذا السياق أن تعاطي معظم المغاربة اليهود مع موضوع الهجرة قد ظل، إلى حدود عشية الإعلان عن قيام دولة إسرائيل، نابعا من نظرتهم للصهيونية على أنها حركة هجرة، وليست حركة أيديولوجية حاملة لمشروع قومي سياسي⁷. ورغم أن يهود مكناس قد تفاعلوا مع هذا القرار بالكثير من الحيلة والتكتم، إلا أن صدى المواجهات العنيفة بفلسطين بين اليهود والمسلمين قد أدى إلى خلق جو مشحون بين الأهالي اليهود والمسلمين، لدرجة أن هذه الفئة الأخيرة رفعت شعار المطالبة بمقاطعة اليهود الذين صاروا متهمين بدعم الصهاينة،

المواطنين" التزام الهدوء والابتعاد عن كل ما من شأنه تهديد أرواح اليهود المغاربة ومصالحهم". محمد حاتمي، *الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية ورهان المغرب المستقل*...، مرجع سابق، ص. 237.

¹تم التصويت على القرار بأغلبية 33 صوتا ضد 13 وامتناع عشر دول من التصويت، من بينها بريطانيا التي حاولت وهي "صاحبة الدور الأساسي في كل ما حدث بفلسطين" أن تظهر بمظهر المحايدين خداعا وتمويهها". علي أبو الحسن، *دور بريطانيا في تهويد فلسطين*، أفقر دور في التاريخ، الطبعة الثانية، 2001، ص. 450-451.

²R. Assaraf, *Une certaine Histoire des Juifs du Maroc ...*, op. cit, p. 518.

³Ibid, p. 516.

⁴J. Tolédano, *Portrait ...*, op.cit, p. 306.

⁵Shlomo Sand, *Comment j'ai cessé d'être Juif*, Flammarion, 2013, p. 65.

⁶A. Lévy, op. cit, p. 134.

⁷زار الدكتور شلومو أ. ناخون، عضو قسم التنظيم التابع للحركة الصهيونية، المغرب عشية قيام دولة إسرائيل، في محاولة لمعرفة مدى تأهيل يهود المغرب للهجرة والاستيعاب في الاستيطان الجديد بفلسطين. وميز التقرير الذي قدمه للمؤسسات المركزية الصهيونية بين الرابطة التقليدية بفلسطين والرغبة القوية للهجرة وهذا كان طابعا مميزا لأغلبية يهود المغرب، وبين الانحياز الفكري مع الحركة الصهيونية والاستعداد للاشتراك في التنظيم الصهيوني وهذا كان طابعا مميزا لأقلية من يهود المغرب، ومما جاء في هذا التقرير: "...إذا قصدنا بكلمة الصهيونية محبة فلسطين والشوق لصهيون، فإن كل يهود المغرب سيكونون صهيونيين، وإذا قصدنا بكلمة الصهيونية التأهيل الروحي الثقافي والمهني لبدء حياة جديدة في فلسطين، حينئذ نستطيع أن نقول إنه ما زال يوجد الكثير لنفعله..." وهو هنا يشترط أن نجاح استيعاب يهود المغرب في فلسطين يرتبط بمدى تأهيلهم لاستيعاب الفكر الصهيوني السياسي (لكن هذا لم يتحقق إلا لفئة محدودة)، بينما كان اشتراك معظم أبناء الجاليات اليهودية في المغرب في التنظيم الصهيوني، نابعا من نظرتهم للصهيونية على أنها حركة هجرة، وليست حركة أيديولوجية قومية سياسية". أحمد الشحات هيكال، *يهود المغرب تاريخهم وعلاقتهم بالحركة الصهيونية*...، مرجع سابق، ص. 77.

وذلك وفق ما جاء في الدعوة التي تم نشرها بجريدة الرأي العام الوطني لسان حال حزب الشورى والاستقلال، والتي جاء فيها:

"أنت أيها النبيل المغربي، يجب أن تعي بأن قيامك بالمناجزة مع الصهيوني فإنك تساهم بذلك في تدمير بيت عربي بفلسطين... لا تشتري الأدوية من صيدلية اليهودي، ولا تعالج نفسك لدى الصهيوني، ولا تعطي ثوبك للخياط الصهيوني، ولا تحلق شعرك عند حلاق صهيوني، ولا تلتقط صورة لك عند مصور صهيوني، ولا تتركب حافلة صهيونية، ولا تشغل صهيونيا، وتذكر بأن كل يهودي هو داعم لصهيون"¹.

أمام تصاعد حدة التوتر، قام السلطان في إطار ما يمليه عليه منصبه دينيا وسياسيا، بالتعبير عن موقفه من الأحداث العنيفة بفلسطين، بسبب ما أعقب قرار إعلان قيام إسرائيل، على أمل أن يتمكن من دفع رعاياه إلى الالتزام بالسلم الأهلي، وفي هذا الإطار تم تعميم إحدى كلماته التوجيهية التي قرأت في المساجد والبيع كما تناقلتها العديد من الصحف، وتم بثها عدة مرات على موجات الراديو وذلك بأمر من الإقامة العامة²، عبر من خلالها عن موقفه المناصر للقضية العربية وشجبه للصهيونية، وقد جاء فيها:

"الحمد لله وحده.

شعبنا الكريم.

إننا بما خولنا الله جلّت قدرته وتعالى شأنه من النظر في أمركم والسهر على مصالحكم نوجه إليكم هذا البلاغ لتعملوا به وتتوقفوا عند حده.

مند بضعة أيام اشتعلت نار الحرب في أرض فلسطين المقدسة، بعد أن يؤس العرب من إقناع الصهاينة بالعدول عن فكرة الاستيلاء على تلك البلاد وإخراج أهلها منها، فاضطرت دول الجامعة العربية للدخول إلى أرض فلسطين المقدسة دفاعا عن أهلها ودرءا لعدوان الصهيونية المعتدية.

ونحن إذ نعلن اتفاقنا التام فكرة وقلبا مع ملوك العرب ورؤساء دوله الأمجاد كما أشعرناهم بذلك تؤيد ما صرحوا به من أن العرب لا يضمرون لليهود سوءا ولا ينوون لهم عدا، وإنما غايتهم الدفاع عن القبلّة الأولى للإسلام وتثبيت السلم والعدل في الأراضي المقدسة مع بقاء اليهود على حالتهم المعهودة منذ الفتح الإسلامي.

لهذا نأمر رعايانا المسلمين ألا يحملهم ما قام به اليهود ضد إخوانهم العرب بفلسطين على القيام بأي عمل يخل بالنظام أو يؤدي إلى تعكير صفو الأمن والسكينة، ويجب عليهم أن يعرفوا أن اليهود المغاربة الذين استوطنوا هذه البلاد منذ قرون تحت الذمة فوجدوا فيها أحسن مئوى وأخلصوا كل

¹J. Tolédano, *Portrait ...*, op.cit, p. 307.

²R. Assaraf, *Une certaine Histoire des Juifs du Maroc ...*, op. cit, p. 521.

الإخلاص للعرش العلوي المغربي، هم غير اليهود المتشردين الذين قصدوا فلسطين من مختلف أقطار المعمور وأرادوا أن يستولوا عليها ظلماً وعدوان. كما نأمر رعايانا اليهود أن لا ينسوا أنهم مغاربة تشملهم رعايتنا وقد وجدوا لدينا في مختلف الظروف أحسن مدافع عن مصالحهم وموف بحقوقهم فيجب عليهم أن لا يقوموا بأي عمل فيه تأييد للصهيونيين المعتدين أو تضامن معهم لما في ذلك من المساس بحقوقهم الخاصة والجنسية المغربية.

ونحن على يقين من أنكم أيها المغاربة أجمعون ستلبون نداءنا وتكونون عند حسن ظننا بكم حتى يظل الأمن العام محفوظاً والسلام سائداً لهذا الوطن العزيز، والله تعالى يتولى أمرنا وأمركم وهو نعم المولى ونعم النصير.

14 رجب 1367 الموافق 24 ماي 1948.¹

لقد استُقبل هذا الخطاب بارتياح من طرف جماهير الملاح، لأنهم رأوا فيه ضماناً لاستمرار السلم الأهلي، غير أن النخب اليهودية الأكثر وعياً بمدينة مكناس رأت في مضمون الفقرة الأخيرة منه نوعاً من التهديد المبطن، خصوصاً وأن ذاكرة يهود هذه المدينة بشكل خاص، ظلت موشومة بالاعتداءات الكثيرة التي تعرضوا لها قبيل وخلال فترة الحماية الفرنسية. ولذلك فقد بذلت النخب اليهودية كل ما في وسعها من مساعي لإلزام إخوانهم في الدين بتفادي القيام بتظاهرات عمومية مساندة للصهيونية². وخلافاً لذلك، عمدت العناصر المتصهينة إلى تشويه خطاب الملك على مستوى الصياغة والتأويل حتى يفيد معنى التحريض، ومن ذلك ما ورد في نص عريضة بعثت بها هيئة تدعى العصبة الدولية من أجل الدفاع عن يهود الدول العربية، جاء فيها ما يلي:

"إن وضعية اليهود المغاربة سيئة للغاية. وهي وضعية كانت دائماً كذلك، إلا أنها ازدادت سوءاً منذ أن اقتحمت القضية الفلسطينية مجال العلاقات الدولية [...] إن سلطات الحماية سمحت لسلطان هذا البلد بالإدلاء بتصريح غير مسؤول، وهو أمر يتنافى والالتزامات التي قطعتها فرنسا على نفسها في مؤتمر الجزيرة الخضراء (1906). إن الالتزامات الدولية تفرض عليها أن تكون صارمة فيما يخص تصريحات السلطان. فهذا الأخير وجه إلى الشعب خطاباً صرح فيه بالحرف "أنتم، أيها اليهود المغاربة، اعلّموا أنه لا شأن لكم بالصهاينة، لأن هؤلاء مشردون أوروبيين، وإن كل مظهر للتعاطف معهم يعتبر خطأ فادحاً. أما أنتم أيها المسلمون، فإنني أتفهم جيداً غضبكم ورغبتكم في نجدة إخوانكم في جامعة الدول العربية."³

¹ خطب صاحب الجلالة الملك محمد الخامس، الرباط، إعداد ونشر وزارة الإعلام، المجلد الأول، ص. 303-304.

² J. Tolédano, *Portrait ...*, op.cit, p. 307.

³ محمد حاتمي، الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية وهران المغرب المستقل...، مرجع سابق، هامش رقم 02، ص. 215.

ورغم توتر الأجواء خلال هذه الفترة، فقد نجحت النخب اليهودية بمكناس في إلزام إخوانها في الدين بالتزام الهدوء، وإن ظلت مكتوفة الأيدي أمام تصاعد الهجرة السرية باتجاه الدولة الجديدة إسرائيل، في ظل استمرار سلطات الحماية في رفض منح تأشيرات الهجرة إلى فلسطين، الأمر الذي لم يترك للراغبين في مغادرة المدينة إلا خيار الهجرة السرية من خلال مساعدة أبرهام بنسيمون الذي اختص في توفير جوازات السفر المزورة¹. غير أن الشرطة الفرنسية بمكناس تمكنت من كشف المهربين الذين كانوا يشرفون على تنسيق عمليات الهجرة ليلا عبر الشاحنات باتجاه الحدود الجزائرية²، وهما رفايل بنسيمون وسيدي طوليدانو اللذين اضطرا لمغادرة المغرب هروبا من عقوبة السجن³.

وهكذا فخلال الفترة ما بين 13 ماي و 7 يونيو سنة 1948، وفي ظرف أسبوع، تمكنت سلطات الحماية بالقرب من مدينة وجدة من اعتراض سبيل 77 مرشحا للهجرة. وأمام عدم قدرتها على السيطرة على العدد الكبير من المرشحين للهجرة السرية كانت شرطة الحدود تكتفي بإرجاعهم إلى مسقط رأسهم دون أن تحرر محاضر في حقهم، وهو ما دفع الشباب المناضلين في صفوف حزب الاستقلال بوجدة إلى محاولة تقديم "المساعدة" لشرطة الحدود عبر تنظيم دوريات قامت بتفتيش جميع القطارات القادمة إلى وجدة، وإلقاء القبض على اليهود وتقديمهم للشرطة⁴، لأن غالبية المسلمين في المنطقة الشرقية اعتبروا "فرار" اليهود نحو فلسطين نشاطا تخريبيا ومعاديا⁵.

وبما أن المنطقة الشرقية كانت قد توفرت فيها كل أسباب التوتر والغضب الشعبي⁶، فقد أدى كل ذلك* إلى سقوط العديد من الضحايا اليهود بكل من وجدة وجريدة، وهي الأحداث التي ساهمت بشكل كبير ومباشر في الدفع بالعديد من اليهود إلى الهجرة، أو على الأقل في التفكير في الأمر بجدية أكثر. لقد بدا واضحا أن الحماية الفرنسية غير كافية، وأن تنامي الشعور الوطني لدى المسلمين سيؤدي لا محالة إلى وضعهم في أول لائحة الأهداف

¹J. Tolédano, *Le temps du Mellah...*, op. cit, p. 303.

²*"لقد أصبحت مدينة وجدة مركزا مهما للهجرة انطلاقا من مايو 1948، فالمرشحون يصلونها بعد سفر في مراحل أولى محطات هي مدينة فاس التي شددت خطط التهرب على ضرورة النزول بها وعدم متابعة الرحلة عبر القطار لتفادي فرق للتفتيش خاصة تابعة لمصالح الأمن تقوم منهجيا بالتحقيق مع المسافرين اليهود وملاحقتهم. ويتم الاجتماع في أحد مقاهي ملاح المدينة القديمة حيث تتكفل بهم مجموعة من الأطر المحلية فترشدتهم إلى ما يجب القيام به في المراحل المقبلة لتفادي تعقيدات رجال الأمن واستفزازات المسلمين. وبعد ساعات، يستقل المرشحون ما أمكنهم من وسائل النقل المختلفة (سيارات وشاحنات) في اتجاه شرق المغرب. وتستغرق هذه العملية في غالب الأحيان مدة طويلة لتفادي الحواجز الأمنية لرجال الدرك والدوريات العسكرية. ويتوجه المرشحون إلى البيعة المركزية فور الوصول إلى مدينة وجدة التي أضحت حسب تقرير للكاتب العام للحماية (لاكوست) نقطة العبور الرئيسية لليهود الشباب المتحمسين والراغبين في الالتحاق "بالقوات المحاربة في فلسطين". محمد حاتمي، *الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية وهران المغرب المستقل*...، مرجع سابق، ص. 263.

³J. Tolédano, *Portrait ...*, op.cit, pp. 307-308.

⁴R. Assaraf, *Une certaine Histoire des Juifs du Maroc ...*, op. cit, p. 521.

⁵محمد حاتمي، *الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية وهران المغرب المستقل*...، مرجع سابق، ص. 242.

⁶"يمكن الجزم بتعدد مصادر الغضب الشعبي التي تراكت مظاهرها خلال مدة طويلة، وتفجرت في شكل تمرد عفوي وجماعي استهدف الفئات الأقل حماية لأنها غير قادرة على الدفاع عن نفسها، ولأن الاعتقاد أضحى سائدا منذ ضبط العديد من اليهود الراغبين في الهجرة إلى فلسطين عبر الطريق الشرقية، هو أن كل يهودي صهيوني كامن بالقوة ويستوجب محاربته ومنعه من إلحاق الضرر بالمسلمين. ويؤكد هذا الطرح كون اليهود استهدفوا في أرواحهم، في حين لم يتعرض الغاضبون لأي رمز من رموز الدين اليهودي حيث لم تندس بيعة ولا مقبرة". محمد حاتمي، *الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية وهران المغرب المستقل*...، مرجع سابق، ص. 248.

*كما سبق وأوضحنا ذلك بالتفصيل في المحور الأول من الفصل الثاني.

التي يستهدفها أعداء فرنسا¹. لقد ساهمت الأحداث الدامية التي راح ضحيتها اليهود بكل من وجدة وجردة سنة 1948 في تعاظم مخاوف أفراد الجماعة اليهودية بمكناس² وباقي يهود المغرب ككل. ومن نتائج ذلك أن اتخذت الهجرة انطلاقاً من هذا التاريخ طابعا جماعيا، حيث تجاوز عدد من توجه صوب فلسطين 9000 شخص خلال الشهور الأخيرة من سنة 1948. عندئذ انتبعت سلطات الحماية إلى أن زمن ما كانت تعتبره هجرة "عفوية" قد ولى، وأنها بحق أمام حركة متنامية لها مضاعفات سلبية على التوازنات السياسية والاقتصادية والديموقراطية، ومن شأنها إثارة ردود فعل عنيفة من جانب الأغلبية المسلمة، ووجدت الإدارة المركزية نفسها مضطرة لاتخاذ مجموعة من الإجراءات الأمنية لترصد تحركات المشبوه فيهم من اليهود والحيلولة دون أن تتخذ الظاهرة أبعادا اجتماعية وجماعية³.

ومن أعراض الخوف التي سيطرت على يهود مكناس بعد هذه الأحداث، استمرار محاولات الهجرة السرية من دون توقف، بالرغم من مراقبة السلطات الفرنسية للحدود، وبالرغم من عشرات الموقوفين الذين كانت سلطات الحماية تعيدهم إلى مسقط رأسهم، كما حدث في شهر غشت سنة 1948 مع الإسكافي شالوم كالفون/ Shalom kalfon المنحدر من مكناس، والذي تم إلقاء القبض عليه وإعادته إلى مدينته الأصلية. نفس الأمر حدث في شهر أكتوبر مع كل من إيلي بنشلوش/ Elie Benshloush وجوزيف مويال/ Joseph Moyal ودافيد طوليدانو/ David Tolédano. نفس المصير واجهه في شهر دجنبر كل من جوزيف فهمات/ Joseph Fhimat ويعقوب وفرتيني فيديدا/ Yaacob et fortunée Fédida وغارسيا كوهن/ Garcia Cohen⁴. وقد حرصت سلطات على مطالبة العائدين بالتكتم واختلاق الأكاذيب لتبرير غيابهم المؤقت وعودتهم غير المنتظرة⁵.

بالمجمل، لقد بلغ عدد من أوقفتهم سلطات الحماية بالمغرب ككل، وأعادتهم إلى ديارهم سنة 1947، 239 شخصا، وانتقل العدد إلى 347 خلال الأشهر الستة الأخيرة من سنة 1948⁶. ولعل الملابس العامة تدفعنا إلى القول أن تشدد سلطات الحماية في مراقبة الهجرة السرية، أو على الأقل سعيها للتقليص من حدوثها خلال هذه المرحلة، يعود إلى حرصها على الحيلولة دون تسببها في إثارة ردود فعل من طرف القوى السياسية الوطنية، بشكل

¹ نفسه، ص 251.

² "خصوصا وأنهم قد تعودوا على الهزات الارتدادية لمثل هذه الأحداث، فانتابهم الخوف من تمدد العنف لمختلف مناطق البلاد. لكن لحسن حظهم لم يحدث شيء من ذلك. وبالمقابل قام باشا مكناس بدعوة أعيان الجماعة اليهودية إلى عقد اجتماع عاجل يدعوهم فيه إلى ضرورة تفادي القيام بأية تظاهرة يمكن أن تفيد تعاطفهم مع إخوانهم في الدين، لكن أحد الأعيان اليهود امتلك ما يكفي من الشجاعة والجرأة ليتوجه للباشا قائلا: " كنا نعتقد بأنك دعوتنا من أجل أن تقدم لنا التعازي في الضحايا الذين سقطوا بمدينة وجدة، ولكن ها أنت تتوجه لنا بالتحذيرات...!".

R. Assaraf, *Eléments ...*, op. cit, p. 273.

³ محمد حاتمي، *الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية وهران المغرب المستقل...*، مرجع سابق، ص. 258.

⁴ J. Tolédano, *Portrait ...*, op.cit, 308.

⁵ محمد حاتمي، *الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية وهران المغرب المستقل...*، مرجع سابق، ص. 266.

⁶ J. Tolédano, *Portrait ...*, op. cit, p. 308.

يمكن أن يؤدي إلى حصول تطورات سياسية ومادية يمكن أن تلحق ضررا بالتواجد الفرنسي بالمغرب في حال اتهامها بالتواطؤ، فضلا عما يمكن أن يلحق بالجماعات اليهودية المغربية من أحداث عنف. لذلك سيقوم المقيم العام الجنرال جوان بمراسلة يوم 7 غشت 1948، ببعث رسالة إلى رؤساء المناطق والمسؤولين العسكريين والمدنيين قصد تحذيرهم من مضاعفات تفشي الإشاعات بخصوص الهجرة السرية جاء فيها:

"أثير انتباهكم إلى تنامي وتيرة الهجرة اليهودية في اتجاه فلسطين. ويبدو أن الرأي العام المسلم أصابه توتر في الموضوع من جديد، فالعديد من الأقاويل تردد أن الرابين يباركون المهاجرين على أرصفة محطات القطار، وأن شابات يهوديات تتهيأن للرحيل قصد تأسيس أسر فوق أرض إسرائيل، وأن سلطات المراقبة تغض النظر عن هذه التصرفات وتمكن اليهود من المستندات القانونية للرحيل [...] وأظن أن العديد من هذه الإشاعات لها ما يبررها وانتشارها سيكون له من دون شك مضاعفات سيئة. وعليه، يلزمكم اتخاذ التدابير في حدود القانون لمنع هذه الهجرة التي تشير العديد من المؤشرات إلى أنها في تصاعد [...] ويستوجب عليكم لتحقيق غايتنا، دراسة جميع الطلبات التي يتقدم بها يهود مغاربة يرغبون في الحصول على جوازات سفر، خاصة حين يتعلق الأمر بالذهاب إلى فرنسا. ولكم الحق في رفض طلبات جميع من تعتبرونهم لا يتوفرون على الضمانات اللازمة، أو من تعتقدون أن في نيتهم الإبحار نحو الأرض المقدسة [...] ليس في نيتنا الحيلولة دون تطبيق مبدأ الحق التنقل بالنسبة لليهود، أنتم مطالبون بتسهيل الأسفار التي تستجيب لقضاء حاجيات اقتصادية أو صحية أو حتى لأغراض شخصية."¹

وفي 21 أكتوبر 1948 جدد المقيم العام جوان نفس التنبيه لرؤساء الجهات، حرصا منه على عدم حدوث هزات ارتدادية عنيفة ضد اليهود يمكن أن تخلق متاعب سياسية لسلطات الحماية²، في وقت كانت فيه العلاقات متوترة بين المقيم العام جوان (1947-1951) والسلطان محمد بن يوسف، بشكل أدى لاحقا إلى اعتماد هذا الأخير لما نُعت بإضراب الطابع La grève du sceau، أي رفض التوقيع على الظهائر³.

¹ محمد حاتمي، **الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب...**، مرجع سابق، هامش رقم 03، ص. 258.
² "منذ ما يقرب الشهر، لاحظنا ارتفاعا في وتيرة الهجرة السرية التي يقدم عليها شباب متطوعون راغبون في الذهاب إلى فلسطين، منجذبين وراء دعاية قوية تقوم بها عناصر صهيونية. والأكيد أن المسلمين على علم بالظاهرة وهي تثير مشاعرهم. ويزيد من خنقهم مشهد عودة العناصر التي تم ضبطها على الحدود الشرقية وأجبرت على العودة إلى ديارها. وهذا الشعور الذي ينتاب المسلمين من شأنه أن ينفجر في يوم من الأيام فيكون مصدر أحداث عنيفة. وعليه، يشرفني أن اطلب منكم استدعاء رؤساء المجالس اليهودية وتنبيههم إلى المضاعفات الخطيرة جدا التي يمكن أن تنتج من جراء تطور الدعاية الصهيونية Mystique sioniste، ووضعهم أمام مسؤولياتهم وتحذيرهم من المخاطر التي يمكن أن تنتج عن مواقفهم السلبية، وهي مخاطر تستهدف جماعاتهم بالدرجة الأولى." محمد حاتمي، **الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية وهران المغرب المستقل...**، مرجع سابق، ص. 259.

³ B, Lugan, op. cit, p. 278-279.

يتضح من خلال ما تطرقنا إليه آنفاً، أن الإعلان عن قيام دولة إسرائيل لم يكن كافياً لإقناع سلطات الإقامة العامة بمنح الشرعية القانونية للهجرة نحو الدولة الجديدة، متذرة باستمرار حالة الحرب هناك. ومن ثم ظلت الإمكانيات القانونية الوحيدة المتاحة للهجرة هي الحصول على تأشيرة السياحة إلى فرنسا، والتي كانت تمنح بتقدير شديد، بشكل جعل عدد المستفيدين منها يقتصر على أقلية صغيرة. أما بالنسبة للآخرين فقد كانوا يضطرون إلى الاستعانة بخدمات الوسطاء الذين كانوا يستثمرون علاقاتهم مع الإدارة التي كانت غالباً مرتشية، حتى يتمكنوا من الحصول على جوازات السفر والتأشيرات المرغوب فيها¹.

صورة رقم 36: عائلة يهودية بباريس سنة 1948، في الطريق إلى إسرائيل



Source : David Cohen, *Passion...*, op. cit. p. 116-117.

¹J. Tolédano, *Portrait ...*, op. cit, p. 309.

كان منح بعض تأشيرات الهجرة ابتداء من هذه الفترة قد تم في إطار تحييد سلطات الحماية الفرنسية للهجرة "الرسمية"، أي تلك التي تمر عبر القنوات الإدارية العادية لامتلاكها ما يكفي من الوسائل القانونية والأدوات الميدانية التي تضمن مراقبتها وضبطها ومنعها عند اقتضاء الحاجة. كما لم يفت السلطات الإدارية للحماية الانتباه إلى أن هذه القناة تشكل بحق طريقة ذكية للهجرة نحو فلسطين، لأنها تمكن المستفيدين منها من المرور عبر التراب الفرنسي بشكل يضمن لهم هجرة قانونية صوب أرض الميعاد بشكل يجعل السلطات البريطانية عاجزة قانونيا عن صدهم لأن هجرتهم ليست جماعية¹. لقد مثل الشباب المتعلمون المسجلون في مراكز التكوين المهني والمدارس الفلاحية الدينية نسبة مهمة ممن تقدموا بطلبات الإقامة في فرنسا. وبناء عليه، فقد تمكن العديد من يهود مكناس من الهجرة عبر هذه الطريقة، ومن بينهم أطفال أبرهام كوهن الذي كان أول من بنى بيتا بالملاح الجديد. وفي شهر يوليو سنة 1948، والحرب بين العرب والإسرائيليين لم تضع بعد أوزارها، ووضع الدولة الجديدة لم يكن قد توضح بعد، قام إسحاق كوهن أحد كبار الأعيان اليهود بمكناس رفقة أخيه الأصغر دافيد بالانتقال إلى فرنسا رفقة عائلاتهم بما مجموعه 16 فردا، بينما قرر إخوانهم الآخرون الالتحاق بهم لاحقا بعد تصفية ممتلكاتهم. ويوضح جوزيف طوليدانو أن المرشحين للهجرة ووجوهو بباريس باستغراب القنصل الإسرائيلي جراء طلبهم التأشيرة السياحية، حيث تعاطى مع هذا الأمر بنوع من التعالي. غير أنه اضطر إلى منحهم تأشيرتين متمنيا لهم حظا سعيدا، فتمكنوا بذلك من الوصول إلى حيفا على حسابهم الخاص مطلع شهر غشت سنة 1948. طريقة تعامل القنصل معهم عبر عنها الأخ الأكبر متوجها بالكلام إلى الأخ الأصغر قائلا: "أرأيت !، إنهم لا يريدون قدوم اليهود المغاربة إلى البلد"². موقف يمكن رده إلى الصورة السلبية التي كانت لدى اليهود الأشكناز حول المغاربة اليهود، ذلك أنهم ظلوا ينظرون إليهم بنوع من الازدراء، لدرجة أن دافيد بن غريون أعلن أنه لا يريد للثقافة المغربية أن يكون لها تواجد بإسرائيل³، وهو الأمر الذي أدى إلى ظهور ما سمي "المسألة الإثنية" داخل الرأي العام الإسرائيلي⁴، بعدما استقبلت إسرائيل -بعد قيامها

¹ محمد حاتمي، الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية وهران المغرب المستقل...، مرجع سابق، ص. 259-260.

² J. Tolédano, *Portrait ...*, op.cit, p. 309.

³ Sh. Sand, *op. cit*, p. 67.

⁴ "تعود أسباب هذا المشكل إلى الاختلافات الحضارية والتباينات في القيم للأقليات اليهودية عبر العالم. فكل طائفة تطورت في محيط خاص، وتأثرت بتاريخ المجتمع الذي عاشت فيه وكانت في غالب الأحيان طرفا في صنعه وحبك حلقات تطوره. وكان من الطبيعي أن تنمي حسا خاصا بها وتجتهد في التميز عن مثيلاتها حين الانتقال إلى بلد جديد يغلب عليه الاختلاف، وأن تعتبر من الواجب الأخلاقي و"الديني" الحفاظ على هويتها وصقلها وفرضها إذا اقتضى الأمر ذلك. وبالنظر إلى الاختلافات الكبيرة بين يهود أوروبا المهيمنين على البيشوف ويهود المغرب -وهو اختلاف صارخ في العقلية وطرق التعامل بل وحتى في بعض طرق القيام بالعبادات الأساسية-، وكان من الطبيعي أن يلجأ المغاربة إلى الانغلاق على أنفسهم وتطوير آليات جديدة للدفاع عن مميزاتهم، وهي ردة فعل جعلت التعامل معهم أمرا صعبا وإدماجهم في المجتمع الصهيوني عملية أصعب، خاصة وأنهم على العكس من مواطنيهم الأوروبيين، لم يحسوا بعقدة الهولوكوست وكانت درجة إيمانهم بالإيديولوجية الصهيونية ضعيفة، بل ومنعدمة في أغلب الأحيان. وتمخض عن هذا التباين اعتبار الأغلبية الأشكنازية لليهود المغرب متخلفين وعاجزين عن مجارات التطور السريع الذي يشهده البيشوف الصهيوني، فراكمت رصيدا "عنصريا" موجها ضد يهود الشرق عموما، ويهود المغرب خصوصا. وشكل هذا الموضوع لعقود (حتى تاريخ فوز حزب الليكود اليميني بزعامة مناحيم بيغن في انتخابات 1977) أحد أهم المواضيع الحساسة، إلى درجة أن العديد من الملاحظين اعتبروه مشكل إسرائيل الثاني مباشرة بعد الصراع ضد العرب). ولتوضيح معالم الصورة التي كونها الأشكناز عن يهود المغرب، نورد فقرة من مقال نشرته يومية هاريتس بتاريخ 22 أبريل 1949، لصحفي معروف هو أرييه جيلبروم Arieh Gelbrum، جاء فيه: "نحن أمام شعب بدائي وفق جميع المعايير، وهو الأمر الذي يجعلهم عاجزين على فهم آتفه المسائل الروحية [...] إنهم يفتقدون كذلك للأصول اليهودية. وفي المقالان نجدهم منساقين بشكل غريب نحو

سنة 1948- على مراحل، مئات الآلاف من يهود البلاد الإسلامية، وهو الأمر الذي أشعل التنافس الحاد بين الجماعات الثقافية المتعددة، وخلق صراعا طائفيا بين "الأشكينايزم" (مؤسسي الدولة) و"السفاراديم" (إسرائيل الثانية)¹، كما أدى إلى حدوث تمزقات اجتماعية وأزمات نفسية حادة خصوصا في صفوف الشباب المغاربة المفصولين عن ذويهم بسبب الاغتراب الذي عانوا منه داخل مجتمع غير منسجم اجتماعيا². في قلب هذا السياق قرر بروسبير كوهن الرئيس السابق للفدرالية الصهيونية المغربية اتخاذ قرار الهجرة نحو "إسرائيل"، حيث حل بحفيا في 13 نونبر من سنة 1948 (التحقت به زوجته وابنته شهورا بعد ذلك)، ظنا منه بأن تجربته الكبيرة في النشاط الصهيوني بالمغرب، والتي أسعفته في تحصيل معرفة كبيرة بعقلية المغاربة اليهود، ستدفع بالمسؤولين عن الدولة الجديدة إلى الترحيب به وتمكينه من احتلال موقع مهم في أفق قيامه بالمساهمة في تسريع إدماج يهود شمال إفريقيا في النسيج اليهودي للدولة الجديدة، خصوصا وأنه كان متمكنا من اللغتين الأساسيتين للمهاجرين المغاربة. غير أنه لا شيء تحقق مما كان يتطلع إليه، لأنه اختار الانضمام لحزب "حيروت" المعارض فور وصوله إلى إسرائيل، وهو ما أدى إلى بقاءه على الهامش، ومن ثم عدم تمكنه من النجاح في تحقيق مسار سياسي ناجح وفق ما كان يتوقع، الأمر الذي دفع به في نهاية المطاف إلى العودة إلى "حبه" القديم وهو مزاول مهنة التعليم³. وفي بداية سنة 1949 ستنتقل عدوى الهجرة إلى أفراد من الطبقة المتوسطة ليهود مكناس، كما حصل مع كل من عائلة أزرد، وطوليدانو، والصباغ⁴.

ابتداء من هذه المرحلة (بعد 1948) أصبح موضوع الهجرة اليهودية مثار نقاش داخل دوائر اتخاذ القرار في إدارة الحماية. التيار الأول الذي ضم مجموعة صغيرة من المدنيين وبعض العسكريين ممن شاركوا إبان الحرب في المقاومة ضد النازية، رأوا أنه من غير المعقول منع من يريدون الهجرة إلى فلسطين، شريطة ألا يأخذ رحيلهم شكلا جماعيا.

الأمر الغرائزي والشهوات [...] فهم يشكلون النسبة الكبرى في أوساط اللصوص والمقامرين والمدمنين على الكحول والمتعاطين للدعارة [...] ويشكو العديد منهم من أمراض مضمنية كالرمد وسوء التغذية والخبائث الجنسية [...] إنهم عاجزون عن القيام بعمل بناء يمكن الاستفادة منه، ولم نجن نحن الإسرائيليون من مقامهم بيننا سوى ارتفاع نسبة الجريمة [...] وهناك مسألة لا تقل أهمية من الحقائق التي سبق ذكرها، وهي افتقارهم بالكامل للمقومات اللازمة للتأقلم مع نمط العيش الإسرائيلي، أساسا بسبب تأصل روح الكسل فيهم ومقتهم للعمل". محمد حاتمي، **الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية ورهان المغرب المستقل**...، مرجع سابق، ص. 268.

1. رشاد عبد الله الشامي، **إشكالية الهوية في إسرائيل**، عالم المعرفة، العدد 224، الكويت، 1997، ص. 15.
2. "وفق ما جاء في تقرير أعدته هيدا غروسمان التي كلفت بدراسة احتياجات وتقييم حالة اليهود الشباب المنحدرين من المغرب فقد انتهت إلى أن: هؤلاء الشباب ينتمون جميعا إلى عائلات كبيرة، وترتب عن رحيلهم عن وطنهم الأصلي تقليص أو انقطاع أواصرهم العائلية. وكانت تستتب بهم أحيانا مشاعر الحنين للبلد والتساؤل عن أحوال ذويهم. وقد اتخذ الأمر في البداية شكل أزمات نفسية حادة في شكل نوبات هستيرية والصراخ والبكاء خلال الليل. وبعض الشباب كانوا مترننين وأكثر رصانة، ولكن معاناتهم كانت شديدة فغلب عليهم التوتر والعوانية... وبعد فترة قصيرة، وجد العديد منهم السلوان... فيأتوا يعتبرون أصدقائهم من ذويهم، فينادون بالأخ والأخت ويعتبرون مؤطريهم آبائهم، وبعض تصرفاتهم تجاه الأصدقاء كانت أقرب إلى الممارسات الجنسية المثلية، وهو ما يمكن رده إلى أصولهم بالنظر إلى طبيعة العلاقات بين الجنسين المترسخة داخل هذه الجماعة... والواقع أن سلوكياتهم خلقت مشاكل عويصة منذ وصولهم إلى إسرائيل خاصة وأن عدد الفتيات قليل جدا مقارنة بعدد الفتيان الذكور... فداخل مجموعتنا توجد فتاة واحدة...". روبرير أصراف، **يهود المغرب عبر العالم الهجرة والهوية المستعادة**...، مرجع سابق، ص. 142.

³J. Tolédano, **Portrait ...**, op.cit, pp. 309-310.

⁴Ibid, p. 310.

في المقابل، وُجد في المركز والأقاليم تيار قوي له وسائل ضغط مهمة تعارض مبدئيا الهجرة الجماعية، لأنها تحتل الرفع من درجة التوتر بين اليهود والمسلمين وتسيء بشكل مباشر للوجود الفرنسي في المغرب¹.

وبصرف النظر عن خلاف التيارين المذكورين، حصل لدى إدارة الحماية اقتناع باستحالة وضع حد للهجرة السرية²، لاسيما وقد وجدت في اتفاق الرأيين حول الموقف من هجرة يهود "البلاد الفقراء" السند البرغماتي للدخول في التفاوض مع ممثلي المنظمات اليهودية العالمية حول موضوع الهجرة³، في أفق البحث عن صيغة لتنظيمها بشكل قانوني. وبناء عليه، وفي شهر مارس من سنة 1949 استقبل المقيم العام جوان، جاك غروشي/Jacues Guerszuni⁴، الذي قدم نفسه باعتباره مندوب الوكالة اليهودية في فرنسا، وهو في الحقيقة أحد الشخصيات المقربة من رئيس جهاز الموساد للهجرة بفرنسا، وأحد الناشطين البارزين في الاتحاد الصهيوني الفرنسي⁵. في هذا اللقاء الذي تم في الرباط أبدى المقيم العام اقتناعه بأن الوكالة اليهودية هي الجهة الوحيدة التي ستتكلف بتنظيم الهجرة، على أن يتم ذلك بسرية وفعالية⁶، وبناء عليه اتفق الطرفان على المبادئ الرئيسية لبرنامج الهجرة الجديد الذي سيضع نهاية للهجرة غير الشرعية من المغرب. كما التزم الطرفان بإحاطة مضمون الاتفاقية بالسرية التامة⁷. وقد نصت الاتفاقية على إقامة مكتب خاص للوكالة اليهودية في الدار البيضاء لرعاية شؤون المهاجرين، سيعمل تحت غطاء انشغاله بتقديم الخدمات الاجتماعية لليهود. وفي أبريل 1949، تم افتتاح مكتب تنظيم شؤون الهجرة اليهودية في المغرب الذي عرف باسم كاديفا/ إلى الأمام، والذي استمر قائما حتى سنة 1956⁸. وقبل أن يغادر جاك غروشي الدار البيضاء كتب تقريرا مفصلا عرض فيه بتدقيق أهم نقاط النقاش وبعث بنسخة منه إلى المقيم العام، وفيما يلي أهم النقاط التي جاءت فيه:

✓ أولا: وضع حد للهجرة غير المنظمة إذ آن الأوان لتضع الوكالة اليهودية الترتيبات اللازمة لتنظيم هجرة اليهود المغاربة نحو إسرائيل بشكل عقلائي.

¹ محمد حاتمي، الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية وهران المغرب المستقل...، مرجع سابق، ص. 269.

² R. Assaraf, *Une certaine Histoire des Juifs du Maroc* ..., op. cit, p. 533.

³ محمد حاتمي، الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية وهران المغرب المستقل...، مرجع سابق، ص. 270.

⁴ R. Assaraf, *Une certaine Histoire des Juifs du Maroc 1860-1999*..., op. cit, p. 534.

⁵ أحمد الشحات هيك، يهود المغرب تاريخهم وعلاقتهم بالحركة الصهيونية...، مرجع سابق ص. 95.

⁶ R. Assaraf, *Une certaine Histoire des Juifs du Maroc* ..., op. cit, p. 534.

⁷ "وذكرت الوثيقة بحرص إدارة الإقامة العامة على أن يظل الاتفاق سريا محاطا بجميع الضمانات التي تجعله من أسرار الدولة، وإصرارها على أحقيتها لوحدها في التقرير حيث لا يقل تدخل أية جهة ثالثة، بما فيها الحكومة الفرنسية نفسها. وبرر جوان هذا الشرط بحرص سلطات الحماية على صيانة علاقتها مع السلطان والسلطات المخزنية لأنه ليس في مصلحتها تماما التفريط في ثقة العاهل المغربي أو حتى وضعها في موقف حرج" ولو كان بسيطا. "محمد حاتمي، الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب...، مرجع سابق، ص. 270.

⁸ أحمد الشحات هيك، يهود المغرب تاريخهم وعلاقتهم بالحركة الصهيونية...، مرجع سابق، ص. 96.

✓ ثانيا: العمل على تدعيم النفوذ والإشعاع الفرنسي في المشرق، لأن يهود المغرب سيكونون عاملا للدعاية لفرنسا، وللدور الذي تقوم به.

✓ ثالثا: اختيار المهاجرين، وهذه العملية تستلزم السماح لممثلي الوكالة اليهودية بالحركة داخل البلاد، وإقامة مراكز جهوية تعمل على استقطاب المرشحين وتوجيههم*.

✓ رابعا: خلق مكتب للهجرة في الدار البيضاء، يعمل تحت غطاء جمعية خيرية، وتسييره مجموعة صغيرة من الأطر المتخصصة.

✓ خامسا: التعاون مع إدارة الحماية، لأن تحقيق الوكالة اليهودية أهدافها في المغرب يستوجب مساعدة وتفهم السلطات الفرنسية بالمغرب.

✓ سادسا: مركزة طلبات التأشيرات في الرباط، واعتماد نظام التأشيرات الجماعية¹.

إضافة إلى ذلك، يجب على المرشحين للهجرة التعهد كتابيا بالعمل الزراعي لمدة عامين*، ويستثنى من هذا الشرط أصحاب الحرف، ومن لديهم إمكانيات للإقامة في سكن خاص².

واضح أن تمكن الوكالة اليهودية من إقناع الإقامة العامة باعتماد سياسية ليبرالية في موضوع الهجرة، لم يكن ليتحقق لولا ضغوطات باريس، ذلك أنه من خلال تقصّ قامت به جريدة جويش كرونيكل / Chronicle Jewish اللندنية في ردهات الإقامة العامة بالرباط، نشرته في عددها بتاريخ 14 أكتوبر 1949 توصلت من خلاله إلى ما يلي: "انتباه السلطات الفرنسية إلى تنامي وتيرة الهجرة، ودورها السلبي في إرباك الحياة الاقتصادية للبلاد، دفعها إلى تقديم طلب إلى السلطان بإسقاط الجنسية المغربية عن اليهود المغاربة الذين هاجروا. غير أن السلطان رفض الاستجابة لهذا الطلب قائلا: "إن اليهود أبنائي كما هو الأمر تماما بالنسبة للمسلمين المغاربة. أجدادهم كانوا رعايا أسلافي،

*بالإضافة لمكتب الهجرة الرئيس بالدار البيضاء، كانت توجد أفرع له منتشرة في أوساط الجماعات اليهودية بالمدن الكبرى (مثل: الرباط، وسلا، ومكناس، ومراكش، وفاس، والصويرة، وآسفي)، حيث تسجل فيها أسماء الراغبين في الحصول على تصاريح الهجرة. وكان جهاز "الموساد للهجرة" هو المسؤول عن إدارة منظمة "كاديما" بالتعاون مع مبعوثي الوكالة اليهودية، وذلك حتى مارس 1952، حيث تم حل "الموساد للهجرة"، وتولى "قسم الهجرة" التابع للوكالة اليهودية مهمة إدارة مكتب "كاديما" حتى إغلاقه سنة 1956. كما ضم تنظيم "كاديما" معسكرا انتقاليا في الجديدة/ مزغان، التي تقع جنوب مدينة الدار البيضاء بنحو 90 كلم. وكان مخصصا لاستيعاب مؤقت للمهاجرين الذين قدموا لطلبات للهجرة، واجتازوا الاختبارات المطلوبة. وخلال الفترة (1949-1951) تولت منظمة الجوانت عمليات تمويل نشاط منظمة "كاديما" وتكاليف الانتقال إلى مرسيليا ومنها إلى إسرائيل، ثم انتقلت مسؤولية التمويل بعد ذلك للوكالة اليهودية". أحمد الشحات هيك، يهود المغرب تاريخهم وعلاقتهم بالحركة الصهيونية...، مرجع سابق، ص. 96.

¹R. Assaraf, Une certaine Histoire des Juifs du Maroc 1860-1999..., op. cit, p. 534.

*هذا الأمر هو ما يفسر حرص النشطاء الصهاينة خلال نشاطهم بالمغرب على تهيئة الشباب للعمل في الضيعات الفلاحية. وفي هذا الصدد يوضح محمد كنيبي قائلا: "في سياق إعداد الشباب اليهودي المغربي للهجرة إلى فلسطين حث الصهاينة هؤلاء على التوجه نحو الفلاحة والصناعة، وفتح لهذه الغاية مكتب بمكناس، كما حرصوا على تشغيل شباب أشداء في ضيعات إخوانهم في الدين بسايس قصد تعلم الفلاحة والإعداد بكيفية خاصة لـ "الإكثار من الحقول الخضراء في فلسطين بفضل العمل الجبار لرواد اليشوف (الوطن القومي)". محمد كنيبي، يهود المغرب 1912-1948...

مرجع سابق، ص. 166.

²أحمد الشحات هيك، يهود المغرب تاريخهم وعلاقتهم بالحركة الصهيونية...، مرجع سابق، ص. 99.

وأنا واع تماما بمسؤولياتي اتجاههم. يؤسفني رحيلهم، لكن أشعر بالارتياح حين أعلم أن هنالك يهودا يعودون إلى أرض الوطن، وأقول لهم مرحبا بكم ثانية في وطنكم، إنني أتعامل معهم كما يتعامل أب تاء أبناءه لمدة، ثم عادوا إلى البيت ثانية.¹

مباشرة بعد توقيع الاتفاق بين غروشي والإقامة العامة، ارتفع عدد المهاجرين سنة 1949 ليتجاوز 1000 مهاجر، منهم عدد من العائلات المكناسية التي تنتمي إلى الطبقة المتوسطة، مثل عائلة أزيادو طوليدانو والصباغ وبنحاس طوليدانو، غير أن الصعوبات الاقتصادية خلال هذه الفترة قلصت من هجرة الفئات الغنية والمتوسطة، مقابل عدد أكبر من الفقراء الذين مثلوا الزبناء الأساسيين لهذه الهجرة حتى مطلع الخمسينيات². وخلال الثلاثة أشهر الأولى من سنة 1950 وصل عدد المهاجرين الشرعيين من المغرب 800 شخص، 600 منهم كانوا من مدينة مكناس ونواحيها³، وهي السنة نفسها التي قرر فيها الكنيست الإسرائيلي التصويت على "قانون العودة" الذي يسمح لكل شخص من أصول يهودية بالهجرة إلى إسرائيل، والحصول على الجنسية الإسرائيلية فوراً⁴. وبالرغم من الترخيص القانوني للهجرة من طرف سلطات الحماية، فقد ظل اليهود حريصين على التزام أعلى درجات الحيطة والحذر لتفادي كل ما من شأنه استفزاز المسلمين، ذلك أن السلطات الفرنسية نبهت رؤساء الجماعات اليهودية والربيين من مغبة التساهل في أمور مستحدثة لا تحظى بمباركتها⁵، واستجابة لذلك قام جوزيف بيرديغو رئيس الجماعة اليهودية بمكناس بتوجيه تحذير شديد جدا للنشطاء الصهاينة المحليين، بضرورة التزام الحذر الشديد بمناسبة الاحتفال بالذكرى الثالثة لميلاد إسرائيل في شهر ماي من سنة 1951، لكن المسؤول الصهيوني رحيم بن عمارة لم يلتزم رغم ذلك بالتوجيهات التي تلقاها من جوزيف بيرديغو، حيث قام بمناسبة الاحتفال بأحد المناسبات الدينية برفع العلم الإسرائيلي، وهو الأمر الذي أثار قلق السلطات الفرنسية التي عبرت عن رفضها للأمر، بناء على رسالة من مدير الداخلية إلى رئيس الجهة بمكناس جاء فيها:

"أحيطكم علما بأن مجموعات من الشباب اليهودي بمكناس شوهدت وهي ترتدي قمصانا وقبعات بألوان إسرائيل، وتعلق على صدورهم نياشين لقوات الجيش اليهودي، وهي في شكل زهرة السرمج (Lys) يعلوها شعار "قوة" مكتوب باللغة العبرية. وأحذركم من أنه في الوقت الذي تمر فيه العلاقات بين الدول العربية والدولة العبرية مرة أخرى بمرحلة حرجة، يستوجب عليكم التدخل عند

¹R. Assaraf, *Une certaine Histoire des Juifs du Maroc 1860-1999...*, op. cit, p. 534-535.

²J. Tolédano, *Le temps du Mallah...*, op. cit, p. 305.

³J. Tolédano, *Portrait ...*, op. cit, p. 310.

⁴روبير أصراف، *يهود المغرب عبر العالم الهجرة والهوية المستعادة...*، مرجع سابق، ص. 137.
⁵محمد حاتمي، *الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية وهران المغرب المستقل...*، مرجع سابق، ص. 277.

الجماعات اليهودية في مناطقكم، وأن تثيروا انتباهها إلى ما لهذه المظاهر الصهيونية الخارجية من مفعول استفزازي، وتحذروهم من المخاطر التي من دون شك ستنتج عنها، وهي مخاطر سيكون اليهود بالدرجة الأولى ضحاياها الرئيسيين. إن تأجيج المشاعر المعادية لليهود في المغرب أمر وارد".¹

وفي إطار الالتزام بنفس القدر من الحذر سيقدر جوزيف بيرديغو، وبشكل استثنائي، منع الاحتفال بعيد "الهيلولا" بالمقبرة القديمة، وقد برر رئيس الجماعة اليهودية قراره ذلك بعدم قدرته على ضمان الأمن في ظروف تميزت بتوتر شديد، وهو ما أدى به إلى تقديم استقالته أمام حضور الحاخام الكبير رفقة عدد من أتباعه، الأمر الذي أدى إلى حدوث أزمة كبيرة في صفوف الجماعة اليهودية، غير أنه تراجع عن استقالته بفضل تدخل السلطات الفرنسية المحلية التي وجهت تحذيرا للحاخام الكبير.²

وتيرة هجرة المغاربة اليهود باتجاه "أرض الميعاد" ستتراجع ابتداء من سنة 1952³، بسبب عدة عوامل، تمثلت في التمييز العنصري الذي طال المهاجرين المغاربة الذين كان ينظر لهم من طرف الأشكيناز على أنهم طفيليين وغير مرغوب فيهم⁴، خوفا من أن يؤدي تدفق جموع المهاجرين من يهود المغرب على إسرائيل إلى تغيير الطابع الأوروبي المميز للدولة العبرية، وإغراقها في بحر من "التخلف الشرقي" كما كان يزعم المسؤولون الإسرائيليون. أضف إلى ذلك سياسة الانتقاء التي اضطرت السلطات الإسرائيلية إلى اعتمادها⁵، لأنها صارت عاجزة عن استقبال المزيد من

¹ نفسه، ص. 276.

² J. Tolédano, *Portrait ...*, op. cit, p. 310.

³ Ibid, p. 310.

⁴ محمد حاتمي، *الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية وهران المغرب المستقل...*، مرجع سابق، ص. 277.

⁵ قررت الحكومة الإسرائيلية في اجتماع موسع عقده بتاريخ 27 نونبر 1951، سن سياسة برغماتية في موضوع الهجرة تعتمد أساسا على مبدأ الانتقاء والتفضيل بين المرشحين. ويمكن تلخيص أهم القرارات في النقاط التالية: أ- إعطاء أهمية قصوى لهجرة العناصر الشابة (عليها هانوعار) حيث خصصت لهم نسبة 80%، مع إعطاء الأولوية للشبيبة المنخرطة والنشطة في المنظمات الصهيونية لأنها مهيأة أكثر للاستقرار والعمل في المجالات الزراعية. ب- فيما يخص الحصة المخصصة لغير الشباب (من يتعدى سنهم 35 سنة) وهم عموما يودون الهجرة إلى إسرائيل والاستقرار مع عائلاتهم: يستوجب أن تضم العائلة الواحدة على الأقل فردا واحدا يعولها لا يقل سنه عن 18 سنة ولا يتعدى 45 سنة. وتعتمد نفس الشروط في حالة استقدام عائلة مستقرة في إسرائيل لذويها. وبالنسبة للعائلات التي تضم معاقين، لا يسمح لها بالهجرة إلا بعد أن يتضح طبيا أن جميع أفرادها لا يحملون أمراضا معدية، ولا يسمح قطعاً للمعاقين ذهنيًا بالهجرة. ج- يتعهد المرشح للهجرة بالاستقرار والعمل في المناطق المخصصة للزراعة على الأقل لمدة سنتين فور الوصول لإسرائيل. ولا ينطبق هذا الشرط على الأطر والمهنيين والتجار وكل من يستطيع العمل في القطاع الخاص واقتناء سكن لعائلته على حسابه الشخصي. د- لا يحصل على حق الهجرة سوى المرشحين الذين تؤكد التقارير الصحية تمتعهم بصحة جيدة وقدرتهم على العمل وحمل السلاح. ولم يكن الهدف من اعتماد سياسة الانتقاء الحد أو التوقيف مؤقتا لهجرة اليهود المستقرين في البلدان التي يعتبر مستواها التربوي والإيديولوجي ضعيفا ودون الحد الأدنى- وكلها دول تقع تحت نطاق أرض الإسلام-، وإنما تخصيص الجماعات التي تعيش ظروفًا صعبة- تجعلها تعتبر نفسها مهددة ومعرضة للخطر- بالحصة الكبرى من تراخيص واعتمادات الترحيل الجماعي. وعلى هذا الأساس، أعطيت الأولوية لليهود إيران، وتقرر الحفاظ على الوتيرة المرتفعة لهجرة يهود العراق (ما بين ماي 1950 ويونيو 1951 تم ترحيل 106.622 يهودي عراقي) عبر الطائرة. وفق برنامج "بساط الريح" الذي أصبح فيما بعد إحدى الأساطير المؤسسة للدولة العبرية الحديثة. فجميع هؤلاء أعارتهم الحكومة الإسرائيلية اهتماما خاصا بدعوى تعرضهم أكثر من غيرهم لأخطار مباشرة تهديد وجودهم. ولم تمنح اللوائح الشهرية لليهود المغرب سوى نسبة ضئيلة تزيد بقليل عن العدد الذي كان مخصصا به سنة 1949 (900 شخص سنويا). وبررت الوكالة اليهودية قرارها بإمكانية تهجيرهم وفق وتيرة معقولة، لأن السلطات الفرنسية والمخزنية توفر لهم ما يكفي من شروط الأمن. وراعت الوكالة اليهودية أيضا تكلفة الهجرة ذلك إن رحيل يهودي عراقي أو من شمال إفريقيا يتطلب 100 دولار، في حين تستلزم نفس العملية 70 دولار بالنسبة لليهودي أوروبي، وأقل من ذلك لترحيل يهودي عراقي أو يمني. وكان الغرض من تخصيص الشباب واليا فعيين بالحصة الكبرى من تراخيص الهجرة- بل إذا اقتضى الأمر الخروج عن قاعدة الكوتا- هو الاستفادة من قوتهم في الأشغال العمومية وصيانة المزارع وتدعيم القوات المسلحة. ولتحقيق هذه الغاية سعت الوكالة اليهودية إلى عزلهم في وقت مبكر عن آباءهم لئلا تحول العقيدة التقليدية دون تلقينهم لتربية علمانية عصرية. ثم إن ترحيل الطاقات الفتية يضمن لهم حرية في الحركة ويخلصهم من أعباء الاعتناء بذويهم، وبالتالي يسهل عليهم الحصول على عمل وتوفير سكن قار. وحين تتحسن ظروفهم، يكونون أكثر استعدادا لاستقدام

المهاجرين، علاوة عن الصعوبات الاقتصادية الكبيرة التي اعترضتهم بفلسطين¹، كلها أسباب أدت إلى تقليص عدد المرشحين الراغبين في الهجرة. سياسة الانتقاء هذه كانت لها آثار سلبية على يهود المغرب، حيث ساهمت في تفكيك رابطة العائلات اليهودية نتيجة اختيار الأقوياء والشبان مقابل ترك الشيوخ والمرضى². بينما كانت لها آثار إيجابية على إسرائيل، إذ ذكرت دراسة اجتماعية في إسرائيل أن النسبة المئوية لمجموع الذين هم في سن العمل بين اليهود المغاربة في إسرائيل هي الأعلى من سائر المهاجرين من البلاد الآسيوية والإفريقية³.

العوامل التي أشرنا إليها آنفاً لم تقلص فقط من عدد الراغبين في الهجرة، بل أدت إلى ارتفاع عدد العائدين إلى المغرب، فقد أصبح عدد اليهود الوافدين سنة 1953 المنحدرين من مكناس⁴، ومن باقي المغرب يتجاوز عدد المهاجرين⁵، أولاً بسبب الأزمة الاقتصادية الخانقة التي عرفتها إسرائيل هذه السنة، جراء تراجع معدل النمو الذي تزامن مع كثرة المهاجرين، وارتفاع معدل التضخم الذي وصل إلى 57 بالمائة⁶، أضف إلى ذلك عدم قدرتهم على الاندماج سريعاً في مجتمع متحرك و"غريب"، لا يتقاسمون معه سوى آصرة الدين في إطارها العام، ذلك أن العديد من الممارسات والمعتقدات الدينية كانت مختلفة، مما جعل اليهودي المغربي يصاب بالتذمر حين يقارن بين ما ظل يعتبره لقرون عديدة يهودانية حقة ورثها عن أجداده الأتقياء، ويهودانيات بني ملته القادمين من دول أوروبا، وهم في مجملهم ماديون وعلمانيون. إضافة إلى ذلك تذرهم من الاستقبال المشين الذي خصتهم به إدارة صارمة، تركتهم يعانون من ظروف العيش القاسية في مناطق قاحلة قليل لهم بأنما مؤقتة، فأضحت مستديمة⁷. وفي هذا الصدد صرح الرئيس وايزمن في حفل أقيم على شرفه بواشنطن يوم 25 أبريل (1949) بأن مهاجري شمال إفريقيا يعانون من خيال واسع، لأنهم كانوا يطمحون إلى أن يُمنحوا فوق طبق فور وصولهم إلى إسرائيل جنينة وفيلا⁸.

عائلاتهم وتحمل مصاريف استقرارها وعيشها ومساعدة من لهم طاقات للعمل في امتحان ما يؤمن لهم بدورهم موارد للعيش من دون الالتجاء لمساعدات عمومية." محمد حاتمي، *الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية وهران المغرب المستقل...*، مرجع سابق، ص. 279-280.

¹Capitane Nollet, op. cit, p. 8

²أحمد الشحات هيك، *يهود المغرب تاريخهم وعلاقتهم بالحركة الصهيونية...*، مرجع سابق، ص. 100. نفسه، ص. 100.

⁴J. Tolédano, *Portrait ...*, op. cit, p. 311.

⁵"جدير بالذكر، أنه خلال الفترة (1949-1952) عاد للمغرب من إسرائيل نحو 300 من مهاجري يهود المغرب، إذ وجد هؤلاء صعوبة في تحسين أوضاعهم الاقتصادية الخانقة التي اجتاحت إسرائيل في الأعوام الأولى لإقامتها، كما أنهم لم يتمكنوا من الاندماج في الحياة الاجتماعية بإسرائيل من جانب، ومن جانب آخر، كان الوضع الاقتصادي بالمغرب آخذاً في التحسن خلال الفترة (1951-1953). وكان للانطباع السلبي لهؤلاء النازحين عن المجتمع الإسرائيلي، آثار شديدة الخطورة على الراغبين في الهجرة مما أدى إلى لانحسار موجة الهجرة خلال الفترة (1951-1954)". أحمد الشحات هيك، *يهود المغرب تاريخهم وعلاقتهم بالحركة الصهيونية...*، مرجع سابق، ص. 98.

⁶J. Attali, op. cit, p. 536.

⁷محمد حاتمي، *الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية وهران المغرب المستقل...*، مرجع سابق، ص. 288. نفسه، ص. 288.

وإضافة إلى ما سبق عانى المغاربة اليهود من الضياع الروحي، ومن الإقصاء السياسي والمهاشة الاجتماعية¹، بشكل صعب من قدرتهم على الاندماج، لاحقا، داخل مجتمع إسرائيلي حاول أن يلغي خصوصياتهم المغربية². أولئك الذين قرروا العودة كانوا مطالبين بضرورة اعتماد التكتم والحيلة، لأن السلطات كانت تخشى من أن يؤدي رجوعهم إلى حصول توتر مع الأهالي يزيد من صعوبة العلاقات بين مكونات المجتمع المغربي. وبعد مفاوضات شاقة، سمحت الإقامة العامة لهم مبدئيا بالعودة "لأنهم رعايا مغاربة، وليس هناك أدنى شك في جنسيتهم"، وألزمهم بالسفر بترخيص فرنسي وليس بجواز إسرائيلي، وبالتكتم والحيلة حين عودتهم في علاقاتهم مع المسلمين وبني ملتهم. والظاهر أن السلطان وافق على عودتهم على اعتبار أنهم حتى بعد رحيلهم الطوعي، يظلون رعاياه مرتبطين بشخصه بموجب البيعة الدائمة³، خصوصا وأن العاهل المغربي كان يظن أن الرحيل صوب أرض الميعاد هو مجرد مغامرة عابرة، وأن عامة اليهود لن ينساقوا وراء وعود الصهاينة، وأنه حتى في حالة رحيلهم فلن يلبثوا أن يندموا ليعودوا إلى ديارهم من جديد⁴.

رغبة المغاربة اليهود في الهجرة باتجاه "إسرائيل" ستعرف منعطفا حاسما ابتداء من سنة 1954، حيث ستحطم كل الأرقام القياسية مقارنة بالمراحل السابقة بسبب الأحداث الدامية التي وقت بمدينة سيدي قاسم* خلال نفس السنة، والتي راح ضحيتها بعض يهود مكناس الذين كانوا يعملون بهذه المدينة⁵. والأكيد أن الأحداث التي عرفت هذه المدينة في شهر غشت 1954 شكلت بالنسبة للنشطاء الصهاينة "هدية من السماء" لأنها أقامت البيئة على صواب ما دأبوا على التحذير منه، وأقنعت أكثر من متردد بالانخراط في سلك الهجرة⁶. وبناء عليه فقد استفاد العمل الصهيوني بشكل مباشر من أحداث سيدي قاسم، خصوصا وأن اليهودانية المغربية قد صارت ابتداء من هذه المرحلة هي الخيار الأمثل للاستجابة للحاجيات الديموغرافية لـ "إسرائيل" بعد أن نضبت مصادر الهجرة اليهودية التقليدية⁷. وقد ساعد في تحقيق هذا السيناريو ما ورد في تقرير صاغه مبعوث الوكالة اليهودية (جوزفثال) إثر جولة

¹ نفسه، ص. 289.

² "لقد عبر رفايل بنسوسان عن هذا الأمر قائلا: "لقد كانت الإحالة علينا تتم، وكأننا رأس منزوع عن جذعه وأطرافه. فالنموذج الاجتماعي الذي كان يلزم الإحالة عليها والتماهي معه هو الفرد الكوني وريث أعوام 1789 و1918 و1948 الذي لا علاقة مشتركة، بطبيعة الحال، بيننا وبينه، أو بين ما كان عليه أسلافنا... ففي المغرب، كنا باللفظ المختصر يهودا لا زيادة ولا نقصان. وها نحن قد أصبحنا ننعت في إسرائيل بالمغاربة لا غير. لقد اكتشفنا في النهاية أننا مغاربة !".

R. Benchochan, «L'identité marocaine en Israël», in «Juifs du Maroc, identité et dialogue. Actes du colloque international sur la communauté juive marocaine, vie culturelle, histoire sociale et évolution». Grenoble 1980, p. 322.

³ محمد حاتمي، *الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية وهران المغرب المستقل...*، مرجع سابق، ص. 290.

⁴ نفسه، ص. 326.

* لقد تطرقنا بالتفصيل لكل ما يتعلق بهذه الأحداث في المحور الأول من الفصل الثاني للباب الثاني.

⁵ R. Assaraf, *Une certaine Histoire des Juifs du Maroc 1860-1999...*, op. cit, p. 579-580.

⁶ محمد حاتمي، *الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية وهران المغرب المستقل...*، مرجع سابق، ص. 415.

⁷ نفسه، ص. 407.

قام بها في صيف 1954 قادته إلى العديد من المناطق المغربية، أفاد بأن زعماء الجماعات والنخب وحتى الرييين، أكدوا له في محادثاتهم أن عموم اليهود يعيشون حالة ترقب خطيرة تشل من حركيتهم وتجعلهم يتوجسون كل تطور. وزاد من تخوفاتهم وقوفهم على ضعف وهشاشة الوسائل الأمنية المخصصة للدفاع عنهم. وشدد جوزفتال في تقريره على أن نهج استقطاب يهود "البلاد" في عقر ديارهم أضحي متجاوزا، لأنهم اقتنعوا "من تلقاء أنفسهم" بضرورة الرحيل، فقرروا في غالبيتهم التحرك نحو المدن، للاتصال بالهيئات التابعة لكاديبما¹. لذلك، وابتداء من هذه السنة سيتزايد عدد من غادروا المغرب، حيث وصل العدد إلى 1032 في شهر غشت، و1612 في شتنبر و 973 في أكتوبر، و 1662 في نونبر، لينتقل العدد إلى 2214 في دجنبر. وفي سنة 1955 تجاوز عدد المهاجرين 25000، وكان يمكن أن يتجاوز عدد المهاجرين هذا الرقم لولا أن "إسرائيل" قد تحكمت في عدد المهاجرين إليها بفضل سياسة الانتقاء².

هذا الاتجاه الجارف نحو الهجرة هو ما وقف عليه الصحافي الأمريكي Hal Lehrman سنة 1955، بعد جولة قام به عبر التراب المغربي، حيث توصل إلى أن أغلبية يهود المغرب صاروا متشائمين ومقتنعين بضرورة الهجرة الجماعية في أقرب الآجال، لأن الرحيل بات يمثل في نظرهم الحل الوحيد والأمثل لمشاكل اليهود، خاصة بعد الأحداث الدامية التي عرفتها العديد من المدن خلال صيف سنة 1955³، بعدما طالت موجة من الاغتيالات بعض التجار اليهود بالدار البيضاء، عندما امتنعوا عن الامتثال لتعليمات المقاومة القاضية بإغلاق محلاتهم التجارية⁴. ومع اقتراب موعد استقلال المغرب، شعرت الدوائر الصهيونية باحتمال حدوث تغير في سياسة الهجرة في مغرب الاستقلال، خاصة بعد أن توصل زعماء الحركة الوطنية وممثلو الجماعة اليهودية بالمغرب إلى تفاهم تم بمقتضاه طمأنة اليهود بأنهم سيحصلون على كل حقوقهم بعد الاستقلال⁵، فضلا عن محاولات السلطان محمد بن يوسف تذكيرهم في جميع المناسبات بأنه مهتم بمشاكلهم⁶. ولتفادي أي تطورات غير متوقعة بُعيد الاستقلال سارعت المنظمات

¹ نفسه، ص. 419-420.

² R. Assaraf, *Une certaine Histoire des Juifs du Maroc 1860-1999...*, op. cit, p. 588.

³ محمد حاتمي، *الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية وهران المغرب المستقل...*، مرجع سابق، ص. 386.

⁴ نفسه، ص. 432.

⁵ "أكد بلافريج في تصريح لماروك بريس (13 غشت 1955)، على "أن اليهود لن يكونوا ضحايا أي تمييز". ثم في تصريح إضافي ذكر بالأمور التالية: "إن الدوائر الاستعمارية سعيها منها إلى التشكيك في مصداقية الالتزامات التي أخذتها على نفسها الحركة الوطنية، تتهم المغاربة بمعادة السامية. إننا نجزم بأنه لا يوجد في المغرب مشكل يهودي، لأن الجماعات اليهودية والمسلمة عاشت جنباً لجنب من قرون في جو من التسامح والاحترام والتفاهم المتبادل. وهما معا ضحيتان للنظام الاستعماري الذي حكم البلاد منذ سنة 1912، وكليةما ناضلا وقدا التضحيات من أجل تحقيق الغايات الوطنية. وليس هناك أي داع يجعلنا نخشى أن يكون اليهود ضحايا سلوكات تمييزية في المغرب المستقل. إن اليهود المغاربة سيكونون مواطنين متساويين قانونيا وفعليا مع المسلمين، وسينعمون بنفس الحقوق ويلزمون بنفس الواجبات، وستحفظ حرياتهم المدنية كاملة. إن أكبر خدمة يمكنها تقديمها لهم هي دعمهم في نضالهم ضد النظام الاستعماري الذي استغلهم واضطهدهم. إن المغرب وطنهم وحريته من حريتهم، ومن يساعد اليهود المغاربة يساعد المغرب على الحصول على استقلاله". نفسه، ص. 433-434.

⁶ روبرت أصراف، *محمد الخامس واليهود المغاربة...*، مرجع سابق، ص. 258.

الصهيونية المكلفة بالهجرة إلى ترحيل أكبر عدد ممكن من المغاربة اليهود صوب إسرائيل، مستغلة خوف الجماعة اليهودية من المغرب المستقل¹، حيث استطاعت استغلال حالة القلق التي أملت بالمغاربة اليهود لتدفع بهم إلى الرهان على خيار الهجرة عوض الرهان على المغرب المستقل، رغم كل الضمانات والنوايا الحسنة التي تم التعبير عنها من طرف السلطان وقادة الحركة الوطنية، وهو الأمر الذي يفسر عدد يهود مكناس الذين رحلوا في اتجاه فلسطين ما بين سنتي 1948 و1956، حيث قدر بالثلث، وبذلك تقلص عددهم بهذه المدينة سنة 1956 إلى 10000 نسمة فقط²، بينما فضل عدد آخر منهم الاتجاه للاستقرار بفرنسا وكندا والولايات المتحدة الأمريكية وأستراليا³.

قصارى القول، لقد كان للتغيير الذي لحق تدريجيا بالبنيات الاجتماعية والمؤسسية للمغاربة اليهود، منذ إحداث أولى مدارس الرابطة بالمغرب أواخر القرن التاسع عشر، مروراً بالتحويلات البنوية المتوالية التي مستهم خلال فترة الحماية، بالإضافة إلى تفاعل تأثيرات بعض الأحداث الدامية التي كانوا ضحايا لها، مع صدى الهزات الارتدادية للصراع العربي الإسرائيلي بالشرق الأوسط، دور كبير في فقدانهم الثقة تدريجيا، في الخيار الاندماجي في بلد طالما راهنوا فيه، خلال فترة الحماية، على المستعمر الفرنسي الذي صارت مغادرته للمغرب مجرد مسألة وقت. كل هذه العوامل مكنت المنظمات الصهيونية خصوصا مع اقتراب موعد استقلال المغرب، من تحويل التوتر الكامن بالقوة في وجدان المغاربة اليهود إلى توتر كامن بالفعل، انتهى بتمكنها، وعلى مراحل، من استقطاب المستائين من مختلف الطبقات، وإقناعهم بحتمية خيار الهجرة إلى فلسطين، مما أدى في نهاية المطاف إلى إخلاء المغرب تدريجيا من يهوده، ليس فقط اقتناعا بالمشروع الصهيوني القاضي بالاستيطان بفلسطين، بل أيضا بحثا عن آفاق جديدة لتحسين أوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية، وهو الأمر الذي يفسر اختيار بعضهم الاستقرار بالبلدان الغربية، لكن تيار الهجرة الجارف لم يؤدّ رغم ذلك، إلى تصفية التواجد اليهودي بالمغرب بشكل نهائي، كما حدث بالعديد من البلدان الإسلامية الأخرى، بسبب خصوصية تميّز المغاربة اليهود، تكمن في تعلقهم الوجداني بمنبتهم الأصلي واطمئنانهم للضمانات التي تقدمها لهم الدولة المغربية.

¹ محمد حاتمي، الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية وrehان المغرب المستقل...، مرجع سابق، ص. 431.

² J. Tolédano, *Le temps du Mellah*, op. cit, p. 311.

³ Ibid, p. 159.

صورة رقم 37: صورة لأسرة يهودية من أصول مكناسية بمدينة حيفا الفلسطينية سنة 1949.



Source : David Cohen, **Passion Marocaine**, op. cit.

الخاتمة

تنافست القوى الأوروبية منذ أواسط القرن التاسع عشر على خلق أدوات نفوذ داخل المغرب، مستغلة الضعف الذي أصاب سلطة المخزن، وهو الأمر الذي أتاح لبعض المغاربة اليهود الحصول على الحماية القنصلية، وكذا الاستفادة من احتضان فرنسا سنة 1860 لمشروع الرابطة الإسرائيلية العالمية القاضي بإحداث شبكة من المدارس بالمغرب، والتي انطلق العمل بأولها بتطوان سنة 1862. هذا المشروع كان واجهة رئيسة راهنت عليه فرنسا للقيام بدور في المغرب، خاصة وأن المغاربة اليهود كانوا قد تشبعوا آنذاك، عموماً، بما يكفي من الاستعداد للتماهي مع الوجود الفرنسي بالمغرب، مستحضرين تجربة إخوانهم في الدين بالجزائر، الذين تمكنوا من الحصول على الجنسية الفرنسية بشكل جماعي بموجب قانون كريميو سنة 1870.

في سياق هذه الدينامية، لم يتردد يهود مكناس، عموماً، في الترحيب بالتدخل الفرنسي بالمدينة، متطلعين إلى تحقيق أكبر قدر ممكن من المكاسب، خاصة بعدما أصبحت زمام أمور هذه الجماعة منذ منتصف الثلاثينيات في يد قدماء مدرسة الرابطة، وهو ما أدى إلى حصول هوة بين عموم اليهود وعموم المسلمين، بسبب الهدم الذي أصاب الوعي العام الذي كانت تقوم عليه العلاقات بين هذين الطرفين، نتيجة استفادة الأول دون الثاني من ثقافة حداثة مستوحاة من تعليم عصري ساهمت فيه بقوة مدارس الرابطة الإسرائيلية العالمية، وهنا تحديداً تشكلت رهانات متناقضة لديهما مادياً وفكرياً، أسست مبكراً لمفترق طرق بينهما منذ أواخر القرن التاسع عشر، وعلى امتداد فترة الحماية الفرنسية.

وإذا كان من المفيد صياغة تركيب نغلق من خلاله دفعة هذه الدراسة، فالخري بنا عرضه في هيئة خلاصات متضافرة، انسجماً مع الإشكاليات التي طرحناها في المقدمة، والتي مكنتنا من رصد وتتبع وفهم الإكراهات التي تعرضت لها هذه الجماعة، والتي أدت بها، في النهاية، إلى تبني خيارات كان من الصعب الانفلات منها:

الخلاصة الأولى: إن التجاوزات التي عانى منها المغاربة اليهود في فترات متقطعة، ارتبطت أساساً بخضوعهم لتشريع أهل الذمة الذي صُنِّفوا بمقتضاه رعايا من الدرجة الثانية بعد الرعايا المسلمين، وهو ما جعلهم يشكلون الحلقة الأضعف خلال الفترات العصبية التي كانت تضعف فيها سلطة الجهة الحامية (السلطان، زعماء القبائل...). هذا الواقع هو ما منح القوى الأجنبية، منذ منتصف القرن التاسع عشر بالخصوص، أسباباً لاستثمار ورقة المغاربة

اليهود بمبرر الحرص على احترام حقوق الإنسان، وهو الأمر الذي لم يتردد بعض اليهود في الاستفادة منه، حيث سعوا إلى الحصول على ما يجعل منهم رعايا أو مواطنين أجنبيا تابعين للدول الأجنبية من خلال بطاقات التجنيس، أو محميين من قبل إحدى تلك الدول المتوفرة على تمثيل دبلوماسي بالمغرب. وبعد توقيع الحماية الفرنسية على المغرب سنة 1912 راهن المغاربة اليهود على الفرنسيين أملاً في تحقيق ما كانوا يطمحون إليه من مكاسب، أعلاها تكرار السيناريو الجزائري بالمغرب؛ أي الحصول على الجنسية الجماعية، وهو الأمر الذي لم يتحقق طيلة فترة الحماية الفرنسية، وإن لم يَحُلْ دون استفادتهم من بعض المكاسب على مدار سنوات الحماية، دون إدماجهم كلياً في مجتمع المعمرين الفرنسيين.

الخلاصة الثانية: لعبت مدرسة الرابطة الإسرائيلية العالمية بمدينة مكناس دوراً محورياً في انتشار عدد مهم من أفراد الجماعة اليهودية من عزلتهم، بشكل أدى إلى تشكل نواة مجتمع جديد تشبّع أفرادهم بقيم حديثة منحتهم بعض الفرص في العلاقة مع مجتمع المعمرين، وخلقت لديهم تطلعات حررتهم تدريجياً من أطر التفكير والعيش التقليديين، كان من أعراضها الإقبال أكثر على أساليب الوقاية وطرق العلاج العصرية التي أتيحت لهم على قِلَّتِها، وهو ما أدى إلى ارتفاع معدل النمو الديموغرافي في صفوفهم بعد انخفاض معدل الوفيات، وإن أدى في المقابل إلى تفاقم مشكلة السكن بالملاح القديم، بعدما وصل فيه الاكتظاظ إلى مستوى غير مسبوق جعل النخب اليهودية بمكناس تعبئ كل إمكانياتها، وتستثمر كل علاقاتها لبناء ملاح جديد.

الخلاصة الثالثة: أفرزت التحولات التي حصلت في مجال الحرف بالمدينة واقعا وتراتبية سوسيومهنية جديدين، حتى إن كثيراً منها لم يكن في صالح أفراد الجماعة اليهودية بمدينة مكناس، إذ عانت معظم الحنطات من التحولات المتتالية التي حدثت في ظل الاقتصاد الكولونيالي، كما أن تغير أذواق المستهلكين وتوفر شبكة من الطرق الآمنة وتعدد الأسواق الأسبوعية حرم الحرفيين اليهود بالمدينة من الاستمرار في تموين محيطها بالمنتجات الحرفية، كما كانوا يفعلون قبل الحماية، غير أن ذلك لم يحل دون تمكن بعض أفراد الجماعة اليهودية من امتحان بعض الحرف والمهن الجديدة العصرية ولو في نطاق محدود، بسبب المنافسة الشديدة التي عانوا منها من طرف الأوربيين المقيمين بنفس المدينة، لا سيما وأن هذه الأخيرة عرفت تواجدا مهما للبروليتاريا الفرنسية التي احتكرت نسبياً جميع المهن العصرية، بما في ذلك المهن المتواضعة. وهو الأمر الذي دفع يهود المدينة إلى المراهنة أكثر على قطاع التجارة بكل أنواعه، سعياً منهم إلى الحفاظ على المكتسبات التي كانوا يتمتعون بها في إطار نظام الوساطة بين الأهالي وعموم الأوربيين المقيمين بالمدينة، وقد ساعدهم في ذلك إتقان بعضهما للغة الفرنسية. وهكذا استطاع بعض اليهود تطوير مشاريعهم وتحقيق ثروات مهمة في هذا القطاع، فشكّلوا بذلك نواة طبقة متوسطة ميسورة الحال نسبياً، بينما ظلت غالبية جماهير

الملاح تعاني من البؤس ومن نتائج الأزمات الاقتصادية الدورية، وهو ما سمح للنشطاء الصهاينة، خصوصا بعد الحرب العالمية الثانية، بإقناع العديد منهم بخيار الهجرة إلى فلسطين.

الخلاصة الرابعة: منذ توقيع معاهدة الحماية على المغرب، تطلّعت النخب اليهودية المتطورة إلى تحقيق مجموعة من المكاسب ذات العلاقة بوضعها القانوني والاعتباري، وهي تطلعات ليبرالية اصطدمت بالإطار المحافظ الذي كانت تسعى إلى استمراره سلطات الحماية والمخزن معاً. غير أن ذلك لم يكن عائقاً أمام تشكل مجتمع يهودي أهلي نشيط ومتضامن عباً كل طاقاته وموارده الممكنة، واستطاع من خلالها ضمان مجموعة من الخدمات الاجتماعية والخيرية لعموم يهود المدينة. هذه الدينامية تزامنت مع مجموعة من التحولات السوسيو-ثقافية العصرية التي مسّت حياة أفراد هذه الجماعة نتيجة الدور الذي لعبته مدرسة الرابطة من جهة، والحيوية التي تميّزت بها النخب الشابة التي تولّت تسيير لجنة الجماعة اليهودية منذ منتصف الثلاثينيات من جهة أخرى، غير أن ذلك لم يؤدّ إلى انسلاخ اليهود كلياً عن قيمهم التقليدية التي تعايشت مع مظاهر التحديث.

الخلاصة الخامسة: تصدّع العلاقة بين يهود ومسلمي المدينة ساهمت فيه، عموماً، مجموعة من الأحداث المختلفة، على مدار سنوات التواجد الفرنسي بالمغرب، وهي أحداث وقعت في سياقات وطنية ودولية دفعت بيهود مكناس في السنوات الأخيرة من الحماية الفرنسية إلى فقدان الثقة في الخيار الاندماجي من جهة، وعدم الرهان على مغرب الاستقلال من جهة أخرى، الأمر الذي دفع بيهود المدينة إلى التماهي تدريجياً مع رهان آخر تمثّل في الخضوع لإكراه التهجير وخيار الهجرة، اللذين تعززا تدريجياً في ظل تنامي النشاط الصهيوني بالمدينة خاصة بعد سنة 1948.

الخلاصة السادسة: اعتناق أفراد الجماعة اليهودية بمدينة مكناس لإيديولوجيا الصهيونية السياسية لم يتم دفعة واحدة، بل تطوّر بتطوّر الأحداث المتلاحقة داخليا وخارجيا. إذ اقتصر الأمر في البداية على اعتناقهم الصهيونية الدينية، لكن بمرور الزمن، وبعد تجذّر نشطاء الصهيونية السياسية بالمغرب، صار بعضهم، شيئا فشيئا، أكثر ميلاً إلى اعتناق هذه الأخيرة، التي اختزلت فكرة الخلاص اليهودي في الهجرة إلى فلسطين. وهي الهجرة التي تمّت على مراحل. وتجدد الإشارة إلى أن مسلسل هجرة يهود مكناس إلى خارج البلاد لم يتم استجابة لفكرة الخلاص التي بشرت بها الصهيونية السياسية فقط، بل تمّ في جزء منه لأسباب اقتصادية أملاً في تحسين ظروف العيش، وهو الأمر الذي يفسر اختيار بعضهم وجهات أخرى غير فلسطين.

اللائحة البيبليوغرافية

I. باللغة العربية:

❖ المصادر:

- ابن زيدان عبد الرحمان، إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار مكناس، الجزء الأول، الطبعة الثانية، مطابع الدار البيضاء، 1990.
- ابن زيدان عبد الرحمان، العز والصولة في معالم نظم الدولة، المطبعة الملكية، الرباط، 1962.
- ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق، ج.س. كولان، وليفي بروفنسال، الدار العربية للكتاب، دار الثقافة بيروت، 1984.
- أفراد من عائلة ابن دنان الغرناطية الفاسية، كتاب التواريخ أو تاريخ فاس، ترجمه عن اللغة العبرانية: د. عبد العزيز شهرب، جمعية تطاون أسمىر، مطابع الشويخ-تطوان، 2002.
- الناصري أحمد، الاستقصاء في أخبار المغرب الأقصى، الجزء التاسع، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1956.
- حزب الاستقلال المغرب الأقصى، "مراكش" قبل الحماية، عهد الحماية، إفلاس الحماية، مكتب المستندات والأنباء (الطبعة العربي)، مطبعة دار الطباعة الحديثة، مصر، 1951.
- عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 1963.

❖ المراجع:

- ابراهيم طه، مساهمة في حل أزمة العقل العربي المسلم، ميريت للنشر والمعلومات، الطبعة الأولى، القاهرة، 2002.
- أبو الحسن علي، دور بريطانيا في تهويد فلسطين أفذر دور في التاريخ، الطبعة الثانية، 2001.
- أخليص يوسف، القضاء القنصلي ومسألة السيادة في مغرب ما قبل الحماية، منشورات دار التوحيد، الطبعة الأولى، الرباط، 2014.
- أزيكي عبد الله، مسألة اليهود المغاربة، منشورات مجلة اختلاف، الطبعة الأولى، المغرب، 2004.
- إسرائيل شاحك، اليهود واليهودية وطأة 3000 سنة، ترجمة ونشر الملتقى، تقديم إدوار سعيد، مطبعة النجاح الجديدة، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، 2003.

- أشقرا عثمان، العطب المغربي بحث في أصول التحديث وإعاقاته بالمغرب، مطبعة النجاح الجديدة، الطبعة الأولى، الدار البيضاء 2003.
- أصراف روبر، محمد الخامس واليهود المغاربة، ترجمة علي الصقلي، ومحمد كليزم، مطبعة النجاح الجديدة، الطبعة الأولى، الدار البيضاء.
- أصراف روبر، يهود المغرب عبر العالم الهجرة والهوية المستعادة، تعريب محمد حاتمي، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، الرباط، 2009.
- أفيطبول ميخائيل، بر شالوم، برناي يعقوب، طوبي يوسف، اليهود في البلدان الإسلامية 1850-1950، ترجمة جمال الرفاعي، تحرير صموئيل إتينجر، عالم المعرفة، العدد 197، الكويت 1995.
- الجابري محمد عابد، التعليم في المغرب العربي دراسة تحليلية نقدية لسياسة التعليم في المغرب وتونس والجزائر، توزيع المركز الثقافي العربي، دار النشر المغربية الدار البيضاء، 1989.
- الجابري محمد عابد، مواقف، العدد 66، دار النشر المغربية، الطبعة الأولى، غشت 2007.
- الخديمي علال، المغرب في مواجهة التحديات الخارجية 1851-1947، دراسة في تاريخ العلاقات الدولية، إفريقيا الشرق.
- الزعفراني حاييم، ألف سنة من حياة اليهود بالمغرب، ترجمة أحمد شحلان وعبد الغني أبو العزم، المطبعة الجديدة.
- الزعفراني حاييم، يهود الأندلس والمغرب، الجزء الثاني، ترجمة احمد شحلان، مطبعة النجاح الجديدة، 2000.
- الزعفراني حاييم، يهود المغرب والأندلس، الجزء الأول، ترجمة أحمد شحلان، مرسوم الرباط مطبعة النجاح الجديدة، 2000.
- السعد جودت، أوهام التاريخ اليهودي، الأهلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، المملكة الأردنية الهاشمية، عمان، 1998.
- الشاذلي عبد اللطيف، نصوص اتفاقيات دولية مبرمة بين المملكة المغربية ودول أجنبية، الجزء الثاني، المطبعة الملكية، 2006-2007.
- المسكين فتحي، الكوجيطو المجروح أسئلة الهوية في الفلسفة المعاصرة مسائل فلسفية، منشورات الاختلاف.

- المسيري عبد الوهاب، الأيديولوجية الصهيونية دراسة حالة في علم اجتماع المعرفة، مجلة عالم المعرفة، الكويت، 1982.
- بارون بيبير، تطويع الأهالي زمن الاستعمار الفرنسي مغرب (1912-1939)، ترجمة وتقديم عبد الرزاق لكريط، مطبعة وراقة بلال، الطبعة الأولى، فاس، 2016.
- بروديل فرناند، المتوسط والعالم المتوسطي، تعريب وإيجاز مروان أبي سمرا، دار المنتخب العربي للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، لبنان، 1993.
- بوزويطة سمير، الاحتلال العسكري الفرنسي للمغرب دراسة في الإستراتيجية العسكرية 1912-1934، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، الطبعة الأولى، 2007.
- بوعسرية بوشتي، أحداث بوفكران بمكناس، فاتح وثاني شتنبر، 1937.
- بوعسرية بوشتي، المقاومة المسلحة والحركة الوطنية بمكناس وأحوازها 1911-1956.
- بوعسرية بوشتي، مكناس المدينة الجديدة: التأسيس، البنيات الإدارية، التناقضات (1911-1939)، منشورات عمادة جامعة مولاي إسماعيل مكناس، رقم 18، مطبعة فضالة، المحمدية 1999.
- بوعسرية بوشتي، مكناس المدينة الجديدة، أطروحة لنيل دكتوراه الدولة، نشر عمادة كلية الآداب، جامعة مولاي إسماعيل، مكناس، 1999.
- بومعيز محمد، مدخل لدراسة الديموغرافيا وجغرافية السكان، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1992.
- بياض الطيب، المخزن والضريبة والاستعمار ضريبة الترتيب 1880-1915، إفريقيا الشرق الدار البيضاء، 2011.
- جادور محمد، مؤسسة المخزن في تاريخ المغرب، مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية، منشورات عكاظ، 2011.
- جارودي روجيه، إسرائيل الصهيونية السياسية، دار الشروق، الطبعة الأولى، 1983.
- حبيدة محمد، المدارس التاريخية برلين-السربون-استراسبورغ من المنهج إلى التنازع، دار الأمان، الطبعة الأولى، الرباط، 2018.
- حبيدة محمد، بؤس التاريخ مراجعات ومقاربات، دار الأمان، الطبعة الثانية، الرباط، 2016.
- خطب صاحب الجلالة الملك محمد الخامس، إعداد ونشر وزارة الإعلام، المجلد الأول، الرباط.
- دوفوكو شارل، التعرف على المغرب-الاستخبارات، ترجمة المختار بلعربي، أفريقيا الشرق، المغرب، 2015.

- ديمس جون جيمس، حركة المدارس الحرة بالمغرب (1919-1970)، ترجمة السعيد المعتصم، مطبعة النجاح الجديدة، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، 1991.
- رشاد عبد الله الشامي، إشكالية الهوية في إسرائيل، عالم المعرفة، العدد 224، الكويت، 1997.
- سراج أحمد، آيتورياغل التاريخ المؤسسات العلاقة مع السلطة، منشورات ملتقى الطرق، 2017.
- شحلان أحمد، اليهود المغاربة من منبت الأصول إلى رياح الفرقة، قراءة في الموروث والأحداث، دار أبي رقاق للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، 2009.
- شروتر دانييل، يهودي السلطان المغرب وعالم اليهود السفر، ترجمة خالد بن الصغير، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، جامعة محمد الخامس أكادال، دار أبي رقاق للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، الرباط، 2001.
- شهبر عبد العزيز، في التراث اليهودي الأندلسي والمغربي دراسات في تراث مهمل، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان، 2006-2007.
- عطا علي محمد ربه، اليهود في المغرب الأقصى، مكتبة الرشد-ناشرون، الطبعة الأولى، الرياض، 2006.
- عمر بوم، يهود المغرب وحديث الذاكرة، ترجمة خالد بن الصغير، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة محمد الخامس بالرباط، سلسلة نصوص وأعمال مترجمة رقم 18، الطبعة الثانية، 2017.
- عياش ألبير، الحركة النقابية بالمغرب، مغرب الحركة 1943-1948، الجزء الثاني، ترجمة نور الدين سعودي، منشورات امل، مطبعة النجاح الجديدة، 1997.
- فيبر ماكس، الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية، نصوص مختارة، إعداد وترجمة محمد سبيلا وعبد السلام بنعبد العالي، سلسلة دفاتر فلسفية، الصحراء للطباعة والنشر، الطبعة الأولى 1996 .
- قعفراني سلمان، أزمة الانتماء اليهودي فيينا 1900، دار المناهل للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، بيروت، 2005.
- كنيب محمد، المحميون، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة محمد الخامس، سلسلة نصوص وبحوث ودراسات رقم 47 منشورات باب انفا، دار أبي رقاق للطباعة والنشر، الرباط، 2001.
- كنيب محمد، يهود المغرب 1912-1948، ترجمة إدريس بنسعيد، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة محمد الخامس سلسلة نصوص وأعمال مترجمة رقم 8، الرباط، 1998.

- لازار برنار، مناهضة السامية تاريخها وأسبابها، ترجمة ماري شهرستان، الأوائل للنشر والتوزيع والخدمات الطباعة، الطبعة الأولى، سورية، دمشق، 2004.
- لاندو روم، تاريخ المغرب في القرن العشرين، ترجمة نقولا زيادة، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1980.
- لغمايد عبد الله، يهود منطقة سوس، دار أبي رقرق للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، الرباط، 2016.
- لوطونرو روجي، فاس قبل الحماية، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، الجزء الأول، 1992.
- إيلي مالكا، العوائد العتيقة اليهودية بالمغرب من المهد إلى اللحد، اتصالات سبو الملتقى، الطبعة الثالثة، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، 2013.
- هادي حسن جعفر، اليهود الحسيديم نشأتهم تاريخهم عقائدهم تقاليدهم، الدار الشامية دار القلم، الطبعة الأولى، بيروت، دمشق، 1994 .
- هويستن وليام، الحماية الفرنسية بالمغرب بين الأوج والأفول تحت قيادة الجنرال نوجيس 1936-1943، تعريب: إبراهيم بوطالب، منشورات كلية الآداب بالرباط، الطبعة الأولى، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2001-2002.
- هيكمل أحمد الشحات، يهود المغرب تاريخهم وعلاقتهم بالحركة الصهيونية، مركز الدراسات الشرقية، جامعة القاهرة.

❖ الأطروحات:

- الحاج الناسك محمد، الحياة الثقافية والاجتماعية للطائفة اليهودية بالدار البيضاء فيعهد الحماية، أطروحة لنيل الدكتوراه الوطنية في الآداب، تخصص التاريخ، نوقشت بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بوجدة، جامعة محمد الأول وجدة، 2013.
- اللحية محمد، الحياة الاقتصادية بمدينة مكناس في القرن التاسع عشر (1850-1912)، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، نوقشت بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 1984.
- حاتمي محمد، الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية وهران المغرب المستقل 1948-1961، أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في الآداب، تخصص التاريخ، نوقشت بكلية الآداب والعلوم الإنسانية فاس سايس جامعة سيدي محمد بن عبد الله، 2006-2007.

- دوناس رشيد، يهود مكناس على عهد الحماية 1912-1956، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا المعمقة، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ظهر المهرارز-فاس، الموسم الجامعي: 2002-2003.

- عفيف جليلة، يهود مدينة صفرو على عهد الحماية الفرنسية 1912-1956، أطروحة لنيل الدكتوراه في التاريخ المعاصر، نوقشت بكلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهرارز، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس، 2003-2004.

- مازي حسنة، مجتمع مدينة مكناس: المدينة القديمة على عهد الحماية 1912-1956، أطروحة لنيل الدكتوراه في التاريخ، نوقشت بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة المولى إسماعيل مكناس، 2002-2003.

❖ المجلات والدوريات:

- الحايل حفصة، "نخبة التجار اليهود والتحويلات في المغرب ما قبل الحماية" هسبيريس تامودا، (عدد خاص القسم الأول) المجلد 2، 2016.

- الخمليشي عبد العزيز، "حول مسألة بناء الملاحات بالمدن المغربية"، دار النيابة 4، (1987): 21-28، 5 (1988)

- الركيك هشام، "من حومة فندق اليهودي إلى ملاح فاس الجديد، وتحليلات الحضور اليهودي في المشهد العمراني لمدينة فاس"، هسبيريس - تامودا، جامعة محمد الخامس بالرباط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، العدد LI المجلد 2 (عدد خاص - القسم الأول)، 2016.

- اللحية محمد، "حول ظروف تشييد ملاح مدينة مكناس في عهد المولى إسماعيل (1672-1727)"، هسبيريس - تامودا، جامعة محمد الخامس بالرباط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، العدد LI المجلد 2 (عدد خاص - القسم الأول)، 2016 السرفاتي أبرهام، "اليهود المغاربة وإسرائيل"، مجلة شؤون فلسطينية، العدد 3، بيروت، 1971.

- الغريسي الأسفي محمد، "العادات العتيقة لليهود بفاس من المهد إلى اللحد" مجلة الجواهر، العدد 27، 1992.

- براص محمد، "الثابت والمتحول في علاقة الحزب الشيوعي باليهود المغاربة 1943-1948"، هسبيريس تامودا، العدد LI، المجلد 3، (عدد خاص - القسم الثاني)، 2016.

- بوعسرية بوشتي، " الحرف والحرفيون بمكناس من الازدهار إلى الانحطاط 1900-1936"، مجلة أمل، العدد 7، 1969.
- حرب أسامة، "ذخائر آخر الأيام يهودا حيون"، مجلة المحجة، العدد 15، تصدر عن معهد المعارف الحكمية للدراسات الدينية والفلسفية، بيروت، 2007.
- سلام شعبان، "فلسفة الدلالات الدينية لبعض الأعياد اليهودية"، المحجة، العدد 15، مجلة متخصصة تعنى بشؤون الفكر الديني والفلسفة الإسلامية، ملف العدد: اليهودية: مدارسها الدينية وتياراتها الفكرية، معهد المعارف الحكمية للدراسات الدينية والفلسفية، 2007م/1428 هـ.
- شحلان أحمد، "محاولة إصلاح التعليم اليهودي بالمغرب في القرن XIX ودور مدارس الاتحاد الإسرائيلي في أوضاع ما قبل الحماية"، مجلة الإصلاح والمجتمع المغربي في القرن التاسع عشر، أيام دراسية من 20 إلى 23 أبريل 1983، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط: ندوات ومناظرات رقم 7.
- عياش ألبير، "الحركة النقابية بالمغرب، مغرب الحركة 1943-1948"، ترجمة نور الدين سعودي، الجزء الثاني، منشورات أمل، الطبعة الأولى، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1997.
- عياش جرمان، "الأقلية اليهودية في مغرب ما قبل الاستعمار"، مجلة دار النيابة، السنة الثالثة، العدد 12، خريف 1986.
- كنيب محمد " نظام فيشي وفرنسا الحرة والحركة الوطنية المغربية 1940-1944"، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، العدد 20، الرباط، 1995.
- مازي حسنة، "تأثير الغزو الإمبريالي على تنظيم الحرف بالمغرب في عهد الحماية، 1912-1956"، مجلة آفاق الثقافة والتراث، السنة السادسة عشرة، العدد الحادي والستون، إصدار قسم الدراسات والنشر والعلاقات الثقافية بمركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، الإمارات العربية المتحدة، مارس 2008.
- مالكا إيلي، "تاريخ القضاء العبري والقضاء الإسرائيلي بالمغرب"، القضاء والقانون، السنة 7، الأعداد 64-63-62، الدار البيضاء، أكتوبر-ديسمبر 1963.
- مديرية الوثائق الملكية، مجلة الوثائق المغربية، العدد 2، المطبعة الملكية، الرباط، 1976. الحجوي محمد بن عمر، "خطرات: الصحة العمومية"، مجلة المغرب، العدد 17، فبراير 1934.
- الجريدة الرسمية:
- العدد 266 بتاريخ: 1918/06/03.

❖ مقالات بندوات منشورة:

- البكراوي محمد، "وضعية حرفة الدباغة بمكناس على عهد الحماية 1934-1950"، ندوة الجمعية المغربية للبحث التاريخي التي نظمت بكلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، أيام 26-27-28 أكتوبر 1995، تحت عنوان: التشكيلة الاجتماعية في تاريخ المغرب، مجلة أمل، العدد 18، 1999.
- الكتبية سعاد، "البنية الاقتصادية لطوائف يهود المغرب الأقصى في القرون الوسطى"، واقع وآفاق، سلسلة ندوات ومناظرات، رقم 111، إنجاز الجمعية المغربية للدراسات الشرقية، تنسيق أحمد شحلان- إدريس عبيزة، منشورات كلية الآداب بالرباط، الطبعة الأولى، 2004.
- اللحية محمد، "الواسطة بين ملاح اليهود والمدينة: الوظيفة والمشاكل المطروحة من خلال نموذج مدينة مكناس"، أعمال ندوة التجارة في علاقتها بالمجتمع والدولة عبر تاريخ المغرب، القسم الثاني، جامعة الحسن الثاني، كلية الآداب والعلوم الإنسانية I، عين الشق، الدار البيضاء، 23 فبراير 1989.
- المدلاوي محمد، "صورة المغرب في بعض المکتوبات العبرانية واليهودية"، ضمن الدراسات الشرقية واقع وآفاق، إنجاز الجمعية المغربية للدراسات الشرقية، تنسيق، أحمد شحلان- إدريس عبيزة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط سلسلة: ندوات ومناظرات رقم 111.
- حاتمي محمد "الجمعيات اليهودية المغربية زمن الحماية"، ضمن "الجمعيات بين التأطير والتوظيف"، أعمال الندوة المنعقدة أيام 18 و 19 و 20 أكتوبر 2007، بفناء كلية الآداب والفنون والإنسانيات بمنوبة تقديم وتنسيق الكراي القسنطيني، تونس، 2009.
- حاتمي محمد، "التعليم اليهودي في مغرب النصف الأول من القرن العشرين، أدوار الرابطة اليهودية العالمية (الأليانس) والمدارس التلمودية الأمريكية"، وقائع الندوة الوطنية التي نظمها فريق البحث في التاريخ والمجتمع والتواصل، بتاريخ 16 ماي 2010، تنسيق علال ركوك، حفيظة الهاني، رشيد الشوقي، جامعة محمد الخامس السويسي- الرباط، منشورات المعهد الجامعي للبحث العلمي، 2012.
- حاتمي محمد، "الجماعات اليهودية المغربية خلال مرحلة الحماية: حصيلة الأبحاث الأكاديمية"، المغرب والزمن الراهن معطيات ومقاربات، أعمال اللقاء المنعقد بالمعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب، بتاريخ 14 يوليوز 2007، تقديم محمد القبلي، تنسيق عبد الرحمان المودن، منشورات المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب، الرباط، 2013.

❖ الجرائد:

- السرفاتي أبرهام، " مذكرات أبرهام السرفاتي"، جريدة الأحداث المغربية، 20 يوليوز 2000.
- عاهد سعيد، " طبائع المغاربة وعاداتهم"، جريدة الإتحاد الاشتراكي، 4 مارس، 2000.

II. باللغة الفرنسية:

1. FONDS D'ARCHIVES :

1.1. Alliance Israélite Universelle à Paris (AIU) :

- A.AIU, B II 12.92, Lettre de Almaleh Bensimon instituteur à l'école de l'AIU de Meknès, au président de l'AIU à Paris, Meknès, 15/07/1933.
- A.AIU, B II 12.92, Lettre de Almaleh Bension Instituteur à l'école de l'AIU de Meknès, au président de l'AIU à Paris, Meknès, 28/11/1932.
- A.AIU, II B 12.63, Lettre de Almaleh Bension au président de l'AIU à Paris, Meknès, 26/03/1933.
- A.AIU, II B 12.65, Lettre de Almaleh Bentizon au président de l'AIU à Paris, Meknès, 11/04/1935.
- A.AIU, II B 12.98, Archives Amar Abraham, Lettre de l'AIU, au président de la Communauté Israélite de Méquinez.
- A.AIU, Paris-Maroc, IJ 162 (bobine N.29 copie 1/1 Mai 1999- Microfilme), Lettre du président du Comité de L'Alliance Israélite Universelle au Général Lyautey, Paris, Juillet 1915.
- A.AIU, XXXI E 511, Lettre au directeur général de l'Instruction publique à Rabat, 4/11/1935.
- A.AIU, XXXI E 511, Lettre de Bitton Elie au président de l'Association des Anciens Élèves des Ecoles de l'AIU, Archives de l'Association des Anciens Élèves des Ecoles de l'AIU, Meknès, 1929 et 1939.
- A.AIU, XXXI E 511, Lettre de L'Association des Anciens élèves de l'AIU de Meknès, au Semach délégué de l'AIU au Maroc, 14/08/1939.
- A.AIU, XXXI E 511, Lettre de l'Association des Anciens élèves de L'AIU de Meknès, au Semach délégué de l'AIU au Maroc, 29/06/1939.
- A.AIU, XXXI E 511, Lettre de l'Association des Anciens élèves de l'AIU de Meknès, au président de l'AIU, Paris, 27/04/1939.

- A.AIU, XXXI E 511, Lettre de Lerner directeur de l'école l'AIU de Meknès, au président de l'Association des Anciens élèves de Meknès, 17/07/1939.
- A.AIU, XXXI E 511, Lettre de Semach délégué de l'AIU au Maroc, au président de l'Association des Anciens élèves de Meknès, 11/05/1939.
- A.AIU, XXXI E 511, Lettre de Semach délégué de l'AIU au Maroc, au président de l'Association des Anciens élèves de Meknès, 17/07/1939.
- A.AIU, XXXI E 511, Lettre de Semach délégué de l'AIU au Maroc, au président de l'Association des Anciens élèves de Meknès, 30/05/1939.
- A.AIU, XXXI E 511, Lettre du Président de l'Association des Anciens Elèves de Meknès, au président de l'AIU, Meknès, 27/02/1929.
- A.AIU, XXXI E 511, Lettre du Président de l'Association des Anciens Elèves de Meknès, au président de l'AIU à Paris, Meknès, 14/08/1939.
- A.AIU, XXXI E 511, Lettre du Président de l'Association des Anciens Elèves de Meknès, au Semach Délégué de l'AIU au Maroc, 27/05/1939.
- A.AIU, XXXI E 513, Lettre de Adjman au président de l'AIU à Paris, Meknès, 24/03/1925.
- A.AIU, XXXI E 513, Lettre de Adjman au président de l'AIU à Paris, Meknès, 05/06/1925.
- A.AIU, XXXI E 513, Lettre de Adjman au président de l'AIU à Paris, Meknès, 06/11/1924.
- A.AIU, XXXI E 513, Lettre de Adjman au président de l'AIU à Paris, Meknès, 15/11/1924.
- A.AIU, XXXI E 513, Lettre de Adjman au président de l'AIU à Paris, Meknès, 18/11/1924.
- A.AIU, XXXI E 513, Lettre du président de l'AIU à Paris, au Adjman, Meknès, 5/04/1925.
- A.AIU, XXXI E 514, Lettre de Almaleh Bentzion, au président de l'AIU à Paris, Meknès, 16/11/1932.
- A.AIU, XXXI E 514, Lettre de Almaleh Bentzion, au président de l'AIU à Paris, Meknès, 18/12/1933.
- A.AIU, XXXI E 514, Lettre de Almaleh Bentzion, au président de l'AIU à Paris, Meknès, 25/10/1932.

- A.AIU, XXXI E 514, Lettre de Almaleh Bentzion, au président de l'AIU à Paris, Meknès, 25/10/1932.
- A.AIU, XXXI E 514, Lettre du Almaleh Bentzion, au président de l'AIU à Paris, Meknès, 28/11/1932.
- A.AIU, XXXI, E 511, Rapport moral et financier de l'Association des Anciens élèves de l'Alliance Israélite de Meknès pour la période du 2 juillet 1938 au 31 Mars 1939, Meknès, 18/04/1939.

1.2.Archives Nationales Rabat (ANR) :

- ANR, Annex n. 3 au Bulletin de Renseignement Politique du 5 au 11 Septembre, Admission des élèves Juifs dans les Etablissements d'enseignement publique au Maroc à partir de la rentrée d'Octobre 1941, N. de boîte : A1046.
- ANR, Application du Dahir du 5 Août 1941 (11 rejeb 1360), Prescrivant le recensement des Juifs. N° de boîte : A1046.
- ANR, Arrêté municipal N° 93, Objet : règlement de la taxe de stationnement, le colportage et la vente des denrées sur la voie publique, Meknès, boîte B 16, 19/06/1917.
- ANR, Arrêté municipal N.111, prescrivant la déclaration obligatoire des animaux enragés, ainsi que ceux mordus, roulés ou léchés par des animaux enragés, Meknès, Carton N. 900, Juin 1921.
- ANR, Arrêté viziriel du 12 décembre 1914, portant nomination des membres de la Commission Municipale de Meknès, Extrait de B.O, 28 Décembre 1914, N.114, p. 185, Dossier non classé non numéroté non daté.
- ANR, Arrêté viziriel du 18 Août 1941 (24 rejeb 1360), Réglementant la profession d'avocat par les Juifs, N° de boîte : A1046.
- ANR, Arrêté viziriel pour l'application du Dahir du 5 Août 1941 (11 rejeb 1360) relatif au statut des Juifs Marocains, 16 Septembre 1941, (23 chaabane 1360) Signé Mohammed El Mokri, N° de boîte : A1046.
- ANR, Arrêté viziriel, Réglementant la profession de médecin par les juifs, 24 Février 1942 (9 Safar 1361), N° de boîte : A1046.
- ANR, B.O, N°1502 du 8 août 1941, N° de boîte : A1046.
- ANR, Bordereau d'envoi N° 98056 du Général Chef de la Région de Meknès au Directeur des Affaires Politiques, 14/08/1943.

- ANR, Circulaire N° 18 Tr, du Commissaire Résident Général de la République Française au Maroc aux Chefs des Régions, Objet : Emigration d'Israélites marocains en Palestine, 29/07/1923.
- ANR, Dahir du 19 Août 1941 (25 rejev 1360) interdisant l'habitat des Juifs sujets marocains dans les secteurs européens des municipalités, N° de boite : A1046.
- ANR, Dahir du 5 Août 1941 (11 rejev 1360) relatif au statut des Juifs marocains, N° de boite : A1046.
- ANR, Délégation Générale du Gouvernement en Afrique Française, Bureau Politique, Note sur le nouveau statut des Juifs au Maroc, N° de boite : A1046.
- ANR, Etat indiquant le nombre de maîtres ouvriers, et apprentis musulmans et israélites à la fin de Septembre, Meknès, boite N°16, 1921.
- ANR, Extrait du Journal Officiel de la République Française N° 256, du 8 Octobre 1940, p. 5234, portant abrogation du décret du Gouvernement de la défense nationale du 24 Octobre 1870 et fixant le statut des juifs indigènes des Départements de l'Algérie, N° de boite : A1046.
- ANR, Instruction Résidentielle pour l'examen des demandes de dérogation résultant de la législation en vigueur sur les Juifs, N° de boite : A1046.
- ANR, Les Rapports Mensuels du Bureau Municipal d'hygiène, Meknès, des mois de Janvier, Février, Avril, Mai, Juin, Juillet, Août, Septembre, Novembre, et Décembre, Carton N° :673, 1944.
- ANR, Lettre de Joseph Elie Berdugo, au Général Commandant de la Région de Meknès, carton N° 633, 4/01/1939.
- ANR, Lettre de l'Association des Agriculteurs de la Région de Meknès au président de la chambre d'Agriculture de Meknès, N° de boite : A1046.
- ANR, Lettre de l'Inspecteur Général des Services Administratifs au Conseiller juridique du Protectorat (Service de législation), N° de boite : A1046.
- ANR, Lettre du chef des services municipaux de Meknès N°6828, au directeur des Affaires Politique à Rabat, Carton N° A1578, 24/05/1938.
- ANR, Lettre du Conseiller du gouvernement Chérifien, au secrétariat général de protectorat, Objet : A/S Enseignement Israélite au Maroc, Carton N° : D 432.
- ANR, Lettre du Consul du Brésil, au Chef du Cabinet Diplomatique Résidence à Rabat, 08/11/1941, Casablanca.

- ANR, Lettre du directeur de l'Agence Cherfienne D'Importation et d'Exportation, au Conseiller Juridique du Protectorat- Maitre des Requêtes au Conseil D'Etat, N° de boite : A1046.

- ANR, Lettre du Directeur des Affaires Politique aux Chefs des Régions : Casablanca, Fès, Marrakech, Meknès, Oujda et Rabat (Secrétariats généraux) et au Chef Commandant Agadir-Confins (Bureau du Commandement), Objet : a/s Application du Dahir du 5 Août 1941 (11 rejev 1360), Prescrivant le recensement des juifs. N° de boite : A1046.

- ANR, Lettre du président de la communauté israélite au Chef des Service Municipaux Meknès, Carton N°650, 19 Avril.

- ANR, Lettre du Secrétaire Général du Protectorat au Président du Comité Provincial de la Légion du Maroc, Objet: Organisation de l'enseignement israélite au Maroc, Carton N°, A 1046.

- ANR, Lettre N° 0696 CM/5, du Général chef de la Région de Meknès, au D.G.I, 02/12/1939.

- ANR, Lettre N° 0700 CM/2, 04/12/1939.

- ANR, Lettre N°6806 M/5, du Général de Brigade Chef de la région de Meknès, au D.G.I.P, Dossier : Juifs du Maroc, Carton N°633, 31/10/1938.

- ANR, lettre N°7639 du Résident Général au Général Commandant de la région de Meknès, Carton N°598, 27/12/1919.

- ANR, Note au sujet de l'admission des élèves Israelites dans les établissements secondaires du Maroc, Carton N° 633, 15/02/1941.

- ANR, Note de Moise Nahom, sur l'organisation des Communautés Israélites, 28/03/1913, Dossier : Juifs du Maroc, non classé.

- ANR, Note du Directeur des Affaires Politique au Résident Général, Dossier : Juifs du Maroc, Carton N°633, 16/03/1939.

- ANR, Note pour le Commissaire Résident Général, Boite N°A1046.

- ANR, Note sur l'enseignement israelite au Maroc, Carton N° : A1046

- ANR, P.V de C-M, du 4 juin 1921, Carton N° 1719.

- ANR, P.V Séance du 13 Mars 1922, Commission Municipale Indigène, Service Municipaux de la Médina, Carton N°164.

- ANR, P.V Séance du 25 Juillet 1921, Section Française, Service Municipal, Meknès, Carton N°1719.

- ANR, Population d'après les recensements de 1921 et 1926, Dossier : ordre général, Statistique démographique, Carton N° B21.
- ANR, Population des principales villes du Maroc, Juillet 1919, Dossier Recensement de la population civile, Carton N° B21.
- ANR, Rapport Annuel du bureau municipal d'hygiène, Meknès, Carton N° 1181, 1932.
- ANR, Rapport Annuel du bureau municipal d'hygiène, Meknès, Carton N° 1181, 1935.
- ANR, Rapport Annuel du bureau municipal d'hygiène, Meknès, Carton N° 541, 1935-1936.
- ANR, Rapport Annuel du bureau municipal d'hygiène, Meknès, Carton N° 1606, 1945.
- ANR, Rapport Annuel du bureau municipal d'hygiène, Meknès, Carton N° 837, 1923.
- ANR, Rapport Annuel, du bureau municipal d'hygiène, Meknès, Carton N° 1576, 1944.
- ANR, Rapport mensuel du bureau municipal d'hygiène, Meknès, Carton N° 1181, Juillet 1936.
- ANR, Rapport mensuel du bureau municipal d'hygiène, Meknès, Carton N° 1542, février 1936.
- ANR, Rapport mensuel du bureau municipal d'hygiène, Meknès, Carton N° 1542, Juin 1936.
- ANR, Rapport Mensuel, Février 1930, Services Municipaux, Meknès, Carton N°829.
- ANR, Rapport Mensuel, Meknès, Carton N° 852, Mars 1923.
- ANR, Rapport Mensuel, Novembre 1930, Services Municipaux, Meknès, Carton N°829.
- ANR, Rapport Mensuel, Octobre 1930, Services Municipaux, Meknès, Carton N°829.
- ANR, Rapport Mensuel, Services Municipaux, Meknès, Carton N°829, Octobre 1930.

- ANR, Rapports Mensuels du bureau municipal d'hygiène, Meknès, des mois de Janvier, Février, Avril, Mai, Juin, Juillet, Août, Septembre, Novembre et Décembre, N° Carton 673, 1944.
- ANR, Résultats Statistiques du Recensement de la population de la zone Française de l'Empire Chérifien, effectué le 8 Mars 1931.
- ANR, Secrétariat Général du Protectorat, circulaire N°35-S.P, Objet : a/s- Exclusion des Juifs des Fonctions Publiques.
- ANR, Secrétariat Général du Protectorat, Service de Législation, objet : Dahir interdisant l'habitat des Juifs sujet Marocain dans les secteurs européens des Municipalités, Publié in B.O N° 1504, Carton N° D 432.
- ANR, Secrétariat Général du Protectorat, Service de Législation, objet : Dahir à l'application au Maroc de la Loi du 3 Octobre 1940 portant Statut des Juifs, B.O N° 1463, 8 Novembre 1940. Carton N° D 432.
- ANR, Secrétariat Général du Protectorat, Service de législation, Objet : Dahir à l'application au Maroc de la loi du 2 juin 1941 portant statut des juifs, BO, N° 1502, 08/08/1941, Carton N° : D432
- ANR, Secrétariat Général du Protectorat, Service de législation, Objet : Dahir du 5 Août 1941 (11 rejev 1360), Prescrivant le recensement des Juifs. N° de boite : A1046.
- ANR, Secrétariat Général du Protectorat, Service de législation, Objet : Loi du 2 JUIN 1941 remplaçant la loi du 3 octobre 1940 portant statut des Juif, Boite N°: A1046.
- ANR, Secrétariat Général du Protectorat, Service de législation, Objet : statut des Juifs, Dahir DU 31 Octobre 1940 (29 Ramadan 1359), relatif à l'application en zone française de l'Empire Chérifienne de la loi du 3 octobre 1940 portant Statut des Juifs.
- ANR, Service Municipale, Section Française, Meknès, Carton N°650, 25 Juillet 1921.
- ANR, Rapport annuel du bureau municipal d'hygiène, Meknès, Carton N° 1181, 1935.
- ANR, Rapport annuel du bureau municipal d'hygiène, Meknès, Carton N° 541, 1935-1936.

- ANR, Dahir du 22 mai (11 chaabane 1336), portant Réorganisation des Tribunaux Rabbiniques et du Notariat Israélite, in BO N° 292, 27/05/1918.
- ANR, Dahir du 7 mai 1945 (24 joumada 1, 1364), relatif à la Réorganisation des Comités des Communautés Israélites Marocaines, in BO, 1945.
- ANR, P-V du C.M, Meknès, Carton N° 1719, 04/06/1929.
- ANR, Rapport Mensuel du bureau municipal d'hygiène, Meknès, Carton N° 1181, juillet 1936.

1.3. Documents du Centre des hautes Etudes sur l'Afrique et l'Asie Modernes (CHEAM) :

- Capitane Nollet, Les Juifs du Maroc et L'Occident, C.H.E.A.M, N° 3121.
- Gaud (J), Politique de santé publique au Maroc, 8 mars 1955, C.H.E.A.M, N°2456.
- Gautier (G), Contribution à l'enquête sur le prolétariat marocain (Meknès), C.H.E.A.M, N°2182.
- Nouvel (M), l'évolution du judaïsme marocain, C.H.E.A.M, N° 1096.
- Olivier (f), Mémoire sur l'évolution économique des tribus de la banlieue de Meknès depuis l'occupation française, C.H.E.A.M, N° 77.

2. SOURCES :

- Abitbol Michel, Les Juifs d'Afrique du Nord sous Vichy, Ed Riveneuve, Paris, 2008.
- Armand Abécassis, Rue des synagogues, Ed Robert Laffont, Paris, 2008.
- Assaraf Robert, Eléments de l'histoire des juifs de Meknès, Centre de Recherche sur les juifs du Maroc, Ed Bouregreg, Rabat.
- Assaraf Robert, Une certaine histoire moderne des juifs au Maroc 1860-1999, Ed Jean-Claude Gawsewitch, Paris, 2005.
- Attali Jacques, Les Juifs, Le Monde et L'argent, Histoire économique du peuple Juif, Fayard, Paris, 2002.
- Benabou Marcel, Une enfance juive en Méditerranée musulmane, textes inédits recueillis par Leila Sebbar, Ed La Croisée des Chemins, Casablanca, 2013.

- Bensimon-Donath Doris, Evolution du judaïsme marocain sous le Protectorat français, 1912-1956, Ed Mouton et Co, Paris, 1968.
- Bensimon-Donath Doris, L'évolution de la Femme israelite à Fès, Faculté des Lettres Aix-en-Provence, Travaux de Mémoires XXV. Ed La Pensée Universitaire.
- Berdugo Arlette, Juives et Juifs dans le Maroc contemporain, image d'un avenir, Ed. Librairie orientaliste Paul Geuthner, Paris, 2002.
- Bergmane Fabienne et Haim Shiran (Shkérane), Le Rocher d'origine, Ed la Compagnie Littéraire, Paris, 2013.
- Bernavi Elie, Sionismes, in Les Juifs et le XX siècle, Calmann-Lévy, 2000.
- Bernos Jonathan, Migration juives du Maroc, I.M.P.E.M.F, Paris, 1991.
- Chouraqui André, Histoire des Juifs en Afrique du Nord, tome 1 : En exil au Maghreb, Ed du Rocher, Paris, 1998.
- Chouraqui André, Histoire des Juifs en Afrique du Nord, tome 2 : Le retour en Orient, Ed Roucher, Paris, 1998.
- Chouraqui André, La condition juridique de l'israélite marocain, publié par l'Alliance Israélite Universelle, Ed Presse du livre Français, Paris, 1950.
- Chouraqui André, L'Alliance Israélite Universelle et la renaissance juive contemporaine (1860- 1960), Cent ans d'histoire, Presse Universitaire de France, Paris, 1965.
- Chouraqui André, Les Juifs d'Afrique du Nord, Hachette, Paris, 1985.
- Cohen David, Passions marocaines : mémoires, Ed Bibli Europe, Paris, 1969.
- Cohen Pierre, La presse Juive éditée au Maroc, 1870-1963, Ed Bouregrag, Rabat, 2016.
- Cohen Pinhas, Les juifs du Maroc et la langue arabe, Ed Bouregrag, Rabat, Rabat, 2011.
- Cohen Prosper, Congrès Juif Mondial, Conférence extraordinaire de Guerre, 26-30 novembre 1944, Ed S.I.P.E.F, Casablanca, 1946.
- Colombani (Dr), La protection sanitaire de l'indigène au Maroc, Conférence faite aux journées médicales coloniales de Paris (Juillet 1931), Ed H. Blanc G. Gauthier, Rabat, 1932
- Corac Gérard et autres, La Déclaration des Droits de L'Homme et du Citoyen de 1789, Ed Economica, Paris, 1993.
- De la Casinière. (H), Les municipalités marocaines : leur développement, leur législation, Imprimerie De la Vigie Marocaine, Casablanca, 1924.

- Deschen Shlomo, Les gens du Mellah : La vie juive au Maroc à l'époque précoloniale, Ed Albin Michel, Paris, 1991.
- Devico Raphael, Juif du Maroc des racines ou des ailes? Ed Bibli europe, Paris, 2015.
- Finkelkraut Alain, Le Juif imaginaire, Seuil, Paris, 1980.
- Eisembeth Maurice, les Juifs au Maroc, Ed I.M.P Charras, Alger, 1948.
- F. Borel, De l'origine et des fonctions des consuls, Chez A. Planchant Imprimeur du département des Affaires étrangères, Saint-Pétersbourg, 1807.
- Giraud François, De Foucauld Charles, 1858 -1916 de Strasbourg à Marseille et Tamanrast, Itinéraires d'un homme entre Occident et Orient. Anovi, 2013.
- Goidan Etienne, (Contrôleur Civil au Maroc), Le sionisme au Maroc, Contribution à l'étude du Judaïsme marocain, Rabat, Janvier 1946.
- Groupe d'auteurs, Les relations entre Juifs et Musulmans en Afrique du nord XIX et XX Siècle, Ed du C. N.R.S, Marseille, 1980.
- Herzl Theodor, Journal 1895-1904, Ed Claman- Lévy, Paris, 1990.
- Herzl Theodor, L'Etat des Juifs, essai d'une solution moderne du problème juif, Ed La découverte, Paris, 1989.
- Kenbib Mohamed, Juifs et musulmans au Maroc, 1859-1948, Contribution à l'histoire des relations intercommunautaires en terre d'Islam, Publications de la Faculté des Lettre et des Sciences Humaines-Rabat, Université Mohamed V, 1994.
- Kenbib Mohamed, Juifs et musulmans au Maroc, des origines à nos jours, Ed Tallandier, Paris, 2016.
- Le Rider Jaques, Modernité viennoise et crise de l'identité, P.U.F, Paris, 2000.
- Levaud Alain, Meknès Années 20, Ed. La Croisée des Chemins, Casablanca, 2002.
- Leven Narcisse, Cinquante ans d'histoire, L'AIU, 1860-1910, Vol 2, Ed Félix Alcan et Guillaumin réunies, 1911-1920.
- Lévy Armand, Il était une fois les juifs marocains, L'Harmattan, Paris, 1959.
- Lugan Bernard, Histoire du Maroc des origines à nos jours, Ed Perrin et Critérion, Paris, 2000.
- Luis Brunot et Malka Eli, Textes judéo-arabes de Fès, Publication de L'institut des Hautes Etudes Marocaines, Tome XVIII, Texte transcription traduction, Rabat, 1939.

- Métalsi Mohamed, Tréal Cécile, Ruiz Jean-Michel, Les Villes impériales du Maroc, Ed Terrail, 2001.
- Pollak Michel, Vienne 1900, Gallimard, Paris, 1992.
- Rivet Daniel, Lyautey et l'institution du protectorat français au Maroc T II, L'Harmattan, Paris, 1988.
- Rivet Daniel, Histoire du Maroc, Fayard, Paris, 2012.
- Rivet Daniel, Le Maroc de Lyautey à Mohammed V, Ed Denoël, Paris, 1999.
- Tolédano Joseph, Le Temps du Mellah, Histoire des juifs au Maroc, racontée à travers les annales de la communauté de Meknès, Ed Ramtol, Paris, 1982.
- Tolédano Joseph, Meknès, Portrait d'une communauté juive marocaine, Histoire, Culture, Humour et Folklore, Ed Ramtol, Israël, 2017.
- Vajda George, Un recueil de textes historiques judéo-marocains, Larousse, Paris.
- Weisgerber Frédéric, Au seuil du Maroc Moderne, Ed De La Port, Rabat, 1947.
- Zafrani Haim, Pédagogie juive en Terre d'Islam, l'enseignement traditionnel de l'Hébreu et du Judaïsme au Maroc, Librairie d'Amérique et d'Orient, Adrien Maisonneuve, Paris, 1969.

3. Revues et Périodiques :

- Annuaire marocain, « Industriel, Agricole, Economique, Financier », Chapitre IX, Région de Meknès, Imprimeries Reuis, Casablanca, 1955.
- Annuaire Marocain, Industriel, Agricole, Economique, Financier, Imprimeries, Reuis, Casablanca, 1955.
- Annuaire statistique du Maroc, 1955-1956.
- Annuaire statistique général du Maroc, Rabat 5ème Vol, 1929.
- Arnaud (Dr), « Quelque aspects de la médecine marocaine », Extrait du Maroc-Médical, N°231.
- Ayache Germain, « La minorité juive au Maroc », Hespéris Tamuda. Vol XXV.
- De Lens (A.R), « La médecine des indigène marocains, pratiques médicales et magique des matrones à Meknès », in Maroc médical N°9, 15 Juillet 1922.
- Jugnet Albert, « Le Sanatorium », Notre Maroc, N° spécial, avril 1951.

- Kenbib Mohamed, « Les relation entre Musulmans et Juifs au Maroc, 1859-1945 », Hesperis Tamuda, Vol X XIII, 1985.
- « Le Talmud Torah de Meknès », in B.E.P.M, N°138, 20eme année, Mars 1935.
- « Le Congrès des communauté israélites », in B.I.M, Vol VI, 20 janvier 1952.
- Villème Louis, « L'évolution de la vie citadine au Maroc », in Cahier de L'Afrique et L'Asie, Tome I, Paris, 1950.
- Massignon Luis, « Enquête sur les corporations musulmanes et des commerçants au Maroc, d'après les réponses à la circulaire résidentielle du 15 Novembre 1923, envoyé sous le timbre de la Direction des Affaires indigènes du service des renseignements », Revue du Monde Musulman, Tome 85, 1924.
- Ricard Prosper, « L'industrie indigènes au Maroc », B.E.M, Vol I, N°6, octobre 1934.
- Rivet Daniel, « La recrudescence des épidémies au Maroc durant la 2eme Guerre mondiale, Essai de mesure et d'interprétation », Hesperis-Tamuda, vol XXX, Fax-1,1992.

- Ayache Germain, « La recherche au Maroc sur L'histoire du judaïsme marocain », in Juifs du Maroc, Identité et dialogue, Actes du Colloque international sur La communauté Juive Marocaine : vie culturelle, histoire sociale et évolution, 18-21 décembre 1978 Paris, Ed la Pensée sauvage.
- Benchochan Raphael, « L'identité marocaine en Israël », in Juifs du Maroc, identité et dialogue, Actes du colloque international sur la communauté juive marocaine, vie culturelle, histoire sociale et évolution, Grenoble, 1980.
- Bensimon (D), « Relations entre juifs et musulmans au Maroc sous le Protectorat Français », in Les relations entre Juifs et Musulmans en Afrique du Nord XIX- XX siècles, Actes du colloque international de l'institut d'histoire des pays d'outre-mer, CNRS, Paris, 1980.
- Goldenberge Andre, « Divers Aspects de la contribution des artisans juifs aux arts traditionnels du Maroc », in Actes du Colloque international sur la Communauté Juive Marocaine : vie Culturelle, Historique Social et évolution, 18-21 décembre 1978, La Pensée Sauvage, Grenoble, 1980.

- Guigui Albert, « Historique de la communauté juive de Meknès », in Colloque international de l'Institution d'histoire des pays d'Outre-mer, actes du Abboye de Sénanque, Octobre 1978, C.N.R.S, Paris, 1980.

- Heller-Goldenberg Lucette, « Les juifs marocains sous le Protectorat et après l'Indépendance », in L'héritage colonial du Maroc, Actes du 8° colloque Maroco-Allemand, Bayreuth 2011, Institut Royal de la Culture Amazighe, Rabat, 2013.

- Kenbib Mohamed, « Juifs et musulmans au Maroc à l'époque du Front Populaire, 1936-1938 », in Hespéris -Tamuda Vol: 25, 1987.

- Kenbib Mohammed, « Les Juifs du Maroc, le Makhzen et les puissances européennes aux XIX ème - XXème siècles », in La résistance marocaine à travers l'histoire ou le Maroc des résistances, Actes du colloque international, Publication I.R.C.A.M, Rabat, 2005.

- « Les relations entre juifs et musulmans en Afrique du Nord (XIXe-XXe siècles) », in Actes du Colloque international de l'Institut d'histoire des pays d'Outre - Mer, organisé par J.-L. Miège, Abbaye de Sénanque, octobre 1978.

- B.O, N°1504, du 22 Août 1941.

- B.O, N°947, 19 décembre.

- Dahir du 07 mai 1945 (24 Joumada1, 1364) relatif à la Réorganisation des comités des communautés israélites marocaines, in BO, 1945.

- Dahir du 22 mai (11 chaabane 1336) portant Réorganisation des tribunaux rabbiniques et du ootariat israélite, in BO, N 292, 27 mai 1918.

4. JOURNAUX :

- « A propos d'une conférence », in AI, 30 Septembre 1926.

- AI, N°149, 6ème année, 16 Avril 1931.

- AI, N°2, 1926.

- AI, N°5, 1930.

- « Contact... », In VC, N°4, Mai 1950.

- D. Wolcowicz Stephen, « Rapport sur les Juifs du Maroc », in Noar, N° 9, Mai 1947.

- David (E.H), « Préservons-nous du paludisme », in Meknès-Fès, N°613, 14eme année, 9 juin 1929.

- « Être Juif ! », in AI, N° 272, 31 Mai, 1938.
- Goulven (M), « Israélites et Musulmans au Maroc », in AI, N°2, Première Année, 10 Août 1926.
- Hatimi Mohamed, « Les derniers juifs d'El Ismaïlia », in Le Journal, du 21 au 27 Avril, 2001.
- « L'éternel problème », in AI, N°251, 15 Octobre 1936.
- «L'unique solution», in AI, N° 278, 15 Décembre 1938.
- « Le bal de l'aide scolaire », In VC, N° 25, Novembre 1952.
- « Le Dahir inappliqué », in AI, N° 256, 15 Janvier 1937.
- « Le nouveau Mellah de Meknès », in AI, N° 45-46, 16 Décembre 1927.
- « Le problème des Mellahs », in AI, N° 158-18, Juin 1931.
- « Le Problème juif au Maroc », in AI N°157, 18 Juin 1931.
- « Le Problème juif au Maroc », in AI N°255, 15 Décembre 1936.
- « Le problème Juif au Maroc », in AI, N° 256, 15 Janvier, 1937.
- « Le Statut des communautés israélites au Maroc », in AI, 1ere année, N° 10. 17 Décembre 1922.
- « Le Statut insaisissable », in AI, N° 252, 31 Octobre 1936.
- « Le triste sort des juifs de Meknès » in AI, N° 44-45, 1927.
- « Les origines du judaïsme marocain », in AI, N°13, 28 Janvier.1927.
- « Les problèmes de l'enseignement », in VC, N°54, Septembre 1955.
- « Meknès », in VC, N° 19, Mars 1952.
- « Meknès, au Talmud Thora, épreuves du certificat de fin d'études hébraïques, Cycle Primaire », in VC, N° 33, 1953.
- « Nos enfants ont faim », in AI, N° 260, 30 Avril 1937.
- « Notre programme », in UM, 4 février 1932.
- Ohana J.P, « Les deux écoles », In VC, N°3, Avril 1950.
- Ohayon (J), « La crise scolaire », in AI, N° 259, Mars 1937.
- Ohayon (J), « La politique scolaire », in AI, N° 149, 6°Année, 18 Avril, 1931.
- Ohayon (J), « Le statut du judaïsme marocain» in AI, N° 273, 30 Juin 1938.
- « Première étape », in AI, N° 253, 15 Novembre 1936.
- « Rapport sur les juifs du Maroc », in Noar, Mai 1947.
- «Terre promise», in AI, N° 271, 30 Avril, 1938.

- «Utopie», in AI, 14 Avril 1932.

4. WEBOGRAPHIE :

- <https://encyclopedia.ushmm.org/content/ar/article/jewish-badge-during-the-nazi-era>.
- https://st-takla.org/pub_Bible-Interpretations/Holy-Bible-Tafsir-01-Old-Testament/Father,Antonious-Fekry/05-Sefr-El-Tathneya/Tafseer-Sefr-El-Tathnia__01-Chapter-25.html.

فهرس الصور

رقم الصورة	عنوان الصورة	الصفحة
01	جلسة شاي بمقهى تجمع بين مغاربة يهود ومسلمين	04
02	موزيسمونتيفوري، رئيس مجلس نواب اليهود البريطانيين، 1885-1784	41
03	استقبال الديبلوماسيين الأجانب من طرف العائلات اليهودية المغربية	49
04	اللاجئون اليهود داخل القصر الملكي بمدينة فاس	72
05	تلاميذ يهود بمدرسة الرابطة بمدينة تطوان	100
06	عريضة باللغة العبرية موقعة من طرف مجموعة من أعيان يهود مكناس	107
07	تلاميذ مدرسة الرابطة بمكناس، سنة 1919	118
08	نموذج رسالة	127
09	تلاميذ يهود داخل يتابعون تعليمهم الديني داخل مؤسسة الحدر	140
10	تلاميذ يهود يتابعون تعليمهم الديني بمؤسسة التلموذ تورا	149
11	تلاميذ يهود يتابعون تعليمهم الديني بمؤسسة التلموذ تورا	170
12	اليهود والمسلمون للتقيح ضد مرض الجدري	174
13	ميمون بنعبو، الأب الروحي للملاح الجديد بمكناس	197
14	مقال يتناول بعض خصائص الملاح الجديد	203
15	نموذج لتصميم الملاح الجديد بمكناس	205
16	نموذج مقال يتناول حيثيات منع اليهود من مغادرة الملاح خلال موسم عيساوة	206
17	حرفي يهودي بمدينة مكناس	222
18	إسكافي يهودي	224
19	تاجر يهودي يبيع المواد الغذائية بالتقسيط	236
20	نموذج إحصاء للمهن المزاولة بمدينة مكناس	239
21	جوزيف بيرديغو، رئيس الجماعة اليهودية بمكناسيحيي المقيم العام الجنرال غيوم بالرباط	271
22	مقال حول الأعمال الخيرية لصالح أبناء اليهود	279
23	صورة مقال يتناول موضوع الهوية وأومة الانتماء في صفو اليهود	328
24 و 25	تعبسان التحول الذي طرأ على أبناء يهود مكناس ما بين 1919 و 1953: اللباسنموذجا	332
26	صورة لتيودور هرتزل بواجهة جريدة المساقبل المصور	338
27	نموذج مقال يشيد بالمنجزات اليهودية التي تحققت بفلسطين	340
28	جريدة الاتحاد المغربي الناطقة باسم اليهود الاندماجيين	342
29	كاريكاتور معادي للسامية؛ تاجر يهودي متجول يتعرض للسرقة من طرف جنود فرنسيين	347
30	وثيقة تتضمن مضامين ظهير 31 أكتوبر 1940	374
31	دورية بخصوص إبعاد اليهود من بعض المهن بمقتضى قوانين فيشي	377
32	وثيقة تعكس موقف معادي للسامية من طرف مستوطنين فرنسيين بمدينة مكناس	380

33	صورة تعكس عرف "المزاوكة" من طرف اليهود طلبا للحماية	384
34 و35	نموذج وثيقتين بخصوص إحصاء المغاربة اليهود وأموالهم المنقولة وغير المنقولة	390
36	عائلة يهودية ببارس سنة 1984، في الطريق إلى إسرائيل	456
37	صورة لأسرة يهودية من أصول مكناسية بمدينة حيفا الفلسطينية سنة 1949	467

4	مقدمة عامة
21	الباب الأول: الوضع الاجتماعي والاقتصادي للجماعة اليهودية: دينامية الانفتاح والترقي
23	الفصل الأول: المغاربة اليهود وتداعيات التغلغل الأجنبي بالمغرب
24	1. المغاربة اليهود وخلفيات التدخل الأوروبي ..
35	2. نتائج انفتاح الجماعة اليهودية على أوروبا: تصدع العلاقة مع المجتمع المحلي
56	3. موقف الجماعة اليهودية من التدخل الفرنسي، وموقف الحماية الفرنسية منها
91	الفصل الثاني: التعليم والصحة والنمو الديموغرافي والسكن
92	1. التعليم: مسار التحرر من النسق العتيق
157	2. الصحة والنمو الديموغرافي ..
186	3. السكن: فشل التماثل الاجتماعي بالمدينة الأوروبية والانتقال إلى الملاح الجديد
212	الفصل الثالث: النشاط الاقتصادي
213	1. النشاط الحرفي
233	2. النشاط التجاري ومهام الوساطة
246	الباب الثاني: الجماعة اليهودية بين السياق الوطني وتداعيات الوضع الدولي محليا: دينامية التبادل
248	الفصل الأول: دينامية الجماعة اليهودية
249	1. تطور المؤسسات التنظيمية: السياق والحصيلة
278	2. انبثاق مجتمع يهودي نشيط ومتضامن ..
307	3. التحولات البنوية للجماعة اليهودية
333	الفصل الثاني: تصدع العلاقة بين يهود ومسلمي المدينة
334	1. التطورات والأحداث التي خدمت الدعاية الصهيونية بالمدينة
369	2. يهود مكناس بين قوانين فيشي والإنزال الأمريكي
399	3. مواقف الجماعة اليهودية من المقاومة والحركة الوطنية ومطلب الاستقلال
422	الفصل الثالث: يهود مكناس بين النشاط الصهيوني وإشكالية الهجرة
423	1. النشاط الصهيوني في صفوف الجماعة: سياق النشأة، أزمة الانتماء والولاء المزدوج ..
444	2. يهود مكناس بين الهجرة وإكراه التهجير وتلاشي خيار الاندماج ..
468	الخاتمة
471	اللائحة البيبليوغرافية
494	فهرس الصور

ملخص الأطروحة

الجماعة اليهودية بمدينة مكناس على عهد الحماية الفرنسية 1912-1956:

بين ديناميتي الترقى والتباعد

إنجاز الطالب: رشيد دوناس

تحت إشراف. ذ: محمد حاتمي

يتعلق الأمر أساسا بإنجاز دراسة تاريخية تتمحور إشكالياتها المركزية حول تتبع ورصد العوامل السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والثقافية، التي أدت منذ أواخر القرن التاسع عشر، مروراً بمرحلة الحماية، إلى إحداث تحولات بنيوية متلاحقة تدريجياً، مست وجود الجماعة اليهودية بمدينة مكناس خلال الفترة الممتدة بين 1912 و 1956.

لقد سعينا، من خلال هذه الأطروحة، إلى تتبع مسلسل التحولات التي دُشنت بالملاح القديم منذ أواخر القرن التاسع عشر، والتي تعززت، أكثر، مع مسلسل التحديث، منذ أن تم تأسيس أول مدرسة عصرية تابعة للرابطة الإسرائيلية بملاح مدينة مكناس سنة 1911. وهو تحديث تم في "هدوء"، وعلى هامش الغالبية المسلمة، التي لم تكن مستوعبة ولا مستفيدة من هذه الدينامية التي هزت وعي الشبيبة اليهودية، والتي ستكون قطب الرحي في قيادة الروح الجديدة التي أصبحت تسري في عقول أجيال متعاقبة من يهود مكناس.

إن الفهم "العميق" للعوامل المتحركة في هذه الدينامية، يفرض على الباحث أن يظل في منأى عن السقوط في استخلاص النتائج السريعة والمتهافئة، التي تتجاهل دور البنيات المتحركة في اختيارات الأفراد والجماعات، سيما إذا كان الأمر يتعلق بالأقليات الدينية الموشومة في ذاكرتها التاريخية بـ "كوجيطو مجروح" ووعي موشوم بهاجس "متلازمة المطرود"، كما هو الشأن بالنسبة للأقلية اليهودية في علاقتها بماضيها، وبناء عليه، سنسعى إلى بيان أن اختيارات هذه الجماعة، خاصة في ظل الوجود الفرنسي، لم تكن اختيارات "إرادية"، بقدر ما كانت نتيجة، وتحصيل حاصل للسياق التاريخي الذي عاشه المغرب منذ القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، والذي تميز بالتخلف وتردي الأوضاع العامة، مما شكل قوة الدفع الأولى لتدشين دينامية التباعد في العلاقة بين يهود مكناس ومكونات المجتمع الأهلي المسلم، وبين اليهود أنفسهم، خصوصاً إذا استحضرن أن الشروط السياسية للمغرب في أوائل القرن العشرين لم تستطع أن ترسخ مبادئ المواطنة خارج قانون الذمة المستوحى من "فقه الشريعة الإسلامية".

إن استنتاج الوثائق والمصادر والمراجع المتاحة، هو ما ساعدنا في فهم المخاض الذي عاشته هذه الجماعة منذ أواخر القرن التاسع عشر، مروراً بما منحهم التعليم العصري من قيم حديثة، وما راكموه من "مكاسب" سوسيو-اقتصادية، ولدت لديهم طموحات أكبر، فضلاً عن أفكار المشروع الخلاصي للحركة الصهيونية، الذي تمكن، بالخصوص بعد الحرب العالمية الثانية، من خلق اضطراب لدى شريحة مهمة من أفراد يهود مكناس، أدى في النهاية إلى استقطاب غالبيتهم، على مراحل، إلى خيار الهجرة، حيث خلق لديهم تطلعات لم تكن لتتحقق بالنسبة للغالبية اليهودية إلا خارج المغرب، البلد الذي ظلوا يعتقدون حتى السنوات الأخيرة من الحماية أنه ما يزال بلداً يحدد هويته بالانتماء للعروبة والإسلام، رغم تطمينات السلطان وقادة الحركة الوطنية إياهم في مستقبل أفضل، تحكمه المساواة في الحقوق الواجبات. هذا ما سعى إلى بسطه وبيانه، في هذه الأطروحة، مع الحرص الشديد على مبدأ الإنصاف والموضوعية حتى لا نسقط في منزلق مسايرة أحكام تروم إبقاء الخلاصات في المنزلة بين المنزلتين بتعبير المعتزلة.

هذه الإشكالية المركزية تنفرع إلى إشكاليات فرعية نلخص أبرزها فيما يلي:

ما هي نتائج انفتاح الجماعة اليهودية على القوى الأوروبية منذ أواخر القرن التاسع عشر؟ وكيف كان موقف أفراد هذه الجماعة من التدخل الفرنسي؟ وكيف كان موقف الفرنسيين منهم؟ وما هو حجم استفادتهم من التعليم العصري، وما هي التحولات التي أدى إليها؟ ثم ما حجم استفادتهم في قطاع الخدمات الاجتماعية، خاصة في مجال السكن والصحة؟ وما طبيعة التحولات التي مست حياتهم الاقتصادية والحرفية/المهنية؟ وما هي خصوصيات تطور الوضع القانوني والإداري لهذه الجماعة؟ وكيف تمكنت من تشكيل مجتمع مدني نشيط ومتضامن؟ وكيف كان وقع قوانين فيشي وحجمها ونتائجها على أفراد هذه الجماعة؟ وما طبيعة مواقفهم من قضية المقاومة والحركة الوطنية ومطلب الاستقلال؟ وكيف تبلور النشاط الصهيوني في صفوف يهود مكناس، وما طبيعة تعاطيهم معه؟ وكيف ساهمت هذه العوامل المتداخلة في تعاطيهم مع خيار الهجرة وإكراه التهجير بعد فشل الخيار الاندماجي؟

وللإجابة عن هذه التساؤلات، أنجزنا دراسة مونوغرافية موضوعاتية، انطلاقاً من الاعتماد على مصادر متنوعة، تتسم بخصوبة في المعطيات وتتقاطع فيها مواقف متعددة ورؤى متباعدة، تصل أحيانا حد التناقض فيما بينها انسجاماً مع خلفيات وتبريرات كل منها، وقد التزمنا بهذا الأمر إدراكاً منا لأهمية تعدد المصادر/الرؤى قصد التمكن من إعداد بحث موضوعي حول الجماعة اليهودية بمكناس ينأى بنفسه عن أي منزلق نحو الذاتية وأحكام القيمة التي تسيء إلى أخلاقيات البحث العلمي وتجعله يتراوح بين خطاطبتين تبسيطيتين: إحداها تحتزل اليهودي في ذلك "المرابي المحتال" وأخرى تقدمه في صورة "اليهودي المضطهد" أو "المعذب في الأرض" بتعبير فانون، والذي يوصم بالبرغماتية وغيرها من الأحكام المسبقة العامة التي تستقي نتائجها من التركيز على الفرد لا على البنيات.

وبناء على الإشكالية المركزية، وما تفرع عنها من أسئلة فرعية: يقع هذا البحث في بابين وستة فصول ، تتبعت خلالها التحولات العامة التي مست حياة الجماعة اليهودية بمدينة مكناس على عهد الحماية 1912-1956، باعتماد منطق زمني كرونولوجي تفسيري، عبر الاختصار على ستة عشر محورا تفاديا لتكسير التصميم بالعديد من التفاصيل التي من شأنها أن تشوش على التسلسل الزمني لتطور الأحداث. يتناول كل واحد من هذه المحاور موضوعا محددا كما هو مبين في التصميم العام.

يتناول الباب الأول تطور الوضع الاجتماعي والاقتصادي للجماعة اليهودية، عبر الانطلاق من البحث وتبني خلفيات تدخل القوى الأوربية بالمغرب خلال القرن التاسع عشر، والتي لم تتوانى عن استثمار واستغلال ورقة الجماعة اليهودية لتوسيع نفوذها بالبلاد كما حصل خلال نفس الفترة في العلاقة مع الإمبراطورية العثمانية، وهو التدخل الذي لم تتردد بعض الفئات اليهودية على غرار بعض المسلمين، في الرهان عليه للحصول على بعض الامتيازات، فضلا عن الاحتماء بتلك القوى من تجاوزات رجالات المخزن خاصة وأن الوضع السياسي للمغرب أواخر القرن التاسع عشر قد شهد ضعفا على المستوى السيادي للمخزن والذي أضعف قدرته على التحكم في الإنسان والمجال معا. وهو المسار الذي توج بفرض الحماية الفرنسية على المغرب، مما أدى إلى تطبيع النخب اليهودية مع هذا الوجود أملا في تحسن أوضاعهم، وكل أملهم أن يتكرر السيناريو الجزائري لسنة 1870، خصوصا وأن المدارس الأولى للرابطة الإسرائيلية كانت قد هيأت النفوس والعقول لهذا الموقف، غير أن مكر التاريخ بلغة هيجل أتى بنتائج أقل من طموحات هذه الجماعة بسبب الحسابات السياسية لإدارة الحماية الفرنسية.

كما خصصنا هذا الباب لرصد واقع التعليم لدى هذه الجماعة، والذي عرف ثورة ثقافية مست ووعي الشبيبة اليهودية التي استفادت مما قدمته لها مدرسة الرابطة بمكناس. وهو واقع أدى إلى إحداث هوة ما بين أفراد نفس الجماعة وبين عموم الغالبية المسلمة، مما نتج عنه تعميق منطق التباعد بين من استفادوا من التعليم العصري ومن لم يسعفهم " الحظ " في ذلك. فضلا عن رصد واقع الصحة المتعلق بأفراد هذه الجماعة، وهو واقع تميز بالتردي خصوصا وأن ظروف العيش والسكن وطرق العلاج التقليدية كانت سيئة جدا، قبل أن يتحسن هذا الواقع نسبيا خلال فترة الحماية بفضل ما تم إحداثه من مرافق صحية بمدينة مكناس بالإضافة إلى الدور الذي قامت به المدرسة ومؤسسة قدماء التلاميذ في مجال التوعية والوقاية، فضلا عن استفادتهم من الأعمال الخيرية الصحية التي اشرف عليها المجتمع المدني اليهودي الذي تعزز تدخله بفضل ما تلقاه من مساعدات خارجية من طرف المنظمات اليهودية العالمية، وهو ما انعكس إيجابيا على مستوى الزيادة الديموغرافية.

كما خصصنا المحور الثالث من الفصل الثاني لدراسة الظروف العامة لسكن اليهود بالملاح القديم، الذي تميز بظروف بئيسة تنعدم فيه أبسط شروط السكن الصحي، وهو الأمر الذي تفاقم نحو الأسوأ مع التزايد الديموغرافي. الأمر الذي

خلق حالة استنفار في صفوف نخب هذه الجماعة التي بذلت كل جهودها من إيجاد حل لهذه المعضلة التي توجت ببناء ملاح جديد، بعدما فشل خيار السكن بالمدينة الأوربية.

وفي ختام هذا الباب تناولنا بالدراسة والتحليل الجانب الاقتصادي للجماعة اليهودية عبر التركيز على التحولات التي عرفها هذا القطاع، والتي خلخلت البنية الاقتصادية التقليدية نسبيا، بحيث ظهرت أنشطة اقتصادية جديدة انضافت للأنشطة الاقتصادية القديمة في مجالي التجارة والحرف/ المهن استجابة للحاجيات الاستهلاكية للجالية الأوروبية المهمة بهذه المدينة، بشكل مكن عددا من العناصر اليهودية من الاستفادة من هذا الوضع، خصوصا في المجال التجاري. وتجدد الإشارة إلى أن منحى الواقع الاقتصادي لهذه الفئة قد عرف طيلة فترة الحماية تذبذبا تراوح بين الصعود والهبوط، بسبب عدم استقرار الوضع الاقتصادي العام للبلاد نتيجة تداخل العوامل الداخلية والخارجية، فضلا عن المنافسة التي كانت قوية من طرف الأوروبيين والمغاربة المسلمين على السواء.

أما الباب الثاني فقد خصصناه عموما لدراسة وتحليل وتفسير منطق دينامية التباعد، الناتج عن عوامل محلية وأخرى خارجية، بين المكونين الأهليين: المسلمون واليهود، وهو ما أسس لمفترق طرق بينهما نتيجة عامل التحديث الذي عرفته الجماعة اليهودية باعتبارها نتيجة محايثة وملازمة للتحولات العامة التي بدأت بوادرها الجينية تظهر منذ تأسيس أول مدرسة تابعة للرابطة الإسرائيلية بالمدينة، وهي الدينامية التي تعززت كذلك بحديث خضوع المغرب للحماية الفرنسية وما أعقب ذلك من ردات فعل المغاربة اليهود تجاه هذا الحدث "صدمة الحماية"، فضلا عن أثر النشاط الصهيوني في صفوفهم. هذه العوامل مجتمعة أدت إلى خلق وتشكل أزمة "الولاء المزدوج".

تناولنا في الفصل الأول من هذا الباب، مسألة تطور الجانب التنظيمي المؤسسي الذي أطر حياة اليهود قانونيا وقضائيا وقياسيا، ذلك أنه رغم تطلع النخب اليهودية العصرية لإحداث تحولات ثورية في هذا المجال، إلا أن الإقامة العامة قد تعاطت بحذر شديد مع هذا المطلب انسجاما مع توازناتها السياسية التي ظلت محكومة بفلسفة السياسية الأهلية، بحيث تأخرت في القيام بأول تعديل حتى سنة 1918. غير أن هذا الأمر لم يحل دون تمكن عناصر الشبيبة اليهودية بمكناس مبكرا نسبيا من إدارة شؤون الجماعة مستغلين بشكل جيد ما منح لهم من هامش في التدبير بمقتضى تلك التعديلات التي أقرتها سلطات الحماية خصوصا تعديلات 1945.

وفي الفصل نفسه، تتبعنا كيف تشكل في صفوف هذه الجماعة مجتمع مدني نشيط ومتضامن كان عموده الفقري أعضاء جمعية قدماء تلاميذ مدرسة الرابطة، فضلا عن فاعلين آخرين من يهود المدينة أنفسهم. ومن الوظائف التي كان يقوم بها هذا المجتمع المدني السهر على تتبع ورصد احتياجات ومشاكل وصعوبات إخوانهم في الدين في مختلف المجالات والميادين، كالتعليم والصحة والسكن والثقافة ومختلف مظاهر العوز... قصد إيجاد حلول لها، ويمكن القول أنهم قد نجحوا في

هذا الرهان إلى حد كبير قياسا مع حجم الانتظارات مقارنة بالإمكانات المتاحة أمامهم. كما خصصنا في نفس السياق ذاته محورا لبيان وتفسير ما طرأ من تحولات بنيوية "عميقة" خاصة في صفوف الشبيبة اليهودية التي استفادت من مضامين تعليمية كانت سببا رئيسيا في تبنيهم قيم حداثة أثرت في وعيهم وطبيعة قيمهم التي تجلت على أكثر من صعيد معيشيا، خصوصا في العلاقة مع المرأة والأسرة ونمط السلوك اليومي، وهو الأمر الذي تمدد كبقعة الزيت في صفوف نسبة معتبرة من أفراد الجماعة اليهودية بمكناس.

وفي الفصل الثاني من نفس الباب، تناولنا مختلف الأسباب والعوامل المتداخلة التي أدت بشكل متلاحق إلى تهيئ المناخ المناسب لاعتناق نسبة معينة من يهود مكناس للمشروع السياسي للحركة الصهيونية، التي استفادت مما تراكم في وجدان/ ذاكرة اليهود من مخلفات ما لحقهم من أحداث عنف متفرقة منذ 1912، فضلا عن استفادة هذه الحركة الصهيونية من فشل المشروع الاندماجي الذي كانت تراهن عليه الرابطة الإسرائيلية العالمية، خصوصا بعد صدمة قوانين فيشي وما أعقب ذلك من شروخ قوية عززتها أحداث كبرى تمثلت بالأساس في صدى الإعلان عن قيام دولة إسرائيل سنة 1948، والقلق الذي رافق اليهود مع قرب استقلال المغرب. كما اعتنى هذا الفصل ببسط تداعيات فرض سلطات الحماية الفرنسية في عهد المقيم العام شارل نوجيس لقوانين فيشي العنصرية وأثرها على يهود مكناس، وهي محنة خلفت في صفوفهم حالة من الرعب والقلق والارتباك، على الرغم من قصر مدة تطبيقها وتعدد مستويات تنزيل مقتضياتها في حقهم، بسبب مراعاة سلطات الحماية للتوازنات السياسية والاقتصادية داخل المغرب، فضلا عن الأثر المعنوي لموقف السلطان محمد بن يوسف الذي لم يتوان في القيام بكل ما من شأنه أن يساهم في تجاوز رعاياه لهذه المحنة بأقل الخسائر الممكنة. هذه القوانين العنصرية سيتم إلغاؤها مباشرة بعد الإنزال الأمريكي بالمغرب وبالضبط خلال شهر مارس من سنة 1943.

كما سعيينا في المحور الثالث من هذا الفصل إلى بيان طبيعة الشروط والعوامل التي تحكمت في بلورة موقف عموم يهود مكناس بالخصوص من قضية مقاومة الاستعمار الفرنسي وسؤال الانضمام إلى الحركة الوطنية ودعم مطلب الاستقلال. وهو موقف اتسم عموما بالسلبية رغم العلاقة الوجدانية القوية التي كانت تربطهم برموز الدولة المغربية خاصة السلطان محمد بن يوسف.

أما بخصوص الفصل الأخير من الباب الثاني، فقد تطرقنا في المحور الأول منه إلى السياق التاريخي لظهور إيديولوجيا الصهيونية السياسية بأوربا، وكيف انتقلت إلى المغرب بشكل عام، ومدينة مكناس بشكل خاص، وكيف تعددت وتطورت مواقف عدد من الفاعلين منها، كما بينا طبيعة الفرق بينها وبين الصهيونية الدينية، مع تتبع مراحل تغلغل الصهيونية السياسية في صفوف يهود مكناس بشكل أدى بالتفاعل مع مجموعة من الأحداث الخارجية والداخلية إلى تطور أزمة الانتماء لديهم. بينما اعتنى المحور الأخير من هذا الفصل برصد كيف استطاعت الدعاية الصهيونية "إقناع" يهود مكناس، تدريجيا، بركوب موجات الهجرة خارج المغرب خصوصا في اتجاه فلسطين بعدما تلاشى أفق الاندماج الذي كانت تروج له

وتدعو إليه الرابطة الإسرائيلية العالمية قبل الحرب العالمية الثانية، مما أدى إلى تصفية التواجد اليهودي بالمدينة خصوصا بعد سنة 1948 وقبيل وبعد استقلال المغرب.